المركز القومى للترجمة

جلبيرى أفلاطون - عبد الله

ثلاثية جلبيرى

1 - حدائق الزمن الماضى
2 - رحلة السجون
3 - من موت لآخر

ترجمة: سهير فهمى - نجاة بلحاتم
ماجدة الريدى

تقديم: أمينة رشيد



2067
سلسلة الإبداع القصصى

ثلاثية جلبيرى

١ - حدائق الزمن الماضى

٢ - رحلة السجون

٣ - من موت لآخر

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2067
- ثلاثية جلبيرى: (١) حدائق الزمن الماضى (٢) رحلة السجون (٣) من موت لآخر
- جلبيرى أفلاطون- عبد الله
- سهير فهمى، ونجاة بلحاتم، وماجدة الريدى
- أمينة رشيد
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:

1- GULPÉRIE

Récit

2- LA BALLADE DES GEOLES

Récit

3- D'UNE MORT A L'AUTRE

Récit

Par: Gulpérie Efflatoun-Abdalla

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

ثلاثية جلبيرى

١ - حدائق الزمن الماضى
٢ - رحلة السجون
٣ - من موت لآخر

تأليف: جلبيرى أفلاطون - عبد الله

ترجمة: سهير فهمى، ونجاة بلحاتم، وماجدة الريدى

تقديم: أمينة رشيد

2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أفلاطون، جلبيرى .
ثلاثية جلبيرى/ تأليف: جلبيرى أفلاطون- عبد الله؛ تقديم: أمينة رشيد؛
ترجمة: سهير فهمى، ونجاة بلحاتم، وماجدة الريدى.
ط ١ – القاهرة: المركز القومى للترجمة؛ ٢٠١٥
المحتويات: حدائق الزمن الماضى- رحلة السجون- من موت لآخر.
٨٢٠ ص؛ ٢٤ سم
١ – القصص العربية
(أ) رشيد، أمينة (مقدمة)
(ب) فهمى، سهير (مترجمة مشاركة)
(جـ) بلحاتم، نجاة (مترجمة مشاركة)
(د) الريدى، ماجدة (مترجمة مشاركة)
(هـ) العنوان ٨١٣

رقم الإيداع ٢٠١١/٢٢١٩٣
الترقيم الدولى 978-977-704-911-5
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم

من سراية شبرا - إلى حب مصر

من هى جلبيرى أفلاطون مؤلفة هذه السيرة الذاتية الجميلة والموجعة؟

بالنسبة لمن لم يكن قد عرفها جيدا، فهى مجرد أخت الفنانة التشكيلية الكبيرة إنجى أفلاطون، وزوجة المناضل والاقتصادى المعروف إسماعيل صبرى عبد الله. ولم يعرف إلا أصدقاؤها الحميميون أنها كانت تكتب بالفرنسية وقد نشر لها نصان فى فرنسا: قصة قصيرة بعنوان "٢١ فبراير" فى مجلة الآداب الفرنسية، وديوان شعر - "أحجار على الطريق" فى ١٩٥٥، تحت اسم "صفية" - عند "سيجرز"، أهم دار نشر للشعر الحديث فى فرنسا.

ومن أين أتى هذان الاسمان غير المألوفين "جلبيرى" و"أفلاطون"؟

لتسمية "أفلاطون" قصة طريفة تقصها الراوية فى أول صفحات الجزء الأول من السيرة (جلبيرى) الذى يظهر فى الترجمة العربية تحت عنوان "حدائق الزمن الماضى" فتقول: إن جد والدها المسمى حسن إسماعيل عبد الله "الكاشف"، قد اخْتِير ضمن المبعوثين المتفوقين الذين أرسلهم محمد على فى بعثة تعليمية إلى فرنسا. وكان نابغة فى جميع فروع الدراسة وخاصة فى الفلسفة؛ مما جعل زملاءه، وحتى أساتذته، يسمونه "أفلاطون"! واستمر هذا الاسم اسم الأسرة فيما بعد.

أما "جلبيرى"، فكان اسم جدة الراوية من أمها التى كانت من أصل تركى/شركسى. وتحكى الراوية فى الجزء الثانى من السيرة (رحلة السجون)،

بأسلوب فكاهى أحيانا، ومليء بالأسى، أحيانا أخرى، كيف جلب لها هذا الاسم الكثير من المضايقات، خاصة فى مكاتب المخابرات والمباحث، حيث كانت تجرى لتطلب بلغتها العربية الفقيرة زيارة أو بعث طرد لزوجها أو لأختها السجينين، فتصطدم بسخرية الضباط فى نطق اسمها: "جلبارى" أو "جلبرى"، أو أى شىء آخر!

بهذا الإرث تتشكل بداية الحياة!

النشأة الأولى فى سراى آل أفلاطون بشبرا، حيث ولدت جلبيرى فى ١٩٢٣، ثم فى الزمالك فى فيلا أسرة الأم، صالحة هانم أفلاطون، مصممة الأزياء المعروفة فى الطبقات العليا المصرية قبل ١٩٥٢. (وكانت ابنة عم زوجها، حسن أفلاطون، عالم الحشرات فى كلية العلوم بجامعة القاهرة)، بعد طلاق الأبوين أولاد العم، وبينهما جلبيرى ذات الأربعة أعوام وإنجى الصغيرة التى لا تتجاوز السنة الواحدة. تعيشان حياة مرحة، مع أطفال الأسرة أو الجيرة، ومن بينهم الممثل جميل راتب الذى سوف تجده فيما بعد جلبيرى (أو "بامبولى" أو "بولى" كما عرفها الأصدقاء والرفاق) دائما مستعدا للوقوف بجانبها بمشاعره الرقيقة فى سنوات الجمر، سنوات اعتقال أختها وزوجها.

حياة الأغنياء السهلة والمرحة نعم. لكن أيضا المليئة بالطقوس والممنوعات، حياة لا تنقصها التناقضات، مثل اكتشاف الفقراء الذين يقتحمون العربات الفاخرة عند الخروج من المسارح والمطاعم الأنيقة لاستقبال القروش التى كانت ترمى لهم. تناقض اللغة الفرنسية، لغة الحديث فى المنزل، مع العربية لغة الناس والشارع. وبصدق مذهل، وهى السمة الأساسية للراوية ولكتابة جلبيرى أفلاطون عامة، تقص كيف تغلبت كل من الأختين على هذه العوائق والعقبات.

وتقرأ فى هذه السيرة صفحات جميلة عن دخول إنجى فى النضال السرى واشتراكها فى المظاهرات ضد الإنجليز فى ميدان الإسماعيلية، التحرير الآن، وتتعلم الرسم مع كامل التلمسانى بعد إعجاب محمود سعيد بلوحاتها الأولى، بينما "بولى" تستكمل عشقها لقراءة الأدب. فى سنوات المد الوطنى تنتمى إنجى إلى الحركة الشيوعية المصرية، بينما لا تختار بولى هذا الاتجاه، إلا عندما عاشت فى فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية، حيث اتساع حركة اليسار، وخاصة اليسار الشيوعى، وتروى تعرفها على الشاعر أراجون وزوجته الروائية إلزا تريوليه التى احتضنتها فى جمعية "الشعراء الشبان" ونشرت لها قصة "٢١ فبراير" والشاعر تريستان تزارا الذى نشر "حجر على الطريق". فرنسا التى تعرفت فيها على إسماعيل صبرى عبد الله، حب حياتها، الذى أصبح لها الزوج والصديق والعاشق، مدى الحياة التى عاشاها معا بمرها وحلوها.

يروى النص جميع هذه التفاصيل. لكنه فى الأساس كتابة فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة، تؤكد مقولة شائعة فى النقد الأدبى المعاصر: إن النص الأدبى يقول ما لا يقوله التاريخ. يروى قصة من صنعوا التاريخ، ومن عانوا منه، ومن تحدثوا عنه فى الشارع أو فى المنازل والملتقيات. وهذا ما كتبته جلبيرى أفلاطون فى ثلاثيتها الرائعة، بصدقها كما قلنا سابقا، لكن أيضا بذكاء وحساسية، بعقل منتبه وقلب منتم، بمعرفة لما يحدث وبتلقائيتها الدائمة.

ثورة ١٩٥٢. بآمالها وإخفاقاتها. أمل إنهاء الفروق الطبقية الرهيبة بين البشر، وظهور سلطات جديدة تمحو بعض مكتسبات المواطن المصرى من هامش للديمقراطية فى العشرات من سنوات النضال. محاكمة الخميس والبكرى، العاملين فى مصنع نسيج كفر الدوار، وتذكر الراوية ما قالته الروائية الفرنسية جورج صاند فى القرن التاسع عشر: لا أومن بثورة تعدم عمالها. ونعلم بما لم يكن عرفه الكثيرون. إن ثلاثة من أعضاء مجلس الثورة صوتوا ضد حكم الإعدام: جمال عبد الناصر، وخالد محيى

الدين، ويوسف صديق، لكنهم كانوا أقلية ونفذ الحكم. تذكر أيضا الراوية كيف أقيل من مناصبهم أساتذة الجامعات الذين طالبوا بعودة الجيش إلى ثكناته واحترام قواعد الديمقراطية والاستماع إلى الرأى الآخر. وتذكر أيضا كيف استقال والدها حسن أفلاطون من كلية العلوم بجامعة القاهرة احتجاجا على تدخل السلطة السياسية فى الشأن الجامعى.

ويستمر سرد الديمقراطية التى يضرب بها عرض الحائط. اعتقال إسماعيل صبرى عبد الله الأول ثم الثانى، اعتقال إنجى أفلاطون. المهانة التى عاشتها الراوية فى التعامل مع مسئولى السجون، ومع المصيلحى نفسه. أكاذيب ومراوغة. إهمال أبسط حقوق الإنسان. عبثية لوائح السجون؛ فالسجين قد يحصل على زيارات وتكون ممنوعة للمعتقل. ويتحول مصير الراوية مع جميع الأسر إلى مصير "من ينتظر"، مع بشاعة هذا "الانتظار"، الملىء بالوعود الزائفة والآمال التى لا تتحقق. وأبشع من هذا كله التعذيب، كما عرفه إسماعيل فى المرة الأولى من ضرب وإطفاء السجائر على ظهره (وسماه زملاؤه بالـ"طفاية" !)، وتحكى الراوية نقل الفضيحة إلى المحكمة عندما عرى المتهم ظهره وعرف ما حدث.

ولا يقف تاريخ الاعتقال والسجن عند هذه التفاصيل الكئيبة، بل تنقلنا الراوية إلى غريزة البقاء لدى السجناء والمعتقلين وحب الحياة الذى تحول إلى إبداعات. تلك الصور التى رسمتها إنجى فى معتقل القناطر، والتى يعتبرها البعض من أجمل إنتاجها الفنى. وتحول الواحات إلى مكان للإنتاج الزراعى، والاستفادة من المهارات الصناعية لصنع راديو أو سخان، حتى الإبداع الفنى. وتذكر الكاتبة بناء مسرح عرض عليه ألفريد فرج نصه المشهور "حلاق بغداد". وهذا يذكرنا بما لا تذكره الكاتبة من بدايات الكتابة الأدبية للمشاهير من كتابنا، صنع الله إبراهيم، وعبد الحكيم قاسم، وغيرهما.

والتاريخ الاجتماعى كما ترويه الكاتبة هو أيضا تاريخ التحولات التى عرفتها مصر الحديثة. تراجع الأرستقراطية القديمة وصعود الأغنياء الجدد، الخوف من

الشعب ومن الديمقراطية، انتشار النزعات الاستهلاكية بجوار تشدد ليس للدين بل لشكلياته، تحالف البيروقراطية ومجتمع العقاب بجميع أدواته. وتدريجيا تحول المجتمع الذى ولد من "الثورة" (ثورة ١٩٥٢) إلى مجتمع تسوده المصالح ويحكمه "أمن الدولة".

تكشف أيضا السيرة الذاتية عن صوت امرأة غاية فى الرهافة والحساسية. تتحدث عن نفسها بصدق ودون افتخار بما تفعله، تعطى من وقتها ومشاعرها بكرم دون شكوى ولا تحاول أبدا استعطاف الآخرين. وتساعدها موهبتها الأدبية على أن تتحدث عن علاقتها الحميمة بزوجها دون أن تخفى لحظات الشك أو الاختلاف أو الخلاف. تعبر بنبل عن التوترات العامة والخاصة التى تهدد صفاء العلاقات الزوجية أو الاجتماعية، دون أن تقضى على ما هو أصيل فى المشاعر والعلاقات. آمنت بقيمة الأخوة والصداقة، عاشت وفية لذكرى موت من أحبتهم: أختها إنجى وأختها الصغيرة غير الشقيقة زهرة، التى ماتت هى وزوجها وابنتهما فى حادث سيارة مروع، وتبنت حسن الابن الذى نجا من الحادث، والذى رعى خالته بولى حتى وفاتها فى يناير ٢٠١١، قبل الثورة بأيام، وشهور قبل نشر ترجمة هذا الكتاب، الذى كانت تنتظره، راغبة فى إعطاء القارئ المصرى ما لم تستطع أن تكتبه فى لغته.

ويبقى الشكر للمترجمات الثلاث الماهرات، سهير فهمى وماجدة الريدى ونجاة بلحاتم، اللاتى فهمن أن هذا الكتاب المكتوب فى الأصل بالفرنسية يتحدث بالعربية عن حب مصر. ولتتأكدن أن ترجمتهن هى أجمل إهداء لذكرى جلبيرى أفلاطون، لبولى المصرية.

أمينة رشيد

الجيزة، نوفمبر ٢٠١١

الجزء الأول

حـــدائق الزمـــن المـــاضى

ترجمة : سهير فهمى

(١)

حدائق الطفولة

-١-

تصطف أمام سلم الفيلا سيارة ليموزين فارهة سوداء غريبة، وغير معروف مصدرها، ويقف رجل أمام باب السيارة المفتوح مرتديا ملابس عجيبة وممسكا فى يده اليمنى كاسكيت أبيض، وهو شديد الاسمرار وطويل جدا. يبدو أنه ينتظركما. هل سيأخذكما إلى نزهة؟ من المحتمل، أو ربما ستسافران، فالجميع مصطف أمام بوابة المنزل الضخمة، بينما ترتدى ماما ومَدموازيل قبعتهما، منذ قليل نادت مامى على مَدموازيل: "هيا يا مدموازيل، حان وقت الرحيل، خذى (دى دى) فى ذراعيك وتعالى". لماذا لا يرتدى بابى طربوشه؟ فى الأمر شيء غير عادى، ولا تستطيعين أن تمنعى نفسك من السؤال: "لماذا لا يأتى بابى معنا؟ "فى يوم آخر يا حبيبتى. فى المرة القادمة"، يجيب بابى وهو يرفعك بين ذراعيه ويحتضنك، ومثل كل مرة يحك شاربه الرفيع خدك، وهو يقبلك. "إلى اللقاء يا بمبولى، إلى لقاء قريب يا حبيبتى. عدينى أن تكونى مؤدبة وأن تسمعى الكلام". تحنين رأسك دون أن تعديه بشيء، وتحرصين ألا تسألى: لماذا يقول والدك إلى اللقاء يا حبيبتى؟ لديك رغبة عارمة فى البكاء؛ ولكنك تتماسكين وتنظرين إلى بابى الذى ينحنى الآن؛ ليقبل أختك: "إلى اللقاء يا دى دى، إلى اللقاء يا حبيبتى" "إلى اللقاء يا مدموازيل". نعم. الآن أنتِ على يقين أن ثمة شيئًا خطيرًا يحدث، تبدو الأشياء غامضة منذ الصباح، ولا تجرى الأمور كعادتها فى كل يوم

بعد وجبة الإفطار، سلمتكما مامى أنتِ وأختك إلى (مريكا) زوجة سائق جدو الباشا، بينما صعدت مدموازيل وإرينى فوق عند ماما. ذهبتِ لتلعبى فى الحديقة مع ديدى الجالسة فى العربة الصغيرة، التى تدفعها (مريكا). من حين إلى آخر، تسمعين صوت مامى العالى النبرات. "لماذا تجلس مامى يا مريكا مع مدموازيل وإرينى؟ " اكتفت (مريكا) برفع كتفيها، وهى تأخذ نفسًا عميقًا، لم تعرف كيف تجيبك، فآثرتِ أن تلعبى مع ديدى، التى كانت تدفع بفيلها اللعبة فى اتجاهك، أخذتِ الفيل وجعلتِه يسير على الكوفرتا الموضوعة على ركبتى أختك الصغيرة، ثم رفعتِه إلى مستوى وجهها، وأخذتِ تزغزغينها بزلومته، مضت ديدى تضحك، وتصفق، وهى سعيدة، ولكنك سئمت اللعبة، وأعطيتها الفيل، وطالبتها باللعب بمفردها، وذهبت إلى الحظيرة غير مكترثة ببكاء أختك. ظلت (مريكا) تهز العربة الصغيرة، وهى تقول: "كفى، كفى" ثم أخذت تدفع العربة فى طرقات الحديقة، يشد انتباهك منظر الدواجن وهى تلتقط الحبوب، أمعنتِ النظر محاولة أن تفاجئى إحداهن وهى تضع بيضة؛ حتى تتأكدى أن الدجاجة المسكينة لا تشعر بألم، كما أكد بابى. لكن لم تذهب أىٌّ منهن إلى البيوت الخشبية. وها هى مريكا تنادى عليك: "تعالى بسرعة يا بمبولى، صالحة هانم تستدعيكِ لأخذ وجبة الغداء". تتحدث مريكا لغة عربية خاصة بها، وتستعين بكلمات فرنسية وإيطالية. أخذتِ تجرين نحو سلم المنزل وأنتِ تزاحمينها وهى مسرعة بعربة ديدى... لم يبقَ لديكِ وقت لغسل يديك، فقد أخذ جدو الباشا ومامى وبابى يدخلون الغرفة، ولم يكن من اللائق الوصول متأخرة، فمشيت وراءهم وأخذتِ مكانك كأن الأمور تسير بشكل طبيعى، ولم تسألك مامى أو مدموازيل التى كانت مشغولة بأختك، إذا كنتِ قد غسلتِ يديك. انسحبت مدموازيل إلى آخر الغرفة؛ لكى تطعم أختك الصغيرة، فليس من حق الصغار الجلوس مع الكبار. جلس الجميع فى هدوء ولم تصدر منك أى حركة حتى تتفادى ملاحظات ماما، وأخذتِ تأكلين ما يقدمه لكِ سليمان وأنت تمضغين الطعام ببطء وفمك مغلق كما علموك. أنت متحفزة لسماع ما يقوله الكبار، ولكن لم ينبث أى منهم ببنت شفة؛ فهم يأكلون فى صمت، لا تسمعين إلا صوت احتكاك الأطباق الصينى. ماذا

حدث؟ لماذا لا يتحدثون كالمعتاد؟ كنتِ تتمنين لو سألك بابى عن نشاطك اليوم، ولكن لا شيء ولا سؤال، وبالطبع لم تتفوهى بكلمة، فالصغيرات لا يتكلمن على مائدة الطعام. يا له من غداء حزين! بعد الحلو والقهوة، اقتربت ماما من جدو: "سأودعك يا عمى قبل أن تصعد لأخذ قسط من الراحة".

أخذت أمى يد جدو لتقبلها، وكالعادة انحنى بشعره الأبيض الجميل المموج وقبَّل أمى: "إلى اللقاء يا صالحة! أراكِ على خير وأتمنى أن تسير الأمور كما ترغبين". وأجابت ماما: "شكرًا يا عمى" واستدارت نحوك: "تعالى يا بمبولى، تعالى قبلى جدك". تنصاعين للأمر وأنتِ فى غاية الدهشة؛ لأنها المرة الأولى التى تقولين إلى اللقاء لجدك، بعد الغداء وقبل القيلولة! كم تبدو الأشياء غريبة، وخارجة عن المألوف. تمسكين اليد المغطاة بالنقط السوداء والعروق النافرة، وتقبلينها كما علمتك مامى، ويسحب جدو يده وهو يضحك، فتظهر تجاعيد صغيرة على أنفه الكبير الذى يلامس خديكِ وهو يقبلكِ: "إلى اللقاء يا صغيرتى بمبولى. إلى اللقاء...".

دون أن يهمس بكلمة لبابى، استدار جدو، واتجه نحو السلم الكبير الرخامى الذى يفضى إلى غرف النوم. فى هذه اللحظة ظهرت مدموازيل مرتدية قبعتها، وديدى بين ذراعيها. تكتشفين أن قبعة ماما موضوعة على المنضدة الرخام فى وسط الصالة. أخذتها ماما وأمام المرآة المعلقة على الحائط الأيسر، وضعتها فوق رأسها، وهى تمشط الخصلات الكستنائية الذهبية التى تتسلل من القبعة، فجأة يقول بابى الذى يبدو وكأنه ينتظركما أمام الباب الرئيسى المفتوح على مصراعيه: "صالحة! وصلت السيارة!"، ولكن لماذا لا يرتدى بابى طربوشه؟! استجابت مامى، واتجهت نحو الباب: "حان وقت الرحيل" الرحيل؟ هل قالت أمى الرحيل؟! ولكن إلى أين؟ ولا يزال بابا عارى الرأس ويبدو غريبا ومرتبكا ومتجهمًا. كل هذا مريب. تنظرين إلى هذا الوجه الحبيب الذى يبتسم إليك بحزن شديد، تبتسمين، تودين لو قبلته مرة أخرى، وتسمعين ماما تقول:

"هيا يا مدموازيل، انزلى واجلسى مع (ديدى) فى السيارة... وأنت أيضا يا بمبولى ولا تنسى أن تقولى صباح الخير لسائق الست نينة..." إذن فهذا الرجل ذو الملابس الغريبة هو السائق... ولكن من عساها أن تكون ست نينة؟ تهبطين الدرج وأنت مختنقة الأنفاس، وتقولين بأدب: "صباح الخير" لهذا الرجل الكبير الأسمر الذى يبتسم لكِ وهو يساعدك على الصعود فى السيارة الضخمة، ويجلسك على مقعد صغير فتحه لكِ... تجلس مدموازيل فى مواجهتك على المقعد، وديدى تنام فى حجرها. لا تعرف أختك الصغيرة أن ثمة أشياء غريبة تحدث. يمسك سائق هذه الست نينة الغامضة الباب الأيمن للسيارة لكِ، وتصعد ماما. بعد أن تجلس مامى على المقعد، على يمين مدموازيل، يغلق السائق الباب الذى يصدر صوتًا حادا، ويستدير حول السيارة ليأخذ مكانه فى المقدمة وتكتشفين أن هناك لوحا من الزجاج مفتوحا قليلاً يعزلك عنه؛ ولكنك مستغرقة فى النظر إلى بابى الذى يقف ووجهه متجهم بدون حركة فى أعلى السلم. تسرى فى جسدك قشعريرة عندما تسمعين والدتك تقول للسائق: "إلى الزمالك، من فضلك". كلمة أخرى غامضة، ويجيب السائق باللغة العربية: "حاضر يا فندم".

يدير فوراً الموتور بينما ترفعين يدك للسلام على بابى وتقولين بصوت عالٍ: "إلى اللقاء يا بابى، إلى اللقاء".

يبتسم بابى الذى سمع جملتك، ويرفع يده اليمنى بعد أن يضع فوقها قبلة يرسلها عبر الهواء. تضحكين وأنتِ تقلدينه بينما السيارة تستدير. لا تظنين أن بابى رآك... ولكنك تستطيعين أن تتابعيه عبر لوح الزجاج الموضوع خلف مدموازيل ومامى. تستمعين إلى أصوات إطارات السيارة فوق الرمال التى تغطى الممر. هذا الممر الجميل الذى تستوى على جانبيه أشجار كثيفة تنحنى وكأنها تقبل بعضها. تستمرين فى النظر إلى والدك الذى يزداد صغراً وهو يقف أمام بيتكم الكبير. هذا البيت الشاسع الذى لم تنته بعد من اكتشاف كل غرفة من أسراره... تسير السيارة متجاوزة

البوابة العالية المفتوحة... على جانبي الممر يقف البوابون، البستاني وابنه، سائق الحنطور بشاربه الأبيض الكثيف، وأخيراً السُّياس. كأنهم ينتظرونكم ويبدو الوجوم على وجوههم. لماذا؟ ينحني الجميع واضعين أيديهم على قلوبهم. حينئذ ترفعين يدك للتحية... تزداد الآن سرعة السيارة بعد أن انعطفت إلى الجهة اليمنى. لا ترين الآن إلا البوابة العالية، التي تكسوها النباتات المتسلقة. لقد علمك بابي أسماء بعض النباتات، مثل الحلوة التي تحبين زهورها الجميلة وهي تأخذ أشكال عناقيد زرقاء بنفسجية ذات رائحة شجية... يظهر لكِ سطوح البيت المقابل وهو بيت أصدقائك.

تصيح والدتك: "كفاك حركة واجلسي في هدوء". لم يعد أمامك إلا النظر إلى جهة اليسار من خلال باب السيارة. تمر أمامك البيوت الكبيرة المحاطة بالأشجار، والبوابات التي تكسوها الخضرة، وأناس يمشون على أرصفة مزروعة بأشجار، وبعض السيارات التي تتجاوزكما أو تتجاوزونها وحناطير تجرها خيول بديعة ودراجات... ها هو حمار أبيض يجر عربة كارو مليئة بأشياء عجيبة لونها وردي، وأخضر... تشرح مدموازيل: "هذا جزر".

تتابع عيناك الحمار الذي يسير. كم هو جميل! لو أن عينيكِ مكحلة بالسواد، مثل هذا الحمار أو مثل النساء الشعبيات! ترفعين رأسك لكي ترى الحمار بطريقة أفضل، ولكن السيارة تسرع بعض الشيء وتدخل في شوارع أكثر ازدحاما، ثم تعبر (كوبري) كبيراً من الحديد، ويظهر لكِ النيل المبهج على جانبيه، وقد شرحت لكِ مدموازيل في أحد الأيام: "هذا نهر". كم هي جميلة مياهه التي تضيء تحت الشمس! ولديكِ متسع من الوقت؛ لتكتشفي (الدهبيات) التي ترسو على الشاطئ... ثم تسير السيارة في شوارع واسعة تحدها بيوت كبيرة، وغيطان.

قالت ماما فجأة: "عندما ترين ست نينة، يا بمبولي لا تنسى الانحناء أمامها بأدب وتقبيل يدها وخصوصاً التزمي الهدوء في حضرتها...".

"من هى ست نينة يا مامى؟"

"هى جدتى" قالت ماما "والدة والدتى اسمها جلبيرى مثلك!" ليس لديكِ متسع من الوقت لتسألى لماذا لا يناديكِ أحد باسم جلبيرى؟... تتوقف السيارة أمام باب مفتوح تكسوه النباتات المتسلقة وتتخلله ورود صغيرة ذات لون بنفسجى، تحيط النباتات البيت الكبير ذا الطابقين والشرفات الكثيرة...

يهرول نحوك سفرجى يرتدى جلباباً لونه بيج، وله حزام عريض يظهر كرشه. يفتح باب السيارة، وتنزل مدموازيل، وديدى بين ذراعيها، ويتبع الجميع مامى. بينما تصعدن سلم الفيلا، تسترعى انتباهك طفلة صغيرة واقفة بين سيدتين مسنتين. هذه الطفلة الجميلة بشعرها الذهبى وعينيها العسليتين، تنظر فى اتجاهك.

"صباح الخير يا عزيزة"، قالتها ماما وهى تصعد السلم، وتصل إلى مدخل البيت. تقبّل عزيزة يد مامى التى بدورها تنحنى نحوها، وتقبلها.

"صباح الخير يا أبلة صالحة"، تجيب عزيزة. ما معنى كلمة "أبلة" هذه؟ تدفعك ماما نحو عزيزة: "قبلى ابنة عمتك يا بمبولى"، وتقبلان بعضكما وأنتما تبتسمان وقد أصبحتما صديقتين، والآن عليكِ أيضاً أن تقدمى التحية لهاتين السيدتين الغريبتين. وتقبل باحترام السيدتان يد والدتك وهما مرتديتان رباط رأس أبيض اللون تتسلل منه بعض الشعيرات البيضاء. تبدو هذه المرأة قبيحة بأنفها الكبير المقوس، الذى تظهر عليه نقطة سوداء! ترتدى رداءً بنفسجيا بأكمام طويلة مع حزام يضاعف كسرات الزى، الذى يلامس حذاءها الأسود. تنظر إليكِ بعينيها الصغيرتين البنيتين وتمد لكِ يدها وهى تبتسم. تبدو "ساحرة" لطيفة وتناديها ماما دادا نينة. تقترب منك السيدة الأخرى المرتدية رباط الرأس الكحلى ذى النقاط البيضاء. يبدو زيها طويلاً أيضًا ولكنه أسود.

وعندما تتحرك تصدر سلسلة المفاتيح المربوطة فى حزامها رنينًا عجيبًا. بالكاد تبتسم إليكِ فوجهها صارم ويدها جافة كأنها مقوسة. "دادا ميرفت"، تعلن ماما التى تتجه إلى داخل المنزل.

"تعالى"، تقول عزيزة بصوت خافت وهى تشير لكِ بيدها: "سأريك الطريق"... تتبعان الكبار حتى تصلا إلى صالة شاسعة تشبه - إلى حد كبير - بيتكما فى شبرا، ولكن فجأة تتراجعين إلى الوراء فى رعب، ففى عمق الصالة، تحت السلم الكبير المصنوع من خشب الأرز، يظهر لكِ نسر ضخم باسطًا جناحيه وكأنه على وشك الإفلات من الركيزة التى يقف عليها وينظر إليكِ بعينين لامعتين فى الظلام. "لا تخافى"، تقول عزيزة وهى تأخذ بيدك: "إنه محنط". تتبعين عزيزة وأنتِ مطمئنة، ولكنك تمعنين النظر إليه. عندما تنفجر ديدى فى البكاء عند رؤية النسر تقولين لابنة عمك: "كم هى غبية!" ثم ترفعين كتفيك باحتقار، "فهى تخاف من كل شىء.. مازالت طفلة". تسيرين على السجاجيد السميكة الجميلة التى تغطى خشب الصالة، وتنظرين إلى نفسك فى المرايا الكبيرة وتتدلى من الأسقف نجفتان من الكريستال تضيئان المكان. "كم هذا جميل!"...

"تعالى يا مدموازيل، تعالوا يا أطفال لتروا غرفكم". تصعدين السلم خلف دادا ميرفت وماما، وبصحبتك عزيزة التى لا زالت ممسكة بيدك، تتبعكما مدموازيل التى تحمل ديدى التى هدأت بعض الشىء. فى الدور الأول توجد صالة كبيرة مغطاة بسجادة تفضى إلى ثلاث غرف.

"هذه غرفتى"، تقول عزيزة فى صوت خافت، وتتبعين بعينيك حركة يدها التى تشير إلى الباب الأول على يمين السلم. "الباب الثانى هو باب غرفة أبلة صالحة"، وتستطرد عزيزة بجدية "والباب الأخير هو باب غرفة بابا" لكن أين والدها؟ تضيف عزيزة: "والغرفة الوحيدة على هذا الجانب الأيسر هى غرفة ست نينة". أين غرفتنا نحن؟ ها هى ماما تتجه نحو باب صغير على يسار السلم، لم تلحظيه من قبل.

"غرفتك فوق"، تهمس عزيزة، وتتبعان والدتكما التى أخذت ممراً ضيقاً يفضى إلى سلم خشبى، تنيره لمبة متدلية من الحائط.

"تشجعا!" تقول ماما وهى تضحك، "لم يبق إلا درج واحد"... أنتِ متعجبة وربما مستمتعة أيضاً بصوت وقع الأحذية على الدرج.

"ها هى غرفتكما"، وتفتح ماما غرفة على اليسار: "هذه غرفة مدموازيل ابتل...". سرير بناموسية، وخزانة ملابس، ومنضدة عليها مرآة، وبالطبع هناك الإناء الممتلئ بالماء فى صحنه البارز، وتتوسط الغرفة منضدة كبيرة مغطاة بقطعة قماش مزركشة ذات ورد كبير أصفر، وحولها مقاعد كثيرة.

"ستأخذين دروسك هنا يا بمبولى"، وتتوجه ماما نحو مدموازيل: "ستأخذين وجباتك معنا فى غرفة الطعام يا مدموازيل، أما بالنسبة لوجبات طعام ديدى فسيأتى أحد سفرجية الجدة إليها، ما زالت صغيرة ولا تستطيع أن تأكل معنا".

فتحت ماما الشرفة على مصراعيها وتكتشف عيناك المبهورتان سطحاً كبيراً. "يمكنكما اللعب هنا، على سجيتكما، عدا الأيام التى ستأتى فيها الغسالة لنشر الغسيل.. هذه غرفة نومكما..." دفعت ماما باباً على يسار غرفة مدموازيل. على اليمين خزانة ملابس كبيرة تكتشفين بجانبها صندوق لعبك، وأريكة مكسوة بقماش أصفر عليه قطط سوداء، وتلاحظين أن ستائر النوافذ مصنوعة من نفس القماش الذى يكسو أيضاً فراشكما، وقد أنزلت عليهما الناموسيات. سعيدة أنتِ لأن السريرين غير ملتصقين وهناك فراش فى جهة اليمين، بينما الآخر موضوع فى جهة اليسار، ويتيح لكِ هذا مساحات شاغرة تستطيعين أن تحتمى فيها بعيداً عن الأنظار وتلعبى على سجيتك. تقولين على الفور: "أختار هذا الفراش. هل أستطيع يا مامى؟" "بالطبع يا حبيبتى"، تقول مامى ضاحكة.

"تعالى، انظرى"، تقول عزيزة التى فتحت إحدى النوافذ، وتقفين على أطراف أصابع قدميك لكى ترى، فعزيزة أكثر طولا منك. "انظرى"، تقول ابنة عمك، "تستطيعين من هنا أن ترى الحديقة والشارع".

تنظرين باحتقار إلى هذا الفضاء الصغير الذى يطلق عليه، اسم حديقة. "حديقة منزلنا أوسع بكثير!".

"نعم مثل حديقة الجدة فى الجيزة، هنا..." تضيف عزيزة "الحديقة صغيرة، ولكنها تجمع البيوت الثلاثة الملتصقة ببيتنا". لم تفهمى معنى الكلام. تتساءلين: كم عدد جدات عزيزة؟ بينما تقول عزيزة ضاحكة "سنزورها معًا".

"اتركى يا عزيزة الآن بنات خالتك؛ لأن مدموازيل ستساعدهما على ارتداء لباسهما لتحية الجدة".

-٢-

ستبدآن إذن حياتكما الجديدة، أنتِ وأختك هنا، فى الزمالك، فى بيت جلبيرى هانم ثابت التى تنادونها بالست نينة، وهى نتاج لأبوين منفصلين. هذا الشعور الغريب بالتوتر الذى أحسست به عندما اكتشفت أن والدكما لا يرتدى الطربوش وأنه لن يوصلكن، هذه الابتسامة الحزينة التى لم تعرفيها من قبل. والدتك ومدموازيل وهى تحمل ديدى وأنت أمام باب بيت أفلاطون، ووالدك واقف لا يعرف كيف يتصرف، ستظل هذه الصورة عالقة فى ذهنك دائما، تفاصيل كثيرة خلفت فى نفسك هذا القلق. كنتِ على وشك أن تتمى الأربع سنوات والنصف بينما ديدى تبلغ من العمر سنة وعدة أشهر. فيما بعد، ستعرفين من خادمات المنزل معنى كلمة (طلاق) التى لم تدركيها من قبل. ستمر سنوات كثيرة قبل أن تقص عليكِ والدتك أنها عندما كانت حاملاً فى أختك، اكتشفت أن والدك يغازل إحدى الخادمات التى خدمن عائلة أفلاطون، لقد جُرحت فى كبريائها- وهى سمة مهمة من شخصيتها- فطلبت على الفور الطلاق. اختفى على الفور حبها الضئيل الذى تكنه لابن عمها- إن كان هناك حبٌّ تجاهه من الأساس- وحاولت بكل وسعها أن تتخلص من الطفل الذى كانت تحمله لكن دون جدوى، وجاءت إنجى إلى الدنيا التى ستطلقين عليها اسم ديدى لفترة طويلة. رأت الطفلة النور فى بيت شبرا، بينما كان والداها على وشك الطلاق. حامت سحب حزينة حول سرير الطفلة الرضيعة مع محاولات الصلح من الثلاثة الكبار من عائلة أفلاطون. كان كل واحد بطريقته يحاول إقناع الشابة صالحة عن العدول عن قرارها، عمتها زهرة هانم، وعمها محمد باشا، ووالدها أحمد بك حاولوا تفادى هذا الطلاق من زوجها ولكن بدون أى جدوى. هزتهم هذه المرأة الشابة التى لم تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها،

والتى كان عدم خبرتها بالحياة وغياب والدتها التى توفيت عندما كانت فى الرابعة من عمرها، من العوامل التى جعلت عنادها يتفاقم وهو ما شكل فيما بعد كل أحداث حياتها.

لكن من هم هؤلاء الأفلاطونيون؟ لماذا هذا الاسم الغريب الذى ينتمى لاسم الفيلسوف أفلاطون، فليس هناك أى صفة مصرية أو حتى تركية فى هذا الاسم!

حسن إسماعيل عبد الله (الكاشف) هو أول من لقب بهذا الاسم وكان ينتمى لهذه الأقلية من الشباب المرتبطين بأواصر نسب مع العائلة المالكة. درس حسن الشاب فى مدرسة أنشأها محمد على باشا بهدف اختيار أفضل الطلبة لإرسالهم فى بعثات إلى فرنسا. تحرى باشا مصر من الأساتذة فى إحدى زياراته للمدرسة عن الأعمال التى يقوم بها الطلبة. ذكر له الأساتذة أسماء بعض الطلبة النابغين ومن بينهم اسم طالب يدعى أفلاطون، وبلغ الأساتذة محمد على باشا أن سبب هذا الاسم الجديد للطالب يعود إلى تفوقه فى جميع المواد وعلى الأخصّ فى الفلسفة. ومن ثم لقب بأفلاطون.

فقال معالى الباشا: "فليحتفظ إذن بهذا الاسم". ومن ثم أصبح حسن أول الأفلاطونيين وأول سعداء الحظ المرشحين للسفر إلى فرنسا! حصل حسن على شهادة فى الهندسة الحربية بعد التحاقه بالمدرسة العليا للمدفعية فى ميدز. قابل حسن عند عودته إلى مصر أحد أصدقائه وهو جنرال شركسى زوجه ابنته الوحيدة جولسن وكانت تصغره بكثير. كانت جولسن تمتلك ثروة كبيرة، فأصبح حسن زوجها والوصى على أموالها.

أنجب أفلاطون باشا من زوجته الشابة أربعة أطفال، وولدت زهرة ومحمد وأحمد بعد الطفل الأول الذى توفى وهو ما زال صغيراً. كان أغلب ثروة الزوجين يتكون من

الأوقاف، ولم يحاول أفلاطون باشا ولا ذريته أن ينموا ثروتهم عندما شغلوا وظائف مهمة فى الدولة، كما صارت العادة فى هذه الفترة، وقد اكتسبت جولسن هانم الحق فى إدارة أملاكها وتقسيمها كيفما تشاء بين الأحفاد؛ ولذا فقد استغلت هذا الحق لتزيد من نصيب ابنتها زهرة. عند وفاة أول الأفلاطونيين تركت أرملة صغيرة فى مواجهة مسؤوليات كبيرة وهى تربية أطفالها الثلاث، وأثبتت جولسن هانم أنها على قدر المسؤولية. كانت امرأة متسلطة وذات بصيرة وباشرت عن كثب تعليم أبنائها، فحصل ابنها الكبير محمد على شهادة الهندسة من إنجلترا، وحصل أحمد على ليسانس الحقوق من مدرسة الحقوق الفرنسية ظل لفترة طويلة الوحيد من عائلة أفلاطون الذى يجيد كتابة لغة وطنه وقراءتها بطلاقة لعدم سفره إلى الخارج! زوجت جولسن هانم ابنتها زهرة لأحد الملاك الزراعيين الأغنياء، وأسكنتها فى بيت أقل سعة، ولكن لا يفصله إلا سور عال عن البيت الواسع الذى تسكنه عائلة أفلاطون. بعد موت جولسن هانم أصبح بيت العائلة الكبير ملكًا لمحمد باشا، بينما امتلك أخوه أحمد بيتين متلاصقين للبيت الكبير، وبتعيين محمد وزيرًا للحربية حصل على لقب باشا، ثم أصبح وزيرًا للاتصالات وأخيرا، وزيرًا للحربية. كان هذا الرجل البسيط ذا ثقافة واسعة فى اللغة الإنجليزية والفرنسية، ولم يكن يستمتع كثيرًا بمهامه الرفيعة التى كان يمارسها على مضض ويتحرر منها كلما أتيحت له الفرصة. كان يحتقر السلطة وضرورتها؛ لأنها كانت تقلل من استقلاليته التى كان يعشقها فوق كل شيء.

ولنلاحظ هنا أن عائلة أفلاطون كانت تتحدث فيما بينها الفرنسية أو التركية، على شاكلة العائلات التركية الشركسية فى هذه الفترة. لم يكن استخدام اللغة العربية بركاكة إلا للتحدث إلى العاملين فى البيت. أسهم المدرسون الخصوصيون والآباء اليسوعيون فى إجادتهم للغة الفرنسية والإنجليزية، وقد أسهمت بالطبع السنوات التى قضاها محمد فى إنجلترا فى معرفته العميقة للغة الإنجليزية. كانت والدتهم جولسن هانم تتحدث بالطبع اللغة التركية والفرنسية، ولكن أيضا اللغة العربية التى تعلمتها من

والدها ولكنها، من قبيل التدلل، كانت تتحدث أغلب الوقت باللغة الفرنسية. لكن زوج ابنتها زهرة لم يكن يتحدث إلا اللغة العربية، فغاب عن ذاكرتها القليل التى كانت تعرفه من اللغة التركية والفرنسية. أما بالنسبة للدين فقد كان يأتى شيخ إلى المنزل ليعلمهم القرآن فى أيام العطلات، ويبدو أن الأولاد قد تناسوا سريعًا هذه الدروس التى أهملوها فى زاوية بعيدة من ذاكرتهم.

لكن القدر لعب لعبته وأضحت زهرة وأخوتها أرامل فى سن صغيرة.

توفت زوجة محمد باشا بسبب حمى نفاسية بعد إنجاب طفل أسمته حسن وفقدت زهرة هانم، التى أصيبت بالعمى بسبب مرض عيون لم يعالج جيداً، زوجها الذى ترك لها ثروة كبيرة وثلاثة أطفال وأصبح أيضًا أحمد أرمل، وكان لديه طفلتان صغيرتان هما صالحة وإنجى. وعندما ولدت صالحة كان يبلغ ابن عمها حسن الخامسة عشرة من عمره.

عاشت زهرة هانم فى بيت شبرا فى عزلة حتى وفاتها وزوجت ابنتها الكبرى من رجل ذى ثراء فاحش. ذهبت لتعيش معه فى قصره فى المنيل وأنجبت منه ستة أطفال، وتزوجت ابنتها الثانية من رجل مطلق من أميرة وقبل لعشقه لزوجته الشابة أن يعيش معها فى بيت حماته العاجزة.

كانت جولسن هانم تتربع على رأس البيت الكبير للأفلاطونيين ومارست لفترة طويلة نشاطها فى إدارة العاملين الكثيرين الذين كانوا يخدمونها ويخدمون أولادها الاثنين وحفيدها وفيما بعد حفيدتها فى هذا المنزل الكبير. كان هذا الجيش من العاملين يتكون من الوصيفات والفراشين وكبار الخدم ورئيسهم والسفرجية وكبار الطباخين ومساعديهم والخادمات الصغيرات النشيطات فى كل المهام، إلى جانب البستانيين وسائقى عربة الخيل وساستهم وفيما بعد سائق السيارة وأخيراً البوابين الثلاثة، وكثيراً ما كان يأتى الخدم الذين بلغوا سن المعاش أو الذين زوجتهم جولسن هانم لزيارتها . كانت جولسن هانم سخية معهم وتلتزم بكل مصاريف علاجهم ومهرهم

عند زواجهم ومصاريف مدارس أولادهم. لم تكن النساء القادمات للزيارة تكتفى بتقبيل أيدى صاحبة النِّعَم ولكنهن تحاولن المساعدة بأى شكل من الأشكال، مثل غسيل الشعر الطويل لإحداهن أو إزالة شعر الإبط والأرجل أو قراءة المستقبل فى فنجان القهوة، وأحيانًا المشاركة فى المواسم عن طريق عمل المربى، ويأتى الجميع أيضًا فى الأعياد، كالعيدين الصغير والكبير مع أولادهم لنيل نصيبهم من الهدايا الفضية وقطع اللحم من الخراف المذبوحة فى الفجر. كان هذا الجمع يأتى أيضًا بنفس الطريقة، للمشاركة عند وفاة أحد أفراد العائلة وذلك للمساهمة فى الطقوس والعادات المرتبطة بالحداد.

لم تكتفِ جولسن هانم باستقبال الخولى الزراعى والمشرف على أراضيها أو بمتابعة الحسابات التى كان يقدمها لها سكرتيرها، ولكنها كانت تسافر عدة مرات إلى بيت المنشية على ضفاف النيل. وكانت تمتطى حصانًا وتذهب لزيارة البساتين ولا تنسى المرور على الزمرونية المزروعة بالقطن والمملوكة لابنها الصغير. فى البداية، كان الفلاحون ينظرون بعين الريبة والازدراء لزيارات هذه المرأة الدخيلة عليهم والأرملة الشابة، ولكن عرفت جولسن هانم كيف تهزم هذه النظرة المتعالية التى كان يتعامل الرجال بها فى بداية القرن للمرأة فى مصر. تعلم الفلاحون كيف يحترمونها ويطيعون أوامرها حتى أصبحوا يحبونها بعد ذلك. كانت تستمع إلى شكواهم وترسى قواعد العدالة وتوزع النصائح والأدوية وأيضًا قطع القماش التى كانت تهديها للنساء مع الحلوى للأطفال.

كانت الزيجات المتتالية لأبنائها الثلاثة قد اكتست كل مظاهر العظمة والأبهة التى تستحقها أرملة حسن باشا الكبير، ولكن وفاة زوجة ابنها فى اليوم الثانى لولادة حفيدها، شكّل ضربة قاسية لها، ولكن ما لبثت الفرحة الهائلة لميلاد هذا الحفيد أن طغت على أجواء الحزن.

اختارت له وصيفة وأحاطته بكل مظاهر الرعاية، واستراح فى البداية محمد باشا لهذه العناية الفائقة التى بذلتها والدته. لكنه بدا قلقا بعد أن كبر ابنه. تحولت هذه الأم التي كانت قاسية جدا معه ومع أخيه، وأصبحت فى غاية الضعف تجاه رغبات حسن، ولم تكن ترفض له أى شيء. بعد تفكير عميق، ومشورة أخته الكبيرة التى كانت امرأة عاقلة وذات خبرة فى شؤون الدنيا، قرر إرسال حسن الصغير إلى مدرسة داخلية فى Vevey. غضبت جولسن هانم منه جدا ولكن الولادات المتتالية لأولاد ابنتها وزواج ابنها أحمد من الجميلة جولسن ثابت، أضفت سعادة على حياتها. كانت الملابس الفخمة التى ارتدتها جولسن أيام العرس مسار إعجاب وطمع كل المجتمع الراقى؛ ولكن أصيبت جولسن ثابت بعد ميلاد ابنتها بسنتين بمرض التيفود الذى أودى بحياتها. فجأة أصبحت صالحة وإنجى يتيمتين، وغير قادرتين على استيعاب الكارثة التى أصابتهما. عمَّ البيت الكبير مظاهر الحداد، مما يعنى وضع الأقمشة السوداء على الأثاث والسجاد والنجف، إلى جانب ارتداء جولسن هانم وابنتها زهرة وكل نساء المنزل بما فيهن بنات المرأة المتوفية، الملابس السوداء. لم تتجاوز صالحة الثالثة من عمرها بينما كانت إنجى فى الثانية! لم يكن أحد فى هذا الوقت قادراً على تخطى هذه التقاليد الكئيبة والهمجية. ذهبت الفتاتان إلى جنازة والدتهما واضطرتا إلى الذهاب إلى المدافن كل خميس حتى حلول الأربعين. فى أجواء هذا الحزن الكبير، سمعت الفتاتان، وبدون أن تفهما، الآيات القرآنية الطويلة التى كان يتلوها الفقهاء وحضرتا توزيع قطع اللحم والفاكهة والشوريك المخبوز خصيصاً لهذه المناسبة.

فى ليلة الأربعين، وبينما كان الجميع مجتمعًا حول الجدة أفلاطون، كما كانوا ينادونها، أعلنت هذه الأخيرة أن صالحة وإنجى ستعفيان بدءا من الغد من ارتداء الملابس السوداء.

بعد انقضاء عام، اجتمعت الجدة أفلاطون مع أولادها الثلاثة لاتخاذ قرار فى نوعية التعليم التى ستمنح للفتاتين اليتيمتين. اتفق الجميع على إدخال الفتاتين مدرسة

الـ (Mère De Dieu) "لمدة سنة أو سنتين" كما أعلنت جولسن هانم وأضافت " فيما بعد سنلجأ إلى المعلمات المتمرسات فى المنزل لإعطاء الثقافة المناسبة للفتاتين". قوبل هذا القرار الحكيم باستحسان، وخصوصًا من قبل أحمد بك الذى أصيب بتعب شديد بسبب فقدان زوجته ولم يكن يعرف كيف يواجه الموقف.

قضت صالحة وإنجى ثلاث سنوات فى الـ (Mère De Dieu) وفى فترة الإجازة الصيفية كانتا تسافران مع خالتهما إلى فيلا زيزينيا الشاسعة التى كانت تطل على بحر الإسكندرية. كانت زهرة هانم قد ورثت هذه الفيلا من زوجها وتسعد باستقبال عائلتها فيها. من الجانب الآخر من الشارع كانت ترتفع فيلا أخرى أكبر، تمتلكها عائلة يهودية من الإسكندرية. منذ زمن بعيد تربط العائلتين أكتون وأفلاطون روابط صداقة، ولهذه العائلة اليهودية ابنة من عمر صالحة وإنجى تدعى سيمون أصبحت صديقتهما وأسعد أوقات الفتيات الثلاث هى التى ينزلن فيها إلى البحر بمرافقة إحدى المربيات. كن يرتدين البرانس والمايوهات وأغطية الرأس المخصصة للبحر، ويستأجرن كبينة فى حمام السّيدات فى كازينو سان ستيفانو الذى كان يتوازى جداره الكبير مع فيلا زهرة هانم ويطل على البحر. فى ذلك الوقت، سان ستيفانو كان له كازينو للقمار، ويعد من أكثر الأماكن أناقة فى المدينة، وكانت تُؤْخَذ وجبتا الغداء والعشاء فيه على أنغام الأوركسترا، وإلى جانب هذا، كانت هناك ليالٍ لحفلات راقصة وأخرى لحفلات تنكرية تسعد الأطفال كثيراً. كل عام وبمناسبة الاحتفال بيوم ١٤ يوليو، كان سعداء الحظ الذين استطاعوا أن يحجزوا مائدة للعشاء فى الوقت المناسب، ينتظرون منتصف الليل للمشاركة فى حفل راقص كبير. بعد آخر دقة للساعة، فى منتصف الليل، تمتلئ السماء بمئات من الورود من الطلقات النارية وكأنها تلتحم مع النجوم. فى مثل هذه الليالى، توقظ المربيات سيمون والأختين لاصطحابهن إلى الشرفة للاستمتاع بالمشهد الذى طالما انتظرنه. المشهد نفسه الذى ستستمتع به فيما بعد بمبولى وديدى.

كانت الستائر السميكة تحجب النساء عن الرجال على شاطئ كازينو سان ستيفانو! بينما كانت سيمون أكتون تذهب كل يوم تقريباً، إلى شاطئ سان ستيفانو، لم يكن الحال كذلك مع صديقتيها، فإن أحمد بك كان يخشى بفظاعة الأمراض المعدية. عندما تظهر على إحدى البنات أعراض برد كان يمنعها من الذهاب والاستحمام فى البحر. كان يراقب صحتهن عن كثب، يأمرهما بارتداء ملابس داخلية من الصوف فى الشتاء والمكوث فى السرير عند أى بادرة تعب، وتقص صالحة هانم لبناتها: "عندما تأتينا الرغبة فى العطس، كنا نمسك أنوفنا كى لا نصدر صوتًا". تلتقى الفتيات الثلاثة، بعد ظهر كل يوم للعب فى الحديقة وكان كثيراً ما ينضم إليهن بعض أولاد عم سيمون أو الأختان، ويخوض الجميع المسابقات المتحمسة فى الكرة، أو يلعبون لعبة الكروكيه الهادئة. بعد انقضاء ثلاث سنوات فى الـ (Mère De Dieu)، واصلت صالحة وإنجى تعليمهما المناسب فى المنزل، والذى سيجعل منهما فتاتين مكتملتين. جاءت مدرسة فرنسية لتعلمهما بعض قواعد النحو والأدب والرياضيات، وكانتا أيضا تتعلمان البيانو الذى لم تكن تستسيغه إلا إنجى الصغيرة. أما بالنسبة للعربى والدين، فكان شيخ محترم يؤهلهما على الخط العربى والقرآن الذى حفظتا منه بعض الآيات، عن ظهر قلب. لم تكن صالحة تحب البيانو، ولكنها كانت تعشق الحياكة والتطريز وتحيك بمهارة شديدة أثواب دميتها وتحصد إعجاب الجميع. فى المساء كانت صالحة وإنجى ترتديان الأثواب النظيفة والمرتبة وتصففان شعورهما قبل الانضمام إلى والدتهما وعمهما فى الصالون الصغير حيث تتربع جدتهما أفلاطون. كانتا تجلسان باستقامة وتستمعان بأدب شديد إلى حديث الكبار، وبعد الانتهاء منه كانت الجدة تستدير نحوهما لتسألهما عن أحداث يومهما. فتسردان بفرحة وبدون خجل وببساطة الأحداث التى مرت بهما وهما تسخران من بعض الناس. كانت الجدة تصغى باهتمام وتضحك مع الأب والعم. فى ذلك الوقت، لم يكن الجميع يعلم أن الجدة أفلاطون كانت قد قررت منذ ولادة صالحة أن تزوجها حسن القريب إلى قلبها. لذلك كانت كثيراً ما تذكر أثناء هذه اللقاءات العائلية اسم حفيدها وكثيراً أيضًا ما تعطى صالحة الخطاب الأخير الذى

وصلها من حفيدها لكى تقرأه على الجميع. تغلق الجدة حينئذ عينيها وتبتسم بفخر عند سماع إنجازات حسن الرياضية وهى تحث حفيدتها هاتفةً على المشاركة: "ها هو ابن عمك يا صالحة أصبح بطلاً! حصل على ميدالية إضافية. ما شاء الله!" تومئ صالحة برأسها دون أن تعرف ماذا يعنى سباقًا للتجديف أو مباراة للهوكى على الجليد.

وعلى النقيض كان محمد باشا يقطب حاجبيه دون أن يبتسم. بالرغم من الخطابات القليلة التى يرسلها له حسن فقد وصله خطاب من مدير المدرسة يعلمه فيه أن ابنه غير مكترث وغير منتظم بدراسته، كما أعلمه أن خلال السنة الأخيرة من دراسة حسن الثانوية، وصله طرد يحتوى على عدد من القطع الذهبية والغرض منها دفع ديونه من لعب القمار. أرسل الباشا المبلغ الذى يحتاجه ابنه لتسوية ديونه، ولكنه كان مستاءً ومرعوباً. أرسل مع هذا الطرد خطاباً شديد اللهجة يعلم ابنه فيه أنها المرة الأخيرة التى سترسل له جدته أى مبلغ من المال، وأنه إذا استمر الوضع على ما هو عليه سيحرمه من المصروف الذى يرسله له. وروى حسن بك- الذى أصبح فيما بعد مسئولا عن بناته: "لم يكن أبى بمثل هذه القسوة قط معى، وقد بلغ خجلى من نفسى قدراً كبيراً لدرجة أننى لم أمسك بورقة كوتشينة فى حياتى بعد ذلك. كنت أعرف تماماً أن والدى رجل حازم، لا رجعة فى قراراته وكنت أخشاه وأحترمه". أثار أفلاطون باشا الذى فهم نوايا والدته انتباهها إلى فارق السن الكبير بين البنت والولد، وخصوصاً أنه يتبقى لابنه شوط طويل للحصول على شهادته وسيقضيه فى إنجلترا. لم تكترث كثيراً جولسن هانم بهذا الحديث، وكانت تردد أن حسن سيحصل فى وقت قريب على شهادته؛ لأنه يتمتع بالذكاء، وأن زواجه من صالحة لن يعطله عن أى شىء. كان أفلاطون باشا معتاداً على شخصية والدته العنيدة، فكان يلتزم الصمت ولكنه كان قلقًا جدا على مستقبل حسن المهنى. زار ابنه أكثر من مرة فى إنجلترا. بعد عمل حسن فى المدرسة الملكية الزراعية فى Gloucester التحق ابنه بـ "South Eastern

kent "Agricultural College Wye" سنة ١٩١٧، حيث كان يرغب فى الحصول على شهادة فى علم الحشرات. كان محمد باشا يعرف عشق ابنه لهذا العلم ورغبته فى تدريسه، ولكنه كان يعرف أيضا أن علم الحشرات لم يكن من المواد التى تدرس فى الكليات المصرية. كان محمد باشا يتحدث عن هذه الدراسة لعائلته وتصغى صالحة لهذا الكلام إصغاءً مبهراً. كانت معجبة بذكاء ابن عمها وحبه للعلوم والموسيقى والرياضة التى تتفاخر بها الجدة: "عشقت والدكم" كما كانت تقول صالحة لبناتها "قبل أن أعرفه". كانت جولسن هانم ترى بعين الرضا تفتُّحَ جمال حفيدتها صالحة، فكان للفتاة عينان جميلتان بلون البندق وأنف رفيع وشعر كستنائى أصفر طويل يصل إلى ركبتيها، بينما كانت إنجى تلقب (بالسوداء) بسبب لون عينيها وشعرها الأسود وميلها للبدانة. كانت هذه الأخيرة تعانى فى صمت من سخرية أولاد أعمامها وتحرم نفسها من الحلوى بينما كانت فساتين دمى صالحة تثير الإعجاب. أتقنت إنجى لعب البيانو، وكان الباشا يصطحبها على آلة الكمان التى كان يجيد لعبها بمهارة. بسبب تشجيع والدهما– ولم يكونا يريانه كثيراً بسبب سفره المتواصل ولمدد طويلة فى فرنسا منذ ترمله– كانت صالحة وإنجى تقرآن كثيراً.

أصبحت الفتاتان على عتبات المراهقة ومتحررتين من اهتمام والدهما المغالى على صحتهما، بدأت جولسن هانم تعانى من مشاكل صحية. وبما أنها أصبحت لا تقوى على إدارة المنزل، فقد أعطت مسؤوليات متزايدة لحفيدتها صالحة؛ لكى تقود هذا الجيش من الخدم. بحس غريزى، كانت الجدة تنمى النزعة المتسلطة لدى حفيدتها وتغزى فيها ميلها للغرور الكامن بداخلها وذلك بتشجيعها والإثناء عليها. ببطء وبدون أن يلاحظ الرجال هذا التغير، تحولت مقادير الأمور من يد إلى يد أخرى. فى كل الأحوال، فإن الحالة الصحية المتردية لجولسن هانم كانت تقلق العائلة، وقد أحضر لها أولادها أفضل الاختصاصيين لعلاجها، ولم يجد أى علاج فى تحسنها. فى الوقت ذاته، حصل حسن فى إنجلترا على شهادات فى الزراعة وعلم الحشرات، وكان على

وشك أن يأخذ إجازة قبل عودته إلى مصر، حيث كانت العائلة تنتظره بصحبة ابنة عمه التى تتحدث الجدة عن مميزاتها، مشيرة إليها على أنها خطيبته! لكن التلغراف الذى أرسله له والده وهو يحثه فيه على العودة فى أقصى سرعة إلى مصر، وضع نهاية لخطّته.

فى شبرا، عندما أحست جولسن هانم أن النهاية وشيكة جاءت بصالحة على سرير المرض: "ها هو خطيبك قد نجح فى امتحاناته بتفوق". ثم أخذت يدها: عدينى يا صالحة ألا تطول فترة الخطوبة وأتمنى من كل قلبى أن أراكما فى بيت الزوجية فى أقرب وقت... نعم، قبل أن ينادينى الله إلى جانبه... هذا حلمى منذ زمن بعيد وإذا وقع قضاء الله وتركتكما قبل زواجك، فأنا أرجوكِ ألا تنتظرى الأربعين. لا أريد حدادا! فكل هذه العادات لا طائل من ورائها. ارتدِ ثوبك الأبيض وتزوجى فى اليوم الذى ستختارينه عندما يصل حسن. كونى مطمئنة يا حبيبتى، فقد أبلغت والدك وعمك برغبتى الأخيرة".

استُقبل حسن بالزغاريد فى البيت الذى ولد فيه حسن، والذى لم يره من أجل بعيد وفقًا لأوامر جولسن هانم التى كانت فرحة بعودة حسن وأرادت بهذا فض سحابة الحزن التى خيمت على البيت منذ مرضها. انتظر الباشا وابنتا أخيه على آخر الدرج المرمرى. عانق الأب ابنه، بينما سلمت الفتاتان على حسن بابتسامة خجولة، وقد وقع حسن فى حب صالحة منذ اللحظة الأولى، كما اعترف فيما بعد. كانت الفتاة التى ارتدت فى هذا اليوم ثوبًا بنى اللون أضفى جمالاً على مظهرها وشعرها المرفوع على هيئة شنيون، تتفحص هذا القادم وتحاول أن تعقد مقارنة بينه وبين الصورة التى كونتها عنه عبر الصور الفوتوغرافية وأقوال جدتها. صعد حسن السلم بسرعة وراء والده وابنتى عمه وقلبه ملىء بالفرحة التى غمرته بسبب اكتشافه الجديد المبهر.

وعد حسن جولسن هانم على فراش المرض أن ينفذ كل رغباتها... فقد كان الألم يعتصره وهو يرى هذا الوجه الشاحب والهالات السوداء الواسعة حول العيون الكبيرة،

واليد التى كانت تحاول أن تشد على يده بكل قواها المتهالكة ويزداد شعوره الخفى بأن هناك شيئًا ما مؤسفًا سوف يحدث. ركع حسن على ركبتيه بجانب الأريكة التى كانت جولسن هانم تتمدد عليها، وقد حاولت هذه المرأة المريضة أن تعتنى بمظهرها بكل قواها. أحس أن قلبه يعتصر أمام هذه المرأة التى يحبها بشدة والتى كانت له بديلاً عن الأم التى لم يعرفها. كان متماسكًا بصعوبة وحاول عدم البكاء. فجأة أحس بيد والده يضغط على كتفه: "طمئنها " قال برفق محمد باشا: "قل لها: إننا سنقرأ فاتحة خطوبتك على صالحة أمامها الآن".

استدعى الباشا أخاه على الفور وأرسل رسالة لأخته، ولم تنقضِ نصف الساعة على إتمام خطوبة صالحة أفلاطون على ابن عمها حسن أفلاطون وفى اتفاق جماعى بين العروسين والأهل، أُعلن أمام الجدة التى تحتضر أن الزواج سيتم بعد عشرة أيام. اختارت صالحة جهازها فى عجالة بصحبة أختها إنجى وصديقتهما سيمون الموجودة فى القاهرة صدفةً واستُدعيت أفضل متخصصة فى حياكة أثواب الفرح فى مصر إلى منزل العروسين لتعد فستان الفرح، وقد اختارت صالحة شكل الثوب وتابعت عن كثب حياكته.

مع هذا، ورغم جهود الأطباء الكبيرة وعناية الأولاد الفائقة والفرحة العظيمة التى ملأت جولسن هانم لم تستطع البقاء على قيد الحياة لحضور عرس أحفادها. توفت قبل العرس بثلاثة أيام! باختفاء الجدة أفلاطون حدث فراغ كبير فى البيت الشاسع، وبكاها الجميع– العائلة والعاملون فى المنزل والفلاحون فى أرضها. تركت جولسن هانم ذكرى عطرة تناولتها الأجيال المتعاقبة وحتى الآن لا يزال أحفاد الأحفاد الذين يأتون إلى المنشية يستمعون إلى أحاديث كالأساطير عن هذه السيدة العظيمة.

وَفْقَ العرف والعادات، ذهبت العائلة والأقارب لوداع مَنْ ستلقب دائمًا بحب وحنان بالجدة أفلاطون إلى مثواها الأخير. قام جزء من العاملين الذين لم يذهبوا إلى المقابر بإعداد البيت لمراسم الحداد. عند العودة من المدافن، وجدت عائلة أفلاطون

البيت وقد اكتسى بالسواد فى كل ركن من الأركان، الأرائك والنجف والسجاد. وكذلك اكتسى السواد منزل زهرة. دخل محمد باشا وأحمد بك إلى غرفة الطعام ذات الحوائط السوداء فى هدوء، وقد تعودا على هذه العادات التى يعرفونها جيداً بينما حسن الذى لم يشترك فى حداد من قبل قد أذهله ما يحدث، وحاول أن يستعلم من صالحة التى كانت تقف بجانبه. لكنها وجهت له- وقد أنهكها البكاء- نظرة غاضبة: "هذه عادات قديمة ولكن لا تقلق يا حسن، تعال لنأكل. بعد الغداء سأزيل كل هذا. من غير المعقول أن نخضع لهذه المسرحية الدرامية" وأضافت وهى تدخل إلى غرفة الطعام: "لقد وعدت جدتنا. زواجنا سيتم فى موعده الخميس القادم كما اتفق". لهجة صالحة الصارمة أجلست حسن إلى المائدة صامتاً، متشككاً وغير مصدق، فهو لم يكن يعرف ابنة عمه جيداً. همست إنجى، وهى تجفف وجهها بمنديل، فى أذنه: "لا تقلق... ثق فيها". حاول حسن أن يأكل بصعوبة وهو منهك لفراق هذه الجدة التى كان يعرف جيداً أنه حفيدها المفضل وهو ينتظر أن تحرره هذه الفتاة الصغيرة، كما وعدته من هذا الكابوس الذى يحيط بهم.

"أظن يا والدى وأنت أيضا يا عمى" - وكان صوت صالحة قد ارتفع قليلاً وطغى على صوت احتكاك الأطباق على المائدة - "أظن أنكما لا تقبلان هذه المظاهر البدائية للحداد". كادت لهجة صالحة الآمرة أن تشلهما وتوقف صوت احتكاك السكاكين والشوك، وظل الرجلان ينظران باستغراب إلى هذا الوجه الجميل ذى النظرة الرصينة: "أريد أن أذكركما أننى مخطوبة، وأننا قد وعدنا الجدة أننا لن نؤجل تحت أى ظرف من الظروف تاريخ الزواج الخميس المقبل، لذا، بعد إذنكما، سأبدأ على الفور فى إزالة كل هذا. من المستحيل أن نتزوج فى قلب السواد".

لم يمنع حسن نفسه من الابتسامة وهو يتنفس الصعداء: "سترى العجب العجاب"، همست له إنجي الصغيرة الجالسة على يساره، بينما عاد الأخوان إلى غدائهما فى صمت من جديد. بعد الغداء، وضع محمد باشا يده على كتف ابنة أخته

وقال بصوت مسموع للآخرين: "أنتِ الآن سيدة هذا المنزل ولكِ أن تتصرفى كما تشائين. كانت جدتك تثق فيكِ". خرجت، على الأرجح، صالحة فى هذا اليوم من شرنقة المراهقة وستبرهن تكرارا لكل العائلة أنها الوريثة الحقيقية لجدتها وأنها سيدة هذا المنزل بلا منازع.

بينما جلس الباشا فى غرفة المكتب الكبيرة التى لم يجرؤ أحد على الدخول فيها لتغطيتها بالسواد، قامت صالحة بثورتها الصغيرة بينما جميع العاملين فى المنزل فى ذهول وقد جمعتهم لتملى عليهم قراراتها.

أحضرت السلم لنزع القماش الموسلين الأسود الذى كان يكسو الستائر والنجف الكريستال والأوبالين الرائع.

ثم انتزعت المسامير من الأقمشة السوداء الكبيرة التى كانت تغطى السجاجيد. استعاد البيت الواسع فى المساء نفسه وجهه المعتاد. "بل فعلت ما هو أكثر من هذا"– كما قصت صالحة على بناتها فيما بعد–: "عندما اكتشفت اتساخ رخام الصالة والصالونات، أعدت تنظيف السجاد قبل طيه وجئت بالعمال لجلى الرخام، وقد صار الرخام ناصع البياض وجميلاً، ووضعت فوقه سجاداً عجميا مهملاً فى غرف غير مستعملة. تبدلت الصالة الكبيرة، وأضحت قطع الأثاث ذات القيمة العالية أكثر جمالاً... والدكما كان فى غاية السعادة أما بالنسبة لوالدى وعمى فلم يتفوها بشىء، ولكن بدا عليهما الرضا بسبب هذه التغيرات...".

لكن إذا بدا رجال العائلة فى حالة رضا لهذه التغيرات، فلم يكن الحال كذلك بالنسبة للنساء. غضبٌ اجتاح العمة زهرة وكل سكان الحى بسبب الثورة الصغيرة التى قامت بها الشابة صالحة، وانزعاج من سماح أخويها وابن أخيها بهذا التصرف. فأرسلت العمة ابنها إليهم. صعق الشاب ولم يستطع أن يرمش بطرف عينه أمام هذه التغيرات الجذرية التى حدثت فى البيت الذى لم ير من مظاهر الحداد فيه غير نساء مرتديات السواد. لم يعرف الشاب كيف يتصرف فى حضور أعمامه.

فقد أبلغهم انتقادات زهرة هانم المريرة: "والدتى" كما أعلن الشاب بصوت هادئ "والدتى فى غاية الانزعاج من موقف صالحة، وهى أيضا غير راضية عن قبولكما لهذا التصرف". لكن النظرة الساخرة التى رآها فى عيون خَالَيْه اللذين كانا ينتظران نهاية الرسالة، منعته من الاسترسال والقول بأن والدته تعتبر أخويها عديمى الشخصية، خصوصًا وأنه كان يضمر إعجابًا حقيقيا لما فعلته ابنة خاله.

ثم أضاف، بدون اقتناع يذكر: "تذكركم والدتى أنكما أنتما الرجلان وأنه كان عليكما أن تمنعاها من إزاحة الكساء الأسود. لم تفكرا لحظة فى كلام الناس!" هذه الاتهامات لم تكن فى مكانها المناسب؛ لأن الثورة التى قامت بها صالحة كان مرحبًا بها، بالإضافة أنه لم ينشغل قط أىٌّ من الرجال الثلاثة بكلام الناس. كان حسن يشارك والده وعمه عشقهما للاستقلال ولن يتوقف ثلاثتهم عن الدفاع عن هذه القيمة طيلة حياتهم؛ ولذا كانوا يزدرون بالقيل والقال. ورث أولادهم هذه الصفة عنهم- فيما بعد- كما سنرى.

لقد تم زواج صالحة وابن عمها حسن فى الموعد المحدد، ولكن بسبب ظروف الحداد اقتصر عدد المدعوين على بعض الأقرباء، أولاد العم، وأولاد الخال والصديقات المقربات من صالحة وإنجى. قدم الشاى فى صالة الوسط مع تورتة الزواج الكبير. لم يدخل المدعوون بالطبع إلى الغرفة إلا بعد سماع الزغاريد التى أعلنت أن الزواج قد تم. ولا ننسى أن نضيف أن فضيحة كبيرة قد حدثت. فإنه بناءً على رغبة صالحة وإنجى، ارتدت جميع الشابات المدعوات من قبل الأختين الملابس الملونة: "لا تأتين مرتديات السواد".

ارتدت العروس رباط الرأس التركى التقليدى وهو من قماش الموسلين الأبيض والذى يضم كسرات الطرحة الكبيرة وثوبًا من قماش التفتا الأبيض يصل طوله حتى كعبها وفقًا لموضة هذا الزمان. كانت العروسة تبدو فى أزهى صورها من أناقة وعذوبة.

أخذ حسن المغرم بزوجته الصغيرة أسبوعًا إجازة فى الإسكندرية. ولكنه اتفق أن شهر العسل الحقيقى سيكون فى فصل الصيف فى فرنسا، وشرح حسن - الذى كان مهمومًا بمهنته ومستقبله العلمى- لوالده وعمه وصالحة أنه كان يبحث عن وظيفة لا تبعده عن حقل معارفه العلمية. فقد كان يحلم بالبحث العلمى والتدريس ولم يكن يريد الاعتماد، بأى حال من الأحوال، على ميراثه، مثل أبناء الباشاوات. وافقت صالحة التى كانت تبدى إعجابًا كبيرًا بخطيبها على اقتراحه الذى يوفر لها إمكانية السفر إلى أوروبا!

لم ينتظر حسن طويلاً. عُرِضَ عليه وظيفة مدرس علم حيوان فى مدرسة الطب؛ إذ لم تكن كليات العلوم والزراعة قد أنشئت بعد. قبل حسن هذا العرض بدون تردد، وكان يتمنى أن تكون هذه الوظيفة هى المرحلة الأولى التى ستوصله إلى الهدف الذى كان يضعه صوب عينيه. كانت المحاضرات تدرس باللغة الإنجليزية التى كان يتقنها حسن على الوجه الأكمل، ولكنه أيقن سريعًا أن عليه أن يتقن اللغة بدون اللكنة الإنجليزية مما يجعله موضع سخرية الطلبة ولا تمكنه من التواصل مع هؤلاء الطلبة المصريين والمتمرسين بالعربية إلا مع فئة ضئيلة منهم. أخذ حسن يتعلم العربية بجانب محاضراته، وبفضل روح الدعابة التى كانت من سماته استطاع أن يتجاوز الابتسامات والنظرات الساخرة التى كان يراها أحيانًا فى أعين الطلبة، وما لبث أن وقع الطلبة فى أسر السحر المتأصل فى هذا الرجل الذى كان يقضى وقتًا طويلاً معهم بعد المحاضرات للاستماع إليهم وشرح المستعصى عليهم. هكذا توطدت علاقات الاحترام والإعجاب بين الطلبة والأستاذ (الخواجة) الذى كان ينقل لهم عشق العلم.

لكن حسن لم يكن راضيًا عن هذا النجاح فى محاضراته والشعبية التى اكتسبها فى مدرسة الطب؛ لأن عشقه لعلم الحشرات لم يكن مرتويًا بعد؛ لذا كان يمضى ساعات طويلة فى العمل على مجموعة حشراته بمساعدة زوجته. اختار حسن غرفة واسعة فى الطابق الأول بها ثلاث شرفات كبيرة تطل على ممر طويل محفوف

بالأشجار. اختارا معًا طاولة للعمل وفوتيات وكراسى من الطراز الإنجليزى، مثلها مثل مكتب الباشا وكان هناك حائط بأكمله تكسوه أرفف للكتب أتى بها حسن من إنجلترا وخزانة كبيرة بواجهة زجاجية ملتصقة بالحائط المواجه اختارها الزوجان بدقة وتريث، وهى ممتلئة بمجموعة ثرية من الحشرات التى جلبها حسن من إنجلترا. دعا حسن رسميا الجميع، والده، وعمه، وزوجته وأخت زوجته لرؤية هذه المجموعة الجميلة والتى أبدوا إعجابهم بها وأعلن بعد هذا: "منذ اليوم سأبدأ فى ملاحقة الحشرات المصرية".

كانت صالحة تحاول أن تضع نفسها فى خدمة مصالح زوجها، وقد أكسبتها السنوات الثلاث التى قضتها فى الـ (Mère De Dieu) والدروس الخصوصية التى تلقتها على أيدى مدموازيل ميزونيفر بعض المعلومات العامة. فإنها كانت على يقين بأن للاقتراب من هذا الرجل الجاد جدا والتى تعجب به، عليها أن تهتم بالحشرات! تعلمت بفضل ذاكرتها القوية بعض أسماء الذباب النادر باللغة اللاتينية، وكانت تذهب مع زوجها إلى الصحراء فى رحلات لعدة أيام مع أصدقاء يشاركون حسن عشقه للعلم. كانوا يسافرون فى عدة سيارات وتتعقبهم سيارة– أو سيارتا– نقل مليئة بالمياه العذبة والمؤن والخيام والغطاء. أحيانًا كانت بعض الزوجات الأخريات يأتين أيضًا ويشاركن صالحة الرحلة. يستيقظ الرجال مبكرا ويأخذون إفطارهم على عجل، ثم يذهبون للبحث عن الحشرات. وأما حسن فكان يبحث عن نوع من الذباب لم يُكتشف بعد. كان لدى كل واحد منهم حقيبة صغيرة بداخلها برطمانات فارغة وسكاكين. يتسلح حسن بشباك الفراشات ويبدأ فى البحث. ثم يقص أحداث يومه على زوجته، وفيما بعد على جلبيرى التى كان يحلم أن تصير باحثة فى الحشرات أو على الأقل عالمة فى النبات.

لم يمر وقت طويل حتى اكتشف الزوجان أن لهما وجهات نظر متعارضة فى الطريقة التى يريان بها حياتهما. أحست صالحة التى ما زالت صغيرة جدا، بإحباط لم تجرؤ أن تعترف به لنفسها. كانت امرأة مليئة بالحياة والفرحة، تعايش رجلا

جادا بنى حياته بطريقة منظمة، يكتسح فيها البحث العلمى المكانة الأولى. كانت ترى أن حياتها كئيبة؛ لأن زوجها غير مهتم بحفلاتها المتألقة، حيث كان الجميع يرقص حتى الصباح. كتمت صالحة شعورها بخيبة الأمل خاصة بعد أن عرفت أنها حامل وظل حسن يحدثها عن رحلة شهر العسل وعن مواعيد السفر والعودة وعن المدن التى سوف يزورونها والمطاعم التى سيتذوقون فيها الأكلات الخاصة لكل بلد. شغل كل هذا المرأة التى ستصبح أما، عن مشاكلها مع زوجها وعن ميلها للحياة الاجتماعية. صحبتها برجل ملىء بالحنان والاهتمام بها وزيارتها لفينيسيا وفلورنسا وروما وأخيراً لباريس بمتاحفها ومسارحها وأحسن مطاعم العاصمة، ملأها فرحة وسعادة.

متى ظهر العُطب الأول؟ هل ظهر عند ولادة طفلتهما الأولى، وهما الكائنان المختلفان جدا عن بعضهما البعض؟ هل ستزداد هذه الهوة فى الاتساع حتى تودى بهما للانفصال؟

"ما الاسم الذى سنطلقه عليها؟" سألت صالحة وهى تهدهد رضيعتها ذات الخدود الممتلئة والشعر الأسود. أُحبط حسن بعض الشىء؛ لأنه رزق ببنتٍ واقترح اسم والدته التى لم تعرفها. أجاب بهدوء: "ذكية".

"يا للفظاعة " صرخت صالحة بحدة: "هذا اسم عربى وعلاوة على ذلك فهو شائع". فابتسم حسن لهذه اللعبة التى كانت تتحرك فى فراشها، بينما اقترحت صالحة بطريقة لا رجعة فيها: "سنطلق عليها اسم جلبيرى مثل الجدة ثابت". ورغم عدم إعجاب حسن بهذا الاسم فلم يُظهر استياءه. كان يحاول أن يتفادى النقاش مع زوجته الشابة التى كان يعرف عنادها الذى لا حدود له. لم يتوقف أحد منهما للحظة على مساوئ هذا الاسم التركى الذى كان يفقد عند نطقه بالعربية موسيقاه الناعمة والرصينة، خاصة أن ال u وال p وg لا وجود لهما فى لغة بلادهما.

فقدت صالحة شهيتها للأكل لعدة شهور، وأصبحت نحيفة جدا، ولكن أنجبت طفلة فى صحة جيدة ودائمة الابتسام؛ مما أثار دهشة العائلة بأكملها. صعق الجميع عندما أصرت صالحة على رضاعة جلبيرى الصغيرة بنفسها، والاستغناء عن أى مرضعة. اختارت صالحة وصيفة سويسرية لتعتنى بطفلتها، ووقعت جميع الخادمات اليونانيات والإيطاليات فى غرام هذه الطفلة الممتلئة الخدين والمبتسمة دومًا. من التى ألقت عليها اسم بمبولى، وهى تهدهدها فى يوم إجازة الوصيفة؟ وهو اسم ملائم جدا لهذه الطفلة وأسهل بالطبع فى النطق من جلبيرى، لذا استخدمه بتلقائية جميع أهل البيت والأم! حرصت صالحة ألا تتغيب كثيراً خارج المنزل حتى بلوغ بمبولى عامها الأول. كان الزوجان يصطحبان ابنتهما فى زيارات للخالة زهرة ولبعض الأصدقاء. يذهبان فى السيارة البلكار التى اشتراها حسن عند عودته إلى القاهرة. أثناء هذه الجولات كانت صالحة تضع شريطًا حول قبعتها القشية الكبيرة وتربطه تحت ذقنها لحماية شعرها من البرد، ولم تعد تذهب مع زوجها إلى الصحراء حتى تعتنى ببمبولى. تراخت ببطء وبطريق غير مباشر الروابط التى كانت تربط هذين الكائنين المختلفين. ازدادت ساعات عمل حسن فى المنزل بعد أن أنشأت كلية الزراعة قسمًا خاصًا للحشرات. عُين حسن نائبًا لمدير هذا القسم الذى كان يرأسه إنجليزى، وكان سعيداً بهذه الخطوة الجديدة فى حياته المهنية، ورغم قضائه بعض الساعات فى زيارة للأهل أو فى التنزه فى ضواحى العاصمة، فإنه كان يتحاشى الحفلات الاجتماعية التى تنجذب لها صالحة. مما أحبط هذه الشابة التى تصورت أنها تحررت من "الفرامانات" الكثيرة التى كان يفرضها عليها والدها، ورغم فرحتها العميقة بابنتها التى كانت مثار إعجاب الجميع لم تكن تقبل ما كانت تسميه بعزلتها، واستمرت المناقشات الحادة مع زوجها، تلومه لرتابته ويثير غليلها، بدون جدوى.

"منذ عودتنا من أوروبا كان حسن يخطط للرحلة القادمة هناك" كما حكت لابنتيها وهى تضيف: "كان يضع خطة محكمة للرحلة، ويختار سلفًا المطعم المناسب وفقًا

لاختصاصاته. لم يكن يترك شيئًا للمتعة أو للمصادفة، ولم نكن نستطيع إطالة إقامتنا في مكان مـا لأنه يروق لنا. كل هذا كـان يثـير جنونى! ويفـقـدنـى هذا كل رغـبـة فى السفر!".

كانت إنجى تحاول أن تُعَقّل أختها الكبيرة وهى أقل شغفًا بالحفلات الاجتماعية عنها وغير مسموح لها بالذهاب إلى حفلة راقصة إلا بصحبة أحد أفراد العائلة. كان الذهاب إلى هذه الحفلات، وهو حدث نادر، يسعد إنجى رغم عودتها إلى المنزل متعبة لأنها كانت تثير غيرة الفتيات الأخريات، وقد أصبحت جميلة جدا بقوامهـا المشوق مما أثار دهشة جميع أفراد العائلة. كان شعرها الشديد السواد يحيط وجههـا المستطيل البرونزى ذا الأنف الصغـير والمسـتقيم والعينـين السوداوين اللامعتين مثل الجواهر برموشـهما الطويلة، وعند ظهـورها فـى أى مكان تتجه جميع الأنظار إليها واعتُبرت من أجمل فتيات القاهرة. فرحت إنجى جدا بقدوم جلبيرى، الشهيرة ببمبولى، وكانت تلعب الساعات الطوال مع ابنة أختها. أطلقت عليها بمبولى التى لم تكن تعرف الكلام بعد اسم تاتى، وكذلك ستطلق على أختها الصغيرة فيما بعد اسم ديدى.

كان الخطّاب يأتون من كل مكان إلى بيت شبرا لخطبة إنجى، هذه الفتاة الجميلة وكان أحمد بك حريصًا على أن يأخذ رأى ابنته عند كل عريس يتقدم لها. كانت إنجى ترفضهم جميعًا بدون أسباب مقنعة! لكن عندما تقدم عثمان صبرى اختارته إنجى وسط دهشة الجميع. عثمان صبرى رجل غنى، لطيف وحساس لكنه لم يكن وسيمًا. لم تكن أختها، التى لم تخف عنها سرا، تفهم، ولا أبوها ولا عمها أسباب هذا الاختيار. بعد إعلان الخطوبة، قررت صالحة إقامة فرح كبير لإنجى على عكس فرحها البسيط بسبب ظروف موت الجدة أفلاطون. بعد موافقة الأب والعم، دعت صالحة ما يقرب من مائتى شخص وجاءت بأفضل أوركسترا فى القاهرة. بعد عقد القران والعشاء الفخم،

بدأ الحفل الراقص. وبما أن عثمان لا يجيد الرقص، افتتح حسن الحفل مع إنجى. قليل من المدعوين كانوا يعرفون مهارة حسن فى الرقص. انحنى حسن بابتسامة ساحرة أمام العروس بينما زوجته صالحة تنظر إليه متعجبة ولحن بسعادة غامرة.

فى اليوم الثانى، سافر العروسان لقضاء شهر العسل فى تركيا، وعند سفرهما قبّلت إنجى أختها الكبيرة شاكرة مجهودها، وطلبت منها أن تكون أكثر صبراً على (حسن المسكين).

لكن الهوة ازدادت اتساعًا كل يوم بين حسن وزوجته. ازدادت المناقشات الضارية بينهما وتحولت إلى شجار يبعدهما. كان حسن ينهى هذا النوع من الشجار، وهو فى غاية الحنق، بالانسحاب إلى مكتبه بعد دفع الباب بقوة خلفه. لم يعد أحدهما يتنازل للآخر وخاصة صالحة التى لم يكن لديها إمكانية الاحتمال. لذلك عندما اكتشفت أن زوجها يغازل خادمة لم تستطع أن تعقل نفسها وتشددت وطلبت على الفور الطلاق. رغم حملها للمرة الثانية، لم تمتثل لتوسلات والدها وعمها وعمتها زهرة، ونبذت بقوة كل محاولات الصلح التى بذلها حسن. أخيراً وتحت ضغط الكبار، وافقت صالحة على التسوية التى اقترحوها عليها، بينما حاولت بشتى الطرق التخلص من جنينها. ولدت الابنة الثانية التى أطلقت عليها اسم إنجى فى جو صاخب. كانت ترضعها بنفسها كما فعلت مع أختها الكبيرة وتنتظر بفتور كما وعدت- عائلتها- شهر أغسطس الذى ستمضيه بصحبة حسن فى فرنسا، حيث ستصطحب معها ابنتيها ومربيتهما، ورغم تقبلها بزهو تعيين حسن رئيساً لقسم الحشرات، لم تتقرب منه. كان كبرياؤها كبيراً وقد أهانها سلوك حسن. كان هذا الرجل، الذى تبغى الانفصال عنه، ابن عمها فى كل الأحوال وتحترم فيه حبه للبحث العلمى وذكاءه. كان يشرف عائلة أفلاطون، ولكن هذا لم يكن كافيًا لاستعادة علاقات الحنو والحب التى كانت تربطهما من قبل، إن وجدت بالفعل.

منذ عودتهم إلى القاهرة، فهم جميع عائلة أفلاطون، بما فيهم إنجى وعثمان صبرى العائدان من شهر العسل، أن التقارب المأمول بين الزوجين لم يحدث. دارت حينئذ نقاشات طويلة بين أحمد بك وابنته وبين العم الباشا وابنة أخيه ومع العمة زهرة. طلبت إنجى أيضًا من أختها أن تغفر لزوجها من أجل بناتها. قبل الجميع بهذا العناد الذى ليس له حدود، والتى تتميز به صالحة. انتقلت المناقشات فيما بعد حول المكان الذى ستسكن فيه صالحة التى قررت ترك منزل العائلة. "ولكنه بيتك أيضًا" هتف الباشا وهو فى حالة هلع: "أنتِ التى تديرين هذا المنزل. هل فكرتِ فى أحوالى؟ ماذا سيلم بى إذا تركتنى وحدى فى هذا البيت الكبير؟ يقضى أحمد وقت طويل فى أوروبا بينما إنجى وعثمان يقطنان فى حى المعادى. فكرى بتروٍ يا صالحة. أنا على استعداد لطرد حسن". أعلن حسن عن نيته فى الإقامة فى المعادى حتى يتسنى لصالحة وبنتيها البقاء مع والده فى شبرا.

أضيف إلى هذا أن الجدة "ثابت" علمت بخبر طلاق حفيدتها فأرسلت للباشا وأخيها تقول لهما: "كيف هذا؟ كيف تقيم صالحة فى البيت نفسه الذى يقيم فيه زوجها السابق؟ هذه فضيحة. فلتقم معى. المكان يتسع لها ولابنتيها".

لم يستطع الأخوة أفلاطون إقناع المرأة العجوز أن تعدل عن عرضها وقد قبل هذا العرض على مسامع حفيدتها التى قبلته! هل فكرت هذه الأخيرة فى عواقب قرار من هذا النوع؟ كيف تسنّى لها التنازل بهذه السهولة عن السلطات التى تمارسها على العاملين الكثيرين الذين يخدمون فى هذا البيت الكبير والذى ولدت فيه هى وأختها؟ هذه السلطات التى ستفقدها عند الجدة التى لم تعد شابة والعليلة الصحة والتى ورثت عنها حبها للسيطرة. هل دفعت إلى الظل هذه المشاعر العميقة التى تكنها لوالدها وعمها؟ هذا العم الذى سيصبح وحيداً وخاصة أن أخاه يعيش أغلب الوقت فى فرنسا. لم تتصور صالحة برهة أنها من الممكن أن تندم على هذا القرار المتسرع وتركت إلى الأبد بيت العائلة. بدون ندم!

"ست نينة تنتظركن" تقول والدتك من أسفل السلم. تلاحظين أن مدموازيل وقفت تنظر إلى نفسها فى المرآة المعلقة فوق الكومودينو وتعيد ترتيب شعرها الرمادى وهى تقول لكِ: "هيا يا بمبولى، سأتبعكما أنتِ وأختك. أسرعى فقد أوصتنى والدتكما ألا نجعل جدتكما تنتظر طويلا". تنصاعين لكلامها وتهبطين بحذر درجات السلم الضيق. لماذا قالت ممزيل جدتك؟ كانت ماما قد شرحت لكِ أن ست نينة تدعى جلبيرى مثلك وأنها جدتها هى... أى والدة والدتها. أنتِ ليس لديك جدة. يُحدث كعب ممزيل- التى تحمل ديدى- صوتًا على الدرج الخشبى. ها هى مامى تنتظركن أمام باب نصفه مفتوح: "ادخلن، لا تنسَىْ أن تنحنى يا بمبولى". تدخلين الغرفة وتجدين سيدة عجوزًا تجلس على مقعد كبير وترتدى فستانًا أخضر فاتحًا وأطرافه تصل إلى حذائها الذى لم يعد ظاهرًا منه إلا القليل وترتدى أيضًا نظارات طبية لونها أزرق ولها إطار ذهبى. تبدو التجاعيد فى وجهها، مثل كبار السن وها هى تبتسم لكِ. تنحنين وتتقدمين نحوها فتمد يدها ذات البقع السمراء والعروق النافرة. تهزين رأسك وتقولين: "صباح الخير يا ست نينة" وتقبلين يدها فتقترب بدورها من وجهك لتقبلك، ثم تشير بيدها اليسرى التى يلمع فى إصبعها خاتم له حجر أحمر إلى مقعد فتجلسين عليه بصعوبة؛ لأن ساقيك قصيرتان ولا تستطيعين ملامسة الأرض. ثم تتجه نحو ديدى التى تحملها ممزيل وتقبلها بشوق وهى فاتحة لها ذراعيها ثم تقول لممزيل: "صباح الخير يا آنسة، تفضلى بالجلوس". تتوجه بعد ذلك نحو والدتك وتلاحظين حينئذ الشريط الأسود الغريب الذى يحيط برقبتها. ألا يضايقها؟ لماذا لا ترتدى عقدا؟ لم تعد تهتم ست نينة بكما وتتحدث بالتركية إلى ماما. شىء مدهش للغاية، فماما جالسة باستقامة شديدة على كرسيها لا تضع ساقًا على الأخرى وهى أيضًا لا تدخن. فجأة تنظر إليكِ وتقطب حاجبيها لأنك تحركين ساقيك فتتوقفين عن الحركة بصعوبة. تشعرين بالسأم. فى هذه اللحظة تأخذ ست نينة شيئًا ما من على المنضدة المنخفضة وتقول لكِ: "تعالى، خذى". تنطلقين سعيدة لأنك تركت هذا المكان غير المريح. تمسك ست نينة بعلبة صغيرة وجميلة ذات غطاء يكسوه الورد وتقول بلغة فرنسية غريبة: "خذى ملبِّسًا لذيذًا جدا". العلبة الصغيرة

مليئة بالملبِّس من كل الألوان وبالغ الصغر. تأخذين بعضًا منه وتقولين: "ميرسى ست نينة"..

تتفحصك النظرة الزرقاء خلف الزجاج الأزرق وتبتسم: "ماذا تنتظرين؟ تذوقيها" تأخذين ملبسة ثم أخرى وتجدينها لذيذة الطعم جدا ومسكرة. لكن فجأة تشعرين بمذاق غريب فى فمك؛ فالسكر الذى ذاب ترك بقايا خشب. تنزعجين، ولديك رغبة قوية فى لفظ بالملبِّس من فمك، ولكن أين ستفعلين هذا؟ فهو شىء غير لائق ولحسن الحظ بدأت ديدى فى البكاء ووقفت ماما: "تعالين يا بنات وودعا ست نينة قبل الذهاب إلى غرفكما". تضعين العمدان الخشبية تحت لسانك وأنتِ تتقدمين من ست نينة لتقبيل يدها: "إلى اللقاء يا ست نينة" وبعد الانحناء، تذهبين بسرعة وراء مدموازيل التى سلمت بدورها على ست نينة وخرجت مع ديدى. تلفظين على الفور العمدان الصغيرة أمام عزيزة التى تنتظركما فى البهو وتضحك بصوت مسموع وهى تدرك سبب هذه الحركة: "لم تستسيغى ملبس الينسون، أليس كذلك؟... هذا ملبس صغير بالينسون مغلف بالسكر. أنا أستحلب السكر ثم أمضغ الينسون...".

من هى إذن هذه الست نينة؟

كانت ست نينة أو جلبيرى أرملة صالح باشا ثابت ووالدة جولسن ومحمد. تزوجت جولسن من أحمد أفلاطون وأنجبت منه صالحة وإنجى بينما تزوج محمد من ابنة أميرة وأنجب منها ثلاثة أطفال: صالح وعزيزة وفايت. انفصل الزوجان بعد زواج صاخب واحتفظت الأم بالأطفال وأرسلتهم إلى مدرسة داخلية عند الآباء اليسوعيين. عاد محمد للعيش مع والدته جلبيرى وبصحبته ابنته عزيزة. كانت الطفلة الصغيرة مرتبطة بإحدى الكلفات(*) وبكت بكاءً مريرًا وطلبت من جدتها حضور دادا نينة معها، والتى كانت تعبد

(*) الكلفات: عاملات فى المنزل كن جاريات فى الماضى.

عزيزة ورافقتها عند جدتها لأبيها. كانت تنام مع عزيزة فى غرفتها وتعتنى بها وتترك لها العنان لتفعل ما تشاء. فى أيام الآحاد، كان صالح وفايت الصغير المصاب بشلل الأطفال يمضيان اليوم فى الزمالك لرؤية الست نينة ووالدهما وبالطبع عزيزة ذات السبع سنوات. كان هناك فراغ ثقيل تعيشه عزيزة فى الزمالك ملأه حضور بمبولى وديدى. اكتشفت صالحة سريعا أن ابنة خالها الصغيرة، غير منضبطة على الإطلاق وتفعل ما تشاء بدادا نينة ذات الأنف المقوس. بعد استشارة جدتها، أدخلت الطفلة الصغيرة فى برنامج العمل واللعب الذى تتبعه بناتها.

-٣-

كان عليكِ فى الصباح الأول الذى قضيته فى بيت الزمالك أن تدرسى مع مدموازيل مع أنك ترغبين بشدة الذهاب إلى عزيزة التى ستصطحبك إلى الحديقة.

"هل أستطيع يا مدموازيل النزول إلى الحديقة مع عزيزة؟" تبتسم مدموازيل وهى كاشفة عن أسنانها الصفراء القبيحة: "ولم لا؟ انتظرى يا بمبولى حتى نأخذ أختك أيضًا". تحبطين لأنك كنتِ ترغبين فى الذهاب بمفردك مع عزيزة، تقول لكِ عزيزة بصوت منخفض عند رؤية مدموازيل وديدى فى البهو الكبير: "كان يجب أن تأتى بمفردك!" فترفعين أكتافك: "لم أستطع". تبتسم دادا نينة ابتسامة كبيرة وهى جالسة فى فوتيل منشغلة بالتريكو. تطلبين من عزيزة أن تستأذن دادا نينة قبل الذهاب إلى الحديقة، ولكنها تصيح ضاحكة: "بالطبع لا! هيا تعالى ورائى".

ما تسميه عزيزة بالحديقة ليس إلا شريطًا ضيقًا مزروعًا بالورد على جانبيه، وفى آخره بوابة كبيرة من الحديد، تكسوها الجهنمية ذات الورد البنفسجى. تتبعين عزيزة التى تصطحبك إلى سلم آخر يفضى إلى سطح كما هو الحال عند ست نينة.

"هذا هو بيت آل راتب" تقول عزيزة. تتجاوزان السلم وتتقدمان، وفجأة تتسع الحديقة وتجدان أنفسكما أمام مربع كبير من الرمل الأصفر وُضع عليه حلقتان وأرجوحات عليها ثلاثة صبية يتأرجحون بمهارات متفاوتة عندما يرونكما يبدؤون فى المباهاة.

"انظر يا دجهان كير" يقول أحدهم وهو ممسكٌ بالسلاسل: "أستطيع أن أدور". وتهمسين فى أذن عزيزة: "يلعبون دور الأبطال أمامنا".

"أنتما جئتما حديثًا هنا؟". تنظرين إلى مدموازيل وأنتِ غير مصدقة لهذه الوقاحة؛ لأن ماما قد نبهت عليكِ عدم التحدث إلى شخص لا تعرفينه، لكن بادرت عزيزة بالقول: "نحن جيرانكم". وتمسك بسرعةٍ بحبل الأرجوحة، وتصعد عليها وتبدأ فى التأرجح وهى واقفة، تضحك ديدى من كل قلبها، وتصفق وهى تحاول أن تجرى على ساقيها الصغيرتين، ولكن تلحق بها مدموازيل، وتشدها من زراعها وهى تصيح لعزيزة: "هذه قدوة سيئة. توقفى، حان وقت الغداء". تضحك عزيزة وتهبط من الأرجوحة وهى تقول ناظرة للأولاد: "سنعود وسترون ما نستطيع أن نفعله". تبكى ديدى لأنها لا تريد أن ترحل، وتضطر مدموازيل أن تحملها، تتبعان مدموازيل وأنتما فى حالة من الخجل؛ لأنكما مضطرتان للمثول للأوامر أمام الأولاد الذين يسخرون منكما. ستفتح مدموازيل على مائدة الغداء موضوع الأولاد الثلاثة، فتعلق ماما: "إنهم أولاد عائلة راتب وهم أولاد صديق لى. لقد توفيت والدتهم منذ بضعة شهور، يمكنكما أن تلعبا معهم يا بنات لأنهم صبية من عائلة محترمة". تتبادل عزيزة وأنتِ الابتسامة وأنتما سعيدتان ومتواطئتان، تلاحظين أنكِ جالسة فى مواجهة ست نينة، وهو شىء غير مريح على الإطلاق وخاصة أن عينيها وقعت عليكِ أكثر من مرة من وراء نظارتها الزرقاء.

لا تحبين هذه الغرفة الشاسعة وبوفيهاتها العالية والداكنة ذات المقابض التى تأخذ أشكال الشياطين والجنيات، وقد أجلسوكِ على خددية لأن المائدة مرتفعة بالنسبة لكِ. هذا يغيظك كثيراً، ولكن أفظع ما فى الموضوع هو هذا العدد الهائل من الصحون التى تمر أمامك، والتى يجب أن تأكلى منها جميعا. كانت ماما قد أوصتك أن تأخذى ملعقة واحدة فقط من كل صنف؛ حتى لا تتركى شيئًا فى صحنك... تبدو الأشياء وكأن لا نهاية لها، لمن هذا المقعد الشاغر فى مواجهة مقعد ست نينة، والذى وضعت أمامه كل هذه الصحون؟ فجأة: يدوى صوت عالٍ لرجل. وهو ضخم، وكتفاه عريضتان. يدور

بسلاسة حول المائدة حتى يصل إلى الست نينة التى يقبل يدها اليسرى وهو يقول: "اعذرينى يا والدتى لكن لو تعرفين...!" كم هو وسيم! يضحك، ويجلس فى المكان الشاغر، ويأخذ قطعة لحم من الصحن الذى يقدمه السفرجى." نهارك سعيد يا صالحة، كم هو جميل أن تكونى معنا، كنت أتمنى المجىء مبكرًا ولكن كان لدى مشاغل فى وسط المدينة". ينظر حوله: "ها هى بمبولى الصغيرة التى ستلعب مع عزيزة". تتوقف لثوان أمام العيون العسلية لهذا الرجل الذى هو بالقطع والد عزيزة، لا يكترث كثيرًا بابنته؛ ولكنه خفيف الظل، ويضحك باستمرار. يضفى وجوده بعض البهجة على هذا الغداء الثقيل، ثم يتحدث مع والدته ووالدتك باللغة التركية، عزيزة هى الوحيدة التى تستطيع أن تفهم... وأخيرًا تنهض ست نينة بعد أن قدمت أطباق الحلوى. "هيا يا أطفال، اصعدا إلى غرفتكما للقيلولة. سنأخذ قهوتنا فى الصالون".

يجب أن تطيعى ماما ومدموازيل. "مع السلامة" تقولين لعزيزة: "إلى اللقاء". لماذا عزيزة غير مضطرة أن تذهب للقيلولة؟... ستحاولين أن تسألى ماما.

لم تنامى، ولكنك أمضيت هذا الوقت فى الشرفة. كان هذا مسليًا. رأيتِ ولدين يلعبان الكرة، ولأحدهما اسم غريب! ثم جاءت مدموازيل لتصفف لكِ شعرك: "تستدعيكما والدتكما لرؤية جدتكما" "مرة أخرى!" كنتِ ترغبين فى اللعب! ومن جديد ستنحنين وتقبلين اليد وتأكلين الملبِّس باليانسون!

كانت الست نينة، ومامى، وأنكل محمد، وعزيزة فى الصالون، توجد أيضًا طاولة متحركة عليها فناجين شاى وجاتوهات صغيرة فى صحن. تقدم مامى الشاى، ويرفعك أونكل محمد ويضع قبلة على كل وجنة من وجنتيك: "كم هى جميلة وممتلئة وجنتاكِ يا بمبولى!" يقرص وجنتك اليمنى ثم يضيف وكأنه يود أن تسامحيه لأنه تكلم عن وجنتك: "تعالى يا صغيرتى، خذى قطعة جاتوه". تأخذين قطعة إكلير بالشوكولاتة، ثم تجلسين بصعوبة على المقعد نفسه الذى جلستِ عليه بالأمس، تأكلين باستمتاع الإكلير، وتنظرين إلى عزيزة التى تشير لكِ بيدها بالانتظار. كم هذا ممل! ماما، وأنكل

محمد، وست نينة، يتحدثون باللغة التركية ولا أحد يضع ساقًا على الأخرى أو يدخن. فجأة يقف أنكل محمد وكأنه ضاق به الحال: "يجب أن أذهب؛ لآخذ حمامًا، وأبدل ملابسي" ينحني على والدته ويقبلها، ثم يقبل يديها ويهمس في أذن ماما بالفرنسية وهو يمر من جانبها: "اجهزي في الساعة الثامنة وتجملي!" بعد عشر دقائق تفعل ماما الشيء نفسه، ولكن هذه المرة تنظر إليك: "هيا يا أطفال اذهبا إلى الحديقة قبل هبوط الليل".

تدور جلسات الشاي هذه على المنوال نفسه كل يوم. لم تدرك المرأة العجوز أن هذه الجلسات تعتبر واجبًا ثقيلاً بالنسبة للكبار والصغار وبدون أن تطلب، كان زوارها يمتنعون عن وضع ساق على الأخرى أو التدخين في صحبتها، كما كان الحال عند جدو الباشا. كانت ست نينة تعيش في برج من العاج، ولا تعلم شيئا مما يدور في المنزل كما ستحكي لكِ والدتك فيما بعد. هل كانت تعرف أن ابنها، خريج الحقوق لم يكن يعمل؟ وأنه يقضي وقته في لعب القمار، والسهر كل ليلة حتى الفجر ويصطحب معه وهو سعيد صالحة الأنيقة والساحرة إلى حفلاته. لم تعترف لكِ والدتك قط أنها كانت تجد في هذا الشاب الوسيم ذي السحر الكبير، فارس أحلامها وكانت تتمتع بالذهاب معه إلى الكوكتيلات وحفلات العشاء والحفلات الراقصة. صالحة أيضًا كانت تعود إلى المنزل في الساعات الأولى من الصباح، وكانت إيريني توقظها لتأخذ بسرعة فنجانًا من الشاي وتستعد للنزول في الساعة الثانية بالضبط لأخذ وجبة الغداء مع جدتها التي كانوا يخفون عنها كل شيء بما في ذلك المرض.

لا تتذكرين بوضوح هذا اليوم الذي أخرجت فيه مدموازيل منديلها وعطست، فقالت على التو الجدة لحفيدتها بلغتها الفرنسية العجيبة: "يا صالحة عليكِ أن تبلغي هذه الكائنة التي تربي بناتك ألا تعطس على مائدة الغداء... أبدًا" ومن ثم اضطرت المسكينة مدموازيل "أبتيل" التي تعاني من الزكام أن تأكل مع ديدي في غرفتها في الدور العلوي! عندما كان محمد يمرض - أو عزيزة - أو أي فرد آخر، كانت تخترع دادا ميرفت حكاية تتقبلها ست نينة بصفاء غريب. كانت تتقبل أي شيء من ابنها الذي

كانت تعبده ولكن هل كانت تصدقه؟ لم يحدث قط أنك رأيتِ أنكل محمد يأتى فى ميعاده على الرغم من أن والدته كانت صارمة فى مسألة المواعيد، كان يسرد بعض الأكاذيب التى تجعلها تبتسم، وكان يصل أحيانًا إلى مائدة الغداء، أثناء تقديم أطباق الحلوى؛ لأنه قد أفاق لتوه من النوم! لم يكن يهتم بابنته أو بأولاده الذين كانوا يأتون يوم الأحد، يتفوه فقط ببعض كلمات المجاملة وهو يضحك أثناء الغداء.

-٤-

كان الأخوة الثلاثة يجلسون على سور السطوح الصغير، وعندما رأوكن اقتربوا منكن: "مساء الخير يا آنسات" قالها الأكبر سنا: "أقدم نفسى" تذهلك هذه الطريقة الرسمية فى الكلام: "اسمى دجيهان كيز راتب، وعمرى سبع سنوات ونصف".

"وأنا عمرى ست سنوات وشهران، واسمى برهان راتب".

"وأنا عندى أربع سنوات وشهر" قالها الأخ الصغير بصوته الرفيع: "واسمى شهريار كما فى ألف ليلة وليلة".

"أسماؤكم غريبة جداً" قالت عزيزة وهى تضحك.

أرجو ألا يشعروا بالحرج! ثم أضافت سريعًا: "اسمى عزيزة ثابت" وتضيفين: "وأنا بمبولى أفلاطون وسأبلغ الخامسة فى يناير وستأتون جميعكم إلى حفلة عيد ميلادى، وأختى الصغيرة اسمها إنجى، ولكننا نناديها ديدى وستبلغ عامين فى أبريل...".

"نسيت أن أقول لكم: إن عمرى سبع سنوات" قالت عزيزة وهى تتحدث عن إخوتها الذين سيأتون بالقطع يوم الأحد. بعد هذا التعارف تحدث الصبية عن مربياتهم وهم يضحكون ملء أفواههم من المقالب الرهيبة التى اخترعوها لهن؛ حتى يتركن المنزل: "لا توجد واحدة قادرة على تحملنا "يعلن بفخر دجيهان كير "نريهن جميع ألوان الطيف، ولا يعرف بابى المسكين ماذا يفعل، وأنتن؟" ينتظرون إجابتكما، وتشعرين

بالخجل لأنك لا تستطيعين أن تعلنى أن والدتك صارمة جدا، وأن عليكِ أن تطيعى مدموازيل ولا يمكن التخلص منها أبداً.

"والدك أيضًا صارم جدا؟" يكتسى وجهك حمرة وأنت تجيبين: "بابا لا يسكن معنا، ولكنه أيضًا يريد منا أن نطيع مدموازيل"... "وأنت يا عزيزة؟" تجيب عزيزة بزهو: "أنا ليس لدى مربية، أنا عندى دادا نينة التى تتركنى أفعل ما أريد، ولا أرى بابا كثيراً". تريدين أن تسأليها عن والدتها ولكن ثمة شيئًا يمنعك. لا تتحدث أبداً عن والدتها، وهذا غريب. على كُلٍّ، بدأ الصبية حديثا آخر يشغلكما أنتما الاثنتان. فأصدقاؤكما الجدد يذهبون كثيراً إلى السينما، وقد شاهدوا فيلمًا للممثلة الكبيرة "كلارا بو". رائع! يذهبون إلى السينما مع خالتهم، أو بمفردهم مع السائق عندما لا يكون لديه عمل مع والدهم.

"استعدا فى الثالثة والنصف سوف يأتى والدكما ليأخذكما للخروج معه" تقول ماما. تقفزين من السعادة وأنتِ على وشك أن تسكبى فنجان الشاى الذى تمسكه والدتك. "ولكن انتبهى ستسكبين الشاى على الملاءات" تصيح ماما وهى تبتسم: "ستكونان مهذبتين، أليس كذلك؟ سوف يأخذكما فى نزهة. هيا بسرعة، لقد اقتربت الساعة من الثانية عشرة ظهراً. يجب أن أنهض، أرسلى إلى إيرينى"... تسرعين إلى إيرينى حيث تنتظر استدعاء والدتك وأنتِ فرحة لرؤية والدك، تستيقظ ماما متأخرة جدا منذ مجيئكن عند ست نينة. تخرج كثيراً بالنسبة لأيام شبرا، مع صديقات ولكن على الأخص مع أنكل محمد الذى يبدو أنيقًا جدا بالبذلة السموكينج.

فى كل مساء، قبل أن تخرج، تصعد ماما إلى الدور العلوى لتتأكد أنكما أخذتما وجبة العشاء. كثيراً ما ترتدى رداء طويلاً وجديداً. يُحدث حفيف الحرير صوتًا عندما تسير. كم هى جميلة بقرطيها اللامعين، وكم رائحتها زكية! تضع قبلة رقيقة على جبينكما وأنتِ تستنشقين باستمتاع رائحتها، تتمنين أن تصبحى جميلة مثلها عندما تكبرين، ولكن لديك هاتين الوجنتين المنتفختين كالكرة.

"فليكن، سنلعب بدونكم" تقول عزيزة ممتعضة، عندما تعلم أنكما ذاهبتان مع والدكما ولكنها تنتظر بفضول لترى سيارته. ها هى! "هذا هو بابى يا عزيزة فى سيارته الصفراء! لقد رآنا، ويشير إلينا!" أوقف بابا سيارته الستود بيكر أمام باب الحديقة، ونزل مبتسماً: "نهاركما سعيد يا بناتى الصغيرات!" يفتح ذراعيه لتقبيلكما وتستديرين: "إلى اللقاء يا مدموازيل أراكِ فى المساء. تعالى يا عزيزة لتقولى نهارك سعيد لبابى " تبدو عزيزة مندهشة، ولكنها تتقدم من بابى وتمد يدها وتنحنى ثم تجرى إلى المنزل. أنتِ قلقة بعض الشىء لأن عزيزة بدت غريبة، ولكن ليس لديكِ وقت للتفكير فيها. ها هى ديدى قد جلست بجانبه وتقفزين أنتِ لتجلسى إلى جوارها. يسألكما بابى بعض الأسئلة عن تقدمكما فى القراءة وعن عزيزة. تتحدثين عن ست نينة وأنكل محمد والدادات كبار السن وأصدقائكم الجدد وعن ألعابكم.

"اليوم" يقول بابا: "سنذهب لزيارة جدكم، يريد أن يراكم. أنتِ فى غاية الفرحة. "فى شبرا؟" "بالطبع فى شبرا" يجيب بابا وهو يضحك: "أليس هذا بيته؟"

إنه العيد فى شبرا. يأتى جميع الخدم ليسلموا عليكما ويقبلوكما ويتحدثون باللغة العربية ويترجم بابا: "أهلاً بكما. نورتما بيتكما". يطرق بابا باب المكتب ويجعلكما تمران أمامه.

"ها هما حفيدتاى! كبرتما" يقول جدى بضحكته الساخرة ويضحك أيضاً عندما تأخذين يده لتقبليها بعد أن تنحنى، ولكنه يدفعك إلى حضنه ويلصق على خديك قبلتين مدويتين ويفعل الشىء نفسه مع ديدى التى تبدو فى غاية الخجل. ما بها؟ هل نسيت جدى؟ يضعها بابا على كرسى منخفض ويضعك أنتِ على فوتيل شاسع تشعرين فيه بالغربة وتخشين أن يراكِ أحد. بعد ثوان يدخل السفرجى مبتسماً وهو يدفع بطاولة متحركة ذات دورين. تتعرفين على إبريق الشاى الكبير الداكن والسكرية والفناجين ذات الورد الأزرق والصحون المطابقة لها. هناك أيضاً كعكة بالزبيب

وجاتوهات متنوعة. يبدو أن جدك يعرف أنك تشتاقين لأكل الحلوى. يعرض عليكِ أن تختارى ما تريدين.

"انتظرى يا بمبولى" يقول بابا وهو ينهض من مكانه: "سأقطع لكما قطعتين". ديدى تصفق وتضحك فرحة: "يعيش يعيش بابى".

بعد أكل الحلوى، يصطحبكما جدك وبابا إلى الحديقة. لا تعرفين حينئذ أنها المرة الأولى الذى يلتقى فيها والدك مع جدك منذ طلاقه، وهو حريص أن يشاهد ابنه ما آلت إليه الحديقة. يأتى أسطى سيد مسرعًا ويقبل يدى بابا ثم يتبعكم ببطء فى جولتكم، ولكن بابى لا يتنزه وإنما يراقب كل نبتة وكل شجرة ويبدى ملاحظاته وينزع العشب الضار أو الأوراق اليابسة. تمرون أسفل تكعيبة العنب ذات الأوراق الصفراء "أين العنب؟" تسألين "ليس موسم العنب!" "والحظيرة؟ ألن نذهب لزيارة الدجاج؟" يضحك جدك: "إذا أردتِ رؤية الدجاج، اذهبى بمفردك لم يعد هناك دجاج فقد ماتوا من المرض جميعهم" ينظر بابا وجدك إلى بعضهما بحزن ويضيف جدك بصوت منخفض: "منذ أن تركتنا صالحة ازداد عمل أسطى سيد فى الحديقة".

نظر بابى إلى ساعته: "هيا يا بنات حان وقت العودة، أوصتنى والدتكما ألا تتغيبا كثيرًا وأن تعودا فى السابعة مساءً". "بهذه السرعة؟" لاحظ جدك الدموع التى تترقرق فى عينيكِ: "لا تنزعجى يا صغيرتى بمبولى. ستعودان فى الأسبوع المقبل". فى السابعة مساءً بالضبط، تتوقف سيارة والدك أمام بيت ست نينة. اندفعت عزيزة نحوكما ومن خلفها مدموازيل التى سمعت صوت الكلاكس المنخفض لسيارة بابا: "مساء الخير يا سيدى" تقول مدموازيل وهى تحمل ديدى التى انغمست فى نوم عميق بين ذراعيها.

"احك... احك" تقول عزيزة. أنتما بمفردكما على السور فى مدخل السلم الكبير. لقد صعدت مدموازيل إلى أعلى مع ديدى لتحضر لها العشاء وبعد ذلك سوف تناديكما

أنتِ وعزيزة إلى حجرة الطعام الفسيحة التى تكرهينها. تجلسين بجانب ابنة خالك وتتحدثين عن نزهتك مع بابا وكما هو الحال فى كل مرة تخترعين تفاصيل تجعل روايتك أكثر إثارة.

عندما سيسألك أصدقاؤك فيما بعد إن كنتِ عانيت من انفصالك عن والدك، سوف تجيبين: "بالطبع لا، كنا نراه أنا وأختى كل أسبوع وفى كل مرة كان يصطحبنا إلى زيارة لأحد أفراد العائلة". عند طنط زهرة هانم التى كانت تستقبلكما بقبلات حميمة وهى تتلمس بيدها وجوهكما وشعركما وتقول: "هذه دجى دجى وهذه بمبولى..." لا تخطئ أبداً مسكينة طنط زهرة التى لا تستطيع أن تبصر! عيناها تختفيان خلف نظارات سوداء كبيرة وتجلس القرفصاء على إحدى الأريكات غير المريحة الصلبة القبيحة جدا. تتحدث مع بابى وفى كل مرة تسأله إن كان حاول أن يصالح صالحة ويبدو هذا السؤال مزعجًا لوالدك، ولكنها تعتنى بكما وتنادى على خادمتها وتطلب منها أن تأتى بالشكمجية، وقد شرح لكِ بابى أن هذه الكلمة تعنى علبة. هى علبة ضخمة من الخشب عليها نقوش على هيئة حيوانات برونزية وذهبية. تمد يدها طنط زهرة لتلتقط من تحت ثيابها سلسلة كبيرة ذهبية تتدلى منها مفاتيح كثيرة تتلمسها بأصابعها الرفيعة ثم تختار أحدها وتفتح علبة الكنوز. تنظرين بدهشة لهذا الكم الكبير من البندق "خذى يا بمبولى، فأنتِ تحبين البندق أليس كذلك؟" وتقولين: "نعم كثيراً" وتدفعك ديدى وهى تقول: "وأنا أيضًا". "نعم... نعم... انتظرى" تقول طنط زهرة وهى تأخذ كسارة البندق وتفتح واحدة تلو الأخرى وتعطيها لكِ. تأكلين وتعطين ديدى واحدة من حين لآخر. لا تحب ماما أن تأكلا بين الوجبات "كفى! يكفى هذا القدر حتى لا تؤلمكما معدتكما". تبحث طنط زهرة فى العلبة وتأتى بقطعة فضية: "اشترى بهذه القروش العشرة شنوكولاتة أو ملبّسًا" أنتِ فى غاية السعادة خاصة أن والدتك ترفض أن تعطى لك مصروفًا ولمدة سنوات طويلة ظلت هذه القروش العشرة التى تعطيها طنط زهرة هى المصروف الوحيد الذى ستتقاضينه أنتِ وأختك.

"لم المصروف؟" تردد دائمًا والدتك: "لديكما كل ما تحتاجانه وأنتما دائمًا برفقة أحدٍ منا، سواء أنا أو مدموازيل أو والدك ثم ما هى الأشياء التى ستشترونها؟ ألم أقل لكما مرارا: لا تشتريا أى شىء من الشارع!".

لم تذهبى بنفسك لشراء شوكولاتة (العفريت) عند عودتك إلى الزمالك، ولكن ترسل عزيزة التى أعطيتها القروش العشرة السفرجى فى سرية تامة، بعد أن أقسم ألا يوشى بكما. تتقاسمان الشوكولاتة وتأكلانها بلذة فائقة وأنتما تضحكان وتستمتعان بقطع الكراميل التى تلتصق بأسنانكما، بينما تطعم مدموازيل ديدى عشاءها.

أما بالنسبة للآيس كريم (توبى) فيبدو إخفاؤه أصعب. كنتِ قد لمحتِ من النافذة شابًا على دراجة يحمل صندوقًا أصفر كبيرًا ويسير ببطء، وينادى بملء فمه: "آيس كريم جروبى! آيس كريم جروبى!" تشترى عائلة آل راتب أعمدة الآيس كريم المغلفة بالشوكولاتة أو بالفراولة أو بالفستق أو بالفانيليا رغم أنكما وعدتما مامى ألا تشتريا من هذا الآيس كريم إطلاقًا "لم يا مامى؟" "لأن هذا خطر" كما تَعلن والدتك: "يعرضكما للإصابة بمرض التيفود". تحبين جدا الآيس كريم وعندما يقدمه طباخ جدتك على الطعام تتناولين منه قدرًا كبيرًا.

أخذكما والدكما إلى المعادى فى منزله الجديد. تندفع نحوكما صوفى، خادمة بابى التى تعمل عنده منذ أيام شبرا، وتصيح "!Panayamou... كم كبرتما".

"هى فيلا" قال بابا: "فيلا جميلة جدا ومحاطة بحديقة بديعة مليئة بالزهور". تجلسكما صوفى علىَ مقاعد من القوص عليها خداديات. هذه المقاعد وثيرة جدا. تضعين قدميك على البلاط الذى يكسو الأرض، ولكنكما لم تدخلا المنزل إطلاقًا. ستدركين فيما بعد، أن بابى وصوفى لم يقترحا عليكما زيارة المنزل من الداخل. تقدم لكما صوفى الشاى باللبن ومعه الجاتوه على طاولة متحركة مصنوعة من القوص. ينظر إليكما "ريشان" كلب بابا الجديد من نوع السلافى وهو جالس على ساقيه الخلفيتين

ويحرك ذيله. كم هو جميل بشعره الطويل البيج! كم ترغبين فى أن يكون لديك كلب مثل "ريشان" عندما رآكما تنزلان من السيارة نبح قليلاً وهو يحرك ذيله بشدة ثم وضع ساقيه الأماميتين على كتفك وأخذ يلعق وجهك. ابتعدت ديدى خائفة وصاح بابا قائلاً: "كفى يا ريشان" "اخفض ساقيك". امتثل لكلام والدك ولكنك لمحت لسانًا أحمر صغيرًا يتدلى من طرف بطنه ويختفى عندما عاد إلي وضعه الطبيعى "كفى يا وغد!" قال هذا بابا وهو يصيح فيه مبتسمًا.

حكى لكما بابا أنه أخذ "ريشان" هدية من بعض البدو الذين يصطحبونه فى رحلاته للصحراء، وكان الكلب حينئذ يتلوى جوعًا وعطشًا. "منذ هذا الوقت لا يتركنى "ريشان" أبدًا؛ ولكن يجب دائما أن نغلق باب الحديقة لكى لا يهرب ويتوه فى المعادى أو تدهمه سيارة مسرعة".

تستمتعان أنتِ وديدى بالتنزه فى سيارة بابا، لأنكما تمران فى شوارع شعبية وتشاهدان النيل عند ذهابكما إلى المعادى. كم هو جميل، فخم ومهيب! تستمتعين برؤية الحقول والفلوكة ذات الأشرعة الكبيرة المنتفخة بالهواء الذى يدفعها. من الجانب الآخر توجد حقول كثيرة تمتد حتى تصل إلى المحاجر. وقد شرح لكما بابى أن العمال يأتون هنا لاستخراج قطع كبيرة من الحجر، تستعمل فى بناء المنازل. كما تشاهدون أيضًا الفلاحين بجلابيبهم المرفوعة حتى بطونهم وهم يحرثون الأرض. وتستمتعين أيضًا بسباقك مع "ريشان" فى الصحراء، وأحيانًا أيضًا كنتم تسيرون ثلاثتكم على الرمال مع "ريشان". لن تنسى هذه الجولات أبدًا.

كم تحبين الصحراء... بحر من الرمال الصامتة والهادئة والمهيبة. هل تحبين الصحراء بقدر حبك للبحر؟ البحر صديقك فتتركين للأمواج العنان لكى تلامس جسدك وعندما تفتحين عينيكِ فى المياه تظهر لكِ أسماك صغيرة وطحالب وكأنها ترقص. عالم سحرى... تحبين أيضًا هذه الأشجار الضخمة ذات الجذور المهولة التى تخرج من الأرض ويطلق عليها بابى اسم (تين السنغال) وتجدونها فى مدخل المدينة فهى أجمل

الأشجار التى شاهدتِها فتتخيلين قصة طويلة تحتمى فيها فى أعلى هذه الأفرع الكثيفة فتختفى عن عيون جميع البشر.

. كان والدكما يُدخلكما إلى عالم الحيوانات والحشرات والنباتات بطريقة بسيطة... إلى هذا العالم المثير. كان يأخذكما إلى حديقة الحيوانات وإلى حديقة المغارة. يعرفكما بابا على أسماء الحيوانات ويوضح لكما مكان نشأتهم والطعام الذى يجب أن يقدمه لهم حراسهم. كانت الفهود تخيفكما ولكنها تبهركما. كنتما تحظيان بمعاملة خاصة؛ لأن مدير حدائق البلدية كان قريبًا من عائلتكما؛ ولذا عندما أخبركما حارس الأسود أن اللبؤة قد وضعت أشبالاً، لم يهدأ لكما بال إلا عند رؤية أشبالها بعد أن أبعد اللبؤة بناء على طلب والدكما. لم تتجاوز أعمار الحيوانات الصغيرة أسبوعًا، ولم يبدُ عليهم أى خوف منكما. لقد حملتموهم بين ذراعيكما والتقط لكم بابا صورًا تذكارية مع هذه القطط الكبيرة التى أسعدتكما. ترويين باستطراد لعزيزة، التى تنتظرك بفارغ الصبر، تفاصيل كل نزهة مع بابى. لا تخفين عنها أى تفصيلة. تستمع إليكِ باهتمام شديد وتضحك وتشاركك عشقك للحيوانات، مثل حبك لتلك الغزالة البديعة التى وجدها أحد البدو ملقاة على رمال الصحراء وقد كسرت ساقها. اعتنى بها بابا وعالجها ووضعها فى قفص فى حديقته. كانت الغزالة تنظر إلينا ونحن نقترب وهى تحرك ذيلها الصغير.

"رائعة أليس كذلك؟ شفيت الآن وتستطيع أن تسير وتنطلق وسوف أهديها بعد أسبوع لحديقة الحيوان، حيث تكون فى وضع أفضل هناك بين غزلانٍ أخرى".

تنظران إلى تلك الغزالة وأنتما مبهورتان بسحرها وعينيها الجميلتين المكحلتين بالسواد ورشاقة ساقيها. كان بابا قد أخرج حافظة سجائره والتقط منها واحدة ووضعها بين قضبان القفص الحديدى فحركت الغزالة منخاريها وتشممت السيجارة وحاولت أن تأكلها! هذا الحيوان الرشيق يحب الدخان!

فى ليلة ما، سمعتك مدموازيل تروين على ابنة خالك أنك مشيت لمدة طويلة جدا فى الصحراء فتهت، عندئذ ظهر لك رجل بدوى وسيم يمتطى حصانًا أبيض واقترب نحوك مسرعًا وأخذك وأجلسك بجانبه. علمت فيما بعد أنه رئيس البدو، وجاء إلى والدك يخبره أنه يرغب فى الزواج منك.

هرولت مدموازيل عند والدتك، التى كانت على وشك الخروج، فى غاية الانزعاج، وروت لها (مغامرتك) وهى تنعتك بالكاذبة. سمعت ماما القصة ضاحكة وأوصت مدموازيل أن تتركك تحكين كل القصص التى تتخيلينها، بدون أن تقاطع أفكارك لأن خيالك واسع جدا.

يكتشفن يوم عيد ميلادك أنك تعرفين القراءة. كانت أختك تلهو بلعبتها الخشبية المفضلة فى حين كنتِ تحاولين أن تقرأى بصوت مسموع من أجل أن تصحح لكِ مدموازيل، وفجأة وجدتِ نفسك تقرئين دفعة واحدة كلمة (حب) ونظرتِ إلى مدموازيل التى ابتسمت: "جيد. استمرى" وأخذتِ تقرئين ببطء فى البداية، ثم بطريقة أسرع وبدون أن تخطئ فى هذه اللحظة أتت إيرينى، وهى تلهث كالعادة: "تعالا لتقولا صباح الخير لصالحة هانم. ناديتِ على أختك: "تعالى يا ديدى، تعالى بسرعة استيقظت ماما. أتعرفين يا ديدى أنى أستطيع القراءة الآن واليوم عيد ميلادى، لا أعرف ما هى هدية ماما لى، أنا الآن دخلت عالم الكبار".

"كل سنة وأنتِ طيبة يا بمبولى" تقول ببطء أختك الصغيرة التى تقفز بجانبك. تطرقين الباب بسرعة وتدخلين غرفة ماما وأنتِ تشهرين أمامها بقصتك المفضلة Regimbaud وهى جالسة على سريرها، والجريدة مفتوحة على حجرها. تكادين تصرخين: "بونجور مامى، أنا أستطيع القراءة" تندفعين بكتابك نحو ماما التى تبتسم لكِ ابتسامة عريضة: "حقيقى؟ مبروك، وكل سنة وأنتِ طيبة". تجلسين عند ساقيها بعد أن تقبلينها، وهى تقبل أيضًا ديدى التى تجلس بجانبك، وتنتظران كلتاكما المفاجأة. تأخذ ماما لفافة كبيرة عليها ورق لامع، وشريط أخضر: "خذى يا حبيبتى هذه هديتك". تشكرينها وتحاولين أن تفتحى سريعًا اللفافة وتكتشفين بعيون مبهورة بعد فك الشريط أنه كتاب كبير وسميك وعلى غلافه صورة طريفة لهرة ترتدى بووت "حكايات بيرو" تقرئين بصوت مسموع: "ياه يا مامى كيف عرفتِ أننى أستطيع قراءتهم". تبدو

ديدى مصدومة بعض الشيء، ولكن عندما تفتحين الكتاب وترين الصور الكبيرة، تقترب منك وتنظران معًا إلى الكتاب بإعجاب. "هل ستحكين لى هذه الحكايات يا بمبولى؟ فأنتِ تستطيعين قراءتها الآن. أرجوكِ".

"اذهبا والعبا فى الحديقة مع عزيزة فلدى مشاغل كثيرة بعد الظهر".

تذهبين للبحث عن عزيزة، وعندما تجدينها تعلمينها أنك تستطيعين القراءة، وترينها كتابك الكبير، ثم تنزلان إلى الحديقة وتتبعكما ديدى التى تتأفف "أين أصدقاؤكما؟ يبدو أنهم خرجوا".

"ولكنهم سيأتون لحضور حفلك" تقول عزيزة: "وبما أن عيد ميلادك يوم الثلاثاء فإن أخواتى لن يستطعن الحضور، ولكن عائلة راتب ستأتى وربما أطفال آخرون لا يذهبون إلى المدرسة وتدعوهم "أبلة". تجلسان على السطوح الصغير وتفتحان الكتاب الذى يبدو سهل القراءة؛ لأنه مكتوب بالبنط العريض وتنبهران أمام الرسوم الملونة الجميلة وتقفز ديدى إلى جانبكما وتصيح: "جميل!" تعرف أختك الصغيرة أن فى المساء ستقصين عليها حكاية ما، فأنتِ تعشقين سرد الحكايات.

تساعدكما مدموازيل فى حوالى الرابعة على ارتداء أثوابكما الجميلة وتربط خصلات شعرك بشريط أحمر، وبالطبع عليكما أن ترتديا جواربكما البيضاء مع هذه الأحذية اللامعة القبيحة. تنادى عليكما إيرينى: "مدام إنجى وعثمان بك قد حضرا!"

"كم هى مفاجأة جميلة! تاتى ستكون معنا أيضًا!" لقد سبقتكما عزيزة إلى الصالون، وهى شغوفة أيضًا لرؤية أبلة إنجى. تفتح تاتى ذراعيها، ترفعك من على الأرض. كم هى جميلة، وكم رائحتها زكية!

"عيد ميلاد سعيد يا بمبولى، كل سنة وأنتِ طيبة، ومبروك. قالت لى مامى إنك تعرفين القراءة" ها هو يتحنى أنكل عثمان من خلفها ويقبلك، ثم يعطيكِ لفافتين

مربوطتين بشرائط. تشكرينه بخجل، بينما تدفعكِ عزيزة وديدى كى تنزعى شريط اللفافتين. يجىء بعد ذلك الأخوة الثلاثة ويعطونكِ هديتك بطريقة رسمية، فتقهقهين من الضحك. يأتى موعد تقديم الحلوى وعندما تدخلون إلى حجرة الطعام، يصيح الجميع: "كم هذا جميل!" فوق المفرش الرقيق وُضعت زينة لامعة حول الصحون، بينما تتربع فى وسط المائدة تورتة" ميل فوى" وعليها خمس شموع. تضىء ماما الشموع وتنهضين لإطفائها، ويصفق الجميع، ويغنى بإجادة متفاوتة: "هابى بيرز داى يا بمبولى". هذا العيد رائع، وسيزداد روعة بحضور بابى الذى سيهديكِ عروسة لذيذة. تشعرين ببعض الإحباط لأنك تلقيتِ ثلاث عرائس! كنت تفضلين أن يأتى لك بكتاب ولكن عروسته جميلة جدا بعينيها الزرقاوين التى تفتح وتغمض ولها رموش طويلة وجميلة. يمكث بابى بعض الوقت مع مامى وتاتى اللتين لم يرهما منذ فترة، ومع أنكل عثمان الذى يشبه كلب بابا رغم أن" ريشان" أجمل منه!

تجلسان أنتِ وعزيزة على السطوح الصغير وتقرآن للمرة الثالثة (الرجل ذو اللحية الزرقاء). تعانى ديدى من أنفلونزا ومدموازيل ترعاها بينما عائلة راتب فى السينما مع خالتهم. مامى وتاتى تحتسيان الشاى فى الصالون الصغير، وتطل إحدى نوافذه على السطوح الصغير الذى تجلسان فيه. لا تعرف مامى وتاتى أنكما على مقربة منهما وأنكما تستطيعان سماعهما. فى البداية تستحوذ على مخيلتكما حكاية الرجل ذى اللحية الزرقاء ولا تستمعان إلى حوارهما، ولكن بينما أنتما بصدد إغلاق الكتاب تسمعان تاتى: "اسمها ماتيلدا وقد أشهرت إسلامها واختارت اسم عزيزة". فتنصتان بدون إصدار أى صوت.

"سترث والدنا بالطبع" تقول ماما وهى ترفع صوتها بحدة. "اهدأى يا صالحة" تستطرد تاتى: "والدنا أرمل منذ زمن بعيد ومن حقه أن يتزوج".

"كان يمكنه أن يختار امرأة مصرية وليس قبيحة فرنسية من "نيس"، لديها طفل غير شرعى يبلغ من العمر ١٨ سنة".

إذن فإن والدتك وخالتك تتحدثان عن والدهما. هل تزوج جدى أحمد؟ ولكن لماذا هذه الحدة فى صوت مامى؟ إنها لا تراه كثيراً فهو دائماً على سفر.

فى اليوم التالى تصعد إيرينى لتبلغكما أن أحمد بيه فى الصالون الصغير، وبصحبته زوجته الجديدة، وأنه يريد رؤيتكما. تخرج مدموازيل على وجه السرعة ثيابكم من الخزانة، وتصفف لكما شعركما ثم تذهبان إلى الصالون الصغير. عند اقترابكما، تسمعان نبرات صوت عالية لم تألفاها من قبل، وتدفعكما مدموازيل داخل الحجرة بينما تشعران بخجل شديد.

"كم هما جميلتان"! تهتف امرأة لها عينان خضراوان ذات نبرة صوت حادة، تنظرين سريعًا إلى والدتك لتعرفى كيف يجب أن تتصرفى ومن هو الشخص الذى ستصافحينه فى البداية؟

"تعالى يا بمبولى" يقول جدى وهو مبتسم: "ألم تتعرفى علىّ" تقتربين منه وتنحنين فيدفعك نحوه ويقبلك قائلاً وهو يضحك: "ما زالت وجنتاك الجميلتان ممتلئتين!" ليس لديكِ رغبة فى الضحك لأنك لا تحبين هذا الكلام عن (وجنتيك الممتلئتين) الذى يستسيغه الكبار".

"هذه زوجتى" يقول الجد ويقودك نحو المرأة الجميلة ذات العيون الخضراء التى تبتسم لكِ وتقبلك قبل أن تنحنى ثم تعلن: "ستناديننى تانتين" وتضيف: "ابنتك شعرها جميل جداً يا صالحة" وأخيراً ها هو شخص يتحدث عن شىء آخر غير وجنتيكِ الممتلئتين.

"ها هى صغيرتنا دى دى!" وتظهر خطوط صغيرة على أنف جدى مثل التى تظهر على أنف أخيه الكبير، ولكن أنفه أصغر حجمًا وهو نحيف وأقصر طولاً من جدى الباشا ومامى تشبهه بعض الشىء.

أحضر لكما هدايا: "توقعنا أن لديكما ألعاباً كثيرة فأتينا لكما بأثواب". قالت هذه الجملة تانتين وهى تفتح علبة كبيرة مغلفة بالورق الفضى. ثوبك أحمر اللون، وله كرانيش تزينها وردة مطبوعة. يبدو لكِ جميلاً جدا، وهو أيضًا يناسبك تمامًا، ولكن تنهمر دموع ديدى لأن ثوبها الوردى ليس على مقاسها، ولا تستطيع أن ترتديه الآن. هى المرة الأولى التى لا ترتديان فيها ثياباً متشابهة!

"لا تقلقى يا حبيبتى" تقول تانتين وهى تضع ديدى على حجرها. "سترتدينه عندما تكبرين بعض الشىء" وتتوجه إلى مامى: "أليس كذلك يا ماما؟ الأطفال تنمو سريعًا". أخرجت من حقيبتها منديلاً صغيراً من الدنتيلا، وجففت برفق عيون ديدى. تتحدث تانتين الفرنسية بطريقة تبعث فى نفسك العجب... ستشرح لكِ تاتى فيما بعد أن تانتين تأتى من مدينة نيس الفرنسية وهناك يتحدثون على هذا النحو.

بعد عيد ميلادك بعدة أيام اصطحبتك مامى إلى مدرسة (Cours Molière). فى كل صباح، تقفزين بجانب مدموازيل حتى محطة الترام بعد أن تترك ديدى عند إيرينى. ترتدين مريلة بيج، وفى يدك حقيبة مدرسية صغيرة. وتصعدان معًا فى عربة السيدات فى الترام الذى تعشقينه. تتذكرين بالكاد هذه الفترة القصيرة من عمرك. الشىء الوحيد الذى لا يزال فى ذاكرتك هو حصولك على درجات جيدة وعودتك فخورة بهذه النتيجة إلى المنزل وأنتِ ترين الجميع مدموازيل، وعزيزة، ماما وأصدقاءكِ.

"أوووف" يقول دجيهان كير باحتقار: "لا بد أنكِ هادئة فى الفصل كالصنم. أنت هو الصنم!" لا تجرئين على سؤاله ما الصنم وهل رآه أحدٌ؟.

بفارغ الصبر تنتظران، عزيزة وأنتِ صباح يوم الأحد عندما يأتى إخوتها. لقد قررتِ أن تتزوجى أخاها الكبير عندما تكبرين. كم هو وسيم بجبهته العريضة وشعره الغزير المرفوع إلى الخلف، وقسماته المتناسقة بعيونه السوداء ذات الرموش الكثيفة!.

سافرتن إلى الإسكندرية فى صيف هذه السنة، ومكثتن فى فيلا كبيرة فى رشدى باشا كانت قد استأجرتها، لكن الست نينة قبل الذهاب إلى شاطئ ستانلى بك، كانت مدموازيل تدهن جسدكما بكريم لتفادى أشعة الشمس. كنتِ تحبين هذه الطقوس، ورائحة هذا الكريم، وكالمعتاد كان البحر يثير وتعجبك رؤيته. كم تودين أن تتعلمى السباحة جيداً وتصلى إلى البرميل مثلك مثل الآخرين، ولكن لا أحد منكما يعرف السباحة. أقصى ما تقومان به هو الاستحمام فى البحيرة الصغيرة، حيث المياه غير عميقة وتصل بالكاد إلى منتصف جسدكما. كم هو مهين وجودكما فى وسط هذا الكم الهائل من الأطفال والمربيات. لقد وعدك بابى أن يعلمك السباحة، ولكن متى؟ أما بالنسبة لمامى فإنها تستيقظ متأخرة وتذهب للجلوس مع صديقاتها فى كابينة على الصخور. فى يوم من الأيام، استمعتِ إليها وهى تقول لأحد أقربائها، إنها لن تتمكن من الاستحمام؛ لأن الملكة نازلى أتت بدون موعد: "لم أستطع النزول إلى الماء. لقد أفسدت الملكة نازلى يومنا بحضورها المفاجئ". تمضى ماما أياماً كثيرة على الشاطئ أو فى (نادى اليخت).

يأتى الشيخ شندى ثلاث مرات فى الأسبوع من أجل دروس اللغة العربية والقرآن. تؤخذ الدروس فى غرفة عزيزة وتحت إشراف- يا له من إشراف متساهل!- دادا نينة. تتحمل أنتِ وعزيزة هذه الدروس على مضض، وتنفران من هذا الرجل المسكين لغلاظة سلوكه، وطريقته فى احتساء القهوة. عندما كانت تضع دادا نينة فنجان القهوة أمامه مع كوب الماء المثلج كان يردد: "شكراً! تسلم يداكِ!" وبدون أن تبرد قهوته كان يبتلع كوب الماء المثلج وهو يحدث صوتاً مسموعاً يأتى من حنجرته، ثم كان يضع بعض نقاط القهوة السائلة فى الصحن ويحتسيها. تنظران إليه مصعوقتين بتدبير من عزيزة الأكثر مشاغبة، قررتما أن تقوما بمؤامرة للتخلص منه إلى الأبد عندما علمتما أنه لن يلغى الدرس يوم وقفة العيد، فى حين سيلعب أخوات عزيزة وعائلة راتب فى الحديقة. كانت

عزيزة تحتفظ ببقايا علكة مضغت آلاف المرات، وكان قد أعطاها لكما أنكل محمد فى المرات القليلة التى أتيحت لكما فيها رؤيته بمفردكما.

"هس! أنا لم أفعل شيئا!" يقول أنكل محمد ضاحكًا؛ لأنه يعرف تماما تعليمات ماما بخصوص مضغ العلكة: "ممنوع لأنكما نموذجان للجمال. ومضغ العلكة يوسع الفم". عند غياب ماما أنكل محمد يعطيكما بسرعة قطع العلكة الصغيرة الوردية.

وضعت عزيزة إذن اللمسات الأخيرة للمؤامرة. أتى الشيخ شندى فى موعده كالمعتاد وهو يرفع حاجبيه الكثيفين: "صباح الخير يا بنات، كل سنة وأنتما طيبتان". "كل سنة وأنت طيب يا سيدنا الشيخ" حييتماه بأدب غير معتاد. تنتظران وأنتما وقوف حتى يجلس. كم هو أنيق اليوم! لقد حلق ذقنه هذا الصباح، وارتدى قفطانه الكحلى الجديد ويفوح منه عطره الغريب عند كل حركة يقوم بها، مما يثير فى داخلكما قشعريرة. ها هو يجلس متنهداً. وعندئذ يشعر بوخز دبابيس ويصرخ من الألم ثم ينهض. تظهر ست نينة عند الباب. يحتق وجه الشيخ شندى من الارتباك، ويحاول أن ينزع قفطانه العالق بالمقعد فيواكب سقوط المقعد تمزق قفطان الشيخ. لا تنبسان بكلمة، وتتسمران فى مكانكما بينما ست نينة، المنتصبة كالعمود والتى لا يبدو عليها أى انفعال تستدير وتختفي بدون أن تنطق بكلمة. انحنت رأسكما فى انتظار تبعات هذا الموقف التى لا بد أن تأتى، لم تتأخر كثيراً العواقب. تأتى دادا ميرفت، وتتبعها مدموازيل، وتدخلان إلى الغرفة. اعتذر الجميع للرجل المسكين وعوضوه عن قفطانه الممزق.. أرسلت الست نينة لإحضار عزيزة ووصفتها (بالشيطان الذى ليس له قلب) وعند عودة ماما من المقابر قصت عليها ست نينة تفاصيل ما حدث وبكتتك ماما بعنف مما أخجلك ووعدتها بالاعتذار للشيخ شندى وكعقاب منعتك ماما من رؤية عزيزة لمدة ثلاثة أيام. تحاولين عدم البكاء، فهذا كثير! ثلاثة أيام بدون رؤية عزيزة وبدون النزول إلى الحديقة! إنه لشىء فظيع!

تتذكرين أن بابا سيأتى فى أول أيام العيد لتخرجا معه، فهل ستحرمكما ماما من الخروج معه؟ فى اليوم التالى بينما تتناولان إفطاركما فى غرفة مدموازيل، تسألينها: "هل سنخرج مع بابى؟" ترفع مدموازيل حاجبيها: "لا أعرف والدتكما هى التى ستقرر. إن ثيابكما جاهزة، وأنا فى انتظار أوامرها. حضر والدكما بالفعل، ويحتسى القهوة فى الصالون الصغير مع والدتكما يتناقشان". ها هى إيرينى تناديكما من أسفل: "انزلا فقد حضر حسن بك". تقفزان من السعادة وترتديان ثيابكما بسرعة البرق. تساعد مدموازيل ديدى فى ارتداء جواربها وحذائها، ثم تصفف لها شعرها بينما انتهيت ورفعت شعرك بشريط التفتا الأحمر.

بابى ومامى فى انتظاركما وتعلن مامى بلهجة صارمة: "سمحت لكما بالخروج بناءً على رغبة والدكما" ثم تأخذ سلسلتين من الذهب بميداليات وتضعهما حول رقبتكما. إنه الحلى المتواضع الوحيد الذى سوف ترتدونها أيام الأعياد، وعند زيارات الأهل. تقبلان والدتكما: "ميرسى يا مامى" وتذهبان مع بابا المبتسم إلى سيارته الجميلة حيث ينتظر "ريشان" وهو ينبح فرحًا.

-٦-

"صالحة هانم تريد رؤية ثلاثتكن" تقول إيريني وهى تظهر رأسها من فتحة الباب، يستولى الاستغراب عليكن، فى غرفة ماما، تجدن مدموازيل مرتدية قبعتها وقفازها والحقيبة فى يديها، "سوف تغادرنا مدموازيل "أبتيل" يا بنات. ستعمل فى مكان آخر، وقد قررنا أنا ووالدكما تعليمكما الإنجليزية ومن ثم، فقد اخترت مدرسة إنجليزية اسمها ميسز جورج وهى على وشك القدوم. تجهشان فى البكاء "عوثه ممثيل، مث عاوثاها تمسى" تقول ديدى بطريقتها الطفولية، وترتمى فى حضن مدموازيل، التى تبكى أيضاً.

"لا داعى للبكاء يا بنات، كن عاقلات، وقبلن مدموازيل، واشكرنها على كل ما فعلته لَكُنّ".

تجفف مدموازيل عيونها بالمنديل الكبير الذى أخرجته من حقيبتها، تقبلكن بقوة وتشد على أيدى ماما، ثم تنسحب فى عجالة عزيزة وتجفف عينيها. هى أيضاً تتساءل: كيف ستتعامل مع المدرسة الجديدة. أنتن منهارات، وقررتن أن تتعاملن بجفاء مع الدخيلة. كنتن قد تعلقتن بمدموازيل "أبتيل" وتعودتن على عاداتها وشجارها معكن وعقوباتها. تتذكرين فجأة أن اليوم هو الأحد. هل ستدرسين الإنجليزية فى يوم الأحد أيضا وتحرمين من الأصدقاء؟

"اليوم الأحد يا ماما، ماذا سنفعل بهذه الميسز جورج اليوم؟ وأخوات عزيزة وآل راتب كانوا سيأتون لأخذ الحلوى معنا أليس كذلك؟"

"لن أحرمكن من يوم الأحد. سوف تتعرفن عليها وتتفاهمن معها على أن تبدأ الدروس فى صباح الغد، ستأخذ اليوم وجبتي الغداء والعشاء معكن".

تتركن الغرفة وتتشاورن، إن تعلم الإنجليزية ليس إلا واجبًا ثقيلاً أضيف إليكن، وخاصة مع درس البيانو الذى تتعلمنه أنتن الثلاثة منذ خمسة عشر يومًا. ولكن الدو_ رى_مى_فا _صول_ والفريرو جاكو والصديق بيرو من الأشياء التى تضفى البهجة على نفوسكن بعكس دروس الإنجليزية التى لا تروق لَكُنّ.

لكن بعد المدرسة فى الصباح والدروس فى الظهر لن يبقى كثير من الوقت للعب! فى الصالون الصغير، حيث تقودكن إيرينى، تتعرفن على ميسز جورج. تنهض وهى مبتسمة، وتقدم كل واحدة منكن نفسها. هى طويلة جدا وأكبر سنًا من مدموازيل، وبناءً على طلب والدتكما أنتِ وديدى تصطحبانها إلى غرفتها، ويتبعكن سفرجى يحمل حقيبة كبيرة عليها ملصقات فى كل مكان، حينئذ تسمعان جرس باب البيت وتنظران أنتِ وديدى إلى بعضكما. عزيزة موجودة فى أسفل المنزل وستخبر أخواتها.

"You can go and join your friends" تقول ميسز جورج وتضيف بالفرنسية " اذهبا لتلحقا بأصدقائكما

we begin tomorrow. إنجليزى غدًا" وتنزلين أنتِ وديدى لتلتقيا مع عزيزة والأولاد الذين عرفوا منها ما يجرى.

"اليوم عطلة!" تقولين وأنتِ تقلدينها: "حاجباها كثيفان مثل حواجب الرجال، وترتدى فستانًا بنيا قبيحًا وجوارب سميكة رمادية وبوتًا، وترتدى مدموازيل "أولجا"، مدرسة البيانو، فوق رأسها (قصرية حمام) عليها وردة كبيرة، بينما ترتدى ميسز جورج "وتمدين فى الواو" ترتدى (قصرية حمام) مليئة بالخضراوات".

اليوم التالى، وأثناء الـ breakfast (الإفطار)، تشرح لكن ميسز جورج الطريقة التى ستتعلمان بها الإنجليزية، وقد اتفق الجميع ووالدكما، وست نينة ووالد عزيزة الذى لم يكن يعير دراسة ابنته أى اهتمام. سيكون عليكن، وعلى مدار اليوم، منذ وجبة الإفطار وحتى وجبة العشاء، التحدث بالإنجليزية، ما دمتما فى صحبتها! بدأت ميسز جورج على الفور برنامجها، ولذلك كرهتموها! تعتنى ميسز جورج بهدوء وصبر بكل التفاصيل المرتبطة بتربيتكما. اتفقتما فيما بينكما أن تظهرا لها العداء وتحاول هى أن تتغاضى عنه بعد أن سخرتما منها أمام الصبية. تكتشفان أنكما تستطيعان أن تعبرا بالإنجليزية بدون عناء فتستمتعان بإغاظة الصبية وبالتحدث أمامهم بعبارات لا يفهمونها. تضحكان ملء أفواهكما أمام وجوههم الواجمة: "نحن أيضًا لدينا أسرارنا"... تشعرين بفخر كبير عندما يقول لكِ والدك إنكِ تقدمتِ كثيراً فى اللغة الإنجليزية.

تتذكرين أحيانًا هذه القصة التى روتها والدتك لصديقات، وهن يحتسين الشاى. كنتِ تنتظرين عزيزة على السطوح الصغير، عندما استمعتِ إلى والدتك: "قررن أن نأخذ حنطور أنكل محمد؛ لأن سائقه كان بارعًا، صعدن فى الحنطور وشرحن للسائق أننا نريد أن نلحق بالمظاهرة وأن نختلط بالنساء. كان ميدان قصر النيل مليئًا عن آخره بالبشر والجنود الإنجليز يصوبون بنادقهم إلى الجماهير، بينما يصيح الناس (الاستقلال التام أو الموت الزؤام! إلى الخارج يا إنجليز!) ترفع النساء والرجال اللافتات، بينما يسير قساوسة أقباط وشيوخ وأيديهم متشابكة. أوقف السائق الحصانين الجميلين الرماديين واللذين يضربان من الضجر بحوافرهما على الأرض. "لا يمكننا التقدم" قال السائق: "لن يمكننا أولاد الكلب من المضى إلى الأمام!" عندئذ سمعنا فرقعة وبدأ الإنجليز ينهالون ضربًا على الجماهير. اقترب منا رجل إنجليزى، ولا أعلم بالضبط إذا كان جنديا أو ضابطًا وأمسك زمام الحصان، وهو يصيح: "GET BACK!! OUT، بره". ثم رفع بندقيته، وكأنه سيصوب علينا فقام السائق بسبه ثم ركله

بالكرباج وأوقعه أرضًا وصرخ: "خذن حذركن يا سيدات، تماسكن" أمسك باللجام، ثم ركل الحصانين اللذين صهلا وتحفزا. لن أنسى أبدًا هذا المشهد! نحن جالسات فى الحنطور، وأمامنا السائق الوسيم بزيه الرسمى وببشرته البيضاء وشعره الأبيض وشاربه الأبيض والحصانان الجميلان فى حالة تحفز. أنقذنا بأعجوبة لأن هؤلاء الأوغاد قتلوا فى هذا اليوم عددًا كبيرًا من البشر".

روت والدتك مغامرتها بانفعال وزهو، ودون أن تلحظ أنكِ تصغين إليها، وسوف تظل هذه القصة محفورة فى ذاكرتك. لم تستطيعى فى هذا اليوم أن تمتنعى نفسك من سؤالها عن معنى كلمة (تحفز وأولاد الكلب)، وأيضًا عن جدوى تعلم الإنجليزية ما دام الإنجليز أوغادًا هكذا. قالت مامى إنها سوف توضح لكِ كل هذه المعانى بعد بضعة سنوات. "لا تحاولى أن ترددى هذه الكلمات البذيئة، يجب أن تتعلما الإنجليزية؛ لأنه من المفيد فى الحياة معرفة أكثر من لغة". على الرغم من أن دروس البيانو غير مجدية بالنسبة لكما، فقد تقدمتما كثيرًا فى اللغة الإنجليزية. تفهمين أنتِ وعزيزة، بدون عناء، الحكايات التى تعطيها لكما ميسز جورج لقراءتها. تحبين كثيرًا (أليس فى بلاد العجائب). لا يهدأ لكِ بال عند حصولك على أى كتاب جديد إلا عندما تقرئينه بأكمله. كثيرًا ما تستيقظين مبكرا قبل أختك وتأخذين من تحت الوسادة كتابا قد خبأته بالأمس، وتحاولين القراءة على ضوء النهار الباهت الذى يتسلل من بين الشيش. تدفعكن ميسز جورج إلى السير على الأقدام أنتن الثلاثة. تسرن حتى الحديقة الموجودة فى طرف الشارع، وهى مسافة طويلة. فى أحيان أخرى، تأخذكن فى جولة طويلة فى الحى. تسرن فى شوارع مليئة بالأراضى الفضاء وبالحقول، تسمى ميسز جورج هذا (footing).

لا تحبين اللعب مع الأولاد؛ لأنهم كثيرًا ما يكونون عنيفين جدا بالنسبة لك، تفضلين أن يلقبوكِ بالجبانة عن اللعب معهم، ومن وحى أفلام رعاة البقر، يقترح أصدقاؤك أن تقفزوا من أعلى الجراج بدون أدنى تفكير فى نتائج هذه العملية التى يمكن أن ينتج

عنها كسر ساق أو الإصابة بجروح. ذهبت عزيزة لتقفز معهم خوفًا من أن تلقب بالجبانة، فعلت مثلهم وقفزت وهى تصيح: "تحيا كلارا بو!" بينما يجيب الآخرون: "تحيا جريتا جاربو!". لوى الطفل الصغير ساقه مرة، ويعتبر هذا معجزة لأنكم كنتم تقفزون من مسافة ثلاثة أو أربعة أمتار دون أن تحدث إصابات. لقد أشاد الجميع بعزيزة التى حاولت أن تبتسم، ثم انسحبت بعد أن قفزت، لكنها ستبوح لكِ فى اليوم التالى أنها شعرت بآلام شديدة فى سمانة الرجل وبطنها، واستمر الألم قرابة أسبوع.

يشرح لكم كبير الشلة بصوت منخفض وغامض كيف يُنجب الأطفال؟ لا يساعدكن كثيراً هذا الشرح غير الواضح فتلاحقن أصدقاءكن بالأسئلة التى يرفضون الرد عليها، وخاصة عندما يأخذون من الوصيف الذى يعمل عند أنكل محمد قصاصات ومجلات جنسية، قد وجدها فى صندوق قمامة سيِّده، مثل هذا الكتيب الذى استطعتما أن تقرآ عنوانه "قميص النوم الوردى" وعليه صورة لامرأة ترتدى قميص نوم شفافًا، يكشف عن ثديين كبيرين! رفض الصبية قراءة النص بصوت عالٍ: "هذه حكايات لا تليق بالفتيات" تتصوران أنهم أغلقوا على أنفسهم حجرة مكتب والدهم لقراءة هذا الكتيب الذى يبدو لكما مشوقًا.

وقعت هذه الأحداث الأخيرة أثناء مرض ست نينة التى لم تعد تظهر على مائدة الطعام منذ أكثر من أسبوعين. انفرط النظام بعض الشىء الذى دأبتم عليه، تأتى تاتى التى انفصلت حديثًا عن أنكل عثمان، وتشارك أختها فى غرفة نومها. لم تعد مامى وتاتى تخرجان كثيراً، وتحاولان دائما الوجود فى المنزل وقت زيارة الأطباء الكثيرة الذين كانوا يأتون للكشف على المرأة العجوز. طلبت منكن ميسز جورج أن تتذكرن ست نينة فى صلواتكن. تقدمتن فى الخط العربى وتستطعن كتابة بعض الجمل القصيرة وتحفظن عن ظهر قلب الفاتحة التى ترددنها كل يوم قبل النوم. لا تفهمى إلا الجملة الأولى التى ترجمها لكما أنكل محمد إلى الفرنسية "بسم الله الرحمن الرحيم".

تأخذن أثناء شهر رمضان، وقبل مرض ست نينة بقليل وجبات الغداء بمفردكن بصحبة ميسز جورج. يصوم الكبار ويأخذون إفطارهم عادة مع بعض الأصدقاء. تحبين أنتِ وعزيزة وأختك هذا الشهر. يقدمون لَكُنّ أحيانا أكوابًا من قمر الدين، وقد شرحوا لَكُنّ أن شهر رمضان هو شهر مقدس وتضحية ما لله من أجل مسح الذنوب! اقتنعتِ بهذا الشرح بدون نقاش. يردد والدك: "أنا لا أصوم لأنى أعانى من مشاكل فى معدتى والمرضى معفيون من الصوم". أمضى والدك أكثر من ثمانية وعشرين عامًا فى أوروبا، ولم يتلق أى تعليم دينى فى المدرسة أو فى الجامعة. تظنين أنه كان يعرف الفاتحة وسوف تكتشفين فيما بعد أنه لم يكن يهتم كثيرًا بالمسائل الميتافيزيقية.

هذا الاهتمام القليل لأسرتك وأسرة عزيزة بالشؤون الدينية شيء شائع فى أغلب العائلات الشركسية، كيف لهم أن يتعلموا القرآن ومعرفتهم باللغة العربية بهذا السوء؟ يواجه معظم الشيوخ الذين يعلمون أولادهم مبادئ الإسلام مشاكل كبيرة؛ بسبب لغتهم الأم وهى التركية أو الفرنسية وأحيانا الإنجليزية، وإذ لم يكن من المستطاع تعليمهم جمال لغة القرآن وثراءها، كانوا يكتفون بتلقينهم عن ظهر قلب بعض الأدعية.

-٧-

فى عصر هذا اليوم الربيعى الجميل، ومع غروب الشمس الساحرة، أنتِ وميسز جورج وعزيزة، وأختك تصحن بسعادة: "!What a beautiful sunset" وتتجهن إلى المنزل بعد اللعب فى الحديقة العامة. عند الاقتراب من أسوار الحديقة، تسمعن صيحات وبكاء وعويل النساء. "!Oh! My God": تقول ميسز جورج بهدوء وتشعرن بقلق وتقترين منها.

فى الحديقة، يستوقفكن البواب ويشرح لميسز جورج ببعض الكلمات الإنجليزية القليلة، إن والدتكن ترغب فى أن تذهبن عند آل راتب، ثمة شىء ما غريب يحدث. شىء ما حزين. تدفع ميسز جورج بكُنّ نحو بوابة آل راتب. "جدتى": تقول عزيزة وهى تبكى. لقد سمعت البواب يقول لميسز جورج "الست الكبيرة توفت". تصعدن عند أصدقائكن، وتجدن الأخوات الثلاثة وكأنهم فى انتظاركن منذ وقت طويل. "مساء الخير" يقول دجيهان كير "ادخلن" يبدون فى غاية الوجوم ولا يبتسمون. وفى صوت واحد ينطقون بجملة قصيرة تفهمونها بصعوبة: "تعازينا القلبية!" تتوقفان أنتِ وعزيزة عن البكاء، بينما تعتريكما رغبة عارمة فى الضحك، بسبب هذا السلوك المنضبط والغريب عليهم. تتبعهن إلى مكتب والدهم حيث نجفة كبيرة تضىء الغرفة رغم وجود ثنايا كثيرة غير مضيئة ومنذرة بالخطر، يذكرك المكتب الكبير وأرفف الكتب والفوتيات الجلدية الوثيرة بمكتب جدو الباشا، ولكن ليس هناك قطع من الحطب فى المدفأة، وبالتالى لا توجد نيران تتراقص فرحة، ولكن هناك جو من الإهمال الحزين يجعلك تستنتجين أن والد أصدقائكم لا يأتى إلى هنا كثيراً.

"Do you speak English boys?" سؤال ميسز جورج يجعلهم يبتسمون، ويقلل من وقع الحزن، ولكن يطرق الباب ويطلب من ميسز جورج أن تأتى بديدى لإعطائها وجبة العشاء ووضعها فى الفراش. سوف يأخذ الكبار عشاءهم عند آل راتب ويعودون فى العاشرة مساء.

أنتِ وابنة خالك سعيدتان بالعشاء مع أصدقائكما لأنكما ستستطيعان التحدث على راحتكما. فى المساء يصف لكما الأخوان الكبيران الطقوس التى ستتبع فى اليوم التالى. فقد عاشوا من زمن قريب. "سوف تدفن غداً فى مصلية عائلتها وسيتبع هذا ثلاثة أيام من الحداد، وترتدى النساء الملابس السوداء، وغدا فى الصباح سيقام سرادق كبير أمام البيت ستوضع فيه الكراسى لاستقبال الأهل والأقارب والأصدقاء، وهو مخصص للرجال فقط، وسوف يأتون لتقديم واجب العزاء إلى والدك يا عزيزة، بينما النساء تمكث فى المنزل" يتحدث الصبيان بصوت منخفض، وينتفض الجميع عندما تُحدث قطعة ما خشبية من الأثاث صوتا. يتصور دجيهان كير أن هذا شبح، هل توجد أشباح؟ فتحكى عزيزة ودجيهان كير عن القليل الذى يعرفونه عن الأشباح، بينما يستمع الآخرون بشغف. تلقيان ببعض النظرات من حين إلى آخر إلى الأركان المعتمة والمنذرة بالخطر، رغم عشقكما لهذه الحكايات واستمتاعكما بالشعور بالخوف. عندما تأتى إيرينى لتعود بكما إلى المنزل تدق الساعة الحادية عشرة. ترتدى فستانا أسود وعيناها حمراوان. تشدان على يدها وأنتما عائدتان إلى المنزل. تنتظر دادا نينة عزيزة، وتقبلها بشدة وهى تبكى، ثم تأتى ماما وهى مرتدية السواد وعلى رأسها منديل من الموسلين. تقبلكما ثم تأمركما بالذهاب إلى الفراش.

"يجب أن تكونا فى غاية الأدب. سوف تتناول عزيزة غدا إفطارها معكما، وستلعبان معها على السطح فى أعلى المنزل".

بعد أن تستعدى للنوم تحت الإشراف الدقيق لميسز جورج، تنظرين بحرص تحت السرير قبل الصعود عليه وبصوت مكتوم؛ بسبب الأغطية التى رفعتِها حتى رأسك تقولين "Mrs Georges Good night" قبل أن تطفئ النور، وتغلق الباب، لقد تعودتِ أنتِ وأختك أن تناما بمفرديكما فى غرفتكما، وكل الأنوار مطفأة. لماذا لم تأذن لكما ماما بالدخول عند ست نينة لتقبلاها للمرة الأخيرة كما حدث بالنسبة لوالدة آل راتب؟ "كان جسد ماما باردا جدا وساكنا" قال دجيهان كير "ثم أرقدوها فى نعش لدفنها فى الظلام تحت الأرض". تشعرين بقشعريرة لكل هذا المجهول الذى يأتى إليكِ.

بعض الأصوات فى الحديقة توقظك، وفى الحال تتذكرين ما شرحه لكِ أصدقاؤك وتفتحين الشيش. على أطراف البوابة، أقام الرجال سرادقا كبيرا عليه رسوم من جميع الألوان. تدخل إلى حجرتكما ميسز جورج التى سمعت الأصوات أيضاً "هيا يا بمبولى تعالى لتستعدى، وأنتِ أيضا يا ديدى. ارتديا الروب حتى لا تصابا بالبرد".

تتصاعين وبينما تنشغل مربيتكما بأختك، تذهبين إلى الشرفة حيث تأتى إليكِ عزيزة. إن التفاصيل التى أعطاها لكما أصدقاؤكما دقيقة، ولكن المقاعد الخشبية الموجودة فى سرادق الرجال وفى المنزل تبدو قبيحة جدا.

تسمعن أثناء الإفطار صوتًا أجش وهو يتلو الأدعية. بعد انتهاء الإفطار، تجلسن على مضض، بينما فتحت ميسز جورج كتابًا كبيراً من الحكايات المصورة، وتجعلكن ترددن الكلمات الجديدة بالإنجليزية، وتجتهدن فى نطق الكلمات جيداً للإسراع فى القراءة؛ لأن الحكاية مشوقة بعد قليل، تقطع عليكن أصوات مشوشة وضجيج سيارات وطرق أبواب تركيزكن. ترفعن رؤوسكن وتنظرن إلى ميسز جورج متسائلات: "It is nothing, the visitors are just going away". وفقا لشرح أصدقائنا، نعرف أن النعش سوف ينقل إلى الجامع ثم إلى المدافن.

إن عينَى عزيزة مليئة بالدموع "Come on Aziza!You are a big girl now". تجفف ابنة خالك جفونها وتستأنفان قراءتكما وقلبكما مقبوض.

تتبعان فى هذه الأيام الثلاثة، الجدول نفسه. كنتِ فى كل صباح تجتازين البهو الكبير المليء بالكراسى الخالية؛ لأنه ليس هناك ضيوف فى السابعة والنصف صباحا. كان الخدم يعملون بهمة لتنظيف الأشياء وإعادة الترتيب عند العودة من المدرسة، تمرين مع ميسز جورج من البدروم للوصول إلى غرفكن. تسمح لكُنّ ماما بتناول وجباتكن فى قاعة الكبار. كان والد عزيزة موجوداً دائماً وهو يأتى ويصحبته أقارب فى غاية الظرف، لقد فهمتِ أخيراً أن رجال العائلة يستقبلون العزاء فى السرادق، عندما جلست عزيزة فى اليوم الأول على يسار الكرسى الخالى الذى كانت تجلس عليه ست نينة، انفجرت فى البكاء، ولفرط دهشتك نهض والدها، وأحاطها بذراعيها وقبلها وهو يغمغم فى أذنيها ببعض الكلمات التى أدخلت فى نفسها السكون. لم تشعرن بالسأم؛ لأن الجميع يتناقشون، ويحصون الشخصيات المهمة التى أتت مثل الأمير الفلانى، والباشا العجوز (ص) وولديه الاثنين وبالطبع مندوب الملك فؤاد، كم هو كبير وسمين! ولكن ما هو اسمه! أما الباشا فهو رائع! من الغريب أنه كان مريضاً جدا! هل قابلتم زوجته الجديدة؟ جنسيتها مختلطة بين الإيطالية واليوغوسلافية، وكانت عشيقته من قبل. لم يبدُ عليه تقدم العمر بعد! وكم كانت طلعته جذابة! عن أى باشا يتحدثون؟ هل يتكلمون عن جدك؟ ولكنه غير متزوج... قد جاء حسن أيضاً! كل هؤلاء أتوا إلى السرادق. مامى وتاتى يتكلمان أيضا عن أسماء النساء، وتشرح والدتك لأقربائها "أنا وإنجى ارتدينا السواد على والدتنا وعلى ابن جولسن، وأخيراً على جدتنا... بناتى لديهما متسع من الوقت لاكتشاف الموت". بعد مرور الأربعين، بدت الأمور قد أخذت مجراها الطبيعى... الأمور كلها؟ هل أنتِ متأكدة؟ سارت المدرسة ودروس القرآن مع الشيخ شندى المجتهد والإنجليزية التى كنتما تتحدثان بها طيلة اليوم فى مجراها المعتاد، ولكن هناك بعض الجمل الصغيرة التى تسمعينها أثناء الطعام أو ينطق بها الكبار أو آل راتب التى تزعجك، وقد تجرأت وسألت بابى، فتنهد بعمق ثم قال: "أنتِ صغيرة على فهم معنى كلمة أزمة اقتصادية، أو انخفاض سعر القطن.. سوف نضطر

جميعا إلى عدم الإسراف". لم يستطع دجيهان كير أو أخوه أن يشرحا معنى هذه الكلمات، وفى يوم من الأيام، أبلغكن دجيهان كير أن والده يفكر فى الانتقال إلى مكان آخر... لأن إيجار منزلهم مرتفع جدا.

-٨-

يأتى اليوم الذى تجدين فيه نفسك مع أختك، وميسز جورج أمام بوابة البيت المفتوحة على مصراعيها. ها هى والدتك هنا أيضا، وقد ارتدت فوق رأسها قبعة، يعتريك قلق شديد هذه المرة، وكأنك تستعيدين مشهدا قديما قد عشته من قبل، ولكن الإطار فقط مختلف. ها هى عزيزة الحبيبة هنا أيضا وعيناها حمراوان، وهى واقفة بجانب الدادتين المتشحتين بالسواد واللتان تجففان أعينهما، وفى زاوية وعلى بعد، يقف كل العاملين فى وجوم وصمت، وتفهمين أنكِ من جديد سترحلين وتتركين بيت الزمالك ربما إلى الأبد.

"مع السلامة" تقول ماما، وهى تشد على أيدى المستخدمين الذين ينحنون ويقبلون يدها "ربنا معاكم" تضيف ماما أنتِ وديدى تتبعان ماما وتقلدانها "إلى اللقاء... إلى اللقاء" وتقول ميسز جورج التى تتبعكما "Good bye". تدفع عزيزة، التى تقف فى أسفل السلم، بوجهها فى صدر والدتك، وتنفجر فى البكاء "يا أبلة يا أبلة، لا ترحلى!" ثم تستدير نحوك، وتقبلك بشدة، وتقبل ديدى. تبكنَّ بحرقة أنتن الثلاثة، وتلتصقن ببعضكن.

"كفى بكاء" تقول ماما "ستتقابلن قريبًا، أعدكن بهذا. أنتن كبيرات الآن لا تستطيع عزيزة أن تأتى معكما، سوف تذهب إلى والدتها، ولكن سنتبادل الزيارات". كما فى المرة السابقة، تجلسان أمام والدتك فى الليموزين السوداء التى أتت بكما هنا منذ أكثر من خمس سنوات، وترين العلامات نفسها من خلال زجاج السيارة، لكن هذه المرة

تشـيرين إلى عـزيزة وليس إلى والدك، ويصبح حـجـمـهـا أصـغـر فـأصـغـر وسط أوراق الجهنمية التى تحيط بجدار المنزل. تظل عيناك متسمرتين على هذا البيت حتى يختفى فجأة، لن تعودى إليه أبداً. ينزوى بعيدا جزء من طفولتك مع هذا المشهد.

(٢)

عام الجراد

-١-

تلاحظين بالكاذ المسافة التى قطعها سائق الست نينة وتندهشين فقط عند اجتياز الكوبرى الجديدى فتشرح لكما مامى حينئذ: "سنمكث بعض الوقت عند طنط زهرة لأننا لن نستطيع أن نعود إلى بيت شبرا، فجدكما على وشك الانتقال فقد اشترى بيتًا فى المعادى. لا، يا بمبولى الحبيبة ليس بيت والدك فهو صغير جدا، فلا تسألى أسئلة كثيرة. سوف نكون على ما يرام عند طنط زهرة ".

تحبان هذه المرأة العجوز الضريرة. تتوجه إليكما كثيرًا طنط زهرة على مائدة الطعام وتسألكما فى كل المواضيع وتريد دائما أن تعرف لو أنكما أحببتما الحلوى التى قدموها على المائدة.

"ماذا تحبان أن تأكلا غدًا يا بناتى الصغار؟ عرق عسلى بالبيشاميل أو أم على؟" لن تنسى أبدًا حلوى أم على التى يعدها طباخها، فهى أفضل أم على تذوقتها فى حياتك. على كل حال فقد اكتشفتِها لأول مرة عندها.

ابن طنط زهرة الوحيد وهو أنكل "عصمت" ليس وسيمًا بشاربه الذى يشبه شارب والدك، وهو دائما حاضر فى وقت الطعام ولا يتأخر إطلاقًا. لا يناغشكما كثيرًا، ربما لأنه منهمك فى مساعدة والدته على تناول الطعام وتقطيع اللحم لها. فهو حريص جدا عليها وتشعرين أنه يحبها كثيرًا.

الحديقة التى تمتد خلف البيت يعزلها عن بيت جدى الباشا سور مشترك يكسوه نبات الحلوة والياسمين. ولكن يا له من فرق بين الحديقتين! لا تحبين على الإطلاق حديقة طنط زهرة فلا يوجد فيها بساط أخضر من الحشائش وبها زهور قليلة وكثير من النبات غير المهذب. "هذه حشائش ضارة" كما كان سيقول بابا. ويوجد فيها أيضًا بعض الورد البلدى الهزيل، وشجرتان من الجوافة، وشجرة مانجو. ولا نستطيع أن نلعب فيها استغماية.

بينما تنشغل ميسز جورج بديدى، تتفحصين الدور الأول. كل أبواب الغرف مغلقة عدا بابًا واحدًا. من يشغلها؟ تتقدمين على أطراف أصابعك وتجدين الغرفة خالية، ولكنّ شيئًا غريبًا يلفت نظرك. تتوجسين وتدخلين فى الغرفة لتتفحصى هذه العلبة الكبيرة المربعة المغطاة بأنبوبة كبيرة جدا.

"ما بكِ يا بمبولى؟" تنتفضين عند سماعك صوت أنكل عصمت وتستديرين وحمرة الارتباك على وجهك. "أيعجبك الجرامافون؟"

"أهذا جرامافون؟" تتساءلين وقد هدأتِ. "ماذا تعنى كلمة جرامافون يا أنكل عصمت؟". يمسك أنكل عصمت المقبض باستمتاع. تنظرين إليه وهو يعمل وأنتِ مبهورة. ماذا سيحدث؟ تلاحظين دائرة سوداء موضوعة على العلبة: "هذه أسطوانة"، يقول الخال ثم يضع بتؤدة شيئًا مستديرًا، فى طرفه إبرة على الأسطوانة وفى الحال، تملأ أنغام الموسيقى العربية الغرفة. موسيقى غريبة يخترقها فجأة صوت امرأة رخيم وفريد من نوعه.

"جميل أليس كذلك؟ ليس لأم كلثوم مثيل" لكنك لا تستسيغين كثيرًا هذا النوع من الموسيقى. يغلق أنكل عصمت الجهاز، "حان وقت الغداء. سوف تأتى فى يوم آخر لسماع أسطوانات جديدة، ولكن لا تحاولى أن تديرى الجهاز بمفردك، فيمكنك أن تحدثى عطلاً به".

-٢-

"حسنًا يا بمبولى"، تقول هذه العبارة ميسز جورج وهى تغلق كتاب النحو: "يكفى هذا القدر اليوم، اذهبى مع أختك إلى الحديقة". تقفز ديدى التى ترسم وهى جالسة على الأرض: "هيا، لننزل". ميسز جورج متعبة بعض الشىء اليوم وقد أرجأت الـ-foot) (ing إلى الغد. متى ستلتقيان بعزيزة؟ لقد ذهبتما عند والدتها مرة واحدة لتناول الحلوى منذ انتقالكما هنا. لماذا لم تجب عليكِ مامى عندما طلبتِ منها أن تدعو عزيزة. أما بالنسبة لآل راتب فإنكما لا تريانهم على الإطلاق! لم تقل لكما ماما سوى أنهم تركوا منزلهم ويذهبون إلى مدرسة الليسيه الفرنسية. ما يعنى هذا؟ أليس لديهم عطلة؟ ماذا يحدث؟ ما هذا؟ ترتفع نداءات وأصوات وصراخ من الشارع وتسرعين أنتِ وميسز جورج وديدى إلى الشرفة.

"الجراد النجدة! النجدة الجراد! أنقذنا يا رب!" يهرول المارة فى كل الاتجاهات، بينما يصرخ آخرون ورؤوسهم متجهة إلى السماء: "أترون الجراد؟ يا خبر أسود! أنقذنا يا رب! " فيتبين لكُنّ الأمر. نقاط سوداء كبيرة فى السماء الزرقاء! نقاط تتسع ثم تتحول إلى بقع سوداء واسعة تتحرك وهى تحدث صوتًا غريبًا. فى الدور الأرضى، يرتطم الشيش بزجاج النوافذ وتُسمع أصوات خطوات مهرولة. تفتح إيرينى باب غرفتكما "أغلقوا كل شىء! بنايامو! الجراد!" تنصاع ميسز جورج إلى أوامرها وقد فهمت أخيرًا معنى كلمة الجراد. هى وإيرينى يغلقان الشرفات. فى هذه اللحظة، يهجم سيل من الجراد على البيت. "يا إلهى يا ميسز جورج! أترين حضرتك، إنهم يدخلون! " تتراجعين خائفة. استطاع بعض الجراد الضخم أن يتسلل من فتحات الشيش ويتخبط

على الزجاج المغلق. تمسك ديدى بجونيلة إيرينى التى تحيطها بذراعيها: "لا تخافى يا حبيبتى". وتضيفين لتهدئتها: "لا يستطيعون الدخول". ولكن نظراتك متحجرة على هذه الحشرات الكبيرة ذات اللون البنى. "هل تظنين أنهم سيموتون يا ميسز جورج؟ أرى حشرة ذات ساق مكسورة...".

"يا ميسز جورج"، تنادى عن بعد خادمة، "صالحة هانم على الهاتف... ما هذه المصيبة يا رب!". تقترب منك ديدى وقد اطمأنت بعض الشيء وتبدو مأخوذة بهذه الحشرات الهائجة. لم تر قط جراداً بهذا الحجم بل بالعكس كنتِ تعجبين بهم وتجدينهم فى غاية الجمال خلال جولاتك فى حدائق جدو الباشا أو عند والدكما. وقد أمسكتِ مرة جرادة صغيرة وخضراء بين أصابعك. "ليست بهذا الجمال"، كما كان يقول بابا، "هذه حشرة من عائلة الجرادات وهى ضارة جداً. تلتهم هذه الحشرات الورد وأوراق الشجر والنبات وكل شيء أخضر، ويأتون أحياناً فى مجموعات ويهجمون على الحقول والبساتين. هذا وباء للإنسان" ماذا تعنى كلمة وباء؟

تعود ميسز جورج: "لن تستطيع والدتكما تناول الغداء معكما وتطلب منكما التزام الهدوء وألا تذهبا إلى خارج المنزل.سوف تعود بعد زوال الجراد".

"متى سيرحلون؟ "تسأل ديدى" صعب جدا أن نظل محبوسين".

"وماذا أستطيع أن أفعل؟"، تبتسم لكما ميسز جورج، "أنا أيضا أريد الخروج"

"هذا عقاب الله"، تقول خادمات طنط زهرة، "ماذا سيحدث لنا يا رب؟"

حان وقت الغداء. تهبطان الدرج مسرعتين لأنكما مشتاقتان لسماع ما سيقوله الكبار.

تُضَـاء غرفة الطعام بثلاث لمبات جاز فقط والشيش والزجاج مغلقان.

على المائدة، يبدأ أنكل عصمت فى تحضير طبق والدته: "إليك يا ماما هذه مكرونة فى الفرن، احترسى فهى ساخنة جدا".

"شكراً يا عصمت. هل الموقف خطير؟".

"بالطبع!" يجيب أنكل عصمت وهو يغترف بعض الطعام لنفسه: "هذه مصيبة كبيرة! ثمن القطن انخفض بشدة. لم ينقصنا سوى هذا! سوف أسافر غداً فى الصباح الباكر. يجب أن أحصى بنفسى الخسائر". تومئ طنط زهرة برأسها وهى تضع الشوكة على الطبق "حسناً يا حبيبى. فأنت يجب أن تسافر. هل لديك فكرة عن الاتجاه الذى سلكته هذه الحشرات القبيحة؟".

"لا أحد يعرف. بعض الناس يقولون إنهم اتجهوا نحو الجنوب".

"أتمنى ذلك" تقول طنط زهرة..

تتعجبين. "ما أهمية الاتجاه الذى سيسلكه الجراد؟" تطول فترة احتساء القهوة. لقد تسربت حشرات كثيرة من بين فتحات الشيش. سيختنقون. ترغبين فى الخروج لرؤية ما يحدث فى الشارع، ولكن حينئذ تأتى والدتك وخلفها والدك إلى غرفة الطعام.

"إنها تتجه نحو الدلتا"، يقول بابا بعد أن يقبل يد خالته... "هذه كارثة كبيرة. جئت بصعوبة كبيرة.. أنا أتيت مباشرة من الكلية..".. "لا.. شكرا" يقولها للسفرجى الذى يضع طبقين على السفرة وترفض ماما أيضًا "أنا انتهيت من تناول غدائى... يبدو أن الجراد اتخذ اتجاهاً آخر وذهب نحو الجنوب يا حسن.. أتمنى يا بنات ألا ترتعبان كثيراً بسبب هذه الحشرات".

تومئين أنتِ وأختك برأسكما: "بعض الشىء" وتضيفين: "ألا نستطيع يا مامى الذهاب إلى الحديقة؟".

"بمناسبة الحديقة"، يقول بابا، "لم يعد فيها شيء! قضت هذه الحشرات القبيحة على كل شيء. لكن أظن يا صالحة أن البنات يمكنهما النزول إلى الحديقة، فلم يعد هناك خطر. سأذهب لإحضار والدى لكى آخذه إلى المنشية. قام الخولى بالإجراءات المناسبة ولكن علينا أن نباشر الأمور بأنفسنا. حظ سعيد لك أيضًا يا عصمت. سأترككم الآن وعند عودتى سأبلغكم آخر الأخبار بالهاتف. إلى اللقاء يا أطفال".

تنتظرن أنتن الثلاثة أن تختفيا طنط زهرة وماما فى السلم لفتح باب المنزل.

"يا إلهى كم هذا فظيع!" تصيحين عند رؤية المشهد الذى يتجلى أمامكن. My God, "what a mess!" : تصيح ميسز جورج، "لم تعد هناك أية ورقة شجر ولا وردة واحدة". تنتصب جذور الشجر والأغصان العارية على أرض جرداء يتخللها جراد كثير ميت. يزيح عامل الحديقة واثنان من مساعديه باستخدام جرافات كبيرة الحشرات المثقلة من كثرة الأكل ويضعها الرجال الثلاثة فى أكياس كبيرة من الخيش. ببطء وعناية تنزلين درجات السلم. تسيرين بحذر لأنك لا تريدين أن تضعى ساقيك على إحدى هذه الحشرات فهذا مقزز. تضغط ديدى على يدك ووجهها المشمئز يثير فى داخلك الضحك.

"تعالى يا ديدى تعالى نر ماذا فعل الجراد فى حديقة بيتنا". تنظر إليكما ميسز جورج بعينين قلقتين وتتبعكما وهى تحاول أن تتفادى الجراد. تسيران نحو الجدار العازل بين البيتين. قبل غزو هذه الحشرات الشرسة كنتما تستطيعان أن تحركا أوراق النبات الكثيفة التى كانت تفصل بين الحديقتين، ولكن اليوم الأغصان العارية من الحلوة والياسمين تلتف حزينة كالأفعى حول السور الحديدى وقد اختفت أوراق الأشجار والورد من الحائط السميك. تستطيعان أن تتفحصا الآن بحرية كاملة البقايا الحزينة لحديقة جدى الباشا التى كانت ساحرة بالأمس!.

فى عمق الحديقة، على اليمين، يظهر البيت الكبير الذى ولدتما فيه ومن حوله تبدو الأشجار والشجيرات عارية تمامًا وقد اختفى الحشيش الأخضر الجميل! فى هذه الأيام، تتطاير من حولك جمل قصيرة وكلمات تبدو فى الأغلب متشابهة وهى تهرب قبل أن تفهمى معانيها ولكنها تعود فتؤرقك؛ لأن الذين يتلفظون بها يبدون مهمومين وعابثين. وكثيراً عندما يكتشف أحدهم وجودك يصمت فجأة ولا ينبس بكلمة ويحاول جاهداً أن يبتسم لكِ. لا تجرؤين على سؤال ماما عمًّا يدور وتتمنين أن تقابلى عزيزة وأخوتها وآل راتب، ولكن تشعرين أن هذا ليس بالوقت المناسب.

"يا له من عام!" تتنهد ماما، "وفاة جدتى والأزمة التى تدفع بنا على حافة الإفلاس، والآن الجراد الذى التهم كل المحاصيل. احفظنا يا رب! يا ليتها تكون الحادثة الأخيرة".

"مصيبة سوداء! هذه إرادة الله! احفظنا يا رب! هذا قدر! هذا مكتوب!" يصيح الخدم والطباخون والغسالات والبستانية وحتى عائشة مرضعة ماما التى تأتى مرة كل أسبوع لغسل الشعر. هؤلاء البشر البسطاء الذين تعاشرينهم وتحبين أن تتحدثى معهم وتنظرى إليهم وهم يعملون وتسألينهم أسئلة عديدة. تتعرفين من خلالهم أن الجيران الذين يقطنون المنزل المقابل قد انتقلوا إلى مكان آخر. فقد باعوا قصر شبرا وطردوا نصف العاملين لديهم وسافروا للسكن فى فيلاتهم فى الإسكندرية. دعت ماما أولادهم إلى أعياد ميلادك فى الزمالك وأعياد الكريسماس. تتبعين بنظراتك حركات أيدى أسطى حسن وهو يعجن.. يبدو صغيراً جدا وسميناً جدا وهو أصلع تقريبا، ولكن لديه شارب جميل ذو أطراف ترتفع إلى أعلى مثل شارب الملك.

"من ذا الذى سيأتى بعمل لأخى؟" يقول أسطى حسن وهو يقلب العجين، "فهو يطهو أفضل منى. هل فى استطاعة فلان باشا أن يعطيه نفس الراتب الذى كان يتقاضاه من قبل".

"لا يا مدموازيل بمبولى لم يطرد جدك بعد أحداً. لقد أعطوا للسايس راتبه؛ لأنه لم يعد يستطيع أن يعمل وأصبح مسنًا جدا. وعلى كل لقد باعوا الحنطور والأحصنة".

"هل سمعتم آخر الأخبار؟" تصيح خادمة طنط زهرة التى دخلت إلى المطبخ لتعد لنفسها كوبًا من الشاى "سيترك فردان آخران شبرا! الأمير "ص" والباشا "ع"! خالتى بلا عمل! يقولون إنهم باعوا الأسِرَّة وكل أثاثهم!"

"احفظنا يا رب! وماذا سيحدث لنا، هل تعتقدون أن الست زهرة ستمكث هنا؟ يبدو أن عصمت بك فى أزمة، ماذا سنفعل إذا باعوا المنزل وطردونا؟".

لا لن يطردوا. ولن تترك طنط زهرة هانم شبرا ولن يرحل أحد سوى وصيف زوج ابنها المتوفى. أما بالنسبة لوصيفة جولسن هانم فستعود إلى عائلتها بعد وفاة سيدتها. ستظل زهرة هانم وابنها عصمت وحيدين بعد رحيل صالحة هانم وبناتها فى البيت الكبير الشديد القدم المائل إلى الاصفرار ذى الشيش البنى الداكن الذى سيظل صامداً بشجاعة وهو أحد البيوت القليلة التى لا يزال أصحابها مقيمين فيها.

بعد وفاة زهرة هانم وابنها بوقت طويل سيبيع الورثة المنزل وستتحول شبرا الأنيقة التى خلت من كل مظاهر الثراء بسكانها الأغنياء إلى حى تجارى وشعبى.

-٣-

طريق المعادى فى الساعة الرابعة بعد الظهر. تجلسين أنتِ وديدى على يمين والدكما الذى يقود سيارته البويك الجديدة بزهو. هذه هى زيارتكم الأولى لجدو الباشا فى بيته الجديد.

"ستشاهدون" يقول بابا "فإنكما ستتعرفان على كل شىء. والدى باع جزءًا صغيرًا من أثاثه". تنصتين إلى حديثه بينما تتأملين باهتمام كبير شابين مراهقين عاريين والماء يتسال من فوق أجسادهما! وهما ضاحكان على شاطئ النهر. لقد اكتشفتِ عضو الرجل الذكورى من خلال جولاتكما فى السيارة على امتداد النيل. رأيتِ على طول الشاطئ، المزروع بالشجيرات الصغيرة، رجالاً وصبية يلهون فى المياه العكرة وهم عرايا، خاصة فى الصيف. فى أحيان أخرى، يظهر لكِ فلاح يرفع جلبابه ليتبول. "أيعنى هذا أن جدى لم يعد لديه مكتبة". تسألين هذا السؤال وكأنك غير مكترثة بما يحيط بك وقد ابتعدت السيارة عن النهر.

عند دخولك إلى المكتبة يطمئن قلبك تمامًا. تبدو الغرفة الكبيرة التى تعشقينها كما هى وقد انتقلت من شبرا إلى المعادى. كل الحوائط مكسوة بالكتب وفى المدفأة تشتعل نيران الحطب. يضحك جدو وتظهر ثنايا حول أنفه بينما يقول له بابا: "كانت بمبولى قلقة جدا وخائفة أن تكون قد تصرفت فى الكتب، فأنت كما تعرف حضرتك تقرأ كثيرًا". تدخل، فى هذه اللحظة، امرأة طويلة وممتلئة. "ألقوا التحية على طنط مريات يا بنات". هى امرأة شقراء ذات عيون زرقاء وتغطى وجهها بكثير من البودرة وأحمر شفاه ثقيل. تنحنى لتقبلكما قبلة رطبة. تمسحان على أثارها خدودكما وقد وضعت عطرًا

نفاذاً يفوح منه رائحة السكر. مدام مريات هذه هى زوجة جدى الباشا الجديدة وهى أقل جمالاً من (تانتين)، زوجة جدك الآخر. تتحدث فرنسية عجيبة مليئة بالأخطاء ولا تنطق حرف الراء مثل الفرنسيين!. عندما تتحدث بإسهاب يكون لها صوت حاد وزاعق وهى تشكو من الخدم ولكن جدى يقاطعها متذمراً " كفى يا مريات كفى ".

حكت لكِ وصيفة طنط زهرة "عندما مرض محمد باشا المسكين فى العام الماضى لم يكن أحدٌ بجانبه. كان وحيداً تماماً فى البيت الكبير! ثم جاءت صديقته مدام مريات لتعتنى به. لم تتركه بتاتاً. ظلت بجانبه فى الليل والنهار، لمدة ثلاثة أشهر. ثم جاءت زهرة هانم لزيارته وكنت موجودة لأنى جئت معها. وقد سمعتها تقول لأخيها: "لماذا لا تتزوج بهذه المرأة يا محمد؟ فقد مكثت بجانبك ثلاثة أشهر فى خدمتك. تحتاج إلى امرأة تعتنى بك وترافقك وتدير منزلك. وعلى كل حال فكر فى موضوع الفضيحة". يبدو لكِ أن طنط زهرة على حق ولكن لم تفهمى كلمة (فضيحة)، هل معناها أن مدام مريات تعمل ممرضة لجدك؟. لاحظتِ أن بابا لم يكن يقدرها على الإطلاق برغم من طيبتها وتفانيها. ترتسم على شفتيه ابتسامة صغيرة ساخرة وربما مهينة عندما كان ينظر إليها. يبدو عليه الانفراج عند خروجها من المكتب أو عند غيابها. لا تحبها أيضاً مامى و(تانتين).

ويظهر هذا جليا على وجوههما. لقد سمعتِ مصادفة أجزاء من جمل تفوهت بها والدتك: "بابا يتساهل معها جدا. لا يرفض لها طلباً! تفعل به ما يحلو لها". مسكين بابا لم يعرف والدته فقد توفت بعد يومين من ولادته وكذلك مامى وتنتين اللتان فقدتا والدتهما وهما صغيرتان جدا. تشفقين عليهما. إن حظكما لكبير لوجود ماما بجانبكما. فهى أم جميلة وطيبة جدا، ولكنها صارمة بعض الشىء.

-٤-

لم يستطع أحد من العائلة السفر إلى أوروبا فى الإجازة فى صيف سنة الجراد ومشاريع صالحة هانم للسفر معكما إلى بياريتز أُجلت إلى السنة المقبلة. تهوّن الدتكما على نفسها وتقبل بنفس رحبة دعوة طنط زهرة "أنتِ تعرفين يا صالحة أن بيتى فى زيزينيا كبير تعالى اقضى الصيف مع بناتك عندى، ستَكُنَّ سعيدات بالحياة على شاطئ البحر. أنا متأكدة وسيكون شيئًا جيدًا لصحتهن". بيت زيزينيا عبارة عن مبنى كبير وقبيح فى مواجهة البحر الذى تفصله عنه بوابة عالية. الشاطئ ليس كبيرًا والبحر مخيف بسبب تياراته الخطيرة حتى عندما يكون هادئًا، وهو كثيرًا ما يكون هائجًا ويعتليه غالبًا الراية السوداء. عند استيقاظك تفتحين الشرفة وترين راية بيضاء أو حمراء أو سوداء. فى كل صباح تخرجان وتسيران بعض الخطوات ثم تهبطان الدرجات الأربع. أحد خدم طنط زهرة يغرس الشمسية فى الرمال ويفرد الكراسى والفوتيات. تخلع ديدى وأنتِ برنسيكما لكى تلعبا على سجيتكما، وتجلس ميسز جورج على فوتيل وتراقبكما وهى منشغلة بالتريكو. ديدى التى تخشى الماء تبنى بهدوء قصورًا من الرمل بدون أن تزعج مربيتها وعلى النقيض تقفزين أنتِ نحو الأمواج، وعندما ترتمى موجة عليكِ تقدمين لها نفسك وأنتِ تقهقهين. عندما يكون البحر هادئًا تتقدمين نحو البحر وتجلسين على شاطئه. تضطر ميسز جورج باستمرار أن تناديكِ وتبلل حذاءها السميك لإخراجك من المياه. تصطحبكما مامى أحيانًا إلى حمام السيدات فى سان استيفانو. تلعبان فى الماء بأمان وأنتما ممسكتان بالحبال الكبيرة الممتدة للذين لا يعرفون السباحة. تعشقين البحر سواء أكان هادئا أم هائجا، تحبين هذا الشعور والأمواج تغطيكِ عندما تستلقين على ظهرك كما علمك والدك. تحبين تلك الرائحة

الخاصة التى تستنشقينها عندما تقتربين من الإسكندرية. رائحة اليود والملح التى لا تعرفين مصدرها فى هذا الوقت. عندما لا تكونين على شاطئ البحر تظلين لفترات طويلة ساكنة أمام هذا الاتساع الشاهق لهذه المياه الدائمة الحركة. عالم من اللامنتهى لونه أخضر أو أزرق أو غامق يؤثر فيكِ ويجعلك تحلمين. كم هو جميل هذا البحر عندما تندفع أمواجه المليئة بالرغوة الغاضبة نحو الشاطئ، وهى تترك سحابة من الورد الأبيض الصغير جدا! بعيداً ترتسم فى الأفق أشرعة المراكب المتواضعة للصيادين، أو الأجسام المظلمة للسفن التى تنسال على المياه آتية من بلاد بعيدة. تذكرك هذه السفن بسفرياتكما من الإسكندرية إلى مرسيليا. أنتِ ووصيفتك كنتما الوحيدتين اللتين لم تصابا بدوار البحر! حتى ديدى كانت مريضة.. كانوا يربطونها كالكلب الصغير، وفى يوم عندما كنتِ تجرين على سطح السفينة أوشكتِ على التزحلق من أعلى السفينة!

تذكرك زيزينيا بيوم ١٤ يوليو فى كل سنة فى مثل هذا التاريخ يقيم الكازينو حفلاً راقصاً، وعند الثانية عشرة من الليل تنطلق الصواريخ النارية فى السماء، توقظكما ميس جورج قبلها بثوان. ترتديان على عجل الروب والجاكيتات، وتسرعان نحو السطوح الكبير المواجة للبحر حيث جلس كبار السن.

تتابعين أنتِ وديدى فى انبهار هذا السحر من النجوم متعددة الألوان التى تصدر صفيراً ثم تنفجر لتنفتح فى السماء العميقة قبل أن تنزوى بغموض فى المياه الداكنة.

حتى تاريخ وفاة طنط زهرة، وعندما لا تستطيع والدتك أن تذهب إلى أوروبا ستقضين شهور الصيف الثلاثة فى زيزينيا. تحتفظين بذكريات ممتعة مثل هذا اليوم الذى قضيتماه فى أبى قير مع ابنة خالتك (ماهيتاب شريف) وهى حفيدة طنط زهرة التى كان والدها متزوجًا ابنتها الكبرى، والتى تأتى كثيرا لتنضم إليكما فى زيزينيا

لزيارة ماهيتاب ابنة (حسن شيرين) زوج ابنة طنط زهرة والتى تزوجت حديثًا الأمير (طوسون). كانت قد أرسلت سيارتها، وقد قادكما السائق ذو الملابس الرسمية إلى بيت الأمير. أذهلكما هذا الزواج؛ لأن ماهيتاب لم تتعد ربيعها الخامس عشر.

يمر أمام عينيكِ فضاء كبير من الرمال يتخلله الزرع المزدهر وشاليهات خضراء مقامة على أعمدة فى وسط جبال الرمال، درجات سلم تفضى إلى الشاطئ وبقيادة الأميرة الجميلة تذهبن للتزحلق من أعلى جبال الرمال. تستمتعان جدا ويأتى بعد ذلك حمام البحر فى مياه هادئة وشفافة ليزيل عنكُنَّ الرمال الملتصقة على أجسادكما، تملآن الفضاء صخبًا وقهقهة حتى توقفكما خادمة "محالينا" وصل و" يطلب من سيادتكما أن تجهزان للغداء" يبدو عليكما الاندهاش وأنتما تمدان يدكما إلى الأمير، تتناولان الطعام بحرص شديد من الصحون التى يقدمها لكما رئيس الخدم ذو القفاز الأبيض، وأنتما جالستان مستقيمتين حول مائدة كبيرة مستديرة يبعد زوج ماهيتاب كل البعد عن تصورك عن أمير الأحلام! وجهه مستدير، وذقنه رقيقة جدا، وشعره داكن ولامع بسبب الكريم الملمع. فهو عجوز ويمكن أن يكون والد ماهيتاب. كيف استطاعت صديقتك الرائعة أن تتزوج من هذا الرجل الذى يبدو أكبر سنًا من بابى. هل هى تعشقه؟. فى المساء عندما تأتى والدتكما وتجلس بجانبكما تنطلق ضاحكةً وهى تستمع إلى ملاحظتكما عن الأمير الذى لا يعجبكما. وتصيح ديدى "هذا الرجل عجوز جدا! بابا أجمل وأصغر من هذا الرجل العجوز".

"اخرسى يا ديدى لا تتكلمى هكذا عن الأمير، ثم إن والدكما ليس عجوزًا والأمير أصغر منه بعامين أو ثلاثة. ولا تنسوا أنه أمير من العائلة المالكة، وماهيتاب أصبحت أميرة. ثم إن الوقت متأخر وأنتما مرهقتان، هيا إلى السرير...".

مع والدة مثل والدتكما لن تمضيا الصيف دائما فى زيزينيا فماما تعلن كثيرا أنها لا تحب الإسكندرية.

تتذكرين أنه فى يوم ما ربما بعد غياب طنط زهرة قد أغلق ماما وبابا باب الصالون، نبرات صوت عالية مع محاولة السيطرة عليها، كانت تصل إليكما. ديدى كانت قد سألت: ماذا يحدث "اخرسى... يتعاركان علينا" ستفهمين فيما بعد أن والدتك كانت ترغب فى قضاء شهر أو اثنين فى أوروبا معكما، وكانت تطلب من والدكما أن يزيد من مبلغ المال الشهرى الذى كان يعطيه لها، وهذه النقاشات حول السفر إلى أوروبا ستستمر كل عام حتى الحرب. وتلجأ أحيانا ماما إلى والدها وعمها. تعشقان السفر والتحضيرات العديدة التى تصاحبه، وخاصة أنكما الآن وقد كبرتما لن تصطحبكما مربية. تسافران مع ماما وهذا رائع! القطار أولاً ثم الباخرة. عندما تبحر الباخرة ينتاب ماما وديدى دوار البحر، بينما تتجولين بمفردك على سطح المركب مثل الكبار. تتذوقين الحساء الذى يقدمه الصبية وتستمرين حتى الساعة العاشرة فى تفحص الباخرة. تنظرين إلى المسافرين وهم يلعبون لعبة البينج بونج، أو لعباً أخرى، ثم تلحقين بمرضاكِ فى الكابينة. يأتون إليكما بالوجبات فى الكابينة. فى الأيام الأخرى تتجولين مع ديدى، وفى الليلة الأخيرة تستعدان بمساعدة ماما لحضور الحفل الراقص، تستمتعان جدا بمشاهدة الراقصين وبالسخرية من بعضهم. هذا لطف كبير من ماما التى تقول لكما: "من فى سنكما لا يذهبان إلى الحفلات الراقصة!" أخيراً يحين الوصول. فى مواجهة الجبال التى تكسوها الغابات، تضطر ماما أن تنادى عليكِ

أكثر من مرة لتأخذك من هذا المشهد، تجلسان فى القطار الذى سيقودكما إلى باريس بعد تذمر حاملى الحقائب بسبب ثقل وزن حقائبكما.

ثوانٍ بعد رحيل القطار، تسمعان رنينة عاليا يصطحبه صوت ينادى: "المطعم مفتوح! الميعاد الأول!" تطلب ماما من المسئول أن يحجز لها طاولة لثلاثة أفراد. لن تنسى أبداً من هذه الفترات الرائعة الآيس كريم بالفواكه! الذى تعشقينه، وهذا الآيس كريم بالقهوة يبدو الحلوى الوحيدة المقدمة للزائرين فى كل سفر من سفرياتك!.

الواحدة تلو الأخرى تغسلان أسنانكما بأفضل ما تستطيعان؛ لأن ماما تراقبكما وتصعدان إلى "الدور الثانى". فى كل مرة تتخبط سيقانكما وتتشاجران لأن إحداكما قد جذبت الغطاء وكشفت ساق الأخرى!

باريس فندق نابوليون وشارع فريد لاند. فى اليوم الثانى لوصولكما، دخلت امرأة صغيرة ممتلئة بعض الشىء ذات شعر رمادى إلى الحجرة بصحبة ماما "آه يا بنات، مدام كوست ستأتى كل يوم لتأخذكما فى فسحة." يتضح لكما أن مدام كوست ظريفة جدا "فهى تمشى كثيرا جدا" ستقول ديدى فيما بعد. أخذت مدام كوست بعض التوصيات من والدتكما؛ لتقوم بجولات فى كل مكان فى باريس وزيارة أسبوعية إلى اللوفر! "يجب أن يتعلما" قالت ماما: "اختارى أيام المطر للوفر وفى الجو الجميل اصحبى البنتين للفسحة فى الشانزيليزيه القريبة جدا، أو فى البوا دى بولونى وفى حدائق أخرى مثل التويرلى، والعودة إلى الفندق فى السادسة مساء، وبعد ذلك الاستعداد للعشاء فى المطعم، ثم الصعود للنوم" وهذا ما حدث!.

الشانزيليزيه يبهركما لأنه فى آخر هذا الشارع البديع يوجد كشك صغير للأراجوز، وأرجوحات خشبية ستدوران وتدوران داخلها فى محاولة لالتقاط حلقات باستخدام عصا. يبدو لكما هذا سهلا لكنكما لم تستطيعا على الإطلاق أن تنتزعا كل الحلقات اللازمة لربح سكر النبات! الزيارات العديدة التى تقومان بها للوفر لا تثير

إعجابكما بشدة؛ فهى متعبة جدا. تتبع مدام كوست تعليمات ماما بالحرف الواحد..ساعتان! أمام تماثيل الرجال العرايا تضحكان "شايفة الشالشولة بتاعته!" تقول ديدى بصوت منخفض "هذه كبيرة جدا!" كلمة كاندا ينطقها أصدقاؤكما من آل راتب باللغة التركية، وبالطبع لا تفهم مدام كوست التى يبدو عليها الارتباك وتطلب منكما تتبع الزيارة التى تجرونها بدون انتباه إلى شرح مدام كوست أمام اللوحات الرائعة التى لا تستطيعان تقديرها. ولكن عندما تجدين نفسك أمام الجيوكاندا تمكثين وقتًا أطول "لماذا تنظرين إليها هكذا؟" تغمغم ديدى التى تزج بساقيها "لو مكثتِ كل هذا الوقت أمام كل لوحة لن نخرج من هذا المكان!". فى قاعة روبينز. لا تفهم مدام كوست اهتمامكما القليل أمام اللوحات الضخمة لهذا الفنان المعجب بأجساد النساء العاريات. أنتما غير معجبتين على الإطلاق بهذا العرض من اللحم البشرى، وديدى تغمغم بالطبع. هذه المرة تشعرين أنها على حق "لم ننته بعد!" تقول "مش قادرة! أنا لم أعد قادرة. ألا يمكن أن تقولى للمدام أن تتوقف. لم أعد قادرة على تحمل هذه النساء العاريات المليئة باللحم. لا يعرف روبنز أن يرسم شيئًا آخر!" ديدى منهكة جدا وعلى وشك البكاء. تقولين للمرأة المجتهدة "مدام كوست" "نحن مجهدتان! ديدى لم تعد قادرة!" تجيب مدام كوست "هذا يكفى اليوم وتعاليا إلى باب الخروج". هذه المرة ستوقف تاكسى سريعًا لأنها لاحظت الدموع فى أعين أختك الصغيرة. فى المساء عندما ستأتى والدتك لتبدل ملابسها من أجل الخروج ستتذمران "هذه لا تتعب إطلاقًا أبدًا، قولى لها من فضلك أن تقصر فترات زيارة المتحف، ماذا سنعمل بكل هذه اللوحات؟ "تضحك ماما" اشكرا ربنا أن لديكما أما مثلى" تقول هذا، وهى تقوم بارتداء ثوب جميل من التفتا الأسود "لا أنا ولا تاتين لم يكن لدينا هذا الحظ! أنتما تتعلمان من هذه الروائع. ستريان فيما بعد سيبقى شىء".

ستتعرفان فيما بعد فى المدرسة فى الصور التى تمتلئ بها كتب الأدب على بعض الروائع التى لم تكترثا بها فى اللوفر، وبزهو كبير ستعدان أمام أساتذتكما بعض

الأسماء التي ما زالت عالقة في ذاكرتكما. ولكن والدتكما تحرص دائما عندما تسافران إلى أوروبا أن تمضيا خمسة عشر يوما على شاطئ البحر "لكي تستنشقا هواء نقيا" تقول هذا كثيراً. بصحبة ماما ومدام كوست أو مربية أخرى، تأخذان القطار حتى مدينة مائية، حيث حجزت ماما غرفتين مشتركتين بحمام. تتفحص كل شيء وتتأكد أن كل شيء على ما يرام. تأخذ وجبتي الغداء والعشاء معكما وفقا لمواعيدها، ثم بعد تعليمات عديدة تترككما لأسفكما الشديد.

تكتشفين المد والجزر في دوفيل. لا تستطيعين أن تصلي إلى البحر لأنه بعيد عليكِ، ولا أن تسيري مسافات كبيرة على الرمال المبتلة بدون وصاية مدام كوست. لن تستطيعي الاستحمام إلا بعد بضعة أيام.. تكرهين الجزر والمد ولسوء حظك قد استيقظت ديدي في اليوم التالي ودرجة حرارتها مرتفعة ومحمرة الوجه، وأعلن الطبيب أنها مريضة بالحصبة! ظللتما محبوستين في غرفتكما لمدة أكثر من أسبوع، ولكن على غير توقع الجميع لم تمرضي أنتِ أيضا بالحصبة.

فورانش فيل- سور ميرا غرفتكما ذات الشرفات الكبيرة، الحقول الخضراء المزدهرة ببذور الذهب والخشخاش التي تغطي الهضبة التي يعتليها الفندق أمام البحر. في أيام المد تصل الأمواج حتى أحجار الهضبة، وهناك طريق ملتوٍ يؤدي إلى الشاطئ، حيث تصطادان الجمبري في الجحور المليئة بالماء، التي يتركها البحر عندما ينسحب. وهذه الغابة الصغيرة المكتظة بالسرخس، وأخيرا المقابر حيث رأيتِ مقبرة جميلة بالرخام الوردي قرأتِ عليها تاريخين: ١٩٢٧-١٩٢٨، وأسفل هذا بالحروف الذهبية، وقد عاشت وردة لها عمر الزهور، مثل الصباح. وقد شرحت لكِ مدام كوست معنى جملة مأثورة، وهي تشرح لكِ ماليرب.

ستتذكرين دائما فورانش فيل بهضابها، وحقول السرخس، والغابات الصغيرة وقرية صغيرة اشتريتِ منها بصحبة مدام كوست شوكولاتة على هيئة جمبري لتقديمها إلى والدتك.

(٣)

مدام مونيك

-١-

تمطر السماء بشدة، تجاوز الوقت الخامسة ظهراً، وهو يوم عطلة مدام كوست. تمكثان مثل سجينتين فى غرفتكما، وقد أعلمتكما ماما أنها مضطرة للخروج، وطلبت منكما أن تجلسا هادئتين فى انتظارها. دخلت عليكما، وهى مرتدية تايير جميل رمادى، وفوق رأسها قبعة صغيرة. تضع قفازها الشامواه الرمادى فى يدها بينما تأخذ مظلتها، وتقبلكما "لم يكن من المستطاع الخروج مع مدام كوست فى هذا الطقس القبيح، عندكما الكتب وعلبة الألعاب.. لن أعود متأخرة.. سوف نأخذ عشاءنا معًا فى مطعم الفندق... قولى لى يا بمبولى أنتِ التى تحبين اختيارات أسماء جميلة لبطلات حكاياتك التى تألفينها، هل تستطيعين أن تعطينى اسمًا يليق؟" أنتِ فى غاية الدهشة، لِمَ تريد ماما اسمًا آخر غير صالحة؟ ولكن بما أنك غير معتادة استجواب والدتك فإنك تفكرين لمدة ثوان، ثم تقولين: "مونيك! ما رأيك يا ماما؟"

"فعلا يا مامى هذا جميل، مونيك" تقول ديدى، وهى متحفزة. ماما تبتسم وتؤيد "سوف يكون اسمى مونيك. مدام مونيك.." تنحنى لتقبلكما سريعًا "كم رائحتك زكية يا مامى" تقول ديدى، وهى تستنشق "إلى اللقاء يا بناتى، مع السلامة". وها أنتما بمفردكما! هذه هى المرة الأولى التى تترككما والدتكما يوم إجازة المربية! يبدو لكِ هذا غريبًا، وتودين لو علمتِ سبب هذا الغياب، اقتربتِ من النافذة حيث تقف ديدى على

أصابع قدميها، وهى تحاول رؤية ماما .،. ولكن تخفى الستائر مدخل الفندق. ها هى! ترونها من الخلف جالسة فى التاكسى الذى يقودها فى الشارع المليء بالمياه التى تلمع. تستمران لفترة تنظران إلى المارة الذين يسيرون بسرعة كبيرة، وهم قابضون على مظلاتهم، والذين ليس لديهم مظلات يقفون لبعض الوقت أسفل باب ضخم انتظارا لتوقف الأمطار، ويجرى بعض المارة الآخرون، وهم يحمون رؤوسهم بجريدتهم أو بحقيبتهم.

ستكتشفين بعد وفاة والدتك بعدة أسابيع فى رسائلها بطاقة صفراء مطبوعًا عليها بالبنط العريض اسم "إيرمون" مرفق به عنوان "٣٨ شارع مونتانى بيت إيدين روك كاب دانتيب" ثم "مدام مونيك" منسوخًا بالحبر الأزرق بخط والدتك... كانت صالحة أفلاطون تأخذ هوية جديدة باستخدام اسم مونيك.

لا أحد سوى المديرة عند إيرمون كان يعرف جنسية صالحة أو اسمها أو لقبها، كانت تستعيد اسم صالحة أفلاطون عند خروجها من هذا الأتيليه للخياطة. لا أحد بين أصدقائها فى باريس، وأفراد عائلتها، أو أفراد البرجوازية الكبيرة المصرية كان يشك، ولو لحظة أن صالحة أفلاطون تعمل!.

تتذكرين بعض التفاصيل القليلة: الشقة الصغيرة التى استأجرتها والدتكما فى شارع فاراديى واتخاذ نمط حياة جديد أدهشكما كثيراً، وتعودتما فى النهاية عليه، وكان سيمتد فى مصر لسنوات عديدة حتى هذا اليوم الذى ستضطر على مضض إلى إغلاق أتيليه الخياطة.

كانت والدتكما التى تسهر كثيراً فى الليل، وتحب النوم لوقت متأخر فى الصباح جاهزة فى السابعة والنصف صباحًا للذهاب عند "إيرمون"! وكانت تعود فى السابعة مساء كل يوم، كانت تتمدد على سريرها وتناديكما لتتحدث معكما بعض الشيء، ثم تنهض لترتدى ملابسها وتخرج، كانت تستطيع النوم متأخرة فى الصباح أيام الآحاد فقط، وبعد احتساء الشاى تناديكما، وتطلب أن ترى كراريسكما، وتقرأ باهتمام

الملاحظات المكتوبة من قبل مدرسيكما على هامش الصفحة، ثم تنهض وتستعد للخروج، وتأخذكما للغداء فى مطعم. عند العودة إلى المنزل كانت تسلمكما لأيدى مدام كوست التى تصطحبكما إلى حديقة "مونسو" أو إلى "التوليرى" عندما كان الطقس يسنح بذلك. لن تكتشفا أبداً لم تستطع ماما إدخالكما مدرسة البنات فى "بوفيما" على الرغم من أن المدرسة التى كانت تأتى كانت تدعى أنها راضية عنكما، ولكن هذا غير أكيد.

فى يوم من الأيام قابلت ماما صديقًا قديمًا لوالدكما، كان لديه ابنة صغيرة تسمى "جاكلين" فى عمركما، وكان الوالد يهتم بها كثيراً؛ لأن والدتها كانت مشلولة. تعرفتما عليها واستلطفتموها، تقريبياً كل أيام الأحد كان الدكتور "د" و"جاكلين" يأخذونكما فى السيارة لتتنزها فى "البوا دى بولونى" ولأن الشتاء كان قارصًا جدا، فكنتما تستمتعان برؤية المتزحلقين على البحيرة الثلجية. تظنين أنكِ ذهبتِ إلى السينما للمرة الأولى مع "جاكلين". كان دكتور "د" يختار سينما "لو جومو" لأنه كان قد رأى الفيلم، وعرف أنه فى الاستراحة كانت تقدم منوعات.

عند مدخل السينما أعطاكن والد "جاكلين" التذاكر، وأعلمكن أنه سيأتى لأخذكن بعد العرض. جلستن أنتن الثلاثة فخورات؛ لأنكن بمفردكن، وقلبكن يدق، ومضيتن فى استحلاب آيس كريم "اسكيمو جيرفى". وفى الاستراحة رأيتن موسيقيين يأتون فوق المسرح بمصاحبة المايسترو "راى فانتورة" شخصيًا، وقد عزفت الأوركسترا نغمات حديثة.

و أخيرا وبعد بضعة أيام قبل أعياد الميلاد، قد تجولتن أنتن الثلاثة أمام واجهات المحلات الكبيرة، ولأول مرة أنتِ وديدى فرحتما برؤية الثلج وهو يهبط.

فى هذا الوقت كانت تأتى بطاقات والدك من القاهرة بلهجات مستفهمة، كان قلقًا عليكما متصوراً أن إحداكما مريضة. وها هى الصدفة تتدخل وهذا ما قصته عليكما ماما. بينما كانت تهبط درج أتيليه "إيرمون" قالت لها إحدى العاملات معها بصوت

مرتفع "إلى اللقاء يا مدام مونيك، إلى الغد". فى هذا الوقت نفسه تعرّف عليها صديق مصرى كان يمر فى الشارع، وتوجه إليها "أهلاً يا صالحة هانم! أنا الذى كنت أبحث عنك فى كل مكان!" توقفت زميلاتها، وهى مندهشة ومتوجسة. "بونسوار صالحة! أنا سعيد لرؤيتك" ارتبكت ماما ومدت يدها لتسلم عليه وهو يتابع "فأنتِ إذن تسمين نفسك مونيك هنا؟" التفتت ماما نحو المرأة لتودعها، ثم أخذت زراع صديقها، واعترفت له أنها فى تدريب فى هذا الأتيليه للحياكة، حتى تتعرف على كل أسرار مهنة الحياكة، وتستطيع أن تنشئ أتيليه للحياكة فى مصر، واستحلفته ألا يقول شيئا لأحد فى القاهرة ووعدها بذلك وأعطى لها كلمة شرف ثم دعاها بإلحاح للعشاء فى محل "ماكسيم"؛ لأنه كان سيغادر باريس متجهًا إلى القاهرة فى صباح اليوم التالى. ولكن مدينة القاهرة بأكملها وعلى وجه الخصوص والدكما علم بهذا الأمر الغريب "صالحة أفلاطون تعمل!" وكان رد فعل بابا رهيبًا، وقد أرسل تلغرافًا مليئًا بالوعيد إلى ماما يأمرها بالعودة بالبنات فوراً وإلا سيأتى بنفسه لأخذهما، ويتولى رعايتهما!. وهكذا انتهت فترة تدريب ماما عند "إيرمون". لم يبقَ إلا بضعة أيام لترتيب الحقائب، وحجز الأماكن فى القطار حتى "مارساى" وكابينة على باخرة (الإسبريا).

-٢-

شارع الملكة نازلى، الدور الثامن، شقة كبيرة ذات غرف تتعاقب على ممر طويل. وبما أن العام الدراسى يوشك على الانتهاء، فقد عينت ماما مداموزيل أولجا غير الظريفة، والتى نادراً ما تضحك.

يقودكما الآن بابا إلى حلوان، حيث تستقبلكما بحفاوة طنط رقية الزوجة الثالثة لبابا (رقية شاكر كانت ابنة خاله إسماعيل شاكر من والدته)، وهى امرأة قصيرة ذات شعر بنى يميل إلى الاحمرار، وذات خطى سريعة وهى حامل. هذا البيت ذو الأثاث العصرى يعجبكما كثيراً، تبهركما آلة الأسطوانات الموضوعة على طرف البار. يتوالى هبوط الأسطوانات الواحدة تلو الأخرى من أعلى عصا صغيرة من المعدن. كثيراً ما تستمعان مع بابا إلى النغمات العصرية الأخيرة، مثل (الفوكس تروت) و(التانجو) و(الرومبا). يدربكما بابا على الرقص، وعلى اتباع إيقاع الموسيقى.

لقد قرأت أسماء هذه النغمات عند تاتى التى لديها جرامافون، بينما تأخذ تاتى حماماً تضعين أسطوانة وترقصين، وينساب جسمك مع الإيقاع، وأحياناً ترقصين أمام تاتى.

"حركى ذراعيكِ مثل أجنحة العصافير، وهى تطير" تنصحك خالتك. مرة أو مرتين فى الأسبوع، تصطحبكما إلى السينما تاتى فى حفلة الثالثة بعد الظهر، وقد قرأت مرة فى الاستراحة اسم راقصة كبيرة تدعى (رويس فولر)! امرأة كالعصافير ترقص، وهى تحرك قطعاً من الفوال. لعدة أيام تحاولين أن ترقصى مثلها على نغمات (الفوكس

ترود) بينما تنظر إليكِ ديدى بسخرية. أختك على حق فإن هذا النوع من الموسيقى ليس لديه نفس إيقاع الموسيقى الأخرى التى كانت تصطحب الحركات الناعمة الجميلة (لرويس فولر)، وتشعرين بالخجل وأنتِ تستمعين إليها.

-٣-

تتذكرين فقط من هذه الفترة لوجودك القصير. عصر يوم ما، وكانت ديدى فى الغالب مريضة، وأثناء ما كان يوصلك إلى النزل اقترح عليكِ بابا أن تقيمى معه.

"تحبك كثيراً طنط رقية، وستكون لكِ غرفة بمفردك، وستذهبين إلى مدرسة الفتيات، بالطبع سترين والدتك وأختك كل أحد... فكرى فى الأمر، وتحدثى فى الموضوع مع والدتك، وأبلغينى بالرد عن طريق الهاتف..." تتذكرين على الأخص هذا التعبير على وجه والدتك الذى لم تعرفيه من قبل: وجه مغلق وبلا أى تعبير. كنتِ قد تصرفتِ برعونة، أثناء الغداء وكالبلهاء قلتِ بصوت طليق: "ماما لقد عرض على بابى أن أسكن لديه فى حلوان.. يروق لى ذلك.." على التو توقفت ماما وديدى عن الأكل، وهبط صمت ثقيل، ثم قالت لكِ والدتك ببرود: "اذهبى إذا كنت تريدين هذا".

على الفور بعد الغداء، تحدثتِ إلى والدك بالهاتف، وأخبرته بما أسميته خبراً سعيداً. فى أثناء هذا جهزت لكِ ماما حقيبة صغيرة لم تضع فيها للانتقام منك إلا الأشياء الضرورية، وكانت قد أصرت أن تتحدثى من جديد إلى والدك؛ ليأتى بعد ظهر اليوم نفسه ليأخذك. اضطرت طنط رقية أن تذهب إلى المدينة منذ اليوم الثانى؛ لتشترى لكِ بعض الغيارات وبعض الفساتين. أعطوكِ الغرفة الصغيرة التى كنت أنت وأختك تمضيان فيها لياليكما كل خمسة عشر يوماً، تقول عنها طنط رقية الصالون الصغير. لديكِ فراش واسع وطاولة ومكتبة، تركت على أرففها طنط رقية روايات بوليسية ذات

غطاء أصفر عليها أقنعة سوداء، وروايتان لمؤلف يدعى (ديلى)، وسمحت لكِ أن تقرأيها . بقلب مفعم بالحماس التهمتِ الروايات البوليسية، ولكن روايات (ديلى) لم تعجبك، فقد وجدتيهما بدون طعم.

فى كل صباح يصطحبك سفرجى طنط رقية إلى المدرسة ويعود ليأخذك. لا تتذكرين من هذه المدرسة إلا أشغال التطريز الكثيرة التى كانوا يعلمونها لكِ. وعندما كان والدك وزوجته يستقبلان الأصدقاء، كانا يقترحان عليكِ أن تنضمى إليهما، إن وجودك فى وسط كبار السن يفتعك. هذه الجلسات جديدة عليكِ حتى لو لم تفهمى عن أى شيء يتحدثون. عندما كنتِ أنت وديدى تأخذان وجبتكما مع أصدقاء والدتك، كان عليكما الانسحاب عند ذهابهن إلى الصالون. استمتعتِ جدا بهذا الوقت الذى أمضيته فى حلوان لأنك كنتِ تشعرين بحرية نسبية.

لا يشغلكِ كثيراً أن تكون طنط رقية حاملاً، وتستمتعين مع والدك بمتابعة الجنين، وهو يتحرك فى بطنها، وينمو كل يوم أكثر. تتحدث عنه طنط رقية بضمير المذكر وتقول كثيراً "سيكون لديكِ قريباً أخ صغير". عندما يكون لدى بابا برهة من الوقت، يدير آلة أسطواناته وتحبين على وجه الخصوص (الصائد الملعون) لسيزار فرانك، ربما لأن الاسم يترك لخيالك العنان. تحرك الموسيقى فيكِ شيئا دائما حتى لو لم تستوعبيها، كثيرا ما يجعلك بابا تستمعين إلى نغمة "بوسطون" أو "فكس ترود". يأخذك عندئذ بين زراعيه ويوجهك. تتبعين فارسك وأنتِ فى الجنة. فى البداية بخجل ثم بتشجيعه، وبابتسامته الراضية تسترخين وتستطيعين أن ترقصى على النغمات. ويعلن بابا أنك تقدمتِ، وأنه فخور بطالبته!.

غريب! لا تتذكرى أن غياب والدتك وأختك قد وتَّرك! لقد أمضيتِ بعض الأشهر فقط فى حلوان، وكانت طنط رقية قد حجزت بالفعل غرفة فى المستشفى وكلهم يقولون من حولك "قريباً".

فى صباح ما، تستيقظين وجسمك يؤلمك، وتشعرين بارتفاع فى درجة الحرارة لكنك تقاومين بالرغم من هذا، وتغتسلين ثم تأخذين إفطارك مع طنط رقية، والداك ليسا موجودين. تقول لكِ الخادمة إنهما فى المستشفى، وإنه يجب أن تذهبى لقضاء اليوم، وربما الليل عند طنط فاطمة، وهى قريبة لطيفة جدا لوالدك. تحضر لكِ الخادمة لفة صغيرة بها لوازمك وقميص نومك وروبك.

"لن تذهبى إلى المدرسة اليوم، والدك قلق جدا إن الولادة تبدو عثرة، ربنا يحمينا!" وأنتِ تجربين ساقيك، ولكن بيت طنط فاطمة ليس بعيداً. تشعرين بقشعريرة الحرارة، لو كانت ماما هنا لقاست درجة حرارتك. تستقبلك ابنة طنط فاطمة، وتقبلك بدون أن تلاحظ شيئا ثم تريك غرفتك، وتقترح عليكِ أن تلعبى فى الحديقة فى انتظار وقت الغداء؛ لأنها ستذهب مع والدتها إلى المستشفى، ثم تظهر طنط فاطمة مبتسمة وهى سمينة وكلها دوائر. وتصيح طنط فاطمة عندما تقبلك "ولكن درجة حرارتك مرتفعة جدا يا حبيبتى! اذهبى إلى الفراش يا الله! ما هذه المسؤولية؟!" فى هذه اللحظة يدق السفرجى على الباب "مدام صالحة على التليفون". تخرج فاطمة هانم من الغرفة، وهى تقول بصوت مسموع "أخيراً! فلتأت والدتها لتأخذها!" وبعد ساعة تأتى ماما تقبلك، وتقول بحنق: "وفوق كل هذا درجة حرارتك مرتفعة جدا! أين أشياؤك!" ترينها اللفة التى لم تفتحيها، وتعلمينها أن بقية ملابسك وكتبك وألعابك موجودة فى بيت بابا. تشكر ماما فاطمة هانم وتقول: "ليس ضروريا أن يأخذ ابنتى إذا كان لا يعرف كيف يهتم بها! ويتركها لمراعاة زوجته التى تلد! لن أسامحه أبدا على هذا! إنى ألعنه!".

أثناء المسافة الطويلة من حلوان إلى القاهرة لم تقل لكِ ماما كلمة واحدة، وإذا كانت لن تغفر لبابا أبداً أنه أخذك عنده، فلن تغفر لكِ أبداً ماما أنك أردتِ أن تسكنى عنده، ستذكرك طيلة عمرها أن طنط رقية قد ولدت طفلاً ميتًا؛ لأنها لعنت والدك!

أصابت عائلة شاكر ووالدك وزوجته خيبة أمل كبيرة. هذه فترة قصيرة من حياتك تبدو لكِ بعيدة جدا، وكأنك لم تعيشيها قط. حدث لقاء صاخب بين والدتك ووالدك، ولم يتحدث أحدٌ منهم فيما بعد عن العودة إلى حلوان. سوف تعود ديدى وأنتِ إلى عادتكما الماضية، وستمضيان أيام الأحد فى حلوان، وستعودان فى المساء.

تحيا والدتكما على نفس إيقاع حياتها فى باريس، يبدأ يومها فى الثامنة صباحاً، وينتهى فى السابعة مساء، ثم تخرج من جديد للعشاء فى الخارج مع أصدقائها، وأحيانا كثيرة تتحدث بالهاتف، وتطلب من الطباخ أن يحضر لها عشاء لعدد من الأفراد. فى هذه الأوقات عليكما أن تبدلا ملابسكما، وتجهزا نفسكما، وتنتظران ماما التى ستناديكما؛ لأنكما ستأخذان عشاءكما مع الضيوف. فى أول أحد بعد حادثة حلوان بينما كنتما جالستين على طرف سريرها، تحدثت ماما فى الهاتف، فأجابت فى الوقت نفسه على فضولكما، كنتما تريدان بشغف أن تعرفا لو كانت تعمل ولا تجرؤان على سؤالها، فوالدتكما تكره الأسئلة.

"المجموعة جاهزة، وسأرسل لكم الدعوة.. تعم فى سميراميس.. عرض للأزياء، كل العارضات جميلات جدا، وأعلمهن المشى على طريقة مانيكان باريس، كل الموديلات منفذة بأقمشة مصرية وهى موديلات من الجياكة الراقية..".

تسأل ديدى "مامى هل اسمك ما زال مدام مونيك؟" تضحك ماما" لا يا بنات أنا الآن المديرة، وسيظل اسمى كما هو صالحة... مدام صالحة". لقد أمضت والدتكما عقداً مع طلعت باشا، كان يريد أن يطرح فى السوق الأقمشة المصنعة فى مصنعه الجديد، وعندما علم أن صالحة أفلاطون على وشك أن تفتح مكانا للخياطة الراقية فى باريس، تحدث معها طلعت باشا وتفاهما وأمضيا عقداً. كم من الوقت أدارت (بيت صالحة) من أجل من يدعى حتى اليوم بـ (أبو الصناعة المصرية)؟ تتذكرين فقط التصفيق الحار الذى استقبل به الجمهور عرض الأزياء، من حولكما كانت النساء

تصيح "كم هو جميل هذا الزى!" فى اليوم التالى نشرت الصحافة مقالات مدح وصور لوالدتكما، ولم يتوقف المدعوون- الذين جاءوا للعشاء- عن المديح فقد استقبلت المجموعة بنجاح عظيم. منذ ذلك الوقت كانت ماما تسافر مرتين فى السنة إلى باريس، لتقوم بزيارة (بيوت الحياكة). كانت تختار الموديلات التى كانت تنفذها فى الأتيليه الخاص بها فى ميدان سليمان باشا.. ولكن فيما بعد بسنة أو سنتين، قدمت والدتكما استقالتها! بعض التصرفات كانت لا تروق لها، ولكن لم تتحدث مع أحد إطلاقًا فى هذا، إن الكتمان كان أحد الصفات الكبيرة لماما. قبلت على الفور أن تعمل فى الأعمال الخيرية فى جمعية (المرأة الجديدة)، ولكنها أحبطت بسرعة بسبب الجو العام المسيطر من الشجارات والدسائس. بعض السيدات كن يتدخلن أيضًا فى طريقتها فى إدارة الأتيليه الذى أقامته فى هذه الجمعية. لم يكن من صفات صالحة أن تتلقى ملاحظات من أشخاص غير مؤهلين لهذا، ولقد استقالت من جديد.

لقد سمعت يومًا والدتك تقول: إنها يجب أن تحصل على رأس مال لإقامة بيت الأزياء الخاص بها. كيف حصلت والدتك على رأس المال هذا؟ هل بقرض من والدها أو عمها أو ببيع مجوهراتها؟ لا يهم. إن (بيت أزياء صالحة للخياطة الراقية) قد افتتح قبل نهاية الحرب العالمية الثانية بسنتين، وبجانب هذا انغمست هذه المرأة النشيطة، التى لا تكل عن العمل فى تمريض الجرحى فى مقر الهلال الأحمر، أو فى مساعدة اللاجئين من الإسكندرية الذين انهارت منازلهم القديمة وأخيرًا بدون تردد فقد سافرت مع بعض النساء إلى الوجه القبلى لتمريض فلاحى مدينة (إسنا) الذين هاجمتهم الملاريا... وتظنين إذن أن (بيت صالحة) قد فتحت أبوابه فى سنة ١٩٤٤.

ولكن ما الذى حدث لكما خلال كل هذه السنوات؟

(٤)

فى مدرسة القلب المقدس

-١-

الثالث من أكتوبر الساعة السادسة والنصف. أغلق عليكما الباب الكبير للمدرسة! ظهر خلف شباك صغير وجه لامرأة محاط بقبعة بيضاء عندما دق الجرس بابا.

"مساء الخير يا أستاذ، هاتان التلميذتان الجديدتان؟"

"نعم يا ماميرا هاتان بنتا آل أفلاطون" جاوب بابا. وبعد أن انفتح الباب لتمرا قال لكما بابا: "إلى لقاء يا بناتى الصغيرات كونا عاقلتين حتى يوم السبت!" بدون حركة تنتظران وأنتما مرتبكتان أمام قاعة الاستقبال الكبيرة جدا والفسيحة المنصوب فى عمقها تمثال كبير (ليسوع المسيح) والتى تتناثر حول قاعدته بوكيهات الورد الكبيرة.

"تعاليا اتبعانى، اتركا حقائبكما سأقدمكما إلى الأم (بيرتلو) لا تنسيا أن تتحنيا أمامها". تتبعان الأخت التى تستقبل الزائرين. أحذيتكما السوداء تدق على الرخام بينما تسير الأخت بدون أن تصدر أى صوت. تدق على باب ما وتدخلكما فى مكتب الأم (بيرتلو). أنتما لا تستريحان فى هذه الملابس الرسمية القاسية المصنوعة من الصوف والكحلى ذات الأكمام الطويلة والكسرات الواسعة التى تغطى سمانة ساقيكما التى يكسوها الجوارب السوداء. تتأسفان على ملابسكما التى كانت تختارها والدتكما بذوق رفيع.

"لن يستطيع أحد أن يقول إننا أنيقات!" قلتِ هذا وأنتِ تنظرين إلى نفسك فى المرآة الكبيرة المدلاة من الحائط فى غرفة إيرينى.

الأم (بيرتلو) تنظر إليكما طويلاً وهى ممتلئة بعض الشىء وقصيرة. "جلبيرى؟" تسأل "هى أنا يا أمى" ودون انتظار سؤال الأم تقول أختك سريعًا "وأنا إنجى يا أمى". "حسنًا تلميذتان كبيرتان سنعرفكما بالنظام هنا... جلبيرى رقم ٣٩ هى أنت أليس كذلك؟" "نعم يا أمى" وقد جاوبت بصوت خافت للغاية. تستكمل الأم "أنت تنضمين إلى الفصل الخامس الابتدائى وأنت يا إنجى رقم ٤٠ ستدخلين إلى الصف الثالث الابتدائى فى الفرع الصغير" فى هذا التوقيت يسمع صوت على الباب وتدخل فتاتان مرتديتان الزى المدرسى نفسه وتتوشحان بشريط أزرق فاتح يمر من الكتف ويربط عند الوسط. ستعلمان سريعًا أنه وسام! تنحنيان بينما تقول لهما الأم (بيرتلو) "أسلمكما هاتين التلميذتين الجديدتين أعلماهما بكل شىء".

"حسنا يا أمى" تجيب الكبيرتان بصوت واحد.

فى هذا المساء تدخلين أنت وديدى فى عالم جديد مغلق فريد ستصبحان جزءًا منه لعدة سنوات. عالم تسكنه النساء فقط، الراهبات أولاً المرتديات السواد بقبعاتهن البيضاء الجامدة التى تخفى شعرهن تمامًا ويتدلى صليب من الفضة من سلسلة حول رقبتهن، وكل أم تمسك دائما فى يدها شيئًا صغيرًا من الخشب الداكن تصدر منه أصوات لتأكيد أوامرها، توجد أيضًا الأخوات اللاتى يعرفن بقبعتهن المختلفة وهن متوليات شئون المطبخ والنظافة لأنهن على عكس الأمهات قد دخلن الرهبنة بدون مهر وبدون دراسة كفاية. والرجال الوحيدون المقبولون فى المدرسة هم بالطبع القسيس و(باكوم) الذى يسكن مع عائلته فى آخر الحديقة وهو يعمل بستانيا وحارسًا ونجارًا وأحيانا كهربائيا.

وطالبات الداخلى والنصف داخلى يتبعان النظام الصارم الذى وضعته الأمهات. هذا النظام الذى يحكمه صوت الجرس وطقطقة الشىء الخشبى الذى يسير الحركات. أثناء الفسحة يجب على التلميذات أن يلعبن معًا؛ لأن الانزواء الزوجى ممنوع بطريقة قطعية. لماذا؟ لأن الشيطان سيصير بينهما!

إن قاعة الدراسة فى المدرسة الكبيرة عبارة عن غرفة واسعة مليئة عن آخرها تقريبًا بالتخُت. تراقب الأم التلميذات من فوق منصة. تقودك التلميذة الكبيرة نحو تختتك وتشرح لكِ أنك يجب فى الغد أن تذهبى إلى المكتبة لشراء كتب الفصل والكراسات وأوراق كبيرة زرقاء.

تنصتين إليها وأنت تجولين بنظرك على التلميذات اللاتى ينظرن إليكِ وها هى عزيزة الحبيبة! تومئ برأسها وهى تبتسم فقد فهمت أنه ليس الوقت المناسب للسلام "وأختى؟ أين هى؟" "لقد اصطحبتها زميلتى إلى قاعة الدراسة فى المدرسة الصغيرة" "آه كنت سأنسى اللوح الخشبى" تنظرين بشغف "ما هذا اللوح الخشبى؟" تبتسم أخيرًا (الكبيرة) وتشير إلى لوح خشبى داكن معلق على الحائط على يمين باب الغرفة. هناك أربع لوحات خشبية معلقة بسلسلة قصيرة. "عندما تريدين أن تذهبى إلى الحمام سترفعين يدك وستطلبين من الأم التى تراقبكن "اللوح الخشبى من فضلك يا أمى!" والحمامات فى آخر الممر وراء التمثال...".

وفجأة يدوى جرس "تعالى يا جلبيرى اتبعى التلميذات واعملى مثلهن. سنهبط إلى قاعة الطعام من أجل العشاء...".

"بهذه السرعة؟" تشكرينها . الأم التى نهضت تطقطق بالكلاكيت. بعد أن رتبنا الكتب والكراسات فى التخت تترك التلميذات قاعة الدراسة وتنتظر الأم أن تصطففن فى الطابور فى القاعة الصغيرة. كلاكيت! تتقدمين مثل الآخرين حتى السلم الكبير وقد شبكتِ ذراعيكِ وراء ظهرك وتهبطن الدرج.

فى الدور الأرضى تنتظركن الأم وتسير بظهرها وتقودكن نحو باب تفتحه وعلى صوت الكلاكيت الذى ستسمينه أنت وأختك (الكاستانييت) تدخل الواحدة تلو الأخرى إلى قاعة الطعام، حيث تنتظركن أم أخرى هبطت من المنصة وتوجهت نحوك "تعالى يا جلبيرى سوف أريكِ طاولتك. ستعرفين مكانك عن طريق الفوطة التى عليها رقم ٣٩.. أختك إنجى ستجلس على هذه الطاولة".

ترفع ذراعيها وتشير بإصبعها إلى المائدة التى ستجلس عليها ديدى، لم يساورك الحظ لتجلسين على نفس مائدة أختك أو عزيزة، مثل الأخريات تجلسين فى صمت.. فى الوقت الذى تكونين على وشك أن تأخذى إبريق المياه الكلاكيت توقفك، ماذا أيضا! تقوم الأم بالصلاة مع كل التلميذات المسيحيات. إنها صلاة قصيرة لشكر الرب على هذه الوجبة التى ستأكلونها! آمين! هنا فقط تبدآن فى الأكل. تودين لو تتعرفين على زميلاتك الجالسات إلى المائدة، ولكن الأم تقرأ فى صوت عال لا تستمعين إليها وتأكلين وأنت تنظرين بحذر حولك، خلال الطعام تضرب الأم على المائدة مرة أو مرتين بالقلم لإعادة تلميذة جرأت على الكلام إلى النظام. موائد كثيرة غير مشغولة وتفهمين من هذا أنها تنتظر التلميذات النصف داخلية. أنتن تلميذات الداخلية عددكن ٢٤ تلميذة منهن سبع ينتمين مع أختك للمدرسة الصغيرة. نهاية الوجبة. كلاكيت تتبعها صلاة قصيرة لشكر الرب. كلاكيت! أصوات الكراسى التى تزيحونها من أجل القيام، كلاكيت! تسيران فى الطابور. أخيراً فى الفسحة يمكنكن أن تتحدثا. اقتربت منك عزيزة وبحركة ما تشير لكِ ألا تقبليها. هذا ممنوع!

ابنة خالك فى المدرسة الداخلية منذ سنة هى فى الصف الأول الابتدائى، ولا تخرج أبداً حتى يوم السبت! ترسل إليها جدتها لتأخذها فى عطلات عيد الميلاد وعيد القيامة والإجازات الصيفية، مسكينة عزيزة!

"لا أنا لست تعيسة هنا، ماذا كنت سأفعل بمفردى فى بيت جدتى... أخواتى أيضا يمكثن فى المدرسة، نلتقى فى الأعياد وفى إجازات الصيف هنا على الأقل

أستطيع أن أختار كتبًا من المكتبة، وأن ألعب كرة السلة مع التلميذات الداخليات الأخريات اللاتى لا تخرجن إلا فى إجازات الصيف، فأهلهن يعشن فى الإسكندرية أو الفيوم أو طنطا أو أسيوط.

ستستطيعين أنت وعزيزة وإنجى فى المساء بعد العشاء التحدث لمدة ثلاثة أرباع ساعة فى الفسحة المتاحة، لكن يجب أن تلعب ديدى مع التلميذات الخمس المنتميات إلى المدرسة الصغيرة، ولكنها تنجح فى الحديث أيضًا معكما. مجموعكن مع الصغار يصل إلى أربعٍ وعشرين تلميذة داخلى والأمهات اللاتى تراقبكن تترك لكن الحرية بعض الشىء.

تدق الساعة التاسعة مساء لتضع نهاية لألعابكن. كلاكيت! وتصطففن فى الطابور. كلاكيت! وتصعدن إلى الصالة الواسعة، ثم وأنتن فى طابوركُنّ تتجهن إلى الساحة الفسيحة، ثم إلى الأدوار الثلاثة التى تقود إلى عنبر النوم. الأم التى يقع على عاتقها مراقبة عنبر النوم تقودك أنت وأختك إلى كابينتين تسمى هنا ممرات. الممر مكون من ثلاث واجهات بيضاء، حيث واحدة فقط متحركة وتعمل بمثابة باب "٣٩" تقول الأم وهى تشد على إحدى الواجهات لإدخالك ثم تستدير نحو ديدى "٤٠" أليس كذلك؟" "نعم يا أمى" تجيب أختك بابتسامة ما. وقد شدت الأم واجهة الممر الملتصق بمكانك ستكون ديدى سعيدة لوجودها بجانبك. فى الممر يوجد سرير من الحديد مرتب وموضوع بجانب الواجهة اليمينية التى تعزلك عن أختك وعلى السرير موضوع قميص نومك، ثم على الأرض توجد مشاية صغيرة قبيحة جدا وعلى الكومودينو يوجد إبريق كبير من المياه على صحن. هناك منشفتان من الإسفنج ملفوفتان بجانب الكوب الذى يستعمل لغسيل الأسنان وبجانبه معجون الأسنان وفرشتك وصابونتك.

الحمامات فى الخارج على اليسار تقول الأم من خلال الستارة: "اخلعا ملابسكما واغتسلا وقبل أن تدخلا فرشكما ستصليان مع التلميذات الأخريات.. تصبحين على خير يا ابنتى" لقد شدت الأم ستارتك وستارة ديدى "أف أخيراً بمفردك!" ولكن فجاءة

تدوى الكلاكيت "هيا يا بنات صلين"، ويرتفع صوت "عليك السلام يا سيدتنا العذراء" "ماذا على أن أفعل؟" توشوش ديدى. الأم التى سمعت تنظر من خلال الستارة "ماذا يحدث؟ لماذا لا تصليان؟" "نحن مسلمات" تجيبين بصوت عال، وأنت مستمتعة لأنك تسكتينها. تغلق الستارة "صلين باللغة العربية إذن" تستمعين إلى أختك وهى تغمغم "زهقن من الكاستنيات ومن الصلوات" عندما تغلق الأم النور تستمعين إلى نقر بسيط أنت قد دخلت فى فراشك، وها هى ديدى التى لم تنم بعد! "اذهبى بسرعة لتنامى ممكن أن تأتى الأم فى أى لحظة".

"أعرف هذا، ولكنى أريد أن تقبلينى من خلال هذه الستارة الملعونة" تبتسمين وتضعين شفاتيك على هذة الاستدارة التي تتوقعين أنها خد أختك". تصبحين على خير يا حبيبتى، وأحلام سعيدة".

الأم (بيوميان) رفيعة جدا، وتبدو وجنتاها وكأنهما اختفتا وهى لطيفة معك إلى حد كبير. أنتن خمس عشرة تلميذة تحت وصايتها والتلميذات اللاتى ليس من حظهن أن يثرن إعجابها هى تنهرهن على الدوام. تخبرك زميلاتك بالتفاصيل العديدة التى ستجعلك تلميذة مجدة وفقًا لمعايير المدرسة. وتدرس لكُنَّ الأم (بيوميان) كل المواد ما عدا اللغات.

ميس (روز) هى المسؤولة عن تدريس اللغة الإنجليزية والعربية وهى سمراء جدا وأقبح القبيحات، تعرف العربية جيدا لأنها لغتها الأم ولكنها تتحدث إنجليزية "رهيبة" تثير ضحككن في الخفاء. وخاصة أن والدة صديقتك الجديدة إنجليزية، رغم أنه ممنوع أن تصادق فتيات بعضهن فإنك توجدين مع ناهد، ومرجريت وجوزيفين. يدهشك أن ترى كثيرًا من التلميذات الكبار وقد أُحِطن بالمعجبات من المدرسة الصغيرة هذا الإعجاب الذى يعبر عنه بنظرة معجبة أو بابتسامة حانية أو بحركة يد ترسم قبلة أو بوردة تسلم لصاحبة الإعجاب أو توضع على تختتها. لا تفهمين أيضًا هذا الوله من بعض التلميذات لبعض الأمهات. هذه المواقف والمشاعر تريبك وتصدمك. ترين كل هذا بدون أن تتوقفى عنده كثيرًا؛ لأن أيامك الطويلة مشغولة بالدراسة من ناحية ومن العالم الخيالى من ناحية أخرى.

تعملين بجد ونشاط وتتراكم نمرك الجدية فى كل المواد تقريبًا ما عدا الرياضيات واللغة العربية. منذ الفصل الأول وسيتوالى هذا. تحصدين الجائزة الأولى فى الإنشاء

الفرنسية وفى تاريخ فرنسا وفى الجغرافيا. وتحصلين أيضا سنتين على التوالى على الجائزة الأولى فى تاريخ الحيوانات وفى العلوم. إن الوجبات مشبعة وجدية. أنت وأختك تثيران إعجاب الجميع لأنكما لا تتركان شيئا فى صحونكما، إن كثيراً من التلميذات يرفضن وهن مشمئزات العدس الأسود أو الجزر وأطعمة أخرى رغم إحساسهن بالجوع. لا يعرفن أن والدتكما علمتكما أن تأكلا من كل شىء. تستمعين بدون انتباه إلى الحكاية التى تقصها الأم من فوق المنبر وهى قصة لا تثير الاهتمام على الإطلاق، على الأقل بالنسبة لكِ. عندما تنتهيان من إفطاركن تسأل الأم بنات الداخلى اللاتى يردن أن يأخذن حماما، ترفعين أنت وأختك يدكما وأنتما مسرورتان.

يستقبلكن البخار الساخن الممتع عند دخولكن الحمام. تمد يدها الأخت بلفافة صغيرة "و لا تنسيا خصوصاً أن تلبسا قميصكما لأخذ الحمام" تقول هذا الأخت وهى تشد ستائر إحدى الكبائن التى تشبه الممر فى عنبر النوم. تخلعين ملابسك وترتدين القميص العجيب، تغطسين برجلك ثم بالأخرى فى الماء. ما هذه المتعة! ولكن كيف ستستحمين بهذا الشىء على جسدك؟ تجلسين وأسفل القميص الذى مازال غير مبتل يتهاوى حول جسدك مثل الكرة، تقومين وتمررين رأسك خارج الستار "ماذا على أن أفعل بهذا القميص يا أختى؟" لقد سألتِ هذا بصوت عالٍ حتى تسمعك أختك.

"لتلبسيها وأنت تأخذين حمامك يا ابنتى"، وتتمرد ديدى وهى تتحدث العربية "مش معقول" ولكن يسمع "هس" يشبه الصفير ويسكت أختك المسكينة. تحاولين أن تتجاوزى الأمر وتدخلين من جديد فى المياه، تضعين الصابون على الليفة وتدعكين ذراعيك وتحت أبطك، وبعد أن تكونى قد رفعتِ أكمام القميص. ورغم وجود هذه البلونة التى تضربينها حتى تبلل وتنهضين، مستاءة ترفعين هذه البلونة حتى صدرك وتبدئين فى دعك جسدك. لم تأخذى أنت وأختك حماماً منذ يوم الاثنين، ولكن ها هى صرخة مرعبة توقف هذا

الغسيل "ماذا تفعلين يا تعيسة، أنزلى بسرعة هذا القميص! هذه خطيئة كبرى أن تنظرى إلى جسدك! عار!" الأخت التى يقع على عاتقها مراقبتكما أغلقت الستار سريعًا عار؟ خطيئة؟ لا تفهمين. أنتِ تشعرين بالعار فقط لأن الأخت قد شاهدتك وأنتِ عارية... بغضب تقولين لها: "فى بيتنا لا أحد يدخل إلى الحمام بدون أن يطرق الباب يا أخت، كان عليكِ ألا تنظرى إلى! كيف يمكن أن أستحم جيداً وأنا أرتدى هذا اللباس على؟" ترتدين ملابسك بهدوء بدون الاهتمام بهذه الأخت التى ابتعدت وهى تتمتم صلوات تضعين كل شىء على الكرسى الصغير، ولكى تنتقمى تخرجين من مخابئك وأنتِ تجرين القميص الذى تدلت أطرافه بالمياه "لقد وضعت غسيلى المتسخ وأشيائى على الكرسى الصغير يا أختى، ولكن ما يجب أن أفعله بهذا؟".

"يااه ولكنك تبللين كل شىء!" تصيح الأخت وهى منهارة "كان يجب أن تضعيها على البانيو... سأتحدث مع الأم (بارتلو) عنك... خاطية...".

ولكنكِ سرتِ بعيداً وتنتظرين أختك لتبلغيها أنك ستتحدثين فى هذا المساء مع ماما أو بابا. تنتظران وقلبكما يدق أن تناديكما الأم. عندما يأتى الأهل تأخذ الأخت البوابة أسماءهن وتدخلهن الصالون.

"٣٩، ٤٠!" تنادى الأم. تخرجان من الصفوف وأنتما مبتسمتان وسعيدتان، ولكن تطلب منكما الأم أن تنتظرا بعض الشىء "السيدة والدتكما فى الصالون مع الأم (برتيلو)".

على الأرجح فإن الأم تشتكى من تصرفكما فى الحمام، أخيراً تصعدان مع ماما فى التاكسى الذى سيوصلكما إلى البيت. تسألانها بالطبع عن مقابلتها مع الأم بخصوص الحمام. والدتكما وفيما بعد بابا انزعجا كثيراً بهذه القصة فهما مستاءان لأنكما لا تأخذان إلا حماماً واحداً فى الأسبوع إضافة إلى أن يفرض عليكما هذا القميص الذى يبدو لهما عبثياً، لا يعرفن القرآن بالقدر الكافى، ولكنهما يعرفان

ما يكفيهما لتجاوز "الخطايا" التى تهدد بها الأمهات البنات "ستأخذان حمامكما بدون قميص" يعلن بابا يوم الأحد مساء وهو يوصلكما إلى المدرسة. "ستعلم الأم (بيرتلو) الأخت المسؤولة عن الحمام وسيكون هناك استثناء بالنسبة لكما..." لقد تكيفتما على هذه الحياة الجديدة، حيث فى هذا الإطار الخاص من النظام الصارم تتقدم التربية الجدية والهيئة المناسبة على التعليم. عند انتهاء الدراسة فى (القلب المقدس) تحصل التلميذات على شهادة تخرج تتيح لهن أن يدخلن فى قائمة "فتيات العائلات المحترمة القابلة للزواج" وبما أنكما قد تعودتما على النظام الصارم لوالدكما ومربياتكما فأنتما غير منزعجات لنظام المدرسة؛ ولأنكما تعرفان آداب المائدة وتأكلان كل ما يقدم إليكما بدون تذمر ستصبحان مثلاً للأخريات وتحصلان على أحسن النمر فى "الهيئة العامة" فى نهاية الترم الأول تخص ديدى بالشريط الوردى وأنت بالشريط الأخضر! وهذه الأوسمة تعطى للتلميذات المطيعات والنظيفات واللاتى لا يثرثرن مع زميلاتهن فى الفصل أو فى الصفوف.

تخصصين كل وقت فراغك للقراءة... (جول فيرن، فينى مور كوبر، هيكتور مالو، جاك لودون، ديكنز) تملأ أبطالهم أحلامك. فى المدرسة وقبل النوم تقصين على نفسك قصصًا تصبحين فيها البطلة، عندما تسنح لك الفرصة تتحدثين مع صديقاتك عن الحفلات عند أصدقائك وعن إجازاتك فى زيزينيا أو فى فرنسا، تتحدثين عن ألعابك وعن نزهاتك فى الباخرة، عن سفرك فى القطار، عن شواطئ تومادى ودوفيل وعن اللوفر. تحكين وترسمين بورتريهات وتصفين الأماكن. تنقدين وتسخرين من نفسك بسخرية ومن الآخرين وكثيرا ما تخترعين مواقف للمتعة حول أشياء لم تكونى فيها إلا المستمعة أو المتفرجة. إن زميلاتك اللاتى لم يتجاوزن حدود بلادهن تستمعن إليك بدون كلل وتعجبن بك وأحيانا تحسدنك بعض الشىء. ولأنك تحلمين أن تقومى بمثل هذه الأفعال فإنك تحكين أنك تزحلقت على الجليد فى (البوا دى بولنى أو فى سان موريس) وأنك قمت بألعاب مائية فى نادى اليخت فى الإسكندرية، وأنك امتطيت حصانًا فى

الحديقة التى تحيط بمنزل صديقة فى الجيزة! أنتِ أيضا سيكون لكِ معجبات. إن نجاحك فى الفصل، حيث تقرأ الأم بصوت عالٍ مقتطفات فى مواضيع الإنشاء بالفرنسية. وطريقتك فى الحكى وجمال أناقة والدتك وخالتك التى أثارت إعجاب التلميذات يوم السوق المدرسى أو فى الصالون والاحترام والتقدير الذى تكنه (مير بيرتلو) لوالدك "هذا العالم الكبير، هذا رجل العلم" كل هذه الأشياء تسهم فى إعطائك هالة ما.

-٣-

يوليو وأغسطس. الإسكندرية. الكابينة التى أجرتها ماما لكما ولخالتك. ماما فى باريس من أجلِ اختيار مجموعتها الشتوية، هذه الكابينة مثلها مثل عشرين أخريات تستقيم على أعمدة فى فضاء كبير من الرمال فى المندرة فى مواجهة البحر. ووجود الصخور الكثيرة والشريط الضيق من الرمال لا تسمحان لأحد بالاستحمام. تسيرين أنتِ وأختك بحذر على شباطئ المياه وأنتما تاركات الأمواج الصغيرة تلامس أقدامكما عندما يكون البحر هادئًا. أنتما سعيدتان لأنكما تقضيان هذا الشهر من الإجازة بجانب خالتكما، إنها تدللكما كثيراً وتتحدث معكما طويلاً. وتسمح لكما أن تظلا معها ومع زوجها عندما يستقبلان الأصدقاء فى القاعة الكبيرة التى تستعمل صالونًا وغرفة طعام. بعد قراءة كتاباتك تعيد إليكِ تاتى الكراسة التى نقلتِ فيها مواضيع الإنشاء الفرنسية، أفضل المواضيع التى حصلتِ من جرائها على مدح (الأم بيرتلو) وقد حصلتِ من جديد على الجائزة الأولى فى الإنشاء الفرنسية.

"أنتِ موهوبة" تقول تاتى" ولديكِ حس شعرى، يجب أن يقرأ هذه الأوراق أحمد فهو شاعر كبير ويمكن أن يعطيكِ بعض النصائح" "خالتك على حق" يشهر أنكل أحمد كراستك "أنتِ موهوبة حقا! هل حاولتِ كتابة الأشعار؟ الشعر الحر بالطبع لأنك لم تتعلمى بعض قواعد الشعر؟ حاولى فى الشعر الحر" يتحدث بسرعة وهو يتجول فى الغرفة الواسعة التى تطل نوافذها الكبيرة على رمال البحر "و لكن عن أى شىء سأكتب؟ لا أعرف" يتوقف ينظر إليكِ ويبتسم "ولمن على أى شىء! على كل شىء

تحبينه". يتبع نظرتك وهى تتوجه إلى البحر "عن البحر مثلاً، عن البحر، عن الأمواج، ما تشعرين به، ما يثيره البحر فيكِ".

ما تشعرين به الآن هو نوع من الزهو المشوب بالخوف. هل ستستطعين كتابة قصيدة؟ أنكل أحمد وتاتى سيقرآنها ويحكمان عليها! تقررين إذن وكأنك أمام تحدٍ وُجِّه إليكِ وتذهبين لإحضار الكراسة وتجلسين على الأريكة. البحر! مجموعة كبيرة من الأحاسيس ومن الصور ومن الذكريات تملؤك، وفجأة بسعادة وبتوتر وبقلق أيضا مثل كل مرة تبدأين فيها كتابة الإنشاء تكتبين على الصفحة البيضاء "أيها البحر أحبك" تكتبين هذه القصيدة بدون أى شطب، وأنتِ تستوحين أسلوب أحمد راسم، وتحصلين على نجاح كبير! لا تتذكرين المديح الذى حصلتِ عليه فأنتِ مرتبكة وفخورة وسوف ينشرها صديق صحفى فى مجلة "إيماج".

عندئذ يصل والد عزيزة وزوجته الجديدة التى تكتب تحت اسم (مارى كافاديا) امرأة رومانية أمضت سنوات عدة فى باريس وهى وفقًا لكلام تاتى لديها جاذبية كبرى وثقافة واسعة، ستصبح صديقتك وموجهتك. فور وصولها تتحدث تاتى وزوجها اللذان يمضيان سهرتهما فى المنزل على غير العادة عن مواهبك بصوت أجش تطلب المرأة التى تدعى (مارى-مارى) أن تقرأ كل ما كتبته.

تستمع إلى باهتمام وتومئ برأسها أحيانا بدون أن تعير الآخرين الذين يتحدثون فيما بينهم اهتماما. تنظرين إليها بخجل وقلق منتظرة حكمها بابتسامة كبيرة تضع يدها على كراساتك، وتقول "أنتِ شاعرة يا صغيرتى بمبولى، إن قصيدتك جدية جدا! صورك بديعة! يجب أن تنمى مواهبك... تعالى غداً لنتحدث".

"اجلسى" تضع مارى-مارى رجلها على طرف فراشها "إن مواهبك تتطلب أن تقرئى كثيرا سأضع لكِ قائمة بأسماء الكُتاب الذين عليكِ حتمًا معرفتهم. وسأهدى إليك بعض الكتب.. يجب أن تكتبى! كثيرا. اشترى كراسة، واكتبى فيها مذكراتك.

ستقصين فيها كل يوم إذا استطعتِ مَا يدور فى رأسـك، ستكتبين ما ترينه مهمًا مثل بورتريهات الشخصيات التى تحبينها أو التى لا تحبينها، وصف الأماكن التى بهرتك، أقصد كل الأشياء التى تشعرين بها، والتى تنفعلين بها، والتى تستمتعين بها...".

على الصفحة الأولى فى كراسة جديدة تكتبين "مذكرات جلبيرى أفلاطون. أغسطس ١٩٣٥".

أغسطس شهر ثرى بالنسبة لكِ، الاستحسان الذى ترينه فى عيون أحمد راسم وأصدقائه والعبارات مثل "آه هذه شاعرتنا، لم تتجاوز الرابعة عشرة ولكنها تكتب شعرًا! هذا رائع" تجلب لكِ الثقة بالنفس لأنك فى الحقيقة غير معجبة بالصورة التى تعكسها لكِ مرآتك. إن عينيكِ السوداوين ذوى الجفون المشدودة الأطراف قليلاً تبدو صغيرة جدا، بينما عيون والدتك وتاتى وديدى كبيرة جدا ولها رموش طويلة وجميلة. رموشك قصيرة وقليلة الشعر. إن خدودك المرتفعة تجعل وجهك أكثر استدارة ويزيد هذا الضفيرتان الطويلتان اللتان تربطينهما حول رأسك الكبير. تريد مامى وتاتى أن تقصيهما، ولكنك متمسكة بهما لأن شعرك الأسود الكثيف والناعم يثير إعجاب الجميع. فهذا الشعور بالإضافة إلى أنفك ويديك ووسطك النحيف هى الأجزاء الوحيدة فى شخصيتك التى تعجبين بها، أما بالنسبة لجسمك فإنك مهما رددتِ لنفسك ما تقوله والدتك "عندما تأتى العادة الشهرية سيستدير جسمك ويتجمل..." فإنك يائسة بسبب صدرك الضيق ونهديك اللذين يكادان لا يريان. بينما مؤخرتك تبدو كبيرة وساقاك قصيرتان تتخللهما ركب مكتظة اللحم.

هذا بينما تزداد ديدى جمالاً كل يوم وتحصد إعجاب أصدقاء والدتك وتاتى "كم هى بديعة ستصبح ملكة جمال" ويضيفون بسرعة وكأنهم يخشون أن يجرحوكِ "والشاعرة ماذا كتبت حديثًا؟" يظنون أنهم مضطرون بتعزيتك بهذه الكلمات التى توترك "الشاعرة وماذا كتبت؟".

وأنتِ في الحقيقة لا تشعرين بأي غيرة نحو أختك، بل بالعكس أنتِ فخورة بها، وتعجبين بعينيها البندقيتين ذات الرموش الطويلة وشعرها الكستنائي الفاتح المجدول وبشرتها الناعمة، مثل وردة (الزنبق والورد البلدي). وإن كانت غير مكتملة النمو بعد، فيها سيقان طويلة وجميلة. أنتما تحبان بعضكما جدا وتتفاهمان ويربطكما نوع من التواطؤ سيستمر رغم شجاراتكما العديدة طوال حياتكما. تتمرد ديدي كثيراً على أوامرك ونصائحك التي توجهينها لها بهذه الطريقة المتعالية والعارفة بكل شيء التي زادت منذ أن حصلتِ على لقب شاعرة. أما بالنسبة للغرام الذي تحلمين به كثيراً فإنك تقولين لنفسك حتى لو أنك غير جميلة فسوف يحبك من أجل ذكائك وموهبتك كشاعرة... تستمعين بجدية شديدة لنصائح تاتي "لا تمشين برجليكِ مقوسة إلى الداخل، حاولي أن تفتحي قدميك أنتِ التي تحبين الرقص".

-٤-

٢٨ أبريل ١٩٣٦. السابعة والثلث صباحًا. تفوح رائحة زكية للقهوة. التلميذات الداخلية على وشك الانتهاء من إفطارهن عندما تظهر الأم (بيرتلو) دهشتهن الكبيرة. تنهض التلميذات على الفور وهى تحدث صوتًا كبيرًا بسبب حركة المقاعد. "يبدو شكلها غريبًا" تقولين بصوت خافت لجارتك "ماذا يحدث". تصعد الأم (بيرتلو) على المنصة "صباح الخير يا بنات، جئت لأبلغكن نبأ في غاية الحزن إن جلالة الملك فؤاد قد توفى! أطلب منكن دقيقة من الصمت وصلين معى من أجل استكانة روحه" – تنهضن ومع بعض المسلمات تقلن الفاتحة فى صوت منخفض بينما تصلى المسيحيات معًا.. "حسنًا اجلسن اليوم. المدرسة فى حداد والدروس ستلغى – إن التلميذات الخارجيات بلغن بهذا ولن يأتين، مسموح لكُنَّ قضاء النهار مع أهلكن الذين بلغوا والمسيحيات اللاتى لن يخرجن يستطعن المجىء إلى الكنيسة، حيث سيقام قداس من أجل سلامة روح جلالة الملك، "إلى الصفوف يا أنيسات" تدوى الكلاكيت فى القاعة الكبيرة التى تفرغ ببطء، أنت وأختك فى غاية السعادة.

جاءت (إيرينى) الوصيفة وهى مرتدية فستان الأعياد لتأخذكما... تتبعانها حتى التاكسى الذى ينتظركن وتسألانها مئات الأسئلة.

"مدام تنتظركما فى الأتيليه... وبما أن الموكب سيمر من ميدان سليمان باشا فقد دعت أصدقاء وآل راتب". وتقومان بإقناع (إيرينى) حتى تمرا على المنزل وتبدلا أثوابكما. فى الميدان يبدو تمثال سليمان باشا وكأنه غير مكترث بالأمر، بينما شريط

من الشرطة يمنع الوصول إلى الشوارع وكل الشرفات والبلكونات وأسطح العمارات مليئة بالبشر. يتركما رجال البوليس تمران وتهرولان نحو باب العمارة التى يقف أمامها الحراس والمتسكعون. فى الدور الرابع تدقان بابًا، موجوداً عليه لوحة من النحاس عليها "بيت أزياء صالحة".

"خلعت هذه الأنيسات الزى المدرسى الكئيب...! جملتما نفسكما من أجلنا؟" تتجهان نحو البلكونة، وتصطحبكما نظرة السخرية فى أعين أصدقائكما وتنحنيان لتقبيل وجنات هذه النساء اللاتى تناديهن باحترام طنط، على الرغم من أنهما لا يمتان لكما بأى صلة قرابة.

يتقدم نحو الجميع الساعى الذى يعمل فى الأتيليه وهو حامل صينية من الفضة مرصوصًا عليها فنجانين القهوة التركية التقليدية وأكواب من المياه المثلجة.

تدخل والدتكما إلى الصالون وهى منفرجة الأسارير وقد فتحت ستائر كبائن قياس الملابس. تقولين لنفسك إن هذه الكبائن تذكرك بطريقة غريبة بالممرات الموجودة فى عنبر نومكما! تقبلكما ماما وتشير بيدها نحو طاولة صغيرة موضوع عليها أطباق تحتوى على الكراسون والبريوش وإبريق من عصير الليمون "هذا من أجلكما تفضلا يا بنات" تتحدث برهة مع صديقتها ثم تعود إلى الأتيليه "نادوا على عندما يظهر الموكب!".

"ها هم" تصيح امرأة "بلغا والدتكما!" فى حين يهرول أكبر أصدقائكما إلى الداخل لينادى "طنط صالحة! طنط صالحة!" يأتيكما صوت موسيقى جديدة عليكما يتخللها صوت الطبول. كل العاملين فى الأتيليه يتبعون والدتكما مثل الترزيين والخياطات الأوليات والمساعدات الذين يتزاحمون نحو الشرفات الثلاثة الكبيرة التى تطل على الميدان. تتكدس النساء فى البلكون "تعالى يا دجيجى وأنت يا شهريار أنتما الأكثر طولا تقدما نحو السور".

"لماذا الموسيقى؟"

"هذه عادة" تجيب إحدى السيدات "دائما هناك مارش جنائزى يواكب جنازة وطنية من أجل ملك أو شخصية كبيرة فى البلد" تظهر الخيول الستة بغطائها الأسود وتتأثران ثم تصيح ديدى "إن الخيول تبدو فى حداد.." تسير الخيول ببطء وهى تجر العربة الجنائزية التى وضع فوقها تابوت ملفوف بالعلم المصرى.

"الملك تحت العلم؟" "لا، الملك فى التابوت المغطى بالعلم وها هى الموسيقى العسكرية، ما كل هذه الورود! باقات الورد رائعة" يسير وراء الجنود الذين يمسكون بالباقات أعضاء من العائلة المالكة وشخصيات مهمة تتعرف عليها بعض السيدات الموجودات، وبينما يختفى الموكب ببطء تقول سيدة "سينقلونه حتى جامع الرفاعى بجانب القلعة حيث سيدفن".

وتقول تاتى "المساكين عليهم السير لفترة طولية!"

"غريب جدا" تلاحظين "لا توجد امرأة واحدة فى الموكب"

"النساء قد ذهبن إلى المصلية وفقًا للعادات" تشرح والدتك "وسينتظرن فى مكان مخصص لهن، سأترككما إلى اللقاء يا بنات سأصطحبكما إلى المنزل للغداء معكما..".

وفى المساء بعد العشاء عندما تلتقين فى ساحة المدرسة مع زميلاتك تحت. أين الأم التى تراقبكن؟ تسألك التلميذات أن تصفى لها جنازة الملك فؤاد الأول وتستمع الأم بشغف يوازى شغف التلميذات إلى حديثك.

هذه السنة بالخامسة الابتدائية ومُدَرِّستكما هى الأم (لومبير) امرأة ذات وجه ملىء بالتجاعيد وشفاه رفيعة تختفى عندما تكون غاضبة. تشبه حيوان (الويستيتى)! تسميتها هكذا أمام زميلاتك وتصفينها بالأوصاف نفسها فى يومياتك التى لم تنسى أن تأخذيها معك إلى المدرسة. لا تفترقين عنها أبداً. فى المساء فى قاعة الدرس الكبيرة بعد الانتهاء من واجباتك المدرسية تخرجين كراستك ووفقاً لنصائح مارى-مارى تبدئين فى الوصف وفى الحكى.

منذ الأسبوع الأول تشعرين ببعض الارتباك من سلوك الأم (لومبير) المتسيب نحوك، إن الراهبة التى تقترب من عامها الستين تعطيكِ نمراً كثيرة لا تستحقينها وتبتسم لكِ دوماً.

"أنتِ التى تدللها" تلاحظ وهى تضحك تلميذةٍ أخرى. تشعرين بالغضب الشديد "لا أبغى أفضالها! هذا يثير الغضب فى النهاية! فهى غير عادلة على الإطلاق. نستمع طوال الوقت إلى الخطايا، مثل شراهة الطعام والزهو بالنفس والغرور والبخل... والظلم، أليس خطيئة؟ هذه الويستيتى يجب أن تستغفر الله وتعترف بخطاياها. مثل كل أيام السبت فى الصباح تلميذات المدرسة الكبيرة يجلسن فى القاعة الواسعة فى الدور الأرضى التى تحولت إلى مدرج. الأم (بيرتلو) تتزعم الجميع كعادتها، تختار جملة من التوراة وتحللها، لستِ معجبة بشروحها فهى تشير باستمرار إلى المسيح والسيدة العذراء... تحلمين بعطلة نهاية الأسبوع لو أنك استطعتِ أن تبدلى ملابسك فى المنزل!

ولكن مصر الجديدة بعيدة جدا عن وسط المدينة! ليس لديكِ وقت قبل حفلة الساعة السادسة والنصف فى السينما. لحسن الحظ أن بابا لا يأخذ كراسى قوتيل لوج فلا يستطيع الصبية أن يروكما... وها هى مدام (بيرتلو) مستمرة فى الشرح وتقول: إن الغرور خطيئة كبيرة. من هى هذه الراهبة التى قالت لكِ وهى تضحك "إن غرورك يا جلبيرى سيموت بعد رحيلك على الأقل بساعتين؟" هل أنا مغرورة إلى هذه الدرجة؟ تستمر الأم (بيرتلو) فى شرحها "هذه الخطيئة تعبر عن نفسها بأشكال شتى، مثل الإعجاب بالنفس عند النظر فى المرآة، الحديث عن النفس فى خطاب أو فى يوميات" تلكزك مارجريت على كوعك وتشعرين بصفير فى أذنيك "هل تركتِ يومياتك فى تختتك؟" تغمغم ناهد "ألا تعرفين أن الراهبات يفتشن فى تُختنا؟" تستمر الأم (بيرتلو) فى شرحها دون أن تنظر إليكِ ثم يصبح صوتها أكثر قسوة ويبدو كأنه يتهم أحداً ما. تلتفت تلميذات كثيرات نحوك إنها بالقطع جلبيرى الأولى فى الإنشاء بالفرنسية، والتى نشرت قصيدة فى مجلة (إيماج) الفرنسية! بالقطع هى! انتهى الدرس وتنسبن فى الطوابير نحو فناء المدرسة. لديكُنّ خمس عشرة دقيقة من الفسحة "ماذا كتبتِ فى يومياتك؟" تحاول زميلاتك أن تسألك آلاف الأسئلة وأنتن تلعبن بالكرة، تشعرين بالغضب ثم بالذهول وأخيراً تضحكين ملء فمك. لم يخطر على بالك أن الراهبات يفتشن فى تختكن فى غيابكن، بأى حق؟ هذا قانون المدرسة "من هى التى فتشت هذه اليوميات؟ أرجو ألا تكون الأم (لومبير)! لا يهم! لقد رسمت لها صورة شعرية ستفقدها كل توازنها... لقد نقدت معاملتها الظالمة مع زميلاتى وقارنتها بالوستيتى! هذه المتطفلة الحقيرة!. فى الفصل تجلسن فى صمت غير معتاد. تلاحظن الحواجب المقتضبة والشفاه المزمومة للأم (لومبير) لا شك أنها هى التى وجدت يوميات جلبيرى فقد تحدثت عنها وقالت إنها ويستيتى عجوز! ولكن يدق على الباب "بعد إذنك يا أم (لومبير)!" تقول أخت وهى تظهر من فاتحة الباب "تطلب الأم (بيرتلو) جلبيرى أفلاطون فى مكتبها".

تكسو الحمرة وجهك، ويدق قلبك بشدة، وتنهضين، بينما تأذن لكِ بحركة من رأسها الأم (لومبير) بالخروج. تنحنين بسرعة رغمًا عنك وتتجهين نحو مكتب الأم "صباح الخير يا أمي" انحناءة بدون أن تعرض عليكِ الجلوس تبدأ الأم (بيرتلو) في الكلام بلهجة حادة "أظن يا جلبيرى أنك تعرفين جيداً لماذا استدعيتك... لقد ارتكبتِ خطيئة كبيرة من الغرور.. منذ متى تكتبين يوميات؟".

"والدَيّ وأصدقاؤهما قد قرءوا قصيدتي وقصصي، ونصحوني بالقراءة كثيراً وبكتابة يومياتي، ثم إن يا أمي لقد علمني والداي ألا أفتح بتاتًا خطابًا لا يخصني وألا أعبث في حقيبة ليست لي أو في خزانة أو في مكتب ليس ملكًا لي. وأن عملاً مثل هذا يضاهي سرقة". تكلمتِ دفعة واحدة بصوت بهيم. رفعت الأم (بيرتلو) حاجبيها وقالت ويدها اليمنى موضوعة على كراستي المفتوحة "معاملة الأم (لومبير) بهذه الطريقة!" ثم تتوقف وتنظر إلى الصفحة. أظنها تقرأ من جديد الوصف الذي كتبته عن الأم (لومبير). أنتِ فخورة جدا به هذا الويستيتي العجوز، تقلب الصفحات وتنظر إليكِ "تتحدثين كثيراً عن الصبية" "هذا طبيعي يا أمي لقد تربينا مع الأولاد، أخوات ابنة خالتي عزيزة ورفاق الطفولة الذين كانوا أولاد أصدقاء أهلي! ولكن اعذريني يا أم (بيرتلو) لا أفهم سبباً لكل هذه الأسئلة.. سأواصل كتابة يومياتي في البيت".

إن مشكلة اليوميات نجحت في جذب تعاطف كل الفصل وصداقته. إن تلميذات كثيرات في المدرسة الكبيرة يتحملن مثلي ورغماً عنهم هذا التفتيش المهين لتختهن. أما بالنسبة لكِ فإنك لا تشعرين بأي أسف لحرمانك من الوشاح الأخضر، بل بالعكس تدركين الآن أن هذا الوسام كان يمثل لكِ قيداً. تشعرين أنك أكثر حيرة الآن لأنك لا تستمعين إلى "وشاح أخضر لا يثرثر في الفصل... وشاح أخضر لا يفعل هذا أو ذاك" ولكن ستظل الشفاه الرفيعة للأم (لومبير) مذمومة. كلما سألتك سؤالاً لن تسامحك، ولكنها لن تسمح لنفسها أن تعطيكِ نمراً سيئة في الامتحانات. ككل عام

ستحصلين على المركز الأول فى الإنشاء بالفرنسية والمركز الثانى فى الإنجليزية والتاريخ (تاريخ فرنسا بالطبع!) وجوائز فى الجغرافيا وفى العلوم.

ولكن الأم (بيرتلو) لم ترد إليكِ موضوع الجنحة، وقد اشتريتِ كراسة جديدة تحتفظين بها فى البيت ولكن قلما تفتحينها. إن بعد ظهر أيام السبت والأيام القصيرة للآحاد لا يتركان لكِ كثيرا من الوقت للبوح. ومع هذا تستمرين فى الكتابة، كثيراً. أثناء أوقات فراغك فى المدرسة تكتبين قصيدتين ستنشران فى الجريدة اليومية (البروجرى إيجيبسيان) حكايات الساحرات، مسرحيات قصيرة وحتى رواية!. وبناء على طلبك ترسم ديدى وهى تلعب رسومات بألوان مائية تصور حكاياتك.

هذه المجموعة من الرسوم المائية ذات الألوان القوية والمواضيع المرسومة بتلقائية والمليئة بروح الفكاهة ستصبح نقطة الانطلاق لموهبة كبيرة تنتظر أختك، وبعد موتها ستشغل هذه الرسوم حائطاً من مكتبك.

تذهبان أكثر إلى السينما فى حفلة السادسة يوم السبت مع والدكما وطنط (رقية) اللذين ينتظرانكما عند خروج المدرسة وأحيانا مع تاتى فى حفلة السادسة بعد الظهر. تعشقان السينما، ولكن والدتكما قد وضعت قواعد لهذا الموضوع لبابا وتاتى، لا تستطيعان أن تذهبا إلا لأفلام تناسب سنكما!

أفضل أوقاتكما تقضيانها فى الجيزة فى المنزل الأنيق لأصدقائكما، منى وجميل وزاهية راتب. تلتقين هناك بسعادة ولمدة ساعات وفى حرية كاملة مع أولاد عمهم. تلعبون بالكرة أو البحث عن الكنز على المساحة الواسعة الخضراء فى الحديقة، أو تجلسون وتتحدثون معهم، تدور أحاديثكم المفضلة حول آخر فيلم رآه الأولاد وهم يقلدون الممثلين أو يعجبون بهم أو يسخرون منهم.

عندما يشتد البرد تحتمون فى البهو الشاسع، حيث تشتعل النار فى المدفأة أو تديرون الجراموفون وترقصون على نغمات الموسيقى العصرية، ويعلم بعضكم بعضًا

الخطوات الجديدة، بينما الأصغر سنا ينظرون إليكم بإعجاب. تتفاهمون جيداً وتحبون بعضكم كثيراً كالأصدقاء، وهذا يخص الصبية بالطبع؛ لأن البنات وخاصة أنتِ يمررن بمرحلة مراهقة وتنتظرن كلمة أو نظرة أو إيماءة من الصبية يعبرون من خلال هذا عن تفضيلهم أو حبهم لإحداكن... ولكن بدون جدوى. لا يلتصقون بأجسادكن وهم يرقصون، هل هو الخجل، الحياء، قلة الجراءة أو الفضول. على كُلّ حال لا أحد منهم ولا واحدة منكنِ سيقوم بالخطوة الأولى، وفيما بعد عندما تتسع دائرة الأصدقاء سيدخلكن (المستجدون) فى لعبة الحب، أما بالنسبة لكِ ولأنك عاطفية بدرجة كبيرة سوف تنتظرين سنوات عدة قبل أن تنالى قبلتك الأولى!

١٩٣٦. العاصمة بأسرها تحتفل بمناسبة قدوم الملك فاروق الأول للعرش، تصدع الأصوات المتأثرة فى كل أركان شقة قريب لوالدتك. تطل ثلاث شرفات كبيرة على شارع القصر العينى، حيث اكتسى وسط الشارع بالرمل الأصفر، تتحدث السيدات بإفراط عن هذا الملك الشاب الوسيم جدا والذكى جدا والذى درس فى إنجلترا.

"ها هو! ها هو!... أسرعوا" يسرع الجميع نحو الشرفات المفتوحة. تنطلق ضحكة مدوية من فمك وفم ديدى عندما تستمعان إلى سيدة توصى ابنتها "عندما ترين العربة تمر أمامنا ابتسمى وانحنى بأقصى ما تستطيعين ربما يراكِ الملك ويعجب بكِ". فى هذه اللحظة يظهر ضابط ممتطٍ حصانًا أبيض ويتبعه عدد آخر من الضباط يلبسون جميعهم ملابس التشريفات. من ورائهم تظهر العربة ذات اللون الأحمر والأبيض والذهبى والتى يجرها أربعة خيول بيض تكسوها الزينة، بينما يجر زمامها سايسان وهما يرتديان السديرى الأحمر المنقوش بخيوط ذهبية فوق سراويل بيضاء ويضعان فوق رأسيهما الطربوش الأحمر. على جانبى العربة يسير العساكر. من خلال الزجاج تنظرون إلى وجه الملك الشاب، وإلى منكبيه، وإلى حركة يده اليمنى، وهو يحيى الجماهير المحتشدة. يصطحب مروره التصفيق الحار والزغاريد.

أمير مثل أمراء الأساطير! رفيع وأبيض البشرة وقسماته متناسقة وعيونه زرقاء. بالفعل فاروق الأول وسيم جدا. فى هذا الصباح وقع الشعب المصرى فى غرام ملكه الشاب! وسيظل فاروق الأول وخطيباته المفترضة أحد المواضيع المفضلة للمجتمع الراقى المصرى حتى يحين وقت اختياره لفتاة ليتزوجها.

لا تعرفين بعد أنك قابلتِ الملكة القادمة السنة الماضية فى شم النسيم، كانت ديدى تعانى من الحمى القرمزية وحتى تفادى أى عدوة كنتِ تقيمين عند تاتى. أخذتك هى وأنكل أحمد على ذهبية صديق له، كنتِ تشعرين بالسأم فجلستِ على الأرض بجانب الجراموفون لتستمعى لبعض الموسيقى وفجأة اقتربت فتاة مرتدية البنطلون وحذاء بكعب من ثلاثة أشخاص موجودين بجانبك "صافيناز لماذا أنتِ متأخرة؟ أين والدتك؟ هذه هى بمبولى فتاة من سنك يمكنك التحدث إليها" تبتسمين إليها وأنتِ سعيدة وتمدين يدك التى تستقبلها بدون اكتراث "أنا متأخرة بسبب والدتى... صباح الخير!" صافيناز التى تضع أحمر شفاه لا تتوقف كثيراً وتبتعد بسرعة. وسوف تقضى باقى اليوم مع الكبار وتزدريكِ تماماً.

-٧-

كم هى لطيفة مارجريت أن تكتب إلى باسم كل الفصل، مر أكثر من شهرين... التهاب رئوى حاد بعد امتحانات الفترة الأولى. لم تأكلى فى عيد ميلادك إلا حساء بالشعرية وكومبوت التفاح! لم يُضَف إلى هذه الوجبة بسكوتة واحدة... ولكن على الأقل تستطيعين القراءة. يمر الوقت سريعًا بكل هذه الهدايا القيمة التى أهديت إليكِ فقد دللوك جدا وتمتلكين الآن مكتبة صغيرة... وقد أهدتك ماما وتاتى ومارى-مارى روايات للكتاب الكبار فقط. والدك أهداكِ خمس روايات (لدلى) ورواية (لماكس دفيقزيت)! ولكن لحسن الحظ استطاعت مارى-مارى أن تستبدل بهم سبعة كتب من مجموعة نيلسون. إن روايات الحب الرومانسى باهظة الثمن لهذا فقد استبدلوا بخمسة كتب سبعة من نوعية أخرى (فلوبير-بلزاك-ستندال-كونرد). تدخلين بدون أن تلحظى فى هذا العالم المبهر للأدب وتتعرفين على أبطاله مثل (إيما بوفيرى وجيليان سورال والأب جوريو). تعشقين أيضًا حكايات (فرانسيس جيمس) وأشعاره التى أهدتها لكِ تاتى.

ستأتى تاتى وديدى. أختك تقيم عند تاتى يذهب بابا ليأخذها من المدرسة ويوصلها الأحد مساء بدون طنط (رقية). هذه الأخيرة لا تبرح سرير أختك الصغيرة (ذكية) التى تعانى المرض. تتوقفين ثم تغيرين جلستك وبتنهيدة رضا تبدئين من جديد فى قراءة (حكايات وأساطير إنجلترا) لقد أهدتك مارى-مارى هذا الكتاب مع (أوجينى جرانديه). ولكن تودين الآن أن تفرغى من قراءة قصة (كارميا) الشائقة.

كان وجه إيريني غريبًا جدا عندما أحضرت لكِ فنجان الشاى "لم يحدث شىء" أجابت على سؤالك "أنا فى حالة جيدة أقسم لكِ" ربما تكون ماما قد نهرتها... ولكن ماما لم تكن قد فعلت شيئًا لم تستطع إيرينى أن تبلغك ما كانت تسميه بالعربية (مصيبة). فقد حدثتك عن هذا عند عودتها من المدرسة بعد اصطحاب ديدى. وقد ساعدت أولاً ماما على ارتداء ملابسها، وكانت ماما تقطب حاجبيها وتضع البودرا سريعًا والروج سريعًا بدون أن تنبث بكلمة ولم تجرئى أن تسأليها: لماذا تاتى التى كانت قد دخلت غرفتك؟ احتضنتك بهذه القوة بين ذراعيها.

"إلى اللقاء يا حبيبتى" وقد تركتك وهى تبكى.

"ماذا يحدث يا إنجى؟" قالت ماما: "تماسكى لا تفعلى هذا أمام الصغيرة".

"كذا" تحكى لكِ إيرينى وأنتِ تتمتعين بأكل السبانخ. "مدام إنجى وأحمد بيه انفصلا، إنها مدام إنجى التى طلبت الطلاق فقد فوجئت بزوجها الخنزير مع إحدى صديقاتها وقد نصحتها والدتك أن تسافر إلى فرنسا".

عينا إيرينى مليئتان بالدموع وتخرج منديلها من جيبها وتمسح عينيها.

"لا تبكى يا إيرينى أرجوكِ! تاتى قد فعلت الصواب بانفصالها عن هذا الحقير".

كم سنفتقد تاتى! كم من الوقت ستقضيه فى فرنسا؟ ربما ستذهب إلى نيس عند والدها.

لو كنتِ أكبر سنا كنتِ حكيتِ كل شىء لتاتى. فأنتِ ما زلتِ ترين هذه الحادثة عندما كنتما تسكنان فى شقتهم، فقد دخل فى الغرفة، وكانت ماما ما زالت فى باريس لاختيار موديلاتها، وكانت ديدى ترسم فى البلكونة وكنتِ مستلقية على السرير وبضحكة خبيثة على وجهه أعطاكِ كتابًا "أعيره لكِ، فإن الكاتب يجب أن يعرف الحياة، ولكن لا ترى هذا الكتاب لأحد إن خالتك ووالدتك لهما رؤية مختلفة عن رؤيتى للحياة،

اقرئيه عندما تكونين بمفردك" كان قد جلس بجانبك وسحب يده فى فتحة رويك وهو يحاول أن يلامس نهديك! أبعدته عنك ووجهك تشوبه الحمرة "وها أنتِ أصبحتِ امرأة صغيرة جميلة! ويملؤها الحياء".

استدرتِ وقد ضممتِ ذراعيكِ نحو صدرك، ضحك بغباء ثم انصرف، قفزتِ من السرير فى الحال، وارتديتِ ملابسك بسرعة وأنتِ تخشين أن يعود من جديد. عندما دخلت ديدى فى الغرفة رجوتها ألا تتركك أبداً بمفردك عندما يكون أونكل فى البيت، وكانت ديدى قد وصفتك بالعبيطة وبالمدعية التى تتخيل (أشياء)، أما بالنسبة للكتاب (السلطانة أو الأم) لم تستطيعى أن تقرئى سوى فصلين. كان يحكى قصة شاب يضاجع والدته. كلما تقدمتِ فى القراءة كانت أذناك تصفران وكنتِ تشعرين بالسخط.

هل هذا زوج خالتك الذى يتدنى لهذه الدرجة؟ حتى لو لم تدركى مقدار ما فعله، فإن المشاعر الطيبة والإعجاب اللذين كنتِ تكنيهما له اختفيا تماما. أعدتِ له هذه القمامة التى كان أعارها لكِ وأنتِ تغضين النظر عنه، ومنذ هذا الوقت لم تستطيعى قط أن تنظرى فى عينيه.

انفصل بابا! وقد تزوج من جديد من فرنسية، اعتنقت الإسلام وأطلقت على نفسها اسم (ليلى). بمناسبة خروجك للمرة الأولى بعد مرضك أخذتِ وجبة الغداء مع ديدى وبابا وزوجته الجديدة يوم الأحد، إنها المرة الأولى التى لا يكون عند بابا حديقة. يسكنان فى شقة فى شارع هدى شعراوى القريب جدا من شارع الفلكى وذهبتما إليه سيراً على الأقدام. تبدو زوجة والدكما الجديدة امرأة جميلة وصغيرة الحجم، ذات عيون زرقاء وشعر بنى وتضع حمرة كثيرة على وجهها. إن حركتها مفتعلة بعض الشىء بالنسبة لكما، ولكنها تبذل قصارى جهدها لكى تكون لطيفة معكما. وبعد وجبة غداء رائعة اصطحبكما بابا وليلى فى جولة فى الشقة، فالأثاث جميل، ولكن لفت نظرك وجود صليب معلق فوق فراش الزوجين، وقد ابتلعتِ سؤالك السخيف، لأن والدك يبدو عليه السعادة التامة والعشق الكبير.

تطفئين النور وتغلقين عينيكِ وقد اقتربت الساعة من منتصف الليل. إنها المرة الأولى التى تسهرين لهذه الدرجة. فها هى حفلتك الموسيقية الأولى. ويا لها من حفلة موسيقية! إن قاعة (الإيورت ميموريل هول) كانت مزدحمة جدا بالحضور كانت والدتك تريد أن تمنحك هذه الفرصة النادرة لكى ترى (توسكانينى). تتذكرين الموسيقيين وهم مرتدون البدل السموكينج ويعدون آلاتهم الموسيقية ثم الحركة الأولى بالعصا السحرية لهذا الرجل الرفيع ذى الشعور البيضاء، الذى يعطيكم ظهره واكتشفتِ أنه ملحن لم تسمعى عنه من قبل وهو (بيتهوفين).

كنتِ قد سُحِرْتِ، تحلمين بالاستماع لحفلات موسيقية أخرى، وخصوصًا أن تمتلكي إليكتروفون، مثل بابا ومكتبة أسطوانات، ولكن عليكِ أن تنتظرى طويلا.

(٥)

الليسيه... الإخفاقات

-١-

الساعة الثامنة إلا ربع، من قبل اجتياز عتبة المدرسة، تصلنى ضوضاء الأصوات والضحكات والصرخات. تتجولين فى وجوه هذه الفتيات؛ باحثة عن وجه مألوف. تسير التلميذات الكبيرات وتلميذات حديقة الأطفال، وهن ممسكات بأيدى بعض، ويقبلن ويهنئن بعضهن. يرتدين مثلك المريلة الفستان ذات الأكمام الطويلة من القطن والمربعات الوردية ذات الأزرار المغلقة من الأمام. تبدين منفعلة حين تكتشفين أن لا أحد يلفت نظره أنك (جديدة). أىٌّ من هذه الفتيات الكثيرات سوف تكون صديقتك؟ كيف ستعرفين المكان الذى يصطف فيه تلميذات الصف الأول الثانوى "ب"؟ ترتجفين عندما تستمعين الصوت الحاد لجرس المدرسة.

"أنتِ جديدة هنا؟ عن أى فصل تبحثين؟ أولى ثانوى "ب" مثلى... تعالى".

كنتِ على وشك أن تقبليها! "ميرسى!" تقفين بجانبها بينما بعض النظرات مسلطة عليكِ.

"ما اسمك؟"

"انا اسمى جلبيرى أفلاطون، وحضرتك؟" لقد سألتِ هذا السؤال بصوت منخفض وأنتِ تنظرين إلى المدرسة المرتدية ملابس غير متناسقة والكبيرة حجماً، ذات الشعر الرمادى المرفوع على هيئة شينيون، والتى تقف أمامكن.

"أنا اسمى جريس جدة ولكن نادينى بـ توبسى، وتوقفى عن الكلام بكلمة "حضرتك" يبدو جليا أنك تأتين من عند الراهبات، هنا الكل يتحدث ببساطة".

"يا خبر هذه مدام (ديبيان)!" تصيح التلميذة الواقفة بجانبك، وتجيب عليها زميلتها "ماذا ينتظرنا؟!"

جريس التى تريد أن تسميها توبسى تشرح لكِ بصوت ما زال منخفضًا: إن سمعة مدام ديبيان أنها قاسية جدا على الرغم من كونها مدرسة جيدة. ويأتى دوركن للتقدم وراء مدام ديبيان تتبعانها، وتصعدن طابقين من سلم كبير، وتصلن إلى باب مكتوب عليه "أولى ب"، وفجأة تجدين نفسك وسط هرج كبير مصحوب بضحك مكتوم. تختار التلميذات أماكنهن بين المكاتب الكثيرة المرصوصة على يسار الغرفة. تقف مدام ديبيان خلف مكتب موضوع على منصة، ومن ورائها تظهر السبورة الكبيرة السوداء.

"ألن ينتهى كل هذا؟" كم يبدو صوت مدرستكن جافًا! "اجلسن سأبدأ أنادى على الأسماء".

تنظر إلى كل تلميذة تنهض. ثم تتابع وجهًا، اسمًا، طريقة، حركة أحيانًا غير مكترثة، وأحيانًا كسولة.. تعطيكِ خبرة عن زميلاتك فى الفصل.

"جلبيرى أفلاطون" صدعت الكلمتين وسط هدوء تام، وتنهضين، ووجهك يزداد احمرارا، ومحاطة بالنظرة المتربصة لمدرستك، وخصوصًا النظرات المليئة بالفضول للتلميذات.

"خذن كتاب الهندسة وكراسة... اسمعن جيداً هذا الدرس الأول سهل جدا" تقف مدام ديبيان أمام السبورة السوداء، وهى ممسكة بطباشير. هى تشرح وترسم دائرة كبيرة، وكل شىء يبدو لكِ سهلاً.

"دَوّنْتُنَّ بعض النقاط؟ أريد كراسة نظيفة ومرتبة. هذا الدرس يجب أن تدرسوه لبعد غد، سأسألكن فيه، وسوف أرى كراستكن. التلميذة التى ستنسى كراستها ستحصل على صفر جميل!"

توبسى ذات وجه محبوب وسمراء جدا، ورفيعة ولها جفون تقع قليلاً على عيونها الكبيرة السوداء رغم أنفها الكبير الذى يطيل وجهها الرفيع، وهى من أصل فلسطينى، وتنتمى لعائلة غنية من التجار اليهود. أثناء الفسحة تقدم لكِ توبسى صديقاتها من الصف الأول "أ" إحداهن من عائلة أقباط أغنياء، والثانية أيضًا يهودية، ولها جدود ولدوا فى روسية وليسوا أغنياء. ستعرفين عن طريق الصدفة ديانتهن؛ لأن هذا لا يهمك كثيراً، أما الآن فزميلاتك الثلاثة مندهشات جدا؛ لأنك (تطيتِ) الصف الثالث الإعدادى.

"لن يكون هذا سهلاً عليكِ يا ابنتى، حتى لو كنتِ من بين الأوائل فى الفصل!"

إن اليوم التالى لدخولك الليسيه سيكون ميعاد حصولك على أول صفر! كيف؟ كنتِ تعرفين جيداً درس الهندسة، وكنتِ وضعتِ كراستك فى الحقيبة المدرسية قبل أن تخلدى إلى النوم فى الليل، وكنتِ جاهزة لمواجهة كل الأسئلة السخيفة لمدام ديبيان، ولكن ما حدث هو أنكِ لم تجدى كراستك! مع أنك متأكدة أنكِ وضعتها فى الحقيبة. يكتسحك ذعر رهيب!

"اهدئى" تقول توبسى "وابحثى جيداً".

ومن حولك أخذت تلميذتان صفراً؛ لأنهما نسيتا كراستيهما، وتدعين الله أن تنساكِ مدام ديبيان، ولكن اسمك الذى يعلق فى الذاكرة لا مناص من الخروج منه، وتناديكِ مدام ديبيان. تنهضين والحمرة تكسو وجهك، ويداكِ فارغتان. تذهبين إلى المنصة، حيث تغمغمين ببعض الاعتذارات السخيفة بدون أن تستطيعى الرد..

تواصلين الكلام، ونظرات العينين السوداء الحادة تراقبك، ثم تصمتين بدون حركة كالتمثال!.

"اذهبى واجلسى مكانك!" وتنادى مدام ديبيان على تلميذة أخرى. تجلسين وأنتِ فى حالة رهيبة من المهانة، ورأسك تَئِنُّ محاطة بالنظرات المزرية للتلميذات، ثم تجلسين وتتماسكين؛ حتى لا تبكى. لا ترين شيئًا، ولا تستمعين إلى الدرس الجديد الذى تشرحه مدام ديبيان. عندما يدق الجرس تقوم التلميذات بترتيب حاجاتهن وتأخذين حقيبتك وتفرغينها على المكتب.

"ها هى كراستك!" تصيح توبسى "يا لكِ من حمقاء، تعالى لا تعيرى للأمر أهمية...".

"وجدتِ كراستك؟" تسأل تلميذة، وهى مارة بجانبك.

"لقد حدث لى هذا فى السنة الماضية". تقول أخرى: "إن الحصول على صفر ليس آخر الدنيا!".

نعم كل هذه الكلمات ظريفة ولكنهن لا يعرفن... أن جلبيرى المثيرة للإعجاب والمحسودة من تلميذات القلب المقدس تصبح اليوم محط سخرية الجميع! هذه ليست نهاية الدنيا بالفعل، ولكن هذا الصفر الذى وقع على رأسك مثل الحجر، سيمنعك نهائيا من النجاح فى الرياضيات. وها أنتِ على وشك أن تتحملى مهانة ثانية فى الأدب!.

والتى سوف توجهها إليكِ المدرسة الرائعة والأنيقة مدام بلومبان.

تنتظرين دورك، وأنتِ فى غاية الثقة؛ لأن موضوعك الأدبى هو بالقطع الأفضل فى الفصل، وخاصة أن مدام بلومبان لم تنادِ عليكِ حتى الآن.

"أما بالنسبة للموضوع الأدبى لمدموازيل جلبيرى أفلاطون فلم أفهم من لغوها شيئًا! أشعر بخيبة أمل لأن مستواكِ ضعيف، ولا تعلمين ما يعنى موضوع أدبى ولا خطة ولا تعرفين الكاتب (لابروبير).. خذى ورقتك".

لقد نهضتِ ووجهك أحمر ومنزعجة جدا، ومدركة لكل العيون الساخرة المنصبة عليكِ. إن التلميذات يقهقهن؛ لأنهن سعيدات أن هناك تلميذة أسوأ منهن.

سوف تتأقلمين ببطء فى هذا المناخ المختلف تمامًا عمّا تعرفينه، والذى وضعتِ فيه قصرًا، وقد اجتاحكِ بعض الكسل المعنوى الذى سيرافقك حتى فشلك فى البكالوريه.

توجهين كل اهتمامك لدروس مدام بلومبان بسبب هذه المهانة الثانية، تعلمكن أن تضعن خطة، وأن تشرحن النصوص، وأن تكتشفن وأنتن تدرسن الكُتَّاب الكبار، وتتعلمين كيف يكتب الموضوع الأدبى، تدونين ما تقوله المدرسة، وأنتِ تنصتين إليها بانتباه شديد. ألا تريدين أن تكونى كاتبة؟ وتنتظرين وأنتِ متحمسة جدا فى الشهر التالى، وعيناكِ مصوبة على مدام بلومبان نتائج عملك، لقد اجتهدتِ على قصيدتك المكتوبة بطريقة (رونسار) لمدة عشرة أيام، وأنتِ تصححين وتنقلين بتوتر كبير الشعر وقد مزقتِ أكثر من مرة الأوراق؛ لأنك لم تكونى راضية، ولم تستطيعى إلا فى الليلة السابقة لتسليم الواجب وأنتِ ترتعشين أن تكتبى موضوعك الشعرى بدون أن تتوقفى عند القواعد الشعرية!.

"لم أكتشف للأسف أى شاعرة بينكن" تعلن مدام بلومبان بابتسامة ساخرة، وتأخذ المواضيع وتدلى بملاحظتها. يبدو أن مدرستك تحتفظ بواجبك حتى النهاية!.

"جلبيرى أفلاطون!" تنهضين، وقلبك يدق "لم تكتبى هذه الأشعار، إن الصور جميلة جدا، ولكنك ستقولين لكاتبة هذه الأشعار: إنها يجب أن تتعلم القواعد الشعرية!".

تحاولين أن تعترضى وأنتِ ساخطة، ولكنها تأمرك بالجلوس. كيف تبرهنين لمدام بلومبان أنه شعرك؟.

فى المنزل ووسط بكائك تقترح عليكِ والدتك أن ترى مدرستك بعض الأشعار التى نشرتِها.

تبوحين لمدرستك بعد أن تسلميها أشعارك أنك أيضًا (نطيتِ) الصف الثالث الإعدادى بعد مرور أربع سنوات فى القلب المقدس. تبدو متفاجئة فى البداية ثم تقول مدام بلومبان وهى مبتسمة "أنا آسفة يا جلبيرى؛ لأنى جرحتك، جيد أنك أعلمتنى. اتركى لى كتاباتك وسأعيدها لكِ غداً... لم تكتبى وفقًا لقواعد الشعر، ولكن صورك جميلة".

منذ هذا اليوم تنجزين تقدما كبيرا فى الموضوع الأدبى؛ وذلك بسبب النصائح القيمة التى تزرفها لكِ مدرستك التى تهتم بكِ بشكل خاص. تقرئين بتمعن الملاحظات التى تكتبها على واجباتك، وبعد فترة وجيزة تصبح كتاباتك من أفضل ما يقدم. تحصلين على درجات جيدة فى كل شىء إلا فى العلوم والرياضيات. يصاب أساتذتك بخيبة أمل من عدم اكتراثك لهذه المواد، وفى النهاية لا يهتمون بكِ إلا مرة فى الشهر لإعطائك الدرجة التى ستظهر على كراسة الدرجات الشهرية.

إن مدرس "العربى" قصير النظر، وليس لديه أى سلطة على تلميذاته الاثنتى عشرة غير المنضبطات، لا تعملن على الإطلاق! وتحفظن فقط بعض الأبيات التى سوف يسمِّعنها فى امتحاناتهن، لا تعين أهمية هذه الثغرة التى لا تحاولين ملأها.

وستعتبرين أن هذا الإهمال الجسيم أحد الأخطاء التى ارتكبتها فى حياتك. وبالطبع ترسبين! ويكون عليكِ أن تعيدى السنة! تشعرين بالإحباط وبالإحساس بالذنب، ولكن تهونين على نفسك بتطلعك لرؤية تأتى أخيراً.

- ٢ -

إجازة جميلة! فى شارع (فيكتور هيوجو) الجميل رقم ١١ مكرر فى الدور الثانى من عمارة قديمة أنيقة. تتقاسمان فراشًا أجرته خالتكما لكما، وقد وضع فى طرف من الاستوديو الواسع الذى وضع فيه الأثاث بذوق رفيع. بعد استيقاظ تاتى يتحول فراشها الكبير إلى أريكة مغطاة بقماش بلون العاج الأبيض مزخرف بورد أحمر مثله مثل الفوتيهات، والستائر المدلاة من الشرفات الواسعة التى تطل على الساحة، ويوجد ركن للطعام وبجانبه موقد للحرارة، وتسكن مامى فندقا قريبا منكما، وتحتسى أغلب وجباتها معكما.

تتجولان كثيراً بمفردكما، وتذهبان إلى السينما. تشعران بسعادة بسبب هذه الحرية الجديدة وتتمتعان بكل لحظة. مع تاتى تكتشفان الحى اللاتينى، وتمران أمام المقاهى، حيث يجلس الشابات والشباب. تساعدك تاتى أمام عرض للكتب عند (جيبار) على اختيار بعض الكتب المخفضة، مثل (دونكى شوت، حج شايلد، أرولدنو، مذكرات خراج القبر).

تحت إلحاح شديد من خالتك تتخلصين أخيراً من ضفائرك. وعندما تشاهدين نفسك فى المرآة بعد قص شعرك تبدين راضية.

"انظرى كم أنتِ جميلة!" يقول مصفف الشعر وهو راضٍ، تُعَقّب تاتى "أخيراً ها أنتِ تبدلتِ!".

"نشكرك يا تاتى نشكرك لهذه الإجازة الجميلة، فقد تسلينا كثيرا" تقبلانها، بينما يساعد البواب السائق فى وضع حقائبكما الثقيلة فى التاكسى. مامى وتاتى تقبلان بعضهما البعض "إلى اللقاء!" وتنفجر تاتى فى البكاء "من يعرف متى سنلتقى من جديد لو اشتعلت الحرب!"

"هيا هيا يا إنجى" تقول جين صديقة تاتى وهى مبتسمة: "اهدئى حتى لو اشتعلت الحرب لن تستمر طويلاً... تعرفان أنه كان يجب أن يحدث هذا. هذه هى الطريقة الوحيدة للتخلص من اليهود (يوبان) الذين يحكموننا".

"ما معنى (يوبان) يا مامى؟" تسألين مامى وأنتِ تشاهدين هذه الشوارع الجميلة لباريس وهى تمر أمامكِ. "اصمتى يستطيع السائق أن يسمعك، لا تنطقى بهذا الاسم إطلاقا ولا أنتِ يا ديدى..."

"هذا أنا.. افتحى لى يا بمبولى أرجوكِ!" ماذا يحدث؟ كنتِ قد ذهبتِ إلى كابينتك لغسيل يديكِ ولتصفيف شعرك بعد الغداء، وكنتِ قد تركتِ أختك مع شابين، كنتما عرفتاهما لتوكما.

"لا تتركينى أبدًا بمفردى" تقول ديدى وهى تبكى: "حاول شارل أن يقبلنى على فمى! أوووف هذا مقرف جدا، وتضحكين" تضحكين بالطبع، تتذكرين قصة أونكل أحمد، وكيف أنها قد سخرت منك على الأقل، فشارل هذا شاب وأنتِ تحسدينها، كنتِ تودين لو كان حاول أن يقبلك، لقد كبرت ديدى جدا وتزداد جمالاً يومًا بعد يوم ببشرتها الجميلة وسيقانها البديعة... ليست مثل سيقانك!

من حسن الحظ أن قد أطالت ماما جونلاتك، وهى تخفى ركبك القبيحة منذ العام الماضى، ثم هناك حب الشباب! تؤكد ماما أنه سوف يختفى قريبًا، وعلى كل حال لا يوجد حب شباب منذ وجودنا على الباخرة.

لم يبقَ إلا يومان على دخول المدارس، منذ رجوعك استعدت كتبك، واكتشفت على الأرفف الصغيرة الزجاجية لوالدتك روايات كثيرة، مثل (فيكى بون، ريزامسلد لهمان، وأندريه موروا، وفرانسوا مورياك). جذب انتباهك عنوان من بينهم "عشيق ليدى شاترليه" تبدئين فى قراءته. كلما تقدمتِ فى القراءة يجتاحك شعور مربك ودافئ ورقيق، وتستمرين فى اكتشاف الرواية بولع وتشوق، فترتبكين عند سماع والدتك التى دخلت غرفتك فجأة "ماذا تقرئين يا حبيبتى؟" بخجل وارتباك تمدين الكتاب لوالدتك بدون أن تجرئى على النظر فى عينيها "لقد رجوتكِ من قبل أن تعلمينى عندما تريدين قراءة كتاب من مكتبتى. هناك كتب لا تستطيعين فهمها الآن. هذا كتاب جميل جدا، ولكن أنتِ مازلتِ صغيرة لتقديره!".

ظهر يوم السبت الذى ينهى الأسبوع الأول من الدراسة، يتوقف بابا بسيارته أمام باب المدرسة، وينزل لأخذ ديدى، بينما تلعبين مع (سويتى) كلبة بابا الظريفة، وأنتِ تنتظرين بشغف أختك. ها هى ويتبعها والدكما. تصعد فى الخلف، وتنحنى كى تقبلك "بونجور! لم أعد أطيق هذا!" وقد أصبح صوت أختك أجش! "بابى أرجوك أخرجنى من هذا السجن! هل تتصور أن الأم بيرتلو نادتنى؛ لترينى الخطابات التى كتبتها لإيفون. المسكَينة، إيفون التى قضت إجازتها فى القلب المقدس كنت قد وعدتها أنى سوف أكتب لها. الأم بيرتلو عاتبتنى لأنى حكيت لصديقتى، الأم قد رأتها... هل أحد يمكنه أن يعبد ممثلاً؟ وإلخ إلخ! ثم أرتنى الكتب التى أعارتها لى بمبولى (الشىء الصغير، وكروك بلون)" لم تتخيلى أن هذه الروايات قد تحدث مشاكل لأختك.

"لم أنتهِ بعد!" وتبدأ فى البكاء "لقد سبتنى وقالت عنى شهوانية، ماذا يعنى (شهوانى) يا بابا؟".

"أكان ينقصنا هذا!" تصيحان فى صوت واحد أنتِ ووالدك وهو ممسك عجلة القيادة بعصبية.

"كان عليكِ أن تسأليها معنى هذه الكلمة! كنت أظن هذه الأم بيرتلو أكثر ذكاء! أكثر تفتحًا! والآن جففى دموعك، سوف أصطحبكما إلى السينما وسترين فيلمًا لممثلك المفضل (تايرون باور)، وها هى ديدى تبتسم "يا لها من مفاجأة"!

ويضيف بابا: "وسأتحدث فى الموضوع مع الأم بيرتلو على كل حال أنا ووالدتك قررنا أن هذه السنة ستكون الأخيرة فى القلب المقدس ستدخلين إلى الصف الثانى الإعدادى فى الليسيه.. انتبهى تفقدينى انتباهى!" كانت قد انحنت ديدى على والدها؛ لتقبله فهى فى غاية السعادة، وتضحكان معًا وتؤجلين إلى الليلة الإجابة التى ستعطينها لأختك الصغيرة فهى بالطبع ستسألك عن معنى كلمة شهوانى التى تفهمينها بطريقة مبهمة، وقد بحثت عنها فى قاموس (لاروس) واكتشفتِها من خلال قراءاتك.

-٣-

لقد رفعت مامى كتفيها حينما حكت لها ديدى عن "مآسيها" ثم قبلتها، وأخذت منها عهداً بأن تذاكر جيداً لإنهاء هذه السنة بأفضل نتائج، ثم تقول لكما: إنكما مدعوتان إلى حفلة خيرية كبيرة تنظمها الأميرة (عفت) خالة عزيزة الكبيرة "ستقام هذه الحفلة فى السرايا الرائعة لمحمد على باشا فى شبرا، لقد وافقت على ذلك؛ لأنها ألحت جدا، وأيضاً لأنكما ستكونان مشتركتين فى أحد العروض الحية، وقد أحضرت لكما أزياءكما".

على مائدة المكواة تجدان ثلاثة أثواب رائعة من البروكار، وتنظران إليها منبهرتين.

"هذه أثواب زواج والدتى" تشرح مامى "فى هذه الفترة كان العرس يستمر ثلاثة أيام... وسوف أساعدكما فى الاختيار، ستشتركان فى المشهد الذى يمثل حفلة شاى عند سيدة تركية مهمة، والبروفات ستكون الأحد المقبل، هيا ارتديا هذه الأثواب... ستأتى مدام صوفى لتعدلها على مقاسكما".

الأزياء رائعة حقا، ولكنك لا تشعرين بأى رغبة فى أن تستعرضى نفسك فى مشهد دون حركة. ولو كان الأمر متعلقًا بالرقص ربما كنتِ وافقتِ؛ لأن مدرسة الرقص سعيدة بتقدمك.

"إذن ستبيعين الورد! لا تستطيعين أن تسلكى سلوك الآخرين، كل صديقاتك سيشتركن فى هذا المشهد.. ستستمتعن جدا وتضحكن أثناء البروفات! على كل حال تصرفى كما تشائين".

وتعطى ماما لكِ ظهرها وهى فى غاية الغضب، وتبدأ بالاهتمام بديدى وتدخلين غرفتك. تتصفحين الكتاب ذا الغلاف الأخضر وهو مأساة وليم شكسبير، وكنتِ قد اكتشفته فى مكتبة والدك "احتفظى به يا بمبولى، فهو أحد كتبى المدرسية القديمة، وستجدين شروحًا فى أسفل كل صفحة. إن لغة شكسبير جميلة جدا، ولكن يكتب بالإنجليزية القديمة ولديه بعض التعبيرات الصعبة. سترين كم هو جميل هاملت! يجب أيضًا أن تعرفى (وليم بليك) أظن أن لدى نسخة قديمة لأعماله. سأعطيها لكِ" أنتِ مندهشة لاكتشافك أن هذا العالم يحب أيضًا الشعر. ويزداد إعجابك به.

شبرا. الحفلة فى واجهة الساحة الداخلية الكبيرة لقصر محمد على المليئة بالبشر. تمدين باقات وردك الصغيرة وأنتِ تبتسمين بخجل. بعض الأمراء والباشوات أو أشخاص عاديون يصيحون "آآه أنتِ ابنة صالحة! كم تشبهينها!" وبعضهم يضيف "كم هو جميل ثوبك! ليس غريباً مع أم مثل والدتك!"، ترتدين أول ثوب طويل فى حياتك، وقد وضعت لكما ماما قليلاً من المساحيق على وجهكما، وعلقت وردتين صغيرتين بلديتين على الجانب الأيمن من شعرك، وكست شعر أختك بشريط من الموسلين الأبيض، وعلقت فوقه اليشمك الذى ينسدل حتى ذقنها. تبدو ديدى جميلة جدا فى الثوب الفخم من البروكار الأخضر الفاتح لجدتك، وتنتظر برفقة فتيات أخريات رفع الستار. لقد بعت كل الباقات وتذهبين لامرأة مسئولة، وتسلمينها الحصيلة وتتجولين بحرية فيما بعد بين الجموع، وبهو كبير ذو أعمدة تحيط به رقعة من المياه المستطيلة. والأشعة المضيئة للبروجيكتور تتداخل فوق المياه المنبثقة من نافورة وفوق الزهور التى تعتلى مركباً صغيراً.

"كم هذا جميل إن الأميرة عفت ذات ذوق رفيع!"

"ولها أيضاً أفكار مبتكرة، إقامة حفل فى هذا القصر القديم! لم أكن أعرفه، مبهر!" يصيح المدعوون وهم معجبون ومبهورون بهذا المكان الساحر الذى يتحركون فيه. يرتدى الرجال بدلهم السموكينج، بينما النساء ترتدين أزياء طويلة للسهرة صممت خصيصاً لهذه المناسبة، وقد جاءت من باريس، أو من عند والدتك.

يلبس الرجال المونوكل، ويضعون الورد فى عروة الجاكت، بينما تضعها النساء والفتيات فى شعرهن، ويرتدين المجوهرات الثمينة، وبعضهن يرتدي بعض التيجان من الألماس. هناك جيلان: جيل ذو شعر أبيض يميل إلى الزرقة يميل على وجوه تكسوها التجاعيد، ووجوه لفتيات ذوات بشرات مشرقات فى سن الزواج، وجدت أيضًا شبابا كثيرين من بينهم ضباط من الحرس الملكى مشرقين فى زيهم الأزرق والأحمر، يتجولون باعتزاز بالذات. تنظرين خلسة إلى كل الذين تقابلينهم، يسيرون ببطء مدروس ويبتسمون ويحيي بعضهم بعضًا بحرارة أو يتفادون، ويتعالون على بعض. تقابلين أخيراً دجيهان كير الذى يتحدث مع ضابطين، فقد رآكِ وحياك. تقتربين منه، وقد تشجعتِ وقد جلس إخوته على الطاولة واستقبلوكِ، ويجلس دجيهان كير مع ضابطين على يمينك.

"أقدم لكِ كمال سعد الدين، وحسين خيرى" ابتسامات وسلامات بالأيدى. كم هو وسيم هذا الذى يدعى كمال يشبه (جارى كوبر).

فى هذه اللحظة يعزف الأوركسترا السلام الوطنى، وينهض الجميع. " أين الملك؟"

"هناك بالطبع فى الصف الأول".

ويفتح الستار على المشهد الأول (حفل شاي منذ خمسين عامًا فى صالون سيدة تركية) هناك أثواب أقمشة قديمة تكسو حوائط المسرح. حوالى أربعين فتاة تجلسن باسترخاء على الأرض مستندة إلى خدديات فى مجموعات صغيرة، وأمامهن أطقم من الشاى على صوانٍ مستديرة. هذه الفتيات اللاتى يرتدين أشرطة الموسلين البيضاء فوق رؤوسهن وتبدو وجوههن وقد أحاطهن اليشمك وأزياؤهن الرائعة من البروكار ذات الألوان الفاتحة التى تتدلى حتى أرجلهن. كلهن جميلات جدا، ولا تتعدى سن الواحدة منهن الخامسة والعشرين. تقدمن وهن يكونّ مشهداً رائعًا للمتفرج ويدوى طويلاً تصفيق متحمس.

تنضم إليكِ فيما بعد ماما وديدى، تسمح لكما ماما أن تتجولا فى البهو، وتطلب منكما أن تنتظراها فى حوالي الثانية عشرة مساء بجانب الباب. تنضم إليكما الواحدة تلو الأخرى، الصديقات اللاتى أدين المشهد. لقد بدلن ملابسهن الثقيلة بأثواب للمساء كما فعلت أختك. ويقترب منكن الأخوات الثلاثة وأصدقاؤهم. تعارف ومجاملات للفتيات وابتسامات. تبتسم قريبتكما مهيفاش بخجل إلى كمال الذى يظل ينظر إليها.

"كم هو وسيم!" توشوش فى أذنك، وتقولين فى نفسك إنهما سيكونان ثنائيا جميلاً، هما الاثنان كبيران جدا ولهما طلة جميلة وفوق هذا يبدو أنهما معجبان أحدهما بالآخر! تستقبل ديدى مجاملات كثيرة تخجلها.

ها هى ديدى أخيراً فى الليسيه فى الصف الثانى الإعدادى، وقد انتقلتن من منزلكن من جديد. شقة فى عمارة على ناصية شارع شامبوليون والأنتكخانة فى الطابق الرابع. تذهبان مترجلتين إلى الليسيه، بينما ديدى تبدو سعيدة جدا لأن (منى) فى نفس فصلها، تعيشين أنتِ بصعوبة أيام الصف الثانى الثانوى. أنتِ كسولة جدا وعنيدة ولا تكترثين بالمواد التى تكرهينها، ومضطرة أن تأخذى دروساً خصوصية فى الرياضيات والفيزياء.

"كم صرف أهلى علىّ بسبب الدروس الخصوصية؟ كنت أستمع بدون تركيز ولم أتقدم شبراً لمدة سنتين".

تحاولين فهم هذه الحالة من البلادة التى كانت تسكنك. اليوم تظنين أن فى أعماقك كان هذا الخوف الفظيع من الامتحانات الشفهية يرقد، بعد نجاحك بالكاد فى امتحانات آخر العام للصف الثانى الثانوى ترسبين فى البكالوريا فى يونيو. لا تتذكرين أنك انزعجت بصفة خاصة. أين ذهب كبرياؤك؟ بسبب الحرب تؤجر الفيلات والشقق فى الإسكندرية بأسعار خيالية، أنتِ وديدى غير مكترثتين بهذه العطلة التى تمضيانها فى القاهرة رغم الحمل الثقيل لهذه الدروس الخصوصية؛ لكى تجتازى امتحانات فترة سبتمبر إلا أنك تذهبين كثيراً إلى السينما فى الهواء الطلق مع ديدى وأصدقائكما من آل راتب، الذين لم يبرحوا القاهرة ويحتسون الشاى كثيراً فى بيتكما، وقد رسب دجيهان كير أيضاً فى امتحانات يونيو، ويدرس فى البيت مع مدرس.

أواخر سبتمبر. لقد رسبتِ مرة أخرى! وأنتِ منهارة تسلكين طريق المنزل. أكيد السبب هو هذا الصفر في اللغة العربية لأنك أجبتِ جيداً على أسئلة الكيمياء، والرياضيات، والفيزياء حتى إنك أزحتِ نسخة امتحانك جانبًا لكي تساعدي شابا لقراءتها، وكانت عن سؤال العدسات الذي حفظته ليلتها مع مدرسك. كان يمكنك أن تحصلي على درجة النجاح في هذه المواد، ولكن بقي هذا الصفر في اللغة العربية، فليكن! على الأقل لن تتقدمي للامتحانات الشفهية. كنتِ لا تستطعين أن تتعاملي مع الرياضيات أو العلوم في حضور مدرس ينتظر إجابتك. رغم أنك مهانة بسبب هذا الفشل الثاني فإنك تشعرين بالتحرر. تقتربين الآن من عمارتكم. ماما! تنتظرين إليها، وهي متكئة على جدار البلكونة! لم تذهب بعد إلى الأتيليه. كم ستصاب بخيبة أمل.

تنتظرك عند مدخل الباب، عيناها الكبيرتان تتفحصانك، ليست هناك أية أسئلة أو أية انتقادات. اذهبي لتستريحي لا تنسي أن تتحدثي بالهاتف مع والدك. لقد حجزت لوج في سينما مترو، وسيأتي (محيي)، وزوجته و(على بيه) لتناول العشاء معنا.

إن على بيه راتب وهو عم أصدقاء طفولتكم هو جزء لا يتجزأ من حياتكم، ويعد من أقرب الأصدقاء لوالدتكما يبدو لكِ أنك تعرفينه منذ الأزل. تحبين أنتِ وأختك هذا الرجل ذا الطول الفارع، والشعر الأبيض، ويبدو على بيه كما تناديان عليه أنتما الاثنان متأصل الأدب، وهو إنسان حساس وطيب وكريم وله لفتات في غاية الظرف تجاه والدتكما ومشاعر طيبة يحيطكن بها أنتن الثلاثة. ويبدو لكِ كل هذا طبيعيًّا. ولأنكما كنتما معتادتين أن لوالدتكما علاقات صداقة بالرجال، وأنها محاطة بالاحترام والتقدير من جهتهم، لم تتساءلا أبداً عن العلاقات التي كانت تربط والدتكما بعلى بيه، وربما لأنهما كانا يسلكان دائما سلوكا لا غبار عليه.

تجلسين على السرير على ركبك، وتضعين على ركبتيك كتاب (أعالي أورل فون) وهو مفتوح على صفحة وفيها صورة للورانس أوليفييه. بعد أن رأيتِ الفيلم ذهبتِ

سريعًا لشراء الكتاب وفقًا لنصائح (لوسيان) وهى إحدى أقرب صديقات والدتك وتاتى. أنتِ تقرئين من جديد هذه الرواية الجديدة، ولكن الآن تصطنعين القراءة حتى لا تزعجك ديدى الجالسة أمام مكتبها وهى ترسم.. لم تسألك ديدى أى سؤال وفهمت على التو عندما رأتك تدخلين إلى الغرفة، اكتفت بأنها قبلتك، وقالت لكِ "يا حبيبتى!"

ماذا ستفعلين الآن؟ إعادة السنة كما فعلتِ بالنسبة للسنة الماضية؟ لم تذاكرى شيئًا فى هذه السنة وضجرتِ كثيراً ولم تستفيدى من الدروس الخصوصية. لو لم تتقدمى من جديد للبكالوريا فماذا ستفعلين؟ لن يكون هناك جامعة! لا! ليس لديكِ الشجاعة لتعيدى السنة. كفى رياضيات التى تكرهينها، وكفى دروسًا خصوصية تسرحين فيها... أنتِ لا تصلحين لشىء! وعلى كلٍ للالتحاق بالجامعة يجب أن تجيدى اللغة العربية، وأنتِ لا تفقهين شئيا فى هذه اللغة كما لا تفقهين شيئا فى الرياضيات، والعلوم. لو كانت تاتى هنا كنتِ طلبتِ منها المشورة، ولكنها دائما فى باريس. ورفضت العودة إلى مصر عندما دخلت فرنسا الحرب، وحتى لو لم يكن هناك حرب لما سافرن بسببك. كان يجب أن تذاكرى لامتحانات سبتمبر... أنتِ فى مثل حماقة وكسل هذه الفتيات التى تسخرين منهن؛ لأنهن لا يفكرن إلا فى الزواج. لا ترغبين فى الزواج، ليس بعد! ترغبين أكثر فى المغازلات.. أن يكون لكِ أحباء وتختارى؛ لكى تعيشى حبًا كبيراً.

(٦)

البدايات فى المجتمع

-١-

مثل كل أيام الآحاد صباحًا، أنتما الاثنتان جالستان على طرف سرير والدتكما.

"بمبولى ستصبحين فى الثامنة عشرة؛ ومن أجل دخولك فى الحياة الاجتماعية سأقدمك للملكة".

"لماذا يا مامى؟ إن الشابات التى أعاشرهن يحضرن كل السهرات بدون أن تستقبلهن الملكة" تحتفظين بذكرى سيئة عن هذه الفتاة التى تزوجها فاروق، والتى أعطى لها اسم فريدة.

"إن عائلتهن لا تعرفن الأصول، وقد نبهتنى هاواش (هى الأخت الكبيرة لماهيفاش وحفيدة طنط زهرة) إحدى وصيفات الملكة نازلى أن الملكة وفريدة سيستقبلاننا الثلاثاء المقبل وستأتين فى صباح الغد إلى الأتيليه لكى أختار لك زيا مناسباً... وستشرح لك هاواش كيف تتصرفين وكيف تقومين بالتمانا (وتعنى بالتركية سلوك الاحترام الذى يقدم لشخصية أرستقراطية، وهى عبارة عن استدارة الذراع اليمنى وانخفاضها حتى أسفل الجسد، ثم وضع اليد على القلب ثم على الشفاه وأخيراً على الجبهة).

كفى وكفى وكفى! ماذا تعنى كل هذه التفاهات (الدخول إلى الحياة الاجتماعية)؟ ألم تحضرى الحفل الكبير الذى نظمته الأميرة عفت؟ ولكن فى الحقيقة لم تسمح لكما ماما بالرقص فى الحفل... عندما ستصبحان فى الثامنة عشرة... هل تقديمك إلى

البلاط الملكى سيغير شيئًا فى نفسك؟ حفلات عشاء وحفلات راقصة ومقابلة شباب سيطلبون الزواج منك! هل من الممكن أن تفكر ماما فى هذا؟ لا يا ماما ليس الآن! على الإطلاق!.

ولكن تدعين الأمور تسير وتنسين مخاوفك. إن فضولك يتجاوز رغبتك الضعيفة، وبخاصة أن الثوب الذى اختارته لك والدتك يناسبك تمامًا، ويبدو أنك أصبحت أجمل! لابد أن دروس الرقص مع مدام بيتروسكى لها دخل فى هذا الموضوع... تؤهلك هاواش على بروتوكول البلاط وهو سهل، البداية بالملكة الأم ومغادرة القاعة دون أن تعطيها ظهرك.

قصر عابدين الساعة السابعة إلا ربع تصعدان درجات السلم الواسع ويتقدمكما الخادم. ويقف أمام الباب الحاجب الكبير الذى يسألكما عن أسمائكما ويرجوكما أن تتبعن خادمًا آخر. تجتازان ممرات طويلة تكسوها السجاجيد، وعلى الحوائط مرايا كبيرة ذات إطارات ذهبية تنعكس فيها الأنوار اللامعة للنجف.

"انتبهى! لا تطئى" توصى والدتك، عندما تدخلان فى الصالون الواسع ذى الكراسى الذهبية التى تشغلها حوالى عشر سيدات وفتيات. تسلم والدتك على بعض السيدات، ثم تجلس بجانبك وتنتظران دوركما.

[illegible] تشعرين برعب كبير! فى [illegible] الأحمر. تقف الملكة [illegible] الطويل الذى ينساب على أكتافها [illegible] وجهها الجميل الذى يكسوه مساحيق كثيرة ومظهرها المتعالى الذى يميل إلى الاحتقار.

"هيا هذا دورك" تهمهم والدتك "هيا تقدمى!" تنصاعين وأنت مبتسمة بخجل، وعندما تبدئين بالتأمانا للملكة الأم تسمعين صوت يصيح "بمتولى! ما هذه المفاجأة

الجميلة!" هذا الاستقبال يربكك أكثر مما يدهشك وتتقدمين من فريدة التى تبتسم لكِ بحرارة. "كم هو لطيف منكِ أنكِ جئتِ!". تبتسمين لها، ولكن تنتهين بسرعة من التامانا وبعد ثلاث خطوات دون الاستدارة تولين ظهرك للملكات، وتنضمين إلى والدتك! لقد رأت كل شىء وتنهرك وحاجباها مرفوعان "سيقلن إننى لم أعرف كيف أربيكِ! ماذا انتابك؟ تخجليننى!...".

لا تدافعين كثيراً عن نفسك لأنك سعيدة جدا أنك أنهيتِ هذا الواجب الثقيل التافه. وفى اليوم التالى هاواش التى كانت تقف بجانب الملكة الأم ستقول لماما "لم ألاحظ شيئا فإن سيدة قد دخلت فى هذا الوقت، لا تهتمى بهذا الأمر كثيراً يا صالحة". كما هى عادتك دائماً تصفين لديدى هذه الزيارة الخاصة لقصر عابدين الذى لم يعجبك ديكوره. تضحكان عندما تقصين عليها أنكِ أعطيتِ ظهرك بسرعة لهما بجلالتهما. ومن جانبها تحكى لكِ أختك عن الصف الأول الثانوى حيث التقت بصديقتها الكبيرة منى وببعض التلميذات اللاتى منذ الصف الثانى الإعدادى يُكَوِّنّ مجموعة لا تفترق. هذه المجموعة من التلميذات ستصبح مشهورة بعدم احترامهن النظام وبمقالبهن التى تضحك كل الفصل والمدرسين المضطرين رغماً عنهن أن يعطيهن بعض الأصفار. بدون أى نتيجة. الرقيب والمديرة تَقَبَّلْن الأمر الواقع خاصة أمام الدرجات الجيدة التى يحصلن عليها فى آخر السنة. أنتِ فخورة بأختك الصغيرة التى تزدهر بتؤدة منذ دخولها الليسيه، أما بالنسبة لكِ فتحتمين فى قراءاتك وتقرئين بعض الشىء وتذهبين كثيراً إلى السينما مع والدتك أو مع ماهيفاش قريبتك التى أعفاها والدها من المدرسة، يبدو أنه يرغب فى تزويجها، فهو لا يعلم بالقطع أن ابنته الصغيرة مغرمة بكمال سعد الدين. وعندما سيطلب هذا الرجل يد ابنته سيرفض أنكل عمر، وهو يقول: "من هم هؤلاء السعد الدين؟ لا يمتلكون مليماً واحداً. قبطان! فى الغالب أن ثروتك هى التى تجذبه إليكِ! الأمر مرفوض!".

ومهما توسلت المسكينة ماهى وبكت وطلبت من أختها الكبيرة أن تتدخل، فإن الأمر لن يحل، ستضطر أن تنتظر سنتين قبل أن يقبل أنكل عمر ويسلم بالأمر الواقع.

إن الثوب الذى ترتدينه فى ليلة حفلتك الراقصة الأولى يلفت نظر الجميع، وكان هذا الحفل فى بيت أحد رؤساء الوزراء، كانت الصالونات مزدحمة بأصدقاء لوالدتك أكبر منك سنا، ويدعوكِ مضيفكم للرقص ربما لإرضاء ماما ولكنه قبيح جدا وسمين، تتبعين خطواته بصعوبة لأن بطنه المنتفخ يعرقلك وكانت الرقصة (فوكستروت) ولحسن الحظ لم تستمر كثيراً، وسيرقص الشاب الوحيد ابن الأميرة معك أكثر من مرة وهو ليس وسيمًا ولكنه يرقص جيداً على الأقل، وأنتِ تسأمين من هذه السهرة بقوة وتفرضين على نفسك ابتسامة بلهاء لرفاق الرقص، إن معظمهم سمان جدا ويتصببون عرقا وينظرون إليكِ نظرة أبوية، وكانت هذه حفلة راقصة مخيبة للآمال.

-٢-

الجامعة الأمريكية! قسم صحافة. لقد قبلتِ في الجامعة بعد امتحان باللغة الإنجليزية وفي المعلومات العامة. في كل صباح تلتقين مع جارتك سميرة إسكندر وتذهبان معًا إلى الجامعة التي تطل على ميدان الإسماعيلية. تقدم لكِ صديقتك الجديدة إنجي خليل، وهي فتاة طويلة ذات عيون رمادية وشعر أصفر وجميلة جدا ووالداها معروفان لوالدتك. بينما سميرة متوسطة الطول وممتلئة وسمراء ولها شعور سوداء بخصلات كثيرة ووجه مستدير وذات عيون جميلة بندقية وشفاه مكتظة وهي تبتسم كثيرًا. تعرفك على أسماء زملائك الجدد. فيما عدا هاتين الفتاتين اللتين كانتا تلميذتين في (المير دي ديو). إن المجموعة ككل التي أصبحتِ صديقة لها خريجة مدرسة الليسيه وهي مكونة من شابات وشباب. إن معظمهم كان على وشك السفر إلى فرنسا أو إنجلترا لاستكمال تعليمهم العالي، ولكن قامت الحرب فالتحقوا بالجامعة الأمريكية لتحسين لغتهم الإنجليزية مع دروس خاصة في اللغة العربية لتأهيلهم لدخول جامعة فؤاد الأول. إن الدراسة التي تلقيتموها في الليسيه تمكنكم من الحصول على درجات جيدة في آخر (الترمات) بدون مجهود كبير، ولديكم براح من الوقت للعب كرة السلة، والمساهمة في الحفلات العديدة التي تنظمها الجامعة وأيضًا للمغازلة.

أنتم أحد عشر شابًا وشابة تربطكم ثقافة فرنسية واحدة وذائقة مشتركة للأدب وللفنون وينجذب بعضكم لبعض. أنتِ المسلمة الوحيدة ولا تتوقفين كثيرًا عند أساميهم التي تشير إلى ديانتهم، بعضهم أقباط وكاثوليك ويهود في الغالبية العظمى. والدتك تُكَوِّن صلات مع المسيحيين واليهود على حد سواء، ولكن بشرط واحد أن ينتمي هؤلاء

إلى عائلات كبيرة وأصيلة فى البلد. قبل أن تسمح لك بالذهاب إلى منازلهم تتحرى سرا والدتك عن أصدقائك الجدد. تقضون بعض الأمسيات فى الرقص (خد على خد) أو فى سماع الموسيقى الكلاسيكية عند أرمون الذى لديه بيك أب، ومجموعة كبيرة من الأسطوانات. ويشترك فى هذه الأمسيات ستة أشخاص فقط من مجموعتكم؛ لأن الآخرين لا يحبون الموسيقى بالقدر الكافى لسماعها لمدة ساعتين أو ثلاثة متواصلة فى هدوء.

ويُسْمعكم أرمون الفخور جدا؛ لأنه يعرف فى الموسيقى أكثر منكم يُسْمِعكم موسيقيين مثل (شوبان ورينكى وكورساكوف وبورودين وبيتهوفن وموزار) وتتعلمين الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية بسعادة مضاعفة لوجود بول حبيبك فى هذه الأمسيات. وبجانب جسده الجميل الطويل والرشيق وشعره وعينه السوداء. فبول أيضًا ذكى وخفيف الظل. أرمون وبول يعرف أحدهما الآخر منذ زمن بعيد وظلا صديقين رغم آرائهما السياسية المختلفة. وأنتِ لا تهتمين كثيرًا بالسياسة وعندما يتناقشان لا تبدين اهتماما كبيرًا. ويضطرب بول ويحمر وجهه ويعترض بحرارة عندما يصفه أرمون بالفاشى؛ لأنه معجب بموسولينى. ماذا تعنى كلمة فاشى؟ إن والدتك وبعض أصدقائها يعبرون عن نفس الإعجاب بموسولينى؛ لأنه أعطى إيطاليا شوارع وطرقًا سريعة رائعة، ويؤكدون أن مصر فى حاجة إلى رجال مثله أو مثل هيتلر لتخليصهم من الإنجليز وخاصة لتعليم المصريين النظام والانضباط. ورغم هذا فهناك بعض الأسئلة التى لا تستطعين أن تعبرى عنها تقلق. فمنذ عدة أيام توجهت والدتك وتتنهد إلى صديقة لها قائلة: "الأسعار أصبحت مرتفعة جدا والحياة صعبة! أتساءل: كيف يعيش الفقراء"؟

"لقد رفعت أجور العاملين فى بيتى" قالت الصديقة وهى تقطع قطعة اللحم "فهم يتصرفون... ففى المنزل لا ينقصهم شىء!".

وكيف "يتصرفون"؟ الذين لا يعملون فى منازل الأثرياء؟ تشعرين دائما بالذنب وأنتِ تنظرين إلى هذه المجموعة من المتسولين ذوى الملابس الرثة الذين ينتظرون على

باب الحفلات الكبيرة، يظهرون فجأة من الظلام عندما يخرج لابسو السموكينج وملابس السهرة ويحاولون الإفلات من ضربات العصا التى يوجهها لهم البوابون ويقتحمون نوافذ السيارات الضخمة وهم يمدون أيديهم، بينما يفضّ الجالسون فى هذه السيارات النظر ويطردونهم بحركة، مثلما ينش الذباب أو فى بعض الأحيان يلقون إليهم ببعض العملات. ولكن هناك مشهداً قد أثر فيكِ على وجه الخصوص.. كنتِ واقفة فى أسفل السلم وتنتظرين مع والدتك أن تتحرك الرولسرويس الموجودة أمامكما حتى تتمكن سيارتكما من التقدم، كان سائق الرولس قد أغلق الباب بعد أن أجلس "س" باشا وهو واضع وردة فى عروته وعلى زوجته المغطاة بالجواهر. وكان الباشا قد أنزل زجاج السيارة وقذف بقروش عدة قد تناثرت على الأرض وأخذ يضحك هو وزوجته باحتقار، وهما ينظران إلى كبار السن والنساء والأطفال ذوى الثياب الرثة، الذين اندفعوا وهم يرتطمون ببعضهم لجمع العملات رغم ضربات البواب الذى كان يحاول أن يطردهم، ويستحوذ على بعض العملات أيضًا! ما هذه المتعة التى كان يشعر بها هذا المليونير وهو يحاول أن يهين هؤلاء التعساء؟ وتتعرفين على الفقر من خلال قراءاتك، مثل قراءة (ديكنز وفيكتور هيجو وزولا وأخيراً شتاينبك وفوكنر). وكنتِ قد مررتِ أحيانًا فى الأحياء الشعبية وأنتِ فى طريقك إلى خان الخليلى أو إلى القلعة وتعرفين أن والدتك تعطى معاشًا شهريا لمرضعتك عيشة وإلى فاطومة، الأولى أرملة ولديها ابنة عليها أن تربيها والثانية قد طلقها زوجها ولها ابنتان.

فاطومة تزيل الشعر من على قدميكِ وتنتهزين الفرصة لسؤالها.

"ربنا كبير! بدون والدتك الله يحميها لم أكن أستطيع أن أرسل بناتى إلى المدرسة.. نحن نعيش فى السيدة زينب فى غرفة تجمعنا نحن الأربعة، مع بناتى وعمتى الضريرة. ولكن الحمد الله نحن أفضل من غيرنا!".

لقد سمعتِ كثيرا من الناس الفقراء ينطقون بهذه الجمل. "هذه إرادة الله!" قال عبده عندما أصاب ابنه الشلل. وعندما توفى ابن عيشة قالت "هذه إرادة الله!"

تهمهمين دائما بالفاتحة قبل النوم كمقدمة تستطيعين بعدها أن تتوجهى إلى الله باللغة الفرنسية ولتتأكدى أنه سمعك عندما تطلبين منه أن يغفر خطاياكِ أو أن يحقق أحلامك البلهاء السطحية "فلتكن إرادتك!". إن المسلمين والمسيحيين ينطقون بهذه الجملة بالاستسلام ونفسه وبالخضوع نفسه أمام المصائب. هل الموت والأمراض الخطيرة والألم والفقر هى من إرادة الله؟ أن يكون هناك فقراء وأثرياء، أليس هذا غير عادل على الإطلاق! هل يريد الله بهذه الطريقة حقا؟

ليس لديكِ فرصة لرؤية بول بمفردك كثيراً. تلتقيان فى الجامعة مع الآخرين وعندما تذهبان عند أحد منكما لا تفكران إلا فى الرقص معًا أو فى تشابك أيديكما أو اقتناص بعض القبلات فى الأماكن المظلمة. وفى قاعات السينما من المستحيل أن تتحدثا معًا وعلى العموم لا تغامرين بالذهاب بمفردك مع بول إلى السينما إلا نادراً، فهذه مجازفة حتى فى حفلات الساعة الثالثة، فيمكن أن يكتشفكما بعض الأصدقاء لوالديك. وعلى الرغم من أن والدتك ووالدك لا يذهبان فى هذه الأوقات فإنك تأخذين حذرك فهذه بعض الألاعيب التى تستعملينها وأنتِ تحتقرين نفسك، ولكن كيف لكِ أن تسلكى سلوكًا آخر؟ إن فتاة من عائلة محترمة لا يجب أن تجد نفسها بمفردها مع شاب فى مصر. تكرهين هذه الضغوط التى تكبلك وتكرهين أيضًا الأكاذيب التى تروينها لوالدتك. وتطفو من أعماق أعماقك إلى السطح ببطء بعضُ الكلمات، مثل الحرية والاستقلال التى تشعرين بها بقوة وتكتشفين أن "بداياتك فى الحياة الاجتماعية" لم تأتِ لكِ بشىء إلا بعض السأم والقرف. وتذهبين الآن بدون أى فضول إلى الحفلات المملة التى تدعين إليها. وتكتشفين فيها كثيراً من القبح ابتداء من الملك الذى لم تريه من يوم قدومه إلى العرش.

كانت الأميرة شيفكيار خالته تقيم حفلاً راقصًا كبيرًا بمناسبة عيد ميلاده. وقد وصل جلالته فى الساعة الحادية عشرة مساء! وقد أصبح فاروق الأول صورة كاريكاتورية لهذا الشاب الوسيم الذى كنتِ لمحتِه فى عربته منذ بضع سنوات. فهو الآن

متضخم الجسم، ووجهه منتفخ وبعض الشعر الأصفر الخفيف يكسو صلعته الوردية اللون، وهو يرقص مع عشيقته الجديدة وهى زوجة لأمير. وتنظرين مع أصدقائك بدون لفت الانتباه لهذا الثنائى وهو يتحرك على المرقص. كنتم تعرفون هذه الأميرة عندما لم تكن قد تزوجت بعد، وقد كانت ممتلئة الجسم جدا بوجه نضر وشعر طويل أصفر يتدلى بإهمال على ظهرها عندما كانت تخرج من المياه. وكانت أقل فتاة جمالاً من بين فتيات مجموعتكن، وخصوصًا كانت أكثرهن بلاهة. لم تكن تفكر إلا فى الزواج ولكن الليلة أنتم مندهشون من رشاقتها وشعرها الأصفر ذى البوكلات التى تنساب على أكتافها العارية ومن الطريقة التى تتحرك بها. بعد أن انتهت من رقصتها توجهت إليكم بسرعة وهى تعبر عن فرحتها وقد انحنى الشباب لتقبيل يدها، وعندما تركتكم قال لكِ دجيهان كير بصوت منخفض وهو يأخذك لترقصى معه رقصة تانجو: "هذه مدام بامبدور! لم تنتظر كثيرًا لخيانة زوجها العجوز..".

"إن الأمير يمكنه أن يكون والدها بالفعل وهو غير جذاب على الإطلاق، ولكن أن تخونه مع هذا الوحش فهذا مقرف!".

"يا حبيبتى يا بمبولى كم أنتِ ساذجة فهو المااااالك!" يضحك دجيهان كير، وهو يؤكد على الكلمة ويتابع" وعلى كُلٍّ ففريدة لا تشعر بالسأم هى أيضًا فيسرى باشا هو عشيقها".

ربما قد رأيتِ فى هذا المساء فوزية الأخت الكبيرة للملك وزوجة شاه إيران، وهى طويلة القامة سمراء ذات جسد جميل وعيون رائعة خضراء بنفس خضرة حجر عقدها الزمردى.

"فهى جميلة جمالاً مبهرًا" تقولين لبرهان الذى يأخذك لترقصين رقصة فالس معه "ولكن كم تبدو حزينة!".

"ألا تعرفين سبب وجودها فى مصر؟ إن شاه إيران قد طردها ويحتفظ بابنتهما معه!".

لقد جلس الملك بجانب خالته، وأخذ يحتسى كوباً من البرتقال، إن الأميرة شيفكيار قبيحة جدا! وهذا بالرغم من ثوبها التفتا الأبيض ذى الكسرات الطويلة وقرطها الألماس الذى يتدلى حول عنقها المهترئ وقرطها ذى قطع الألماس المشعة التى تتراقص كلما تحركت والتاج اللامع والمضىء الموضوع فوق شعرها الأبيض الذى يميل إلى الزرقة. وكل هذا الثراء لا يستطيع أن يجمل هذا الوجه النحيف ذى الخدود البارزة والأنف الكبير المقوس والعينين الصغيرتين الحادتين.

تلقبينها بالساحرة مما يضحك أصدقاءك الذين يؤيدونك. بعض الضيوف يقتربون من الملك ويسلمون عليه باحترام "جلالتك" ويبتسمون له وهم ينحنون بشدة أمام هذا الملك المكتظ باللحم وهم آملون أن يدعوهم بالجلوس بجانبه. وهو يسلم عليهم بفتور؛ لأنه مشغول جدا بالحوار مع ثلاثة أشخاص يحيطون به. من وقت لآخر يطلق ضحكة كبيرة. ضحكة عالية غليظة، تخترق الموسيقى وضجيج الأصوات وتحرك صدره الكبير. ضحكة تجعلك ترتعشين فى كل مرة تسمعينها.

"هذه ليست ضحكة ملك" تقولين لأصدقائك، ولكنها ضحكة جزار أو سايس.. نيرون ناظراً إلى روما وهى تحترق!".

"إن سلوكهم مبالغ فيه" يقول شهريار: "انظروا كيف ينحنى "ص" باشا أمام فريدة!".

"سيقع أرضاً!" يضحك دجيهان كير، "فهذه مسابقة فى الانحناء أمام الملكة والأميرات من العائلة المالكة... ماذا يريدون؟" يسترسل برهان.

تحترمين جدا كرامة أصدقاء طفولتك وازدراءهم الذى يشعرون به مثلك تماما أمام ابتسال بعض الناس. لقد سمعت كثيراً من والدتك وبعض الأصدقاء فى المساء

على مـائدة الطعـام وهـم سـاخطـون من سلوك الملك وينتـقـدونه. إنه يـأتى إلى نادى السيارات بدون أى سابق إنذار ويجلس فى قاعة لعب البكارا لفترات طويلة، وهو لاعب قوى جدا... كان قد خسر فى ليلة ما وحاول أن يعوض خسارته بدون أن يهتم بالذين كانوا يودون أن ينسحبوا وتناسى تماما كل الخدم الذين كانوا منهكين جدا! ليس فى هذا أى شياكة! إن قفشـاته البذيئة أمام النساء لا تضحك سواه وهو الذى لا يهتم بمشاعر أحد.

"لا أقبل هذا السلوك" كانت والدتك أعلنت هذا، "عندما يظهر فى قاعة القمار أحاول أن أنصرف سرا".

لم أعد أنتظر شيئًا من هذه الحفلات الاجتماعية. النساء نفسهن ذوات العمر المتقدم وهن جالسات حول ساحة الرقص، مجموعة من الأميرات وزوجات الباشوات أو زوجات البيه وهن مرتديات الحلى الغالى من اللولى والألماس والأسفير أو الزمرد وكل هذا يؤكد تجاعيد أعناقهن. ويمضين السهرة فى متابعة الراقصين وخاصة الراقصات بعين نقدية وأحيانا باستياء، وتلمحين هذه النظرة عندما يأتى الأمر لنسألهن وحينها لا يتوقفن عن التعليق والمديح! وفى هذه السهرات دائما نفس السيدات الشابات ونفس الفتيات اللاتى يبحثن عن أزواج وكل واحدة منهن أكثر جمالاً من الأخرى، ولكنهن فارغات وسطحيات. وهن لا يكللن من الحركة ومن محاولة إثارة انتباه نفس الشباب ونفس الضباط من الحرس الملكى الذين يبدون فى غاية الأناقة ولكنهم بلهاء. وحتى وجود أصدقاء الطفولة ومتعة الرقص معهم لم يعد كافيًا. فأنتِ تقابلينهم كثيرًا فى هذه الحفلات الراقصة ومنذ بضعة أشهر فى نادى الفروسية الذى أصبحتما عضوتين فيه مع والدتكما؛ لأن نادى الجزيرة الرياضى كان قد أنشأه وأداره الإنجليز وحتى رحيلهم عن مصر فى ١٩٥٤ كانت عضوية النادى شيئًا صعبًا جدا الحصول عليها بالنسبة للمصريين.

ونادى الفروسية ناد ممتع جدا ويخيم عليه جو من الراحة؛ لأن القيود أقل بكثير فيه. وربما كان سبب ذلك أن الأعضاء يأتون إليه وهم مرتدون ملابس الفروسية أو ملابس رياضية أو ملابس بسيطة. وهم يشعرون أنهم فى وسط ناس من نفس عالمهم حتى لو لم يعرفوهم عن قرب. وهناك بعض الفتيات، مثل قريبتكما ماهى تأخذن دروسًا فى الفروسية، وعمومًا يتدرب الفرسان الجيدون للحفاظ على مستواهم حتى المسابقة السنوية، ولكن الأعضاء الذين لا يمارسون الفروسية هم الأكثرية ويتمتعون بقضاء فترات العصر الشتوية القصيرة تحت أشعة الشمس فى الهواء الطلق أو فى القاعة الكبيرة الزجاجية وهم يحتسون القهوة أو الشاى أو عصير ليمون مثلجًا. ويلعب بعض الباشوات فى سن المعاش الطاولة أو الشطرنج بينما تثرثر النساء فيما بينها فى مجموعات فهن يشغلن أشغال التريكو أو التطريز ويتهامسن ببعض النميمة أو يتحدثن بإعجاب عن بعض ممارسات الفرسان الجميلة الذين يتدربون أمامهن فى الساحات الخضراء. ويلقين كثيراً بعض النظرات الخاطفة على المجموعة التى تجلسين بينها مع بعض الشباب الثرى الذى لا مهنة له وبعض ضباط الحرس الملكى. وكنتِ شعرتِ ببعض الفرحة حين تعرفتِ على هؤلاء الفرسان المهرة، ولكنك تصابين بخيبة أمل سريعًا. لا يوجد بينهم من هو جدير بالانتباه. لا هذان الاثنان اللذان يحاولان مغازلتك بتحفظ، ولا الوسيم كمال الذى خطب أخيراً ما هى، ولا أيضا هذان الأخوان اللذان يتعقبان أميرتين.

فأنتِ موجودة الآن فى وسط هذه الاجتماعيات مراقبةً غير مكترثة. ويوجد جدار إلى حد ما سميك يفصل بين أعضاء العائلة المالكة ذات الأصول التركية القوقازية ومناصريهم والعائلات الكبيرة المصرية الأصل. وهذه العائلات المصرية مكونة من كبار ملاك الأراضى الزراعية ومديرى البنوك ومصانع القطن والنسيج أو الحلويات. هاتان الجماعتان كانتا لا تتعاملان كثيراً فيما بينهما والارتباطات بينهما كانت نادرة فإن الأتراك القوقازيين كانوا يحتقرون الذين يلقبونهم "بالفلاحين". تحاولين أنتِ أن تفهمى

أسباب هذا الجدار الذى يقف بين هاتين المجموعتين. منذ طفولتكما كنتما ترددان بعد والدتكما أنكما من أصل قوقازى "بدون أى نقطة دم مصرى!" كنتِ فخورة جدا بهذا! مع أن والديك وأصدقاءهما كان لهما علاقات جدية مع المصريين المتأصلين. ألم تعلن صديقتك منى يومًا ما بفخر وهى تتحدث الفرنسية بدون التأكيد على حرف ال "ر":"لدينا دم عربى فى عروقنا، وآل راتب هم من نسل النبى.." يستقبل والدك بعد ظهر كل أحد أساتذة من كلية العلوم ومعيدين مثقفين ولامعين وكلهم مصريون. وعلى كل حال فهو لا يبدو عليه أنه يقدر جدا بعد بعض الأمراء والباشوات من أصول تركية قوقازية مثله: "هؤلاء متعالون لا يفعلون شيئا! كل ما يفعلونه هو أن يتشدقوا بالكلمات، وأن يصرفوا ببذخ ثروتهم الكبيرة من أجل المظاهر. فهذا الشخص (ص) ليس إلا متخلفًا عقليًا وهذا الـ (س) سكير متأصل.." تتذكرين أن لا أحد من أعضاء هذه الطبقة التى تنتمين إليها يعرف، ولو من بعيد أى شىء عن تاريخ مصر وخاصة الفترة العثمانية والعربية. انطلق بول وأرمون فى الضحك عندما حدثتهما عن أصولك: "وما أهمية هذا؟ إنكما جزء من القوقاز وسكان هذه المنطقة هم من الفلاحين وسكان الجبال الفقيرين جدا وهذه المنطقة مشهورة بجمال نسائها وبشجاعة وقوة شبابها. كان الأتراك ينظمون مجموعات للسطو على هذه القرى لخطف الأطفال أو لشرائهم لاستعبادهم.. ليس هناك ما يجعلك فخورة بأصولك!" وقد كست الحمرة وجهك وشعرتِ بضيق، ولكن تشعرين فى أعماقك أنهم على حق عندما يقللون من شأنك، وبخاصة أنك مثل والدك لديكِ رأى سيىء جدا فى معظم هؤلاء الأتراك والقوقازيين وآخرين تعرفينهم. فمن الذى يعمل لكسب عيشه بين هؤلاء الشباب من الأرستقراطية؟ بعضهم فقط؛ لأنه مضطر. أما الباقون فإنهم يعيشون من دخلهم. بالطبع هناك بعض الضباط، ولكنهم لا ينتمون إلى هذه الطبقة. وستكتشفين هذا عندما تعلن خطوبة بعض الشابات على هؤلاء الضباط، فإن الملاحظات المستنكرة والفظة التى سمعتِها فى نادى الفروسية ستزيد من هذا الاحتكار الذى تشعرين به تجاه هذا "الجمع الجميل".

ها هو ذا عدم التكافؤ هذا! قريبات للملك يتزوجن من قُطّاع طرق ولكنهم أولاد باشوات! كان والدهم فى وقت ما وزيرًا للحربية، ولكنه فقد كل ثروته ولم يترك شيئا لأولاده، لم يعد لهم إلا مرتبهم بوصفهم ضباطًا... كيف ارتضت هذه الأميرة أن تعطى ابنتها إلى فلاح؟ يقال: إنها عاشقة لهذا القبطان بجنون وأخوه الصغير ليس إلا بكباشى، فلنأمل أن تتنازل بعض الشىء! وأن تضع حدا لسلوكها المتعالى. دائما ما تنظر إلى الآخرين من علٍ وتطالبهم أن يلقبوها بالأميرة!

"كن عادلات" تقول والدتك: "ماذا تريدين أن تتزوج هذه الفتيات! فإن الشباب من طبقتهن ليسوا عديدين. فكرن بعض الشىء فسوف ترين أننى على حق. فإن أغلبهن صغيرات جدا وحصلن حديثًا على شهادة البكالوريا، مثل صديقات طفولة بناتى. يمكن أن يكون (ص) صالحًا ولكنه عازب متمرس مثله مثل ال (س) يبقى الأميران المثليان... إن اختيار عريس مناسب محدود جدا.." وتضيف وهى تضحك "أنا مسرورة جدا لأن أنكل عمر قبل أخيرًا بكمال سعد الدين. فإن عائلته من أصل تركى. وقد توفى والده وهو صغير وتزوجت والدته من جديد بالنقراشى باشا "رئيس الوزراء"، فإن ماهيفاش لم ترتبط ارتباطًا غير متكافئ!".

تأكلين فى صمت. فأنتِ مسرورة لأن قضاء ثلاثة أسابيع فى رأس البر يبدو مدة طويلة. كانت طنط نائلة دعتكن إلى هناك، على الرغم من فرحتك بالالتقاء بمنى وبالبحر؛ فإنك ذهبتِ إلى هناك على مضض. كنتما تتبادلان أنتِ وبول الخطابات كل يوم. كنت تنتظرين بشغف عامل البريد بدون أن تكترثى بملاحظات أختك ومنى الساخرة بخصوص غرامياتك! لم تنزلن إلى البحر كثيرًا لأن تداخل مياه البحر مع ماء النيل كان يعطى الماء لونًا رماديًا متسخًا لم يحفزكن على دخول البحر. ولكن لقاءكن مع أخت كمال وأخيه الصغير أنقذكن. كنتم تذهبون كل يوم فى نزهات طويلة على شاطئ البحر، تثرثرن ويداعب بعضكم بعضًا وأنتم تضحكون من كل شىء وتسخرون من الجميع. أحيانا كنتم تجلسون إلى مائدة فى المقهى الكبير المغطى بالزجاج وتتأملون

البحر. وكان هناك مناقشات طويلة مع ديدى التى كانت تحاول أن تقنعكم أن الشيوعية هى النظام الأمثل للحكم. كنتِ تضحكين مع الآخرين وأنتِ تسمعينها وهى تذكر لينين وماركس اللذين لم تسمعا كثيراً بأسمائهما. لم يأتِ على بالك فى هذا الوقت أن أختك باكتشافها للماركسية كانت على مشارف منعطف فى حياتها. بالنسبة لكِ فهذه السنة الوحيدة التى قضيتها فى الجامعة الأمريكية كانت قد حررتك ببطء من عقدة النقص التى كانت متمكنة منك. تتعلمين كيف تلقين كلمات المدح، وأن تكونى مسار اهتمام المعجبين ويزيد هذا من ثقتك بنفسك وتفهمين أخيراً أنك يمكنك أن تنالى إعجاب الآخرين. تتعلمين أنه يمكن أن ترفضى بعض الثياب التى لا تليق عليكِ، وأن تضعى المكياج، مثل هذا المسحوق الأزرق الذى تضعه والدتك على جفونك. منذ الليلة الأولى اكتشف دجيهان كير وهو يرقص معك هذا الطلاء على جفونك وقال: "أتضعين الأزرق على جفونك الآن؟" وقد سألتِه وأنتِ خجولة: "أليس جميلاً؟" وقد ضحك: "ما أهمية هذا؟ أنا أفضلك بدونه" وهكذا ورغم رغبة والدتك ستكتفين بوضع بعض الماسكرا على رموشك. إن تسريحتك الجديدة تظهر جمال شعرك الأسود وتثير إعجاب صديقاتك.

أنتِ وديدى ترفضان كثيراً من السهرات التى تدعيان إليها. تقطب والدتك حاجبيها وتقول: إنها كانت فى مثل عمركما تخرج كل ليلة، هل كانت تشك أنكما تفضلان هذه اللقاءات البسيطة التى كنتما تلتقيان فيها ببول وأرمون الذى كان يغازل إنجى. ستكتشفين عن طريق الصدفة أنهما تعارفا على بعض فى درس الفلسفة وأنهما اكتشفا الماركسية معاً.

على كل حال لا تشعرين أنك على ما يرام مع نفسك. تتابعين محاضرات الأدب باهتمام وتقرئين كثيراً ولكنك غير راضية عن نفسك. إن صداقتك العاطفية مع بول تشغل حيزاً كبيراً فى حياتك، ولكنك تتساءلين أحياناً أين ستقودك؟. تتبادلان كلمات الحب ولا تلمحان لفكرة الزواج. لم تفكرا بعد فى هذا الموضوع، ولكن الفكرة مرت فى

رأسك عندما علمت أن سميرة وشاباً من الجامعة قررا الزواج. فتاة قبطية مع شاب مسلم ينتهى من عامه الأخير فى الجامعة الأمريكية! وكان الشاب قد قدم سميرة إلى عائلته التى رغم بعض التحفظات قابلتها جيدا، ولكن بالنسبة لوالد سميرة فهذه كانت مسألة مرفوضة تماماً أن تتزوج من مسلم، كان قد هدد أن يتبرأ منها وأن يطردها من البيت. ولكن سميرة كانت قد انتظرت بعض الوقت آملة أن يلين والدها . ولكن فى ذات صباح وعندما كنتم جالسين جميعًا على النجيل فى الجامعة جاءت سميرة منهارة. كان خطيبها يريد أن يتزوج فى أسرع وقت ممكن لأنه حصل على شهادته.

"لا فائدة" تقول سميرة وهى تبكى "لقد تبرأ منى والدى بعد أن صفعنى ودفعنى من شعرى" وتنهمر فى البكاء وهى تلوى يديها: "وقد أقسم ألا يرانى أبداً، هو وماما سيرتديان ملابس الحداد ويعتبرانى متوفية" تحيطين أكتاف صديقتك وتحاولين تهدئتها، ولكنكم مذهولون وتنظرون إليها فى صمت.

"ماذا كان سيفعل والداك لو كانا من الديانة اليهودية" يقول فجأة أراجون فى صوت منخفض. إن المأساة التى تعيشها سميرة تفتح أبواب الدين. تتجهان بنظرات سريعة وأنتم مرتبكون من ملاحظة أرمون نجو إينج وفيليب، لا أحد منكم يجرؤ أن يسأل السؤال الذى يدور فى أذهانكم وأنتما؟" هما أيضًا يحب أحدهما الآخر ويريدان أن يتزوجا. إن فيليب وهو يهودى سوف يسافر إلى الولايات المتحدة للالتحاق بأخيه الكبير. وقد شجع فيليب على أن يلتقيا معه فى هوليود، ولكن والدة إينج ألمانية ووالدها رجل مصرى غنى من أصول لبنانية وهم مسيحيون.

"فهم ضد السامية ونازيون" قال بول وأرمون مستنكرين عندما اعتذرت إنجى لأنها لا تستطيع أن تدعو أرمون وفيليب عندها لأن والديها يحتقران اليهود ولا يتعاملان معهم. وعلى كل حال عندما كانت تأتى عندك أو عنده كانت لا تلفظ بأسمائهما.

بعد عام تشاهدون، وأنتم مسلوبو الإرادة، مأساة صديقتكما. فإن والدى سميرة قد ارتديا الحداد بعد أن وصلتهما رسالة الوداع، بينما لم تواتِ إنجى الشجاعة أن تترك كل شىء للذهاب إلى فيليب. عندما كان القطار يقل الشاب نحو بورسعيد، حيث كانا سيرحلان، تحدثت معكِ إنجى فى التليفون "لم أستطع.. لم أستطع" وتنهمر فى البكاء "كانت حقيبتى جاهزة وكنت مرتدية ملابسى، وكان والدى فى الخارج، ولكنى لم أستطع أن أتجاوز عتبة المنزل. لم تواتنى الشجاعة فأنا جبانة".

(٧)

المرتب الأول

-١-

الأحد، أواخر سبتمبر، الساعة الثانية عشرة والنصف، أنتما جالستان فى الصالون بجانب والدتكما. كم هى جميلة فى تييرها الكحلى! سيمر عليها أصدقاء فى سيارة؛ لاصطحابها إلى سباق الخيل. تنظر إليكما وهى تتوجس أنكما تريدان أن تطلبا منها شيئا. تنطلقين وقلبك يدق: "أنا أعرف يا مامى أنك تتساءلين عما أفعله فى الجامعة الأمريكية، وأنك تتصورين أننى أقضى وقتًا أطول فى اللهو أكثر منه فى العمل... لكن أنتِ على حق؛ ولذلك بدون أن أقول لكِ لقد بحثت عن عمل، لقد اقترحت علىّ سميرة أن آخذ مكانها فى الأرشيف فى "الجورنال ديجيبت"، وبما أن مديرها كان منزعجا من استقالتها فقد حدثته عنى، وقد قبل على الفور".

"وكم سيدفعون لكِ؟"

"سبعة جنيهات وبعض الشىء... أعرف أنه قليل يا مامى، ولكن لم أحصل على البكالوريا، وقد شرحت لى سميرة العمل الذى سأقوم بإنجازه، وسوف ينتظرنى المدير "جلال" بيه فى مكتبه غداً، وهو عمل سهل، وسوف أقضى فيه الصباح، وبعد الظهر حتى السابعة... وربما ستتاح لى الفرصة لكتابة بعض المقالات".

"لما لا؟ فهذا أفضل من تضييع وقتك فى الجامعة... وسنرى كم من الوقت سيدوم هذا! ولكن بما أنك تريدين كسب عيشك.." تضحك: "فإن مرتبك سيكفيكِ مصروفًا، وستدفعين منه ذهابك إلى السينما وشراء أحذيتك، وجواربك، وكتبك".

لا تصدقين أذنيكِ! لم تنتظرى أن تقبل والدتك بهذه السرعة. تريدين أن تشكريها، ولكنها تأخذ رشفة من القهوة التى قدمتها لها إيرينى، وتقول وهى ضاحكة: "وأنتِ يا ديدى هل لديكِ شىء لتطلبيه فى هذا اليوم المناسب".

"نعم يا مامى، أريد أن أوقف دروس الرسم مع الأستاذ س. فهو يعطينى كروتًا بريدية، ويريد منى أن أنقلها بدقة كما كنت أفعل فى القلب المقدس، وفى الليسيه، وهذا يقتلنى مللاً. ألا توجد طريقة يا مامى لإيجاد شخص آخر؟ ألا توجد مدرسة متخصصة فى الرسم أو التصوير؟"

"سأشاور صديقتى لوسيل، فهى تعرف كثيرًا من الرسامين".

اليوم التالى، الساعة الحادية عشرة، مكتب رئيس تحرير "جورنال ديجيبت". جلال بيه يستقبلك بترحيب، وهو رجل بشرته بيضاء جدا وشعره رمادى، وهو سمين، ومكتظ باللحم مستغرق فى مقعده، واضع يديه وهما متشابكتان على مكتبه الكبير. يتحدث جلال بيه عن والديكِ ويقول إنه يعرفهما، عندئذ يدخل رجل إلى الغرفة بعد أن يكون قد طرق على الباب. يتفحصك هذا الرجل، وهو أكثر شبابًا من جلال بيه، متوسط الطول، رفيع، ذو شعر أسود، وعينين سوداوين، يبرزان لون بشرته الباهت. "تعالَ يا إيميل هذه الآنسة جلبيرى أفلاطون، وستأخذ محل سميرة فى الأرشيف." يرفع المدعو إيميل حاجبيه الكثيفين، وينظر إليك فى تفحص من خلال عينيه الصغيرتين السوداوين، وبصوت جهورى وبلهجة لبنانية يقول "أنتِ من عائلة أفلاطون! وتبغين العمل؟.. فتاة من عائلة كبيرة ستخطف لقمة عيش فتاة أخرى مسكينة محتاجة فعلاً لكسب عيشها!".

"كفى إيميل لا تقل تفاهات! يحتاج "شديد" إلى مساعدة، والآنسة أفلاطون التى شكرت فيها سميرة كثيراً تبدو لى الإنسانة المناسبة.. اترك لى هذه الأوراق، واذهب لتقديمها إلى "شديد".. لدينا وقت لنعرف ماذا تستطيع أن تفعل"؟

تنهضين وتتبعين إيميل الذى تنهد بعمق. بعدم رضا يقودك من خلال ممر طويل إلى غرفة ذات باب نصف مغلق. يطرق الباب، ويدخل ويجعلك تدخلين: "هذه هى الآنسة أفلاطون! وهذا هو رئيسك الجديد الأستاذ شديد" نهض الرجل الذى كان يتصفح جريدة، وظهر قوامه الكبير: "ها أنتِ! صباح الخير يا آنسة كنت أنتظرك" يمد لكِ يده ويبتسم، وهو رجل ذو كتفين عريضتين كبيرتين جدا أسمر، وله شعر أسود، ووجه مستدير، وأنف رفيع، وعيون عسلية: "تفضلى، يشير إلى كرسى من القوص، وطاولة موضوعة بجانب الحائط أمام مكتبه. نافذة واسعة تضىء هذه الغرفة الصغيرة التى ستعملين فيها لمدة ثلاث سنوات.

لقد جلستِ أمام الطاولة الموضوع عليها إناء الصم، وفرشاة، ومقصات، وأقلام، وبعض الورق الأصفر. تستمعين إلى شرحه، وفجأة يقع نظرك على "البلاغ"، وهى جريدة يومية باللغة العربية. وإذا حدث أنك لم تفهمى؟ يمكن أن تخطئى وتضعى نصف مقال!

"لا يكون عندك أى خوف بالنسبة للغة العربية فقد نبهنى جلال بك إلى هذا"، ولكنك تستطيعين أن تفهمى العناوين، والعناوين الفرعية؟ حسنا ستشار إلى عناوين المقالات بعلامات كبيرة، وسأنوه كتابة عن مواضيعهم...".

و بعد أن اطمأننتِ بدأتِ مهمتك. إن صمت الغرفة يقطعه صوت الجرائد التى يدرسها شديد، وصوت مقصك وهو يقطع الورق. وفجأة يظهر رأس ساعٍ من خلال الباب ويسأل وهو يتفحصك: "شديد بك، قهوة مظبوط".

"ادخل يا عبده فقد جئت فى الوقت المناسب، هذه زميلتى الصغيرة الآنسة أفلاطون".

ويضحك شديد، وهو يشرح لكِ بالفرنسية "كان ينتابه الفضول لرؤيتك! هل تريدين فنجانًا من القهوة يا آنسة؟ للاحتفال بقدومك سأدعوك إليه. بلا بلا".

"أهلاً وسهلاً بكِ عندنا يا آنسة أنا فى خدمتك... دقى الجرس، واطلبى عبده، ورق، صمغ، باتيه، كروسان ساخن من عند جروبى" يبتسم ابتسامة واسعة تضىء الوجه، وتكشف عن أسنان بيضاء جدا، وتضفى على الوجه الأسود ذى الخدود المجعدة لمعة خاصة.

-٢-

منبهرة بسبب الضوء القوى للشمس، تغلقين عينيك وأنتِ منصرفة من المبنى. الواحدة والنصف. لديكِ وقت كاف للغداء ولأخذ بعض الراحة على سريرك ربما حتى تغفلى بعض الوقت قبل العودة إلى المكتب. أنتِ محتاجة لهذا الوقت لاسترداد قواكِ. لم تنامى إلا قليلاً هذه الليلة لأنك كنتِ قلقة جدا. كنتِ تتساءلين لو أنهم سيقبلونكِ أو أنهم قد أخذوا بالفعل شخصًا آخر يجيد العربية... على كل حال فقد مرت الأمور بسلام... كان يبدو على جلال بك أنه مسرور بوجودك. خصوصًا أن هناك عملا كثيرا. على "شديد" تقع مسؤولية اختيار المقالات وهو مضطر أن يقرأ كل الصحافة العربية والأجنبية، وأن يختار المقالات التى سيحتفظ بها. هذا الصباح حسبتِ أن الطريق يستغرق عشر دقائق للوصول إلى مكتبك. جلال بك وشديد رحبا بك، ولكن ما شأن الآخرين؟

"هؤلاء هم مسئولو التحقيقات الكبار" أعلن شديد ثم قال: "معاونتى الآنسة أفلاطون" وقد سلموا عليكِ بظرف ولكن السكرتيرة والمحاسب والموظفين الآخرين نظروا إليكِ ببرود، سلموا عليكِ بالكاد. غريب! كأنهم مرحبون بوجودك. لماذا؟ إنهم لا يعرفونك. رياه على كلٍ ما أهمية هذا! إنك لا تعملين معهم! ثم من المحتمل أنك مخطئة فى تقديرك للأمور.

لم تخطئى! يعتبرك موظفو الإدارة دخيلة عليهم. يقبلون على مضض وجودك وهم من أصول متواضعة. يدركون أنك لست من عالمهم. مرتبكة ومتأثرة بهذا العداء الذى يصل إلى حد البجاحة أحيانًا، تعملين على التأقلم على الوضع. بطريقة غريزية

تتصرفين بطريقة مهذبة مجبرة البعض منهم على رد التحية الصباحية. فإن مكاتبهم مواجهة لباب الدخول وراء ألواح الزجاج، وعليكِ أن تمرى بالضرورة أمامهم. وبعد مرور أسبوع ستكتشفين أنهم لم يعودوا ينظرون إليكِ بهذه الطريقة الساخرة عند مجيئك إلى المكتب فى التاسعة والنصف. لم تردى على الملاحظة الحادة للسكرتيرة فى الصباح الأول: "ياه هذا غير معقول الآنسة أفلاطون قد حضرت بالفعل؟" وعندما تردد الفتاة بعد ثلاثة أيام: "مازلت تأتين فى الميعاد!" تقتربين منها وأنتِ مبتسمة وتقولين: "آه ماذا أفعل فأنا إنسانة أراعى مواعيدى جدا وسأظل هكذا، وعندما سآتى متأخرة ستعرفين أننى مريضة".

ولكن بساطتك وظرفك مع الجميع والجدية التى تقومين بها بمهامك ستهزم ببطء كل تحفظات الموظفين. يبدأ الواحد تلو الآخر فى التنازل عن هذه المواقف الصلبة ويمكثون معك فى الأرشيف للتحدث بضع دقائق مع شديد أو معك. هل يستحسن شديد عملك؟ يقول دائما: "جيد جدا.. حسنًا" يجب أن تتحدثى معه عن رغبتك فى الكتابة للصحيفة.

الساعة تقترب من السابعة والنصف! لم يعد عليكِ إلا ترتيب هذا الملف، لقد رحل شديد وتجلسين لبرهة لكى ترتاحى لأن ساقيكِ يؤلمانك فأنتِ بقيت لفترة طويلة واقفة.

"ها أنت إلياس؟" أنتِ مندهشة لدخول هذا الشاب الذى يعمل كل شىء لجلال بك.

"مساء الخير يا آنسة. من حسن الحظ أنك ما زلتِ هنا إن المدير يطلبك. يريد منك أن تجدى له شيئًا ما على عمر برادلى" إلياس ينظر إليكِ بعيونه المستغربة: "هل تعرفين هذا الشخص؟ هل لديكِ شىء عنه؟" تضعين حقيبة يدك على الطاولة وتبدئين فى البحث. لقد اختفى إلياس، تجدين الملف وتذهبين إلى مكتب جلال بك.

"ادخلى يا آنسة ادخلى. هل وجدتِ شيئا عن الجنرال برادلى. رائع! مقالين وكاريكاتير رائعة.. شكراً. أنا أعرف أن الوقت متأخر ولكنى استدعيتك لتهنئتك. "شديد" يمدحك كثيراً وقد قال لى أخيراً إنكِ تقومين بعمل رائع. أنا سعيد جدا... تستطيعين الانصراف الآن... سأرسل لكِ المقالات غداً عند الانتهاء من كتابة مقالى".

تأخذين طريق المنزل وأنتِ فخورة وسعيدة جدا. أخيراً قد أصبحتِ عضوة فى هذه الصحيفة! وأثبتِ لهم أنك قادرة على العمل. كان الجميع يظن أنك لن تستطيعى الصمود لأنك من آل أفلاطون! كما حدث بالنسبة لوالدتك عندما بدأت فى العمل، فقد اعتبرتها العائلة إنسانة مجنونة. وقد توقف أحد أعمامها عن السلام عليها فقد كانت تقلل من شأن العائلة. ما هذا المخبول!.

بعد ثلاثة أيام ستقبضين مرتبك ومعه مائة وخمسة وسبعون قرشاً "لغلاء المعيشة". تشعرين بنفس الفرحة ونفس الفخر الذى شعرتِ بهما أول مرة عندما حصلتِ على هذا المبلغ الضئيل. تدركين أن مرتبك غير ملائم وقد عبر أصدقاؤك عن هذا: "فهم يستغلونك حتى لو أنك ليس لديكِ شهادة وليس لديكِ لغة عربية!" حتى الآن تكتفين بهذه الجنيهات الثمانية فأنتِ تتمسكين بها. فهذا المرتب الضئيل قد ربحته بدون مساعدة أحد وهو رمز لحريتك ولاستقلال ما حصلتِ عليه بصراع كبير. لم تعد والدتك تصر على تلبية الدعوات عندما ترفضين. فهى تترك لكِ الحرية.

"كل ما أطلبه منكما الآن بعد أن أصبحتما شابتين كبيرتين" كما أعلنت والدتك "ألا تتناسيا أبداً الاسم الذى تحملانه... يجب عليكما أن تكونا لائقتين، وأن تدافعا عن سمعتكما".

-٣-

تستيقظن بفزع على صفير صفارة الإنذار الطويل: "هيا يا أطفال سريعًا" تقول والدتك "ارتديا روبكما، وخذا غطاء معكما" تسرعان في الانصياع للأوامر. وقد بدأ الناس في الهرولة على السلم. إن الأسانسير مشغول وتهبطان الدرج وأنتما مستعينتان ببطاريات الجيب.

منذ أن بدأت القنابل في الإسكندرية تتابع ماما التعليمات المنشورة في الصحف: الورق الأزرق على الزجاج، والإضاءة الضعيفة، والاختباء في الملاجئ القريبة. أما عن ملجأكن فهو في دور تحت الأرضي لعمارتكما . هذا هو الإنذار الثاني. كالعادة فإن الأحياء الشعبية هي الأكثر تعرضًا للانفجارات، فقد انهارت منازل قديمة كثيرة في الإسكندرية وصحب هذا موتى وجرحى كثيرون. ولأن كثيراً من هؤلاء الفقراء وجدوا أنفسهم بدون مأوى، وقد اعتصرهم الخوف فقد هربوا إلى المدينة، وقد بدأت والدتكما بصحبة أعضاء من الهلال الأحمر في قضاء ساعات طويلة في محطة القطار؛ لمساعدة الضباط، وجنود الشرطة. فهي وزميلاتها يستقبلن المهاجرين، ويطمئنونهم، ويأتي بعض الأطباء المتطوعين لعلاج المرضى والجرحى، وينقلونهم إلى مستشفى الهلال الأحمر، أو مستشفى قصر العيني. تقود السيدات الناس الذين لا يعرفون أحداً في القاهرة، ويجلسونهم في قاعات الانتظار، ويطعمونهم ويتحملون مسؤولية إيجاد مأوى لهم، فهم ينظمون حفلات خيرية، وحفلات شاي في الفنادق الكبيرة، مثل السميراميس أو في القصور، من أجل الحصول على مبالغ كافية لمساعدتهم.

المأوى نظيف. والكراسي، والدكك تكفي الأعداد الآتية.

"أغلقوا كل الأنوار" يأمر صوت آتٍ من الشارع. لا تحبين أنتِ وديدى المجيء إلى هنا، ولكن والدتكما تصر على هذا: "من الأفضل هكذا. فنحن فى الطابق الرابع" كما تقول ماما. إن الصراصير الكبيرة التى تهرول حولكما ترعبكما أكثر من القنابل، وعليكما أن تطمئنا المسكينة إيرينى التى تصيح "بنياموا" عند كل ضربة مدفع مضاد للطائرات.

-٤-

يجلس الفنان التشكيلى الكبير محمود سعيد بجانب والدتك فى الصالون. وهو صغير الحجم ذو كتفين عريضتين، وطابع حسن فى ذقنه، وعينين سوداوين كبيرين يرتفع فوقهما حاجبان كثيفان سوداوان بنفس لون شاربه وشعره، وهو يحتسى الشاى.

جاء ليعطى رأيه فى رسومات ديدى وفقًا لطلب والدتكما، آسفة لغياب أختك الصغيرة. تطالبك والدتك بالرسومات المائية التى أنجزتها أختك المصاحبة لحكايتك. الفنان الكبير يدرس طويلاً هذه الأوراق بدون أن ينبس بكلمة واحدة. يتصفحها واحدة تلو الأخرى، ويتوقف عند إحداها، ويريها لوالدتك: "رائع" كما يقول: "إنجى تمتلك موهبة التصوير، إنه صعب جدا الحصول على اللون الأبيض. ابنتك موهـــوبة، ويجب أن تأخذ دروسًا فى التصوير، وخصوصًا فى الرسم، فهى لا تعرف كيف ترسم... "ديدى مصابة بخيبة أمل، لأنها لم تحضـــر هذا اللقــاء، ولكنكِ أعطـيتها تقريرًا شاملاً بكل شىء فتهدأ وتترك لنفسها الفرحة. تلح على والدتكما للبحث عن مدرس جيد. من هو الذى يقع على عاتقه إعطاء دروس فى الرسم والتصوير لأختك؟ لقد أجابت صديقتكما الكبيرة لوسيان على الفور: "سأتحدث مع التلمسانى، أنا متأكدة أنه سيوافق".

أنتِ التى تفتحين له الباب، شاب طويل القامة أسمر جدا، ورفيع ذو وجه مستدير، وأنف عريض، وشفاه مكتظة، وشعر ذى خصلات سوداء وغير مهذب، وعيون سوداء ماكرة ومليئة بالبهجة. يرتدى جاكتًا من القماش السويدى الرمادى على بنطلون

رمادى، ويضع فوق رقبته إيشارباً من الصوف البيج! مع أن الجو ليس بارداً! ربما حلقه يؤلمه. تقدمين نفسك إليه، وتدخلينه فى غرفة الطعام، حيث تأتى إليكما ديدى مبتسمة وفى يدها كراسة كبيرة للرسم، يتحدث إليكما بالفرنسية، فرنسية بلكنة مصرية، وبدون نطق حرف ال "ر".

"وهو طريف جدا" تعلن أختك "أخيراً وجدت أحداً يعلمنى الرسم، ويعرفنى تاريخ الفن... بالنسبة للتصوير فقد قال لى أن أصبر بعض الشىء"، ولكن هذه الكوفية الصوف التى لا يتخلى عنها التلمسانى أبداً تثير فضولكما.

فى صباح يوم ربيعى دافئ جدا، تقرران أن تعرضا عليه خلعها. لقد أصبحتما صديقتين حميمتين، كثيراً ما يتحدث معك التلمسانى أثناء ما تقوم ديدى برسم ما قد طلبه منها. تتحدثان عن الأدب باللغة الفرنسية، ويضع الرسام بعض الجمل بالإنجليزية، وهو يضحكك جدا لأنه يتمتع بروح الفكاهة ويثير إعجابك بإلمامه بالشعر والرواية. فى يوم من الأيام تبادرين بشجاعة بينما أختك جالسة أمامه وتقولين: "كامل ألا تشعر بالحر؟ لماذا لا تخلع هذه الكوفية الأبدية؟" ينظر إليكما كل على حدة، ثم ينطلق فى ضحكة كبيرة ويسحب بيده الكوفية:"هاااااا هى يا أنيسات انظرا إلىّ! تفحصانى!" لا تفهمان فى البداية، ويبدو عليكما الارتباك ثم تكتشفان أن ياقته متهرئة تماماً!

"نحن نأسف يا كامل هذا شىء لا يغتفر، ولكن هذه الأشياء ليست لها أى أهمية بالنسبة لنا".

"لا تعرفان معنى الفقر يا غزالتان جميلتان وغير مدركتين، لا تخجلا ولا يحمر وجهكما" لقد أزال ضيقكما بابتسامه طيبة ووجهه يتنفس الطيبة رغم تعليقاته الحادة، ولكن التى لا تشوبها أى مرارة، ولا تجاهكما وأنتما يخدمكما شخصان، وتأكلان ثلاث وجبات بدون أى تفكير فى المستقبل: ماذا يفعل للاستمرار فى العيش، الآن السكر

والأرز لهما حصص والبطاطس شحيحة، فهذه الأطعمة مخصصة لجيوش الحلفاء المرتكزة فى ضواحى القاهرة. وماما التى تعشق البطاطس المحمرة، قررت أن تستبدل بها البطاطا!

وماذا عن بول؟ منذ أن بدأت فى العمل، يرى أحدكما الآخر فى المساء بعد السابعة، وتذهبان فى نزهة قصيرة فى سيارة أرمون عندما لا يحتاجها. أو تذهبان إلى السينما فى حفلات الثالثة بعد الظهر أثناء الأسبوع أو أيام الأحد. وبول ينهى هذا العام دراسته فى الجامعة الأمريكية، ويتعلم العربية. لقد قرر أن يلتحق بكلية الطب. تعزمان أحيانا بول وأرمون فى بيتكما مع أصدقاء الطفولة، وتقيمان حفلات عشاء راقصة تضم اثنى عشر، أو خمسة عشر شخصاً. وتكون هذه الحفلات الصغيرة جميلة جدا وتستمتعون بها.

يلتقى أرمون مع أختك كثيراً بعد الظهر، وتصل إلى البيت متأخرة أحيانا فى المساء فى وقت جلوسكما إلى مائدة الطعام، ولا تقبل ماما بالتأخير: "لو أنكما قمتما بالعشاء فى الخارج يجب أن تبذلا جهداً وتتحدثان فى التليفون لإبلاغى...".

عندما تأتى ديدى إلى مائدة الطعام فى الوقت الذى يقدم السفرجى الطبق الثانى تعتذر بابتسامة صغيرة جذابة وتجلس كأن شيئًا لم يحدث.

"لا تستحقان أن تتناولا العشاء معنا! يبدو أننى لم أعلمكما السلوك الجيد. أنتما غير مهذبتين..." غير راضية تحاولين أن تعترضى فإنك لا تتأخرين على الوجبات. ولكن "على" بك يضع يده على يدك لكى لا تردين على والدتك وهو مثلك معتاد على خناقات والدتك التى تتحدث دائما بلغة الجمع مع أن ديدى هى التى دائما تتأخر وهى المذنبة فى أكثر الأحوال! وقد قال "على" بك يومًا ضاحكًا لوالدتك: "إنجى هى ابنتك المفضلة!" سيكرر أصدقاء والدتك هذه الجملة الصغيرة، وفيما بعد ستكررها تاتى، إسماعيل وأنت.

لقد نجحت ديدى فى البكالوريا، وتبحث عن عمل، وهى تخرج كثيراً مع أرمون ومع ثلاث فتيات درسن فى شعبة الرياضيات. تستقبلهن ديدى كثيراً فى غرفتكما، وهن لا يرقن لكِ على الرغم من أن أختك قد أعلنت بصوت جهور "هذه بنات ممتازة!" ورغم هذا فإن عدم لياقتهن ومظهرهن المهمل الذى كثيراً ما يكون متسخًا يصدمك. ومنذ بداية الإجازة تستقبلهن أختك كثيراً، وفى مساء يوم ما كنتِ تشعرين بسخونة عدتِ إلى البيت مبكراً، وكان باب غرفتكما مغلقًا! غريب! تفتحينه وتكتشفين فتاتين ممددتين على سريرك وأخريين على سرير أختك، وتجلس ديدى أمام مكتبها، وهى ممسكة بقلم حبر.

"ها أنتِ؟" تقول أختك "غريبة أنك جئتِ مبكراً!" تكتمين غيظك وتلقين التحية على مضض، وتوجهين نظرة إلى الفتاتين الممددتين على سريرك. يقومان بإهمال يجلسان بجانب الأخريات.

"أنا مريضة، وأتمنى أن أتمدد، هل تستطيعين اصطحاب صديقاتك إلى الصالون" لقد عبرتِ عن نفسك بصوت ملىء بالغضب، وقد سمعتِ ضحكتهن المكتومة، وتقوم ديدى، وتدفع مقعدها بصوت مسموع للتعبير عن غيظها وعدم رضاها. يبدو عليها أنها تناست أنكما متفقات على احترام خصوصيتكما. لكل واحدة سريرها ومكتبها وقطعة الأثاث الصغيرة ذات الأرفف الثلاثة لوضع كتبها، لماذا لم تكترث هذه الفتيات بالمقاعد؟ تجمع ديدى أوراقها وتقول: "هيا فلنطع الآنسة!" تخرجهن أختك، وتغلق الباب، ولكن قبل هذا تنظر إليك بنظرة نارية.

تتنهدين الصعداء، وتخلعين الجاكيت وحذاءك، وتتمددين على السرير بصحبة رواية سبركن بروج لشارل مأراجون التى قد بدأتِ منذ قليل. وبعد نصف ساعة تفتح أختك الباب بعنف فقد رحلت صديقاتها. مع ألف سلامة!.

"ماذا حدث لكِ لماذا عدم الظُرف هذا؟ ألا أستطيع استقبال صديقات فى منزلى؟"

"بالطبع كما تشائين، ولكن تعرفين أننى لا أحب أن يجلس أحد على سريرى، ولا أحب أن تجلسين أنتِ أيضًا وهن غير نظيفات ورائحتهن كريهة وفوق هذا وذاك فهن غير مهذبات. لم يلقين علىّ التحية! يجب أن تنصحيهن بوضع مزيل للعرق.."

"ما هذا الكلام! ديدى تخرج عن طوعها، وترفع صوتها: "ألم تلاحظى أنهن فتيات مسكينات، أنتِ التى تدعين أن عندك قوة ملاحظة وأنتِ لستِ إلا برجوازية قميئة ورجعية!" وتنهمر فى البكاء.

تنهضين وتحيطينها بذراعيك وتقبلينها: "هيا لا تبكى يا غبية!" ولكن تبعدك ديدى، وتقول بصوت عصبى: "اتركينى! لا تفهمين شيئًا! أنا قد زهقت من العائلة.. زهقت زهقت!".

"اهدئِى" تقولين هذا، وأنتِ مرتبكة من هذه الثورة "اذهبى واغسلى وجهك، ستأتى ماما لا يجب أن تراكِ فى هذه الحالة".

"بالطبع ماما! يجب الانصياع والانتباه لهذا أو ذاك.. بدون أدنى حرية.." ولكنها تذهب نحو الحمام.

هذا الانفجار الذى حدث بعد سنة من النجاحات الأولى لأختك فى الرسم قد أبعدت إحداكما عن الأخرى، وأختك الصغيرة هى المسؤولة عن هذا البعد؛ لأنها لم تعد تشركك فى نشاطاتها. إن الروابط بينكما لا تنقطع، ولكن أختك تحرص أن تخفى عنك دافعها، وستكتشفين بالتدريج أنها تشترك عمليا فى كثير من الأحداث السياسية، مثل بعض مظاهرات الطلبة ضد الاحتلال البريطانى. وفيما بعد بينما تأخذ دروسًا فى اللغة

العربية ستكتشفين أن ديدى أصبحت عضواً فى أحد التجمعات الكثيرة الشيوعية السرية، وستعتقل مرتين، وسيتم الإفراج عنها بفضل تدخل والدتكما التى تجمعها صداقة كبيرة برئيس الوزراء "صدقى" باشا.

"شيوعية أنتِ! تعيشين فى الثراء، وترتدين ثياباً من الخياطة الراقية! ما هذه المهزلة؟" هذه المرة لم تتجدث والدتك بصورة الجمع! وهى فى غاية الحنق تهدد أختك "إذا كررتِ هذا سأتركك تتحللين فى السجن، ولكن لا يبدو على ديدى أى تأنيب ضمير، ولكنها لا تنبس بكلمة، بهدوء وبابتسامة تبدو خجلة، تنتظر أن تمر العاصفة. لن تفضى لكِ بأى سر فى هذا الموضوع، وتجيب عن أسئلتك برفع أكتافها، وبابتسامة محتقرة.

"أود لو أفهم، ولكن بالنسبة لكِ أنا غبية جداً أليس كذلك؟".

"ليس الموضوع هو الغباء.. لدى قناعات من الصعب أن أشرحها لكِ، وربما فى يوم من الأيام...".

-٦-

٨

صوت خطوات يفرقكما على مضض. على كل، فحان وقت العودة إلى المنزل، الساعة تقترب من الثامنة وعشر دقائق. تمشطين شعرك، وتضعين بعض الأحمر على الشفاه، بينما يدير "بول" السيارة. تسيران حتى طرف الجزيرة، وتجتازان كوبرى قصر النيل، وتتوجهان نحو عمارتك، سيقود "بول" سيارة "أرمون حتى منزله، وسيعود إلى منزله مترجلاً.

"هيا يا حبيبتى تشجعى فليس بالوقت الطويل خمسة عشر يومًا. سأكتب لكِ عنوانى" يركن "بول" السيارة بعيداً عن العمارة، وتسيرين بعجلة نحو المدخل، وتلتقين بـ "على" بك.. لا تتصورى أنه رآك يجعلك تسيرين أمامه بعد أن شد على يدك بابتسامة كبيرة، وتنتظران هبوط المصعد، ويمسك (على) بك بطربوشه الذى خلعه ليسلم عليك. عندما يفتح الباب الحديدى يظهر شاب بملابس عسكرية، ويزاحمكما للدخول أولاً فى المصعد. يحمر وجه (على) بك، ولكنه يرجع إلى الخلف ليجعلك تمرين، ثم يتبعك، أنتِ أيضًا متوترة مثل صديقك ذى الشعر الأبيض، ومتأكدة أن هذا الرجل غير المهذب لن يأخذ على عاتقه أن يسألكما إلى أى طابق ستصعدان؛ ولذا تضعين يدك على زر الرابع، ويضطر العسكرى أن يتراجع لكى يجعلكما تمران.

"خشيت أن توبخه بمبولى" قال (على) بك: لماذا عندما قصيتما عليها الحادث.

"ومع رجل مثل (على) بك شعره أبيض، ومتقدم فى السن عن هذا المنحط!".

"ولكنه يرتدي طربوشًا يا بمبولي، أنتِ تنسين هذه التفصيلة على حق يجب أن تحتاطي من هذا النوع من البشر، لا تحاولي أن تتحدثي أو تتشاجري مع الإنجلين، الأفضل أن تعامليهم بتعالٍ".

ماما و(على) بك يتركانك فهما ذاهبان للعشاء عند أصدقاء، وقد اختفت أختك منذ الساعة السادسة، ولا تعرفين إذا كانت موجودة مع أرمون أو مع صديقتها.

"لا تنتظريني قبل الحادية عشرة، سآكل حاجة سريعة في الخارج" مرتدية أحد ثيابها القديمة، لم تعد إنجي تضع مكياجًا، ولم تعد ترتدى ملابسها الجميلة إلا بمناسبة الحفلات القليلة التي لا تستطيع رفضها مثل زواج أو عيد ميلاد. لا تقبل كثيراً عدم حماسكما للخروج إلى الدنيا. "لم يعد شيء يعجبكما! لا أفهم" فوالدتك تستمر في حفلاتها رغم عملها في الهلال الأحمر وفي الأتيليه، فهي تستقبل كثيراً في المنزل، وتذهب للعشاء كثيراً في الخارج أو عند أصدقاء أو في نادى السيارات.

تحتسين عشاء خفيفًا وحدك، وتغتسلين ثم بتنهيدة رضا تدخلين فراشك مع "سبركن بروك" الذى ستنتهين منه هذه الليلة، لا تستطيعين أن تركزى، يجب أن تعتادى على فكرة الفراق، وألا تقابلى (بول) كل يوم، وألا تسمعى صوته في التليفون، أين ستفضى بك علاقتك ببول؟ وقد مضت سنتان، وأنتما تتقابلان في الخفاء، لقد قلتِ لنفسك مراراً إنك تأخذين الأفراح التي تقدمها لكِ الدنيا يومًا بيوم، مع أنك لا تستطيعين أن تتخلصي من هذا الشعور بالذنب الذى يجتاحك عندما ترددين أكاذيب لوالدتك. لم تتحدثا معًا عن الزواج إطلاقًا؛ ربما السبب هو هذه العراقيل التي تقف بينكما، فهو مسيحي وأصغر منك بعام ويجب أن ينهى دراسته في الطب. والانتظار يحبطك كثيراً. هل سيصمد حبكما أمام هذه السنوات في الخفاء؟ وهل سوف يقبل والدك ووالدتك أن تتزوجي من مسيحي؟ إن القانون يتطلب أن يعتنق بول الإسلام... هذه المشاكل تزعجك كثيراً هذه الأيام، ونوع ما من الزهق يكتسحك بدون أن تفهمي مغزاه... تخشين من كلام الناس. إن عملك في الجريدة أعطاكِ بعض الاستقلال،

وقوّى ثقتك بنفسك، ولكن لم يحررك تمامًا... حاولتما أن تفترقا! ولكن بعد ثلاثة أيام تكلمتما فى التليفون ولم تتحملا هذا الفراق! ربما عليكما أن تنتهزا فرصة سفر (بول) إلى لبنان، فإنه سيشعر قطعًا بالحرية، وستتاح له فرص أكبر للالتقاء بفتاة تعجبه... ولكن ما هو الأمر بالنسبة لكِ؟ لا أحد بين الشباب الذين يحيطون بك يجذبك... فإن حبا جديداً يطرد الحب القديم كما تقول تاتى... "إن بول إنسان رائع" تقول صديقاتك المقربات: "فهو وسيم، وذكى، وخفيف الظل! أنتِ محظوظة!" فهن على حق، وأنتِ فخورة بحب (بول).. وتعرفين تماما أنه أفضل من كثير من الشباب الذين تعرفينهم.

هذان الأسبوعان من الإجازة اللذان تستحقينهما سوف يعرفانك على خبرة جديدة، وستكون بمثابة محنة بالنسبة لكِ.

أنتِ وأختك استمتعتما بهذه المفاجأة السارة، وهى الالتقاء بأصدقائكما فى الإسكندرية، ويستقبلكما شاطئ سيدى بشر رقم ٢ الجميل، وخاصة كبينة آل شريف التى يمكنكما استخدامها، ويوجد فى الإسكندرية ماهى وزوجها وآل راتب، وليلى، وأخوها محمود الذى لا يستحم فى البحر! يجلس ممسكًا بكتاب فى يده تحت شمسية، ومرتديًا قميصًا بنصف كم، وبنطلونًا من التيلة، وأنتِ جالسة بالقرب منه، وقد وضعتِ على جسدك سائلاً مقاومًا لأشعة الشمس، وتتمددين على منشفتك لأخذ حمامٍ من الشمس، وأختك وصديقاتك يفعلن مثلك: "هذا حريمك يا محمود!" تقلن وأنتن تضحكن وأنتن جالسات، تتحدثن، وتنظرن إلى الشباب الذين يلعبون بالكرة فى البحر. يدرس محمود الطب، ويعشق علم النفس وهو شاب ممتلئ له كتفان عريضتان، وشعر، وعيون سوداء ضاحكة. وهو إنسان ذكى، ومثقف وخفيف الظل، ويسدى لكِ النصح بالنسبة لقراءاتك، وأشعارك، وقد أصبح من أفضل أصدقائك. عند الظهر تقمن، وتدخلن المياه، وأنتن تضحكن؛ فالبحر دائمًا هادئ؛ لأنه تحميه هذه الجزيرة، والعلم الأسود لا يرفع إلا قليلاً. تسبحن حتى البرميل، وتتمسكن به بضع دقائق ثم تسبحن بطريقة الكراول للعودة إلى مشارف الجزيرة.

وأختك التى تنتهى أولاً من حمامها، تجلس على الرمال بجانب محمود وتسمعينهما فى يوم ما يتناقشان فى الشيوعية، وأنتِ مليئة بالفضول لسماع آراء

أختك التى تدافع عنها بحماس. ينظر إليها محمود، وابتسامة بسيطة على شفتيه، ويحرك رأسه تاركًا لها العنان فى الحديث، وهو الوحيد الذى لا يسخر من قناعتها، بينما الآخرون يبتسمون بطريقة متعالية وساخرة... استغلال الإنسان للإنسان... قال ماركس... الجدلية المادية.... تتوعدين نفسك بسؤال محمود عن معانى هذه الكلمات، وتبدو لكِ أختك متحمسة جدا وتبدو قاطعة، وهى تردد جملاً بأكملها قرأتها فى هذه الكتب التى تعشقها.

"لقد تحمست أنا أيضًا لهذه المواضيع" يعلن بهدوء محمود، ولكن الواقع محبط جدا ومُرٌّ أيضًا، فالثورة البلشفية قد سالت فيها دماء كثيرة. فأنا قد تجاوزت هذه الأفكار! وأنتِ إعجابك وحماسك سينتهيان" يضيف محمود بنبرة أبوية، وقد توقفت أختى عن الكلام، وعلا وجهها ابتسامة صغيرة محتقرة. ويتوقف هذا الحوار عندما تأتى الأخريات، وقد ارتدين ملابس البحر أو ملابسهن العادية.

من المفترض أنك تعرفتِ عليه هذا اليوم. فقد اقترب من شمسيتكم.

وقد صاح محمود: "صلاح ما هذه المفاجأة! تعالَ سأقدم لك صديقاتى" أنتن تجلسن على الرمال، أو على مقاعد البحر، وتنظرن إليه، وتمدن أيديكن عندما ينطق محمود بأسمائكن، وينحنى صلاح للسلام عليكن، وعلى شفاهه ابتسامة خفيفة، وهو أسمر جدا، وشعره مجعد قليلاً، وقصير، وله أنف كبير فى وجه مستطيل، وليس وسيمًا، ولكن له هيئة. يرتدى قميصًا سماويا، وبنطلونًا رماديا، وتلاحظن باستغراب أنه يرتدى حذاء وجواربًا!

"صلاح تلميذ من تلامذة الآباء اليسوعيين مثلى تمامًا! تفضل بالجلوس" ينظر الشاب إلى ساعته: "سأمكث وقتًا قصيراً؛ لأن هناك أصدقاء ينتظروننى، أنا سعيد جدا لرؤيتك يا محمود".

كنتِ تودين لو استحممتِ، وارتديتِ ملابسك، ولكن لا تبرحين مكانك وتستمعين إلى المناقشة، فصديق محمود يعمل فى مكتب محامٍ، وهو الآن فى إجازة، ويتحدث الرجلان عن ذكرياتهما، وبينما يتحدثان ينظر صلاح بتأنٍ إلى صديقاتك، ولكن يطيل النظر إليكِ، وعندما تلتقى نظراتكما يحول عينيه. ولأنه ينظر لكِ بإمعان وتركيز فهذا يضايقك ويعطيك الإحساس أنه يخلع عنك ملابسك؛ فتقررين أن تنهضى: "حسنا سأذهب لأخذ حمامٍ إلى اللقاء!" يظهر صلاح من جديد بعد يومين، وتربكك نظرات هاتين العينين البندقيتين؛ فترفعين حمالات رداء البحر. لماذا يتفحصك هكذا؟

"الآنسة جلبيرى! هذا اسم تركى أليس كذلك؟"

"تعال اجلس على الرمال لو كان هذا لا يضايقك" يقول محمود. وبما أن صلاح يتردد يقوم كمال المستلقى على كرسى للبحر، ويقول: "سأذهب لأسبح بعض الشيء ألا يوجد أحد للذهاب معى؟"

"لم نعد نستطيع هذا! على كُلٍّ فالوقت متأخر، وسأذهب لأخذ دش" يجب أن تتبعى ليلى، ولكنك ترغبين فى المكوث لسماع محمود وصلاح، وتكتشفين أنه عائد إلى القاهرة فى اليوم التالى! خسارة فإنك كنتِ ترغبين فى معرفته أكثر... لماذا؟

"بمبولى ماذا تنتظرين لارتداء ملابسك؟"

"مع السلامة، سنراك غدًا يا محمود؟"

"بالطبع إلى اللقاء غدًا!" ينهض صلاح "إذن سأقول لكم إلى اللقاء، وأتمنى أن أراكم يومًا ما فى القاهرة.

تجيبين من طرف شفتيك "إلى اللقاء ، ربما.." وتهرولين حافية على الرمال الحارقة. فقد قال إلى اللقاء فى القاهرة، هل يعنى بالفعل أنه يريد أن يرانى من جديد،

كيف؟ فهو لا ينتمى إلى مجموعة أصدقائك. وقد ارتدى الجميع ملابسهم، وجلسوا ينتظرونك، وهم مستاؤون فى مقدمة الكابينة.

"أنا متأسفة.. فقط خمس دقائق وسأكون جاهزة!" عند عودتك من الإسكندرية تجدين خطابًا من (بول)، وقد تعرفت على الفور على خطه. وهذا الخطاب الملىء بالحنان يمحو صورة صلاح وهذا الاهتمام غير المبرر الذى تشعرينه تجاهه.

تتحدثين بعض الوقت مع التلمسانى فى قاعة الطعام، حيث وضعت ديدى متعلقات الرسم ثم تتركينهما ليعملا. فيما بعد يناديك الفنان الذى ينتظر فى الصالة الصغيرة: "أرجو التحدث بصوت منخفض! لقد طلبت من إنجى أن ترسم، وتحاول أن تعبر عن شعور ما عن تمرد أو عن رغبة... أريد أن تترك العنان لوحيها.." كان قد اشتكى التلمسانى من قلة خيال أختك، فقد كانت منطوية على نفسها، وكان يجب أن تتحرر، وأن تخرج ما بداخلها.

إنجى تفتح الباب بعد ثلاثة أرباع ساعة:"لقد انتهيت من عملى" تتحدث بالكاد: "تعالَ انظر" يرفع التلمسانى الورقة الكبيرة التى خطت عليها أختك بالحبر الصينى منظراً طبيعيا غريبا ممتلئا بالأشجار الملتوية وأغصانها ترتفع، وتتداخل كما أنها تريد أن تترجى أو تبكى. تحبين كثيراً هذا الرسم، ويحرك التلمسانى الورقة فى صمت ثم ينظر إليها ويقول: "أخيراً! فقد خرجت من نفسك... مثير جدا! منذ اليوم سترسمين بالزيت" وابتسامة سعيدة تعلو الوجه الجميل: "حقيقى يا كامل أستطيع، هذا ليس قبيحًا؟".

لا تستطيعى أن تنسى هذه الأيام التى اكتشفت أختك نفسها بوصفها رسامة، وخاصة هذا المساء الذى انتظرك التلمسانى حتى الثامنة!

"أخيراً قد جئت! تعالى انظرى" وتقول ديدى وهى فى قمة السعادة: "انظرى" وتبتعد وقد مسكت بيديها لوحتها الزيتية الجديدة. فى نفس ألوان الأحمر الداكنة والبنى القريب من السواد تظهر سيلويت لفتاة ذات شعر منسدل، وذراعاها ممتدتان

تهرول مزعورة نحو أشجار ملتوية، ويتعقبها نوع من الطير ذو منقار حاد جناحاه تميل إلى السواد، وله مخالب ضخمة. لا تستطيعين أن تمتنعى عن الإعجاب برسم أختك، وأنتِ متأثرة جدا: "رائع!"

"Fantastic" يقول التلمساني باللغة الإنجليزية: "سأذهب به إلى جورج حنين فهم بصدد تحضير معرض مع مجموعة فنانى "الفن والحرية". يمكن أن يعرضوا لوحة إنجى" وجورج حنين مؤسس الحركة السريالية فى مصر متجمس جدا، ويقرر أن يعلق لوحة إنجى بجانب لوحات فنانين معترف بهم فى الوسط الفنى والثقافى. وأختك فى غاية السعادة ومتأثرة بهذا النجاح الأول، تعمل بدون توقف، وتقوم برسم لوحة أخرى فى نفس جودة لوحتها الأولى.

إن قاعة العرض مليئة بالبشر من كل نوع يتزاحمون فى كل الاتجاهات، ويمتزج الفنانون، والنقاد، والمثقفون، وأصدقاء أختك، وأصدقاؤك ذوو الملابس البسيطة مع ضيوف والدتك المتأنقين. وبالطبع بول وأرمون معكما! وبابا وزوجته أيضًا، وتتجولين فى كل مكان، وتلاحظين ردود أفعال المشاهدين، وتستمعين بالأخص إلى التعليقات الحمقاء التى يتفوه بها مجموعة من الناس، يجهلون كل شىء عن الفن وخاصة عن السريالية.

"ماذا يعنى هذا؟ يطلقون على هذا فن؟ هذا الفنان يعرف كيف يرسم، ولكن ماذا تعنى لوحته؟ إنهم يضحكون على العالم.. ويدعى هذا المعرض الفن المستقل! مستقل عن من؟ انظروا إلى لوحة ابنة صالحة كم هى داكنة وحزينة!" وبعد أن تجولوا سريعًا فى المعرض يقتربون من والدتك الفخورة جدا والمبتسمة، يجاملوتها بكلمات لا يعنونها ثم يختفون، ولكنَّ الفنانين، ونقاد الفن قد قدروا أعمال التلمسانى، ورمسيس يونان، وفؤاد كامل، وفنانين آخرين سيصبحون رواد الفن الحديث المصرى. والجميع يطيل النظر فى لوحة أختك، وهى واقفة ومرتدية تييرًا أنيقًا، نجحت والدتك أن تقنعها أن ترتديه، وهى تبتسم بخجل للإطراء. وأنتِ أيضًا فخورة جدا، وتسيرين وراء المعجبين،

وتستمعين إلى إطرائهم، وتمزحين أمام تعجبهم من هذه الفنانة ذات الستة عشر عاماً! وقد اقترب كامل وهو فى قمة السعادة منكما، ويقف جورج حنين وراءه "هذه تلميذتى يا جورج، وهى اكتشاف هذا المعرض!" ويبتسم جورج، ويشد على أيديكن ويردد: "إنجى أنتِ اكتشاف هذا المعرض! اكتشاف!"

فى الأيام التالية الجرائد اليومية والأسبوعية تنشر مقالات عن فنانى "الفن والحرية" وأغلب الجميع يتحدثون عن أختك بصفتها "فنانة لها مستقبل".

-٩-

"هناك رجل يسأل عنك في التليفون.. فقد قال فقط إن اسمه صلاح.." " صلاح كيف أتى برقم تليفونك؟"

"آلو.. صلاح؟ مساء الخير!".

"مساء الخير يا جلبيرى، أو تفضلين أن أناديك بيمبولى؟ كيف حالك؟ ما زلتِ تعملين كالنمل؟".

ما هذه البجاحة! يتصور أن كل شيء مباح. هذا الإنسان الذى تعرفينه بالكاد.

"لماذا النمل؟ فهذه مقارنة حمقاء! وأنت تشبه الطير" وتمتد ضحكة تشير إلى رضائه لسماع صوتك المتوتر.

"رائع فقد وجدتِ النوع الذى أنتمى إليه.. إنك بالقطع تتساءلين عن سبب هذا التليفون.. تصورى أننى أشعر برغبة فى رؤيتك من جديد.. وأنا مندهش لهذا! أريد أن أعرفك أكثر، ما رأيك لو تقابلنا فى حديقة جروبى لنحتسى فنجانًا من الشاى أو آيس كريم؟".

ماذا كان سيحدث لو أنك رفضت هذا اللقاء؟ لو أنك لم تقابليه من جديد؟ ولكنك رأيته – أكثر من اللازم– بشيء من عدم الوعى كنتِ قد سمحتِ لهذا الرجل الذى يكبرك بسبعة سنوات أن ينساب إلى حياتك وأحببته! عندما تستعدين للنظر إلى الوراء تندهشين من قلة إدراكك، من ضعفك أمام كل متطلباته! هذا السطو الذى كان يمارسه عليكِ، والذى دفعك إلى قبول كل شيء وإلى إنكار ذاتك. لا أحد ولا شيء له مكان عند

صلاح وهو يقنعك أن لكِ مكانة مهمة فى حياته "هذا المسكين الوحيد". بمهارة ومزح يطويك صلاح فى ثوب من الإطراء يجعلك تتصورين أنه يحبك، ويريد الزواج منك، وتقطعين علاقتك ببول. تبتعدين عن أصدقائك، وأخطر من هذا تتوقفين عن الكتابة... وقد ابتسم بسخرية بعد قراءة أشعارك: "لو كان هذا يمكنك من قضاء الوقت، ولكن لا تأخذين ما تكتبينه بمحمل الجد" كلمات قليلة جعلتك فى حالة الخواء، وشككتك فى نفسك، والشىء الوحيد الذى تفعلينه هو أن تفضى بشعرك فى يومياتك.

بالطبع يعرف أصدقاؤك- الذين ترينهم قليلاً- بعلاقتك بصلاح ويقبلون هذا الوضع رغم خيبة أملهم؛ بسبب سلوكك الذى لا يتوافق مع شخصيتك وأختك منزعجة جدا من انفصالك عن بول. اكتفت بالقليل الذى تعرفه عن صلاح لتفهم مغزى شخصيته، وهى تشك فى نزاهته وفى صدقه، وكثيراً ما تلتقطين نظراتها وهى مصوبة عليكِ وممتزجة بشىء من الشفقة فهى تشعر أنكِ تعيسة، ومختلفة ولا تجرؤ أن تطلب منك أن تعترفى لها بما يحدث لكِ.

وقد لاحظ محمود سريعًا هذه التطورات التى طرأت عليك، وقد حدث هذا اليوم الذى كنتِ تسيرين فيه فى شارع قصر النيل وأتيت مسرورة؛ لأنك وجدتِ عدداً من مجلة "فونتين" وهى جريدة أدبية تنشر فى الجزائر، وكنتِ قد اشتريتِ حذاء جديداً جميلاً، وتتأهبين لارتدائه مع ثوبك الجديد المشجر؛ فصلاح ينظر دائما إلى ساقيك "أين تذهبين هكذا يا بولى يا جميلة؟" تفاجئين بأنه صلاح: "فأنا أسير وراءك منذ وقت طويل، إنك تسيرين بسرعة يا صديقتى! كنتِ تحلمين بمن أو بأى شىء؟ هل تذهبين إلى المنزل؟ سأرافقك".

أليس هذا طبيعيا؟ كان محمود صديقك الكبير، ولكن لماذا رغم فرحتك بلقائه كنتِ تشعرين بضيق؟ لم تستطيعى أن تقولى له إنك تفضلين أن تسيرى وحيدة؛ لأن صلاح سيتشاجر معك لو حدثته عن هذا اللقاء! ولكن لن تفعلى. تعطين محموداً "فونتين"، هل

تعرف هذه الجريدة؟ يبتسم لكِ، ولكن نظرته تبدو لكِ حزينة. يتصفح الجريدة ثم يعطيها لك.

"لقد سمعتُ عنها، فونتين تنشر فى الجزائر. كثير من الكتاب الفرنسيين قد لجؤوا إليها، مثل ماركس بول فوشيه رئيس تحرير هذه المجلة".

"أنا غير متأكد من شيء نعرف القليل عمًّا يحدث فى فرنسا، بعض المثقفين قد تمكنوا من الهروب من ألمانيا إلى لندن، أو الولايات المتحدة، أو الجزائر، وقد رفض عدد كبير من الفرنسيين حكم فيشييه؛ ويعيشون فى السرية، ويحاولون الكتابة بدون وضع أسمائهم على الكتابات فى مجلات غير دورية، ولكنك تعملين فى جريدة! فأنتِ معلوماتك ممكن أن تكون أكثر منى".

"هذا حقيقى! ولكن ليس لدى وقت أستطيع بالكاد إلقاء نظرة على الصور! انظر ماذا كتب تحت عنوان فونتين: جريدة المقاومة الفرنسية".

"كثير من الناس قد اجتمعوا، ليقاوموا المحتل حتى على حساب حياتهم، وكثير منهم ينتمون إلى الشيوعية...".

يضحك: "سطرى هذا الحديث ديدى! ها نحن قد وصلنا لقد سعدت برؤيتك، عندما تريدين التحدث معى اطلبينى فى التليفون؛ فأنا لا أخرج كثيراً فى المساء؛ لأن الامتحانات على الأبواب".

يد صديقك الدافئة تشد على يدك.

"إلى اللقاء يا محمود، أنا أيضاً كنت سعيدة لرؤيتك.إلى اللقاء" تبتعدين عن نظرته المتأثرة جدا المليئة بالعتاب، كان من الطبيعى أن تقترحى عليه أن يصعد إلى المنزل لاحتساء القهوة، ولكن لم يعد شيئًا طبيعيا معك، وتنزلقين إلى مدخل العمارة مسرعة، وتلحظينه على الرصيف ما زال واقفًا بينما تغلقين باب المصعد. ترفعين يدك للسلام عليه، ولكنه قد استدار هذه المرة وابتعد.

كم هى جميلة يد والدك! الكف واسع، والأصابع طويلة، والأظافر قصيرة ومقصوصة بعناية: "تصورى يا بولى أن والدى ليست لديه ثقة بى" تنظرين إلى والدك، وقد فاجأكِ بهذه النبرة المحبطة، لقد تركتم المنشية منذ قليل، حيث أمضيتم يومًا ممتعًا بجانب جدو، أنتم الثلاثة بمفردكم بدون زوجته أو ابنة زوجته، وقد جلستم فى رحاب شجرة التوت المسنة، وتحدثتم، وأنتم تنظرون إلى النيل الذى ينساب على بعد مئة متر من الحديقة، وتنظران من حين إلى آخر إلى فلوكة، وهى تنساب على المياه اللامعة، بينما تداعب الرياح شراعها، وتعجبين كثيرا بأناقة هذه المركب العريقة، وخاصة عندما يكون شراعها مفتوحًا، وقد سألك جدو عن قراءاتك الأخيرة، وهو يستمع إليكِ الآن بشغف بدون هذه النظرة الساخرة التى كانت تغيظك كثيرًا السنة الماضية فى الصيف عندما سألتِه أن يعيرك مجلدين "فى البحث عن الوقت الضائع" وكان جدك مندهشًا أنك تقرئين بروست، وسألك عدة أسئلة عن أسلوب هذا الكاتب الكبير الخاص ثم أعطاهما لكِ.

أنتِ جالسة بجانب بابا الذى يتحدث وهو واضع يده على عجلة القيادة. من خلال زجاج السيارة تنظرين إلى حقول القطن، والعنب، والجرجير التى تنساب أمامك.

"إنه يعاملنى كطفل! هل سمعتِ كيف أجابنى عندما قلت له: إن أشجار البرتقال لا تعد جيدة، وإن البساتين ليست فى حالة جيدة؟ ماذا تعرف أنت عن الفاكهة فهذا ليس موضوعك! لقد نسى أن لدى شهادة فى الزراعة، وفى النباتات!".

إنه رجل رائع جدك، وتحبينه كثيرًا إنه ملىء بالسخرية، وهو ذو عقل نافذ وملىء بالسخرية، ويعيش مثل الحلزون فى قوقعته محميا تمامًا من صوت زوجته ووجودها المتعب. ويبدو أنه يكتفى بنفسه بين كتبه، وقد ضعف كثيرًا منذ إصابته بالالتهاب الرئوى، ويبدو رفيعًا جدا فى بدلته الأبدية من الصوف الرمادى، وهو يبدو كلورد إنجليزى بطوله، وكتفيه المنحنيتين قليلاً، ووجهه الجميل ذى التجاعيد الرفيعة، ونظرته

الحيوية والماكرة، وابتسامته التى تكشف عن تفاصيل أنه الكبير المستقيم، وجبهته الواسعة التى تنتهى بشعره الأبيض الرائع.

"هل قابلتِ لوردات كثيراً يا بمبولى؟" وقد سألك هذا السؤال والدك يومًا عندما حدثته عن والده.

لقد تضايق كثيراً صلاح عندما أخبرتِه أنك أنتِ وأختك ستمضيان يوم شم النسيم فى عزبة صديق لآل راتب. كنتِ تتوقعين هذا! ولا تستطيعين رفض هذه الدعوة فليغضب بعض الشىء، وليحبط أيضًا مرة إنك تخجلين؛ لأنك تشعرين بالذنب؛ ولكنه يعذبك كثيرا. جاء وقت أن يكون غيوراً! بدون وجه حق؛ لأنك لا تعطينه أى فرصة؛ لهذا تسلكين كما يريد. لمرة تحررت! ما هو الشىء الذى يخيفك؟ أنتِ تعرفين جيداً أنه يحتاج إليك ألم يردد هذا كثيراً لا تشعرى بالتأنيب، فكرى فى الغد فى فرحتك عندما ستلتقين بأصدقائك.

ككل عام، الجو حار فى شم النسيم أليس هذا هو عيد الربيع؟ يأتى جميع أصدقائك الواحد تلو الآخر. تبتهجون، وتضحكون، ويقبل بعضكم بعضًا، وتدوى أصواتكم فى الساحة الكبيرة أمام بيت عائلة ضيفكم وتبدؤون يومكم بنزهة طويلة على ظهر الحمير، وأنتم تعبرون الممرات الممتلئة بالجزوارينا. عند عودتكم تستلقون منهكين وأنتم تشعرون بالحرارة على الفوتيات، بينما تحتسون الأكواب الكبيرة من الليمون. فترة راحة قصيرة ثم أكوام القش الكبيرة الموجودة على يساركم تبدو فى انتظاركم ولحسن الحظ الفتيات يرتدين البنطلونات!.

بعد أن لعبتم وتمرغتم فى القش، تذهبون إلى الحمام؛ يجب أن تتخلصوا من القش العالق بشعوركم وملابسكم، وأن تغتسلوا. أخيراً منهكين وتشعرون بالجوع، تجلسون حول المائدة المغطاة بالأطباق الشهية من البيض الملون، والبصل الأخضر، والفسيخ التقليدى.

"قولوا لى من بينكم يعـرف هـاتين الأميـرتين الجميلتين اللتين رأيتهما لأول مرة منذ أيام" تقولين هذا وتنظرين إلى أصدقـائك وأنتِ ممسـكة ببيضة مسلوقة فى يديك.

"نسليشا وهتزادا" يقول دجيهان كير، وهو يشد على الأحرف: "هما سلطانتان وبنتا فاروق أفندى الذى سيمتطى عرش تركيا يا حبيبتى بمبولى!" تظهر نغزاته وبابتسامته الخبيثة يتابع: "لقد حضرتا للتو. ليس لديهما مليم! ويتمنى أهلهما أن يجدوا عريسين من مستواهما أمراء"

"هذا سيكون سهلاً لأنهما جميلتان جدا!"

"أنا أجد أن الأخت الكبيرة متعالية جدا، وأنفها كبير!"

"نعم ولكن هيئتها رائعة! فخصرها وكتفاها جميلان وهذه البشرة الرائعة وخصوصاً عينيها الخضراوتين".

يقطع كلامك ضحكه ناعمة: "أوف أوف تشعرين؛ فهى متعالية وتسلم على الناس بحركة صغيرة من رأسها وأختها أكثر بساطة منها".

"من النادر جدا وجود امرأة سمراء ذات عيون خضراء".

"ما يعنى عريس لعرش تركيا؟" تسأل ديدى "ومنذ متى يوجد ملوك فى تركيا".

"يااه! كم أنتم جهلة كلكم" يمسح محمود شفاهه: "ديدى على حق لا يوجد ملوك فى تركيا، ولكن هناك سلطان وفاروق أفندى هو الوريث الشرعى لآخر سلطان عثمانى خلعه أتاتورك عن العرش! العثمانليون".

بعد وجبة طعام رائعة تجلسون فى الشرفة الكبيرة التى تمكنكم من رؤية الساحة وفى أعماقها الجازورينا، ويمتطى الكسالى الشيزلونج، ويقومون بقيلولة صغيرة، وأنتِ تنصاعين لمحمود الذى يشير لكِ إلى فوتيل من الخوص بجانبه: "تعالى اجلسى بجانبى

يا بمبولى.. سأغازل بعض الشىء صديقتى التى لم أعد أراها"، ويبتسم ابتسامة خجولة: "حدثينى عن نفسك... ماذا تقرئين الآن يا آنسة؟".

تنظر إليكِ بإمعان العيون السوداء الصغيرة، تبدئين فى التحدث عن قراءاتك الأخيرة، ويستمع إليكِ محمود بانتباه، يؤكد كلامك، ويضحك من تعليقاتك. منذ وقت طويل لم تشعرى أنك مرتاحة إلى هذه الدرجة، وتشعرين بهذه المتعة التى كدت تنسينها بوجودك بين أصدقاء بدون أى ضغوط، وبدون أن تضطرى أن تفكرى فى كل كلمة، وفى كل جملة؛ لأن صلاح يترجمها بطريقته، وكثيراً ما تكون بطريقة سلبية، أنتِ سعيدة بالتحدث مع محمود على الرغم من أنك ترين بعض اللوم فى عينيه.

"هل تكتبين أشياء الآن؟ لاااا؟ خسارة! يجب أن تجدى وقتًا للكتابة، على الأقل ساعة كل يوم".

"أتظن؟ أحاول أن لا آخذ نفسى بمحمل الجد؛ لأن كل الناس تستطيع أن تكتب". "لا تقولين هراء" يشعل محمود سيجارة، ويأخذ نفسًا عميقًا ويحرك بعصبية عود الكبريت المستعمل: "تمزحين؟ تعرفين تمامًا أنك موهوبة. ماذا يحدث لكِ؟ تشكين فى نفسك؟" ويبحث عن طفاية. بماذا تستطيعين أن تجيبى عليه؟ إنه على حق. كنتِ تخشين لو أنه سألك إذا كان أحد ما يؤثر عليك، ويعرف محمود تمامًا من هو منذ هذا اليوم عند "بيجل"، عندما فاجأكِ وأنتِ جالسة مع صلاح لم يُبْدِ محمود أى ملاحظة أو أى لوم لأنك لم تعودى تحدثينه فى التليفون، ولكن هذه النظرة التى تقول الكثير تربكك، وتجعلك تشعرين بالذنب.

"يا بنات" تُعْلِنُ والدتكما فى صباح يوم ما "سأذهب غداً مع مجموعة من نساء الهلال الأحمر إلى إسنا فى الصعيد. فهناك وباء للملاريا يفترس الناس، ويموت الفلاحون مثل البعوض. لا أتصور أننى سأمكث هناك كثيراً. وعدانى أنكما ستنزلان إلى المخبأ عند سماع صفارة الإنذار. لا تعودان إلى المنزل بمفردكما فى المساء؛ لأن هذه مجازفة، ويمكنكما أن تلتقيا ببعض العساكر المخمورين!".

كل زملاء الجريدة لا يتحدثون إلا عن هذا الوباء، وقد اعترف لك "شديد" أنه سمع من مصدر موثوق فيه أن الأدوية المرسلة إلى الصعيد كانت منتهية الصلاحية، وأن أمبولات الدواء لم تكن تحتوى إلا على الماء! وستقص عليكما ماما كيف كانت السيدات والفتيات المتطوعات يذهبن مع الأطباء منذ الفجر؛ لزيارة كل القرى كانوا يسيرون من بيت إلى بيت، ويهتمون بالمرضى، ويوزعون عليهم الأدوية والمؤن.

"خذى يا بولى فهذه بعض الصور للملك أثناء زيارته إلى الصعيد" تنظرين إلى الصور، يمسك فاروق برغيف مستدير، ووالدتك تقف إلى يمينه، بينما صديقتها ليلى تقف إلى يساره، وعشرات السيدات يحطن به، وكلهن يرتدين قمصاناً بيضاء كالمرضات، ويضعن فوق رؤوسهن مناديل بيضاء كبيرة، ويبتسمن للكاميرا. يبدو الملك السمين أكثر طولاً من النساء مرتدياً طربوشاً، وواضعاً فى يده سبحته الأبدية، ويبدو على وشك أن يأكل من الخبز الذى أهدى له.

"هذه والدتك التى تقف إلى جانبه؟ لم أكن أعرف أنها قصيرة إلى هذا الحد، ولكنها جميلة جدا! يمكنك أن تختارى صورة للاحتفاظ بها تذكاراً، وستضعين الصور

الأخرى فى ملف يخص الملك... "يضيف شديد" لا أصدق إطلاقًا هذه الحكاية عن الأدوية المنتهية الصلاحية، إن الفلاحين يموتون من الملاريا لأنهم يعانون من سوء التغذية، فهم يعيشون فقرًا كبيرًا فهذه المنطقة من أفقر مناطق مصر".

لقد تجاوزت الساعة التاسعة عندما يرن جرس التليفون، وتجيبين... إنه هو! فرحة ومفاجأة تبتسمين. مع أنكما كنتما قد أخذتما وجبة الغداء معًا.

"أنتِ بمفردك؟" مذهولة لا تتعرفين على صوته، صوت ذو نبرات غريبة حاد قاسٍ عصبى. هل يتحدث إليكِ؟ لا تفهمين وتسرى رعشة فى جسمك وتجلسين، ويغمرك القلق، وتعرق يدك، وهى تشد على الهاتف، الكلمات القاسية والحادة تخترقك، وتجرحك، وتهينك، وتفسد عليكِ كل مشاعرك وكل نشوتك، وكل ما كان بينكما يبدو وكأنه مُحِى.. كفى! تريدين أن يتوقف عن الكلام. لقد فهمتِ. وقبل أن يتوقف عن الكلام تغلقين الهاتف وتهرولين نحو غرفتك، وأنتِ تبكين. تودين لو أنك كنت مِت، فأنتِ تشعرين بإهانة شديدة، وبجرح قوى، والدموع تملأ وجهك. ولكنك تتوقفين بعد حين عن البكاء، وتبحثين عن أحد للتحدث إليه. لن تجدى أحدًا، صديقتك متفرغة لاستقبالك فى هذه الساعة لوسيان! فإن صديقة والدتك أصبحت أيضا صديقتك، وكنتِ حدثتها عن صلاح.

"لا أنا لست نائمة؛ تعالى أنا فى انتظارك" تذهبين مسرعة نحو ميدان الإسماعيلية، والعمارة التى تسكنها صديقتك توجد بجانب الليسيه، وهى تسكن فى شقة صغيرة، ولكنها جميلة جدا مع زوجها الذى يعود إلى المنزل متأخرًا فى المساء. تلقين نفسك فى ذراعيها عندما تفتح الباب! "اهدئى يا حبيبتى... تعالى اجلسى وامسحى دموعك" تجلسان جنبًا إلى جنب على الأريكة فى صالونها الصغير الدافئ جدا، وتستمع إليك لوسيان، وهى صامتة، وتقصين لها بدون أن تحذفى أى شىء عن تفاصيل علاقتكما، وهى تنظر إليكِ بعينيها الكبيرتين الزرقاوين اللتين تميلان إلى الخضرة واللتين تشعان تفاهمًا وحنانًا، وعندما تنتهين من الحديث تبدأ فى الكلام، ولا

توجد أى نبرة حكم قيمى فى كلامها أو نصيحة. ولكنها تقول لكِ فقط إنك لست أول واحدة ولا آخر واحدة، قام أحد بخداعها، وإنك ستخرجين من هذه التجربة أكثر صلابة، وستعودين إلى الكتابة من جديد: "وخصوصًا لا تعيدى على مسامعى هذه الملاحظة بأنك لا تريدين أن تأخذى نفسك على محمل الجد، أنتِ تعرفين جيدًا أنك موهوبة. ستعانين بعض الشيء، ولكن ستمر هذه الأزمة، إنك تعملين، ولكِ أصدقاء رائعون وعندك قلمك... تعالى عندى كلما تشائين". كنت فى هذه اللحظة لا تعرفين أن صلاحًا كان أسدى لكِ خدمة رائعة، ومكنك من جديد أن تجدى هويتك وحريتك.

وفيما بعد ستسنح لكِ الظروف باستعادة نفسك وثقتك فى نفسك.

الساعة السابعة عندما تدخلين إلى المنزل، وتجدين والدتك على الهاتف. إن وجهها ذا التقاطيع المنقبضة يثير اهتمامك.

تشير إليكِ والدتك بأن تلتزمى الصمت: "تماسك يا حسن لا تهتم بشىء لا تنشغل بشىء أنا آتية" وتغلق الهاتف.

وتعلن والدتك بصوت حزين لقد توفى أنكل "بالطبع جدك. سأذهب إلى المعادى على الفور. كل هذه النساء الأجنبيات لا يعرفن شيئًا عن التقاليد ووالدك منهار هل تريدين اصطحابى؟ تعالى؛ حان الوقت لتعرفى تقاليدنا. اتبعينى فلنحاول أن نجد ملابس سوداء تليق بك".

"إلى المعادى" تأمر ماما سائق التاكسى، تصمتان، وتدخن والدتك، وتحترمين صمتها، وقد انتابك فجأة حزن كبير؛ هكذا قد توفى جدو الباشا! لأول مرة هذه الكلمة الصغيرة تمتلئ بمعانٍ كثيرة مؤلمة. هذا الرجل الذى كنتِ تلقبينه بحنان باللورد الإنجليزى، كان قد انزوى إلى مكان بعيد جدا ليدخل فى ظلام لن تستطيعى أن تريه من جديد فيه... أبدا. لا تملكين الآن إلا الذكريات، كان قد مكنكما من بناء حديقة صغيرة، حديقة يحدها أغصان شجر البامبو. وكنتما قد قطعتما الأغصان الصغيرة، وزرعتماها بأغصان شجر البامبو أيضا، ووضعتما بابا، وكانت ديدى كتبت بحروف سوداء كبيرة على لافتة "احذروا! كلب مفترس"، وبعد أن علقتما هذه اللافتة دعوتما جدو ليأتى ليثنى على عملكما.

"رائع" قال جدو: "ولكن أين هو هذا الكلب المفترس؟" وهذه النزهـات على النيل فى مركب جدو الصغيرة، كنتما تمسكان بالسمك الصغير، وكان جدو يأمركما بإعادته إلى المياه: "ولكن لماذا يا جدو؟ كنا سنعطيه للطباخ، ونأكله هذا المساء"؛ وكان جدو يضحك "لا يا بناتى الصغيرات هذه الأسماك ليست للأكل. فلنعطِها الحرية والحياة!".

"ها هنا توقف" تدخلين فى الحديقة، وتصعدين الدرج بسرعة، وتندفعين بين أذرع والدك الذى ينتظر واقفًا، وتقبلان بعضكما بحرارة. كم تبدو حمراء، عيون بابا! "لا أستطيع أن أصدق هذا" يهمس بابا "ها أنتِ يا صالحة أشكرك؛ لأنك جئتِ سريعًا ماذا علىّ أن أفعل؟".

"لا شىء، اذهبى واجلسى مع بولى فى زاوية ومعك ورقة وقلم، أين توفيق؟ حتى يكتب النعى أرسلوا على الفور إلى الأهرام؛ ليظهر فى الجريدة غداً. أهلا مساء الخير يا توفيق".

الرجل الصغير الأسمر جدا الذى لديه نفس شارب والدك يقبل يد والدتك وهو يبلغها عزاءه "لقد كتبت مسودة، وسأقرؤها على حسن بك. مساء الخير يا آنسة بولى، تعال يا حسن بك سنجلس بجانب هذه الطاولة" تسمعين بآذان شاردة والدك وتوفيق وهما يحصيان أهلك وأقرباءك، وتسمعين الخطوة السريعة لوالدتك وهى تصعد إلى الطابق الأول. هل دخلت إلى حجرة جدو؟ لماذا لا تنادى عليكِ؟ تودين لو كنت ذات منفعة. تودين لو اقتربتِ من بابا، وحوطتِه بذراعيك، وقبلتِه بقوة، ولكنك تخشين أن تنفجرى فى البكاء، وسيؤدى هذا ربما إلى بكائه أيضًا. إن الوسيلة الوحيدة لمساعدته أن تنتظرى فى هدوء. لقد انتهى توفيق من قراءته، وينحنى الآن نحو والدك، ويسأله بعض الأسئلة التى تودين سماعها. فقط كلمة "التغسيل" تصل إلى أذنك. يصعد توفيق إلى الطابق الأول بورقته.

سأرى لو كانت صالحة هانم تحتاج شيئًا قبل الذهاب إلى الأهرام "أكبر جريدة مصرية".

"من حسن الحظ إن والدتك هنا لا أعرف شيئا أنا" توفيق قد نزل الدرج وهو في المطبخ، وتسمعانه، وهو يتحدث مع خادمي جدي، ثم يعود ويقول لبابا: "إن الغسالات ستأتي غداً في الفجر".

وتوفيق ليس لديه إلا الابتدائية، ويعمل موظفًا في كلية العلوم، وله ذاكرة رهيبة، ويعمل مع والدك في معمله، وأصبح يده اليمنى.

"لقد تعلم سريعًا الإنجليزية" يقول بابا: "وخاصة قد تعلم كيف يعلق الحشرات! وهو عمل صعب وحساس، وهو دقيق جدا، ويعرف أسماء البعوض باللاتينية، وهو يساعدني في تنظيمها". وتوفيق قد أخذ مكانة مهمة في الحياة اليومية لراعيه، وقد فعل هذا بسبب امتنانه أو باهتمامه بهذا العمل. ويعمل الآن سكرتيره الخاص.

وقبل ذهابكما إلى النوم تعلن ماما: "لن تحضري الجنازة يا ديدي؛ لأن كل ثيابي ستكون قصيرة جدا عليكِ، وستذهبين غداً إلى الأتيليه؛ حتى تحضر لكِ فيكتوريا جونلة سوداء وسأعيرك قميصاً واشترِ لنفسك حذاء أسود. وسنلتقي على مائدة الغداء. ولكن بالطبع ستستقبلين العزاء معي ومع أختك في بيتنا، وسترتديان السواد لمدة ثلاثة أيام. أنا غير مضطرة أن أقول لكما أن تلغيا العمل والخروج".

في صباح اليوم التالي، وأنتما تجهزان نفسكما، لا يتوقف رنين الهاتف يتساءل الأهل والأصدقاء عن مكان العزاء، ستقودكما هاواش وزوجها بالسيارة إلى عمر مكرم ثم إلى المدافن.

وقد غطت ماما وهاواش شعرهما بإيشارب من الموسلين الأسود، ويركن زوج هاواش السيارة في ميدان الإسماعيلية أمام الصوان الكبير الموضوع بجانب الجامع،

ويذهب للالتقاء برجال العائلة الواقفين أمام فتحة الصوان. وتنظرين بانتباه لأنها المرة الأولى التى تحضرين عزاء. ترين والدتك وأخوات هاواش وهن يدخلن الجامع. لماذا لا تشترك النساء مع الرجال؟ لماذا هذا الفصل الغريب؟ تتركين جانبًا أسئلتك التى كنتِ سألتِها لهاواش إذ كنتما بمفردكما.

وفجأة يظهر ستة رجال يحملون النعش، وقد غطى بقماش من الكاشمير، وعليه وضع طربوش، ويتبعه رجال آخرون وهم يمسكون بسلال كبيرة من الورد، ثم أخيرًا يظهر والدك والحاجب الأول للملك، ورجال العائلة، وشخصيات كثيرة مسنة. وعندما يوضع النعش فى سيارة الأموات يتفرق الناس.

"إلى الإمام الشافعى" ويصعد زوج هاواش إلى السيارة. يمسك أخو هاواش بابا من يديه ويقوده نحو سيارته. وتنطلقان فى شارع واسع يحده قناة قديمة، وتجلس نساء على الرصيف، وهن يبعن أفرع نخيل وورداً، وتبدو من بعيد بعض قباب المدافن. ولكن الترام وأعداداً من البشر المتفرقين يفرضون عليكم أن تهدئوا من سير السيارات.

"لقد وصلنا" تعلم ماما من الجانبين. ترتفع الأسوار العالية ذات الأبواب المغلقة، وهى مدافن تمتلكها بعض العائلات الميسورة.

وعندما تدخل السيارات فى الحارة نرى سيارة الأموات وسيارات أخرى كثيرة مصطفة أمام الباب. يقترب منكم رجل طويل جدا ورفيع ويشد على أيديكم ويعزيكم.

"هذا هو الحانوتى" تقول ابنة عمك إلى اليمين يوجد السلملك، حيث يسكن الحارس وعائلته وأمام بناء كبير أصفر ذى أبواب مفتوحة ترين الورد الوردى، ونخلة، وتكعيبة عنب، ويقوم والدك وأولاد عمك وتوفيق الذين يجلسون على كراسٍ من الخشب

عند رؤيتكم؛ يصفو وجه والدك الحزين كأنه اطمأن عندما يرى ابنة عمه، وتستمعون إلى أصوات الفقهاء مصطحبة بضربات قوية وعنيفة؛ فقد بدأوا بالتغطية بالتراب الثقب الأسود الكبير الذى يقف فى مدخل التربة الموجود فيها جدك ابن أول أفلاطون. وقد لمحتِ رجالاً ينزلون، ويختفون مع النعش "أنتم الداخلون هنا اتركوا كل أمل". يصعد الرجال من جديد يحمل الرجل الأول خدادية، وغطاء، وقماش الكاشمير الكبير الذى كان يغطى النعش. يمر من أمامكم ويختفى مع الآخرين، بينما يرتل الفقهاء صلاة الأموات تدخلون فى تربة العائلة، وتعطى والدتك أوامرها تقتربين من والدك، وتحيطينه بذراعيك. انتهى! جدى الباشا قد دفن! فهذه الصورة الموحشة التى ترينها أمام عينيك تجعلك ترتعشين، وتنظرين إلى والدك، وقد أحسست بالاختناق وبالألم؛ فهو يشبه طفلاً ضائعًا وفاقداً الاتجاهات ويبدو كتفاه العريضتان منهارين من وطأة الحزن.

تقرئين الفاتحة فى صوت منخفض، وتنظرين إلى النعشين المصنوعين من الرخام الأبيض ويعلوهما لافتة عليها طرابيش، وقد كتب عليها كلمات بالذهب: "إنه أول أفلاطون، والآن سنكتب اسم الباشا" يقول لكِ توفيق فى أذنك "تعالى"، تتبعينه نحو عمق القاعة الكبيرة المغطاة بسجادة واسعة فى مواجهة النعشين الأولين، إلى يمين الباب يوجد نعش آخر، ولكن يافطته عليها شريط ذهبى.

"هنا تمكث النساء" يتابع توفيق "كلهم من الأفلاطون، زهرة هاتان بنتاها".

"إن جسد جدكما" ستشرح لكما ماما أثناء الغداء "قد وضع بجانب جسد والده حسن باشا فى كفنين وفقًا لتعاليم القرآن، إن الرجال موضوعون فى ترب تدخل بعد نزول بعض الدرج، وهم منعزلون عن النساء... لم أكن أتصور قط أن والدكما سيحزن إلى هذه الدرجة، وأنه كان يحب إلى هذه الدرجة والده...".

تستقبلون لمدة ثلاثة أيام الأهل والأصدقاء الذين يرتدون السواد مثلكم، أسراب من الغربان... فى اليوم الثالث بعد رحيل آخر زائر تحرركما ماما من السواد: "إن والدكما موافق ألا ترتديا الأسود فهذه عادات وليست تعاليم دينية، وطبعًا غدًا فى الصباح كل واحدة تبدأ فى عملها!".

"كأن والدى كان يشعر أنه سوف يموت" يعترف والدكما بحزن: "تعرفان ماذا طلب منى منذ أسبوع فقط أن أهتم بأرضه! إن المحصول كان سيئًا لدرجة أنه لم يربح شيئًا".

-١٢-

تتعاقب الأيام والشهور ببطء، تكتشفين سذاجتك التى تقترب من الحماقة وترينهم تحت ضوء قاسٍ وتظهر لكِ العلاقة الغريبة التى قمتِ بها مع هذا الرجل، وأنتِ الآن بسبب وعيك الذى عاد لكِ تستطعين أن تحللى الأشياء وبصرامة شديدة تدفعين بصلاح فى أعماق النسيان.

وقد عاد مُعين إلى مصر وهو الأخ الصغير لصديقة والدتك مع عدد من زملائه كانوا يدرسون فى فرنسا وهم فى سن الثلاثين أو الثانية والثلاثين، مثقفون ويقصون عليكِ حياتهم فى باريس المحتلة، الألمان والمقاومة، وقد أحضر لكِ معين كتبًا أرسلها لكِ صديق تاتى، منها "طريق الحرية" الذى تقرئينه بشغف تكتشفين أيضا أراجون واليوار وتتذكرين كيف أن التلمسانى قد أعطاكِ جريدة ظهرت فيها هذه القصيدة الشهيرة "حرية" وأن صلاح استهزأ من هذه القصيدة ولم تجرؤى أن تعترضى لأنك ارتبكتِ! ما هذا الأحمق! مع أن هذه القصيدة الجوهرة ذات البناء الجديد بالنسبة إليك كانت قد أبهرتك وتقرئينها من جديد اليوم وتتعرفين بمتعة كبيرة على تيار السريالية.

لقد مضى عام تقريبا منذ أن خرج صلاح من حياتك وقد شفيتِ، تماما! تنظرين إلى هاتين السنتين والنصف، التى دخل فيها حياتك رجل لئيم وملتوٍ وكاذب ولعب بك كخبرة مؤلمة يجب أن تستفيدى منها وتخرجى منها أكثر نضجاً وأقل هشاشة، تلتقين بأصدقائك وتستمتعين بالزمالة، وخاصة تكتشفين من جديد حرية التفكير والحركة وسعادة الحياة! كل ما كان حاول- باستماتة- أن يدمره فيك يظهر من جديد متحرراً وتبدئين من جديد فى الكتابة.

فى الوقت نفسه تتابع الأحداث التاريخية المهمة العالمية. إن الألمان على أبواب مصر والإسكندرية ويسرى القلق وصولاً إلى الخوف فى أعماق المصريين. ولكن هناك أقلية صغيرة مسرورة، ولكنها غير واعية بالتبعات فهم يتمنون وصول الألمان لأن كرههم للإنجليز يعميهم. وأنتِ متأملة تستمعين إلى أصدقاء والدتك الذين يتناقشون أثناء العشاء "إذا دخل الألمان واحتلوا مصر وطردوا الإنجليز ماذا سنكسب؟"

"إن هتلر قد غير بلده وجعل منها قوة عظمى، والمصريون محتاجون ليد قوية لحكمهم".

"يا للهول سنضطر إلى التحدث بالألمانية! ولا تنسوا أن الألمان نازيون وهم يؤمنون بأن الجنس الآرى أفضل، سيحاولون التخلص من المصريين واليهود. والدتى مصرية وأنا ليست لدى أى رغبة فى أن أعذب أو أن أسجن" هذه الآراء تبدو لكِ غير منطقية. إن القليل الذى عرفتِه عن طريق أصدقائك جعلك تخافين جدا من العنصرية ومن عداء السامية الذى يفتخر به الألمان، رغم كرهك لمحتل بلدك إلا أنك تتقبلينه رغم هذا. إنجى ليست هنا الليلة، وكنتِ تودين أن تعرفى وجهة نظرها.

فى الجريدة تبدو الوجوه مضطربة والابتسامات شحيحة. إن عملاً دءوبا غنيا يملأ الجريدة. فى كل مرة يُفْتَح باب مكتبكما أنتِ وشديد ترفعان رأسكما: "هل هناك أخبار؟"

"لا شىء! ليس بعد!"

تتركين المكتب فى نحو الثانية عشرة والنصف ظهراً حتى تصلى إلى محلات هانو قبل وقت الإغلاق تريدين شراء هدية لإنجى التى يوافق عيد ميلادها غداً. وأهلها فى غاية السعادة: "إن والدتى تغنى باستمرار باللغة الألمانية" قالت صديقتك وكانت تذكرك أنها تنتظرك فى الغد.

"إننى على وشك الجنون" المسكينة إنجى تشعر بالضياع منذ رحيل فيليب.

فى نحو الساعة؟؟ جرس طويل يدوى. ماذا يريد المدير؟ ماذا يحدث؟ يهرول الأستاذ نحاس وعبده فى الممر ويدفعان الأبواب: "النصر! النصر! إن الألمان قد استبعدوا! إن جيش مونتوجومرى قد انتصر عليه!... مبروك!"

بسعادة شديدة تدفعين أنتِ وشديد كرسيكما إلى الخلف وتخرجان إلى الممر للالتحاق بالمحررين والموظفين بعضهم يصفق والآخرون يقبل بعضهم بعضاً.

هل هذا حقيقى؟ الخبر مؤكد؟ الحمد الله! إن المدير أعلن أن الخبر من مصادر موثوق فيها وهو يكتب الآن افتتاحيته".

عندما تعودين إلى المنزل فى وقت متأخر تحدثك إنجى على الهاتف: "من المستحيل أن أحتفل بعيد ميلادى لو رأيتِ ما حدث لوالدى! كأنَّ أحداً مات فى بيتنا!"

ستالينجراد! كلمة كتبت بدماء الرجال الذين دافعوا عنها. إنها صورة عظيمة للبطولة وللشرف وللكرامة. إن مقالات الصحافة الأمريكية تصف هذه الملحمة الرائعة لسكان المدينة. تراجع الجيش الألمانى يجعل الجميع فى المكتب فى حالة انطلاق.

"إن جلال بك يطلب صوراً لفان باولوس ولستالين يا مدموازيل بولى".

"خذى يا بولى، أعلمى المدير بالمقالات المنشورة فى هذه المجلات لم تتح لنا الفرصة بعد لتنظيمها... هذا رائع.. فهذه المعركة استمرت أكثر من عام! كم من المعاناة ومن التضحيات من جانب الروس!".

"ومن الاستمرارية" تضيفين وأنتِ ترتعشين وتجهزين ملفًا كبيرا تعطينه لجلال بك.

"أشكرك يا آنسة ضعى كل شىء على مكتبى إن نصر ستالينجراد مهم جدا وممكن أن يكون حاسماً".

بدأت فى القراءة من جديد بشغف تشيكوف، موباسون، باتريك، مينسفيلد، الذين يُعَرّفونكِ على فن القصة القصيرة. وهيمنجواى أيضًا فى "لمن تدق الأجراس" الذى أبكاك. وتحبين رامبو أبولينيير. إن أيامك مشغولة جدا ورغم عملك فى الجريدة تلتقين كثيراً مع محمود ومعين وصديقات عند بيجيل. كل أصدقاء معين ما عداه قد حصلوا على الدكتوراه وتزوجوا من فرنسيات ويحكون لكِ حياتهم فى باريس المحتلة وحذر التجول والبرد والجنود الألمان الذين يتتبعون اليهود بمساعدة متواطئين فرنسيين.

النقطة الأخيرة. بتنهيدة رضا تنظمين الصفحات الست التى كتبتِها بخط كبير، باستثناء الشطب والفراغات بين الفقرات فإن عدد الصفحات المكتوبة سيكون أربعًا. لم لا؟ وأنتِ شغوفة بقصص كاترين مينسفيلد القصيرة. إن بساطة كتابتها والتمرس الشديد الذى تقص به الدراما عن طريق لقطات سريعة والجو الحزين أو السعيد الذى يحكى حياة شخصيتها تبدو لكِ رسومًا مائية رائعة. هذا الصباح وحيدة فى غرفتك وقلمك فى يدك أمام ورقة بيضاء حاولتِ أن تبعدى ذكرياتك. هل أنتِ قادرة حقًا على الكتابة؟ لماذا لا تحاولين أن تدخلى فى شخصية أخرى بأن تحكى عن حزن فتاة انتهى حبها.

لقد تزوجت توبسى من مهندس ظريف وأنيق يدعى ريمون ويندستاين فى المعبد اليهودى فى القاهرة، وهو مدير شركة كبريت حماة.

تريدين أن تقدمى هدية لديدى بمناسبة عيد ميلادها الذى سيقع بعد ثلاثة أيام.. كتاب! ولكن لكى تهتم به أختك يجب أن يكون مؤلفه روسيا أو شيوعيا، وقد أشار عليك التلمسانى أن تذهبى لمكتبة "الرون بوان". تدخلين وتلقين نظرة على الكتب المرصوصة على الأرفف. "الإمبريالية، المسألة الوطنية، رأس المال، تاريخ النظريات".

"هل أستطيع مساعدتك؟" الصوت المنخفض وكأنه مبطن قد قطع بحثك ينظر إليكِ من وراء نظارته بنصف ابتسامة شابٌ رفيع وكبير ذو كتفين منحنيتين قليلاً.

"نعم يا أستاذ. هل أجد عندك روايات لروائيين روس؟" يستمر فى النظر إليك ويفرك يديه وهو يومئ برأسه، ويقول بصوت أجش: "بالطبع تعالى انظرى هنا... تولستوى ودوستويفسكى وتشيكوف وجوركى..".

"آه أرى أن لديك الأم لمركسيم جوركى. أظن أنها ستكون سعيدة بهذا الكتاب".

تتصفحين الكتاب بينما يفرك الشاب يديه من جديد. غريب هذا الرجل كأنه قس!.

"هذه هدية؟.. لأختك! أنتِ تشبهينها.." وتتوجهان نحو الخزينة وتدفعين وتخرجين مسرعة من المكان وأنتِ مرتبكة لإحساسك بعيون هذا الرجل التى تتبعك فى ظهرك.

"ياه! شكرا يا بولى!" تبتهل أختك عندما ترينها الكتاب.

"وجدتِه فى الرون بوان أليس كذلك؟" وهى تضحك ثم ترفع كتفيها عندما تصفين لها هذا الرجل الذى تسمينه القس.

"بالطبع أعرفه بالطبع إنه هنرى. هنرى كورييل".

تلتقين مع فنانين من أنصار "الفن المستقل" وهذا يأتى فى نفس الوقت مع اكتشافك للسريالية. فى محيط بولا وهى الرفيقة الجميلة لجورج. تلتقين بشعراء وروائيين، مثل ألبير قوصيرى وهم فنانون سيشقون طريقهم فى مصر وفى فرنسا. وهم يتبنونك ويقترحون عليكِ أن تلتقى بهم كثيراً بدون أختك الذين يحبونها كثيراً. أصدقاؤك الجدد الأكبر منكما سنا، ولكنها أعلنت أنها لا تحب أن تعاشر هؤلاء التروسكيين.

تسمعين بشغف الانتقادات ووجهات النظر التى يتداولونها على الشعراء والمخرجين والأفلام.

ماذا تفعلين فى هذه الجريدة؟ وقع السؤال عليكِ فجأة فى مساء ما. إن قص مقالات ليس لديك وقت لقراءتها ولصقها وتنظيمها يبدو لكِ عملاً شاقاً، وليس لديك وقت

للكتابة إلا فى أيام الأحد، وتشعرين أن هذه الخبرة التى أمضيتها فى هذه السنوات الثلاثة كافية. وتقررين أنك سوف تتركين الجريدة.

لا تبدو والدتك متفاجئة من هذا القرار، وتبدو راضية عنه وهى فى حالة مزاجية جيدة جدا هذه الأيام. وقد وصلها خطاب من تاتى مضى شهر على إرساله!

"لدى تاتى رغبة كبيرة فى أن تراكما وقد مرت بأوقات صعبة جدا. لقد اشترت دراجة لتذهب إلى الضواحى لشراء احتياجاتها وتأمل أن ينتهى كل هذا فى القريب العاجل".

أنتِ جالسة بجانب محمود وعددكم اثنا عشر شخصا حول المائدة للاحتفال بعيد ميلاد صديقة وقد دعاكم زوجها إلى "الرومانس" وهو الكباريه الجديد الذى يرتاده الجميع. فلديه أحسن أوركسترا فى الإسكندرية وأنتم مشغولون بتقطيع الجمبرى العملاق ولا ترقصون وتتحدثون ثم فجأة يصعد مدير المكان فوق المنصة، يشير إلى المايسترو الذى ينزل عصاه بينما يتوقف الموسيقيون وهم مذهولون عن اللعب: "سيداتى سادتى" يكسو وجهه تعبير غريب: "أنا.." ماذا به ولكنه يعلن: "لقد تحررت باريس! لقد تحررت باريس!" بمصاحبة كل رواد المكان تقومون وتصفقون وتصرخون: "تحيا فرنسا!" وبعض الناس تبكى ثم يبدأ الأوركسترا فى عزف السلام الوطنى الفرنسى. تقفون جميعكم وترددون النشيد الوطنى، وبعض الناس الذين لا يعرفون الكلمات يصرون على الغناء. تمسحين بسرعة دمعة قد انسابت من عينيكِ، وقد انقلب شأنك. ويحيط محمود بكتفيك: "مبروك يا بولى! مبروك" يقولها بصوت مخنوق بسبب المشاعر.

ماذا تفعل تاتى اليوم؟ كم ستكون سعيدة. إن صورة الغرفة الكبيرة ذات الأغطية البيج والحمراء تتلألأ فى رأسك. بالطبع تبكى من الفرحة تاتى وأنتِ تبكين بسهولة مثلها. شارع فيكتور هيجو والأتوال... هل هناك بشر فى الشارع؟ ناس يغنون؟

"رائع! أن السلام يقترب" ويرفع محمود كأس الشمبانيا: "فى صحة تحرير فرنسا! فى صحة السلام!".

"من يعرف؟ يمكننا قضاء إجازتنا فى العام المقبل فى باريس،،".

أردتِ أن تقرأ لوسيان قصيدة كتبتها الليلة الماضية. وقد كتبتها دفعة واحدة. تشربين القهوة وتنظرين إليها؛ فهى تقرأ باهتمام تضع الأوراق على المائدة وتبتسم لكِ: "قصيدتك جيدة يا بولى لا تلمسينها! هل تستطيعين أن تتركى لى نسخة؟ سيأتى جورج عندى هذا المساء وأود أن يقرأها".

تحدث الأشياء سريعًا، بعد ذلك يتحدث معك جورج على الهاتف ويقول لكِ إن قصيدتك جيدة وإنها تستحق النشر، وبعد شهر تشترين جريدة "المارسييز"، وتكتشفين فى الصفحة الثالثة "الرجل الذى فاته القطار" مع إهداء إلى جورج حنين، والقصيدة منشورة باسمك، وأنتِ الآن أكثر ثقة بنفسك، وتكتبين بانتظام أكثر، ستعطين قصائدك الجديدة لجورج الذى يقرأها، ويشجعك.

عادت أخيرًا ماما، وتنتظران بشغف أن تحدثكما عن تاتى، وقد أمضت أكثر من شهر بجانبها، وكعادتها لا تحكى إلا عن صحة خالتكما.

"فهى فى صحة جيدة وجميلة كالعادة! ولكنها أكثر نحافة على الإطلاق. بالطبع لم تكن تأكل على شهيتها، وقد سألتنى آلاف الأسئلة عنكما، وسعدت جدا لأن بولى تركت عملها وتقترح عليكِ أن تأتى إلى باريس ستسكنين معها، وتستطيعين أن تلتحقى بمحاضرات حرة عن الأدب فى السربون. فكرى جيدا قبل أن تقررى".

لقد بدأ قلبك فى الخفقان سريعًا، هل هذا ممكن؟ أن تعيشى عامًا أو عامين فى باريس. ترين نفسك منذ الآن فى أستوديو تاتى فى هذه البناية القديمة أمام برونييه

كلية الآداب؟ نعم! أن تثرى نفسك، أن تشبعى هذا العطش للمعرفة، وأن تحسنى من هذه الثغرات الكثيرة، أن تبعدى عن مصر، وأن تغيرى حياتك وتغيرى من الأشياء حولك، وأن تتعرفى على باريس ما بعد الحرب وعن وجوه جديدة. أن يكون لكِ أصدقاء جدد وربما مغامرات جديدة. فستكونين أكثر حرية، وتعرفين تماما أن تاتى ستعطيك حرية أكثر من والدتك. ليس فى نيتك أن تفكرى لقد قررتِ بالفعل. منذ هذا الوقت أنتِ على سفر ونوع من النشوة السعيدة تسكنك، وهذه الأحداث التى ستأتى فى حياتك قبل سفرك ستبدو لكِ بدون أهمية، وتتمالكين نفسك بصعوبة وتعدين الأيام التى تتوالى قبل أن تعرفى تاريخ سفرك.

"على الأرجح فى نهاية أبريل أو بداية مايو" قالت والدتك: "لن أستطيع أن أنشغل بالإجراءات قبل أن أقدم مجموعتى الجديدة".

ستسافر إنجى إلى موسكو بمصاحبة رفيقتين ستمثلان مصر فى أول مؤتمر دولى للمرأة، وتقاوم أختك بصلابة وحسم شديد كل اعتراضات والدتكما ووالدكما ورغم حنقهما منها، تَحيكُ ماما لها بالطو سميكًا لمواجهة الجو فى روسيا.

كالمعتاد إن عودة أختك ورفيقتيها كان ملحميا، وقد استجوبهم بوليس الميناء طويلاً بعد تفتيش حقائبهن، وبعد أن صادر الضباط الكتب والمنشورات. ومن المرجح أنه منذ هذا السفر الأول لإنجى إلى خارج مصر أن أصبح اسمها فى القائمة السوداء للبوليس السياسى. وستقص عليكِ إنجى وهى تضحك "هذه المغامرة". وستحكى لكِ بحماس عن جمال الكريملين وموسكو وشخصيات عظيمة قد عرفتها فى المؤتمر، مثل مارى كلود فايون كوتربيه التى نجت بأعجوبة من فظاعة أوزفيتش، والرائعة مدام كوتون التى تحدثت معها طويلا أختك، وهى تعترف بزهو وفخر أن كلمتها صفق لها بشدة، وأنها هى ورفيقتاها كانتا أصغر المشتركات. وتريك بعض صورها مع مدام كوتون ومشتركين من بلاد أخرى. وهذه الصور كانت نجت بأعجوبة من تفتيش العسكر.

تقابلين كثيراً جورج وأصدقاءه وتذهبين إلى السينما وترين أفلامًا بديعةً. مع نهاية الحرب قاعات السينما فى القاهرة تعرض أفلامًا فرنسية وإيطالية، مثل "روما مدينة مفتوحة وريتزو أمارو وسيوشيا وأولاد الجنة" سيعرض أيضا "ذهب مع الريح" الذى عرض فى سينما مترو لمدة ثلاثة أسابيع، وأنتِ متحمسة لهيلزا بوبين، وبالطبع لسيتيزن كين الذى يمثله أورسون ويلز! ولن تستطيعى أن تريه من جديد. هذا الفيلم سيعرض أسبوعًا فقط؛ لأنه لم يعرض على الجمهور!

"طريق الحرية" يعرض لباريس مظلمة، حيث يسود البرد والجوع والخوف ويصطحب كل هذا أصوات الأحذية الألمانية على الأرصفة.. وبينما كانت فى القاهرة الحفلات الراقصة تتوالى فى جو من اللاوعى، كانت معسكرات التعذيب تمتلئ باليهود. وكانت تمتلئ بملايين اليهود، ولكن أيضا بالمقاومين والشيوعيين، وتقرئين فى هذه الأثناء أليوار وأراجون ولوركا وروبار ديسنوس الذى مات قبل التحرير.

تكتبين الأشعار ويقرؤها جورج، وتستمعين إلى رأيه وتوجيهاته.

-١٤-

أخيراً حصلت ماما على جواز سفرك، وحجزت لكِ تذكرة على باخرة. أية باخرة؟ والمكتب الذى يحجز التذاكر يعطى الأولوية لسفر قوات الحلفاء الذين يعودون إلى بلادهم، ويَبْقى عدد قليل من الأماكن للمدنيين، ولا يستطيع أن يعطى الآن المكتب تواريخ رحلات السفر.

"لقد طلبوا منى أن نكون مستعدين فى آخر أبريل تقريباً أو بداية مايو"، ووالدتك التى تفكر فى كل شىء أتت بكِ إلى الأتيليه، واختارت مع مساعدتها الأولى جهازاً كاملاً لكِ. لأنك سعيدة للغاية تتحملين بصبر الجلسات الطويلة لقياس الملابس. ولقد زاد وزنك، ولكن هذا جميل عليك.

وتملأ ماما حقيبتين صغيرتين لتاتى تضع فيهما المكرونة، والأرز، والدقيق، والسكر، والخضار المجفف، وعلب اللبن المبستر، وشوكولاتة من عند جروبى، وملبساً، وحلويات أخرى.

أين كانت أختك أثناء المظاهرات الكبيرة فى ٢٦ فبراير ١٩٤٦؟. كانت والدتكما تحدثكما بالهاتف من الأتيليه؛ لتطلب منكما ألا تغادرا المنزل، ولم تجرؤى أن تقولى لها إن إنجى فى الخارج. عند اقتراب الساعة الثانية عشرة ظهرا نادت عليكِ إيرينى لتأتى إلى الشرفة؛ لرؤية المجاميع الكبيرة التى ملأت ميدان الإسماعيلية. وقد أخافتكما طلقات النار التى بدأتما فى سماعها فغادرتما الشرفة، وأغلقتما الشبابيك. كنتِ قررتِ ألا تنزعجى بشأن أختك، وعدتِ إلى عملك. هل كنتِ تستطيعين أن تفعلى شيئا آخر؟ .

لم يسنح لكِ الوقت لسؤال إنجي. لقد جاءت فى الثامنة بشعر منكوش وملابس متسخة، واتجهت مسرعة إلى الحمام، بضع دقائق قبل عودة ماما، وقد استطاعت أن تقول لكِ أختك سريعا قبل أن تبدل ملابسها: "حذار أن تقولى لماما إننى قد أمضيت اليوم فى الخارج".

كالعادة ستعرفين عن طريق مناقشة أصدقاء والدتك على مائدة الطعام ماذا يجرى، وترسم تعليقاتهم ابتسامة ساخرة ومتعالية على وجه أختك الجميلة.

"طلبة متوترون.. وكان الناس الشعبيون يهتفون معهم.. بالطبع كان هناك جرحى كثيرون.. لقد أطلق الإنجليز النار على الشباب... ثم أعطوا أوامرهم لفتح الكوبرى! شىء فظيع على كل حال! عدد كبير مات.. أنا أعرف من مصدر موثوق فيه.. ضد الإنجليز!".

"أرجوك يا بولى اتركينى، أنا متعبة جدا أريد أن أستريح وأنام، وسوف أخرج فى الصباح الباكر، ولا أعرف الساعة التى سأعود فيها قولى لماما: إننى سأمضى اليوم عند أوديت" تختفى أختك، والساعة تدق الثامنة! بدون أى شرح. مضى وقت طويل، وأنتِ لم تعودى تندهشين من أفعالها وتحاولين أن تتفادى المشاجرات والكلمات التى تجرح. وإذا كانت إنجى تعرف كل شىء عنك فهى لا تتحدث كثيرا عن نفسها.

تجلسين أمام مكتبك، ولكن قبل أن تبدأى فى العمل عليك أن تُهَدِّئِى من روع إيرينى المنزعجة جدا من خروج أختك.

"هذا عدم حرص! كان يجب منعها من الخروج.. ماذا ستقول صالحة هانم لو عرفت أن...".

"أرجوكِ يا إيرينى لا تنزعجى، واتركينى أعمل، وإذا سألتك مامى أين إنجى ستقولين لها: إنها ستأخذ وجبة الغداء عند صديقة"، ولكنك تركزين بصعوبة. ماذا يحدث بهذه الخطورة لكى تختفى أختك لمدة يومين متتالين؟ تشعرين بغموض، إن

هناك أحداثًا جسيمة تحدث، وأنتِ تحلمين بهدوء بعيدة عن كل شـىء من برجك العالى.

تدخل إنجى غرفتكما، وأنتِ متفاجئة وشعرها منسدل، ومليئة بالعرق ، وهى تبتسم، والساعة تقترب من الخامسة.

"هل سمعتِ طلقات النار؟" وتخلع ملابسها: "بالطبع [illegible] حدث فهى مظاهرة رهيبة. وهؤلاء الأوغاد قد أطلقوا النار مرة أخرى علينا، وقد جريت مع الأصدقاء، واختبأت فى محل فى الوقت المناسب عندما كان البائع يغلقه. كان يجب أن ترى وجه هذا الرجل المسكين! اضطر أن يتركنى فى الداخل، وكان ظريفًا جدا، وأعطانى خبزًا، وجبنًا أبيض. وانتظرنا أكثر من ثلاث ساعات، وقد خرج البائع فى البداية، وأشار لى أننى أستطيع أن أخرج. كل شىء كان هادئًا ولا بوليس حولنا؛ هكذا استطعت أخيرًا أن أعود إلى المنزل سآخذ حمامًا جيدًا".

"أنتِ مجنونة يا ديدى، وإذا كنتِ قد أصبتِ. يا إلهى! هل تتصورين ما كان سيحدث لكِ!"

تبدئين بالانزعاج الشديد، ثم تهدئين أمام حالة أختك المبتسمة التى جازفت بحياتها! لماذا؟ لمن؟ تعبر أختك عن نفسها بحماس كبير: "كنا ملايين. عمالاً، وطلبة، وأساتذة، وشيوخًا، وقساوسة، كان ميدان الإسماعيلية مليئًا بجموع الناس. وكنا نعترض على هؤلاء المجرمين الذين قتلوا بالأمس شبابًا؛ عندما أمروا بفتح كوبرى عباس... لا تقولى أية كلمة لمامى، وخصوصًا لا تأخذى هذا الشكل المنزعج يا بولى فأختك الصغيرة أمامك وهى حية ترزق" وتقبلك إنجى، وتأخذينها بين ذراعيكِ.

يدعوكما أصدقاء كثيرون على العشاء؛ بمناسبة سفرك، وأختك تصطحبك، وقد اعترفت لكِ أنها ستشتاق إليكِ. توبسى وزوجها، وليلى، ومحمود وأخيرا غداء كبير فى الجيزة فى الفيلا الجميلة لطنط نائلة، وقد نجحت منى فى جمعكم جميعكم. على النجيلة

الخضراء الواسعة تتحدثون وتمزحون وتأخذون صوراً عديدة، وهى ربما المرة الأخيرة قبل سفرك التى سترينهم.

لقد سافرت ماما بالطائرة إلى باريس؛ لتأخذ إجازة قصيرة قبل مجموعتها الصيفية، وجهزت كل شيء لكِ حتى حقيبة خفيفة ستضعينها فى كابينة الباخرة، وتحتوى على كل ما ستحتاجينه خلال الأيام الأربعة فى الباخرة، وقد بدأتِ تفكرين أن الشركة البحرية قد نسيتك، وعندها تحدث معك موظف بعد سفر ماما بأسبوع؛ ليعلمك أن الباخرة ستغادر بورسعيد يوم ١١ مايو!

أخيراً! لديكِ فقط بعض الوقت لوداع والدك، وللحديث فى الهاتف مع أصدقائك. توشكين ألا تنامى على الإطلاق؛ لأنك مليئة بالتوتر والسعادة، وقد قال لكِ بابا إنه سيمر عن طريق باريس فى يونيو قبل سفره إلى الألب.

"ولكن لا تكونى كسولة يا جلبيرى واكتبى لنا".

ستأتى أيضا إنجى إلى باريس؛ لتمضى بعض الوقت قبل ذهابها إلى براج.

"أنا عضوة لوفد من الشباب سيمثل مصر فى أول مؤتمر دولى للشباب". فى ليلة سفركِ تظهر لوسيان، وتسلم على بعض الأصدقاء الذين جاءوا ليقبلوك من جديد قبل سفرك، ويعطوك بعض الهدايا.

"أنا أمر فقط وأحضر معى هدية لصديقين حميمين جدا، وهما الأجيون، إنهما زوجان رائعان أحبهما وأقدرهما كثيراً، وسأرسل إليهما لمبة زيت قديمة قبطية. هذه هى نمرة هاتفهما وعنوانهما؛ ستكون هذه فرصة أن تتعرفى عليهما؛ أنا متأكدة أنكما ستتفقان، فهما مثقفان وذكيان ولطيفان جدا. إلى اللقاء يا حبيبتى!"

لن تسافرى بمفردك؛ فشريفة وزوجها محرز، وهو جراح معروف قد أعلنوا أيضا عن طريق شركة الملاحة.

"سيكون هناك أيضا ابن خالنا تينا وزوجته" تقول لكِ شريفة على الهاتف "فلنلتقِ إذن فى المحطة الساعة الثامنة يوم ١٠".

عندما يراك أصدقاؤك فى المحطة بحقائبك، وأربع حقائب صغيرة، يرحبون بك بابتسامات ساخرة فهذه الحقائب لطالبات شابات واحدة منهن لسارة وهى صديقة لوالدتك، وواحدة لجوليت ألوان وهى صديقة لأختك.

"لا ترفضى لى هذا" قالت إنجى قبل بضعة أيام من سفرك "لقد طلبت جوليت مؤنًا لعائلتها فهى تتضوع جوعا فى المدينة الجامعية أرجوكِ أسدِ لى هذه الخدمة الصغيرة.."

يتحرك القطار ببطء، وتختفى رويداً وجوه الذين جاءوا إلى المحطة للسلام، تجلسين منفعلة، حلقك مختنق، وتتساءلين إذا كنتِ أنتِ بالفعل التى تجلس فى هذا القطار. لا تفكرين إلا فى باريس، وفى الوعود التى ستقدمها لكِ. والحلم يبدأ بصوت الإطارات على القضبان.

(٨)

باريس

-١-

باريس! أخيراً! الساعة السادسة صباحاً. من الشباك أرى جسد معين القصير الذى يحاول أن يتعرف علينا، أشير إليه وأنا أقفز من الفرحة، كأنى طفلة صغيرة.

يبدو مُعِين مندهشاً من عدد حقائبنا وحجمها ويزمجر حامل الحقائب ولكن يصبر؛ لأنه يعرف أنه سيأخذ بقشيشاً جيداً.

"اذهبوا وانتظرونى فى الفندق، سأوصل بولى لمساعدتها!" ينظر إلىّ معين نظرة ساخرة "أنتِ تعزّلين؟" ندخل فى التاكسى "١١ مكرر شارع فيكتور هيجو من فضلك". هذا العنوان يجعل قلبى يقفز من الفرحة، ويؤكد وجودى فى باريس. أنا لا أحلم.

"ها أنتِ يا جلبيرى! سعيدة؟" يأخذ معين يدى ويقبلها بظرف "ستلفتين النظر فى باريس إلى أقصى درجة بشعرك الأسود وعيونك السوداء".

أضحك خجلة "أنا وجهى ملىء بحبوب الشباب.. هذا فظيع! شريف وزوجها سيقصان عليك أن رحلتنا كانت ملحمة بكل معنى الكلمة!" قوس النصر! أنظر إلى قوس النصر بسعادة غامرة، وأنا أراه يصبح أكثر كُبْراً باقترابنا منه: "كم الساعة الآن؟ السابعة وأكثر... هل تتصور أن تاتى مستيقظة؟"

"ها نحن يا أستاذ فى المكان المناسب. أظن أنها لم تتم. انزلى وابحثى عن البواب أو زوجته لكى يساعدوننا... فهى فى الطابق الثانى" أعرف أن تاتى تسكن فى الطابق الثانى، لم أنسَ هذا وقد تعرفت علىّ مدام جيرار البوابة، ونادت على زوجها. أصعد فى المصعد القديم وقلبى يخفق. إنه الباب الثانى على اليمين. أهرول وأنا أحك حقيبتى فى ساقى. قبل أن أدق الجرس الباب يفتح وامرأة شابة ترتدى المريلة تبتسم إلىّ وتقول: "الآنسة بولى قد وصلت!" أقفز بين ذراعى خالتى وأنا أبكى من الفرحة.

"بولى حبيبتى أخيرًا!" تبكى تاتى أيضًا من الفرحة، ونمسح خدودنا ونحن ضاحكتان عندما يصل إلينا صوت معين:

"تعالى بهدوء هنا" صديقى المسكين يشد وراءه حقيبة، ويتبعه أستاذ جيرار وزوجته والسائق الذى يأتى ببقية الحقائب.

تنظر إحدانا إلى الأخرى ونحن فرحتان ومتأثرتان.

"أنتِ أكثر جمالاً من تاتى التى أعرفها فى ذكرياتى!"

"ماذا تقولين يا بولى! إن خالتك قد شاخت.. وأنتِ أيضا جميلة جدا، لكن ما هذه الحبوب على وجهك؟"

تسمعنى وأنا أحكى عن المعلبات التى كانوا يعطونها لنا على الباخرة: "آه لقد نسيت أنا بالقطع جائعة..." ولكن ها هى خادمتها تدخل بصينية كبيرة..

"هذا هو إفطارك يا آنسة، يجب أن تقولى لى ماذا تأكلين فى الصباح؟ اليوم وضعت لكِ قطع خبز صغيرة وزبدًا ومربى توت عليق. وقد وجدت المدام هذه المربى بمعجزة!" أجلس على المائدة وأتمتع بالأكل وأنا أتحدث. وتعلمنى تاتى أن ماما قد ذهبت الليلة الماضية إلى فندق لازا أتينى، وستأتى فى الساعة الواحدة؛ لتأخذ الغداء معنا وجون أيضا بالطبع!.

"إذا لم يزعجك هذا يا تاتى هل أستطيع أن آخذ حمامًا؟ لم آخذ حمامًا بالمعنى الحقيقى منذ أن كنت فى مصر..".

أستمتع بالمياه لبضع دقائق، وعندما أنتهى من الحمام أنادى على الخادمة: "روز بماذا تمسحون البانيو؟ شكرًا "وتعطينى الخادمة القصيرة والممتلئة ذات الشعر الأصفر المرفوع على رأسها فرشاة وعلبة من الصفيح وتعترض تاتى: "ما هذا يا روز! الآنسة بولى متعبة" وتضيف خالتى باللغة العربية: "لا تدلليها هكذا؛ فهذا عملها! فهى كسولة جدا أو لا لا...".

أجهز نفسى، وأصفف شعرى، وأضع أحمر شفاه، وأرتب حقائبى، وتقول لى تاتى أين أضعها؟ وعندما أنتهى من هذا العمل أساعد تاتى الفرحة جدا: "امممم أمممم شوكولاتة" وتعطينى العلبة: "فهذه شوكولاتة لذيذة جدا، وخذى منها متى تشائين".

"شكرا يا تاتى أولاً أنا تناولت فطوراً رائعًا، وثانيًا الشوكولاتة تزيد من الحبوب.." حقائب الطالبات! فهى تزحم الغرفة يجب أن تأتى هذه الفتيات؛ للتخلص من هذه الأشياء فى أسرع وقت ممكن. أنادى على سارة: "مدام لو سمحتِ قولى لها إننى آتية من مصر ومعى طرد لها..."

"ألو.. من؟ طرد ترسله ماما لى؟ هذا رائع! أين تسكنين؟ حسنا سأمر غداً فى الصباح فى حوالى الحادية عشرة... جوليت؟ ليست هنا... سأخبرها... ربما سنأتى غدا معًا... إلى اللقاء وشكراً!" أخيراً أرجو ألا يؤجلن مواعيدهن! ولكن أين تاتى؟ أسمعها تتحدث مع روز فى المطبخ.

"تحدثتِ مع صديقاتك يا حبيبتى. غدا فى الصباح؟ رائع.. الهاتف؟ اذهبى وردّى على الهاتف.. لو كان لى، قولى إنى آخذ حماماً".

هذه ماما وهى سعيدة جدا أن تسمع صوتى: "سأكون عندكما بعد نصف ساعة".

"هذه بقالة حقيقية!" تهتف تاتى بسعادة: "والدتك إنسانة رائعة.. من جديد!" فقد قطع كلامها جــرسُ البــاب. "ســأذهب" هو جون: "أهلا بك فى فرنسا يا بولى! هل أمضيت ســفراً ممــتعًا؟ هذا رائع". وتشعل تاتى سيجارة بعد أن قررت أن تجلــس قليلاً بعد أن انتهت من ترتيب المؤن، ثم تقرر أن تأخــذ حماماً. أنا مشــغولة جدا فى الرد على الهاتف الذى لا ينقطع رنيــنه! أردد كلمـــة رائع لصديقات خالتى اللاتى يتحدثن فى الهاتف، هن ظريفات جدا، ولكنى بدأت أملّ!

بينما تضع تاتى المكياج فى الحمام أساعد روز فى ترتيب الفراش، وقد فتحنا الباب الذى يفضى إلى الساحة والشرفة الضيقة مليئة بقطع الخشب وبمؤن من الخشب للشتاء، أجد إناء مليئًا بورد الليلى ينتظرنى وآخذه، ووفقًا لتعليمات روز أضعه على قطعة من الأثاث موضوعة بجانب الكنبة التى تتحول إلى سرير، وسريرى موضوع فى ركن من الغرفة، وهو عبارة عن كنبة مغطاة بقطعة قماش سميكة ذات رسومات زرقاء ووردية ويوجد كومودينو فوقه أباجور بجانب السرير، وقد فكرت خالتى الأمورة فى كل شىء وهكذا سأستطيع القراءة قبل النوم.

"سـأضع المائدة" تعلن روز، وتظهر تاتى وجهها المطلى بالكريم من خلال باب الحمام.

"هكذا فإن الغرفة أصبحت جاهزة؛ اطلبى من روز أن تأتى بالسلم الصغير لوضع حقائبك فى الممر، أما بالنسبة للحقائب الفارغة فسأنقلهم فى الصندرة عن طريق مدام جيرار".

"ماما ها أنتِ" تقابلنى والدتى بابتسامة مشرقة وهى متأنقة كالعادة، تتخلص من قبعتها، وتكتشف الطرود، وتقول وهى تفتح عينين كبيرتين: "لقد سافرتِ بهذه الطرود الأربعة؟".

"بالطبع يا مامى لقد نسيت هذه المرأة التى أعطتني نمرة هاتفها، والطرد الثانى هو من أجل صديقة لديدى، وقد أعلمتهما".

"صباح الخير يا صالحة سأكون جاهزة بعد خمس دقائق سألقى فقط نظرة على ديكى المنقوع فى النبيذ وأرتدى ثوبى".

"كالعادة خالتك هى آخر من يكون جاهزاً".

وجاء دور ميسيو دماز ليأتى، وهو رجل كبير ووسيم ذو شعر بنى فاتح وشفاه واسعة تزداد وسعًا عندما يبتسم لى وينظر لى بعينيه الخضراوين: "صباح الخير يا شاعرتنا!" يقولها بصوت جهورى يدوّى "هل أنتِ سعيدة لأنك ستكونين باريسية...".

"بونجور جون!" تقول تاتى وهى واضعة المكياج، ومرتدية ثوبًا جميلاً من الصوف الأسود والأبيض، وعقداً من اللولى يحيط عنقها، وترتدى فى إصبعها الصغير فى يدها اليسرى خاتماً من الذهب. أظن أن هذه ستكون "الصيغة" الوحيدة التى سترتديها حتى موتها.

وللاحتفال بوصولى تقدم لنا تاتى مشروب السينزانو، بالرغم من أن ماما التى تكره هذا المشروب تتحدث مع ابنتها "المفضلة"، وأخيراً بينما نستمتع بالأكلة الشهية أصف مغامرات سفرنا. هؤلاء الضباط العديدون الذين ملأوا الباخرة وخصوصا على سطح المركب، ومنعونا من التنزه، وهذا الطعام السيئ جدا الذى كانوا يقدمونه؛ واضطررنا لأكل البيض وبعض قطع الخبز بمربى البرتقال فى الصباح، ولا أنسى "معاناة" زيارتنا إلى الحمامات المليئة بالمياه المتسخة! وهذه المغامرات تنتمى الآن إلى تاريخى القريب؛ ولذا أستطيع أن أحكيها وأضحك منها: "هل تريدين يا بولى أن تأتى معى ومع والدتك لحضور عرض أزياء كارفين؟" هذا مستحيل؛ أشعر بغربة عارمة عند التنزه بمفردى. إن الطقس جميل جدا: "فى مرة قادمة أريد أن أرى من جديد شارع

البوا، وسألتقى بكما من جديد فيما بعد". ترفع ماما حاجبيها: "لا تستطيع هذه الآنسة أن تفعل كما يفعل الآخرون، فهى شخصية خاصة!".

وبينما نحتسى قهوتنا كنت أتحدث على الهاتف مع أصدقاء لوسيان: "السيدة والأستاذ أجيون موجودان فى سانت تروبيه" يجيب صوت امرأة "سيعودون بعد أسبوع". مصيبة ! شعرت بخيبة الأمل، أغلق الهاتف، وأجهز نفسى للنزول مع والدتى وتاتى، والأخيرة تقول: "كدت أنسى.. خذى يا حبيبتى هذا هو مفتاح الأستوديو..".

أنظر حولى، شجر الصنوبر ما زال واقفًا فى شارع فيكتور هوجو الأنيق وشجر البرقوق أيضًا، وأستطيع أن أرى من خلال واجهات الزجاج بعض المترددين على المقاهى وهم ما زالوا جالسين، بعد تردد قليل أعبر الشارع، وأتجه إلى شارع البوا دى بولونى. لقد اخترت الأشجار! وأمشى بخفة وقد استدرت، وخلفت ورائى قوس النصر. أرى بعض الناس وهم يتنزهون ويبحثون عن أشعة الشمس، بعض المسنين وهم يجرون كلابهم، وسيدات أصغر سنا تدفعن بعربات أطفال، وعشاقًا يسيرون محتضنين بعضهم بعضًا أو ممسكين أيدى بعضهم. أنظر إليهم سريعًا وعيناى تنظران بفرحة شديدة إلى الأشجار وإلى خضرة الأوراق، ولا أتعرف للأسف إلا على أوراق الكستناء والصنوبر والبلوط. أبدأ فى الشعور بالحرارة والتعب القليل. أعبر الشارع وأسير على الرصيف المقابل، لقد نسيت هذا التعب المتراكم منذ وصولى إلى طولون بالقطار، وأجد دكة خالية تدعونى للجلوس فأجلس، وأنظر فى كل الاتجاهات إلى النجيلة الضيقة التى تحدها الأشجار على الجانبين والعمارات القديمة والجميلة التى تكسو حوائطها النباتات المتسلقة والشرفات الضيقة التى تزدهر فيها نباتات الزينة.. يواكب تأملاتى أصوات السيارات التى تسير فى الاتجاهين ونباح الكلاب أو بكاء طفل... رغم إرهاقى أستمر فى السير إلى محطة مترو إتوال، وأتوقف أمام كشك الجرائد، وأشترى مجلة "أسبوع فى باريس". كم أنا سعيدة لاسترجاع كل ما كان يختبئ فى ذاكرتى.

وحيدة فى الأستوديو أتمدد على فراشى وهو مريح جدا، وأتصفح المجلة لأكتشف: ماذا تقدم باريس من مسرحيات أو باليهات؟ وفى الوقت الذى يغالبنى فيه النعاس أسمع أصوات مامى وتاتى: "كنتِ نائمة؟ يبدو أنك منهكة جدا بعد كل هذه الأحاسيس".

"خسارة أنك لم تأتِ. فالمجموعة جميلة جدا لقد احتسينا الشاى. فالساعة تجاوزت الخامسة". أضحك فإن ماما وخالتى لا يستطيعان أن يفوتهما احتساء الشاى بعد الظهر فهذه عادة مقدسة!.

"وأنتِ ماذا فعلتِ؟".

بماذا أجيب؟ لن تستطيعا فهم هذه المتعة التى ملأتنى؛ بسبب هذه النزهة. على كل حال فتاتى تنادينى لأساعدها، وهذه عادة أخرى فالأكواب والمزّات وإناء الثلج قد وضعوا على الصينية فى المطبخ. وهو مطبخ ضيق جدا، حيث يمكن أن يقف فيه اثنان بالكاد. آخذ الصينية وأضعها فى الغرفة.

جون يلحق بنا، هو أيضا يأخذ كأساً من الويسكى، ونتحدث عن أشياء كثيرة بما فيها مشاريع الإجازة وجون وماما يتركانا فى حوالى الحادية عشرة.

"ادخلى سريرك على الفور" تنصح ماما وهى تضيف وتنظر إلى أختها: "لا تتركينها تسهر. بولى تبدو متعبة جدا" تضحك تاتى. لماذا؟ سأفهم السبب فى اليوم التالى فى المساء. فخالتى تسهر حتى الفجر، وتصحو فى العاشرة، وخلال شهر أو أكثر ستنتهز فرصة وجودى لتجلس على سريرى وتتحدث معى أيا كانت الساعة؟ عندما تسألنى: إذا كنت نعست أو لا...، لا أجرؤ أن أجيبها بالإيجاب، أو أن أقول لها إننى أرغب فى القراءة بعض الشئ. اضطررت أن أحدثها عن بول وعن صلاح، وأن أؤكد لها أنهما أصبحا ذكريات سيئة، ولا تقرر أن تترك سريرى إلا عندما تلحظ أن جفونى تغلق، وتكون الساعة قد اقتربت من الثانية صباحًا، وأصحو كعادتى فى

السابعة، وعندما أقوم فى الصباح أسير على أطراف أصابعى، وبعد أن أجهز نفسى سريعًا وأحضر الإفطار. عندما تأتى روز أجلس على الموكيت فى الممر الضيق وبصحبتى الفيجارو أو كتاب، وينقذنى قدوم الآنسة كلود التى تقوم بمهمة تدليك تاتى!. هى صغيرة ورفيعة جدا بوجه قبيح، وبشعر ردىء، ولكنها مليئة بالحيوية والفرحة، وتنطلق فى الضحك على أى شىء، أتحدث معها لدقائق ثم تحثنى تاتى لآخذ حمامى، وفى أيام التدليك أستطيع أن أجعل المياه الساخنة تنساب فى وقت أطول؛ لأن تاتى لا تنتهى قبل الساعة الثانية عشرة والنصف... خلال السنوات الخمس التى سأمضيها بجانبها فى باريس سأكون مضطرة للاستحمام بربع كمية المياه؛ لأن خالتى تعاتبنى لأنى أنهيت المياه الساخنة، وهى لا تأخذ أبدًا حمامًا إلاّ بعد أن تكون ملأت البانيو، وتذهب إلى المطبخ، وتدلك خدودها المليئة بالكريم ثم تتحدث بالهاتف ولا تشغل بالها بالمياه التى تفتر، وهى لا تفهم أن سخانها يوجد فيه مقياس حرارة، وأن حمامى المسكين الصغير الذى آخذه قبل ساعتين من حمامها لا يستطيع أن يحرمها من المياه الساخنة، وأستطيع الجزم أن حكاية الحمام كانت الشىء الوحيد للاحتكاك بيننا خلال إقامتى الطويلة بجانب خالتى.

أرجأت البنات الزيارة للساعة الثالثة بعد الظهر، وهذا يعطينى سببًا وجيهًا للهروب من عرض المانيكانات..

"كم تشبهين إنجى... هذا فظيع!" نتحدث عن أختى، وهن يُردن معرفة أخبارها السياسية، ولا أستطيع أن أعطيهن إلا حكاية المظاهرة الكبيرة للاتحاد الوطنى للطلبة والعمال، وهى الأشياء القليلة التى حكتها لى إنجى وإحدى الفتاتين وهى عضو فى نفس المنظمة الشيوعية لأختى، وقد اعتقلوها مرة، وأطلقوا سراحها سريعًا، وفرض عليها أهلها أن تدرس لشهادة الليسانس فى فرنسا.

وهما مستغربتان من اكتشاف أننى لا أشارك إنجى قناعتها السياسية: "أنتِ لستِ شيوعية؟ ولم ندخلك أختك فى التنظيم؟" أرفع كتفى لأنى مرتبكة لشعورى أنهما

يؤنباني. يتحدثان عن حياتهما في باريس وقد أحستا بالبرد بقوة خلال شتائهما الأول؛ فإن تدفئة البيوت ليست كما يجب، ووجبات الطعام في المدينة الجامعية سيئة، وهي عبارة عن قطع من الدسم مصحوبة بالبطاطس، تدفع بكارنيه التذاكر الذي يوزع عليهما مرة في الشهر، ومن حين إلى آخر يذهبن إلى المطاعم؛ لأكل قطع من اللحم الحقيقية، وخضار، "وبما أننا نجوع كثيراً فنملأ معدتنا بالخبز والبطاطس". أنا في الحقيقة محظوظة لا ينقصني شيء عند تاتي، ومرة في الشهر تدق فلاحة على باب الأستوديو، وتبيع لتاتي اللحم والزبد والبيض الطازج، وبالنسبة للشاي والقهوة عندنا كمية كبيرة من اللبن المحفوظ بالعلب الذي أتى مع المؤن التي جاءت من مصر.

الفتاتان يشكرانني، ويأخذان مؤنهما: "شكراً يا بولي، تعالى إلى المدينة الجامعية سؤهاتفك في الأسبوع المقبل.. سلام" إنها جوليت اليت تتحدث. جوليت التي ستصبح صديقة فيما بعد.

أوافق على الذهاب إلى مولينو، لقد قررت ماما أن تهديني ثوب سهرة "للمناسبات الكبيرة"، وصديقتهما أنيت تأتي معنا، وقد التقيت بها كثيرا عند خالتي قبل الحرب. أنيت ظريفة جدا، وتروق لي. أُعَلِّم على الكتالوج وأختار الأثواب القليلة التي ممكن أن تليق عليَّ. بعد عرض الأزياء أتبع بائعة في كابينة قياس الملابس، وأخضع لهذا العقاب!.

أختار فستاناً من القطيفة السوداء بياقة بيضاء مطرزة ومضمومة، وهذا سيكون ثوبي الأسود الأول. أنا سعيدة جدا وغير نادمة على رؤية هذا العرض، ولا لأنني خضعت لقياس الملابس الممل. تدعونا أنيت على صالون للشاي، حيث يوجد اللبن وحلويات كثيرة. النساء اللاتي يحطن بنا متأنقات، ويرتدين القبعات وأصواتهن تمتزج مع الرائحة العطرة للخبز الدافئ وللفانيليا. أعرف كل وجهات شارع فيكتور هيجو وجاليري الليدو وشارع الشانزليزيه. أجلس كثيراً على كرسي من الحديد في الميدان؛

لأستريح وأتفادى المقاهى. لقد قدموا لى بعض القهوة مع السكارين، ولم أستطع أن أبتلع إلا رشفة واحدة من هذا الشراب الفظيع.

لقد اصطحبنى جورج حنين الذى يقضى بعض الوقت فى باريس؛ لرؤية الكلمات الربانية للمسرحى الإسبانى فال إنكلو، وهى مسرحية رائعة، وجورج يحدثنى كثيراً فى الهاتف، ونذهب كثيراً إلى معارض فن، ونتصفح الكتب فى مكتبات سان جيرمان دى برى، حيث أهدانى كتبًا نصحنى بها جورج، ويقدمنى لأنرى ميشو فى أحد معارض رسوماته، وأهدانى أحد كتب هذا الكاتب الكبير الذى كتب لى فيه إهداء.

-٢-

إجـازتى الأولى فى صـيف هذا العـام من ١٩٤٦ أمـضـيـتـهـا بين الكوت دازور وتشيكوسلوفاكيا وباريس.

فى سان جون وكاب فيرا فى فيلا جون الجميلة، تفتح شرفات غرفتى على البحر الأبيض المتوسط وأستحم فى المياه بدون أن أبتعد كثيراً عن الشاطئ الحجرى. وكثيراً ما يصطحبنا جون إلى نيس أو مونت كارلو للعب الروليت فى كازينوهات القمار، وهى خبرة سيئة تستلزم منى إرادة قوية لأخلع نفسى من هذا التوتر الذى يصيبنى عندما أرمى بالفيش على السجادة الخضراء. أتنزه وأنظر إلى اللاعبين الجالسين الذين يركزون على حظهم، وكل الوجوه ترتدى الأقنعة، وبعضهم ينظر باستماتة على البلية، وآخرون كأنهم يتواطؤون مع الشيطان، يدّعون عدم الاهتمام أو يحاولون الابتسام، ويسبح الدخان الرمادى للسجائر فوق الأصوات وفوق الفيش.

عند مدام "بيبى" هناك دائما امرأة مسنة واحدة، وكثيرات أخريات يجلسن طويلاً بطلاء وجوههن الزائد عن الحد، وملابسهن القديمة، وقبعاتهن التى يزينها الريش والورد وهن يدخنّ، بينما أصابعهن المليئة بالخواتم تلعب باللولى الاصطناعى لعقودهن.

"هذه مأساة أن ترى هذه السيدات وقد ضيعن كل ثروتهن" تقول مدام بيبى: "إحداهن كانت تمتلك قصراً وجواهر ثمينة وفوريرات! وهى تسكن فى فندق صغير الآن. كلهن أصبحت حياتهن صعبة جدا، ولكنهن يأتين على كل حال.. يحاولن استجداء الحظ كما يقلن، ولا أحد يعرف...".

أخيراً، حصلت على غرفة لى بمفردى فى الدور السادس، وأستمتع بوحدتى التى كنت قد حرمت منها. فأنا سعيدة جدا مع تاتى التى تعطينى كل شىء، ولكن من الصعب أن أكتب فى هذا الأستوديو الذى نتشارك فيه. وتاتى تدعو كثيراً الأصدقاء والأقارب لتناول أكلاتها الخاصة؛ لأنها طباخة ماهرة ومضيفة رائعة، وهذه الدعوات تأتى دائما عندما تذهب روز إلى السوق! ويكون من الطبيعى أن أساعد تاتى، وأخرج لشراء الأشياء التى تنقصها لوجباتها، وكثيراً ما أنظف الأرز والملوخية المجففة ذات الأوراق الصغيرة! وحاولت أن أعمل بعد الظهر رغم وجود روز التى تغنى عندما تغسل أو تكوى الملابس. هذه الإنسانة المزعجة تغادر المنزل فى حوالى الخامسة، وتعود تاتى إلى المنزل فى حوالى السادسة، ولا يبقى لى إلا ساعة من الحرية.

"تعالى انظرى إلى الشباك ذى الشيش المغلق هناك تحت السقف، لن ترفض لى مدام جيرار هذه الغرفة فهى ظريفة جدا معها منذ التحرير فهى مرعوبة من أن أتحدث مع السلطات عنها؛ لأنها كانت مع المتواطئين فى ليلة من الحرب أثناء هجمة لفرنسيين كانوا يبحثون عن اليهود، دخل جنود فى عمارتنا، وأعطتهم مدام جيرار اسم هذه السيدة المسكينة التى تسكن فى نفس الطابق، ولكن ابنتها– وهى أحسن عاملة منيكور فى باريس– قد نجت بأعجوبة! أظن أنها كانت تقضى الليل عند أصدقائها، وقد عرفت ولم تأتِ إلا بعد التحرير".

أسمع وأنا منزعجة جدا. كيف ولماذا وشيت هذه المرأة بهذه السيدة الكبيرة فى السن؟ هل كانت تتصور أن رجال الأمن سيعوضونها، فهذا ظرف تجاهى وتجاه تاتى التى لم تتخل عنه قط. كان نوعاً من الكوميديا الحقيرة. كنت أرغب ألا تطلب منها تاتى شيئا.

"الغرفة فارغة ولكن يجب دفع ألف فرنك فى الشهر. يوجد فيها الغاز والكهرباء، والمدفأة تعمل جيداً، وفى داخلها دولاب..." وقد حولت هذه الغرفة سريعاً ووضعت قطعة قماش سميكة ذات الخطوط الزرقاء والخضراء فوق الكنبة التى تتحول إلى سرير،

وفوق الطاولة التى أعمل عليها، ووضعت على الأرض سجادة صغيرة- استغنت عنها تاتى- لتخفى الأرضية القبيحة، وعندما أضع الكتب والأوراق وآلة الكتابة يأخذ عالمى شكل مرحب جدا. المستأجرون الآخرون يتشاركون فى الحمام والدش، ولكنى أخفى قصرية فى داخل الدولاب الصغير. توجد غلاية وإبريق شاى وفنجان يمكنوننى من تقديم الشاى لزوار محتملين! ولكنى أنام عند تاتى وأحتمى بغرفتى بعد الظهر. أقرأ وأكتب بحرية، ولا أنزل إلا بعد أن أسمع صوت خالتى تنادينى فى حوالى السادسة.

فى منتصف يونيو تقريبًا تأتى مامى وإنجى إلى باريس! وهذه فرحة عظيمة! وتقنعنا ماما أن نذهب مع إنجى إلى براج. أختى وبعض الطلبة المصريين سيمثلون مصر فى المهرجان الدولى للشباب الذى سينعقد فى عاصمة شيكوسلوفاكيا.

"سنرى هؤلاء الشيوعيين الذين تعشقهم إلى هذا الحد الآنسة.. بعد المؤتمر سنذهب لقضاء أسبوع فى الجبل فى مكان يسمى كارلو فيفارى!" كنت أعرف من خلال قراءاتى أن براج أحد أجمل عواصم العالم، ولكنى لن أستطيع أن أعجب بها إلا فيما بعد. فى هذه الرحلة إلى شوكوسلوفكيا كانت مدمرة بسبب الحرب، ولا تبقى فى ذهنى إلا بعض الصور.. افتتاح المهرجان بين جموع من المشاهدين والوفود التى تتوالى وهى ممسكة بأعلام بلادها، وتصفيقنا الحاد عندما تعرفنا على علمنا الأخضر وإنجى فى وسط مجموعة من الطلبة، ورغم تَحَفُّظهم لكل شىء يمس الشيوعية؛ كانت والدتى وخالتى متأثرتين جدا.

لم أحضر أى اجتماع شاركت فيه أختى ولا الحفلات التى نظمها الشباب. أتذكر نفسى وأنا متمددة على أحد الأسرة فى العنبر الكبير، وأنا أعانى من آلامى المبرحة. كنت أخضع فى الصباح والمساء لهذه النظرات المشفقة للبنات التى كن يتقاسمن الغرفة معى. ماذا آكل؟ خبز وسجق. على كل حال هذا كل ما أتذكره.

إن وجود أرمون أضفى نوعًا من الفرحة على هذا الأسبوع الذى أمضيناه فى كارلو فيفارى، هل اتفق مع إنجى؟ لم نسأله شيئا، ولكن أرمون ذا الجاذبية الشديدة نجح فى نيل إعجاب هذه النساء.

"خسارة أنه يهودى..." تقول تاتى: "إنه شاب وسيم ذكى وظريف جدا.." بعد العشاء نلعب الورق ونحن نضحك كثيراً إذ كانت ماما وتاتى يشكوان من الطعام، فهما يتقبلان الوضع بروح رياضية. نشرح لهما بمساعدة أرمون أن البلد تقوم بصعوبة من التضحيات التى عاشتها أثناء الحرب.

ماما وتاتى يتضايقان كثيرا؛ لأن أغلب العاملين فى الفندق لا يتكلمون اللغات! وهذا يضحكنا كثيراً.

فى باريس أنام فى غرفتى الصغيرة، بينما تنام إنجى عند تاتى وماما فى الفندق. استقر الطقس الجميل أخيراً، وكانت من قبل الأمطار تنتشر خلال شهرى مايو ويونيو.

قبل يومين من ١٤ يوليو صعدت أختى لأخذ فنجان من الشاى عندى، وسألتنى عما سأفعله فى هذه الليلة.

"بما أنك ليس لديك مشاريع أقترح عليكِ أن تأتى معنا إلى إيفون وروبير وهما توأمان ظريفان جدا. يسكنان فى باريس مع والدتهما. ومن المحتمل..." تضحك أختى "إنهما زوج آخر من التوائم! هما فرنسيان وأعضاء فى الحزب الشيوعى".

تعترض ماما بالطبع: "كيف ستسيرون فى الشوارع فى ليلة مثل ليلة ١٤ يوليو؟ سيكون هناك أناس من كل نوع وسكارى... هذا خطير" ولكن من جديد تاتى تأخذ صفنا: "ماذا يا صالحة؟ سيكون معهما أناس، وهذا مشهد يستحق الرؤية..." يقترح الشابان اللذان ينتظران أمام عمارتنا أن نذهب فى البداية إلى الإيتوال... وقد أعجبانى على الفور، وهما مهذبان وبسيطان وخفيفا الظل، على الرغم من أنهما لا يرقصان جيدا فنحن نضحك كثيراً، ونتوه من بعض، ثم نلتقى من جديد فى ميدان

الكونكــورد، ونلتقى من جديد بمعجـزة فى قلب هذا الكم الهـائل من البشـر. ثم نأخذ المترو فى اتجاه الباستيل.

- "يجب أن نذهب إلى هناك!" يصـر أحدهما "فهذا سيكون شيئًا يحسب لكما". وقد بدأنا أنـا وإنجى بالإحسـاس بالإرهاق. ولا يعطينا مـرافقـونا أى برهة للراحـة! وفكرة السير على أقـدامنا فى ممرات المترو الطويلة ومحاولة إيجاد مقعد تحبطنـا، ولكنهمـا يصـران لدرجة أننا نقـبل، ولكن بشـرط أن تكون هذه المحطة الأخيـرة، ونكتـشف أن مرتادى المترو يتفحصونـنا بدهشة وهم مستمتعون. فهذان توأمان يتحدثان مع فتاتين تشبه إحداهما الأخرى كثيرا!.

-٣-

أظن أن أحد رفاق الرحلة سألنى عند عودتنا بالمترو: "لا أفهم لماذا أنتِ غير شيوعية؟ أنا مندهش لأنك لا تتحدثين مثل البرجوازيات، وأنتِ تبدين متحررة وملاحظاتك وأفكارك يسارية!" أضحك ببلاهة وأقول: إننى لم أدرس الفلسفة، ولا أعرف شيئًا عن هذه الأمور.

"يمكن أن تبدئى بكتب بسيطة، مثل "مبادئ الفلسفة" لبوليتزير. "ما رأيك يا إنجى؟ فلتساعدى أختك بعض الشيء، يجب أن تدربيها". وهذا الكتاب كشف حقيقى بالنسبة لى، وأفكاره تتواءم تماما مع أفكارى، وتجيب عن أسئلة كنت سألتها لنفسى منذ زمن بعيد، عن نقاط كثيرة غامضة، وأشعر برغبة فى أن أتعمق أكثر فى هذه المواضيع. وتقترح علىّ جوليت التى رأيتها من جديد عند أختى أن تعطينى محاضرات فى الماركسية، عند عودتها من الإجازة. ولم لا تكون إنجى؟ أختى التى تخفى فرحتها بالكاد تعود إلى القاهرة مع ماما، وليس لديها كثير من الوقت.

يتحدث معى فى الهاتف الأجيون بعد سفر ماما وأختى. وأسمع الصوت العميق والمحبب لجابى! صوت غير مسبوق! بالطبع نتحدث فى البداية عن صديقتنا لوسيان، ثم على الفور يقترح لى جابى أن نتقابل فى مقهى فلور فى الليلة نفسها فى حوالى السابعة.

"كيف سأتعرف عليكِ" يسأل صوت جميل لرجل. ريمون! ويبدو أنه أخذ سماعة الهاتف هل تشبهين إنجى بعض الشيء؟" إذن فهم يعرفون أختى؟ وبالقطع فهم يشتركون معها فى الآراء.

"يقال إننى أشبهها كثيراً، ولكنى أقل جمالاً منها". ضحك.

"سنرى هذا. إلى اللقاء فى المساء. شاو!".

ماذا سأرتدى؟ أشعر بفرحة كبيرة بفكرة معرفة الأجيون أخيراً؛ لأن لوسيان حدثتنى كثيراً عنهما. أفتح الدولاب. وأفكر فيما ألبس للذهاب لاحتساء شيءٍ ما فى الفلور. إن تايورى ذات المربعات مع قميص أبيض سيكون مناسباً جدا.

من الجيد أننى قلت لهم إنى أشبه أختى، ولكن كيف سأتعرف أنا عليهما؟ بخجل أراقب الناس الجالسين فى المقهى ولا أحد على الإطلاق يبدو عليه أنه عرفنى. ثم أصل إلى داخل المطعم الملىء بالبشر حيث الأصوات تدوى.

"ها هى..." وهو الرجل الذى تحدث معى على الهاتف هذا الصباح، وجلس على مقعد فى مواجهة الباب. ينهض ويشد على يدى، وهو رجل كبير ووسيم وأسمر وأنيق جدا، ويبتسم لى: "أنت وإنجى لا تشبه إحداكما الأخرى ولكن واضح جدا أنكما من نفس العائلة. اجلسى بجانب جابى...." وهى امرأة صغيرة جميلة وممتلئة تمد لى يدها، وتترك لى مكاناً بجانبها. فهى سمراء ولها شعر أسود مرفوع فوق رقبتها، وأنفها مرتفع قليلاً، وتبتسم لى بينما تنظر إلىّ بإمعان من خلال عيون سوداء رائعة. "ماذا تريدين أن تحتسى؟" وقد تقدم الجرسون. "فرموت؟ سينزانو؟ أنتِ تعرفين أن القهوة والشاى من المحظورات الآن..." أختار فرموت وأنا ضاحكة: "طبعا لا.. لقد حاولت مرة عن طريق الفضول، ولكنى لم أستطع أن أكمل فنجانى".

"وكيف حال لوسيان؟ ما أخبارها؟ وكم من الوقت ستقضين فى باريس؟"

"هذا رائع" يتهلل الأجيون عندما يريان هدية لوسيان. "هذه اللمبة رائعة! احكى يا بولى..." وقد تطورت العلاقة سريعاً بيننا، وكأن أحدنا يشبه الآخر منذ زمن، وأستمر فى الكلام، وكان يقاطعنى من حين إلى آخر أحد الأصدقاء الذى يقترب منهما، ويقدمنى إليهم الأجيون. نظرات فاحصة علىّ تستمر لحظات. أخوات جابى يتميزون

بالنحافة والسمرة والظرف، فيكتور السمين الأبيض ذو الشعر المحمر قليلاً، ورنوار الكبير الأسمر ذو الابتسامة الساخرة، والبير كوسيرى الرفيع جدا جدا الذى يقبلنى، وميشيل دوريه وممثلون.. القاعة امتلأت بالمرتادين الذين يبحثون عن مكان. كلهم ما عدا الأجيون وأنا يلبسون ملابس ليس لها أى رونق، وترتدى السيدات البنطلونات، من الأرجح أن هذا للاحتماء من البرد. ويدور الجميع حول ريمون الذى يقدم لهم شيئًا يشربونه أو دعوة للعشاء.

وفجأة يقع نظرى، فى وسط مجموعة قد دخلت المقهى على التو على فتاة رائعة الجمال ترتدى قميصًا وبنطلونًا أسود، لا تضع أى مساحيق على وجهها الجميل ذى البشرة الرائعة والأنف المستقيم والعينين الكبيرتين الخضراوين.

"سلام يا توتون!" يقول ريمون: وهى تستدير وتقترب منّا.

"سلام" وأنظر إلى العينين الخضراوين.. "سلام".

"هى جميلة أليس كذلك؟" لقد لاحظ جابى أنه لم تبرح عينا وجه توتون "نعم! ولكن ما هذا الاسم الغريب؟"

"فى الحقيقة اسمها جوليت جريكو وهى تحاول أن تمارس الغناء، وصوتها رائع..".

ولكن للأسف يجب أن أغادر المكان: "تنتظرنى تاتى لأنى سأتناول العشاء معها. هى خالتى واسمها الحقيقى إنجى".

"نلتقى غدا إذا هنا؟"

"فى ليلة أخرى سنذهب إلى مسرح الشانزليزيه؛ لأشاهد سيرج ليفار وهو يرقص".

"يا لها من فكرة!" يصيح فيكتور "ألا تعرفين أنه عميل حقير، وقد قبل أن يرقص أمام الألمان".

كم كانت لوسيان على حق! الأجيون ناس ظرفاء جدا ويعجبونني كثيراً. كنت أود أن أتناول العشاء معهم. أصدقاؤهم يساريون وبعضهم شيوعيون، وقد عملوا في المقاومة، وجازفوا بحياتهم من أجل تحرير بلادهم. وبلدي أنا هي مصر... مصر المحتلة من الإنجليز الذين أصبحوا أسيادها، ويُمْلُون إرادتهم على الملك وعلى رؤساء الوزراء، وقد ضرب جنودهم النار على المصريين وقتلوا الطلبة؛ لأنهم جرؤوا أن يرفعوا صوتهم، ويطالبوا بتحرير بلادهم من القوات البريطانية.. إن مصر بلد غير مستقل.

. "شعر اليوار" لقد قال بول اليوار كل شيء عن الحرية في قصيدته، وعندما قرأت هذه القصيدة في العام الماضي لم أدرك المعنى الواسع والعميق لهذه الأبيات وكنت متأثرة جدا بها، وقد احتفظت بالجريدة لكي أقرأها من جديد. أنا معجبة جدا بالبساطة والأشعار المقتضبة لـ "عاصمة القلم". معجبة بهذه القوة الرائعة للصور التي يعبر عنها اليوار في كلمات وجيزة. يجب أن أذهب لأبحث عن بعض الكتب في الحي اللاتيني، أريد أن أشتري بعض أشعار اليوار ولوى أراجون وروبير ديسنوس. شعراء وكتاب علت أصواتهم فوق فظاعة الاحتلال..

خيبة أمل كبيرة! أتعرف على وجه الرجل؛ لأني رأيته في بعض الصور في كتبي، صور قديمة كان فيها روبير ليفر أصغر سنا، ووجه الراقص الكبير قد ارتسمت عليه تجارب السنوات، وأصعب شيء فيه هو هذا التهجان المستمر. ولكنه يرقص بحركة مقتضبة. هل هذه رؤيته الشخصية، لماذا اضطر ليفار أن يرقص؟ ألم يكن من الأفضل أن يترك لمعجبيه ذكرى راقص كبير؟

-٤-

لملء الثغرات والفضول أبدأ فى شراء جريدة الـ"إيمانيتى الشيوعية وأوروب والليتر فرنساسيز".. تفاجئنى تاتى يومًا وأنا أقرؤها، وتنهرنى "ماذا تقرئين؟ لقد أثرت عليكِ أختك أو جورج.. يقال إنه شيوعى.. يمكن أن أقبل أن تذهبى إلى مقهى فلور بالبنطلون؛ لأنه كما تقولين الفتيات اللاتى تقابلينهم هناك فقيرات ويشتكين من البرد، ولكنك تريدين أن تلعبى الآن دور الشيوعية؟" وبالطبع يجب أن أتحمل أيضا ملاحظات جون صديق تاتى، وهو ليس فقط ضد الشيوعية بضراوة ولكنه أيضا عنصرى، ومعاد للسامية، وهو يقبل رغمًا عن أنفه بعض الصديقات اليهوديات لتاتى والمقربات منها كثيرًا. ولكن إذا تجاوزنا آراءه الرجعية، فإن جون داماس رجل ظريف جدا ومهذب ويراعى خالتى جدا، وقصت علىّ تاتى كيف كان جون يحرم نفسه من حصته فى السجائر ليرسلها لها أثناء الحرب، ويبدو أنه يعبد تاتى، وهو كاتب ويبدو أن تاتى معجبته الوحيدة. لم أقدر الراويات القليلة التى كتبها والتى لم يقرؤها أحدٌ من الناس المحيطين بى. على سطح مقهى فى شارع سان جيرمان حيث أعطانى جورج موعداً، أضع آخر عدد "لليتر فرنساز" على كرسى بجانبنا بعد أن طلبنا اثنين زينزانو، يرجع جورج إلى الوراء؛ ويقع نظره على جريدتى.

"ما هذا يا بولى!" ويرتفع صوته غاضبًا "من متى تقرئين هذه القمامة، ارميها.. ارمى هذه الجريدة".

أنا مستغربة من هذا الانفجار وابتسمت له: "لماذا يا جورج؟ هذه جريدة أسبوعية مهمة، ولقد اكتشفتها منذ بعض الوقت... وأنا..". يدفع جورج بكرسيه إلى الخلف،

وينهض ويدفع المشروبات، ويقول بصوت أجش: "عندما تتفهمين مدى حماقتك، اطلبيني على الهاتف".

يعطيني ظهره وبدون أن يقول لي إلى اللقاء، يرحل. سأفقد صديقًا ربما، ولكنه رجل له آراء ضد الشيوعية بضراوة أكثر مما يجب من وجهة نظري. أشعر أنني قريبة جدا من هذا التيار الفكري. يقول أصدقائي الجدد: "كان في المقاومة، وهو عضو في الحزب، وإنسان جيد جدا" – كلهم مثقفون وأذكياء – ماذا يحوي هذا التيار الفكري من تكامل لهذه الدرجة؛ لكي يقتنع به أصدقائي جميعا؟.

كنت أود أن أرى جوليت من جديد. أشعر برغبة في رفع النقاب عن هذه الأسئلة التي تزعجني وتقلقني أكثر فأكثر، منذ مجيئي إلى باريس. أعرف الآن أن أغلب المثقفين والعلماء والكتاب والفنانين الذين وقفوا ضد احتلال بلادهم هم في غالبيتهم العظمى يساريون. مثل جوليو وكوري وأراجون وإلزا تريوليه وبول اليويار وتريستانت تزارا وليجيه وبيكاسو. وهؤلاء يريدون التحضير "أيام ستأتي وتغني." إن الشيوعية هي شباب العالم كما كتب بول فايسون كوتوريه، وكانت إنجي قد تأثرت جدا بشخصية أرملته ماري كلود التي قابلتها في مؤتمر المرأة، وكانت ماري كلود حكت لها عن فظائع أوزوفيتش التي أنقذت منها بأعجوبة، ورأت إنجي رقمًا بالوشم على ذراع ماري كلود: "لقد تحملت العذاب والحرمان؛ لأنها كانت مؤمنة بأفكارها" كما أعلنت إنجي.

وعندما أذهب إلى الأستوديو المريح في شارع فيكتور هيجو حيث خالتي وجون وأصدقاؤهم، وأسمعهم وهم يتحدثون؛ أكتشف أن اهتماماتهم وأذواقهم تنتمي إلى ماضي ما قبل الحرب. وهم اجتماعيون سطحيون ومتعالون. إن الحرمان ومهانة الاحتلال لم تؤثر فيهم بعمق وينتقدون هؤلاء "المهوّسين" الذين حلقوا شعر البنات المساكين؛ لأنهن أجروا علاقات مع الألمان.

على الأرجح فى أواخر سبتمبر، أحتمى فى مقهى صغير؛ انتظارا لساعة لقائى مع جوليت. أنا متعبة جدا بسبب تسكعى فى الحى اللاتينى، ورحلتى الطويلة فى المكتبات؛ حيث وجدت كتاب ماياكوفسكى لإلسا تريوليه. أطلب قهوة سادة "وقد تحسّن نوع القهوة كثيراً منذ بعض الوقت!" وأبدأ فى تصفح كتابى الجديد. القاعة شبه فارغة، وأنا بمفردى مع رجلين يتناقشان وهما جالسان أمامى.

"بمبولى!" هذا النداء يفزعنى، ويقترب منى أحد الجالسين على المائدة، ويقترب منى وهو مبتسم: "لا تستطيعين أن تتذكرى. لقد عرفتك وأنتِ طفلة صغيرة فى زيزنيا! أقدم نفسى "مصطفى زيور" عالم نفسى فى سانت - ان. هل أستطيع أن أقدم لكِ صديقى؟".

الرجل الرفيع ذو الوجه العادى والشارب الرفيع الأسود، مثل شعره وعيونه، يشير إلى الشاب الذى يصطحبه والذى يبدو عليه المرح؛ وربما بسبب تعبير وجهى الذى يتحول من الدهشة إلى الضحك. يناديه زيور: "تعالَ يا مصطفى!" مصطفى الآخر يدفع كرسيه، ويقترب منى ويمد إلىّ يده ويجلس معنا.

"أنا مصطفى صفوان وعندى منحة فى الفلسفة.. وأنتِ؟" نتعرف على بعض، ونتبادل التليفونات، وأتركهما للالتقاء بجوليت.

-٥-

تقترب الأعياد. تاتى وجون سيذهبان إلى فينسيا، وأرسلت إلىّ ماما مبلغًا صغيرًا من المال؛ لألتحق بأصدقائى فى موشيف. منى جميل وزاهية قد وصلتا إلى باريس منذ شهرين.

فى هذا المكان للتزحلق على الجليد، أحتفظ بذكرى رائعة عن الجليد المهيب الذى يفترش على أسطح الشاليهات والجبال وأشجار الصنوبر، ولكن أيضًا بهذا الملل المر الذى أشعر به. فنحن غير مؤهلين للتصدى للبرد والجليد ولا نعرف التزحلق على الجليد. ويزيد من خيبة أملنا قضاء ليلة الكريسماس ورأس السنة فى مقهى ليلى والنظر إلى الشباب وهم يتسامرون ويرقصون على أصوات أوركسترا جديد.

ويزيد من سوء حظى أننى لم أجد مكانًا فى قطار الصباح الذى يأخذه أصدقائى، والمكان الوحيد الذى أجده هو فى الليل وبجانب شباك ينفتح بصفة مستمرة تاركًا الهواء البارد يدخل. أنا على مشارف أنفلونزا من النوع الثقيل. ولم تضع روز، التى كنت أخبرتها بحالتى، الموقد فى حالة اندلاع. فالغرفة باردة جدا؛ ولا أستطيع أن أشعل الأخشاب التى يتنفس منها الدخان. فقد اشتكت تاتى من نفاذ آخر خزين لها من الأخشاب، فقطع الخشب كانت رطبة، وكنا مضطرين لإشعال الجرائد وقطع الخشب الصغيرة بأعداد كبيرة. أحاول مرتين فتح الشباك لطرد هذه الرائحة الفظيعة للدخان التى تملأ الغرفة. وينتابنى البكاء وأنا عُرضة للبرودة الشديدة وللإنهاك بعد ليلة قضيتها بدون نوم ما عدا بعض الدقائق فقط. ولكنى أدرك الموقف الهزلى الذى أنا فيه

عندما أرى نفسى قابعة على الأرض وأنا ما زلت بمعطفى، فأتوقف عن البكاء. ألست أنا التى اخترت أن أترك القاهرة؛ لأكون أكثر حرية؟ يجب إذن أن أتحمل مبتسمة نتائج هذه الحرية التى أصبو إليها.

أصاب برعشة شديدة، بينما أخلع ملابسى، وأكتشف أن حرارتى مرتفعة جدا. وليس لدىّ الشجاعة لأخذ حمام لإنهاكى الشديد، وأرتجف وتصطك أسنانى وأنا مختبئة تحت الغطاء، بينما أفكر فى حالتى. كيف تمكنت من تحمل كل هذه المدة صقيع هذه الغرفة الكبيرة.

تأتى روز بوجبة الإفطار فى الساعة العاشرة. وتبدو منزعجة جدا من صقيع الغرفة وتحاول إشعال الموقد. أنظر إليها وألاحظ كل الاحتياطات التى تأخذها لحماية أظافرها الطويلة والمطلية، وأتأكد أن الآنسة روز لم تأخذ على عاتقها أن ترى إن كان الموقد يعمل جيداً بالأمس.

وقد أمضيت يومين فى الفراش وأنا نائمة أو أقرأ وأستمع للموسيقى. أفتح ديوان أغانى مالدورو وأنا مأخوذة بما أقرؤه وأعيد القراءة فى صوت عالٍ لهذه الجمل المتناغمة ذات الصور الأخاذة. وفجأة أستمع إلى المذياع. إن مادلين رونو وجان لوى بارو يستقلان باخرة فى طريقهما إلى جنوب أمريكا، ويعلن المذيع أن بارو سيقرأ أشعار لوتريامون على المحيط!.

أفتح الكتاب على ركبتى، وأنتظر وحيدة وسعيدة... أعيد القراءة من حين إلى حين لهذا النثر الرائع. وقد قدم المذيع برنامجه فى الساعة العاشرة مساء، ولا أجرؤ على ترك فراشى والذهاب لتسخين حسائى.. ويصطحب صوت بارو أصوات الرياح والأمواج، ويسمع بصعوبة ورغم كل محاولاتى لضبط المذياع لا أستطيع للأسف أن أستمتع بإلقائه للشعر.

نحن فى يوم الخامس من يناير. وعلى الأرجح سيكون الأجيون فى باريس، أتصل بهم.

"متى سنراكِ؟ تعالى هذه الليلة على الفلور. حسنًا سننتظرك.. تشاو.." أنا متفاجئة بعدد الأشخاص الذين يجلسون مع أصدقائى. ويقبلنى جابى وهو يسخر من شكلى المذعور. أشد على أيدى الشباب الذين يقدمهم لى ريمون. وأغلبهم من الطلبة المصريين اليساريين أو الشيوعيين. يحبون أن يلتقوا من حين إلى حين فى "مكان آمن" للنقاش حول الموقف السياسى فى مصر.. أرى بينهم مصطفى صفوان. ويبتسم لى ابتسامة حارة: "مساء الخير يا بولى! كيف حالك؟" ويجلس ويقطب حواجبه السميكة وهو يستمع إلى الاقتراحات التى يدليها البعض بخصوص المكان الذى يمكن أن نجتمع فيه.

"لقد فكرت فى هذه المسألة" يقطع مصطفى الكلام "أحد زملائى وهو عازف كمنجة مستعد أن يعيرنا غرفته غدا بعد الظهر من الخامسة إلى السابعة. ما رأيكم؟".

قوبل الاقتراح بالإجماع. ندوّن العنوان، ونحن نؤكد أننا سنكون فى الميعاد. غادر الغالبية، وأجد نفسى مع جابى وريمون ومصطفى. نتحدث معًا ثم أتشجع وأسأل مصطفى إذا كان يستطيع هو أو أحد أصدقائه أن يعطينى دروسًا فى اللغة العربية... وسأدفع ثمنها بالطبع.

"كنت أود" يقول مصطفى "ولكن لدىّ عمل كثير، وأنا أيضا أبحث عن غرفة عند عائلات... أعطينى بعض الوقت".

"آه! لقد نسيت أن أقول لك يا ريمون سأُعْلِم صديقًا مصريا بخصوص هذا الاجتماع، وقد وصل باريس منذ شهر، وهو شاب لامع، وأنا متأكدة أنه سيلتحق بنا غدا".

-٦-

فى صباح يوم رمادى وبارد وحزين من يناير، أنتظر برهبة موعدى بعد الظهر. لا تسألنى أبداً تاتى عن المكان الذى أذهب إليه، ولا عن الناس الذين أراهم؛ فهى تعرف أننى أحكى لها عما أفعله.

"هل ستعودين للعشاء؟" وهى تسأل هذا فقط لمعرفة ما إذا كان يجب أن تعمل حسابى، ويأتى جون كل ليلة عند تاتى، ومنذ أن جئت لأعيش معها ألتحق بهما تقريبًا كل ليلة فى الساعة العاشرة عدا المرات القليلة التى أُدعى فيها للعشاء. لا آخذ عشائى إلا مع الأجيون عندما يقترحون علىّ هذا منذ أن توقفت عن رؤية جورج.

أقرر أن أرتدى بنطلون التزحلق الأسود مع بلوفر تركواز، وهذا اللون يناسبنى، وأصفف شعرى بعناية، ثم أرفع كتفىّ محبطة من هذه الصورة التى أراها فى المرآة، وأخرج لها لسانى بسخرية. لا يعجبنى شكلى! هذا الإدراك يزيد من هذا القلق الغريب الذى يساورنى منذ الصباح. وتذهب تاتى عند مصفف الشعر.

"إلى اللقاء فى المساء يا حبيبتى استمتعى بوقتك!" وتبقى رائحة عطرها دقائق قليلة بعد رحيلها وهو فام لروشيه.

عند خروجى من محطة مترو أوديون، أرى الجليد يقع! ما هذا! لم آخذ مظلتى وشعرى سَيُبَلّ. أغطى بسرعة شعرى بالإيشارب؛ وأبحث عن بيت عازف الكمان. ويبدو

وصف مصطفى فى غاية الدقة. وأجرى تقريبًا حتى أصل إلى العمارة. بعض الأصدقاء يدخلون:"تهرولين هكذا، أنتِ غير معتادة على الثلج أليس كذلك؟ هيا تشجعى فلدينا ثلاثة طوابق لنصعدها.. فهذه العمارات القديمة ليس لديها مصاعد".

نصعد الدرج ونحن نضحك، وتتبعنا جولييت التى جاءت للتو.

"أولا "تقول جوليت وهى تنهج: "ما هذا العذاب! ولكن أنتِ يا بولى خفيفة كالغزال!" عن ماذا تتحدث فهذا أصبح من الماضى! أنا ممتلئة جدا الآن.

يفتح لنا البابَ شابٌّ طويلٌ ورفيع، ويدخلنا بابتسامة عريضة. لا أعرف الموجودين ما عدا ريمون ومصطفى، ونجلس أنا وجولييت جنبًا إلى جنب على أريكة مغطاة بقطعة قماش قطنية مزركشة، ولكن ألوانها قد بهتت. الساعة لم تتجاوز الخامسة، ولكن اضطر ضيفنا أن يوقد اللمبة الوحيدة المدلاة من السطح، كيف يمكنه القراءة؟ فالضوء الشاحب والموحش يضىء الدولاب والمكتب والكراسى الثلاثة ذات القماش الممزق. وأنا أتحدث مع جوليت فى صوت منخفض انتظارا لقدوم المتأخرين، وتفضى إلىّ أنها مكتئبة؛ لأنها قطعت علاقتها مع صديقها، وتشعر بوحدة قوية!

"ليس عندى صديق" أقول لها "ولكنى أيضًا مكتئبة، ولا أعرف السبب، هذا شىء سخيف!".

"حسنًا أظن أننا يمكننا أن نبدأ فنحن جميعنا هنا" وينظر إلينا ريمون جميعًا، وعددنا أربعة عشر. ويجلس البعض بجانبنا على الأريكة، بينما يجلس الآخرون على الكراسى، وقد جلس من أتى متأخرًا على السجادة المهترئة، والغرفة تبدو الآن أقل برودة.

"فلنبدأ" يقول مصطفى: "لا أفهم سبب تأخير إسماعيل" وفى هذا اللحظة يدق جرس الباب.

فى فتحة الباب، يظهر شاب طويل وأسمر ذو شعر أسود جدا ومبلل، وهو يبتسم: "مساء الخير أنا آسف على تأخرى".

"كم هو وسيم!" تقول جوليت "أهلاً يا إسماعيل!" يقول مصطفى باللغة العربية وهو يضحك ويضيف "اجلس على الأرض فليس لدينا مقاعد كافية...".

"هل تتحدث الفرنسية؟" يسأل ريمون قلقًا: "فكثير من بيننا لا يتحدثون العربية" ويضحك إسماعيل "أتعامل مع الفرنسية..." لماذا ينطق حرف الراء، مثل الفرنسيين فهذا مثير للضحك. لم هذا الافتعال؟

"لقد نسيت أن أقدم لكم صديقى" يقول مصطفى "إسماعيل صبرى عبد الله". يجلس الشاب الذى أجده وسيمًا جدا على الأرض بعد أن يجول بنظره على الجميع ويتوقف عندى.

ولأن إسماعيل قد جاء لتوه إلى فرنسا؛ فهو مضطر للإجابة عن الأسئلة العديدة لزملائنا وهو لا يزال محتفظا بمعطفه من الصوف الأسود والأبيض. أستطيع أن أنظر إليه بدون لفت النظر؛ لأنه جالس أمامى على الأرض، وهو أسمر وشعره أسود بخصلات خفيفة وجبهة واسعة وحواجب تؤكد حيوية العينين الصغيرتين، وقسمات الوجه متناسقة رغم وجود آثار جرح على يمين خديه المنتفخين قليلاً، وإسماعيل الذى يخفى جسده تحت معطفه يبدو أن له كتفين عريضتين، وهو رفيع ومتناسق الجسم. وهذا الوجه الجميل يبدو لى مألوفًا، ويأخذنى بعيداً عن حديثه. لقد وجدتها !! فهو يشبه كثيراً لورانس أوليفيه!

وهو يتحدث ببطء، ويبحث عن كلماته وصوته رخيم. وما يقوله عن الموقف فى مصر محدد وواضح. وعندما يتوقف عن الكلام أسمع ريمون يهمس "رائع!" وأشعر أن الجميع مبهورون بالطريقة التى عرض بها إسماعيل الموقف، ويضحك مصطفى ضحكة صغيرة تنم عن الرضا. ويسألون إسماعيل بعض الأسئلة، ويجيب بالبطء نفسه،

ويضيف أحيانًا "أظن أن.. يمكن... هذا غير مؤكد..." "يا حبيبتى" تهمس جوليت فى أذنى وهى راحلة "أظن يا بولى أنك أوقعته؛ فلم تبرح عينا إسماعيل عن وجهك!" أظن أنها على حق فقد التقت أنظاره بأنظارى أكثر من مرة. هل هى مصادفة؟ فقد كان جالسًا أمامى! ونفترق جميعا ونقرر أن نلتقى مرة كل شهر، وسنتفق فيما بعد على التاريخ والمكان الذى سيستقبلنا. وبينما نسير إلى المترو يقترب مصطفى وإسماعيل منى.

"لقد وجدت لكِ يا بولى مدرس لغة عربية". يقبل إسماعيل، ولكنه يرفض أن تدفعى له.

"سأكون سعيداً لو علمتكِ اللغة العربية" يقول إسماعيل: "أعطنى رقم هاتفك عندما أجد مكانًا سأتصل بك..".

-٧-

نتأهب لغداء يوم الأحد. يقول لنا جون عبر الهاتف "لقد استدعيت التاكسى كنّ جاهزات بعد ربع ساعة..." أنظر حولى وأجد كل شىء منظمًا. قبل أخذ حمامى "الصغير" وارتداء ملابسى، كنت قد رتبت فراشنا، مثل ما أفعل كل أحد، وغسلت صحون الليلة الماضية وصحون هذا الصباح. أريد أن أكون نافعة، ولا أريد أن يكون وجودى عبئًا على خالتى الرائعة. على كل حال فهى لم تعد تتضجر، وتتركنى أفعل ما أريد. وبما أنه ليس لدى شىء هذا اليوم بعد الظهر؛ سأذهب على الأرجح إلى السينما معها.

"هيا يا بولى لنخرج! لا تنسى إغلاق الباب بالمفتاح.." تنتظرنى خالتى الجميلة جدا والمرتدية فوريرها أمام الباب المفتوح. وفى لحظة إغلاق الباب يدق جرس الهاتف، وتنظر إلى تاتى وهى ترفع كتفيها: "أنا لست هنا! ولكن اذهبى لتجيبى على الهاتف، فالمكالمة ممكن أن تكون لكِ ولكن بسرعة".

"ألو، هل أستطيع التحدث مع مدموازيل بولى..آه ها أنتِ.. أنا مدرسك للغة العربية!"

أصيح علىّ الدور وأنا مندهشة، ويكلمنى هذه المرة بمسافة، ولكنه يستمر فى لفظ الغين!

"هل قمتِ بزيارة نوتر دام دى بارى؟" وسيعرض علىّ أن أذهب معه! وأنا أشعر بالزهو لهذا العرض غير المباشر، ولكنى أجيبه.."لا"– نافية وغير مكترثة– لأن فكرة

رؤية هذا الشاب من جديد الذى أعرفه بالكاد تغرينى، لا أتذكر إلا جمال الزجاج المعشق الجميل.

"لا لم تذهبى؟" "هل تستطيعين أن تذهبى اليوم فى الساعة الثالثة والنصف؟ رائع سأنتظرك أمام الباب الكبير... إلى اللقاء.." وألحق بتاتى التى تتذمر وأعرّفها بما حدث، وتبدو مسرورة أنى قبلت هذا الموعد، وتقول بالطبع: "هكذا فقد غزت ابنتى غزواً!" أنا غير متأكدة وأرفع كتفىّ، وأحاول أن أصف لها إسماعيل وفقًا لطلبها. أرجو ألا يكون المطعم الذى سنذهب إليه بعيداً عن نوتر دام ولا أن يستمر الغداء طويلاً، وخالتى تصف إسماعيل بالمعجب، ولكنها تشتكى من كونه مصريا. لقد أعلنت لى كثيراً أنها ترغب أن أتزوج رجلاً فرنسيا، لأن المصريين لا يحترمون المرأة ويعاملونها كجارية! ولكنى لم ألتقِ حتى الآن بهذا النوع من الرجال، لقد رفضت طلب زواج من أمريكى عرفته فى لوزان، واستغربت تاتى لرفضى، وكانت ترى أنه وسيم وظريف ومن عائلة كريمة فى بوسطن، ولكنه لم يكن يعجبنى، ولم أشعر أننى لدى رغبة فى الارتباط بأحد، والآن الرجل الوحيد الذى أثار اهتمامى هو مصرى. خمس دقائق من التأخير! إسماعيل وشاب آخر طويل وأسمر ينتظرانى فى الساحة.

"أهلاً! أقدم لكِ موسى وهو صديق، وقد أجر أيضًا غرفة فى نفس شقتى... فلندخل...".

وقد بدأ كل شىء بعد ظهيرة يوم الأحد، وهى فترة جميلة وثرية من حياتى مثلها مثل فترات كثيرة أخرى.. يتبعنا موسى وهو يستمع إلى تعليقاتنا المعجبة ونحن نقف أمام كل تمثال وكل زجاج معشق. أنا مزهولة من ملاحظات إسماعيل فهى المرة الأولى التى ألتقى بشاب مصرى يهتم بالفن. يهتم بكل شىء، ورغبته فى المعرفة ليس لها حدود. أشعر أننى أعجبه.

يطوى كتفىّ فى اللحظة التى نلتف فيها حول الدكك، وهى حركة تنم عن حماية! ما هذه الجرأة؟! أنفلت برفق وأنا مستمرة فى التقدم. عندما أمد له يدى بعد هذه الزيارة الطويلة لأسلم عليه يسألنى إسماعيل إذا كنت متعبة: "ألا ترغبين فى الجلوس بعض الشىء؟ فهناك مقهى قريب" لم لا؟ أنا مرهقة؛ بسبب وقفتنا الطويلة وأستسيغ وجوده. يعتذر موسى ويختفى.

"لا بد أن موسى عنده موعد مع بنت" يلاحظ إسماعيل وهو يضحك: "لا يستطيع أن يرى امرأة بدون أن يجرى وراءها!"

نجلس فى الداخل وأطلب فنجانًا من الفيرفان، بينما يطلب رفيقى كأسًا من النبيذ الأحمر، ويضحك عندما يرانى أخرج قطعة من السكر من حقيبتى.

"أنت الآن مستقر؟ وراضٍ عن مسكنك الجديد؟"

"جدا" يجيب إسماعيل وهو يرفع كأسه "فى صحتك. عند وصولنا إلى باريس، وجدنا موسى فى فندق الأغراب الذى يقع بالقرب من السوربون، وقد تعرفنا فيه على مصطفى، وكانت الغرف مقبضة، وبما أنه أمامنا كميات كبيرة من الشاى والقهوة والسكر... إلخ كان حظنا واسعًا مع البنات، فكن يجرين وراءنا! وقد استمتعنا لبضعة أيام" ويأخذ رشفة من النبيذ ويضع كأسه ثم يقول: "ثم قررت أن علىّ أن أبدأ فى العمل، وذهبت مع موسى إلى قنصلية مصر؛ وأرانا سكرتير مدير البعثات القائمة بالأشخاص الذين يأجرون غرفًا مفروشة. ربما لا تعرفين... منذ التحرير هناك قانون يفرض على سكان الشقق الواسعة أن يؤجروا غرفة أو غرفتين فى بيتهم، وقد قرأنا القائمة بإمعان، ودرسنا الأحياء وخصوصًا الأسعار، ووقع نظرى على كونتيسا تؤجر غرفتين فى حى المويبيت، وكانت أسعارها مرتفعة بالنسبة لموسى وأنا، ولكن ذهبنا لرؤية هذه المرأة، واستقبلتنا جيداً وكنت مبهورا؛ غرف مضيئة وأثاث قديم مثل بقية شقتها

المكونة من سبعة غرف! وقد اخترت على الفور غرفة كبيرة تطل على حديقة صغيرة وفيها برافان يخفى الحوض.

"والحمام؟" "بالطبع" يجيب وهو يضحك "هناك بالطبع حمام، ولكن لا نستطيع أن نستخدمه إلا مرة فى الأسبوع".

أصيح وأنا فى ذهول: "وكيف قبلت هذا الوضع، وتقول لى: إن هذه المرأة تطلب منكما إيجاراً كبيراً! وكونتيسا أيضا!" وينفجر إسماعيل ضاحكًا "هى كونتيسا، ولكنها أيضًا فرنسية وتبدو حريصة، وتقدر أن حمامًا فى الأسبوع شىء كافٍ، وقد علمت من بعض الطلبة الذين أجّروا غرفًا عند أفراد أنهم حصلوا بقوة الإقناع على حمام فى الأسبوع، ولنا الحق فى إفطار، ولكن ليس بعد العاشرة صباحًا. آه، ولقد عرفتنا مدام أننا نستطيع أن نستقبل زيارات كما نشاء، ولكن ليس بعد الثامنة مساء، وقد أضافت بابتسامة صغيرة "فأنا إنسانة مسنة، وأحتاج لبعض الصفاء والهدوء وبعد عشائى تعود مارى لتنام".

"قل لى يا إسماعيل كيف تعلمت أن تنطق الغين بهذه السرعة؟" لم أستطع أن أمنع نفسى من سؤاله. ويحمر وجهه ويتنهد: "لم أعمل أى مجهود فأنا ألدغ باللغة العربية أيضاً... ألم تكتشفى هذا.. فهذا يمكن أن يكون عيبًا صغيراً فى حلقى حاولت بكل طريقة التخلص منه، وكان زملائى فى الفصل يسخرون منى، هل تفهمين الآن يا آنسة؟" يحمر وجهى وأعتذر ويضحك: "لا تعتذرى.. منذ أن أتيت إلى باريس يضحك كل المصريين ويسألوننى كيف تعلمت التحدث بالغين؟".

نقطع بعض الطريق معًا فى المترو، فإسماعيل يذهب إلى الأودين للالتقاء بمصطفى، وأنا أذهب إلى الأتوال، وسآخذ أول درس بعد غد، وأشترى كراسة بناء على طلبه، وسيأتى بآخر عدد لجريدة الأهرام.

ولأن تاتى لديها فضول لمعرفة إسماعيل؛ فهى تتلكأ فى الخروج، وتنتظر حتى الثالثة والنصف ويأتى فى الميعاد، وهذا شىء أدهش تاتى وأنا أيضا.

"أقدم لك تاتى"

"مدام" وأرى مذهولة، إسماعيل يقبل يد خالتى.

"مساء الخير يا إسماعيل لقد حدثتنى ابنة أختى عنك، ولكن اخلع معطفك فالمكان فيه تدفئة. هيا سأترككما. درس مفيد".

وعندما أجلس فى مواجهته أفكر فى ابتسامته الخجولة أمام تاتى.

"كم هى جميلة خالتك! وظريفة أيضا! أنتِ على ما يرام منذ يوم الأحد؟ أرى أن لديكِ كراسة... هذه هى الأهرام.. حسنًا اقرئِى بعض الجمل بصوت عالٍ...".

جاء دورى للشعور بالخجل. أحك حلقى وأبدأ فى البداية ببطء ثم أسرع، وهو يستوقفنى بلطف عند كل خطأ من أخطائى، ثم أكتب كل كلمة باللغة العربية فى عمود، وفى المقابل أكتب المعنى باللغة الفرنسية، ونشعر بالارتياح نحن -الاثنين-، وننطلق فى الضحك عندما أنطق كلمة بطريقة غير صحيحة.

"ذاكرى للمرة القادمة هذه الكلمات التى كتبتها. والآن ضعى قلمك ولنتحدث باللغة العربية، وحاولى ألا تنطقى كلمة باللغة الفرنسية".

وهذا الحديث مفيد؛ لأنه يمكّننا من معرفة بعضنا، وفى الوقت نفسه أتعلم كلمات جديدة، وهو الذى يسأل، وفجأة عندما أتحدث عن أختى ربما كمثال لها وأنها تعلمت العربية جيدًا؛ يسأل إسماعيل: "قلتِ لى إن اسمك جلبيرى وما هو اسم أختك؟ ديدى؟ ما هذا الاسم؟".

"اسم أختى هو اسم خالتى نفسه إنجى... إنجى أفلاطون بالطبع" وتضئ وجهه ابتسامة منشرحة: "إنجى أختك؟ فهذه فتاة رائعة. مخ سياسى! لم أرها إلا مرة واحدة فى اجتماع من بعيد".

سيأتى إسماعيل بعد ثلاثة أيام من أجل درسى، ولكن يقترح علىّ الذهاب إلى السينما غداً أو بعد غد، وأتجرأ وأسأله إن كان مهتمًا بالرقص الكلاسيكى: "بالطبع! ما هى فرقة الباليه التى تحبينها؟"

"فرقة هولندية: وهو باليه جوس، ولكنه باليه عصرى جدا؛ فأنا أحذرك، وأنا كما تعرف أعشق الباليه، وقد أخذت لمدة أربع سنوات دروسًا فى الباليه على طرف أصابعى، وعندى مجموعة كبيرة من الكتب عن الرقص". ونتحدث عن هذه الفرقة.

فى أول مرة ذهبنا فيها إلى السينما معًا، وفى المرة التى وضعت فيها نظارتى عندما أُطْفِئت الأنوار هتف إسماعيل بفرحة: تضعين النظارات! أعشق النساء اللاتى يرتدين النظارات! لماذا تخفين هذا؟ يا للحماقة!" سيل من الكلمات ما هذا الكذّاب؟ لا أصدقه، وأرى أنه يبالغ فى مجاملاته أستسيغها بالقطع، ولكن لا أقتنع بها كثيراً، بالطبع من الممتع أن يكون لك شخص معجب بك، ولكن إسماعيل لم يكذب؛ فهو يحب النساء اللاتى يرتدين النظارات.

أصبحت أخرج كثيراً فى صحبة إسماعيل ومصطفى المرتبط به جدا. ومصطفى أقصر من إسماعيل، ووجهه أبيض جدا، وشعره كستنائى فاتح ذو خصلات، ويحضّر دكتوراه فى الفلسفة رغم عشقه لعلم النفس، ونشترك ثلاثتنا فى عشقنا للموسيقى والرقص.

"تعرفين يا بولى" يقول فى يوم ما مصطفى: "أنا وإسماعيل نحبك كثيراً، ولكن فى البداية كنتِ تضايقيننا بهذا الاندهاش الدائم الذى كنتِ تبدينه أمام معارفنا وأذواقنا وطريقتك المتعالية!" لم ألحظ طريقتى هذه، وكنت لا أتوقف عن الاندهاش؛ لاكتشافى

مصريين على هذا القدر من الثقافة والعلم، مختلفين لهذه الدرجة عن الذين عرفتهم فى القاهرة! ما عدا بالطبع بول ومحمود ومجموعة السرياليين وجورج حنين.

تقريبًا كل أيام الأحد نذهب –ثلاثتنا– إلى حفلة موسيقية. إن أوركسترا با دى لو وأوركسترا بول باريای لم يكونا من أفضل الأوركسترا، ولكن أسعار التذاكر كانت فى متناول أيدينا.

فيما بعد، جميل وصديقته أصبحا يخرجان معنا، وقد التحق جميل بكلية الحقوق كما وعد خاله.

"عندما ستحصل على ليسانس الحقوق سوف تستطيع أن تكون ممثلاً.. هذه ليست مهنة!..." ويضحك جميل، ويصرّح لنا أنه لم تطأ قدماه كلية الحقوق قط. وقد التحق "بدروس سيمون" بالفن المسرحى. ويأتى معنا موسى أحيانًا عندما لا يكون عنده موعد مع فتاة. وهو شاب ظريف طويل جدا ورفيع وأسمر وشعره أسود لامع. وهو فى رأيى يشبه المتعهد. ولا أستطيع أن أمنع نفسى من سؤال إسماعيل: إذا كان صديقه لا يلمع شعره! لا شيء يقرب بينهما ما عدا الصداقة: "كنا نسكن فى نفس الكابينة" كما شرح لى إسماعيل، وهو ليس ذكيا جدا، ولكنه ظريف ولطيف ومعجب بى بلا حدود. وهو يستمع إلى نصائحى، ويعتبرنى أخًا كبيراً له... وبالطبع كما يقول إسماعيل وهو يضحك: "موسى متضرر لأنه لا يستطيع أن يستقبل البنات فى غرفته بعد الساعة الثامنة مساء، وهو يقابلهن فى مكان آخر وينام متأخراً، ويصحو عند الظهيرة".

-٨-

حان موعد حديثنا باللغة العربية. عادة يسألنى إسماعيل؛ لكى أجيب باللغة العربية، ولكن اليوم يحكى لى أستاذى كيف حصل على منحته الدراسية. كان إسماعيل الأول دائما فى المدرسة الثانوية وفى الجامعة: "الأول على كل مصر!" يقول لى وهو يبتسم. "ولكن كلية الحقوق لم يكن عندها منح هذا العام، وقد أعطتنى جامعة الإسكندرية هذه المنحة من غير علمى"- أسمعه بزهو- ويقول لى بطريقة عابرة: إنه أتم عامه الواحد والعشرين يوم ٢٤ ديسمبر!

"نعم" يقول وهو ضاحك "فأنا يسوع صغير! ولكن ما بالك لماذا يبدو عليك الكآبة" إن الصدمة التى اجتاحتنى عندما عرفت سنه قد غيرت ربما شكل وجهى. لماذا أنا محبطة إلى هذه الدرجة؟ هذا الشاب الذى يروق لى، والذى أعجبه، والذى يبدو مهتمًا بى جدا أصغر منى بكثير! وأصيح: "ما هذا! أنت أصغر منى بكثير فقد أتممت عامى الـ٢٥ منذ بضعة أيام" وأدرك أننى يجب أن أكف عن رؤيته، وينقبض قلبى. يجب أن أبتعد عنه! ويجتاحنى خوف رهيب رغم عدم اهتمامه بالأمر، وابتسامته الصغيرة الجذابة.

"ماذا بعد؟ ما أهمية هذا الفرق فى السن؟ ألا نشعر أننا منسجمان معًا؟".

"نعم يا إسماعيل، ولكن المشكلة ليست فقط السن فقد عشت تجربتين، وكانتا تجربتين تعيستين، وصغر سنك عنى، وأظن أن من الأفضل لك ولى أن نكف عن رؤية بعضنا البعض"، وقد انطلقت فى الكلام وأنا عازمة على فك هذه الروابط التى قويت

بيننا دون أن أشعر. بسرعة يا بولى يجب أن تكفى عن رؤية هذا الشاب الوسيم والجذاب! فهذا خطر! فأنا لست مستعدة أن أبدأ فى المعاناة من جديد.

"هذا هراء يا بولى" إن تعبير وجهه، وهذه الحركة التى يضم بها شفتيه يزعجانى، ولكنه يأخذ يدى، ويشد عليها برقة، ولكنى أسحبها على الفور، وأقيم حولى سوراً عليه أن يحمينى، ويجب أن يقودنى العقل. يجب أن يعرف كل شىء.. علىّ أن أبعده إلى الأبد.

وقد سمعنى إسماعيل بدون أن يقاطعنى.

"هذه هى الحقيقة لم أخفِ عنك شيئًا؛ لأنى لا أريد أن نرتبط، فأنت شاب بدون خبرة فى النساء. وتُعجب كثيراً البنات، وعندك فرص كثيرة لمعرفة فتيات أصغر منى سنا وأكثر منى جمالاً" وتوقفت عن الكلام، وأنا مرتبكة بسبب نظرته التى لا تبارحنى، وأنتظر بضع ثوانٍ وأنا لا أبتعد عن نظرته.

"أشكرك على ثقتك فى، ولكن ليس لى الحق فى الحكم عليكِ، وهذا الموضوع الذى حدثتنى عنه ليس من شأنى على الإطلاق وهذا تاريخك... وأتصور كم عانيتِ! وأنا سعيد لأنك نسيت هذا الرجل؛ إنسان ليس له مبادئ ولكنك لم تصدمينى، وأشعر تجاهك نفس هذا الانجذاب، ومن المستحيل أن أكف عن رؤيتك، وأنتِ التى يجب أن تقررى أن تستمرى".

وتضىء وجهه الجميل ابتسامة مليئة بالحنان، إلى درجه أننى أنسى كل قراراتى. كم أرغب أن يضع شفتيه المرسومتين بعناية على فمى!.

"أقبل يا إسماعيل، ولكن عدنى أنك ستنبهنى فى الوقت المناسب...".

"فى وقت ماذا؟" يضحك ويأخذ يدى ويقبلها "فى حالة أن أقع فى غرام امرأة أخرى! حسنًا، ولكنى لست هذا النوع من الرجال، وأظن أننى سأقبع فى حضنك فترة طويلة... وأرجوكِ أن تنسى موضوع السن".

فرحة عارمة تعترينى، ولا أشك ثانية فى صدقه، ألم أردد لنفسى مراراً أننى سأقبض بكلتا يدى على ما سيسعدنى؟ بدون التفكير فى الغد؟ غريب! هذا الشعور الذى ينمو فى داخلى، مثل صوت يؤيدنى ويقول لى بصوت منخفض أن أستمر فى هذه الصداقة العاطفية مع إسماعيل.

وأنبذ كل مخاوفى، إن القوة الهادئة التى تنبع من هذا الشاب وحنان ابتسامته يغلفانى بمعطف رقيق ودافئ، وتطير هذه السنوات الأربع التى تفرقنا بدون أى صوت، لا أريد أن أفكر... فيما بعد. وأختار أن أعيش كل اللحظات التى نقضيها معًا، وعندما يعرض علىّ أن نؤجل درسنا إلى يوم آخر لكى نذهب لرؤية "المدمرة بوتنكين" فى السينماتيك...أنهض: "فكرة رائعة!" أرتدى معطفى فى ثوانٍ وأصبح جاهزة!، ونمسك أيدينا ونسلك طريق محطة المترو ضاحكين، وقد تقابلنا منذ أكثر من شهر، ونود أن نظل معًا بدون وعود وبدون كلمات حب، ونبتسم ونحن سعداء فنحن حبيبان. وسنتعلم كيف يعرف أحدنا الآخر من خلال روائع المدينة، ونقطف ثروات مدينة باريس التى تبدأ فى الحياة من جديد بفضول وبحماس. وفصولنا سوف يصطحبها الشعر المغنى لجوليت جريكو ومولوجى وايف مونتون وايديت بياف والأخوة جاك وبريفير وكينو وأليوار وأراجون.

لن أندم أبدا!

لم نفترق قط!

(٩)

صفيـــة

-١-

لقد أرسلت عن طريق البريد وفقًا لنصائح ريمون أفضل قصائدى إلى بول إليوار وإلزا تريوليه، وعلمت عن طريق اليتر فرونسيز بعدها بأسبوعين أو ثلاثة أن الشعراء. الشباب مدعوون إلى "بيت" الفكر الفرنسى فى اجتماع يحضره أراجون وإلزا تريوليه وإليوار وتزارا وكونوه وشعراء آخرون، سيبدون رأيهم فى كتابات الشباب! لا أفكر إلا فى هذا الاجتماع! تنتابنى مشاعر فرحة ثم مشاعر قلق، ويرسم لى خيالى هذا الاجتماع كنوع من المحاكمة. مَنْ بين هؤلاء الشعراء الكبار الذى سيحاكمنى؟ أعرف أن قصائدى جيدة، فلماذا إذن هذا الخوف؟

هل سأرى بول إليوار؟ لقد قال ريمون إنه بدأ فى الخروج من جديد بعد أن أثر فيه جدا موت نوش. إنه شاعرى المفضل، وشعره السياسى يشعل وجدانى، ويشوبه مشاعر عميقة وصادقة. وعلى عكس هذا فبعض الشعراء الشيوعيين قد صدمونى، وأتساءل وبحيرة: هل هو بسبب الشكل أم المضمون؟ هل يمكن كتابة الشعر تحت الطلب؟ هل من المفترض الخروج من البرج العالى والحديث عن التمرد وفقر المقهورين؟ وهذه مهمة مليئة بالمخاطر والفخاخ لو أن المرء لا يريد أن يقع فى الاستسهال، وأن يحرر فقط منشورات. فإن النوايا الحسنة لا تكفى، وتعترينى الأفكار وأحاول ألا

أترك لنفسى العنان لهذا التوتر الذى ينتابنى فى كل مرة أمرّ فيها بفترة مهمة من حياتى.

"بوفو!" يقول الكمسرى. أنا أمام باب الأتوبيس؛ وسوف أهبط الدرج. آخذ طريق شارع الإليزيه وقلبى يخفق، وأنا أسير نحو المبنى القديم والجميل الذى أجرته البلدية لمثقفى المقاومة. تجتاز مجموعة من الشباب عتبة المكان معى. يرشدنا ضجيج الأصوات، ونعتلى الدرج وندخل فى قاعة واسعة أعدت من أجلنا. أغلب المقاعد مشغولة، ولكنى أجد واحداً فى الصف الرابع. أمامنا على منصة توجد طاولة مستطيلة تعلوها سجادة بنّية ووراءها مجموعة من الكراسى التى تنتظر "قضاتنا".

أنظر على استحياء إلى زملائى. يبدو أن بعضهم يعرف بعضاً من قبل ويتحدثون معًا، أما الآخرون فينظرون مثلى.

فى السادسة تظهر امرأة صغيرة ذات شعر يميل إلى الحمرة.

"هذه إلزا"... يهمس بعض الشباب، لم أتفحصها جيداً. بفرحة شديدة أتعرف على لوى أراجون وعلى بول إليوار وترستون تزارا وريمون كلونو وكلود روا وآخرين. كم يبدو إليوار وأراجون وتزارا وسيمين.

تترأس إلزا تريوليه الجمع وألتهمها بعينىّ. فهى جميلة وصغيرة الحجم ورفيعة وأنيقة، وتضع مكياجًا خفيفًا جدا، ولكن سر انجذابها يأتى من ضوء عينيها البنفسجية وجاذبيتها الخاصة جدا. لا تنطق الغين، وتتحدث باسم الشعراء الذين كتبنا لهم، وتقيّم الشعر، وتقول إن بعضه جيد والبعض الآخر سيئ، وتنقد شعر المناسبات الردىء، وبدون أن تتفوه بأسماء كاتبيه تستشهد ببعض الجمل ذات النوايا الحسنة، ولكن ذات الشعر الضئيل. وهذه الفترة يكتشف فيها جيل من الشباب يكتب بشغف شعر المقاومة.

وتحت تأثير أراجون وإليوار وآخرين لا يدركون أفخاخ أو مقالب هذا النوع من الشعر، ويشبه شعرهم منشورات سياسية. وفجأة ينتصب شاب من القاعة: "الشعر يجب أن يخاطب الشعب! القوى العمالية! الطبقة العاملة!" لا أحد يستمع إلى باقى كلماته الملتهبة التى تغطيها سخريتنا: "هوووووس! هووووس! اسكت! هل أنت مجنون أو ماذا؟" يشده شاب طويل جالس بجانبه، ويضطره إلى الجلوس.

يضرب على الطاولة جون مارسونك ويطالب بالهدوء، ويعلن أن بعد كلمة إلزا ترويليه سيمكننا التحدث، وقبل أن تنهى إلزا كلمتها تعرفنا أن ميزانية ليتر فرنسيز لا تسمح لها فى الوقت الراهن بإنشاء جريدة مخصصة للشعراء الشباب، وأنه سيبقى دائما مكان صغير فى الليتر أو أوروب لنشر قصيدة ما. وعلى كل حال فإن المجلس الوطنى للكتّاب يضع تحت أمر شباب الشعراء قاعة فى البيت، ويمكنهم أن يجتمعوا فيها، وأن يقدموا أعمالهم الأخيرة، وأن يتناقشوا ويدعون شاعراً يكبرهم. وأن القاعة ستكون متاحة كل خميس من الساعة الخامسة إلى السابعة والنصف.

وتستقبل هذه المبادرة بتصفيق حماسى ثم تعطينا إلزا الكلمة، ويقوم الشاب المتوتر مرة أخرى متجاهلاً همسات عدم الرضا: "أطلب الكلمة باسم الطبقة العاملة" ويبدأ فى المخاطبة بصوت يزداد حدة. أستمتع كثيراً فقصيدته هى نوع من المنثور حيث كلمتى الثورة والشعب تتكرران بصورة دورية وتتصاعد الضحكات والتنهيدات و"الأولالا" بدون أن يرتبك هذا الذى يُدعى شاعراً. وتجتاح القاعة تنهيدة ارتياح عندما يجلس الشاب وهو ملىء بالرضا!

"هل نصفق؟" يقول أحدهم ضاحكًا.

"أرجوك لا! فإذا أتى إلى اجتماعتنا لن يتحدث أحد منا!".

ثم يتحدث أراجون ويقول إن النص الذى قرأه هذا الشاب لا علاقة له بالشعر، وإن على كاتبه التوقف عن كتابة الشعر! وينهض الشاب: "أرجوك" يصرخ أراجون

"أرجوك اجلس وتعلم كيف تكون مـهـذبًا يا أسـتـاذ، فـلا تقـاطـع النـاس هكذا!" ويأخـذ الشاب حقيبته وهو محتقن مثل الديك، ويدفع كرسيه بعنف، ويمر بين الناس ثم يختفى. مع ألف سلامة! الكل يضحك، الشعراء المعروفون والشباب الجدد. ويبدأ النقاش ويجيب إليوار ووكونو وأراجون ومارسونك عن أسئلة بعض الشباب الذين يقدمون أنفسهم، ثم يقرأ أراجون وإليوار قصيدتين أعجبا بهما: قصيدة لجاك روبو وأخرى لأرونيريه دييتر وهو من هايتى. وهذان الشابان موهوبان جدا وسيعدّان فيما بعد من أفضل شعراء فرنسا. واجتماعاتنا فى يوم الخميس ستقربنى من جاك روبو وأرونيريه دييتر وألان جيران وجوزيت ميلاذ.

انتهى الاجتماع، ويحيط بعض الشباب بأراجون وتسارا وإليوار، ويتحدثون معهم بعض الشىء. وأنا على وشك الخروج من القاعة عندما ألاحظ إلزا تريوليه تتحدث مع بعض الناس؛ وأتشجع وأقترب منها. ولأنها تنظر إلىّ مبتسمة أقدم نفسى: "مساء الخير مدام لقد أرسلت إليكِ بعض القصائد" العيون البنفسجية تنظر إلىّ: "طبعا! أحب كثيراً شعرك..أنتِ مصرية أليس كذلك؟ غريب لأن شكلك يميل إلى المنغولية. تكتبين بالعربية أيضا أظن" يحمرُّ وجهى، وأشرح أنى لا أعرف لغتى بالقدر الكافى مثل أغلب الشابات المصريات من طبقتى...

تهز رأسها وتبتسم: حسنا! ستحضرين اجتماعات الخميس أليس كذلك؟ ستتعرفين على بعض الشعراء الشباب الفرنسيين، وسوف ننشر قصائدك فى المجلة التى ننوى إنشاءها... أتمنى أن أراكِ من جديد...".

تمد لى يدها وتعطينى ظهرها وتختفى، وأتوجه نحو باب الخروج ويسير بمحاذاتى شاب ذو وجه مستدير وردى بعيون زرقاء وفتاة رفيعة جدا شعرها أسود.

"هل أنتِ مصرية؟ اسمى ألان جيران وهذه سوزان خطيبتى" ونتعارف ونحن نسير نحو محطة الأتوبيس."إلى اللقاء فى الخميس المقبل! سلام!" لا شىء سيمنعنى عن حضور اجتماعات يوم الخميس، ويجتمع أكثر من أربعين شاعراً فى

الأسابيع الأولى والنقاش الحاد والملتهب يفرّق المشاركين بسرعة شديدة. عدد كبير يرفض بقوة أن يعبر عن أى فكرة سياسية أيًا كان جمال الصورة، ويحتقر معتقدات بعض الزملاء الأعضاء فى الحزب الشيوعى، ويختفون الواحد تلو الآخر.. وبعد قليل لم يتعَدَّ عددنا العشرين، وأغلبنا من المؤيدين لليسار أو الشيوعيين أو الذين يشدهم هذا الجو المرحب الذى تملؤه الزمالة والتقدير. ننقد بموضوعية شعرنا الأخير، ونتناقش حول كتابات الذين يكبروننا وزملاء الخميس ينادوننى بصفية لأنه اسم سهل فى النطق؛ وسأستخدمه فى شعرى وقصصى القصيرة التى سأنشرها فى الليتر فرنسز، وهذا قرار حكيم وسأضع هذا الاسم أسفل كتاباتي التى استلهمتها من السنوات العصيبة التى سأمر بها.

٢٤ شارع تيلسيت. لقد انتقينا ثلاث غرف فى الدور الثانى. غرفة تاتى وغرفة الإقامة تتضمنهما الشبابيك التى تطل على شارع تيلسيت، ولكن غرفتى تطل على الساحة، وأنا كثيرا ما أضطر للإضاءة أثناء اليوم.

أحاول أن أنظم بأفضل طريقة ممكنة ساعات عملى. عند سماع الأصوات المألوفة التى تكشف لى عن عودة تاتى أغلق كتابى وأطفئ ضوء اللمبة، وأتفادى كذلك أن تظل تتناقش معى كما كانت عادتها فى شارع فيكتور هيجو. وأترك باب الغرفة مواربًا حتى تستطيع القطة السيامية الرائعة أن تذهب إلى رمالها، وبوسى تسعدنا وقد جذبت إليها جون وإسماعيل اللذين يحبان أيضا القطط، وبما أن تاتى تنام فى الداخل وبابها مغلق تأتى بوسى وتقفز برضا على فراشى وتهمس وهى تشم وجهى، وتتكوّر على مهل بجانبى ثم تنام.

أستيقظ فى السادسة صباحًا، وأحضر لنفسى كوبًا كبيرًا من القهوة باللبن ولا أنسى بوسى. أعيد قراءة الصفحات الأخيرة التى كتبتها فى المساء منتهزة فرصة الهدوء الذى يسود المكان. وبعد أن أشرب قهوتى أنظف غرفتى، وأبدأ فى العمل. فى حوالى العاشرة توقظ كاميل تاتى ومعها الشاى عدا أيام التدليك ويبقى لى أكثر من ساعتين للكتابة بهدوء، وبالطبع هناك بعض وقت للراحة التى أقضيها بجانب خالتى لاختيار قائمة الطعام، وكثيرًا ما تعرّفنى أن شخصًا ما سيأتى للغداء!

أول أحد من كل شهر أتناول الغداء مع إسماعيل وأصدقائنا على الأرجح فى ضواحى باريس مثل شانتيه أو فونتين بلو أو أماكن أخرى رائعة، ونزور معالمها

وقصورها. في إحدى الصور المأخوذة في سان جيرمان أونليه في أول أحد من فبراير المليء بالثلج، والبارد جدا؛ نجلس في عربة يجرها الخيل ملتصقين نضحك بملء أفواهنا ونحن سكارى بعض الشيء بسبب النبيذ الذي تجرعناه أثناء الغداء. بعد نزهتنا نذهب إلى الغابة. أستمتع جدا برائحة أوراق الشجر الندية والنباتات البرية المنحنية من وطأة الثلوج ورائحة الأرض التي أصبحت طينية. وعندما نسير بين الأشجار يدفعني إسماعيل ببطء حتى لا أتزحلق بعيدا عن الآخرين، ونقبل بعضنا أول قبلة ونحن مختبئان تحت شجر بلوط كبير وهي قبلة عارمة! لم أقاوم!، وقد طارت كل تحفظاتي ومخاوفي لتترك مكانها ارتباكًا كبيرًا وسعادة عارمة وهو يحيطني بلمسات كبيرة تسعدني مثل هذه الباقة من الورد التي أهداها لي.. وهي أول ورود يهديها لي رجل.

-٣-

ألتقى بصفة دورية بزملائى المصريين، وفى أحد الاجتماعات نقرر بالإجماع أن نصبح أعضاء فى الحزب الشيوعى الفرنسى. وعلى كل حال فأغلب الذين عايشوا الحرب أصبحوا بالفعل أعضاء، ومن المفترض على الأعضاء الجدد أن يكتسبوا بعض الخبرة، ويقترح علىّ إسماعيل خليّة موجودة فى شارع ران لاجا بجانبه: "سأنتظرك فى محطة مترو موبات".

"وخصوصا يا بولى" ينصحنى فيكتور: "لا تحاولى أن تذهبى إلى اجتماع الحزب بمعطفك الفورير!" لم يسمع هذا الكلام إسماعيل فهو يتناقش مع ريمون.

من حسن الحظ أن تاتى خرجت؛ كانت ستدهش من رؤيتى بمعطفى الصوف! وينتظرنى إسماعيل عند مدخل مترو موبات، ونسير مسرعين نحو المقهى الذى سنجتمع فيه، ويهب هواء مثلج على وجوهنا، وأشد على معطفى وكوفيتى وأنا أرتعش.

"كأنك ستموتين من البرد؟ ولكن لماذا لا ترتدين الفورير؟" وينطلق فى الضحك عندما أعرّفه بنصائح فيكتور. "ما هذا الأبله! هل تتصورين أن زملاءك حتى العمال من بينهم لا يعرفون أنك بورجوازية.. وعلى كل حال أنا متأكد أن بعض النساء سيرتدين الفورير، فالحى الذى أسكن فيه راقٍ، وينتمى أغلب سكانه إلى البرجوازية الكبيرة.

عددنا خمسة عشر شخصًا، وبعد أن أجلس ألاحظ ثلاث نساء يرتدين معاطف الفورير! وواحدة منهن من عائلة روتسشيلد، ترتدى جاكيت من الفيزون وهى تبيع كثيرًا

جريدة الأومانيته فى يوم الأحد فى شوارع حيها! أتعرف أيضا على جى بربون وهو قريب صديقنا ريمون والزملاء الذين يحيطون به ينتمون إلى طبقات مختلفة من المجتمع، وقاعة الاجتماعات متصلة بالمقهى، ويحمينا بابها المغلف من النظرات الفضولية، ويأتى إلينا بوهن صوت الزبائن الجالسين فى الخارج، ويبدأ الاجتماع ولا أتدخل كثيراً لأنى أشعر بالخجل أمام المعرفة السياسية لزملائى. أستمع وعندما نسير وحدنا يشرح لى إسماعيل الأشياء التى لم أفهمها.

عام ١٩٤٨! مظلم بحمله الثقيل من النتائج! فنحن فى خضم الأشياء. فقد أعلن الصهاينة دولة إسرائيل! وقررت سبع بلاد عربية أن تتصدى بالقوة لهذا القرار، ولكن حكومتهم تستغل الموقف لاضطهاد الشيوعيين بذريعة أن الاتحاد السوفيتى قد صوّت لتقسيم فلسطين، وأن بعض البلاد الشرقية تعطى الأسلحة للإسرائيليين. وفى العراق الشرطة تقبض على سكرتير الحزب الشيوعى وثلاثة من قادته. وبدون أى محاكمة يشنق نورى السعيد فى ميدان فى بغداد! وستظل أجسادهم معروضة عدة أيام أمام الناس.

أنا مضطربة جدا، مثل جميع أصدقائى من هذه الأنباء، ومضطربة أيضا لأنى لا أعرف أى جانب أختار. لماذا يجب أن ينتقم الذين نجوا من الهولوكست لملايين اليهود الذين اضطهدوا أو ماتوا فى معسكرات التعذيب فى ألمانيا؟ الذين لم يتكلموا أم الذين تعاونوا؟ من الذى يعطى اليوم لنفسه الحق لحرمان شعب من بلده؟ هل العداء للسامية الموجود فى أعماق عدد كبير من الأوروبيين يعطى لهم الحق للاصطفاف مع هذه الدولة بسبب إحساسهم بالذنب؟

أنا وإسماعيل ومصطفى وريمون نحاول أن نفهم. ونتتظر بفارغ الصبر أى نبأ يأتينا من مصر، والأنباء تزداد سوءاً. إن الصراع الذى انفجر بين الأطراف المختلفة قد أدى إلى اغتيال رئيس الوزراء عن طريق الإخوان المسلمين.

إن العداء للسامية الذى يتصف به تاتى وجون وأغلب أصدقائهم يجعلهم يصطفون بجانب الفلسطينيين! وأسمعهم يتكلمون أثناء كل الوجبات. عندما حاولت أن

أشرح لهم الفرق بين اليهود والصهاينة، وأنا أؤكد لهم أن كثيراً من اليهود المستنيرين معترضون على إنشاء دولة إسرائيل. أسكتونى باعتراضاتهم العنيفة. ولا أتطرق مجددا لهذا الموضوع.-

فى هذه الأثناء يصل إلى باريس يهود قد تنازلوا عن جنسيتهم المصرية، وكان البوليس قد أوصلهم بسيارة نقل إلى باخرة كان عليها أن تقلهم إلى أوروبا، وكان بينهم عدد من الشيوعيين قد أُطلق سراحهم من معتقلات التعذيب فى مقابل هذا التنازل.

وقد علمت بذهول كبير أن أرمون استقر فى باريس وتزوج. ويعنى هذا أن إنجى وأرمون قد انفصلا. وأنتظر وأنا مصدومة أن تشرح لى أختى هذا الانفصال رغم تأكدى من قوة مشاعرهما وأنهما سيتزوجان؛ ففرق الديانات لا أعيرها أنا أى اعتبار.

ولا يشير الخطاب الذى أتلقاه من إنجى من قريب أو من بعيد عن هذا الانفصال، وسوف تتحدث معى فى هذا الموضوع خلال إقامتها القادمة فى باريس. وهى تكتب لى أنها تشعر بالسعادة بشأنى وأن "حبيبى" يشبه جدا لورانس أوليفيه! وهى مسرورة جدا بنشاطى الجديد، وتقترح علىّ أن أساعد القسم الذى يناضل من أجل حقوق المرأة، ومقره فى الحى السادس عشر، وأذهب إليه مرتين فى الأسبوع، والمسئولة عن هذا الجناح هى امرأة كبيرة ومليئة وذات شارب ولطيفة وأحترمها جدا. لم ألتقِ للأسف مع مارى كلود فايان كوتوريه سكرتيرة المنظمة وأنا معجبة بها جدا، ونحن أربع نساء علينا دراسة ظروف المرأة الحياتية فى أمريكا الجنوبية وإسبانيا والهند وفى العالم أجمع وبالطبع فى مصر، وقد طلبت كثيراً أن تعترض المنظمة على حكومة بلدى بسبب القبض العشوائى. "إن الاعتراضات المستمرة ليس لها وزن كبير" تشرح سيمون "يجب أن نستخدمها فى الوقت المناسب وفى أضيق الظروف" وخبرتى الشخصية ستعلّمنى أن سيمون على حق.

ودروس اللغة العربية؟ إن تحرير رسالة الدكتوراه تتطلب من إسماعيل عملا شاقا وأبحاثًا طويلة ومثابرة، والأوقات القليلة التى نلتقى فيها هى أوقات ثمينة جدا، وبالتالى فقد أجّلنا هذه الدروس فى الوقت الحالى!.

يستمع إلىّ" إسما" كما أسميه منذ وقت قصير فى صمت، وبوسى تموء على ركبتيه. أقرأ بأفضل طريقة "فليصحو الحطاب" لبابلو نيرودا وقد تأثرت بهذه القصيدة، وأردت أن يستمع إليها إسماعيل... نعلم من الصحف أن هناك تكريمًا لنيرودا فى السربون. وكان الحزب الشيوعى اعتبره خارج القانون، واضطر نيرودا للنفى؛ ونقرر أن نذهب إلى السربون.

المدرج الكبير ملىء عن آخره مع أننا قد وصلنا قبل الميعاد! نكتشف مكانًا فارغًا بمعجزة على دكة بعيداً عن المنصة، ومن حسن الحظ أننى أرتدى نظارتى، وننتظر حولنا ونحن ملتصقان. هناك جمع كبير من الشباب الذين يأتون متأخرين. مضطرون أن يجلسوا على الدرج، ومن هم أقل حظا يظلون واقفين وظهرهم مستند إلى الحوائط البيضاء، ونستمع إلى الحديث باللغة الفرنسية ولكن أيضًا بالإسبانية. ربما هم الإسبان الذين هربوا من بطش فرانكو والشيليين. نعانى من الحرارة رغم أن القاعة ليس بها مدفأة، وننتظر بفارغ الصبر وقلبنا يدق وصول "الكبار".

فى الساعة الخامسة يظهر لوى أراجون وبول إليوار وإلزا تريوليه وترستان تزارا وماريا كازارس وشارل فيل ترك ورينو كونو وبعض الشخصيات المشهورة الأخرى! ويصفق الناس بشدة فور حضورهم، ثم يخيم صمت كبير، وقد بدأ أراجون فى الكلام. وبعد مقدمة قصيرة عن نيرودا يقرأ تحيته لبابلو صديقه، وهى قصيدة "مناسبات" ثم يليه بول إليوار، ويبدو متأثرا والناس تصفق بشدة. ثم يأتى دور ماريا كزاريس وتقرأ الممثلة المشهورة قصيدة لبابلو نيرودا فى لغتها الأم وكأنها تغنى؛ نرتجف جميعنا حتى

لو لم نفهم الإسبانية. ما أهمية هذا؟ فقد سرى شعور قوى بين المستمعين. شعور وكأن يمكن لمسه، البعض يبكى والكل لا يقوى على الكلام، وعندما تنتهى آخر كلمة فى القصيدة يعم الصمت الذى يستمر تقريبا دقيقة ثم فجأة يقف الجميع ويصفق وإسما يشد على يدى بيده الدافئة؛ فهو يشترك معى فى التأثر. وهذه ذكرى أخرى جميلة سأحتفظ بها فى ذاكرتى.

-٦-

يجلس إسماعيل وريمون فى غرفتى، يتحدثان ويدونان بعض الأفكار، وهما يحضران العدد الثالث من مجلة الشرق الأوسط بمساعدة بير كورتاد وهو صحفى فى الأومانيتى وماكسيم رودانسون المستشرق الكبير، فقد أنشأ ريمون وإسماعيل هذه المجلة التى حصلت على نجاح مستحق. ويقترح إسماعيل أن يكتب أحدهما شيئًا عن يوم ٢١ فبراير، وهو التاريخ الذى اختارته المنظمة الدولية للشباب الديموقراطى تحية للشعب المصرى الذى وقف بكل أطيافه ضد الاحتلال البريطانى يوم ٢١ فبراير. المنظمة كانت تحيى "اليوم العالمى فى الصراع ضد الاستعمار". "لم لا تكتبين شيئا عن هذه المظاهرات؟ قصيدة أو قصة قصيرة".

أعترض أنا.. فلم أشترك فى حياتى فى مظاهرة. "أنت تعرف أننى كنت أعيش فى القاهرة بدون أن أهتم بالسياسة، وبدون أن أترك برجى العاجى، أعرف فقط بعض التفاصيل التى أعطتها لى إنجى".

"اسمعى" يقول إسماعيل: "سأصف لكِ المظاهرة التى كنت أشترك فيها ودونى ملاحظاتك، واسألينى أسئلة ويمكن أن تخرجى بشىء ما".

أستمع إليه، وأرى من وصفه ميدان الإسماعيلية والناس... وأنا متأثرة وفخورة ببطولة هؤلاء الشباب والطلبة الذين قتل عدد كبير منهم، ولحقهم البوليس وقبض عليهم ورماهم فى السجن... وأرى من جديد إنجى وهى تعود إلى المنزل وهى فى حالة رهيبة. إنجى التى كانت اشتركت فى هذه المظاهرات! وأشعر بالخجل يملؤنى.

لم أنم تقريبًا وتوالت الصور والمشاهد فى رأسى ورغبتى فى وصف هذا اليوم كان قويًا لدرجة أننى جلست أمام آلة الكتابة فى السادسة صباحًا وكتبت كل شىء دفعة واحدة، وقرأت وأعدت القراءة بدون أن أصحح سطرًا واحدًا وأنا متأكدة تقريبا أن ما كتبته جيد، وكلمت إسماعيل فى الساعة الثامنة.

"حسنًا لِمَ لا تسلمينها إلى إلزا تريوليه التى تعرفك؟ يجب أن تنشر قصتك فى أسرع وقت ممكن فنحن فى شهر فبراير...".

"مدام إلزا تريوليه قد رحلت الآن.. اتركى لى مظروفك فسأضعه على مكتبها". أعود إلى المنزل وأنا محبطة جدا؛ لأنى لم أستطع رؤية إلزا وأحاول أن أعقل الأمور. أنا أعرف أن إلزا تكتب وتحضر اجتماعات الحزب وتهتم بألف شىء... فليكن! إنى أشعر برضا كبير؛ لأنى نجحت فى كتابة هذه القصة.

فى اليوم التالى فى الصباح، وأنا جالسة للكتابة يرن جرس الهاتف: "بولى هذا لكِ!" أدخل فى غرفة تاتى وأنا مستغربة: "قالت لى مدام أراجون.." إلزا! وأنا مستغربة آخذ سماعة الهاتف: "صباح الخير يا صفية لم أكن أعرف أنك تكتبين أيضا قصصًا قصيرة، فالقصة التى أرسلتها لى جيدة وسننشرها فى عدد الأسبوع القادم للأسف فقد جاءت متأخرة بالنسبة لغدٍ، وأريد أن أعرض عليكِ ما كتبته لرأس الموضوع" وتقرأ لى إلزا السطور القليلة التى تقدمنى بها.

لا أصدق أذنى! وأنا فى غاية السعادة أتحدث مع إسماعيل ربما هو مازال نائما، فليالى العمل فى المطبعة تنتهى متأخرة جدا. ريمون يعشق السهر: "أنا أقوم بولى من النوم... ماذا؟ مبروك! أنا سعيد جدا لكِ..." وقصتى القصيرة المعنونة بـ "٢١ فبراير" تظهر فى الصفحة الأولى من الليتر فرنسيز، وتملؤنى بالفخر. ويشيد بى أصدقائى وزملاء يوم الخميس. وهذا النجاح يشجعنى، وأنتهى من تصويبات روايتى، وأطلب من تريستون تزارا أن يقرأ المخطوطة.

ووالد "الدادية" له وجه أسد وعيون رمادية ذات نظرة مليئة بالحيوية وشعر أبيض، يجلس تقريبا كل مساء فى حوالى السابعة أمام طاولة فى هذا المقهى الذى فتح أخيراً ويجلس بجانبه ريمون وقوصيرى وإسماعيل وأنسرنو يتبادلون الهزار وهذا بالطبع عندما لا يتحدثون عن السياسة، وكثيراً ما يذهب ألبير وتزارا للعب الزهر فى طاولة أخرى، ودائما ما يريد ألبير أن ينتصر ويسعده هذا كثيراً لإغاظة تزارا. فهذا الشاعر الكبير الذى كسب العالم بجاذبيته ولطفه بخيل بدرجة كبيرة.

"أنا لا أقرأ الروايات" يجيب تزارا "إطلاقًا! لم أقرأ إلا التيبو، وأظن ألاّ يستطيع أحد كتابة رواية بعد هذه الرواية" أتوقف عن الكلام وأنا مضطربة ومنزعجة لأنى تحدثت إليه. على كل حال أنتظر إشارة من جون بولون الذى أعطاه جواندو مخطوطتى، وقد أحب الكاتب العجوز المتخصص فى الألمانية، والذى يبدو عليه هيئة اليسوعيين روايتى، وطلب أن يتعرف إلىّ، ورغم تحفظاتى بعض الشىء فقد ذهبت إليه، وبعد استقبال لطيف وبعض النقد جاء الحكم إيجابيا، وأعطانى أملاً وقد وعدنى أن يعطى كتابى لجاليمار مع خطاب توصية! ولكنى اضطررت أن أفقد الأمل.

وقد أخذ على عاتقه مارسيل أرلون أن يكتب إلىّ بعناء خطاباً مؤدباً يقول لى فيه إن كتابى رفض من لجنة القراءة عند جاليمار بسبب نقص صوت فى التصويت ولو أنه كان فى باريس واشترك فى التصويت لكان أعطانى صوته! "ورواية النيل كانت تستحق أن تنشر! ووصل لى الخطاب فى الوقت الذى كنت أغادر فيه باريس، وعند عودتى إلى القاهرة كنت سأتزوج من الرجل الذى أحببته، ونسيت إذن فشلى وخيبة أملى وهذا "النيل" فى درج ما. ولكنى لم أتوقف عن الكتابة.

(١٠)

زواجـــــى

-١-

٢٩ نوفمبر ١٩٥١. الساعة السادسة صباحًا! يا إلهى! فالوقت ما زال باكرًا وأغلق عينىّ، وأحاول أن أريح أعصابى. ألعب بالدبلة الذهبية التى تحيط بإصبعى اليمنى، والتى يرتدى إسماعيل واحدة مثلها، وبعد ظهر اليوم سنضعها فى إصبعنا اليسرى! أخيرا! مدام إسماعيل صبرى عبد الله! ومن ورائى باريس بذكرياتها التى لا تحصى، والصور تتزاحم وتجتاحنى الأغانى والقصائد التى تطير وتحيطنى. فهذه الساعات ساعات مسحورة وسعيدة وأحيانًا تمر فيها سحابة بسبب المناقشات الطويلة التى تدور بينى وبين والدتى. فزواج إنجى المتسرع من محامٍ فى النيابة الإدارية قد أثار جميع المواضيع. "هل تصرين أن تكونى امرأة عانسًا؟ ماذا تفعلين فى باريس؟" وقد تدخلت تاتى التى كانت تحب كثيرا إسماعيل لمصلحتنا. فاطمأنت ماما، ولكنها لم تقبل أن تؤخر زواجنا حتى مناقشة رسالة الدكتوراه لإسماعيل. وقد اقترحت أن نتزوج فى باريس الآن بدون انتظار! فكتب إسماعيل خطابًا إلى أخيه الكبير الذى حدّثه على الفور فى الهاتف: "هل أنت مجنون؟ تتزوج الآن قبل حصولك على الدكتوراه؟ هل فكرت جيدًا؟ هذه الفتاة تنتمى إلى الأرستقراطية، ووالدتها تعمل وهى امرأة حرة جدا، والوسط الذى تعيش فيه متعالٍ جدا. ألا تخاف ألاّ تفهمك هذه الفتاة وألاّ تكون جادة، فالزواج بالنسبة لفتيات هذه الطبقة لا يعنى شيئًا والطلاق سهل جدا....". وعلى عكس

هذا لم أقابل أى مشكلة مع بابا. فالتواصل جاء سريعًا بين رجل العلم والطالب الشاب فى الاقتصاد السياسى، ولم أعد أقابل بابا وزوجته إلاّ برفقة إسماعيل.

"ليس لدىّ ما أقدمه لجلبيرى ما عدا رسالة الدكتوراه" أعلن إسماعيل لبابا "وهذا قليل بالنسبة لوريثة ثريّة كما قالت لى صالحة هانم" يا إلهى! فقد قالت ماما هذه الملاحظة، وقد أجاب بابا بمسحة من السخرية: "وريثة ثرية؟ فصالحة لديها أوهام! فكما ترى يا إسماعيل فهذا الزواج يخصكما. تزوجا كما تشاءان، ولكن لا يجب أن تأخذ فى الاعتبار الثروة التى ستؤول لجلبيرى فى يوم من الأيام. من يعرف إذا كانت أراضيه وأراضى صالحة ستكون بهذه المساحة بعد موتنا؟ فميراث بناتنا ممكن أن يتقلص أو يختفى، بينما شهادة الدكتوراه يا إسماعيل لا يمكن أن يأخذها منك أحد فهى رأس مالك" لن ينسى إسماعيل هذه الكلمات وسيذكّرنى بها خمسة عشر عامًا بعدها. هذه كلمات واعية وحكيمة وتساوى وزنها ذهبًا.

وكنت تعرفت على أخيه الكبير عند رامبل ميور شارع ريفولى. كنت خجلة جدا، ثم ضحكت عندما قال عز الدين: "ولكن لا توجد إلا النساء هنا وهذا مفزع" وابتسامته تشبه جدا ابتسامة إسماعيل. وهو ذو شعر بنى داكن وجبين واسع ووجه مستدير وعينين صغيرتين تنظران إلىّ من خلف إطارات نظارته وهو كبير ورفيع وذو هيئة، ويتحدث اللغة الفرنسية، ولكننا تكلمنا باللغة العربية، وسيقول لى إسماعيل فيما بعد إننى أثّرت فيه تأثيراً جيداً.

ولم يتطرق والدى ولا والدتى إلى موضوع الخاتم السوليتير التقليدى الذى يضعه العريس فى يد خطيبته. ولم يفعلها زوج إنجى وقد فرضت إنجى على ماما زواجًا بسيطًا جدا، وأصرت على أن تتزوج قبل سفر ماما إلى فرنسا. ولأنها حرمت من فرحتها فى مراسم زواج كبير بالنسبة لبنتها الصغيرة، فقد حاولت ماما معى، وقد بدأت المناقشات حول هذا الموضوع فى باريس عامًا قبل الزواج. ولفرط إرهاقنا قبلنا بالهزيمة. ودعت ماما أكثر من ٢٠٠ فردا! وقررت أن تقيم حفلاً راقصًا فى أتيليه

الخياطة الذى حوّلته لهذه المناسبة، ولم يناقش إسماعيل الدكتوراه إلا فى أواخر يوليو، وقد حصل على مرتبة الشرف بجيد جدا، وتحية لجنة المناقشة. وقد أحست ماما ببعض الزهو وخضعت على مضض لتأجيل مرة أخرى تاريخ الزواج إلى نهاية نوفمبر، وأجابت والدة إسماعيل على بعض أقربائها الشاكين: "أنا أعرف ابنى ومتأكدة أنه اختار الفتاة التى تناسبه!" وسأذهب لرؤيتها بعد ساعات. وتزعجنى فكرة هذا اللقاء. كيف ستراني؟ ولا يجب أن أزعج بالى كثيراً، والساعة لم تتعد السابعة صباحًا، وسيصلون فى الخامسة بعد الظهر وسيتكون الشهود من أخى إسماعيل وخاله لوالدته، وقد أحب جدا والدى خال إسماعيل عندما حضر لطلب يدى ومحمود بك على عكس الفلاحين الأثرياء الذين يرتدون البدل عندما يذهبون إلى العاصمة فهو لا يرتدى إلا القفطان! وكم كانت مفاجأتى عندما قال لى بابا الذى يحتقر "الفلاحين" كلامًا جميلاً جدا على "عم إسماعيل"! وبالطبع فقد تحدث معى إسماعيل من قبل عن خاله الذى كان يحبه بشدة. لقد أخذ خال إسماعيل على عاتقه مسئولية فدادين أخته بعد أن أصبحت أرملة، وكان يراعى أيضا أولادها الذين كانوا يعتبرونه مثل والدهم.

"بونجور يا بولى!" تقطع على تاتى تأملاتى. وتقبلنى وهى مبتسمة: "إذن فقد نمتِ جيداً؟" ويرن جرس الباب طويلاً. "هذه صالحة بالقطع فلا أحد غيرها يرن الجرس بهذه الطريقة... شكرًا!" فقد دخل سفرجى بشاى تاتى على صينية ويضعها على المائدة ثم يختفى.

وهذا السفرجى يدعى مختار، وسيلحق بنا فى الإسكندرية فى الشقة التى أقرضها لنا ابن عمنا أخو ماهيتاب الكبير، وسنسكن فى هذه الشقة بعد قضاء شهر العسل فى فندق البو ريفاج انتظارا للبحث عن شقة.

"صالحة هانم تطلبكما" يقول مختار: "حان الوقت!" تتبعنى تاتى وهى ضاحكة.

"بونجوور! هل أخذتِ حمامك؟ ماذا تنتظرين؟" وتضع ماما فنجانها الفارغ: "ارتدى ملابسك والحقى بى فى الأتيليه يجب أن تجربى ثوبك.. ماذا بك؟ فأنتِ يقل وزنك بسرعة شديدة ربما ستضطر فيكتوريا أن تضيق خصر الفستان مرة أخرى... إن جدة منى ستأتى لإعطائك هديتها. بالطبع لن تحضر الفرح لأنها مسنة...".

للأسف فأصدقائى منى وجميل وزاهية فى باريس وهذا مؤسف!.

أنا سعيدة لأنى مشغولة، وأتمنى أن ينقضى اليوم بأسرع ما يمكن. أترك الشقة التى تحتدم فيها المعارك، وأتوجه إلى شارع الشواربى في اللحظة التى سأعبر عتبة الأتيليه يسألنى شاب وهو يترقص:

"هل هنا بيت صالحة؟ هل تستطيعين أن تعطى هذه اللفافة إلى مدموازيل أفلاطون وهو من طرف الأمير وحيد الدين أمير مصر والسودان! شكراً" ويعطينى ظهره ثم يختفى فى الدرك وهو مازال يترقص. وأدخل الأتيليه وأنا أضحك ملء فمى. الغرفة الكبيرة تغيرت معالمها تماما لم يعد هناك غرف قياس الملابس أو أرائك، ويلمع خشب الأرض المنظف جيداً، وفى عمق الغرفة الملحقة يلمع التفتا والساتان المطرز بالذهب لأثواب جدتنا التى زينت بها ماما الحوائط حيث وضعت فوتيين جميلين، وتنشغل ماما وتاتى بمساعدة العاملات فى وضع بوكيهات الورد فى أماكن مختلفة.

"ماذا بك لتضحكى بمفردك؟" وأقص على أمى الصفات السخيفة التى يدعيها وحيد الدين.

"آه هذا وعاء للبودرة من الذهب" فقد فتحت تاتى اللفافة "فأمير مصر والسودان لم يجتهد كثيراً".

وتتبعنى فيكتوريا وعاملة إلى غرفتى وهما يحملان بعناية ثوبى، وأنا لا أستطيع وليس مفيداً أن أصف هذا الثوب ذا الذيل فهو شىء رائع يبدو وكأنه خرج لتوه من

حكايات الساحرات! وبما أن الفستان مكون من جزء علوى منفصل وفقًا لموضة هذه الفترة وأن الذيل ثقيل جدا، ولأنى ينقص وزنى جدا ففيكتوريا مضطرة أن تضيق الوسط أكثر من مرة، وكنت قد طلبت من ماما ثوبًا "أستطيع أن أرتديه" لبداية الرقصة الأولى. ولكن سيكون من المستحيل عليّ أن أرقص بهذه الطرحة وهذا الذيل الطويل جدا والثقيل!

"طنط عنايات وصلت" هى والدة طنط نائلة وجدة منى وجدة أصدقائى وهى امرأة أنيقة وظريفة جدا: "هذا يا حبيبتى هدية صغيرة، وأظن أن هذه الهدية ستكون أفيد لكِ من المجوهرات وهى من عند كارتيه"... أشكرها بابتسامة مرتبكة: "يا للهول؟ علبتان بودرة! ماذا سأفعل بهذا. فهو شىء قيم سأضطر أن أضعه فى حقيبتى للمساء تحت ذراعى، وسأكون دائمًا مرعوبة أن تسرق!"

"احتفظى بعلبة بودرة طنط عنايات، واتركى لى علبة الأمير ربما يمكننا أن نستبدل بها شيئًا أكثر إفادة...'وعودى إلى المنزل لتستريحى.. آه ها أنتم، كنت أتصور أنكم ستأتون لمساعدتى...".

ديدى وزوجها حمدى ظهرا أخيرًا وهما يبتسمان، وتقبلنى أختى.

"هل أنتِ عصبية؟ على كل حال أنتِ فى غاية الجمال...".

"المكان جميل جدا..." يصيح حمدى الذى يتفقد المكان. أنتِ مخرجة رائعة يا صالحة هانم...".

"شكرا هل هذا يعجبكما؟ إذن اذهبا لتأتيا بورد آخر" أنزوى وأذهب إلى المنزل حيث الترتيبات والنظافة قد أُنهيت، وهناك بقايا بوكيهات ورد فى المدخل.

تأتى أختى وزوجها فى حوالى الثالثة، وترتدى إنجى ثوبًا جديداً أزرق مع عقد من الذهب، وحمدى يرتدى السموكنيج، وهما فى غاية الأناقة، ويقترحان أن يساعدانى.

"تعالى معى يا ديدى نتفقد معًا محتوى حقيبتى، أتمنى ألا أنسى شيئا!".

كانت بوسى نائمة على فراشى وتستيقظ وتلعب مع أختى التى تدللها، وكانت أقنعتنى تاتى أن آخذ بوسى معى إلى مصر: "هذه القطة تعبدك يا بولى، فهى لا تضع قطة جديدة إلاّ عندما تعودين من السفر، وعندما تتغيبين عن باريس تهيم كالتائهة، وتموء بيأس، وتمضى كل أوقاتها على فراشك"، ورغم أن إسماعيل اعترض بعض الشىء، فإنه قبل فى النهاية، وسافرت معى بوسى التى وضعت فى مكان آمن فى الطائرة.

جرس الباب! صوت فيكتوريا! وهى بصحبة عاملة. الساعة الرابعة وعشر دقائق! أنا أشعر أنى ألعب دورًا، وقد أصابنى الخوف، والسيدتان مشغولتان بى، وهما سعيدتان لمساعدتى.

"أخيرًا!" تقول فيكتوريا وهى تغلق حزام وسط الجونلة "كل شىء على ما يرام" وتضحك "لا يمكن أن تكونى قد فقدتِ وزنًا منذ هذا الصباح!"

وتدخل ماما، وتتفحص ثوبى "فلننظر إليها. فهى جميلة جدا مدموازيل! والآن الطارحة... حاولى أن تجلسى" وبمساعدة فيكتوريا والعاملة أجلس بعناء أمام المرأة، وتضع ماما وفيكتوريا الطارحة الطويلة من التول الأبيض على شعرى، ويضعان البنس بعناية.

"وها قد انتهينا! لا تتحركى! أنتِ رائعة! سنأتى لإحضارك عندما يأتون..." وتنظر إلىّ تاتى بإعجاب وهى متأثرة جدا: "أنتِ تبدين كعروسة من الأحلام!" "فلنذهب إلى الصالون، واتركوا بولى فقد رن الجرس!" أسمع أصواتًا، وأتعرف على صوت بابا.

تدخل إنجى "هيا تعالى! تشجعى! سأساعدك بطرحتك"

غرفة الطعام تمتلئ بالورد وأبى وعم أمى الكبير هما شهودى، ووصلت أم إسماعيل وأخته. أنتظر وأنا مرتبكة وفضولية، ثم يتوقف الجميع فجأة! وقد أتى المأذون الذى يصلى قبل أن يوقع إسماعيل والشهود، ثم تأتى أصوات الكراسى، وتفتح ماما باب الصالون ويدخل المأذون ويتبعه إسماعيل وأهالينا: "يجب أن تمضى على وثيقة الزواج باللغة العربية".

بيد حاسمة أمضى فى أسفل هذه الصفحة التى هى بمثابة إعلان رسمى لكونى امرأة متزوجة.

"الحمد لله ! مبروك!" يقول المأذون، وتخرج الزغاريد من كل ناحية من الشغالات. "أظن أنك تستطيع أن تقبل زوجتك" تقول تاتى بابتسامة متأثرة، ويقبل أحدنا الآخر أنا وإسماعيل بخجل ثم نبدأ بالسلام على الرجال.

"كيف أتمكن من تقبيلك يا جلبيرى! بكل هذه الطرح! مبروك يا حبيبتى" وينحنى بابى بوجه مشرق، ويضع قبلة صغيرة على خدى، ويقدمنى إسماعيل وهو ممسك بيدى إلى خاله محمود الذى يرتدى قفطانًا أزرق داكنًا وهو رجل ذو وجه جميل متوسط الطول وعيناه كستنائيتان.

"زوجتك يا إسماعيل جميلة جدا. مبروك يا مدام!" وأشدّ على يد الأخ الكبير الذى يقول مبروك بصوت رنان، ويقبل عم ماما الكبير يدى بأناقة.

وأدخل بعد هذا إلى الصالون وأنا ممسكة بذراع زوجى، وتحاول والدته وأخته أن تزغردا وهما تضحكان، وأنحنى نحو المرأة المسنة المرتدية السواد وأقبل يدها، بينما تدفعنى إليها، وتقبلنى بحرارة وأخته ثريا كبيرة وكتفاها عريضتان وسمراء بعيون كبيرة سوداء وهى جميلة جدا وهى تقبلنى بدورها وأجلس بجانبهما، ثم تعلن حماتى بابتسامة فخورة: "كنت أعرف أن ابنى سيختار جيدًا!".

"تعرفين يا بولى" تقول ثريا وهى تضحك: "والدتى سألتنى إذا كنتِ ترتدين بروكة!" "لأنك" تضيف تيزا "شعرك رائع، ولكن قولى لى من هذا الرجل الكبير ذو الشعر الأبيض؟".

"هو عم أمى الكبير.. لماذا؟" وتنطلق تيزا فى الضحك، بينما تجيب ابنتها "إن حماتك معجبة به". ويقدم الخدم الشاى، ويمرون بصوانٍ مختلفة عليها جاتوه وساليزون وأكواب صغيرة من الفضة ممتلئة بالملبس.

ثم يأخذنا أرمون المصور الكبير من أيدينا. ونتصاع بإرادتنا إلى أوامر أرمون ووالدتى. هل نستطيع عمل شىء آخر غير المزاح! غريب فإن توترى قد ولى كأنه سحر، وربما هذا هو السبب الذى يجعلنا نبدو طبيعيين إلى هذه الدرجة ومبتسمين إلى هذه الدرجة على هذه الصور (التى تقبع فى درج ما) وتستقبل ماما وتاتى وإنجى وزوجها المدعوين، وسوف ينتظرنى إسماعيل أمام مدخل العمارة فى الساعة التاسعة والنصف بصحبة ثلاث فتيات وثلاثة أولاد. (وهم يرتدون البدل البيضاء والأثواب المصنوعة من الأورجاندى الوردى الذى نفذه الأتيليه).

يكتسحنى القلق من جديد أرجو ألا أقع وأنا أصعد الدرج! ها أنا قد وصلت حيث توجد سجادة ضيقة حمراء تغطى الرصيف والدرج الذى يفضى إلى باب الشقة، ويساعدنى إسماعيل فى الصعود إلى السيارة بينما يندفع الأطفال. "سريعاً ارفعوا ذيل فستانى" لقد صحت بصوت عالٍ. "اهدئى فالأطفال يمسكونه. تقدمى ببطء وامسكى ذراعى... ولكن ما هذا؟! لم ينقصنا إلا هذا!" ونسمع أصوات أغانٍ على طبلة تستقبلنا. من أين أتى هؤلاء المغنون والراقصات؟! لم تنبهنا ماما بهذا فإنها تعرف تماما أننا كنا سنرفض هذه الصحبة السخيفة. ولحسن الحظ فإن الشقة فى الدور الأرضى، حيث تستقبلنا ماما وتاتى وهما يرميان بعض القطع الذهبية. نتقدم وتصطحبنا النظرات الفضولية والمعجبة؛ ربما يكون زوجى محط الاهتمام. الرجل الذى اختارته لا يرتدى الفراك، ولكن سموكينج! "هذا ثنائى جميل! ما هذا الثوب الرائع؟!".

أخيرًا أجلس، وماما ترتب طرحتى وذيل فستانى، ويجلس الأطفال تحت أرجلنا ونحن محط أنظار مائتى مدعو.

ويأخذ أرمون صورًا لنا من جديد، وهو لا يحتاج أن يطلب منّا أن نبتسم فنحن نستمتع كثيرًا، ونسخر من أنفسنا. ونرى موسى فقد جاء خصيصًا من الإسكندرية لحضور الفرح.

وعندما ينتهى آرمون من أخذ الصور تظهر تحية كاريوكا. وتحية كاريوكا قد اعتزلت الرقص، ولأنها تحب كثيرًا ماما فقد جاءت خصيصًا لترقص رقصة من أجل ابنتها. وتحية هى أفضل راقصات الشرق الأوسط، وقد ازدادت وزنًا قليلاً، ولكنها لم تنسَ أبدًا الرقص، وهى هدية قيمة قد قدمتها لنا.

"تعاليا يا أولاد" تقول ماما وهى مبتسمة وفخورة "تعاليا لتفتتحا البوفيه" وتوجه الكلام إلى الأطفال الجالسين تحت أرجلنا "اذهبوا يا أولاد فأنتم أحرار الآن". وأتوجه إلى البوفيه، ولكنى أستمع لهمس ورائى: "كم هو وسيم زوجك!" وبينما نضع الأكل فى صحوننا يسألنى بعض أصدقاء والدتى إلى أى عائلة من آل عبدالله ينتمى إسماعيل، وأجيب وأنا أرفع كتفىّ "إنهم من عائلة عبد الله من ملاوى" يا لهم من شلة متعالية!

"هذا فرح لن ينسى!" يقول زوج أخت زوجى "سهرة أمراء وصالحة هانم هانمٌ كبيرة وقد أحسنت". وهذا هو رأى كل المدعوين، وسيصفون منذ اليوم التالى السهرة الجميلة وروعة فستانى والأوركسترا الجيد جدا والأطباق الشهية للبوفيه، وسيقولون كلهم بدون استثناء إلى والدتى الفخورة جدا إن فرحى كان أهم أحداث الموسم. ولم يعرفوا كم كان كلامهم صادقًا، فبعد شهرين كانت القاهرة تحترق!

اليوم التالى فى الصباح. صورة تاتى مرتدية الروب دى شمبر، وأنا جاهزة للخروج أمام الباب المفتوح للشقة، وقد قبَّل بعضنا البعض ونحن متأثرات جدا "هيا ارحلى فزوجك ينتظرك. حظا سعيداً!".

وصورة أخرى. صورة ثريا أخت إسماعيل وهى ممسكة ببوكيه ورد، وتجرى مع زوجها على رصيف المحطة، وقد رآهم إسماعيل ويسلم عليهما: "تعالى فلنذهب لتقبليهما ما زال لدينا بعض الوقت." على الصفحة البيضاء ليومياتى كتبت بالحروف العريضة "مدام جلبيرى أفلاطون عبد الله".

-٢-

أخيراً، أحراراً نستطيع أن يحب بعضنا البعض بدون قيود ونشعر بالسعادة!

ومن شرفة غرفتنا ننظر بإعجاب إلى بحر هائج، وأثناء ما يعطى إسماعيل محاضراته فى الصباح أجلس فى حديقة الفندق الجميلة للقراءة والكتابة، ونتناول طعامنا قليلاً فى الفندق، ونفضل تناول الأسماك فى أبى قير مع كوب من الأورزو أو العشاء فى سانتا لوتشيا أو فى اليونين الذى يظل أفضل مطعم فى المدينة.

زيزينيا. لقد اختفى بيت طنط زهرة هانم، وأمام أرض فضاء على الكورنيش تظهر عمارة قبيحة صفراء ذات ثلاثة طوابق وفيها شقة فى كل دور، وملاكها هم أولاد عمى شريف الذين يمضون الصيف فيها مع أولادهم.

ونبدأ فى ترتيب المنزل مع مختار الذى جاء بحقائبنا وبوسى القابعة فى سلتها، وهناك شرفتان كبيرتان تضيئان غرفة نومنا التى تطل على البحر وعلى كورنيش الإسكندرية الرائع، ولكن البيت الثانوى لأخى ماهى البسيط والبارد لم يخطط له للمعيشة فى الشتاء عندما يغلق الشيش يدخل من بين الشرفات هواء مثلج، ونشترى على الفور مدفأتين تعملان بالجاز.

ونستغل أوقات فراغنا للبحث عن شقة بمساعدة سمسار، ولن يأتى أولاد عمى إلى الإسكندرية قبل إجازات الصيف فلدينا وقت حتى شهر يونيو. وفى مساء يوم فى الساعة الثامنة تحدثنا ماما من القاهرة وتطمئن على أخبارنا وتعرفنا أنها اشترت "أريكة رائعة" من طراز ديريكتوار، وأنا أهدى إليك فضية جميلة جدا "يا بولى" وقد

أخذت تاتى الهاتف "لقد أهدوكِ طقم سفرة جميلاً جدا، ولكن والدتك تريد أن تستبدله؛ لأن فيه معالق للآيس كريم، وهى تدعى أن الناس لم تعد تأكل الآيس كريم بمعالق".

"أنا لا آكل الآيس كريم إلا بمعالق، احتفظوا بطقم السفرة لو كان جميلاً".

"كيف تفعل والدتك؟" يسأل إسماعيل ضاحكًا "بماذا تأكل الآيس كريم السائل؟"

إن المدينة الكبيرة التى لها ميناء ممتعة جدا، ولم أكن أعرف وجهها الصيفى ليس لديها شىء عربى، فالإسكندرية مدينة جميلة وأوروبية بسبب القصور والفيلات فى حى الرملة المرصوصة حتى البحر، وبسبب البيوت الجميلة والأنيقة والغنية جدا التى تملكها عائلات غنية من اليهود واليونانيين والإيطاليين. ويجب الوصول إلى العطارين أو الأنفوشى لإيجاد الوجه الآخر من الإسكندرية، الوجه الفقير العربى وأصدقاؤنا الجدد من الأجانب والفرنسيين يساعدوننا على اكتشاف هذا الإطار الأوروبى. حياة ذات اهتمامات كثيرة نتحرك خلالها بدون أن نشعر بغربة، ونتعلم بلطف أن نعيش معًا بدون صدامات، وأن نستمتع بسعادتنا؛ لأننا أيضا معفيون من الواجبات العائلية والضغوط المفروضة علينا بسبب عادات بلادنا.

وقد اشترينا سيارة فيات صغيرة، وأخذ إسماعيل بعض دروس القيادة ودشن سيارتنا بالشامبانيا فى صحبة آل راتب الذين يبتسمون، وقد دعاهم لهذه المناسبة.

وقد وجدت بسعادة أصدقائى الأخوة الثلاثة لآل راتب الذين حضروا زواجنا، واستعدنا علاقتنا عند حضورنا إلى الإسكندرية، ونتقابل كثيرًا فهم يسكنون قريبًا جدا من عمار شريف ودجيهان كير متزوج من إحدى صديقاتنا، وشهريار تزوج ابنة أمير وبرهان هو الوحيد الذى ما زال أعزبَ.

وقد أصحبنا أصدقاء مع الأستاذ الزائر للاقتصاد السياسى جون ديفور، وقد عرفنا على بعض الأوروبيين الظرفاء جدا.

-٣-

٢٦ يناير ١٩٥٢. يتناول الديفور وجبة العشاء عندنا. وفتحنا زجاجة نبيذ فرنسى! "وهى بقايا من زواجكما" قالت ماما وهى تعطيها لنا فى إحدى زياراتنا للقاهرة. وقد أجاد مختار طبخ الأكل، وهو عادة طباخ ماهر. ونتناول العشاء ونحن نضحك من نكات ديفور الذى يتميز بروح الفكاهة، وفى وقت تناول الحلو نسمع جرس الهاتف يرن طويلاً ويفاجئنا، وهى مكالمة من خارج الإسكندرية. ويجيب إسماعيل: "بونسوار يا إسماعيل! أنا بخير وأنتم؟" ويبدو صوت والدتى قلقًا "كل شىء على مايرام عندكما؟"

"أيوا يا حماتى الحلوة كل شىء على ما يرام، وعندنا أصدقاء يتناولون العشاء معنا، وأنهينا زجاجة نبيذ جيد كنتِ أعطيتها لنا".

"الحمد الله هنا القاهرة تحترق!".

"هذا غير معقول!" يصيح إسماعيل وهو مصعوق. "أين أنتم؟".

"لا تقلقا، أنا عند أصدقاء، هناك جماعة هيستيرية اقتحمت كل الشوارع، وتشعل النار فى كل شىء، وعندما يعم الهدوء من جديد سيوصلنى أصدقائى إلى بيتى"

ويقدم لنا مختار القهوة "ولكن أين الجيش؟" يسأل ديفور، ويرفع إسماعيل كتفيه "أسأل نفسى عن هذا، ويقيم الملك اليوم حفلة كبيرة للاحتفال بميلاد وريثه. أظن أنه دعا أغلبية الجنود المسلحة من فرق الجيش الموجودة فى القاهرة وفى الضواحى".

وننتظر... أخيراً في حوالى الثالثة صباحًا، تحدثنا إنجي، "أخيراً وصلنا إلى البيت. كل شيء بدأ بعد ظهر اليوم بمظاهرات سلمية، ثم جاء أناس من الشارع واختلطوا بالجماهير، وقد نشروا الفوضى وأشعلوا كل شيء في طريقهم... إن فندق السميراميس وشيبرد وسيكورال وشيكورال وأوريكو وشملا والبارات الأنيقة.. كل شيء. ولم يتدخل الجيش إلا منذ ساعة واحدة".

وفي اليوم التالي ينبهني إسماعيل: "ربما آتي متأخرًا على الغداء" وليس عنده إلا محاضرتان، وفي الغالب سيذهب للالتقاء بزملائه في الحزب الشيوعي المصري؛ فحريق القاهرة شيء خطير جدا، وسيتحدث في هذا إسماعيل وزملاؤه، وقد رجاني إسماعيل منذ فترة ألا أسأله أسئلة عن نشاطاته السرية.

"كلما تعرفين أقل، يكون هذا "أفضل" فتعلمت إذن أن أقبل غيابه، ومن حين إلى حين يشرح لي موقف حزبه من أشياء معينة، ويترجم لي أحيانًا فقرة مطبوعة من جريدتهم السرية. ولمدة سنوات طويلة لم أعرف الاسم الحقيقي لسكرتير الحزب الذي يوقع "خالد"، ولا الاسم الحركي لزوجي.

منذ يوم الخميس نسافر في سيارتنا الجديدة إلى القاهرة، نريد أن نكتشف حقيقة الدمار السائد في العاصمة، وقد أعلن حظر التجول.

وتقول لنا ماما إن كثيراً من زبائنها ألغوا طلبهن بخصوص فساتين السهرة. وقد ألغيت حفلتين كبيرتين، وعلى بك وصديق له وهما الاثنان أعضاء في نادي السيارات يعطيان وجهة نظر المجتمع الراقي. وفي رأيهم أن هذه المظاهرات العنيفة تعبر عن استياء الشعب وخيبة أمله وتوتره والمجتمع الراقي قلق من هذا، وأصدقاء والدتي ينقدون الملك وحاشيته بطريقة غير مباشرة، ولا يشعرون بخطورة موقف من أصعب ما يمكن.

"نحن نعيش على بركـان! ويمكن أن ينفـجـر الوضـع، وتقـوم ثورة فى أى وقت! فليحفظنا الله".

وذهبنا مع إنجى وحمدى نسير فى طرق العاصمة، وقلبنا مقبوض أمام كبر حجم الخسائر، ونتناقش ونحن نسأل أنفسنا نفس السؤال: "من المسئول عن هذه الأفعال الإجرامية ضد عاصمتنا الجميلة؟".

(١١)

رايرامــــون

-١-

الإسكندرية ٢٦ مارس سنة ١٩٥٢.

بمناسبة إجازة نصف العام أخذنى إسماعيل إلى رايرامون، وهى القرية التى وُلد فيها. سحر النخيل! والناس فى كل مكان حول القرية، يظهرون فى بيوتهم المبنية من الطين اللبن أو يقفون فى وسط الجزر فى النيل، ويكوّنون غابات صغيرة. وللوصول إلى ريرامون يجب أن نمر بملاوى وهى مدينة ريفية رحبة ومليئة بالبشر، وتظهر بعض المساكن الكبيرة ذات الشيش المغلق تبدو وكأنها مهجورة، وبناء غريب يلفت نظرى هل هو قصر؟ فقد أشار منجّم على صاحبتها أنها لن تموت؛ ما دامت تستكمل بناء البيت! ومن ثمّ نرى هذا المنزل الذى يبدو وكأنه جزء من قصة قصيرة لآل جاربو. وتبدو القباب والحديد المسلح والمشربيات والبلكونات العديدة وكأنها تخرج من الحوائط وكأنها قباب قبيحة يعلوها سطوح غريب.. كم أندم اليوم لأنى لم آخذ صورة لهذا المكان. هل ما زال قائمًا؟

والبيت القديم لآل عبد الله تحمى النساء فيه الحوائط العالية من نظرات المتطفلين! والحارس الذى اصطحبنا من المحطة إلى المنزل يخرج سريعًا من السيارة، ويساعدنا على النزول. ثم يظهر حارس آخر يقوم بتحيتنا تحية عسكرية وهو يفتح الباب الكبير،

وهذان الحارسان يرتديان طرابيش قصيرة وبلاطى كاكية، وتتدلى من أكتافهم بنادق، وتدوّى الزغاريد، بينما حماتى المتأثرة جدا تفتح لنا ذراعيها: "تنيرين منزل عائلتك الجديدة" تقول تيزا، ثم يقدم لى إسماعيل العاملين فى المنزل والحراس، حتى أصغر خادمة مروراً بالبستانى العجوز القبطى، ويأتى الخدم كل واحد فى دوره؛ لتقبيل يدى ولتهنئتى ثم يقبّلون يدى من جديد ويبتسمون لى. وهم يفعلون ذلك بدون أى تدنٍ بالعكس فهم يقومون بهذه التحية بنوع من الزهو السعيد لاستقبال العروس الشابة التى تدخل العائلة التى ينتمون إليها.

والصالة الكبيرة بمثابة حجرة الجلوس، وهناك مرآة كبيرة جدا نرى أنفسنا فيها، وتحتفظ هى بذكريات الماضى. على الحائط ثلاث صور كبيرة لوالد زوجى وأخويه الاثنين.. والثلاثة ينظرون إلىّ بعيون كبيرة سوداء. وتيزا جالسة القرفصاء على أريكة منخفضة، والضوء يأتى من لمبة جاز؛ فالكهرباء لم تدخل بعد هذه القرى البعيدة عن العاصمة، ولن تصل إلا بعد الثورة بسنوات عدة.

ونشرب الشاى بالنعناع ونحن نتحدث، وتأتى التدفئة من مدفأة كبيرة. ولكن أحداً يدق بيده على باب الدخول، فقد جاء فرد من القرية لزيارة إسماعيل. وفى انتظاره نتحدث بعض الشىء. نتحدث؟ هذه كلمة كبيرة! ففقر لغتى يواجه الحديث العفوى المرتجل لحماتى، وأنا مضطرة أن أسألها كثيراً أن تعيد على مسامعى كلمة ما أو أن تشرح لى معناها، ولا أنطق جيداً بعض الكلمات وهذا ما يضحكنا جدا، ثم تنسحب تيزا إلى الوراء، وتروى ذكرياتها برفق على صوت النار التى تلتهب فى المدفأة. ذكريات الأشباح الحميمة والتى أبكتها كثيراً تقترب منّا وتنظر لنا وتستمع إلينا. وتيزا تحب أن تروى تاريخها وتتذكر وتصف، وتمر من حالة الحزن الرهيف إلى الضحك... وأستمع إليها بشغف وبتأثر، وأنظر إلى هذه الذكريات التى يتحرك فيها إسماعيل طفلاً وشابا وأنا معجبة، وأحترم كثيراً هذه المرأة المسنة بفعل الأحداث والتى أنهكتها المآسى.

امرأة جاهلة وأميّة، ولكنها حساسة جدا وحكيمة؛ بسبب صبر السنوات، وأستمع إليها وأنا سعيدة لأنى أريد أن أعرف هذه الفترة التى كانت الفلوس فيها تنساب بشدة، ولكن فيها نساء ليس لديهن أى فرحة أخرى إلا الإنجاب.

"كان رجلاً مستنيراً يقرأ كثيراً" قال لى إسماعيل متحدثًا عن والده..."كان يمتلك مكتبة غنية، وقد عرفت هنا الشعر الجاهلى وكتّاب العرب الكبار..." وتحدثنى تيزا بفخر عن أولادها الاثنين اللذين فقدتهما. فالكبير وهو مهندس زراعى قد مات من التيفود، والثانى الذى كانت تعتبره العائلة عبقريا كان يعانى من روماتيزم فى القلب، وأصر أن ينهى دراسته فى الطب فى ألمانيا، ومات بعد عودته بقليل إلى مصر قبل أن يمارس الطب، وتتحدث عن زوجها: "كان صارمًا جدا ولكنه كان طيبًا وكريمًا جدا" تقول لى وهى مبتسمة: "وكان يدللنى كثيراً، ويحب أن يرانى مرتدية ملابس أنيقة، وكان يحضر لى ملابس جميلة من القاهرة، ويسافر كثيراً إلى العاصمة ولا يعود إلا محملاً بأشياء كثيرة، مثل الأثواب والزينة والروائح" ومات بسبب أزمة قلبية، فقد أفلس فى أزمة ١٩٣٠ وإسماعيل كان عمره آنذاك ٦ سنوات.

"كان لزوجك طفولة حزينة فقد كان يرانى دائما وأنا مرتدية السواد" وتتنهد حماتى وتغيّر الموضوع، وتتحدث عن عز الدين الشقى، الولد الذى لا يجلس ساكنًا ويجيد المقالب، وعن ثريا التى كان والدها يدللها. وملاحظتها الخفيفة الظل تضحكنى وتضحكها أيضا، وعندما سيعود إسماعيل سيلاحظ برضا هذا التقارب الذى حدث بين والدته وزوجته، والذى تجاوز اختلافات لغتنا.

وأثناء هذه الأيام يأتى الزائرون من كل لون. أعيان القرية وشيوخها وقس الكنيسة القبطية وفلاحون متواضعون. ويستقبلهم إسماعيل، وبعد غروب الشمس تأتى النساء، ومن بينهم فلاحات كثيرات لرؤيتى. فوجودنا فى ريرامون هو حدث الموسم والـ"خواجايه" هى مركز اهتمامهم.

وأعجب كثيراً بالصينية التركية التى نجلس أمامها، وتطلب حماتى من الخادمة البحث عن مثيلتها فى غرفة القرار. ونختار أحلاها على الإطلاق. وأعلم مثل مصريين كثيرين أن أهل إسماعيل اختاروا أن يتنازلوا عن هذه الصوانى التركية، وأن يستبدلوا بها غرف طعام على الطراز الأوروبى، وأن كثيراً من الأثاث ذى القيمة العالية باعوه بعد أزمة ١٩٣٠ والموت المتتالى.

ويجب أن نشير هنا أننا انصعنا عن طيب خاطر لهذه العادة الإقطاعية لوجود حراس حولنا، فالحراس يصطحبوننا ببنادقهم وبلاطيهم الكاكية عندما نخرج من البيت ويأتون معنا فى السيارة عندما نتنزه، ويتركوننا عندما يغلق الباب علينا، وهى تشريفة لا تزعجنا كثيراً، وتضيف إلينا بعض المرح.

أشمونين! لا أستطيع أن آخذ نفسى من جمال هذا الريف، وقد نُقل سكان هذه القرية البسيطة خارج أراضيهم بعد اكتشاف الآثار الفرعونية وهى عبارة عن ١٢٠٠ فدان مليئة بالعشب السيئ، ولكن تظهر من بينها الأعمدة الرومانية ذات القباب الفرعونية وهو معبد جريكو رومانى لم لا يبق منه إلا باب عالٍ بحفر، يظهر نيرون وهو مرتدى الملابس الفرعونية، وهذه الآثار التى صنعتها أيدى الرجال والنخيل يكوّنون ترابطًا رائعًا، ويجب أن تعاد الحياة لهذه المدينة الميتة، ولكن بدون لمس الأشجار. هذه المدينة الميتة التى تسير عليها أقدامنا بحذر شديد.

نوعاى! قرية صغيرة وعمدتها هو والد كامل.

وبيت كامل وثريا وأولادهما لا يبتعد كثيراً عن بيت العائلة الكبيرة. هنا أيضا الصالة الواسعة هى بمثابة غرفة الجلوس، وهنا أيضا أتلقى استقبالاً حاراً. كل شىء حتى علبة سجائرى تحت أمرى، وهى أشياء صغيرة تعلمنى الكرم التقليدى للصعايدة.

وثريا تفضى إلىّ بالأسرار. وكانت تحلم بالحصول على الثانوية العامة؛ لأن والدها كان يشجعها، وكانت ابنته المفضلة، ولكن موت الأخ الكبير جعل من عز الدين رئيس العائلة، وكان عمره آنذاك تسعة عشر عامًا، وأصر أن تترك أخته المدرسة وأن تتزوج من قريب لم تكن قد رأته. وكان كامل رجلاً شهمًا، وأغدق عليها بأشياء كثيرة ولكن والدته! كانت "حرباية"... لا أحد كان يحبها! وكان أولادها لا يحبونها، ويتحملونها رغمًا عنهم... وبعد أن اضطهدت بناتها وأزواجهن التفتت إلى زوجات أولادها، وحينئذ أقام زوج ثريا هذا المنزل الذى حررها من سطوة حماتها، وفى الوقت الراهن فقد وضعت كل مخالبها على الأخ الصغير لكامل الذى تزوج حديثًا، وهو أيضًا كان سيترك بيت العائلة.

وأردت أن ألتقى بالمرأة التى كانت ثريا تقول إنها "حرباية"، وفوجئت بفرحة كامل لهذا، ولكن إسماعيل يشرح لى: "منذ زمن وهناك نوع من الحواجز التى تفصل بين ناس الريف وناس المدينة، فأبناء الريف حتى لو كانوا من الأثرياء يعتبرون أنهم فلاحون بفخر، ومن النادر جدا أن يتزوجوا بامرأة من المدينة، وهى امرأة غريبة فى نظرهم، وعندما تزوّج أحد أقربائنا من عائلة كبيرة تركية من القاهرة لم تُستقبل جيداً هنا، وعلى الرغم من أنها كانت جميلة جدا فإن طريقتها المتعالية والمحتقرة لأهل زوجها والمحيطين به ألقت عليها كل أنواع اللوم والاحتقار".

"وعندما علمت عائلتى برغبتى بالزواج بواحدة من عائلة أفلاطون فقد اعترضوا بالطبع، فقد تصوروا أنك ستسلكين سلوك هذه المرأة الغبية".

فى اليوم التالى بعد زيارتنا إلى تون الجبل التى بهرتنى حيث المقابر الجريكو رومانية، ذهبت لزيارة والدة كامل وقد تماسكت لكى لا أضحك عندما جاءت التشريفة لتصطحبنى من المنزل إلى المنزل المواجه.

وهى تجلس القرفصاء على أريكة وتنظر إلى بتمعّن وقد وضعت طرحتها السوداء على شعرها المصبوغ بالحنة ووجهها المطلى بالبودرة البيضاء، وعيناها مرسومتان بالكحل، وهى تشبه الساحرات بأنفها الكبير الذى يتدلى على شفاه ضيقة، والذى تنساب منه الحمرة التى وضعتها على شفتيها.

"تعالى، أنتِ تنيرين المنزل اجلسى" وأصابع اليد السمراء المليئة بالخواتم وأساور من الذهب تحدث رنينًا فى كل حركة، وترتدى قرطًا طويلاً من الذهب والماس وعقداً واسعًا من الذهب أيضًا ومزينًا بالياقوت والماس حول رقبة مجعدة. وهى مثل واجهة زجاجية لصائغ! ويزداد قبحها بسبب مكياجها المغالى فيه. هل فعلت هذا لتؤثر علىّ؟

"إذا" تقول الساحرة التى تفتح شفتيها الحمراوين جدا وتبتسم "أنتِ فى الكام؟" لا أفهم مصـ ـقة فى الكام، وأسأل ببراءة "فى كم ماذا؟" تضحك "فى أى شهر؟ فأنتِ متزوجة منذ شهر نوفمبر" يا للقرف! مستحيل! هى تظن أننى حامل؟ ولن أفضى إلى هذه الحمقاء قرارنا بألا ننجب أطفالاً.

"ليس بعد، فنحن متزوجان فقط منذ نهاية شهر نوفمبر، ولدينا متسع من الوقت. كم هى جميلة هذه النجفة؟" وإعجابى بنجفتها يعطينى الحق فى ابتسامة أخرى حمراء، وهى تهتم بالخاتم الذى أرتديه. هذا ذهب أليس كذلك؟ وكم تساوى هذه الحجرة التركواز؟ وتربكنى هذه الأسئلة الغبية وأجيبها إنها هدية... وأخيّب أملها فتشير إلى حقيبة يدى من جلد الخنزير، وكان يجب أن أقول أى رقم، ولكن لدىّ رغبة فى استفزازها، وأن أرى على وجهها نفس التعبير المحبط والغاضب... وقد نجحت! وتقترب منى فى هذه اللحظة امرأة شابة طويلة، وتمد لى يدها بابتسامة خجولة، وتحاول أن تجلس.

"ألا تستطيعين أن تقبليها! يا حمارة!" فهذه هى الضحية الجديدة للساحرة، ونقبل بعضنا، وأعوضها بابتسامة جميلة، وهى امرأة جميلة، لكنها تضع مساحيق كثيرة وصبغة كثيرة. وهى فى حالة رعب من حماتها، والمسكينة لا تنبس بكلمة.

أفهم تماماً أن زوجات أبنائها لا يحبونها. حسناً فقد شربت قهوتى، وكنت مثار فضولها... أليس هذا كافياً لكى أرحل فقد استكفيت؟! ولكن الباب يفتح ويظهر كامل ووالده، ما هذا الفرق الكبير بين الزوج وزوجته؟ ووالد كامل رجل وسيم أطول من كامل ووجهه أسمر جدا، وله شارب وضحكة كبيرة ترج الزجاج، وهو يشد بقوة على يدى إلى درجة أننى أخفى تعبير ألم، وبالطبع فالضحكات تنطلق بسبب لغتى العربية، ولكن كامل سيحكى لى فيما بعد أنه أعجب جدا بى.

وقد أرسلت لى والدة كامل ديكاً روميا! والعائلة مستغربة جدا، فالساحرة لا تقدم أبداً هدايا فهى بخيلة بفظاعة.

والغداء والعشاء يستمران عند عم أو خالة أو ابن عم. فإقامتنا هنا الأولى بعد زواج إسماعيل وهى حدث ذو أهمية، ولا أشعر بأى ضيق بسبب الفضول الذى يحيط بى، فبالنسبة لى أنا أمر بتجربة جديدة، وأدخل فى بيئة مختلفة تماما عن التى تربيت فيها، وهى بيئة مصرية صميمة تحتفظ حتى الآن فى أعماقها بالتقاليد القديمة، والإشارة الوحيدة للتحرر هو ذهاب الفتيات إلى المدرسة. كنا قد وصلنا إلى ريرامون بحقيبة ونرحل عنها ونحن محمّلون جدا.. بالنسبة لى بالذكريات الثمينة التى سأحتفظ بها طويلاً.

(١٢)

٢٣ يوليــه ١٩٥٢

-١-

الساعة السابعة و٤٥ دقيقة، يتسلل ضوء الشمس بلا رحمة من خلال الشيش.

بعد ثلاثة أيام سيكون عندنا أخيراً ستائر وماما صرخت: "ستضعان ستائر على كل شبابيك المنزل؟! أنتما تبالغان حقا" ثم أرسلت لنا المبلغ المطلوب.

"ماذا تنتظرين حتى تستيقظى؟" أستدير نحو إسماعيل الذى يبتسم لى وأقبله: "أنت مستيقظ؟ سأطلب القهوة...".

يتمطع إسماعيل ثم يقوم ويضع خدادية خلف ظهره ويفتح الراديو. عندما أفتح الباب تأتى بوسى مسرعة، وتقفز على سريرنا وتتدلل على زوجى. وبينما يصبّح علىّ مختار أسمع صوت المذيع الغريب يقول: "ما هذا!" يقول إسماعيل وألتفت، وقد اشتعل وجدانى بهاتين الكلمتين. فالجدية التى تبدو على وجهه تصعقنى، ويشير بيده أن أصمت، وأنتظر واقفة وعيونى مركزة عليه وأستمع، وتسقط الكلمات واضحة درامية رسمية وهى تبدو كأنها نداء للهدوء، وينتهى هذا النداء باسم: "الجنرال محمد نجيب!" وبعدها بلحظة نسمع صوت مارش عسكرى.

لقد قفز إسماعيل من السرير بينما مختار يجر طاولة إفطارنا: "صُبّى القهوة. يجب أن أخرج على الفور!".

"انقلاب عسكرى؟" "كل المؤشرات تشير إلى هذا!" أملأ الفناجين بينما يسطع صوت هذا المارش المقلق. وبعد أن يشرب إسماعيل قهوته يرتدى ملابسه على عجل.

يبدو أن الجيش قد استولى على السلطة والبيان عبارة عن نداء؛ ليعم الهدوء وليطمئن الشعب... "سأذهب عند فؤاد وسأتجول قليلاً" ثم يبتسم لى "وخصوصاً لا تنزعجى لو تأخرت. اطلبى من مختار ألا يذهب إلى السوق هذا الصباح من الأفضل ألا يخرج... سنأكل أى شىء".

وقد انتهيت من كل شىء سريعًا، ودخلت إلى غرفة المكتب وهى الغرفة الوحيدة التى انتهينا من تأسيسها كاملة وهى واسعة ومضيئة. ولها مدفأة وأثاثها من مكتب مصنوع من شجر البلوط الفاتح "وهو قبيح جدا"، وقد أعارته لنا ماما مع بلاكارين وأرفف مليئة بالكتب، والأريكتان تتحولان إلى أسّرة. وعلى الرغم من أن مطبخنا قد اكتمل فإننا نتناول وجبتنا على طاولة برديج! وقد صرفت ماما مبلغًا كبيراً على حفلة زواجنا. وبما أن الموسم الشتوى كان سيئا فهى تشترى لنا الأشياء الضرورية بالقطّارة. ماذا سيحدث؟ والملك؟ هل ما زال موجوداً فى قصر المنتزه؟ إنهم عسكريون! ما رأى فؤاد؟ هل يعرف شيئًا أكثر منّا؟ لم أقابل قط فؤاداً فى باريس، وهذا غريب رغم أنه كان هناك فى نفس الفترة التى كان فيها إسماعيل. وهو أيضًا قد حصل على الدكتوراه فى الاقتصاد السياسى، وعند عودته إلى مصر تزوج، وأنشأ الحزب الشيوعى المصرى مع زملاء آخرين. وقد تناولنا وجبة غداء رائعة من السمك فى بيته مع زوجته عطيات. وهى أكثر طولاً من زوجها، سمراء بعيون كبيرة سوداء ووجه حيوى، ولكن جسدها قد شوه بسبب الدهون. ويدرس فؤاد فى كلية إسماعيل نفسها.

أنتظر. وأنا لا أعرف حتى الآن أننى سأنتظر فعلاً انتظاراً طويلاً لمدة سنوات.
أنظر إلى الشرفة. كم أحب شارعنا، والإسكندرانية يسمون هذا الحى "ببيت المسؤولين" لأن السفير البريطانى يمضى فيه الصيف فى فيلته التى تقع فوق تل. لقد جئنا فى هذا البيت منذ مايو فى شقة مكونة من أربع غرف فى الدور الأول لفيلا منقسمة إلى قسمين، وتحيط بها حديقة. والحرارة جففت الورود الموجودة فى الممر الذى يحيط بالحديقة، والزرعة المتسلقة التى جئنا بها من المنشية زرعها البستانى، وهى تكبر متسللة على حائط الجراج. ونأمل أن تغطى السقف وتثمر عن زهور جميلة حمراء مثل ما تفعله فى الريف.

كل المنازل فى شارع جراتيان محاطة بالحدائق المزروعة وبالأشجار والورد. شارع هادئ، ولكن فى هذا الصباح ولأول مرة أستمع إلى صوت الراديوهات. وسكان هذا الحى من الأغنياء. كيف تقبلوا هذا الخبر الخطير؟ على الأرجح أنهم مختبئون فى منازلهم، وينتظرون الأحداث. يوجد فى الشارع سيارات قليلة وبعض المارة. وبوسى غير راضية عن عدم اهتمامى بها، وذهبت لتجلس على حافة الشرفة وتتمسح بجسدها على كوعى. ثم تتوقف فجأة وترفع أذنيها وتتكبئ. هناك صوت لمحرك سيارة مصاحباً صوت آلة التنبيه يعلنان عن عودة إسماعيل، ويدخل بسيارته فى الشارع، ويقف أمام الجراج، وتسرع بوسى نحو الباب، وتقف على رجليها وتموء، وتسمع أصوات خطوات على السلم.

"سلام" يقول وهو يبتسم: "أرى أنكم تنتظروننى جميعا!" وقد خلع مختار مريلته، ويقف ورائى.

"اهدؤوا فكل شىء ساكن والساعة لم تتخط الثانية عشرة ظهرا. أرغب فى فنجان من القهوة".

يدخل غرفة المكتب، وكعادته يجلس إسماعيل وراء مكتبه "لقد رأيت فؤادًا وزميلاً آخر وتحدثنا.. وقبل عودتى ذهبت حتى شاطئ سيدى بشر رقم ثلاثة، ورأيت هناك شريطًا من العساكر واضطررت للعودة. وقصر المنتزه محاط، والملك سجين".

ويردد الراديو دون توقف البيان نفسه ومارشات عسكرية، ويقال: إن صيحات من الفرحة قد استقبلت هذا البيان، ولكننا نشعر نحن -الاثنين- بالشعور نفسه وهو شعور القلق والريبة... هل هى حركة عسكرية؟ انقلاب؟ فى أى أيدٍ آلت مقادير البلد؟ للعسكريين؟ من هو هذا الجنرال نجيب؟

كل مصر آذان مصغية، والأخبار تأتى على التوالى، وترفع الغموض بهدوء عن الذى كان يقع على البلد.

ويضطر العسكريون أن يطلبوا من على ماهر أن يكوّن مجلسًا من المدنيين.

ويوم ٢٤ يترك الملك قصر المنتزه، ويحتمى فى قصر رأس التين، ويعيّن محمد نجيب قائدًا للقوات المسلحة.

تستقبل مجاميع من الشعب بفرحة قدوم محمد نجيب إلى الإسكندرية.

بعض الشخصيات المحيطة من الملك هم من المغضوب عليهم.

فى يوم ٢٥ يوليو تعلن الصحافة إلغاء الألقاب!

"لم يعد هناك باشوات ولا بكوات! هذا رائع!" "أخيرًا نهاية استعمال الألقاب. عبد الحميد باشا المسكين لم يستمتع بلقبه إلا لمدة خمسين يومًا".

"تذكرى اللهجة الساخرة والدونية التى كان يتحدث بها أصدقاء والدتك عندما كانوا يشيرون إلى المقربين من الملك. كان هؤلاء يبيعون ألقاب الباشوات والبكوات مطالبين فى المقابل بمبالغ ضخمة يدفعونها إلى جلالته! وكان الثمن غير ثابت، وكانت تحدده ثروة المشترى. لهذا كان من الطبيعى أن يتحدث الناس عن الفساد".

فى ٢٦ يوليو، الساعة الثامنة صباحًا يستدعى الجنرال محمد نجيب على ماهر ويجعله مسئولاً عن إعطاء موعد نهائى لملك مصر، ويحيط بقصر رأس التين أفراد من الجيش؛ ولأن أحد الحراس قد ضرب النيران فإن العسكريين قد أجابوا عليه بضرب النار، وهناك كثير من المجروحين بين عساكر الحرس الملكى، ويضطرون فى النهاية لأن يستسلموا.

ويبحث فاروق الأول الذى أخافته المعارك على أبواب قصره عن مساندة السفير البريطانى مثله مثل أسلافه. والقائم بالأعمال الذى يأخذ مكانه يحيله إلى سفير الولايات المتحدة، يطمئنه السفير الأمريكى على سلامته الخاصة، ثم يستقبل الملك على ماهر الذى يعرّفه بالمطلوب: "التنازل لصالح ابنه الذى يبلغ من العمر شهورًا قليلة، ورحيله عن مصر فى اليوم نفسه قبل الساعة السادسة".

يعرفنى إسماعيل أن "جمعية المعلمين" من جامعة الإسكندرية كانت قد أرسلت رسالة مشاطرة مع حركة الجيش.

سنعلم فيما بعد بوجود مجلس ثورة يرأسه الجنرال نجيب، وسنعلم فقط أن هذا المجلس مكون من ضباط شباب.

يوم ٢٦ فى نهاية الصباح يعود إسماعيل إلى المنزل ووجهه مطمئن جدا، ويعرفنى بتنازل الملك لابنه ورحيله عن مصر بعد ظهر اليوم نفسه.

"سأذهب للعمل بعض الوقت قبل الغداء" كما يقول، وأجلس بالقرب منه وأفتح كراستى.

"أخيرًا خطوة جديدة استكملت. هذا الرجل القبيح الذى ليس له حياء ولا كرامة والذى يحتقر شعبه، والذى يحتقره شعبه فى المقابل، هذا السليل الضعيف لمحمد على الكبير سيغادر أخيرًا مصر مع زوجته وابنه فؤاد الذى يبلغ من العمر سبعة أشهر".

فى نحو الخامسة بعد الظهر نسمع خمس عشرة ضربة مدفعية ترج شرفتنا.

"يذهب فاروق.. خمسة... ثمانية... إحدى عشرة... واحد وعشرون!"، وأصوات بعيدة تأتى إلينا مِثل احتفال، وليس غريبًا أن هذا الرحيل يستقبل من عموم الشعب بهذه الفرحة الكبيرة، وهو يعطى للضباط الشباب قاعدة كبيرة من الشعبية.

نقف بجانب الشرفة وإسماعيل يضمنى إليه، وفى هذه اللحظة يدق مختار على الباب ويدخل: "مبروك يا بك هذا الكلب الذى يسمى فاروق قد رحل. هؤلاء الضباط طيبون جدا، وكان من المفروض أن يشنقوه". نضحك!

"هذا يكفى يا مختار" يقول إسماعيل: "ماذا سنكسب من موته! وهذا يعنى أن هؤلاء الضباط ليسوا همجيين ولا يميلون للعنف. فليحم الله بلادنا!"

وسنكون من القلائل الذين عرفوا أن فى ليلة ٢٥ إلى ٢٦ يوليو ناقش مجلس الثورة مصير الملك، ورجل يدعى جمال عبد الناصر وأعضاء آخرون قد استبعدوا فكرة المحاكمة، واقترحوا أن يفرضوا عليه أن يتنازل، وأن يترك مصر، وقد قوبل هذا الاقتراح بالإجماع، وعلى كل حال لم نعرف هذه التفاصيل إلا بعد أيام. يرن جرس الهاتف بعد هذا بنصف ساعة. من المتحدث؟: "آه ها أنت يا دجيهان كير! بونجور! نعم حسنًا سنمر عليكم بعد نصف ساعة" يبتسم إسماعيل "لم لا.. فهم فى حالة ارتباك شديدة ومحتاجون للاطمئنان".

وهم جميعا هنا. ويلعب دجيهان كير على البيانو المارش الجنائزى لشوبان، ويقوم بصحبة إخوته بالسلام علينا. عندما يجلس من جديد دجيهان كير على البيانو أقول بصوت عالٍ: "بونجور يا رفاقى!" يبتسم دجيهان كير ويتوالى عزفه، ولكن زوجته تسأل بصوت أجش: "لماذا تقولين رفاق؟" ويبتسم لها إسماعيل ابتسامة جذابة: "لا تعيرى انتباهًا لبولى فهى تمزح" ثم يقترب من الأميرة الشابة ويقبل يدها "مساء الخير يا جميلة" زوجة شهريار تحمر خجلاً وتبتسم.

"وهكذا فقد غادر ملكنا السمين على باخرته الصغيرة! وقد أصابه ركلة ما فى مكان ما.." يغنى دجيهان كير وهو يعزف على البيانو "إن البوليس وصحبتهم لم يعودوا من بين الجماعة.." ويعزف من جديد، وتظهر غمزاته وهو يبتسم ابتسامة ساخرة، ثم يرجع إلى الوراء على مقعده: "ما رأيك يا إسماعيل هؤلاء الضباط الأحرار هل سيحكموننا؟ لو كانت درجة تعلمهم مثل فلان فسيكون شيئًا جميلاً" ويتحدث إسماعيل وهو مبتسم وهادئ الأعصاب، ويحاول أن يحلل موقفًا ما زال غامضًا، ويحاول أن يراعى مستمعيه الذين فى مجملهم من حلفاء العائلة المالكة... يجيب عن الأسئلة ويطمئن الناس ويعطى أمثلة تريح.

بعد مغادرتهم ينهرنى إسماعيل ضاحكًا: "أنتِ مدهشة بتلقائيتك! لم تجدى شيئًا أفضل من قول الرفاق؟ هل نسيتِ من هم؟"

لقد حدثتنا ماما من باريس: "كيف حالكم؟" وصوتها واضح ومرح. وكذلك أصوات تاتى وديدى أيضًا ونطمئنهن. وعلى كل حال فأصدقاء فى سفارتنا أعلموهم بالأحوال وخصوصا بالنسبة "لنبلاء" هذا البلد. إن الثورة لم تقطع رقاب أحد! وبعد رحيل الملك أنشئ مجلس وصاية وهو مكون من ثلاثة أعضاء، ويرأسه أمير.

وبعد الثورة بخمسة أسابيع أُعلن عن الإصلاح الزراعى الأول، وهو تحديد الملكية الزراعية لكبار الإقطاعيين: فدان للشخص الواحد، ومائة فدان للأولاد. فلا تحتكم كل

عائلة الآن إلا على ثلاثمائة فدان. والملاك الكبار الذين لم يذهبوا إلا نادرًا إلى بيوتهم الريفية الكبيرة وجدوا أنفسهم فى موقف حرج، وفقدوا كل أدوارهم السياسيه. ونرحب بمحمد نجيب وصورة الرجل التى نتصور أنه محرك ثورة ٢٣ يوليو، والذى يقدم وجهًا مبتسمًا كوجه طفل، وعلى كل حال فإن أسماء أعضاء مجلس الثورة لم يُعْرَفُوا إلا فيما بعد وعلى التوالى.

-٣-

١٨ يونيه ١٩٥٣. أعلنت جمهورية مصر. والجنرال نجيب هو رئيس المجلس، بينما البكباشي يدعى جمال عبد الناصر معين وزيراً للداخلية، وهو رجل غير معروف وكان متواريا! وإسماعيل ورفاقه مجتهدون جدا فهم يكتبون المنشورات، ويطالبون بحكومة ديموقراطية، ومراجعة الدخول والعلاوات فى كل المجالات، ويقفون بشدة بجانب مجلس الثورة، ولن يستمر هذا طويلاً.

وسيأتى حدث خطير سيربكنا جدا، وقد أضرب عمال مصانع الغزل والنسيج فى كفر الدوار وهم يطالبون بارتفاع الأجور وبتحسين ظروف العمل باسم ثورة ٢٣ يوليو، والبوليس يتعامل بعنف مع المضربين، ويقبض على مسؤوليهم؛ وقد شكلوا محاكمة عسكرية، وحكموا عليهم بالإعدام، ونُفذ الحكم!

نحن مصعوقون! وكان هؤلاء العسكريون قد أخذوا السلطة بدون إراقة دماء ولم يقطعوا رؤوساً متوجة، لماذا إذن يتعاملون هكذا مع العمال؟ فهؤلاء العمال قد ارتبطوا بهم، وهم يطالبون بحقوقهم، ويعتمدون على ما أعلنوه يوم ٢٣ يوليو... فماذا إذن؟

"هذا حدث غير مسبوق فى مصر" يقول إسماعيل بصوت مكتوم: "هل يمكن أن يكون لدينا أى أمل؟" وجورج هو الذى قال: "لا أومن بجمهورية تقتل عمالها".

(سنعرف فيما بعد بسنوات أن قرار الإعدام قد انتخب بأغلبية مجلس الثورة ولكن جمال عبد الناصر وخالد محيى الدين ويوسف صديق قد اعترضوا عليه).

ويدخل فى هذا الوقت الحزب الشيوعى المصرى ضد الحكومة الجديدة.

وبعد إجراءات "التطهير" التى أخذها العسكريون فى الجامعات، يعترض أساتذة جامعة الإسكندرية على هذا التدخل فى الشأن الجامعى، ويحررون بيانًا يمضيه الجميع. وأثناء زيارتنا الشهرية إلى القاهرة يقول لنا بابا: إنه قدم استقالته، وكان والدى حينئذ عميداً لكلية العلوم! فقد جاء ضابط وعمل تحريات فى كلية العلوم وبجاحة وحماقة طلب إيصالات المصاريف المدفوعة على البحث العلمى، عندما قام هذا الرجل "البجح" بسؤال الأساتذة والطلبة الذين يسافرون فى رحلات علمية إلى الصحراء عن عدم عودتهم بجراكن البنزين وهى فارغة؟ أجاب عليه والدى وهو مستاء: "لأننا نتبول فيها!".

"إن معاملة هؤلاء الناس كأنهم لصوص كان بمثابة إدانة لى. وماذا سيحدث لبلادنا مع هذه الشلة من الجهلاء الذين يرتدون هذا الزى العسكرى؟ كان يجب ألا يقبل رئيس الجامعة استقالة والدى كان يجب أن يستدعيه ويقول له إنه يرفض: "رجل مثل والدك تعتبر أعماله وأبحاثه شرفًا لبلادنا! إن رئيس الجامعة أعرب عن نذالته" يقول إسماعيل.

ونجتاز عام ١٩٥٣ بدون عوائق ويستمر إسماعيل فى إعطاء محاضراته فى الكلية، وينشر كتابًا يجنى نجاحًا كبيراً، ولكنه يعطى وقتًا طويلاً للحزب الذى تدين بياناته بشدة التجاوزات العشوائية، وأعرف عن طريق زوجى أن نجيب لا يحظى بتأييد مجلس الثورة. وفى مارس ١٩٥٤ تأتى أزمة كبيرة تزلزل النظام الجديد، ويحيط الجنرال نجيب عدد من القادة السياسيين الذين كانوا قد أخذوا قراراً بعودة العسكريين إلى ثكناتهم حتى يتثنى أن يحكم البلاد رجال سياسة من المعروفين تقليديا. وهو موقف مركب جدا، فهناك كثير من الرجال ذوى الحساسية السياسية المختلفة، والذين يقفون بجانب منظمة الإخوان المسلمين، وهذا يتسبب بانشقاق فى داخل مجلس الثورة. واثنان من أعضائه قد أبعدا: خالد محيى الدين، ويوسف صديق اللذين كانا قد أخذا موقفًا واضحًا بمحاذاة الديمقراطية.

وحينذاك يعلن ناصر ورفاقه فض جماعة الإخوان المسلمين، ويبدؤون فى أخذ قرارات قمعية تجاه القوى السياسية التى تعارضهم، مثل الشيوعيين! وفى الوقت نفسه يوضع الجنرال نجيب تحت الإقامة الجبرية فى ضواحى القاهرة، ومجلس الوزراء يعلن أنه سيقوم بمزاولة جماعية للسلطات الوزارية، وتولى جمال عبد الناصر منصب رئيس الوزراء، ولكن لا يقبع الإخوان المسلمون بدون حركة، وخلال اجتماع كبير فى الإسكندرية يحاولون اغتيال ناصر وطلقات النار التى يرمون بها هذا الرجل غير المعروف فى هذا الوقت، والذى يتميز بطول هامته لا تهز فى رأسه شعره، بل بالعكس يطلب من الجماهير أن يتحركوا ضد هذه المحاولة للاغتيال وضد الذين ارتكبوها، وتبدأ حملة شعواء ضد الإخوان المسلمين، وكثير من قادتهم يمثلون أمام المحاكم العسكرية ومن بينهم أربعة حُكم عليهم بالإعدام.

ويشرح لى إسماعيل موقف الحزب وغيابه يطول. وعندما أتذكر هذه الفترة من حياتنا يبدو لى أننا كنا نعيش حياة مزدوجة وخاصة إسماعيل، وكل هذه السنوات التى قضيناها تقريبًا معًا فى باريس علمتنى أن أتعرف على عيوبه ومزاياه. وأعيش سعيدة ممتلئة بهذا الرجل الذى هو فى الحقيقة رفيق وعشيق وصديق، أشعر معه بانسجام كامل. الذهاب إلى معارض الفن والمحاضرات وحفلات العشاء الراقصة تعطى لحياتنا بعض التنوع فى مشاغلنا التى تزداد كل مدى مع ازدياد صرامة القوى العسكرية. نتحرك فى عالم هامشى مكون من أثرياء اليهود واليونانيين والإيطاليين، حيث الثقافة الأوروبية ولا يتحدثون جيدا اللغة العربية، ويمتزج بهؤلاء عدد من أعضاء الطبقات العليا والفنانين والمثقفين المصريين، ولا يظهر الناس الرسميون فى حياتنا إلا فى الحفلات التى تقيمها البعثات الدبلوماسية.

إنه عالم فى طريقه إلى الاحتضار.

فى القاهرة مجموعة الملابس الجاهزة لبيت صالحة لم تحظَ بالنجاح المنتظر. أغلب الزبائن يشترون فقط تايور أو ثوبًا لبعد الظهر. فى أى مكان سيرتدين ملابس السهرة؟

فى هذا الموسم الشتوى الذى يلى الثورة فإن الأمراء السابقين والباشوات والبكوات يكتفون بحفلات عشاء متواضعة. وبالنسبة لأفراح أولادهم فحفلات استقبال بسيطة تجمع بين الأهل وبعض الأصدقاء المقربين. لا أحد من بين الذين يستقبلوننا فى الإسكندرية وفى القاهرة يشكون فى معتقداتنا. النساء تحسدنى على أناقتى: "هذا سهل بالنسبة لها فوالدتها لديها بيت أزياء" لا أحد يمكن أن يتصور أن هذا الشاب الوسيم الذى يقوم بالتدريس وله هذه الابتسامة الجذابة والذى يقبّل يد النساء هو من قادة الحزب الشيوعى المصرى.

أكتب فى يومياتى: نتحرك بين أرباب العالم الراقى، ونرتدى أحلى ثيابنا ونحن مبتسمون ومهذبون، بينما نقاوم حتى يأتى غد يغرد..."

(١٣)

بين قوسين

-١-

"أنا زهرة! أختك زوزو..." لم أصدق أذنى.. إنها أصغر أخواتى، تحاول أن تعيد الصلة بنا! كيف تبدو؟ لم يكن لدىّ عنها أو عن أختها التى توفيت العام الماضى إلا ثلاث صور أخذهم بابا فى حلوان.. زهرة وأنا وديدى واقفات، ونمسك أيدى فتاتين صغيرتين تلتصقان بساقنا، والبنتان شقراوان. إن رغبتها فى استعادة العلاقة معنا بعد أن كانت هذه العلاقات متسيبة يبرهن أنها لم تنسنا. وكانت زوزو تبلغ من العمر السادسة أو السابعة عندما انفصل والداها، ولم نرَ بعضنا فيما بعد، وأظن بعد طلاقها من بابا منعت طنط رقية ابنتها من رؤيتنا، وكانت ابنتها الكبيرة قد توفيت منذ عامين. وترك بابا لها العنان لتفعل ما تشاء كالعادة عندما كان يستبعد موضوعًا يزعجه. وهذا الموقف المؤسف كان يمكنه أن يستمر حتى موت والدنا، ولكن لم نحسب حساب أختنا الصغيرة! وكنت وأنا منتشية، ومستغربة عرضت عليها أن تأتى لمقابلتى هذا الصباح.

وكما توقعت دقت زهرة المسماة بزوزو على الباب فى الحادية عشرة بالضبط، وأسرعت لرؤيتها. وجاءت بصحبة السفرجى فتاة ممتلئة وشقراء، وتبتسم لى بخجل وبتأثر شديد. احتضنتها قائلة: "أنا سعيدة جدا لرؤيتك من جديد، حسنًا تعالى إلى

الصالون.. كيف تشربين قهوتك؟ مضبوط مثلى؟ هذا مختار..." ويسلم مختار وهو مبتسم، ويختفى لإحضار القهوة.

"آه هذه قطتك؟ كم هى جميلة!"، ولم ألحظ أن بوسى قد أسرعت لتجلس معنا، وبفضول كانت تشمشم حذاء زوزو.

"أنا أعشق القطط.. وعندنا كثير منها" وتطبطب يد أختى الصغيرة على بوسى التى تشعر بالأمان، وتقفز على ركبتيها وتحتمى بها.

وتبتسم إحدانا للأخرى ونحن جالستان جنبًا إلى جنب، ولاجتياز الحاجز الذى يقف بيننا؛ أسألها عن المدرسة التى تذهب إليها فى الإسكندرية، ولكن زوزو لم تعد تذهب إلى المدرسة، فبعد حصولها على الإعدادية رفضت والدتها أن تستكمل دراستها.

وأردفت قائلة بخجل: "لتزوّجنى!" وتحنى رأسها وهى مرتبكة؛ لأنها تحذر من أن أؤيد قرار والدتها.

"تتزوجين الآن. ولكن كم تبلغين من العمر؟ أليس هذا مبكرًا جدا؟ ستة عشر عامًا؟ وهل أنتِ ترغبين فى الزواج الآن؟ هل أنتِ على علاقة مع شاب؟" تضحك وقد أغلقت جفونها مثل بابا! وعيناها لونهما عسلى فى وجه مستدير بذقن مربعة قليلاً، وأنفها عريض، وشعرها أشقر ذو خصلات رفيعة وينسدل مموجًا على كتفيها.

"لا لست على علاقة بأى شاب، وليس لدىّ أى رغبة فى الزواج، ولكنها ماما، تعرفين ما أرغب به بشدة؟ أن أصبح فنانة تشكيلية، مثل إنجى، فأنا أعشق الرسم والتصوير.. وقد وعدنى أنكل حسين أن يجد لى مدرسًا.." والرجل الذى تسميه أنكل حسين هو الزوج الثانى لوالدتها التى أنجبت فتاة منه وهو محافظ الإسكندرية. وهم يعيشون فى فيلا فى رشدى لا تبعد كثيرًا عنا. لم يكن لدىّ وقت لأريها الشقة؛ لأن السفرجى كان ينتظرها، وكانت الساعة قد مرت سريعًا، ووعدتنى أن تأتى لتناول

الشاى معى لتتعرف على إسماعيل. وسأكتشف ببطء شديد من خلال مقابلاتنا الكثيرة الشخصية الحقيقية لأختى.

افتتحت إنجى وحمدى الأريكتين المفروشتين الموجودتين فى غرفة المكتبة، وأمضيا ثلاث ليالٍ عندنا، وقد تنزهنا بالسيارة فى العجمى وأبى قير، وتناولنا العشاء ورقصنا فى سانتا لودسيا، وتناقشنا كثيراً فى السياسة، وهذا مكننا من أن نقترب أنا وإسماعيل من حمدى، وزوج أختى رجل وسيم وهو طويل ورفيع وأسمر جداً، وذو عيون رمادية. ويتحدث حمدى الآن الفرنسية بطلاقة، وهو شاب ذكى وخفيف الظل. ويأتى حمدى من عائلة متواضعة، ولم يتخلص رغم أنه شيوعى من أحكام البرجوازية. أنا أحبه كثيراً رغم استمتاعه باستفزازى. ونقضى بالطبع عطلات نهاية الأسبوع كثيراً فى المنشية، وفى هذا الصيف بحجة أنه يجب أن يكون حاضراً فى الأرض. أقنع بابا زوجته بالسفر بمفرده إلى موجاف. وفى مساء ما يعرفنا بابا بطريقة عارضة أن والده كان قد اشترى منذ زمن بعيد بعض الفدادين الرملية من ناحية المعمورة فى الإسكندرية، وصاح إسماعيل: "ولم تذهب يا حسن بيه إلى هذه الأرض، ولم لا تأتى عندنا؟ سيسعدنا كثيراً أن تمكث عندنا بضعة أيام، وستكون بالنسبة لك فرصة مزدوجة من ناحية زيارة شقتنا، ومن ناحية أخرى زيارة رمالك!".

-٢-

وها هو بابا قد أتى عندنا شارع جراتيان! وقد تركنا له غرفة نومنا.

"ولكنك فكرتِ فى كل شيء!" يصيح بابا وهو سعيد جدا، وقد لاحظ السبرتاية الصغيرة وفنجان القهوة الموضوعين على منضدة.

"أعرف عادات حبيبى بابى! فهو يلزمه فنجان القهوة التركى كل صباح عند الاستيقاظ" وكان كلامى فى غاية الدقة؛ لأن والدى كان يستيقظ مبكرًا جدا فى الصباح وهو يشرب قهوته التركية ويرتدى ملابسه، ثم يأتى فى السادسة والنصف ليدق على بابنا "هل تنامين يا جلبيرى؟".

"أوووه قومى واتركينى أنام" يزمجر زوجى المسكين فمنذ مجيء والدى تنتهى سهرتنا تقريبا فى كل ليلة بعد منتصف الليل.

أذهب إلى بابا فى غرفة الطعام، حيث أحضر مختار كل شيء، ويقول لى بابا: "بونجور- بصوت منخفض- هل زوجك ما زال نائمًا؟ هل تعتريه أزمات الأرق؟ المسكين! أنا نمت كالطوبة" ويقرمش توست بالزبد، ويحتسى قهوته باللبن وهو يستمتع بها: "لا أحد يحضر القهوة الفرنسية مثل ابنتى، آه وها هو إسماعيل بونجور! آمل أن تكون قد نمت جيداً".

ويحاول إسماعيل أن يأخذ الجانب الإيجابى من الأشياء، ويجلس مبتسمًا ويبتلع قهوته.

ويقدر كثيراً والدى طبيخ مختار، ولكننا نتناول غداءنا كثيراً فى المطاعم المشهورة بوجبات السمك الجيدة، وكثيراً ما تحضر أختى معنا وزميل صف لوالدتى من مدرسة فيفى".

وبالطبع لا تفوتنا الفرصة لزيارة المندرة، وهى قطعة أرض رملية كبيرة تحدها يافطة نقرأ عليها بصعوبة أسماءنا.

"انظروا على كل هذه الرمال ماذا يستطيع المرء أن يفعل بهذا، إنها لا تصلح للزراعة، هل من الممكن إقامة منزل هنا؟ ومن يستطيع أن يفكر بوضع ماله فى هذا المكان البعيد المنعزل عن كل شىء؟" لم تكن نستطيع أن نتصور فى هذا الوقت أن هذه الرمال ستكون باهظة الثمن، وأنها ستمتلئ بالعمارات والفيلات التى تتبارى فى قبحها.

سيسافر بابا بعد يومين، وقد تناول ثلاثتنا الغداء فى سانت جيوفانى، ثم تركنا إسماعيل فى مقهى على شاطئ البحر، وسيلتقى بنا من جديد بعد محاضراته. بعد الكلام المعتاد أسأل بابا بأدب إذا كان لديه أخبار من ليلى؛ ويشيح بابا بيده كأنه يطرد بعوضة، ثم يبتلع قهوته وهو يبتسم لى: "بالطبع ليلى تكتب إلىّ... هراءات! عن الطقس الرائع، عن أصدقائنا، ولا تكف عن مدحهم"، أنا مرتبكة فى البداية ومندهشة بعض الشىء، وأستمع إلى والدى وهو يفضى إلىّ همه كأنه يخفف من نفسه: "هى لا تعرف أنهم يسخرون منها! أنتِ يمكن أن تفهمى بعض الأشياء؛ فأنا أصرح لكِ أننى سعيد لغيابها وخاصة أنى لا أصطحبها إلى موجاف التى سئمتها، لا أحب أن أراها وهى تضع نفسها فى موقف يثير ضحك زبائن الفندق وهى تتفوه بشتائم وكلمات غليظة تضحكهم جدا... لقد حاولت كل شىء يا جلبيرى وكل ملاحظة منى تجعلها تبكى وتقول: إننى لم أعد أحبها، وأشياء أخرى من هذا القبيل وأظنكما مذهولتين أنتِ وإنجى من طريقتها فى اللبس.. إنه كرنفال!" ويرفع بابا كتفيه العريضتين، ويستكمل بابتسامة حزينة: "حاولت أن أقدم لها ثوبين من عند والدتك، وقد ذهبت معها واخترنا

الأثواب معًا وعندما ارتدتهما لم أتعرف عليها! وهذه القبعة الخضراء بلون السبانخ التى ارتدتها يوم سفرنا بالطائرة، الكل كان ينظر إليها ويسخر منها.. كنت خجلاً! أصارحك يا جلبيرى أنها تقززنى وأننى لم أعد أقترب منها.. هى تظن أننى أصبحت عاجزًا ولا أستطيع أن أطلق من جديد! أنا بالفعل قد ارتكبت حماقة كبيرة عندما تزوجتها. لقد أعطتنى بعض السعادة لمدة سنوات، ولكنها تغيرت جدا. تعرفين يا جلبيرى بجانب مكتبى الذى أستقبلكم فيه، لدى غرفة صغيرة أنام فيها". يا أبى المسكين! ما هذا الموقف الغريب الذى وضع نفسه فيه، وقد صمت ونظر إلى البحر ذى الأمواج العالية التى ترتمى على الشاطئ. وأقول ببطء وقد شجّعتنى مصارحته: "إذن يا أبى المسكين لم تكن قط سعيداً فى زيجاتك".

"مع زوجتى الثانية. أنتِ تعرفين، فوالدتك كانت رائعة الجمال وذكية، وكنت أعشقها، ولكننا لم نكن متفاهمين. فكانت صغيرة جدا لا تفهمنى وكنا شخصيتين متعارضتين كما لاحظتِ، لكن زوجتى الثانية وهى روسية ملأتنى سعادة، وكنا سعداء جدا، ولم يكن لديها مليم واحد، وكانت تكبرنى ولكنها كانت حساسة ومتفانية وذكية ومثقفة جدا.. لماذا انفصلت عنها؟.. عن ضعف.. نعم يا جلبيرى كنت نذلاً، فوالد رقية كان يريد أن يزوجنى من ابنته التى كان لديها مالٌ كثير، وتملك بيتًا فى حلوان، ويعتبر هذا الزواج أول خطأ كبير فى حياتى وثانى خطأ كان ليلى. وأنا الآن عجوز جدا ولا أستطيع أن أبدأ من جديد حياتى.. أنفصل عن هذه المرأة المسكينة! لا أفهم ما الذى غيرها... على كل حال لدىّ أبحاثى التى أحبها والمنشية، وهى أشياء تسعدنى كثيراً، وأقبل مصيرى فى تحملها.. هذا كل شىء مثل مرض لا علاج له".

إذن فوالدى كان يتجمل كما كان يقول: هذه المرأة البرجوازية الصغيرة العبيطة التى تضع المكياج بفظاعة، والتى تلبس كأنها ذاهبة إلى كرنفال. وكان يعرف جيداً أن زوجته هى مثار ضحك أصدقائه وأساتذة الجامعة وقد حكيت لإسماعيل اعترافات والدى، ولكنى لا أظن أن الفرصة سنحت لكى أرويها لأختى.

-٣-

جاء عز الدين وعائلته لقضاء شهر فى الإسكندرية، ولكن قبل مضى أسبوع تحدث معنا على الهاتف الساعة الثامنة صباحًا، وأرى حتى اليوم وجه إسماعيل وهو مشدود والهاتف على أذنه: "سنجهز أنفسنا فقط" وكأنه يمنع نفسه من البكاء، وأنتظر وقلبى مختنق.

"لقد توفى أنكل محمود هذه الليلة.سنسافر على الفور إلى محراث" وتنسال الدموع على خديه.. "أنا كنت أحبه مثل والدى..جهّزى نفسك".

أتذكر من هذه الليالى الثلاثة التى قضيتها فى بيت العم المتوفى مظاهر الحداد وكأنها رسومات على معبد، وهى تنتمى إلى عصور قديمة وفى سبيلها إلى الانقراض.

كانت الساعة تقترب من الثانية بعد الظهر عندما توقفت السيارة أمام البيت المفتوح من البيت الكبير: "ادخلا أنتما الاثنان، ستهتم بكما ثريا عز وأنا، سنحضر الجنازة وسنمكث مع الرجال" وقد تحدث إسماعيل بصوت مبحوح وعيناه محمرتان قبل أن يختفى مع أخيه.

ويستقبلنا بكاء المولولات، ويبدأ بعد ذلك دراما سيكولوجية كبيرة سأصبح جزءًا منها، ولكن "على الهامش".

والصالة الكبيرة مليئة بالنساء الملتفحات بالسواد واللاتى تجلسن بجانب الحوائط، وعلى يميننا تجلس القرفصاء السيدة الأرملة، وبينما أقترب منها ألاحظ بفزع هذه

البقع الزرقاء التى تملأ كل خد من خدودها! وأقبلها أنا ورئيفة والوجه غير الجميل للأرملة يتحرك، وتنسال دموع كثيرة على خدودها، وهل سيمسح ملح دموعها هذا اللون الأزرق البغيض؟

"تعالى" تأخذنا ثريا بعيونها المنتفخة مرتدية منديلاً من الموسلين الأسود على رأسها إلى قاعة كبيرة مضيئة، حيث نلتقى بحماتنا وهى تجلس القرفصاء على الأرض، وتحيط بها نساء كثيرات، ولا توجد مقاعد ولا خداديات. وتبكى تيزا عندما تقبلنا وتقول: "كان يحبك كثيراً وكان راضيًا جدا عن إسماعيل" وأنا مرتبكة جدا بسبب نظرات الفضول التى تقع علينا وعلى وجه الخصوص وأنا أجلس مع رئيفة بجانب حماتنا.

"هذه زوجة إسماعيل؟"

"نعم" تقول تيزا: "أحبها مثل ابنتى" وتنحنى ثريا نحونا: "لقد وضعت حقائبكما عند بنت عمنا. وهو المنزل الذى يقع فى آخر الحديقة، وقد أحضرت لنا أسرّة ووجبة للمساء، ولكن حذار أن تقولا لأحدٍ إنكما ستتناولان العشاء". وعليكما وفقًا للعادات القديمة أن تصوما وألا تشربا إلاّ قهوة بدون سكر، وبالفعل فهناك خادمة تمر بأكواب قهوة وأكواب ماء مثلج، وتنبهنى إحدى السيدات: "هذه قهوة بدون سكر. ربما لا تعرفين هذا، ولكن عندما يكون هناك حالة وفاة فى المنزل لا يجب أن نشرب قهوة فيها سكر" أومئ برأسى وآخذ فنجانًا. كنت على علم بهذه العادة العبثية التى لم تعد لحسن الحظ مطبقة فى المدينة. وأحضّر نفسى للمفاجآت التى تنتظرنى، فثريا تعرفنا أنها ستنام معنا فى فيلا بنت عمها، ولكنها لا تتحدث عن والدتها.

عندما أنظر إلى ساعة يدى تأتى إلىّ أصوات كثيرة ومعها صراخ نساء. وهذه الأصوات تأتى من الصالة التى تجلس فيها الأرملة.

"مراسم الجنازة قد بدأت" تهمس رئيفة بلهجة العالمة ببواطن الأشياء. "سيقومون بدفن محمود بك الآن" لم أقابل هذا الرجل إلا مرتين: يوم زواجي ويومًا آخر فى العجمى، حيث كان البحر مثل البحيرة. وكنت أمنّى نفسى بفكرة الاستمتاع بالاستحمام. ولكن حضر محمود بيه على غير موعد. وطلب منى إسماعيل وعز الدين أن أرتدى ملابسى. كنت غاضبة جدا. فالمقهى الذى جلس فيه أنكل محمود كان بعيداً جدا عن البحر ولم يكن باستطاعته أن يرانى وأنا مرتدية لباس البحر. وظلت رئيفة مع أولادها، بينما ذهبنا لنلتقى بالعم. وقد أصرّ هذا الأخير أن يقدم لنا الجعة للرجال، وسألنى لماذا لا أستحم فى البحر، ولن أنسى مطلقًا هذه اللمعة من المكر فى عينيه، وهو يقول لى: "لو كنت فى سنك لأخذت حماماً فى البحر" وهو درس لأولاد أخيه الذين نظروا إلىّ بابتسامة آسفة. ولم يكن غريباً أن يستحوذ على قلب أبى.

إن أولاد عم ثريا ظرفاء جدا. وصديقتها الحميمة تبذل قصارى جهدها لتمدنا بالراحة الكاملة فى فيلتها، وتناولنا عشاء جيداً، ونمنا على أسرّة مريحة. وفى الصباح التالى ألتقى بالنساء فى غرفة الطعام، والمنضدة ممتلئة عن آخرها بالأطباق مثل الفول والبيض المسلوق وأرغفة العيش والمربات بجميع أنواعها والجبن الأبيض.

"كلى جيدا" كما تنصحنى سلفتى. "لن يكون هناك غداء، وسوف تنتظرين المساء" وإذا كنت قد فهمت الأشياء جيداً فكل هذه النساء سوف تصوم لمدة ثلاثة أيام. ما هذه المهزلة! مع أن غالبيتهن فى عمر متقدم وبدينات جدا. وأنا متأكدة أنهن يأكلن فى الخفاء!

"إن غالبية هذه النساء يعتقدن أن من واجبهن المشاركة فى العزاء لمدة ثلاثة أيام" كما تقول ثريا. "ويأتين من بعيد جدا، ومعهن خادمة أو أكثر ويجعبتهن بعض المؤن التى يأكلونها فى الخفاء.. وبالنسبة لهن فالعزاء فيه نوع من التسلية".

"أين نامت والدتك؟ وماذا فعلت لكى تأكل؟ فيجب أن نأخذ بعض الأدوية بعد الوجبات" وتتنهد ثريا: "حاولت بكل طاقتى أن أقنعها أن تنام معنا؛ غضبت منى وطلبت منى أن أهتم بك، وقد نامت مع الأخريات على الأرض بدون أن تأكل شيئًا، وقالت لى: "يا للعار يا للعار!".

"وأخواتك؟ أين هم؟ هل يهتم بهم أحد؟".

"هم بصحبة الرجال فى البيت المجاور. لا تقلقى! هل نمتِ جيدا؟" ونعود إلى البيت الكبير من جديد، ويبدو كأن كل نساء القرية والأحياء المجاورة قد أتين! وتتبعنا نظراتهن المترقبة بينما نقترب من الأرملة لنقبّلها، وهذا الصباح تبدو عيونها أقل حمرة ولا تبكى، وبجانبها على فوتيل تجلس القرفصاء معلمة كبيرة ذات خدود مطلية بالزرقة. وبينما نتوجه نحو الغرفة المخصصة لنا نسمع صوتًا حادًا ومحشرجًا، وأنا ألتفت متعجبة وأرى المعددة تغنى!

"ماذا تغنى؟ اشرحى لى يا ثريا؟" وتضع سلفتى منديلها على فمها لتكتم ضحكتها: "هى لا تغنى يا بولى هى تقول أشعار رثاء للمتوفى، وقد أتت بها العائلة لهذا الغرض. وهى مدفوعة الأجر من أجل هذا..".

وبعض النساء قد جلسن بالفعل، وأجلس أنا ورئيفة ونحن نشد فى جونيلتينا لتغطية ركبنا.

"أنتِ زوجة إسماعيل أليس كذلك؟" تسألنى المرأة الجالسة بجانبى.

"نعم".

"هل أنتِ حامل؟" على الأقل فهذه تسأل بطريقة مباشرة.

"لا؟ ألا ترغبين فى الخلفة؟ أو أن هذا هو إرادة الله".

"هى إرادة الله

"لديكِ متسع من الوقت" تقول امرأة لتهدئتى.. بينما تنظر إلىّ الأخريات نظرة تقييم، وتقتربن للاستماع لهذه المناقشة المثيرة. وأنا أجلس الآن فى المحكمة أمام هذه النساء اللاتى تعملن كقضاة، وتظهر الخادمة ومعها صينية القهوة وتتبعها نساء كثيرات، وتقوم بعض النساء الجالسات لاستقبال نساء جئن حديثًا بحفاوة، ثم يجلسن ويبدأن فى الهمس وهن ينظرن إلىّ نظرات خاطفة. أظن أنهن اتفقن على رؤية زوجة إسماعيل وسيسألننى لمدة ثلاثة أيام عن السبب الذى يجعلنى غير حامل، ويتبع هذا بعض النصائح العبثية، وأسمع بعض التعليقات من بعيد: "هى عاقر! المسكين إسماعيل! هذا من جرّاء اختيار عروس من خارج إطار العائلة. وهى تعرف بالكاد اللغة العربية! لن تستمر هذه الزيجة طويلاً! صدقونى!" وتترقبنى رئيفة بسخرية وهى تحتسى قهوة العزاء. أنهض وأقول لسلفتى: إننى سأجلس لبعض الوقت بجانب الأرملة.

وتشير المرأة المسكينة بمكان بجانبها، وأسألها إذا كانت استطاعت أن تنام لبعض الوقت. وتلوى ذراعيها وتحرك رأسها ولكن بدون بكاء. أحاول أن أهدأها، وأبحث عن شىء لطيف أقوله لها عندما تأتى بعض الزائرات الجدد؛ أستطيع أن أتركها، وأعود إلى الغرفة الأخرى.

"كيف حالها؟" تسألنى رئيفة وأهز كتفى كإجابة، وفى هذه اللحظة يتوقف الفقيه الذى يقرأ القرآن عن الترتيل، ويرتفع صوت التى تتلو الأوردة، وتفاجئنى، فبصحبة هذه المرأة طبلة. شىء لا يصدق أنحنى نحو ثريا وأسألها: "لا أعرف شيئًا يا بولى لم أسمع إطلاقًا طبلة أثناء العزاء" ولكن عندما أهمس فى أذنيها:

"ربما يكون هناك راقصات مثل فترة الفراعنة!" وتحاول ثريا مرة أخرى أن تمنع نفسها من الضحك، وأحاول أن أذهب لرؤية الأشياء، ولكن تحاول سلفتى أن تمنعنى، ورغم هذا أنهض وأقترب من الباب وأرى مشهداً لا يمكن أن أنساه. كل النساء الجالسات يهززن رؤوسهن، واقترب أربع من بينهن إلى المطربة التى تطبل، وتضرب

النســاء الأربع بأرجلهن على ريتم الطبلة ويلطمن على خـدودهـن، ويحـركن نصـفـهن العلوى ورؤوسـهن، ووجوهـهن مليئة بالألم والحزن والغناء والطبل. لهن "ريتم" جـميل لدرجـة أننى أشـعـر برغـبـة فى أن أفـعل مـثل هذه النسـاء، وهن فى حـالة من النشـوة! وتتحرك أجسادهن بسرعة رهيبـة على ريتم الموسيقى. وعندما يتوقف الغناء والطبل يغمى على امرأتين من بينهن، ويظهر إسماعيل قبل العشاء ليطمئن على مصيرى، ووفقًا للتقاليد فهو لم يحلق ذقنه منذ مجيئه. وشكل إسماعيل مختلف جدا بهذه الذقن غير المهذبة وهذه الجفون المنتفخة والعيون المحمرة. ويرفض أن يأكل أى شىء ويقبلنى ثم يذهب، وفى المساء أحدثهن عن هذا المشهد الرائع الذى رأيته؛ ويضحكن فى البداية عندما أنطق كلمة رقص، وعندما أصر أن يستمعن إلىّ أطلب منهن الذهاب إلى الأقصر لرؤية الرسومات على المعابد. وهناك مشاهد لنساء يتبعن تابوتًا، وهن يمسكن بوجوههن المطلية باللون الأزرق.

"هذه رقصة جنائزية" أقول وأنا أنهى درسى، وفى هذه المرة استمعن إلىّ بدون ضحك، وتقول لى ثريا: إنها رأت هذا المشهد لأول مرة.

"وأنا أيضا" تقول ابنة العم: كنت استمعت إلى هذا الغزف، ولكن بالنسبة لوالدى الفقى والمطربة اشتركوا فى هذه الأيام الثلاثة للجنازة..".

-٤-

هناك مفاجأتان سارتان فى انتظارنا عند عودتنا إلى الإسكندرية؛ فمصطفى صفوان وزوجته قد عادا وهما يسكنان الآن عند والدة نعمة، وهذا الخبر السار يبعدنا عن الأيام الحزينة التى قضيناها، والضحكة السعيدة لمصطفى تُدخل على قلوبنا الفرحة وهو على الهاتف. وكنا علمنا عن طريق خطاب من مصطفى بزواجه من نعمة، وميلاد ابنته ماجدة وعودته إلى مصر بعد حصوله على الدكتوراه: "لا لم أترك علم النفس ولكن أريد أن أعمل فى الجامعة لأوفّى دينى لمصر، أليس هذا واجبى؟ فإن الجامعة قد أعطتنى منحة مكنتنى من استكمال دراستى، ومن أضعف الإيمان أن أدرس الفلسفة بعض الوقت، وسأدرس مع صديقى القديم إمكانيات المستقبل بالنسبة لعلم النفس" ونشعر بالإعجاب لنزاهة مصطفى كان يمكنه ألاّ يذهب إلى الكلية، ويبدأ على الفور فى علاج المرضى.

والمفاجأة الأخرى مفاجأة فى غاية الأهمية فهى عن سفرى إلى أوروبا! فقد عيّن العميد إسماعيل لرئاسة مجموعة من الأساتذة والطلبة فى رحلة إلى إيطاليا وجنوب ألمانيا وجامعة ميونخ التى دعتنا وستتحمل نفقتنا فى جنوة، والمبلغ المطلوب للرحلة على المركب ليس كبيراً ولكن لا نمتلكه. وأطلب المساعدة من بابا ويرسل إلىّ شيكًا، ونبتهج جدا وسنغادر المجموعة فى نهاية الرحلة لإجازة لمدة عشرة أيام فى باريس، مع هذا فالحصول على تأشيرات الخروج سوف تسبب لنا قلقًا كبيراً؛ فأنا أحصل على التأشيرة، ولكن ترفض بالنسبة لإسماعيل فاسمه موجود على القائمة السوداء! ولكن

تدخّل عز الدين وبعض الأصدقاء فى مواقع مسؤولية يساعده على الحصول على التأشيرات، وهذا هو سفرنا الأول معًا.

شهر أغسطس من عام ١٩٥٤. المجموعة مكونة من أستاذين، منهما إسماعيل وسبعة وثلاثين طالبًا. نسافر فى أربعة أيام على باخرة يونانية حتى جنوة، حيث ينتظرنا أوتوبيس مريح بسائق ومرشد. ونقف فى روما وفلورنسا وفينسيا وسالزبورج وفيينا وميونخ، وكل هذه المدن تقدم لنا ثرواتها وتراث متاحفها والمناظر الطبيعية المتنوعة والجميلة. ويعترض طريقنا بعض العراقيل والمغامرات السيئة، ولكن روح الدعابة لدى الطلبة تحوّل المواقف المزعجة إلى مقالب مضحكة، وهذه الرحلة لن تنسى بالنسبة لنا، وسنرى أصدقاءنا الأجيون الذين يسكنون مدينة روما منذ وقت قليل.

أتذكر خصوصًا بعض جلسات العشاء فى بيتزا دى بوبولو بصحبة رفاق يساريين ومن الحزب الشيوعى الإيطالى، منهم جون كارلو بايجتا. والكل شغوف بمعرفة أخبار ما يحدث فى مصر الآن، وجون كارلو وإسماعيل يتحدثان طويلا معًا.

وكما اتّفق لقد تركنا الطلبة الذين عادوا إلى مصر، وذهبنا إلى تاتى فى باريس. كل هذه الفرحة! خالتى التى تدللنا بكل ما تستطيع، ومقابلتنا مع أصدقائنا الأعزاء جدا ومنهم الشاب سمير أمين الذى حصل على الدكتوراه حديثًا فى الاقتصاد السياسى وزوجته إيزابيل، وأخيراً لقائى بتريستان تزارا.

"لم لا تعطين قصائدك لتزارا ليقرأها؟ فإن وجهة نظره وانتقاداته ستكون مفيدة بالنسبة لكِ، وخصوصًا أنك قابلتِه كثيرًا في مقهى فلور في زمن مضى. استغلي هذه الأيام التي ستقضينها في باريس ليقرأها" كما قال لي ريمون في روما، ولم لا؟ ولكني لم أنسَ أنني صُدمت عندما رفض تزارا قراءة روايتي، ولكنه لم يكن يعرف حينئذ أنني أكتب شعرًا، وربما سيقبل هذه المرة.

"طبعا" أجاب تزارا خلال مقابلتنا الأولى في فلور "سأقرؤها بكل سرور، لم تقولي لي قط أنك تكتبين الشعر"، ولم يقرأ فقط تزارا الشعر، ولكنه استقبلني في منزله أيضا وهو الذي فتح لي الباب.

"بونجـــور بولي، ادخلي... لطيف منك أن تأتي إلى هنا"، ويلاحظ نظراتي على أقنعته: "آاه كم هي جميلة هذه الأقنعة!" وهو يدعمني أثناء ما أعجب بمجموعته، وهو سعيد وفخور. ويتحدث تزارا عن الأماكن التي جاء منها بهذه الأقنعة منها: "الأوسياني، النيجر، مالي، السنغال..." ثم يطلب مني أن أجلس على مقعد بجانب مكتبه، ويجلس إلى مكتبه. كل الحوائط ممتلئة بالكتب وأوراق كثيرة وكتب تتناثر على مكتبه. ويضع يده على كتاباتي، ويقول بابتسامة كبيرة: "لا أستطيع أن أسمح لنفسي بأن أنقد. أنتِ شاعرة يا بولي شاعرة جيدة" وأبتسم بخجل، ولا أصدق أذني ويتابع "أحبه كثيرا"، ويقرأ بعض الأشعار من أفضل قصائدي ثم يتوقف وينظر إليّ "وقد شعرت بفرحة كبيرة وأنا أقرأ القصائد القصيرة فشكلهم ووحيهم شرقي. عندما تقرأ

هذه الأشعار القصيرة بدون معرفة مسبقة بأنك مصرية؛ يخمن المرء أن كاتبهم شرقى ليس فقط عندما تتحدثين عن النيل أو النخيل، ولكن أتحدث عن ريتم الأشعار وعن صورك" ويشجعنى أن أنشرها، ويؤكد لى أن أغلب الشعراء ينشرون كتاباتهم عن طريق الاكتتاب.

إن الشعر لا يباع! ولكن من المهم جدا أن يُضم إلى مجموعة؛ اذهبى إلى بيير سيجرس سوف ينشرهم فى المجموعة الصغيرة شعراً".

أنا سعيدة لدرجة أن لدىّ رغبة فى الرقص وأنا ذاهبة إلى الفلور، وأسير مسرعة بفخر بدون أن أهتم بالأمطار التى تنهمر، وكان يستطيع تزارا أن يلتقى بى فى الفلور، وأن يعيد لى قصائدى ببعض الكلمات اللطيفة، ولكن أن يستقبلنى فى بيته وأن يعطينى بعض النصائح يؤكد لى أنه قرأ شعرى وهذه الطريقة معى هى دليل تقدير.

سمير وبعض الأصدقاء جالسون مع إسماعيل: "تعالى اجلسى.. احكى: ماذا قال لكِ تزارا؟" وسوف أقول لإسماعيل فيما بعد: كان لزامًا أن يستقبلنى تزارا فى بيته حتى يقرر أصدقاؤنا أننى شاعرة! وكان عدد منهم قرأ قصائدى فى الليتر وهذا فى الحقيقة نوع من التعالى. كأنهم لا يستطيعون تقدير الأمور بمفردهم" ونتحدث معًا عن النشر. أين سنجد المبلغ الضرورى؟ وكم سيطلب سيجرس لنشر أشعارى فى حالة قبوله هذا؟

أختار بعض القصائد التى أفضلها، ومنذ اليوم التالى أذهب إلى دور النشر وأنا آملة أن يستقبلنى سيجرس بنفسه، ولكن سكرتيرته تجيب: إنه على سفر، وتقترح علىّ أن أترك مخطوطاتى وعنوانى. وأعود وأنا محبطة عند تاتى حيث تحضر ماما حقائبها. فهى عائدة غداً إلى القاهرة. وعلى مائدة الطعام عندما أتحدث عن مشاكل النشر تقول لى ماما إنها ستدفع الاكتتاب. أنا سعيدة لدرجة أننى عندما أقوم لأقبلها، أسكب

فنجان القهوة على جونلتى. وتاتى تهدئ من نفسى وهى تضحك، وتحاول إيميلى أن تزيل البقعة.

وكونتيسة إسماعيل المشهور قد استقبلتنا فى بيتها، وقد قبلتنا وهى متأثرة جدا وخادمتها مارى التى تعشق زوجى كانت تنسال الدموع من عينيها وهى تسلم علينا. وقد احتسينا الشاى فى صالونها الكبير ونحن نتذكر ثلاثتنا حفلات الشاى التى أحيتها بمناسبة أعياد ميلاد إسماعيل، ثم تحكى لنا الكونتيسا عن انطباعات الماركى تالويه قريبها عن رحلته إلى مصر، وكان هذا الشاب الوسيم الذى أعطته الكونتيسا رقم هاتفنا قد اتصل بنا. وقد تنزهنا معه فى الإسكندرية؛ بما أنه كان سيزور القاهرة كنا دعيناه إلى زواج صديقتنا زاهية، وقد جاء معنا هذا الضابط ببذلته العسكرية الرسمية، وقد قابلنا فى هذا الفرح أعضاء شلتى القديمة ومن بينهم الأميرة الرائعة فايزة أخت الملك فاروق السابق، والتى أشاد بها جميع رجال السهرة. وقد دعاها الماركى للرقص ولم تبرح عيوننا أنا وإسماعيل هذا الثنائى الرائع المكون من أخت ملك مصر السابق والشاب الوسيم الماركى دى تالويه.

-٦-

أواخر سبتمبر سنغادر باريس بعد يومين. بينما تنظف إيميلي مائدة الطعام يتصفح إسماعيل جريدة لوموند، وفجأة يقطّب حاجبيه وهو مستاء.

"ماذا هناك يا إسماعيل؟" أنا أشعر بضيق ما، وتاتى وجون يقطعان مناقشتهما.

"أنا نقلت إلى القاهرة! وقد طردوا أربعين أستاذًا من جامعات القاهرة والإسكندرية".

"إلى القاهرة؟ ستدرس فى القاهرة؟". لا أستطيع أن أمنع نفسى من الانفجار فى البكاء، ولكنى أخجل من نفسى، وأقوم لأبحث عن منديل، وأجفف دموعى، وأعتذر وأنا مبتسمة.

"هيا يا بولى هذه ليست مأساة، وهو شىء أفضل من الطرد" يقول إسماعيل بصوت جاد: "فأنا أنعم ببعض الرحمة". أشعر بهدوء ما، وأقول لخالتى التى تنظر إلىّ بابتسامة حانية: "كنت أحب جدا حياتى فى الإسكندرية، كنا سعداء جدا... وشقتنا؟ سيكون علينا البحث عن شقة أخرى فى القاهرة". ويختنق حلقى، وأشعر أننى سأبدأ من جديد فى البكاء، ولكن تاتى تأخذ يدى وتقول:

"هيا يا بولى احتفظى بدموعك لأوقات أكثر خطورة فأنتما سعداء معًا يا أولادى، وأنتما فى صحة جيدة وهذا هو المهم".

عاقلة يا تاتى كم أنتِ عاقلة!

ويرن جرس الهاتف وأذهب للرد. وهو ريمون الذى جاء إلى باريس مساء أمس لرؤيتنا قبل سفرنا.

"سلام يا بولى! كيف حالكما؟!".

"ليس على ما يرام هل قرأت الليموند؟" ما هذا السؤال بالطبع قد قرأته ريمون، ويريد أن يرانا فى أقرب وقت ممكن، وسيمر علينا بالسيارة بعد نصف ساعة.

بينما نجهز أنفسنا أقول: "الأمور ليست على ما يرام يا إسماعيل"

"هى بالفعل سخيفة!" ويتنهد،

"كيف تشرح تعيينك فى القاهرة بدلاً من طردك؟"

"أسرعى فريمون لا يستطيع أن يركن أمام الباب، وسنتحدث عن كل هذا معه".

"ما قولكما فى الذهاب إلى البوا دى بولونى؟" بدون أن ينتظر ردنا يأخذ ريمون اتجاه الشارع الجميل، وشمس الخريف الجميلة تضع لمسة حمراء على أوراق أشجار الكستناء، وتجلس فتيات على الأرائك وهن توجهن وجوههن وأكتافهن إلى أشعة الشمس على أمل الاحتفاظ باللون البرونزى، وهناك بعض كبار السن الذين يأخذون كلابهم إلى نزهة، والعشاق الذين يحتضنون بعضهم. وأشعر أننى رأيت كل هذا من قبل فقد تنزهت كثيراً فى هذا المكان! وأنحنى نحو الصديقين الجالسين أمامى وأنا أشعر بغصة فى قلبى، ولا أريد أن أفقد كلمة من نقاش إسماعيل "نجحنا فى الحصول على إمضاءات كثيرة، وخطابنا ضد التنديد، ضد تدخل العسكر فى شئون الجامعة كان قد حصل على موافقة كبيرة، ولكن بعض الأساتذة لم يمضوا عليها".

"ما رأيكما لو تمشينا بعض الوقت" يقترح ريمون ثم يتوقف "وموقف الحزب؟" ونتجه إلى ممر فى وسط الأشجار، وتملأ أنوفنا رائحة زكية للأرض الندية وأوراق الشجر المتساقطة.

"نحن ندافع بكل قوانا عن الشعار الذى يقول "الجيش فى الثكنات". ونعتبر أن الضباط الأحرار قد قاموا بواجبهم على أكمل وجه فقد خلصونا من الملك، ووضعوا نظام الإصلاح الزراعى، ونطالب بالعودة إلى الديمقراطية. وريمون يوافق بإيماءة من رأسه، ويشعل سيجارة جولواز. والصديقان يتبادلان الآراء، ويتناقشان بمتعة اكتشاف أنهما على وفاق، وعندما نصعد إلى السيارة يعلن إسماعيل:

"أنتظر بعض التشدد من السلطة يبدو أن عبد الناصر ورفاقه قد أخذوا فى أيديهم زمام الأمور" ونتجه نحو الأتوال، وهذا المبنى يكبر ويأخذ فى التضخم ثم ينفصل فى سماء رمادية وردية، ولكنى أستمر فى الاستماع بعناية.

"التشدد؟" يتساءل ريمون "تجاه من؟ اليسار الشيوعيون؟"

"نعم فلنكن واقعيين؛ فالضباط لا يحبون أن تعاندهم، وهذه الإجراءات التى اتخذوها بتدخلهم فى شئون الجامعة وبالسماح لأنفسهم بطرد أساتذة أجلاّء تعنى كثيراً. وهى تنبئ بالأسوأ. والشيوعيون سيصبحون فى نظرهم العدو الذى يجب القضاء عليه".

"إذن يا إسماعيل لا تعد إلى مصر. أتحدث بجدية. فكر جيداً فلن تذهب لترمى بنفسك فى عرين الأسد!".

عرين الأسد؟ ماذا يعنى ريمون؟ لا أريد البقاء فى فرنسا. أعود إلى شقتى المريحة، حيث كل قطعة أثاث اخترناها بمتعة كبيرة. هذه الشقة التى قال عنها صديق: إنها شقة السعادة. وكورنيش الإسكندرية الكبير الذى فتح لنا ذراعيه وقدم لنا حرية قيمة جداً. وقد استمتعنا بكل لحظة قرّبتنا من بعضنا وعلمتنا أن نعيش معاً. وقد

وعدنى إسماعيل أننا سنحتفظ بالشقة. وسيتقاسم عز وديدى وحمدى الإيجار معنا من أجل المجيء كل واحد بدوره فى إجازة إلى الإسكندرية، ولكن يجب أن نكسب القضية التى رفعناها ضد الملاّك، كانوا قد وعدونا بدفع مصاريف الخسائر التى سببتها الأشغال التى قاموا بها فوق شقتنا، وكانت الأمطار الغزيرة فى شهر فبراير قد تسربت من خلال أسقف الصالون ومدخل البيت وشوهت تمامًا طلاء المنزل، ولكن تنصّل الملاك من وعدهم، ورفع عليهم إسماعيل قضية، وقد أكد له المحامى وزملاء إسماعيل أن القضية سنكسبها. ولماذا التفكير فى هذه المشكلة الصغيرة بينما نمر بمشكلة أصعب. فإسماعيل سيدرس فى القاهرة وهؤلاء الأربعون أستاذًا سيجدون أنفسهم بين ليلة وضحاها فى الشارع بدون عمل وبدون أى دخل. وأنا أشكو من قدرى، ولا أفكر لحظة فى هؤلاء الرجال ذوى الشجاعة والنزاهة الذين نددوا بتدخل العسكر فى الجامعة. وأعرف أن أغلبهم يأتون من ظروف معيشية متواضعة، وأن كثيراً منهم متزوج ويعولون عائلتهم، مثل فؤاد! كيف جرؤت على البكاء بينما إسماعيل يحتفظ بعمله. ما هذه الأنانية من جانبى، وهؤلاء الأساتذة ليس لديهم ربما زوجات. ولهم أهل ميسورون مثلى.

يؤجل إسماعيل سفرنا. بداية شهر أكتوبر باردة وممطرة. وتاتى السعيدة جدا لأننا سنمكث عندها بضعة أيام أكثر تخترع مع إيميلى وجبات طعام شهية جدا، وهى لا تشعر بضياعنا بسبب الروح المرحة لإسماعيل وهيئتى السعيدة بالرغم من أننا نقاوم داخل شبكة ذات خيوط ضيقة. ولكى نخرج من هذا المأزق على إسماعيل أن يختار، وهو اختيار خطير سوف يقرر مصيرنا.

"لا تسافر يا إسماعيل فمن الجنون أن تعود إلى مصر الآن" يردد أصدقاؤنا الواحد تلو الآخر.

"هنا يمكنك أن تجد بسهولة عملاً فإن علاقاتك كبيرة هنا.. وفى حال إن قبضوا عليك؟".

إن أصدقاءنا من الحزب الشيوعى المصرى أكثر حذراً، وإسماعيل عضو فى الحزب الشيوعى المصرى، واشتراكه فى النضال مهم جدا. ويمضى أكثر من ساعتين مع عضو فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الفرنسى، ولن أسأله أى سؤال عن هذا اللقاء، ولن أسأله أسئلة كثيرة خلال هذه الأيام المصيرية، وأصر على أن أظل حريصة على هذا السلوك الذى اتبعته فى مواجهة النضال الذى يقوم به رفيق دربى.

"وأنتِ يا بولى" يقول أصدقائى: "ألا ترغبين فى العيش فى باريس؟ أنت ذات الثقافة الفرنسية التى تكتبين بالفرنسية. وإذا أردتِ أن تنجحى بوصفك شاعرة أو كاتبة فسيكون هذا أسهل لأن النجاح هنا، وتعرفين إلزا وأراجون وتسارا وسوف يساعدونك، ويجب أن تتحدثى فى هذا الموضوع مع زوجك، فهو يحبك ويمكن أن تؤثرى عليه" وأنا أستمع لهم مبتسمة. أؤثر عليه فهذا ليس رباط العنق يجب أن يختاره وإسماعيل لديه ثقة فىّ، وأى تدخل من جانبى سيؤثر على هذه الثقة، وأعرف على أى حال أنه لن يستمع إلىّ.

لن أغامر إطلاقًا بأن أدخل فى مجال يخص إسماعيل، وكأنى سأنتصل من نفسى لو حاولت هذا... أليس هو الذى قال هنا عام ١٩٤٨ لأصدقاء مصريين:

"لا تمارس الثورات عن بعد" لا يمكننا أن نسمح لأنفسنا أن نرسل الأوامر إلى مصر من باريس. فكيف لنا أن نحكم على معطيات موقف لا نعرف كل عوامله، فليس لدينا هذا الحق أكثر ما يمكن فعله هو أن نرسل لهم برأينا" هل إسماعيل سينفى نفسه بإرادته، وهو الذى لن يحيد عن رأيه فى هذا الموضوع أبداً؟... بالطبع لا.

نتناول العشاء هذا المساء عند آل كورتات بالطبع مع ريمون. أحب هؤلاء الأزواج وبيير الذى يعمل محرراً للسياسة الخارجية فى جريدة الأومانيتيه، يشتغل كثيراً، وهو قصير القامة نوعًا ما، وله شعر أسود وعيون تلمع ذكاء، وزوجته جنيا، وهى من أصل روسى وهى لطيفة جدا ودائمة الابتسام. ونتناول وجبة رائعة ونشرب زجاجة بوردونى

قديمة جدا اختارها بيير لهذه المناسبة والجو مرح ودافئ. ويضحكنا بيير بنكاته الكثيرة، ونشرب نخب مصر ونخب الديمقراطية، ويشرح إسماعيل الأسباب التى تحسم رجوعه إلى مصر، ويفهم بيير وريمون، وشاركاه الرأى.

عندما يحين وقت الرحيل يقبل بعضنا بعضاً ونبتسم متأثرين:

"الوداع! إلى اللقاء! حظ سعيد!".

على عتبة الباب يضع بيير يده على كتف إسماعيل "هيا حافظ على نفسك" ويضيف بابتسامة ساخرة "السجن ليس شيئًا خطيراً. كل القادة الشيوعيين دخلوا السجن، ولكن حاول أن تنقذ رأسك! لأن عمليا لا يمكن أن نضع من جديد الرأس فى مكانها!"

(١٤)

شارع الجزيرة الوسطى

-١-

فى اللحظة التى يدخل فيها التاكسى فى شارع جراتيان؛ نرى بسعادة فائقة الأجراس الحمراء على خضرة أوراق الشجر التى تغطى الجراج بأكمله "فالتوكوما جرنيد فولو مازالت مليئة بالورد!" ويظهر مختار مبتسمًا وتتبعه بوسى. أحاول أن أمسك بالقطة بين ذراعى، ولكن هيهات فهى منزعجة منى! كم هى جميلة حديقتنا، وكم الصالة رحبة! وينقبض قلبى عندما يمر فى ذهنى أننا سنترك هذا المكان. ولكن إسماعيل قد فتح خطابًا: "قبض على حمدى". وينظر إلى بعضنا البعض، ولا أحد منّا ينطق عن الفكرة التى تدور فى ذهنه: "من حسن الحظ أنهم لم يقبضوا على إنجى".

وستتحدث معنا أختك الليلة، "هيا سريعًا لننظم أمتعتنا". وننظم أمتعتنا ونحن صامتان، ويساعدنا مختار. ونستمع ونحن غير منتبهين إلى مختار، وهو يحكى لنا الأحداث الصغيرة التى مرت به، وإسماعيل يلقبه "الرجل الذى لا يمكن أن يوصف" وقطتنا مشغولة بشم كل الأشياء التى نخرجها من الحقائب.

ونحن على وشك الانتهاء من تنظيم الأشياء، يرن جرس الهاتف. وننقضّ على الهاتف.

"حمداً لله على السلامة يا أولاد! الحمد لله نحن على ما يرام! هل استمتعتم؟ يبدو أن إسماعيل قد نقل إلى القاهرة أنا سعيدة! متى ستأتيان؟ خذوا إنجى فهى تريد أن تتحدث إليكما". وأحاول أن أضفى مسحة من المرح على كلماتى رغم أنى أشعر بالاختناق. وتضحك أختى ضحكة صغيرة.

"أنا على ما يرام، وأشتاق إليكما بشدة! متى؟ الخميس؟ رائع! ننتظركما".

لم يتحدث أحدنا عن حمدى، فالخط يمكن أن يكون مراقبًا. ونجلس إلى المائدة، وهى وجبتنا الأولى منذ أربعة أيام!

عندما أبحر الملك فاروق اضطررت لأن أختبأ فى الكابينة، وهى كابينة فى الدرجة الثالثة كنت أتقاسمها مع موظف من شركة قناة السويس! وكنت قد أصبت بالأنفلونزا بالإضافة إلى دوران البحر!

"ماذا يا حبيبتى ألست جائعة؟ كُلى بعض الشىء يجب أن تعوضى الأيام الماضية؛ خصوصاً وأنتِ كالبحارة!"

أرفع كتفىّ وأنا مغتاظة. فلم يكف قط زوجى عن مداعبتى بشأن هذا الموضوع.

"بعد ظهر هذا اليوم، سنستمتع براحة نستحقها! وغداً سأذهب عند المحامى بعد أن أقابل العميد. وعلى الأرجح أن يكون الحكم قد صدر. وإذا انتهيت من كل هذا قبل الغداء؛ سأمر على فؤاد يجب أن أعرف منه ما هو الموقف. ويوم الخميس صباحًا سنسافر إلى القاهرة، جهزى ملابسنا سنقضى على الأرجح بضعة أيام؛ لرؤية إنجى والعائلة ولأقدم نفسى للكلية".

ولكن إسماعيل يعود إلى المنزل وهو فى غاية الضيق. "لقد خسرنا قضيتنا! لا أفهم، فقد أشار على زملائى فى الكلية أن أذهب إلى هذا المحامى، وكنا على حق. إمّا أن يكون المحامى قد وصله رشوة من الملاّك أو أن يكون هذا هو حال القاضى،

ويجب أن نترك الشقة قبل أول يناير"، وتأتى إلىَّ الكلمات بدون أى رحمة ولا رجعة فيها.

وقد استقرت إنجى فى شارع شمبوليون بناءً على طلب ماما، وهى تعرّفنا أن حمدى ومائة من رفاقه موجودون فى حبس احتياطى فى سجن القناطر، وأن الزيارات ممنوعة فى الوقت الحالى. وقد أعطاها عسكرى كلمة كتبها حمدى على ورقة سيجارة وهو كان يطمئنها، ويطلب منها أن ترسل له خمسة جنيهات مصرية.

وأختى هادئة، وطريقة تعاملها أمام والدتها وأصدقائها لا تنبئ عن قلق شديد.

ونتناول الغداء عند بابا وليلى، ويهز بابا رأسه بحزن وهو يملأ البايب بالدخان: "تعرفون أننى لم يكن لدىّ أى تقدير للملك، وأننى ارتحت عندما خلع من العرش، وتصورت مثل كثيرين أن هؤلاء العسكريين سيرجعون ثكناتهم، ويتركون إدارة بلادنا للمدنيين، ولكنهم للأسف يحتفظون بالسلطة وهم جهلة، وتبجحهم وتدخلهم فى الجامعة غير مقبول، وقد طردوا الآن أساتذة شباباً، ومن حسن الحظ أن هؤلاء الحمقى لم يطردوك أو يقبضوا عليك مثل هذا المسكين حمدى".

-٢-

ونترك شارع جراتيان، وسنقيم عند ماما لحين أن نجد شقة. وستأتى شركة للنقل لأخذ أمتعتنا كلها إلى شبرا إلى الدور الأرضى الذى تستخدمه ماما مخزنًا للأثاث. وقد خرج إسماعيل فى الصباح الباكر يوم سفرنا وهو يريد أن يسلم على فؤاد وعلى زملائه، وعند عودته فى الظهيرة يستقبله بيت فارغ من الأثاث، ولا يبقى على الحوائط العارية إلاّ آثار المسامير، وهى الشهود الآسفة لكل هذه الأشياء تنساب على طرف أصابعها فى ذاكرتنا.

ونضع أنا ومختار بوسى التى تقاوم فى السلة، ولا تهدأ إلا عندما أضع بين أرجلها ابنها. وهى لا تكتشف أنها محبوسة لأنها مشغولة بلحس ابنها، وهى سعيدة. والقط الصغير أسود وله بعض الشعر الأبيض فى أسفل بطنه وقد لقبته بكوكو، لأن هذا القط الذى سيكوّن جيلاً جديداً، ويشبه إلى حد كبير فهداً أسود، سيعيش حقبات من الشهرة. وعندما يترك إسماعيل شارع جراتيان أقمع رغبتى فى إلقاء نظرة أخيرة على بيتنا، وقد وصلنا إلى شارع أبى قير الكبير، وتبدو أشجاره ونخيله الملوكى أمام أعيننا:

"هذه صفحة جديدة" أقول: "وقد انتهت فترة شارع جراتيان" ويتمتم إسماعيل وقد اطمأن أننى أسخر: "انتبهوا يا سيدات ويا سادة فالأشياء ستبدأ" كم هذا بعيد... والصورة تبدو صفراء، وتتطاير فى ذاكرتى. كنا نحن -الاثنين- ما زلنا فى بدايتنا وفى فبراير سنة ١٩٤٧ فى كباريه من ميدان بيجل كانت القاعة مليئة بالبشر، وقد وجدنا

بصعوبة مكانين على دكة، ويحتضننى إسماعيل، بينما يصيح الرجل السمين ذو اللكنة الجنوبية من مارسيى تعلن بصوت عالٍ أن العرض سيبدأ.

سنقضى أكثر من شهرين عند ماما مع إنجى، وكلنا يقدم تنازلات من أجل أن نعيش فى تناغم ما. وقد بلّغنا كل أصدقائنا أننا نبحث عن شقة والحظ يبتسم لنا. وبعض أصدقاء ابنة عمنا ماهى يقترحون عليها فى النادى أن يتنازلوا لنا عن شقتها، ونذهب لزيارتها وبدون أى تردد نستأجرها. وهى شقة مكونة من أربع غرف فى الدور الثانى، ومدخلها على شارع الجزيرة الوسطى فى الزمالك.

"وهكذا يا تاتى ها نحن أخيراً فى بيتنا!" كم هى كبيرة فرحتنا أنا وإسماعيل لاستعادة حريتنا ولوجودنا بمفردنا. "أنتِ تعرفين بالقدر الكافى أن هذين الشهرين كانا فى غاية الصعوبة، وكان هناك احتكاك يومى بين شخصياتنا المختلفة وطريق حياتنا وعاداتنا". وعلى الرغم من استقبال ماما المعطاء ومجهوداتها لكى نشعر أننا مرتاحان، فإن ضغطاً ما كان موجوداً بيننا والحمد الله أن هذا الموقف لم يستمر أكثر من شهرين، وأنا أشكر الله أننى اخترت مائدة مستديرة لغرفة الطعام! وهى موضوعة فى ركن من الأنتريه وعليها كأس جميل من الفضة التركية. وتوجد بلكونة كبيرة جدا تطل على شارع يملؤه شجر أحمر الزهر تلمس غصونه الحائط فى هذا الوقت من السنة؛ فهذا الشجر تكسوه الأوراق الخضراء ذات البراعم الصغيرة. والربيع يعلن عن نفسه وغرفة نومنا وغرفة أخرى وضعت فيها مائدة؛ لأكتب عليها مشرقات جدا، وتطل الشرفات على أرض فضاء كبيرة تنمو فيها بعض الأشجار الرفيعة وبعض الأغصان وحشائش شيطانية".

ولا أتحدث مع تاتى عن مشاكلنا المالية؛ فإن الذهاب إلى شقة جديدة قد أخلَّ بميزانيتنا، ويفرض علينا بعض التضحيات الصغيرة. وحياتنا فى القاهرة مختلفة جدا عن حايتنا فى الإسكندرية، وعائلتنا بالطبع تأخذ مكاناً كبيراً وإنجى لها الأولوية، ولكننا نتناول غداءنا كثيراً عند عز الدين وعند بابا، ويوم الأحد نذهب عند ماما، وكثيرا

ما يدعونا على بك مع ماما وأختى للعشاء فى الخارج أو للذهاب إلى السينما، ولا أنسى صديقتى توبسى التى أقبلها كثيراً.

وتتناول أختى غداءها كثيراً عندنا، وأتحدث معها عن الإجراءات التى اتخذتها فى المباحث العامة للحصول على بعض الحقوق، وهذه الحقوق سيحصل عليها عائلات المعتقلين ببطء شديد نقطة بنقطة. وهى عبارة عن المراسلات، وإرسال الطعام، ومبلغ شهرى لا يتجاوز خمسة جنيهات، والحق فى زيارة واحدة!

ويعمل إسماعيل كثيراً وهو يحضّر محاضراته ويذهب إلى الكلية، ويقضى وقتًا طويلاً فى اجتماعاته السرية، وفى أثناء هذا الوقت أهتم بالمنزل وأكتب وأقرأ، وبينما تمر الساعات اكتسحنى القلق والخوف كموجة سوداء غير آمنة أعرف تماما أنه لا يجب أن يتحدث معى على الهاتف؛ وخطنا يمكن أن يكون مراقبًا، ولكن صوراً عبثية تمر فى ذهنى: أرى العساكر وقد فاجأوا إسماعيل فى وسط اجتماع، وانقضوا على الورق والمنشورات وحتى على آلة الطبع، أو أن هناك حادث سيارة وإسماعيل مجروح وملقى فى الشارع وجسده ينزف دمًا، ولن أستطيع أبداً أن أسيطر على قلقى.

وبعد ظهر أحد الأيام تتحدث معنا إنجى، وتقول بصوت فرح: إنها حصلت أخيراً على تصريح لرؤية زوجها.

"قولى لها أن تأتى لتتناول الغداء معنا بعد الزيارة، وتنقل لحمدى تحيتنا" وإسماعيل يبدل ملابسه فهو خارج بدونى. وأنا سعيدة جدا من أجل أختى، وأنسى هذه الساعات من الوحدة ومن الانتظار.

وتأتى إنجى متأخرة، وتعتذر وهى مبتسمة جدا:

"لقد مررت بالأتيليه لطمأنة مامى ولتوصيل فاطمة خادمتنا إلى المنزل" نقبلها ونجلس على مائدة السفرة.

"احكى لنا يا إنجى، احكى كل شىء أولاً: كيف كان حمدى؟".

"فى لياقة عالية.. مممم.. الله هذا شهىٌ كنت جائعة، كنت خائفة جدا من التأخير هذا الصباح، فشربت بالكاد فنجان شاى، ولا تنسىّ أنه يجب أن أقضى أكثر من نصف ساعة على الطريق حتى سجن القناطر، ومن حسن الحظ أن فاطمة كانت معى، وهى على كل حال تعرف الآن الرجل الذى يأخذ منّا الطعام؛ لأنها هى التى تذهب كل أسبوع لإعطائه الأكل. كنا مجموعة من النساء كلنا فرحات ومتلهفات، وقد انتظرنا حتى العاشرة، وخرج عسكرى ممسكًا بكراسة كبيرة، وبدأ ينادى على الحضور بالترتيب الأبجدى. نادى على أربعة أسماء من المعتقلين فى المرة الواحدة، وكل معتقل له حق استقبال زيارة من ثلاثة أشخاص من عائلته، وقد أصبت بصدمة عندما تعرفت على حمدى خلف القضبان وهو سعيد جدا أن إسماعيل فى القاهرة، وأنكما قد استقريتما، ولم يكن لنا الحق إلا فى زيارة لمدة عشر دقائق".

أترك أختى وإسماعيل يحتسيان القهوة فى المكتبة، وأطلب منهما أن ينادياني عندما ينتهيان من مناقشتهما، ولكن لا تتأخر أختى، وعندما تنتهى جلستها "السياسية" مع زوجى تنصرف.

"أنا منهكة جدا، وسأصف لكِ مرة أخرى انتظارى هناك".

وستتحدث معى إنجى عن الزوجات وعن الأمهات وعن الآباء الذين التقت بهم وتحدثت معهم، وعن الأم العجوز لرفيق وهو مدرس يعرفه إسماعيل أيضا قد أثّر فيها جدا، وهى امرأة لديها كرامة وقوة، وتبلغ من العمر تقريبًا سبعين عامًا وهى أمية، ولكنها أكثر توازنًا وحكمة من زوجة ابنها المستفزة التى تفتقر إلى الأدب عندما تتحدث إلى العساكر. "وقد أثّرت هذه المرأة الأم الشجاعة فى أختى، وقد رسمت لوحة كبيرة مكوّنة من حوائط تظهر منها أشجار، وفى مقدمة اللوحة تبدو امرأة كبيرة مرتدية طرحة سوداء ترفع يديها، كأنها تريد أن تقتحم هذا الحائط من السجن بصرخة ألم كبيرة، وهى لوحة كبيرة لم ترغب قط فى التفريط فيها".

وهى تحدثنى أيضا عن أم رزق وهى أم أخرى، لها ولدان فى السجن، وتأتى دائما بصحبة ابنها الثالث وهو متأخر عقليا، وهى تسلّم هذا الطفل المسكين الذى يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا إلى جارتها قبل الذهاب إلى مصنع النسيج حيث تعمل؛ فإن معاشها باعتبارها أرملة يكفيها بالكاد. وأختى معجبة بهذه الأرملة الهادئة دائما والمبتسمة حتى عندما يزج بها العساكر أو يرفضون الطرود التى تأتى بها.

-٣-

فى فبراير ١٩٥٤ يتوفى جدى من ناحية والدتى فى نيس، ويوضع جثمانه فى مدافن العائلة بجانب أخيه الكبير محمد باشا ووالده.

وقد عادت تانتين إلى باريس بعد حضور الجنازة. وكالعادة كانت ماما تخفى حزنها، وتضع نظارات سوداء، وتمسح سريعًا خدودها. لماذا لم تقبل تانتين؟ وهى حركة كانت ستمحى كل شىء. وكانت تاتى التى لم توافق على ما فعلته أختها قد حكت لى كل شىء. وكان هذا قد حدث قبل الحرب بوقت بسيط، وقد طلبت ماما من والدها مبلغًا من المال وتشاجرت معه، وفى غاية الضيق هدد جدى ماما أن يعترف بابن تانتين، وقد ثارت أمى ثورة عارمة، ورفعت قضية ضد والدها، وقالت عنه إنه غير مسئول، وقد استمرت القضية لمدة عام، وقد ساندت تانتين ابنها، ورفضوا فكرة أن يعترف به وهذا شىء سامٍ من جانبها؛ لأنه لو أصبح هذا الطفل من آل أفلاطون كان سيرث أكثر من تاتى ومامى. وماذا حدث لماما لكى تسلك هذا المسلك الفظيع؟ لم أكن أتصور قط أن والدتى هذه المرأة الجليلة يمكن أن تصل إلى هذا الحد! كنت أشعر بالخجل من أجلها ولم أغفر لها هذا. وحاولت ألا أحكم عليها، ودفنت فى نفسى خيبة الأمل هذه، ولم أتحدث إطلاقًا لإنجى أو لأحد، وسيكتشف إسماعيل الأمر عن طريق الصدفة.

"تعرفين يا بولى أنا سعيد لأنى التقيت بجدك فهو رجل بحق وحقيق ظريف وحساس" وسأتذكر دائما هذه الأوقات التى عشتها بجانب جدى، وكنا جميعا منذ

سنتين فى كاب فيرا، وقد اقترح علينا بابا الذى كان يرغب فى زيارة أخيه أن نصطحبه هو وزوجته إلى نيس.

"أنكل أحمد يكون سعيداً برؤية جلبيرى من جديد والتعرف على خطيبها" كما يقول بابا: وكان جدى سعيداً جدا وتانتين أيضا! ولم نكن قد رأى بعضنا بعضًا منذ سنوات، وجدى كان أفلاطون بحق وحقيقى! لم يتغير كثيراً ولكن شعره كان أبيض تماما. وكان أقصر طولاً من أخيه الكبير، ولكن له نفس الشكل رغم كونه أكثر نحافة، وكان عندما يضحك تظهر تجاعيد على أنفه، مثل أخيه وابنته الكبيرة. ولأنه كان خريج كلية الحقوق فقد سأل جدى إسماعيل أسئلة حول موضوع رسالته، ومن خلال المناقشة عرفنا أنه وتانتين قد ارتبطا فى المترو لينك، وكنت سعيدة جدا باكتشاف جد ظريف لى لهذه الدرجة ومثقف أيضا.

وصلنى خطاب من بيير سيجرس، ويقول لى: إن قصائدى قد أعجبته، وإنها ستنشر فى العام المقبل! كم يبدو لى عام ١٩٥٥ بعيداً!

ولكن هذه قصة أخرى.

الجزء الثانى

رحـــلة الســـــجون

ترجمة: نجاة بلحاتم

(١)

الباب الأول

-١-

أحتسى الشاى مع إنجى وبنات خالتنا فى نادى الجزيرة وسط خضرته الجميلة. بعض الأصدقاء من الزمن البعيد يلقون التحية علينا، يسألون: أين إسماعيل؟ هل إنجى تلقت أخبارا عن زوجها؟[١].

عبارات مودة وأحيانا تعبير عن التعاطف بصوت منخفض. ثم يتنهدون ويعودون إلى أخبار إسماعيل "الذى ربما يكون فى غاية السعادة بالعمل فى القاهرة". الإسكندرية قاتلة فى الشتاء، تتحول إلى مجرد مدينة أقاليم!..لا يبدو أن أحدا يعلم حقيقة وجود إسماعيل فى القاهرة. وأن هناك أساتذة قد طردوا من الجامعة. ديدى[٢] هى التى أخبرتهم عن اعتقال زوجها ومئات غيره لا يعرفونهم بتهمة انتماءاتهم الشيوعية. هذا التوصيف يريحهم، ألم يخلصهم هؤلاء الضباط الأحرار من ملك لا يستحق الاحترام ومن حاشيته دون قطع الرقاب؟! ثم إن عيشتهم الرغدة لم تتأثر كثيرا بفعل إلغاء الألقاب والإصلاح الزراعى. ومطاردة الجيش لهؤلاء الشيوعيين يبدو لهم مؤشرا جيدا. إذ يمكنهم تحمل أى شىء إلا نظاما شيوعيا!

---

(١) تم اعتقال حمدى فى سبتمبر ١٩٥٣ .

(٢) كنت دائمًا أنادى أختى بديدى.

يقضى إسماعيل وقتا طويلا خارج البيت بين محاضراته فى الجامعة واجتماعاته السرية. ساعات وحدتى طويلة لكننى قررت استغلالها. شرعت فى كتابة مسرحية "وردة رايرامون". وردة شابة قتلها شقيقها طعنا بالخنجر انتقاما لشرف العائلة وهى بريئة. تراجيديا عادية تدور منذ قدم الزمن فى الصعيد حيث يغذى الشرف والثأر فخر الصعايدة. أصبحت وردة فى قرية رايرامون قديسة تحاك حولها الأساطير. يرفع الستار عن مجموعة من النساء يَلفهُنَّ السواد وهن يلطمن وجوههن ذات الوجنات الملونات بالأزرق. ترتل النداهات مقطعا يوحى بالأحداث المقبلة. اشتغلن أكثر من يومين على هذا المقطع لإجادته وتوصلت لإنهاء الجزء الأول. هل لى أن أستمر؟

ككل مرة تراودنى الشكوك.

"النص جيد!" قال لى مصطفى بعد قراءة أوراقى، ثم أضاف "عليك أن تستمرى! ومن هو إسماعيل؟".

ليس لإسماعيل الوقت الكافى لقراءة ما أكتبه. لقد استدعى قبل شهرين إلى رئاسة المجلس: "استقبلنى محمد فهمى السيد رئيس ديوان عبد الناصر وهو رجل بشوش وذكى، وقال لى إن رئيس الحكومة يريد تعيينى مستشاره الاقتصادى. كنت مندهشا ومحرجا. كان يريد ردا فوريا لاقتناعه بأننى لا يمكن إلا أن أكون فخورا وسعيدا بهذا التعيين وأن موافقتى مفروغ منها... حدثته عن تمسكى بعملى وأننى أود أن أخدم وطنى.. وأمام إلحاحه قلت له إننى أوافق بشرط العمل بصفة غير رسمية. أنت تفهمين أننى لا أستطيع تولى منصب بهذه الأهمية بينما طرد عدد كبير من زملائى من الجامعة. وأضفت أننى لا أريد راتبا... هذه هى القصة... أنا منزعج للغاية".

أفهم موقفه جيدا وأشعر بمزيج من الفخر والقلق. كيف سيواصل الرفيق إسماعيل نشاطه السرى؟ ومحاضراته فى الجامعة؟ هل يطالع عبد الناصر منشورات الحزب الشيوعى المصرى المثقلة بالانتقادات ضده وضد معاونيه؟ صحيح أن الحزب

رحب مثل كل المصريين بمعاهدة جلاء القوات البريطانية، لكن هذا لن يشفع له. مهمة إسماعيل فى غاية الصعوبة. رئيس الحكومة وافق على شروطه!

فى الشهور التالية كتبت كثيرا. كنت ألتقى فى أغلب الأوقات بأختى وبعض الأصدقاء. ضحكت ديدى عندما أخبرها إسماعيل عن وضعه الجديد قائلة: "إنها ربما نقطة إيجابية فى حق هذا العقيد. إنه على دراية بكفاءتك... وثقته فيك تعنى أنه يجهل تماما معتقداتك ولا يعرف شيئا عن نشاطك السياسى".

هذه الأيام أثناء سهرات العشاء عند أمى، يتحدث أصدقاؤها كثيرا عن لقاء رئيس الحكومة مع تيتو. عم يمكنهم الحديث معًا؟ ماذا سيكون رأى أحد أبطال الحرب العالمية الأولى فى هذا العقيد الذى لا يفقه شيئا؟

"الموضوع مهم جدا" قال إسماعيل: "لكم أن تعلموا أن عبد الناصر سيتوجه إلى باندونج. هل تتصورون هذا، سيلتقى نهرو، وسوكارنو، وشو آن لاى..؟". أنا لا أتبين أهمية مثل هذا الاجتماع. أتابع بأهمية مناقشات إنجى وإسماعيل عند لقاءاتنا. نطلع عبر الصحافة المصرية والأجنبية على مجريات الجلسات. وفود ٢٩ دولة إفريقية وآسيوية اجتمعت فى باندونج لتعلن باسم شعوبها الحرب ضد الكولونيالية وتضامنها فى نضالها من أجل الاستقلال الوطنى. استقبل خطاب عبد الناصر بحرارة... "رائع" قال إسماعيل. دعا الأمم المتحدة لمراجعة ميثاقها. إذ تنتهك إسرائيل منذ قيامها مبادئ الميثاق على حساب الشعب الفلسطينى... وأكد عبد الناصر أيضا أن بلاده تساند تقرير مصير كل الشعوب". أعلنت الصحافة أن عبد الناصر زار الهند قبل عودته إلى مصر، وها نحن نندفع فى التحليلات، الحزب يعرب عن تحفظه. فهو يساند مواقف عبد الناصر فى باندونج لكنه يطالب بعودة الديموقراطية وبإطلاق سراح السجناء السياسيين. استقبل عبد الناصر بمظاهرات فرح ومساندة واسعة لدى عودته ورفعت صوره إلى جانب صور شو آن لاى ونهرو. وها هو لأول مرة يبتسم ابتسامة عريضة تظهر أسنانا شديدة البياض.

ها قد حل شهر يونيه. تترامى أكوام الزهور الحمراء أمام النافذة وبطول الشارع. يصل غصنان إلى البلكونة، حيث أجلس في أغلب الأوقات أمام الآلة الكاتبة أشتغل حتى حلول وقت الغداء. بعد محاضراته في الجامعة يتوجه إسماعيل إلى ديوان رئيس الحكومة، ويعود في أغلب الأحيان في الساعة الثالثة محملا بالملفات التي يتعين عليه مراجعتها.

وذات يوم بعد عودته من أحد اجتماعات الحزب سلمني لفة صغيرة قائلا: "خبئيها ولا أريد أن أعرف أين ستضعينها. سأطلبها منك بعد عدة أيام. في ذلك المساء بعد العشاء جلسنا طويلا في البلكونة نتبادل أطراف الحديث. إسماعيل مرح. منذ وقت طويل لم يبد هذا الحنان والعطف تجاهي. ولهذا رغم إحساسي بالتعب وبقليل من الحمى لم أطلب منه أن ندخل للنوم.

ساءت حالتي في الصباح. حرارتي ٣٨، ٤٠ْ . ألاحظ أن حبوبا حمراء صغيرة غطت جسمي. لقد أصبت بالحصبة منذ سنتين حينها اندهش الجميع وسخرت مني ديدي. أخبر إسماعيل الذي يحلق ذقنه وهو يغني "غير ممكن هل حرارتك مرتفعة؟ ابقي في السرير سأكلم والدتك لتعطيني رقم الدكتور".

"حميراء طفيفة... إنها مرض أطفال" قال الدكتور: "لكنها تصيب أيضا الكبار فابقي في السرير وكلي كالمعتاد. وعندما تنخفض الحرارة يمكنك النهوض، ولكن ممنوع الخروج قبل زوال الحبوب! وممنوع استقبال النساء الحوامل، هذا خطير لهن وللجنين".

أعطانى إسماعيل بعض المجلات والعدد الأخير من جريدة لو موند: "استرخى! سأحاول ألا أتأخر."..

ثلاثة أيام مرّت. حرارتى انخفضت، سمح لى الطبيب بالنهوض من السرير وبالاستحمام، لكن لا يمكننى الخروج ما دامت الحبوب لم تختف. رن التليفون وتساءلت من يا ترى يتصل بنا فى الساعة الثامنة صباحا. قرع مختار الباب قائلا وهو يتأسف: "رجل يقول إن الموضوع مهم... من طرف محمد فهمى بيه". ماذا يريد منه هذا الرجل؟ يمسك إسماعيل بالسماعة ووجهه ملطخ بمعجون الحلاقة وأنا أنظر إليه مبتسمة. أحد قيادى الحزب الشيوعى المصرى المكروه من طرف عبد الناصر وأعوانه يتحدث مع أحدهم!

"ماذا؟ هذا غير ممكن" نبرة الصوت تغيرت وتعابير الوجه تحولت من الاندهاش إلى الغضب: "لا أعتقد أن تعيينا رسميا سيضيف شيئا! هل رئيس المجلس غير راض عن عملى؟... طيب سأمر بعد محاضراتى، نحو الساعة الحادية عشرة..". ثم وضع السماعة.

"تصورى أن عبد الناصر عيننى رسميا! وقع مرسوما بتعيينى مستشاره الاقتصادى!.. خرى وخرى!" لاحظ ابتسامتى. "ما بك تبتسمين ببلاهة! هل أنت سعيدة؟ فخورة أيضا؟... أما أنا فمنزعج فعلا!" ثم عاد إلى الحمام.

ماذا سيفعل إسماعيل؟ إنه فى ورطة. هل يمكنه رفض التعيين؟ من المفروض أن أطمئن. لا يبدو أن عبد الناصر والبوليس السياسى يعلمون شيئا عن نشاطه السرى. لكن هل سيفهمون رفضه؟ ألن يثير هذا شكوكهم؟

ارتدى إسماعيل ثيابه وراح يقول وهو يربط الكرافتة: "سأحاول إقناع محمد فهمى... إنه منصب مهم وراتبى سيكون بالتأكيد أعلى من مرتب الجامعة. افهمينى.

أخلاقيا لا يمكنني قبول هذا المنصب. أنا عضو اللجنة المركزية فى الحزب. رفاقى وأنا ننتقد باستمرار سياسة الحكومة ونطالب بإطلاق سراح رفاقنا... طيب يا حبيبتى سأنزل... اجلسى فى غرفة أخرى، فى المكتب مثلا ولا تقلقى".

"مبروك يا هانم!" هلل مختار عندما وجدنى مرتدية قميصا وبنطلونا. انتهى من شغل البيت وأغلق النوافذ للاحتفاظ بالطراوة. أمى هى بالطبع أول من يتصل بى، أعربت عن سعادتها بتماثلى للشفاء ونصحتنى بتوخى الحذر، حدثتنى عن الشغل، بعدها اتصلت فورا بإنجى وهى الوحيدة التى تعلم.

"رويدك، أنا أرسم... ماذا؟ مبروك؟" وضحكت. "يبدو عليك القلق، لماذا؟ كنت أود زيارتك هذا المساء لكن مامى منعتنى من رؤيتك ما دامت الحبوب لم تختف. سأكلمك بعد القيلولة". منعنى توترى من القراءة أو الكتابة.

أطالع عناوين الكتب المرصوصة على الرفوف. لماذا لا أقرأ كتاب "تولوز لوتراك" الذى أهدتنى إياه زوزو يوم عيد ميلادى؟. أتذكر نبرتها التهكمية فى التليفون عندما أخبرتها أننى مصابة بالحميرة. يا لها من فتاة مرحة، كريمة ورقيقة أختنا الصغيرة. اطلعت إنجى على رسوماتها ولوحاتها، أعربت لها عن إعجابها بموهبتها ونصحتها بمتابعة دروسها. أتصفح الكتاب، وأتمعن فى رسومات الفنان عندما هرعت بوسى وكوكولين القطتان نحو الباب قبل أن يفتحه إسماعيل.

"أهلا! برافو! أنت فى غاية الانتعاش! هل الأكل جاهز؟ سأقع من الجوع والتعب". وضحك من استقبال القطط له ومن احتكاكها برجليه. لكن سرعان ما استعاد جديته. غسل يديه ثم سألنى إن كنت قست حرارتى وجلس ساكنا على طاولة الغداء. "إذا يا حبيبتى احكى لى ماذا فعلت هذا الصباح؟" فهمت أنه لا يريد أن يتكلم فى الموضوع الذى يشغلنا نحن -الاثنين-. شعرت بالإحباط لكن وجوده بقربى هدأ من

روعى، ورحت أحكى له تفاصيل يومى دون أن أذكر له مكالمتى مع إنجى. "لا شكرا يا مختار لا أريد قهوة، أنا بحاجة إلى النوم". عرفت من تصرفاته أنه لم ينجح فى إقناع محمد فهمى. هل سيستقيل من الجامعة؟ أكاد أنام وإذا بالجرس يرن. استيقظ إسماعيل.

-٣-

سيبدأ هنا مشهد فيلم سنكون نحن أبطاله! لا نتوقع قدوم أحد. الجرس لا يصمت. لماذا لا يفتح مختار الباب؟ لعله يغسل الأوانى أو يتناول غداءه. قرع على الباب يصاحب رنين الجرس المتواصل جعلنا ننتفض "ما هذه الضوضاء؟" خرج إسماعيل من السرير ولبس الروب. انتابتنا حالة من الذعر وسمعنا وقع خطى تقترب من الغرفة. وها هو مختار يحتج: "ليس هكذا البيه نائم". وفى الوقت نفسه إذا بباب الغرفة يفتح فجأة على ثلاثة أغراب، وراءهم يظهر أمام التليفون مختار مفزوعا ورجل رابع. كلهم يرتدون البدل الصيفية الشائعة آنذاك. كرهت منظرها مهما كان لونها منذ ذلك الحين، منذ ذلك المساء فى الخامس عشر من يونيه.

"من أنتم وكيف تسمحون لأنفسكم باقتحام بيتنا بهذه الطريقة؟".

"إسماعيل صبرى عبد الله؟ هل هو أنت؟ تعال سنفتش بيتك..". جلست ووضعت غطاء السرير على صدرى، قلبى يوشك أن ينفجر من الخفقان وصرير قوى يستبد بأذنىّ. إنهم من الشرطة! يا إلهى ما العمل؟ سيجدون حتما اللفة.... هل لديكم مذكرة تفتيش؟ " هيا نفذوا ما أقوله... هل هناك أحد آخر فى الغرفة؟ قال الشرطى وهو يهز كتفيه. فرد عليه إسماعيل بهدوء وهو يربط حزامه "فتشوا كما أردتم لكن لا تزعجوا زوجتى، إنها مريضة..". توجه الرجل إلى الغرفة الثانية يتبعه رجلان. "تفضلوا إنها غرفة زوجتى". وقف الرجل الثالث على عتبة بابى يراقبنى. أما الرابع فاختفى مع مختار، خمنت أنهم ربما فى الصالون... سيقلبون كل شىء! لا يهم! المهم ألا يجدوا اللفة. أوصالى تجمدت لمجرد التفكير فى الموضوع. يصلنى صوت إسماعيل "الآلة

الكاتبة تخص زوجتى. حروفها بالفرنسية" ثم أضاف ضاحكا: "إنها لا تجيد العربية". بهرنى هدوؤه فى مواجهة هؤلاء الأوغاد. عادوا إلى غرفتنا واقترب أحدهم من السرير "آسف يا مدام لكن عليك النهوض..". أتجاهله فإذا بآخر يفتح الدولاب! بدأ بالرف العلوى حيث أضع شنطى، أفرغها من الحشو الذى أضعه فيها للحفاظ عليها. إن استمر التفتيش بهذه الدقة سيكتشف اللفة! أريد أن ينظر إسماعيل إلىّ. انظر إلىّ أرجوك! ها هو يلتفت إلىّ أخيرا. نظراتنا تلتقى وتتشابك للحظة. هل قرأ فى عينىّ الرعب الذى ينتابنى؟ بدأ الشرطى يقلب فى السرير وإذا بإسماعيل يقول فجأة: "نسيت أن أخبركم أن زوجتى مصابة بالحصبة. ليس هناك خطورة لكن المرض معدٍ بالنسبة لمن لم يصب به من قبل. هل زوجة أحدكم حامل؟..". توقف الشرطى الذى كان يفتش الدولاب! والتفت سائلا: "لماذا؟". "لأن هناك خطراً على الجنين". معجزة!! ابتعد الرجلان وكأنهما صعقا وأسرعا نحو الحمام لغسل أيديهما. تنفست الصعداء بينما حبست ضحكة من سخرية الموقف. قدم لهم إسماعيل مناشف "لدينا مناديلنا. ارتدِ ثيابك!". "لماذا؟ أين نحن ذاهبون؟..".

"زيارة قصيرة... ستعود هنا بعد ساعة".

"أين تأخذون زوجى؟ أجيبونى؟".

"لا تقلقى..إنها مجرد إجراءات".

"أعطنى الروب.. يا إلهى سيأخذونك". أوقفنى أحدهم بعنف: اسكتى يا مدام، ولا تتحدثى بالفرنسية".

" أريد أن أصطحبه إلى الباب".

"ليس ضروريا. لن يسافر إنه مجرد لقاء قصير...ارتاحى..". ابتسم لى إسماعيل وقال لى بالفرنسية متجاهلا الشرطى: "مع السلامة يا حبيبتى. لا تقلقى أكيد أن هناك خطأ ما... كلمى صديقى وتشجعى"...

أخذوا وهم فى طريقهم للخروج أجندة التليفون! كيف سأجد رقم محمد فهمى؟

"لماذا تأخذونها؟" قال إسماعيل "إنها تخص زوجتى وقد سجلت فيها أرقام أصدقائها وأقاربها بالفرنسية، أما أنا فلا أحتاج إلى أجندة ذاكرتى قوية". وأخرج من جيبه أجندة جديدة من الجلد "يمكنكم أن تلاحظوا أنها فارغة، أنا لا أستعملها ثم إننى قلت لكم إن زوجتى لا تجيد العربية.." فوضعها الرجل على الرف ثانية. يغلبنى البكاء وأنا أرى إسماعيل يبتعد محاطا بالرجال الأربعة. أسمعه وهو يقول لمختار الواقف فى الصالة مع السلامة يا مختار.. أترك لك زوجتى أمانة. اعتن بها..."

خرجت من السرير فور خروجهم، على أن أخبر محمد فهمى. لماذا جاء رجال المخابرات لاعتقال إسماعيل؟ هل يجهلون كل شىء عن تعيينه؟ ما هذه الفوضى؟...

يقف مختار باكيا أمام الباب "من فضلك أريد شايا. على أن أعمل بعض الاتصالات" أبحث عن رقم التليفون بأيدٍ مرتعشة. أبحث صفحة بعد صفحة وأجده أخيرا.

"نعم يا مدام أنا بعينها. مدام إسماعيل صبرى؟" بدا الصوت فى البداية مرحبا ثم تغير وأصبح قاتما. سمعنى ثم أوقفنى فجأة: "أنا على علم بهذا، آسف لا أستطيع شيئا. لا تقلقى كل شىء سيسير على ما يرام إن شاء الله. مع السلامة". لم يعطنى الفرصة لأسأله أين يوجد زوجى. أكلم ديدى. قالت لى الخادمة إنها نائمة.

"أيقظيها من فضلك يا فاطمة.. الموضوع مهم". أنتظر بعصبية "ألو؟.. خير؟ ماذا؟... ما هذا؟ سآتى فورا..". أفكر فى الاتصال بعزّ. الساعة الخامسة ونصف! ربما أجده مستيقظا. ها هو يرد. علاقتى بعز شقيق إسماعيل ليست وثيقة ولهذا أكلمه بتحفظ لأخبره بما حصل: "مساء الخير يا عز الدين.. أعتذر للاتصال فى هذا الوقت لكننى أود أن أخبرك أن إسماعيل ذهب... مثل زوج أختى!... ألو؟ هل تسمعنى؟". "نعم أسمعك... ثم بعد؟ ماذا تريديننى أن أفعل؟ اهدئى..". أنهى المكالمة. ما هذا الصوت

الغاضب والثائر؟ كأننى مدانة. ثار غضبى أنا الأخرى. ما كان يجب أن أخبره. كان فظا، ولم يسألنى حتى عن خالتى! فليذهب إلى الجحيم!

"الشاى جاهز يا مدام هل أضعه فى غرفة المكتب؟ لم أعد الكتب إلى مكانها، أعلم أن لك طريقتك الخاصة فى ذلك.... هل إنجى قادمة؟" أسرع لتحضير نفسى وارتداء ملابسى. لا يجب أن ترانى أختى فى هذه الحالة. تتحلى بشجاعة وكرامة وهدوء مثير للإعجاب. على أن أتعلم منها فن الانتظار. وكل الصفات اللازمة لاحتمال كل هذا. إنه نوع من الانتظار لم أختبره من قبل. كتبت فيما بعد "حبيبى ذهب.وكأنه فى زيارة مجاملة والأنوار انطفأت عندنا".

توجهت نحو المكتبة، وجدت رفين من الكتب على الأرض ثم اقتربت من المكتب. "لقد أخذوا كتابين وبعض الأوراق" قال لى مختار وهو يتبعنى "ماذا ستقولين لأمه؟" ومسح دموعه بمنديل كبير". من فضلك يا مختار لا تبكِ... من المؤكد أنه مجرد خطأ... اهدأ.. هل سرقوا شيئا؟". أنظر حولى وأنا أفكر فيما قالته إنجى ذات مرة، إنهم أثناء تفتيش اثنين من رفاقها سرقوا بعض المتعلقات الثمينة. أحاول فتح الأدراج المتعثرة بصعوبة. أين المبلغ الذى كان من المفترض أن يسلمه إسماعيل لأمى؟ لقد جلبه يوم الجمعة لدى عودته من زمرونية، حيث تولى أمور أراضى أمى وتاتى نيابة عن حمدى.

"هل تبحثين عن شىء يا مدام... كان هناك ظرف أبيض فوق المكتب وملف برتقالى... وقد أمرنى الرجلان اللذان فتشا الدرج ألا أتحرك وكنت واقفا عند الباب..".. اقترب منى وفتح الدرج ثم أدخل يده فى عمقه وهو يبتسم بكل فخر: "إنه درج سرى، اكتشفته عند انتقالنا هنا وأخبرت سيدى بذلك..". لم يقل لى إسماعيل شيئا عن هذا ولم أجد فيه سوى أوراق ملفوفة. الأوراق خطيرة ولحسن الحظ أن مختار لا يعرف القراءة. لم أعثر على الملف البرتقالى الذى أعطانى إياه إسماعيل لأضع أوراق مسرحيتى. هؤلاء الأغبياء لم يفتحوه وإلا لكانوا اكتشفوا أنها مكتوبة بالفرنسية. من

المؤكد أنهم سيعيدونها إلى، فى الوقت الحالى على أن أخفى الأوراق التى كانت داخل الدرج السرى وكذلك اللفة التى توجد بين المناشف.

أغلقت باب الحمام وبدأت فى حرق أوراق الإثبات. الرائحة قوية. ومزقت أوراقا أخرى قطعا صغيرة ورميتها فى دورة المياه. فور انتهائى من هذه المهمة دق مختار على باب الحمام "مدام إنجى هنا.. هناك رائحة شىء يحترق". "أشعلت سيجارة من الطرف الآخر.. أنا قادمة.". فتحت نافذة الحمام ورحت أستقبل أختى.

استبدت بنا نوبة ضحك متواصل فور تلاقى نظراتنا. جلسنا بينما راح مختار الذى دبت فيه الطمأنينة يملأ الفناجين. قفزت بوسى على رجلى بينما لجأت كوكولين إلى أختى.

"أرى أنهم فتشوا"... استعادت إنجى جديتها "احكى لى كل شىء.. بالتفصيل... ابدئى بالمرسوم الذى وقعه عبد الناصر.". فى الوقت نفسه ظهر مختار ثانية مصدوما: "لقد بلغنى البواب أن البوليس أخذوا سيارة إسماعيل بيه وقالوا له إنهم سيعيدونها قريبا". نظرت إلى أختى بذهول. ماذا سيفعلون بالسيارة؟. كان يمكنهم تفتيشها فى الجراج.

"عليك أن تتقدمى بطلب إضافى.. لا تقلقى سيعيدونها لك.. هيا احكى". أبدأ بمكالمة محمد فهمى التى بلغ فيها إسماعيل بتعيينه رسميا. إنجى تتابع سردى باندهاش ضاحكة. رغم خطورة الموقف لا يمكننا الانقطاع عن الضحك من المواقف الساخرة.

"الآن علينا أن نخبر ماما! كيف ستتلقى الخبر؟..".

"وأنا لا أستطيع الخروج لمدة يومين إضافيين" صمتنا فى وجوم. لقد توفى على بيه منذ أسبوع! كانت صدمة بالنسبة لأمى التى رفضت وقوفنا إلى جانبها أثناء مراسم الدفن. وأخبرتنا ديدى فيما بعد أنها أغلقت باب غرفتها عليها وفى الصباح

توشحت بالسواد وذهبت إلى الأتيليه بعد أن طلبت منها أن تخبرنا وتطلب منا الحضور لرؤيتها فى السابعة مساء.

سببت لنا وفاة على بيه ألما شديدا. كنا نحب هذا الرجل الرقيق، المتواضع، المثقف الذى كان ينتمى للعائلة، والذى كان مغرما بأمنا. استقبلتنا فى البلكونة وهى تحرك كأسها المملوء بالثلج بين أصابعها الطويلة. عندما شرعت فى الكلام ارتعشت شفتاها وسالت الدموع على خديها. مسحتها بسرعة قائلة: "كنت قد أخبرته مؤخرا أننى نويت غلق الأتيليه وأنه يمكننا أن نتزوج. لن أسامح نفسى على عدم إخباره بهذا من قبل لأننى أخذت القرار منذ شهر!" توقفت قليلا استعادت هدوءها ثم واصلت "تعلمون أنتم الثلاثة أننا كنا متقاربين منذ سنوات طويلة. لقد طلب منى الزواج والتوقف عن العمل! وطبعا رفضت. وبعد أزمته الأخيرة فى باريس اقترح على أن نتزوج عرفيا وقمنا بذلك فور عودتنا إلى القاهرة. أصدقاء مقربون شهدوا على زواجنا وكتموا الموضوع بناء على طلبنا...".

"لكن مامى لماذا زواج عرفى؟" "وإغلاق الأتيليه؟ لا أستطيع أن أبقى عاطلة. أنتم تعرفوننى جيدا، ليس فى طبعى أن أمكث دون عمل، صحيح بجانب رجل رائع وطيب وكريم ومثقف لكن يعيش على ثروته ولا يشغله سوى ظهوره من حين لآخر فى البرلمان. لا تنسوا أنه كان أصم! هل كنا سنعيش تحت سقف واحد مثل صنمين متقابلين؟ كنا سنقضى وقتنا فى المشاجرات... أبلغته هذا العام أننى أنوى تصفية الأتيليه والعيش بجانبه.. عزائى أننى أعطيته هذه الفرحة الأخيرة". الحمد لله أنها لم تغلق بيت الأزياء! ما زالت تعمل وتشكيلة الصيف لاقت نجاحا كبيرا. منذ الثورة لم تتلقَ هذا القدر من الطلبات لدرجة أنها وظفت عاملات إضافيات باليومية.

قررنا أن ننتظر يومين، ربما أكون قد توصلت حينها إلى شىء ملموس فيما يخص موضوع إسماعيل. شرحت لى إنجى ما قد يحل به بناء على تجربة زوجها ورفاقه الذين وضعوا فى الحجز المؤقت لبضع أيام. "يحبسونهم فى أقسام الشرطة بعد

استجوابهم من طرف ضباط المباحث العامة. وإذا لم تتوافر لديهم أية دلائل يبعثونهم إلى سجن القناطر".

"ألا تعتقدين أن الأمر سيختلف بالنسبة لإسماعيل؟.. أعنى بسبب تعيينه... أى أنهم سيكتشفون خطأهم" كنت أتمنى أن تهدأ من روعى وأن تعطينى بصيص أمل. تنهدت وهزت كتفيها: "أعتقد أن هناك شيئا مريبا فى حالة إسماعيل. كيف يعينونه مستشارا لرئيس الحكومة ثم يعتقلونه بعدها بساعات؟ لكن أرجوك لا تأملى فى عودته قبل فترة. ارضى بالأمر الواقع وتماسكى". ثم ابتسمت قليلا: "أعلم أننى أبدو غبية وأنا ألقنك هذه النصائح! أعلم أن الأمر صعب... إذا لم تصلك أية أخبار عن زوجك بعد يومين أو ثلاثة ابدئى فى الإجراءات".

انهمرت فى البكاء فور مغادرتها وعدت إلى غرفة المكتب. كل الدموع التى حبستها منذ ذهاب إسماعيل انفجرت دون أن أتمكن من السيطرة عليها. "كفاية يا مدام سيعود إسماعيل بيه". وقف مختار ينظر إلىّ حزينا وأنا غارقة فى دموعى وضياعى. ثم ذهب ليحضر مناديل من الغرفة: "اهدئى يا مدام.. خذى.". مسحت دموعى ورفعت رأسى وابتسمت للرجل الطيب "شكرا يا مختار، اطمئن، أنا أحسن الآن... يمكنك النزول لست بحاجة لشىء... سأحاول أن أنام. تصبح على خير" نعم، النوم. لعل الغد يأتى بأقصى سرعة. دخلت الحمام فواجهتنى فرشاة أسنانه وموسى الحلاقة! لماذا قالوا إنه سيعود؟

ها أنا وحدى. أغرس رأسى فى المخدة وإذا بى أشم رائحته فيها، عرقه ممزوج برائحة الكولونيا، الليمون واللا فندا. أطفئ الأنوار وأعلم أن مختار نام على سجاد الصالة. رفض أن يذهب إلى غرفته. لقد ذهب إسماعيل دون أن يأخذ معه ثيابا أو أى شىء. أين يستجوبونه؟ أتصور إسماعيل واقفا أو جالسا فى غرفة مظلمة وأنوار الكشافات تعميه. ضابط يستجوبه وآخر يصفعه ويضربه فى بطنه... أجز على أسنانى لأبعد هذه الصور التى عودتنا عليها الأفلام البوليسية من رأسى. أقرر أن أعد إلى مائة

وأفكر فى شىء آخر. غدا ستشرق شمس أخرى... غدا ستذهب ديدى إلى القناطر لرؤية حمدى. وستمر على وهى عائدة... ربما سيخبرها حمدى شيئا.

وغدا ستجد ديدى التوقيت المناسب لتخبر أمى عن اعتقال إسماعيل. كيف ستستقبل الخبر؟ زوجا ابنتيها فى السجن.. نامى لقد أصبحنا غدا... أدرك أننى دخلت محراب زوجات المعتقلين. نساء احترفن الانتظار. أدركت أننى ولجت عالما ضيقا ومجردا أيامه طويلة لا تستمد قوامها سوى من رحلة البحث عن أخبار الحبيب. وليالٍ طويلة أعذب أحلامها ربما أكثر خبثا من الكوابيس.

الصباح منعش ومضىء مثلما أحب. عندما يكون هكذا أستقبله عادة بالتفاؤل. أما اليوم فلا أستطيع. أحوم فى أرجاء البيت بينما مختار يحضر لى الإفطار. أتكئ على درابزين البلكونة. قطرات الندى تلمع على عناقيد الورد الحمراء. كَبَتُّ دموعى، لن أبدأ أول يوم دون إسماعيل بالبكاء. ها هو مختار يتقدم بالإفطار نحو البلكونة. الفكرة أعجبتنى سأجلس هنا. لم يبقَ سوى بقعتين على بطنى. يومان وأستطيع بعدها الخروج من المنزل. على أن أتماسك، وأن أتذكر أننى لست وحدى التى تعيش هذه المحنة. هناك إنجى وكل النساء اللاتى تحدثنى عنهن. التليفون يهتز. إنها أمى التى تكلمنى كل يوم قبل الذهاب إلى الأتيليه. سألتنى عن الحمى والبقع الحمراء وعن إسماعيل. كيف حاله؟ تمكنت من عدم فضح أمرى ولم تلحظ شيئا. أقرر على الفور أن أمسك بزمام يومى. أستحم وأغير ملابسى. صورتى فى المرآة تشعرنى بالرضا، أفكر قليلا. على أن أشغل نفسى. لأبدأ بترتيب الكتب المتناثرة فى كل مكان بفعل هؤلاء المخربين. لقد بعثروا كتب إسماعيل. يشير فضاءان على المكتبة إلى اختفاء كتاب كبير لماركس وآخر للنين. طبعا! إنها قراءات مشاغبة!

بعد انتهائى من هذه المهمة أمسك كتاب تولوز لوتريك. أقنع مختار الذى لا يريد أن يتركنى وحدى بالذهاب إلى السوق. المشوار إلى آخر شارع برازيل يستغرق حوالى عشرين دقيقة. "طيب سأنزل.. انظرى إلى كوكولين على مكتب إسماعيل بيه!..".

قطي الأسود الجميل مدد نفسه على مكتبه. وها أنا أسمع صوت إسماعيل "لا يا سيدى اتركنى أعمل. هيا تحرك".. الذكريات لا تحصى. أمسح دموعى وأستعيد قوتى.

شقيقه لم يكلمنى، من المؤكد أنه لم يلتقِ بمن يعطيه الخبر اليقين. الساعة بعد الحادية عشرة. الوقت مبكر لأقلق على الأخبار. أقرر ترتيب أوراق إسماعيل ربما أجد الملف البرتقالى. أبدأ بالكومة الموجودة على اليمين. أوراق متشابكة وملفات تحتوى كلها على ملاحظات وتقارير كتبت على الآلة باللغة العربية. أفتش فى الجهة اليسرى. لا شىء! أتعصب. أبحث فى الأدراج. قلم قديم، ودفتر شيكات إسماعيل، وأوراق عليها دمغة تتعلق بأراضى أمى. التليفون يرن. إنها توبسى. تسأل عن أحوالى وتخبرنى أن ابنها يعانى من البرد. أحاول أن أهتم بدردشتها. "مع السلامة". لم أقل لها شيئا. كيف ستستقبل هى وزوجها خبر اعتقال إسماعيل. فتشت فى كل مكان ولم أجد الملف البرتقالى. الأوغاد أخذوا ملفى الثمين! على أن أبدأ من جديد. هل أنا قادرة على ذلك. لقد عاد مختار وأسمع أصوات الحلل فى المطبخ. التليفون ساكن. أكلم شقيق زوجى وتقول لى زوجته إنه لم يعد بعد وإنها ستطلب منه أن يكلمنى.

"هل ستتغدين مدام إنجى معنا؟" "لا أظن". وصفت لى إنجى لدى وصولها اندهاش زوجها لدى سماعه الخبر. "حمدى مصدوم. لقد علم مع رفاقه أن ستين شخصا قد اعتقلوا وكلهم من الرفاق دون أن يعرفوا من هم بالضبط". ثم انصرفت على الفور إلى بيتها. إنها تنتظر نيمات وزوجها مصطفى على الغداء ووعدتنى بالزيارة غدا الظهر. أشعر بالخيبة قليلا، لكننى أعلم أن لها مسؤوليات فى الحزب... أتناول الغداء دون حماس ثم أتمدد على السرير بصحبة القطط. لم يمضِ على اعتقال إسماعيل سوى يوم فقط، ولا يمكن أن يكون لدى حمدى وأصحابه أية أخبار.. ربما يوم الخميس القادم... لماذا مزقت صفحات يومياتى من يوم ١٦ إلى ٢٣ يونيه؟... لاحتياطات أمنية ربما.

أتلقى مكالمة من أختى: "ماما على علم! لقد أخبرتها. تعرفين مامى إنها رائعة! أمنا صلبة..". كلمتنى أمى على الفور. صوتها صاف تشوبه لمسة حنان. سألت عن صحتى وأعطتنى بعض النصائح. "هل أنت بحاجة إلى مال؟". أنتظر زيارة نيمات ومصطفى. صمما على المجىء، رغم أن نيمات حامل.

"ما هى فائدة الأصدقاء؟" قالت نيمات بابتسامتها الوديعة "سبق وأن أصبت بالحميرة... سأجلس بعيدا عنك". ابتهج مختار بهذه الزيارة وقدم لنا الشاى والبسكوت. استمعا إلى روايتى للأحداث التى كنت أطعمها ببعض اللقطات الساخرة. وضحكنا مع بعض. لكن سرعان ما كانت ملامح مصطفى تتصلب من أثر الغضب خاصة عندما حدثتهما عن فلوس ماما والجزء الأول من المسرحية التى أكتبها. لقد أجرا شقة فى باب اللوق ويعيشان من مرتب مصطفى المتواضع. يظن إسماعيل أنهما لن يمكثوا فى مصر كثيرا. مصطفى متحمس للطب النفسى. أما أنا فأتمنى فى الوقت الحالى أن يمكثا هنا لبعض الوقت. أنا بحاجة لصداقتهما. لقد تقاسمنا ثراء باريس والحماس والإحباطات والأفراح.

صوت شقيق زوجى البارد فى التليفون! أنا التى أكلمه دائما. "لا شىء! اصبرى قليلا. لا يوجد شىء ضده... سأرى بعد أيام".

ثريا، كمال والأطفال جاءوا للتو من الصعيد برفقة حماتى. شقيقة زوجى كلمتنى وهى مرتاعة: "الله معه!...لا عليك...لا أجد الشجاعة لزيارتك.. لا أستطيع دخول بيته وهو غير موجود". طلب منى زوجها أن أتفهم موقفها، وقال لى إن ثريا وإسماعيل مرتبطان ببعضهما وأنها تعبد أخاها الصغير. "حالما تستطعين تعالى لزيارتنا. الصبر.. لن يدوم هذا إن شاء الله..".

سمح لى الطبيب بالخروج! اليوم الجمعة سأذهب عند عز. يطل باب عمارتنا على شارع الجزيرة الوسطى المحفوفة بالأشجار. أتوجه إلى عمارة شقيق إسماعيل. "آه

هذه أنت تفضلى صباح الخير". مدت ريفاء يدها لتسلم على وهى متوجسة. رحب بى الأطفال وقبلونى. أطمئن ريفاء قائلة إننى لم أعد معدية. أدخلتنى إلى غرفة المكتب، حيث يجلس عز أمام كومة من الورق. يرتدى كالعادة البيجاما والروب. فهو لا يلبس البدل إلا عند خروجه أو استقباله الزوار (و هذا لا يحدث إلا نادرا!). نبدأ الحديث ببعض العموميات حول الحميراء. ثم طلب عز من أولاده أن يذهبوا للعب بعيدا ومن زوجته أن تحضر لنا قهوة.

"أنا لا أفهم إسماعيل" هكذا بدأ كلامه بينما بدت عليه علامات الاستياء. "كان يجب أن يرفض هذا العمل لدى رئيس الوزراء... حتى لو كان ذلك بصورة غير رسمية..". أقاطعه لإخباره أنه تم تعيين إسماعيل مستشارا لعبد الناصر يوم ١٥ . "فعلا؟ على كل حال كان عليه أن يتوخى الحذر. كان يخرج كثيرا ويلتقى بالعديد من الناس وربما كان يتناقش فى السياسة معهم... من يدرى هذه أمور خطيرة. كان عليه أن يكتفى بمحاضراته فى الجامعة وأن يعود بعدها إلى البيت". ذهلت لهذا الكلام الصادر عن رجل مستنير وذكى فلزمت الصمت. ارتشفت قليلا من القهوة وتظاهرت بموافقته الرأى مع الإصرار على أن خروجنا يقتصر على زيارة أمى أو أبى أو زيارته هو. وأخيرا سألته إن كان قام بشىء لمعرفة مكان احتجاز شقيقه. وأضفت أننى عرفت بواسطة أختى أنه ليس فى القناطر. "هل تفهم يا عز..؟ أريد أن أبعث له بعض أدوات الحلاقة وبعض الملابس... ألا تستطيع طلب مقابلة رئيس المباحث؟".

"لا! مستحيل... أنا لا أطلب شيئا من هؤلاء الناس؟ مستحيل هل تسمعين؟ إسماعيل مسؤول عن أفعاله. كان عليه أن يفكر فى عائلته..." تحت وطأة هذه الملاحظات أطفأت سيجارتى ونهضت. "طيب أنا مضطرة للمغادرة. شكرا..".

أجبرنى وجودى فى الشارع على تمالك أعصابى. مشيت فى خط مستقيم إلى أن وصلت إلى محطة التاكسى. "شارع هدى شعراوى". فكرة زيارة أبى وزوجته وتناول الغداء معهم تريحنى قليلا. أحب شقتهم الواسعة ذات الديكور الجميل. وفى انتظار

الغداء الذى أعرف أنه سيكون لذيذا سأدردش مع بابا فى مكتبته. إنها عالمه الخاص. وضع فيها مكتبه وخزانة صغيرة رتب فيها الذباب الذى يشتغل عليه وعلق على الجدران اللوحات المحببة لديه (والتى لا تعجب ليلى!). يقضى والدى أغلب وقته فى هذا المكان فى القراءة والكتابة وهو يدخن غليونه أو سيجارة الجولوالز(٣). إن هذه المكتبة هى المفضلة لدى أشعر فيها بالقرب من هذا الأب الذى أحبه بشدة. أدخل معه فى مناقشات شائقة دون وجود ليلى أو توفيق. حتى أختى وإسماعيل وحمدى يحبون هذه الغرفة. لا ندخل أبدا غرفة ليلى التى لا أتذكر منها سوى السرير الواسع والصليب على الجدار.

"جلبيرى يا مسكينة" قالت لى ليلى وهى تقبلنى. "إننى أفكر كثيرا فيكم وأتمنى أن هذه المحنة لا تدوم طويلا". سبقتنى. ابتسم لى أبى حزينا، قبلته، وجلست أمامه وأنا مرتبكة من حالة الإحباط التى ارتسمت على وجهه. أتردد قليلا قبل بدء سردى. سمعنى وهو يملأ الغليون دون أن يقاطعنى. وفجأة قال بصوت غاضب: "تريدين أن تقنعينى أن إسماعيل ضحية خطأ ما... لقد قلت لى أنت وأختك قبل هذا إن حمدى لا علاقة له بالسياسة... هل تعتقدون أننى غبى؟ تعلمين جيدا يا جلبيرى أن عبد الناصر لم يعين زوجك قبل الاستعلام عنه... ليس هناك دخان من غير نار. أساتذة فى الجامعة مثل إسماعيل لا يعتقلون هكذا عشوائيا. زملاء كثيرون فى الجامعة وأصدقاء أيضا حدثونى عن زوجك بمنتهى الاحترام والتقدير. ما مصير مستقبله المهنى الآن؟"... ثم توقف أبى، أعاد إشعال غليونه وسحب منه الدخان عدة مرات ثم واصل بهدوء وحزن "نعيش فى ظل دكتاتورية! ماذا يمكننا انتظاره من هؤلاء العسكر؟ لم أفهم يوما السياسة! واليوم أكثر من البارحة!". لقد عبر أبى عهدَىْ فؤاد وفاروق متفرجًا لا حيلة له، ومتوجسًا، وغير راض عن الوضع. بماذا أجبته؟ لا أتذكر. لكننى وجدت الكلمات

---

(٣) نوع سجائر فرنسية .

لطمأنته ولإقناعه أن إسماعيل ضحية خطأ جسيم (وكنت لا أشك فى ذلك). أعلم أنه يُكِنُّ لإسماعيل المحبة والتقدير وأشعر بحزنه. قبلته وأنا أودعه. طلب منى هو وليلى أن أكلمهما حالما تصلنى أخبار. "تعالى لزيارتنا وقت ما تشائين".

أين أذهب؟ الوقت مبكر وإنجى ربما فى قيلولة. أوقف تاكسى وأعود إلى البيت وإلى وحدتى؟ أستقل تاكسى لأذهب عند ثريا. لقد استقرت شقيقة زوجى مع زوجها فى الشقة التى كان يسكن فيها إسماعيل وعز وهما عازبان، فى شارع مجلس النواب. وتيزة تقطن الآن معهم. قلنا لها إن إسماعيل مسافر. اندهشت لعدم رؤيته لكنها تقبلت الكذبة بهدوء. ثم سرعان ما شكت فى قصة السفر وراحت تحاصرنا بالأسئلة لما لاحظت بكاء ثريا وسمعت بعض الكلام المتناثر. وتولى عز مهمة إطلاعها بالحقيقة. وحالما رأتنى انطلقت فى البكاء.

أخذتها فى حضنى وتركت نفسى للبكاء. شعرت بالراحة بعدها وضحكت عندما قالت: "لماذا؟ يا ربى؟ إنه ساذج كبير..".. حمل هذا الوصف على لسانها معنى ساخرا. اعترضت فمسحت دموعها وضغطت على ذراعى بيدها الناشفة ذات العروق البارزة ثم قالت بابتسامة حميمية: "لا تغضبى يا حبيبتى. طول حياته كان إسماعيل ولدا ساذجا. أعلم أنه ذكى للغاية... كان دائما الأول فى الفصل فى المدرسة وكذلك فى الجامعة لكنه على نياته. هل تعرفين يا بولى؟ كان إسماعيل يجلس وهو طفل يقضى ساعات فى ركن دون أن ينبس بكلمة. لما كبر قليلا كان يقرأ الكتب وهو فى بلكونة غرفته.. كتبًا كثيرة. كان يقرأ طوال النهار..".. ثريا كانت تبكى أيضا وراحت توبخ زوجها حتى يجد حلا. وكان يرد عليها قائلا "تعلمين جيدا أننى قابلت فلانًا وعلانًا". "أعدكم ستفاجئين بزيارة قريبا. لا تقلقن إسماعيل بخير..".. يستقبلوننى دائما بكثير من الترحاب ويحيطوننى بعطفهم ويدعوننى لتناول الغداء. وتقول لى ثريا دائما: "عندما أراك كأننى أرى إسماعيل". الأوقات التى أقضيها معهم عذبة. لكننى أريد مساعدة ملموسة، فكمال يراوغ ويعد بمقابلة هذا أو ذاك من الشخصيات ذات النفوذ من معارفه

الذين لا يرفضون له طلبا. لكن وعوده دائما كاذبة وأخباره غير صحيحة. يمنع زوجته من مرافقتى إلى المباحث: "اعذرينى يا بولى ولا تغضبى. لا يجب أن تقوم ثريا بهذه المساعى. إنها حساسة وهذا سيؤذيها وسيؤثر على صحتها، لا يمكنها أن تذهب هناك". ماذا عساى أن أجيب على هذا الموقف الذى يؤسفنى. أستنتج أن عز أثر عليهم! إنها مساعٍ لا تليق بأخت عميد وزوجة أحد أعيان ملاوى. أعلم جيدا أن عز وثريا يكنان كل الحب لشقيقهما الصغير... على أن أقبلهما كما هما. من أجل إسماعيل ومن أجلى أيضا. من أجل أن أشعر بتلك الفرحة القصيرة عندما أعثر على زوجى من خلال تعبيرات عابرة على وجوههم... ابتسامة.. حركة. ماذا يمكننى أن أنتظر منهم؟ لا يمكنهم أن يفهموا التزام شقيقهم السياسى وكفاحه فى الظل مغامرا بحياته. ولا أن يفهموا مشاركتى المتواضعة لهذا الكفاح. على أن أعلم أن قناعاتى هى التى تدفعنى إلى مساندته وأنا مزودة بكل حبى. هى التى تكبت مخاوفى وتذيب الإهانات التى أتعرض لها وتبعث فى أوصالى الشجاعة وتقود كل أفعالى وتدفعنى للإصرار على أعتاب الأبواب المغلقة. هى التى تعطينى القوة لضبط عفويتى قدر الإمكان وتحجيم صراحتى والانتباه إلى ما أتفوه به من كلام. أنا بعيدة كل البعد عن تصور ما يتعرض له. قررت بالغريزة الدفاع عن حياة رفيق حياتى وتقمصت شخصية رحت أنسج على مدار اليوم حركاتها وكلامها طبقا لكل شخصية أقابلها ولكل ديكور يحيط بى... وأقول لنفسى اقبلى الوضع يا بولى لا تلومى عز وثريا وكمال على خوفهم وعلى عدائهم للشيوعية وعلى عدم فهمهم للعبة السياسية. لقد بروزته فى صورة الضحية البريئة. وأكتفى بالاعتراض بهدوء عندما يقولون إن إسماعيل تم التأثير عليه واللعب بأفكاره وله أصدقاء سوء. وإنه من الأفضل الاختباء فى البيت والصبر وانتظار أن تكتشف السلطات خطأها..". أنتم كلكم فخورون بإسماعيل. هل هو ضعيف الشخصية لهذه الدرجة؟ منذ أن التقيت به وطوال حياتى معه أكتشف كل يوم مدى قوة إرادته الصلبة..".. ثم أبتسم مضيفة "أعتقد أن إسماعيل هو الذى له القدرة على التأثير على الآخرين وليس العكس".

-٤-

شارع شامبليون! ها أنا فى الشقة التى قضيت فيها مراهقتى. وافقت بعد إصرار أمى وأختى. غيابه يفرض على وحدة ثقيلة وقاسية. أشعر بالدفء هنا وسط ماما وإنجى وقططتى.

أقول لأصدقاء أمى، لأصدقائنا، ولمعارفنا الذين ألتقى بهم فى المرات القليلة التى أذهب فيها إلى نادى الجزيرة إن زوجى" كان يكرس كل وقته لمحاضراته وأبحاثه. كان يقرأ ويكتب كثيرا . وإنه كان يحلم بتحضير دكتوراه فى الاقتصاد السياسى... ولم يكن يخرج إلا معى". يهزون رؤوسهم ويرمقوننى بنظرة تعاطف يتخللها أحيانا خيط من الشك. لكنهم فى العموم يقتنعون بوجهة نظرى. صفات إسماعيل من سحر وأناقة وطيبة وثقافة لا تتوافق مع فكرتهم عن الشيوعى. ولا يعدو إسماعيل فى أعينهم سوى ضحية أخرى من ضحايا نظام ٥٢ . ضحية هذا الكولونيل الذى يشعرون حياله بعدم ارتياح متزايد ممزوج بالخوف والذى وضع محمد نجيب "الطيب" تحت الإقامة الجبرية.

العاشرة والنصف صباحا . قاعة انتظار المخابرات العامة فى وزارة الداخلية. قاعة مستطيلة كبيرة ذات جدران رمادية عالية. يجلس فى آخرها أحدهم على مكتب عليه تليفون، يستقبل الزوار. صورة محمد نجيب معلقة على الحائط! غريب يبدو أنهم نسوها . لكن بمن كانوا سيستبدلونها؟ رُصَّت على جانب من الحائط بضعة كراسٍ، اثنان وأحيانا ثلاثة أعوان يجوبون القاعة ذات الزجاج الأسود والأبيض. كلهم يرتدون زيا مدنيا، وجوههم مغلقة ومنفرة. أدشن فى هذا الصباح رحلتى فى عالم السلطة

الأمنية. قدمت نفسى للمعاون الجالس على مكتبه: "صباح الخير" قلتها ببرود. "ماذا تريدين؟". لم يرفع رأسه وجعل ينظر بإمعان فى ورقة مطبوعة أمامه. "أريد أن أقابل المدير..". رفع أخيرا رأسه، تصفحنى، هز كتفيه وأجاب: "ليس موجوداً... وربما لن يأتى هذا الصباح"..

"الأمر مهم سأنتظره".. "انتظرى إن أردت..".. واستغرق مرة أخرى فى قراءته بينما توجهت نحو الكراسى المشغولة كلها تقريبا. سحبت امرأة متوشحة برداء أسود كيسا كبيرا من على كرسى قربها وقالت: "تعالى يا حبيبتى اجلسى".. شكرتها وجلست بينما الأنظار ترقبنى. رائحة سكر تملأ أنفى، رائحة سكر وفراولة، إنها حلويات يمتصها طفل جالس على حجر سيدة فى جلبية قديمة. التفتت نحوى مثل الآخرين تتفحصنى مثل الآخرين. النساء أكثر من الرجال وكلهم من الطبقة الفقيرة. أمهات، وآباء، وأشقاء وأزواج جاؤوا هنا للسؤال عن ذويهم المسجونين، يطلبون إذنا بالزيارة أو تحويلا للمستشفى... صبرهم لا حدود له. عندما دخلت هذه القاعة أحرجتنى نظراتهم لى.

"هل لك أحد هناك؟ الله معك! لماذا أخذوه؟... سياسة؟... الحمد لله!" تنهيدة عميقة رفعت صدرها الممتلئ. وعندما سألتها إن كان لها أحد هناك ردت مراوغة وهى تبتسم: "إنه ابنى لا علاقة له بالسياسة ، هذه الأمور لا تعنيه". وفجأة وضعت يدها على ذراعى الأيسر. تراجعت قليلا. أكره أن يلمسنى أحد. ألتفت، فوجدت وجها نحيفا تخرج منه عينان كبيرتان سوداوان متسائلتان. الوجه يبتسم لى بخجل. إنها امرأة شابة فى غاية الجمال والسمرة. "بتهمة الشيوعية؟ هل هو زوجك؟ أنا أيضا. إنه فى القناطر "أخذت نفسا. "لقد كنا سعداء! ما شأنه والسياسة؟ لم يكن يكف عن مقابلة الناس... و ها هى النتيجة...! لم يفكر فى أطفاله!.. نعم لدى اثنان والثالث فى الطريق... بعد خمسة شهور. صاحب عمله لا يريد أن يسلمنى مرتبه...ماذا سنفعل؟" دموع غزيرة تسيل على خدودها. أربت على كتفها وأحاول أن أواسيها. "لا تبكى. اهدئى. سيتحسن الوضع إن

شاء الله. لا تبكى أمام رجال البوليس هؤلاء، إلا هذا". لا يجب إعطاؤهم فرصة الشماتة. أنتظر. أدخل فى جلد آخر وأتبنى تصرفات لم أعهدها.

فى ظرف أسبوعين حصرت الجبناء من بين أصدقائنا. أولئك الذين يأتون لزيارتى، يكلموننى فى التليفون ويقترحون مساعدتهم، يعدون بالاتصال ثانية ثم يختفون. عندما أتنزه مع ماهى وإنجى أو مع صديقتى الوفية توبسى أتجنب النظر إليهم حتى لا أجرحهم. أتعلم أن أكافح بمفردى، وأن أكتشف هذا العالم الخارجى فى ما وراء جدران السجون. عالم يعج بالنساء والرجال الذين ينتظرون مثلى. رنين التليفون يجعلنا نلتفت نحو الرجل الجالس على المكتب. إنه يتكلم بصوت منخفض ولا نستطيع سماع شىء من مقاعدنا. يبتسم ثم ينظر إلينا. نتصلب فى أماكننا، دقات القلوب تتسارع. وضع السماعة وصرخ: "جيبارى أفلاطون؟.. تعالى". أساء نطق اسمى. لقد تعودت على هذا. أنتفض مثل الزنبرك: "اصعدى!" وأشار بإصبعه إلى سلم على بعد أمتار من مكتبه متحدثا إلى رجل أمن "اتبعيه!". أندهش لموافقتهم على مقابلتى بهذه السرعة وأحاول أن أخفى توترى وخوفى. ألمح من خلال الدرابزين أثناء صعودى رفقائى الذين ينظرون إلى باستياء وحسد. فى الطابق الأول يقودنى رجل الأمن داخل رواق طويل ثم يقف ويدق على باب ويدخلنى. غرفة صغيرة، فيها مكتبان وبضعة كراسٍ وخزانة. نور النافذة يقع على آلة كاتبة يدق عليها شرطى شاب. رفع رأسه ويرد السلام بفتور ثم عاد لعمله قبل أن يشير إلى بالجلوس على كرسى قرب المكتب الشاغر. الباب ينفتح على شرطى آخر: "آه مدام أفلاطون صباح الخير!". مد يده فصافحته ببرود. إنجى قالت لى: "إذا استقبلك مصيلحى، كونى حذرة..إنه رجل خطير، فى غاية الدهاء وسيحاول إيقاعك فى الفخ..". ووصفت لى شكله. من المؤكد أنه هو. "دقيقة وأتفرغ لك. ماذا تشربين؟ قهوة أو شايًا أو حاجة ساقعة؟" نظرته مركزة على. "لازم تشربى حاجة". فأجبت وأنا فى غاية التعالى: "بالتأكيد إننى لن أشرب

شيئا فى ضيافة المباحث". فراح يقرأ ملفا. أنا متأكد أنه يتعمد نرفزتى. أفتح شنطتى بهدوء أسحب سيجارة من العلبة وأشعلها بولاعتى. يرفع للحظة رأسه. لا، يداى لا ترتعشان. حتى لو كانت أعصابى مشدودة ودقات قلبى تتسارع لا يمكن لأحد أن يلاحظ ذلك لا هذا الوغد ولا غيره... ها هو يقوم ويخرج من الغرفة. طول مصيلحى نحو ١٧٢سم، لونه يميل للرمادى وتكشف شفتاه الغليظتان عن أسنان سوداء بفعل النيكوتين. على خده الأيسر يقبع ثؤلول كبير. أشعل سيجارة أخرى. هذا الانتظار الذى يفرضه على يدخل فى إطار أسلوبه فى العمل. ها أنا مرة أخرى فى فيلم بوليسى. كل ثانية أقضيها فى هذه الغرفة تبدو لى غير واقعية. ها هو يعود بعد نصف ساعة، جلس وهو يتنهد بعمق ثم ضم ذراعيه على المكتب: "إذن مدام جوبارى.. بماذا أساعدك؟... خسارة أن تضطر بنت باشا إلى المجىء إلى هنا... وخسارة أن يكون رجل لامع وذكى مثل زوجك، أحد ألمع الاقتصاديين فى البلد، شيوعيا...".

قاطعته فجأة " هل الدكتور إسماعيل هو الذى قال لكم هذا؟... لا أظن"..

"بالطبع إنه لم يقل ذلك لكننا نعلم". أرد عليه بحدة "مصيلحى بيه، لست أدرى ما تعرفونه، لكننى هنا لأقول لك إن زوجى ذهب دون أن يأخذ معه ملابس وأدوات حلاقة. لا أعرف أين هو ولم تردنى أية أخبار عنه. ألا ترى أن هذا غريب بعض الشىء. أريد أن أرسل له الملابس والأدوية وبعض المال.."..

"الحمد لله! هو بخير. لا تقلقى. عودى بعد أيام" اليأس يستبد بى "بعد أيام؟ لكن إلى متى ستحتجزونه؟ أين هو..؟".

"يومين أو ثلاثة... الوقت الكافى لاستجوابه... لا ينقصه شىء...".

"وسيارتنا؟ لقد بعثت لك عدة طلبات ومنها واحد يتعلق بسيارتنا..".

"المسألة مجرد إجراء، لا تقلقي ستتسلمين السيارة قريبا". وقال لي بنبرة منافقة عندما سألته متى على العودة "الأسبوع القادم في نفس اليوم"..

إنه يكذب قال لي يوما أو يومين والآن ها هو يقول الأسبوع القادم. ودعته دون أن أحتج، من الأفضل ألا أقول شيئا. يمارس معي لعبة القط والفأر. لعبة في منتهى القسوة. الشرطي الذي قادني إلى صومعة مصيلحي ينتظرني خلف الباب. رافقني إلى الأسفل. أنا محاطة برعايتهم. هل يخشون أن أفتش بنايتهم؟ استقبل ظهوري أسفل السلم بنظرات متسائلة ممزوجة بالأمل. سألتني المرأة السمراء الجميلة عندما مررت بجانبها "ماذا فعلت؟".

اقتربت مني شابة قائلة: "هل سمحوا لك بالزيارة؟".. أهز رأسي مهمومة. أرتمي في أحضان شارع قصر العيني بنوع من الارتياح بل والمتعة. تصحبني أصوات الكلاكسات والمحركات والناس. أسرع باتجاه ميدان الإسماعيلية. أين إسماعيل حبيبي؟... وصلت إلى حمدي أخبار في السجن تقول إنه ربما يكون في السجن العسكري. البوليس السياسي متأكد أنه سكرتير الحزب!. إنجي وأنا نعلم جيدا أن هذا غير صحيح لأننا نعرف هوية من يوقع مقالاته باسم خالد... لكن لماذا السجن العسكري؟. لقد أكد عز أن البوليس لم يجد شيئا في بيتنا. بمن التقى عز؟ قضاة في النيابة؟ فايز لطفي شقيق صديقتنا شريفة الذي يعرف جيدا مدير المباحث يدعي أن موقف إسماعيل جيد. لا يوجد ضده شيء. وأوصاني بالصبر!

اتجهت إلى مشغل أمي وكلي أمل أن يكون صديق ماري قد أعطاها أخبارا. جلست وطلبت من عبدو قهوة. "الآنسة ماري لن تتأخر".. ماري في الثلاثين تقريبا. يهودية سمراء خفيفة الظل ومغرمة بشاب مغرور ينتمي شقيقه أمين شاكر إلى الضباط الأحرار. أكد لها صديقها هذا أنه سيتحرى عن أمر إسماعيل. "صباح الخير يا مدام بولي" قالت ماري بابتسامة عريضة كشفت عن أسنانها البيضاء. الاثنتان العلويتان متباعدتان: "كنت سأكلمك. قال لي عظيم إن أخبارا ستردِه يوم السبت أو الأحد..".

تكلمنى مارى بفرنسية ذات لكنة شامية تتخللها كلمات عربية. الانتظار مرة أخرى.! أشكرها وأستأذن مهمومة.

يوم ٣٠ يونيه أخبرتنى إنجى، بعد عودتها من القناطر، أن إسماعيل تم تعذيبه! لم تقل لى كل شىء. لقد حرقوا جسده بالسجائر..لإجباره على الاعتراف بكونه سكرتير الحزب! إن لم يكن هو فمن إذن؟ إسماعيل لم ينبس بكلمة لم يعترف بشىء... وإلا كنا علمنا ذلك باعتقال فؤاد. شجاعته وبأسه مثار للإعجاب. لكن كيف عرف حمدى كل هذا. بـ "التليفون العربى"[٤] قالت لى أختى. نسج خيالى صورا مريعة مستوحاة من الروايات العديدة التى قرأتها عن النازية. لا أدون فى يومياتى كل ما يصلنى من أخبار مجزئة... أجمعها قطعة وراء قطعة. ثم أعيد ترتيبها مع إنجى كلما عادت من القناطر. نشرت الجريدة السرية للحزب مقالا طويلا عن اقتصاد البلد. وكانت قيادة المباحث مقتنعة أن صاحب المقال الدقيق فى معلوماته وفى توثيقه لا يمكن أن يكون كاتبه سوى رجل اقتصاد متخرج من فرنسا. واستنتج المسؤولون عن قطاع محاربة الشيوعية أن إسماعيل كان يختفى وراء الاسم المستعار خالد، خاصة أنهم علموا بتعيينه مستشاراً اقتصاديا لعبد الناصر! إذن سمعة حسن مصيلحى كانت على المحك. لم يلحظ أى من مخبريه أن الدكتور إسماعيل كان على مدى ثلاثة شهور يذهب مرتين فى الأسبوع على متن سيارته الفيات السوداء إلى مقر رئاسة المجلس! لم يكن أحد يعلم. إن لم يكن إسماعيل صبرى عبد الله سكرتير الحزب الشيوعى المصرى فمن إذن[٥]؟ السجن العسكرى كما يدل عليه اسمه يتبع الجيش. ضباط وعساكر يفرضون نظاما صارما وقاسيا. والتعذيب إجراء عادى. لكن فيما عدا الإخوان المسلمين الذين اعتقلوا العام

---

(٤) عبارة فرنسية للتعبير عن تناقل الأخبار بالسمع. (المترجم).

(٥) فجر اعتقال إسماعيل غضب عبد الناصر، وطالب زكريا محيى الدين وزير الداخلية بتفسير ما جرى "لو لم تكن ورجالك عديمي الكفاءة لكنتم علمتم أن إسماعيل يعمل معي منذ ثلاثة شهور، وأنني قد عينته مؤخرا مستشاري الاقتصادي. أريد أدلة".

الماضى السجن لا يستقبل مدنيين. الرسائل السرية لا تخترق جدرانه. وحده "التليفون العربى" يتحدى الممنوع فى هذا السجن كما فى غيره! أخبار السجناء المدنيين والسياسيين فى كل سجون البلاد تتناقل شفاهيا وتعبر كيلو مترات عديدة وتخترق كل الجدران مهما كان سُمْكها. فى باحة السجن العسكرى يقوم بسيونى مديره السادى ومصيلحى بِكَىّ إسماعيل فى فخديه ورجليه وبجلد ظهره واقتلاع أظافره... على مدار ثلاثة أيام. إسماعيل لم ينبس بكلمة. ونقل وهو على حافة الموت، حيث أودع فى سرية تامة. (لم أعرف كل هذا إلا بعد ذلك بكثير).

كتبت لى أختى عدة طلبات، منها طلب توكيل بتوقيع إسماعيل يمكننى من استلام مرتبه. ومر الأسبوع ساحبا معه حملا من الأخبار السيئة. توجهت إلى المباحث وفى يدى الطلب الثمين. نفس الديكور ونفس رجال الأمن وحشود الناس التى تنتظر. الرجل الجالس على المكتب مختلف. بدين وقصير، عيناه عبارة عن نقطتين، وضع كوعيه على الطاولة وراح يتصفح الجريدة. قلت له "صباح الخير"، وأنا أعلم أنه لن يرد على ثم واصلت: "طلب منى مصيلحى بيه أن آتى لزيارته اليوم". قدمت نفسى فنظر إلى متصفحا ثم رفع يده قائلا: "اجلسى. مصيلحى بيه لم يصل بعد" هل ينتظرنى؟ هل سيستجيب لطلباتى؟ تحرك فى أعماقى بصيص أمل. جلست.

لا أصدق نفسى هل سيستقبلنى فعلا؟ هل سيخبرنى أن إسماعيل فى السجن العسكرى؟ الشيوعى الوحيد الذى أودع هناك. الصور المريعة التى نشرتها المجلة الفرنسية لوبسرفاتور تستبد بى. اثنان من قيادات الإخوان فى حالة إعياء شديدة من وطأة التعذيب يحملهما عساكر إلى المشنقة.

رجلان وخمس نساء ينتظرون هذا الصباح. "لديك زيارة؟... بس.. بس" أخرجنى سؤال المرأة التى تحاول إسكات ابنها من شريط الصور السوداوية. انحنت نحو الطفل وأخرجت ثديها الممتلئ. فأخذه بين يديه ليرضع بشراهة.

"حصلت على زيارة يوم الخميس إن شاء الله... سيسلموننى الترخيص بعد حين..". ابتسمنا ابتسامة من هم على نفس المركب. "أمومة جميلة" هكذا كان سيعلق إسماعيل على هذه المرأة.

"هل سمحوا لك بإرسال الأكل؟". "هل هو زوجك؟ أم أخوك؟". "أين هو؟ فى سجن القناطر؟ القلعة؟ أم سجن القاهرة؟".

"الله أكبر قادر على كل شىء!". إنه الرجل ذاته صاحب الشعر الأكرت الساطع البياض الذى لا يتكلم أبدا. يرتدى بدلة متواضعة ومتآكلة عند الأكمام. طربوشه على حجره وأصابعه تتحرك على سبحة ذات فصوص خضراء بينما تردد شفتاه الأدعية. هذه ثالث مرة أراه فيها هنا. رنين التليفون يجمد أعضاءنا. الكل يستدير نحو رجل الأمن ويحاول دون جدوى سماع ما يقوله. وجهه المستدير ذو الجفون المنتفخة يبتسم: "نعم، نعم" يقع نظره الثقيل على. وتضع يده ذات الأصابع القصيرة والمغطاة بالشعر الأسود السماعة: "جلبيرى أفلاطون!". ثم أشار برأسه إلى السلم. دخلت مكتب السيد مصيلحى مع مرافقى. أرمى التحية دون أن أمد يدى. يبدو غارقا فى القراءة لدرجة أنه بالكاد يرد على. أجلس، أشعل سيجارة وأنتظر. "لدى أخبار سارة، زوجك فى السجن العسكرى وهو بخير". أتقمص دور المتفاجئة. "فى السجن العسكرى؟ لماذا؟ إسماعيل ليس ضابطا بل أستاذًا..." فراح يتفحصنى ثم قال: "إنه أستاذ.. رجل رائع! لهذا السبب أودعناه هناك.لا تودين طبعا أن يختلط الدكتور إسماعيل بالعامة.. بأناس من طبقة أخرى.." ما هذا الهراء؟! أوقفه محاولة التحكم فى أعصابى "ماذا تقول؟ حمدى أبو العلا والعديد من أساتذة الجامعة معتقلون فى سجن القناطر! ما هذا الكلام؟..." توقفت عند هذا الحد ولم أطلب منه تحويل إسماعيل إلى سجن القناطر. ذكرته فقط بالطلبات التى تقدمت بها، استمع إلى وهو يحدق فى ثم نهض فجأة. "سأعود حالا.." وخرج. وجدت نفسى لوحدى برفقة العون الذى لا يكف عن الدق على الآلة الكاتبة. أهرب بنظرى فى أرجاء القاعة ثم أشعل سيجارة أخرى. أنا متأكدة أن اختفاء

مصيلحى مجرد لعبة لإثارة أعصابى. وقعت عيناى على ورقة بيضاء عليها كتابة بخط رفيع بالحروف اللاتينية وسط أكوام الدفاتر على المكتب وبجانبها ظرف عليه طابع فرنسي. الدقائق تتسارع والدق على الآلة الكاتبة يستمر. أعود ثانية إلى الورقة: "عزيزتى إنجى..". استبد بى الرعب وحاولت مقاومته. أشعر أن المعاون يراقبنى. أشعل سيجارة أخرى، أسحب منها نفسا عميقا وأتظاهر باللامبالاة، أنظر إلى ساعتى وأسترق النظر إلى التوقيع. بيير دو بيتمان!.. يا إلهى! ماذا كتب لها. هذا الغبى كان يغازل إنجى باستماتة! إنه محرر فى يومية فرانس سوار. وقد دعته إلى البيت لإطلاعه على أحوال البلد السياسية وعلى وضع المعتقلين. وصدت محاولاته. لا أستطيع قراءة النص من هذه المسافة دون أن أجلب نظر المعاون الجالس هناك. وماذا يفعل الوغد الآخر كل هذا الوقت؟ لقد اختفى منذ ربع ساعة!... "نعم سيدتى تحت أمرك" دخل مبتسما وجلس وهو يشير إلى الرسالة: "هل رأيت؟ رسالة لمدام إنجى من باريس". أشعل سيجارة وأنا أرمقه باستياء: "كيف لى أن أراها؟ لم أتعود على التفتيش فى أوراق غيرى. هل تقرأ رسائل لم توجه إليك؟... لقد طلبت منك كيف...". أخذ الرسالة: "أختك تتلقى..." أبتسم بصعوبة قائلة: "من فضلك يا مصيلحى بيه لست هنا للتحدث عن أختى. الأمر يتعلق بزوجى الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله. لقد طلبت منك تصريحا بالزيارة... ولقد كتبت لك عدة عرائض".

"نعم، نعم، قرأتها اطمئنى، يمكنك فى البداية استلام السيارة.. أما فيما يتعلق بباقى الطلبات فاصبرى قليلا. عودى إلى بعد أسبوع". أيقظت فِىّ ابتسامته رغبة عارمة فى صفعه. لماذا استقبلنى؟ ليجرنى إلى الكلام عن الرسالة؟. لم أحصل على شىء. الانتظار والصبر. نزلت السلم وأنا أحبس دموعى، يرافقنى أحد رجال المكان وتوجهت إلى الباب. أود تجنب نظراتهم المتسائلة والحائرة. لكن على أن أعبر القاعة إلى الناحية الثانية حيث يوجد الباب. لا مفر، على أن أمر أمامهم. عددهم تزايد. جرت نحوى الشابة والدة الرضيع: "ماذا قالوا لك؟ سمحوا لك بالزيارة؟ لا. لماذا؟".

"لماذا طلبوك فوق؟" السؤال حمله صوت حاد. "لماذا أنت وليس نحن؟". يعتقدن أننى أحظى بمعاملة خاصة! وقفت أمام الباب واستدرت قائلة: "زوجى فى السجن العسكرى، ورفضوا لى كل شىء، الزيارة، إرسال ثياب.. كل شىء، مع السلامة". أثار كلامى التعاطف. "السجن العسكرى! هل هذا ممكن؟ المسكين! الله كبير! الله معها!". هربت من هذا المكان المشؤوم وألقيت بنفسى فى الشارع الكبير وضجيجه متوجهة نحو الأتيليه.

أجز على أسنانى، هم محقون فى السؤال! لماذا استقبلنى؟ لإهانتى أم للتلاعب بى؟ لم تكن له أية نية فى الموافقة على طلباتى، ليحدثنى عن إنجى، عن حمدى؟ وهذا الغبى بيتمان!... وكيف يجرؤ على القول إنه من الأفضل لإسماعيل أن يكون فى السجن العسكرى! وكأننى لا أعرف شيئا عن سمعة هذا المكان!... من المفروض أن تبلغنى مارى بنتائج مساعى صديقها.

"صباح الخير يا مدام بولى!" قالت مارى وهى تعبر الرواق محملة بلفة قماش أحمر. "لدى أخبار لك".. ظهرت ماما من وراء الستارة: "كيف حالك يا حبيبتى؟... هل حصلت على شىء...لا؟". تنهدت واختفت.

جلست مارى قربى وقالت بصوت خافت. "عظيم يطلب منك تجهيز بعض الأغراض، ملابس داخلية، منديلين، معجون وفرشة أسنان، صابونة، وفوطة... ولا تضيفى شيئا آخر خاصة أمواس الحلاقة. وأحضرى هذه الأشياء هنا، ربما سيأخذها معه هذا المساء عندما يأتى لاصطحابى.

"ويرجوك عظيم ألا تكلمى أحدا عن هذا الموضوع، فهذا قد يسبب له المشاكل". أخيرا سأرسل طردا لإسماعيل وسيعرف أننى لم أنسه... أقبل مارى وعيناى غارقتان فى دموع الفرحة، أحتسى آخر رشفة من قهوتى وأعود إلى البيت. أجمع الأغراض بسرعة، أضعها بجوار الحقيبة التى وضعت فيها كل ما يحتاجه إسماعيل والتى تنتظر منذ أسبوعين موافقة وقبول المباحث. ودون انتظار أسرع عائدة إلى الأتيليه لأسلم الطرد لمارى.

حالة من المرح تخيم علينا أنا وإنجي اليوم على الغداء. طبعا أختى مستاءة من بيتمان: "هذا الغبى لا يعرف أن رسائلنا مراقبة كيف يمكن إخباره؟". "اطلبى من ماما أن تكلمه عندما تصل إلى باريس". "فكرة جيدة... إذن سيحاول صديق مارى إيصال الطرد لإسماعيل؟ ليته ينجح فى ذلك! وشقيق زوجك؟ ألم يتحرك؟... غريب ألا يتصل أبدا للاطمئنان عليك...". "أنوى زيارته اليوم ظهرا، علَّنى أستطيع إقناعه".

استقبلنى عز الدين فى مكتبه. قدمت لى زوجته عصير ليمون مثلجًا وجلست أمامى تستمع إلى زوجها . هو يعاتبنى وهى تهز رأسها موافقة. لامنى على كل ما أقوم به من إجراءات، معلنا أنه يستحيل عليه الذهاب إلى المباحث: "ماذا يمكنك أن تطلبى من هؤلاء؟ عيب. هذا لعب أطفال! امكثى فى بيتك وانتظرى أن يتصلوا بك...". اعترضت محاولة التحكم فى غضبى وفى نبرة صوتى: "مستحيل! كيف يمكنك قول هذا؟ أنت تعلم جيدا أنه ذهب دون أن يأخذ شيئا معه. وأن حمدى معتقل فى سجن القناطر منذ شهر نوفمبر مع المعتقلين السياسيين الآخرين. وقد سمحوا لهم برؤية ذويهم وتسلم الأدوية والأكل والسجائر والمال بفضل مساعى عائلاتهم. كيف تقول لعب أطفال بينما لم تصلنا أية أنباء عن إسماعيل ولا نعرف حتى إن كان ينام على سرير أم على الأرض!". ولَّى بنظره عندما أخبرته أن أخاه قد عذب لكنه أسرع بالقول: "ما كان له أن يتورط فى السياسة. كان عليه أن يلزم مكانه ويهدأ. أنا لا أنام الليل. إسماعيل فى مثابة ابنى. ما علينا سوى الانتظار...". أن ننتظر ماذا؟ أن تلتئم جروح جسده؟ أنت لا تنام وما همى أنا؟ وهل تظننى أنام؟.

لم أستطع تفهم موقفه السلبى وقررت عدم زيارته إلا نادرا. كنت أراه عند ثريا وكامل حيث يأتى لزيارة والدته. لا أشك فى حب ثريا وعز الدين لأخيهما الأصغر، لكنى اقتنعت أن لكل منا طريقته فى الحب وفى التعبير عنه. ولم أحاكمهما. وفهمت لماذا لا يكلمنى عز الدين عند ماما عندما قال لى كونى حذرة عندما تتحدثين فى التليفون، من المؤكد أن خطكم مراقب.

إنجى أيضا زوجة معتقل. أصبحنا اثنتين وهذا فوق احتماله.

"حَذَارِ يا بولى" قالت لى أمى يوما وأنا عائدة غاضبة من عند عز الدين. "لا تقفى بين عز الدين وإسماعيل، ولا تتسببى فى فتور علاقتهما. سيلومك زوجك على ذلك يوما".

سلموا لى مفاتيح السيارة بسلسلتها التى أهديتها لإسماعيل فى عيد ميلاده. صاحبنى سائق على بيه الذى لم يجد بعد عملا. وبعد أن فتش السيارة مليا قادنى بها إلى جراج شارع معروف حيث تركتها. واتفقت مع السائق كما نصحتنى ماما وإنجى ليعطينى دروس قيادة.

كم من الوقت دامت الدروس؟ ربما أسبوع. كان إسماعيل يحثنى على القيادة. لكن يتملكنى الخوف كلما شرعت فى القيادة وزاد هذه الأيام عندما تعطلت السيارة أمام إشارة مرور وتوجب دفعها. فأغلقت ملف القيادة لأننى متوترة للغاية فى هذه الفترة. وقلت لنفسى سأتعلم فيما بعد. عندما أرى "إسما" ثانية... كنت أكذب على نفسى. ولم أتعلم القيادة قط. خوفى من القيادة كان يهيننى لأننى لم أحتمل يوما الاعتماد على أحد. وظللت مضطرة للاتكال طول حياتى على أصدقائى وعلى سيارات الأجرة وأخيرا على سائق.

نخرج أنا وإنجى كل مساء بدعوة من أصدقاء حقيقيين لا يخافون الاختلاط بنا للعشاء أو لمشاهدة فيلم فى السينما. كانوا يحيطوننا برعايتهم. "أنت رائعة يا بولى،

شجاعتك...". أوقف هذه الجمل محرجة. أعلم أننى لست بطلة. ثم ما معنى الشجاعة؟ أن نخفى خوفنا بدافع الكرامة! البقاء مرفوعة الرأس مثل أمى. شجاعة مثلها. لم تتفوه بكلمة حول إسماعيل أو حمدى. هل تعلم الكثير عن نشاطهم السياسى؟ ربما. هى تعلم الكثير عن نشاط ابنتها الصغرى. ولتجاوز هذه المحنة وضعت غمامة على عينيها وعاشت فى دور من هى مقتنعة ببراعتهم.

لا أحد يعرف فيما عدا بعض الرفقاء أن إسماعيل ليس السكرتير العام للحزب بل الدكتور فؤاد مرسى.

لم أعلم إلا مؤخرا بعض الأمور الخاصة بحياة زوجى السياسية ومواقفه.

"إسماعيل المنفضة" قال حمدى من وراء القضبان عندما ذهبت لزيارته مع إنجى. الزيارة لا تدوم سوى بضع دقائق. ولاحظت أن أختى عبست استياء لدى سماعها ما قاله. وواصل حمدى "زوجك بطل يا بولى!..." إذا تمكنت من رؤيته بلغيه سلامى وسلام كل الرفقاء هنا". ثم حيانى المعتقلون الثلاثة الذين كانوا يستقبلون أهلهم فى نفس الوقت، بمنتهى الاحترام. "تشجعى! زوجك بطل...". ثم توقفت عائلات المعتقلين لمصافحتى "أنت زوجة الدكتور إسماعيل؟ تشجعى!". الفخر بزوجى جعلنى أفقد الإحساس بالجاذبية. ونسيت لبرهة زمن كوابيس الزنازين الغارقة فى المياه العكرة وجسد إسماعيل المتصلب وسط الجرذان والصراصير. كوابيس من وحى قراءاتى... محاكم التفتيش، القرون الوسطى وروايات المقاومة. تظل تلازمنى حتى أتمكن من إبعادها عنى لأستسلم للنوم فى وقت متأخر. أحيانا أخرى أقنع نفسى أنهم توقفوا عن تعذيبه وينتظرون أن تلتئم جروحه قبل ترحيله. لم أعد أحلم بإطلاق سراحه. ولأهرب من كل هذا أفكر فى طوابير عائلات المعتقلين ليحتلوا فى تفكيرى مقدمة المشهد. شيوخ على المعاش، وأمهات، وأرامل، وزوجات تحملن أطفالهن، وخطيبات وأشقاء. كلهم فى غاية الفقر. يوفرون من قوتهم ليرسلوا الأكل والدواء والكتب لمن هم فى مرحلة الدراسة. كم منهم كانوا يعيشون على مرتبات من هم وراء القضبان؟

وها هم يتخبطون مثل الخفافيش التى راعها النور بمزيج من الغضب والاستكانة. أنا أعلم لماذا سجن إسماعيل، وأعرف الطريق الذى سلكه والنضال الذى يقوده. أشاركه إياه على الهامش عن قناعة، وأنا أقول لنفسى ليس فى موقفك بطولة لأنك اخترت هذا الطريق أما هم فلا.

"لماذا كل هذا العذاب؟" قالت امرأة فى ملايتها السوداء. "هل يظن أنه سيغير العالم؟ نسى أمه ووالده المريض؟ نسانى أنا وزوجته وابنته. فرحته كانت كبيرة يوم وُلدت. إنها أول فرحتنا وهو يعبدها عبادة. لكنه استمر فى مقابلة هؤلاء الناس وفى استقبالهم فى البيت. والنتيجة هى السجن. نسى أن وراءه عائلة...".

استمعت وأنا أتخيل حياة هذه المرأة وغيرها فى بيوتهن المتواضعة. يحسبن قروشهن ويجتررن أحزانهن. الرجال يشتغلون والشباب يدرسون لكن النساء؟ قليل من بين من التقيت لهن مهنة. ماذا ستفعل هذه الأغلبية المسكينة؟ البيت، والتنظيف، والغسيل، وترقيع الثياب الرثة؟ كل هذا لا يكفى للملمة جروحهن.

هرب أصدقاؤنا الواحد تلو الآخر من حرارة القاهرة. أقنعتنا أمنا بالذهاب إلى باريس لرؤية تاتى والاتفاق على تشكيلة الشتاء. وهى فى المطار أوصتنا بتجنب المشاكل وارتسمت على وجهها ابتسامتها الرائعة ثم أضافت فى عجالة: "ولا تنسوا إن جاءتكم أخبار سارة أن تبعثوا ببرقية...". ثم استدارت بسرعة لتدارى ما قد يبدو عليها من انفعال والتحقت مسرعة بجموع المسافرين. أما نحن فخيم علينا الحزن ورحنا نحاول تتبع جسدها النحيف وسط الناس. واستدرنا نحن أيضا. فى طريق العودة بدت لنا من بعيد مدينتنا الجميلة تحت شمس حارقة.

لا أصدق ما أراه. يد الشرطى المغطاة بالشعر وأطرافها المنتهية بأظافر وسخة تمسك بورقة كبيرة عليها دمغة: "التوكيل؟ ها هو...". ثم دفع السجل الكبير نحوى مشيرا بسبابته السوداء إلى المربع، حيث على أن أوقع. فجأة ملأت الدموع عينىّ. إسماعيل حى! وجد القوة ليوقع، ليكتب اسمى ولقبى. يا إلهى شكرا!

" هيا وقعى!... عندك قلم؟". هذه الورقة موقعة من إسماعيل. يا حبيبى! إنك تمسك بيدى من خلف الجدران... وها أنا أمشى بخفة بعد أن استعدت ثقتى. من المؤكد أن طلبى قد طمأنه. أنا سعيدة. لدرجة أننى نسيت أن هذا التوكيل كان مجرد وسيلة لرؤية إسماعيل. كان يفترض أن يكون أمامى بحضور ممثلين عن الشهر العقارى.

"آسف يا مدام هناك خطأ فى التاريخ... زوجك أخطأ..." قال لى موظف البنك. ماذا حدث؟ إسماعيل لا ينسى أبدا التواريخ. أرقام التليفون، العناوين. ذاكرته مذهلة. ربما كان متعبا يومها. قررت ألا أتوتر وأن أبقى هادئة. أعدت الكرة ثانية! وحصلت على التوكيل الثانى بنفس طريقة الأول.

لكن هذه المرة رسم موظف البنك على وجهه ابتسامة عريضة وأدخلنى مكتب المدير الذى نهض وصافحنى قائلا: "شرف لى أن أتعرف عليك". اندهشت لهذا الاستقبال وارتبكت. منذ أن بدأت الاحتكاك بالبوليس نسيت هذا النوع من التعامل. طلب لى عصير ليمون "بعرف كويس حسن بيه العميد وصالحة هانم طبعا. امرأة

عظيمة. كيف حال سيادة العميد الدكتور عز الدين؟ كان أستاذى...". سلمنى الموظف مبلغ المال فنهضت وشكرته. "العفو يا مدام تحت أمرك لو احتجت لأى حاجة".

قررت زيارة عز رغم الوعد الذى قطعته على نفسى. رويت حكاية التوكيل وأنا أتعمد السذاجة. أعلم أننى أستفزه، لكنى أبتسم فى داخلى وأنا أرى وجهه يزداد احمرارا من الغضب. فصرخ بصوت حاد: "كيف لم تخبرينى؟ لماذا ذهبت للبنك؟...هذا غير لائق... نحن لسنا بحاجة إلى المال...". أوقفته بهدوء "من معرفتى بأخيك أنا متأكدة أنه سيشعر بالاطمئنان لحصولى على مرتبه... هناك إيجار الشقة، والبوابين، مختار والجراج... أنت تعلم أن إسماعيل هو الذى يتكفل بكل هذا... يجب أيضا أن تفهم يا عز أن توقيع إسماعيل يعنى أنه على قيد الحياة! من المفروض أن تكون سعيداً...". هدأ عز وردد للمرة الألف أنه لا ينام الليل ثم استرسل فى توجيه النصائح. وصف لى الحياة المثالية للأزواج حتى يتجنبوا المشاكل! فأجبته ضاحكة "بالفعل حياة مثالية! رائعة! من الأفضل للواحد أن ينتحر!.. من الواضح أنك لا تعرف أخاك جيدا... لا يمكن أن نعيش فى علبة بعيدا عن كل شىء..." توقفت فجأة لأننى كنت سأضيف مثلكم... ما الفائدة؟ عز كان يتذكر حتما أن إسماعيل اشترك وهو فى سن الثانية عشرة مع زملائه فى مظاهرة ضد الإنجليز. كان يعلن أن اسم أخيه مسجل على القائمة السوداء. وأنه ساعده فى الحصول على تأشيرة عندما اضطررنا للرحيل إلى أوروبا.

تتقدم بى الليالى بأحلامها المزعجة وذكرياتها المتلألئة. وتجرى الأيام بآمالها الصباحية التى ما تفتأ أن تذبل تحت وطأة شمس الصيف الخانقة، كوطأة ما أواجهه من رفض متكرر وإهانات متواصلة.

كتبت لإسماعيل رسالتين سلمتهما لمصيلحى. قرأهما دون حياء أمامى ووعد بالتسليم.

١١ أغسطس مساء. التقيت بعز عند ثريا. اعترف لى أخيرا وعلى استحياء بأنه التقى بالنائب العام. "قال لى إن إسماعيل لن ينقل من مكانه قبل نهاية التحقيق... وإن التحقيق سيدوم شهرين...".

مرت أربعة شهور محملة بالإحباطات والغضب والقلق تتخللها أحيانا آمال خاطفة. وسط كل هذا أستمر فى رحلة البحث أو بالأصح فى معركتى ضد جمود وعدم كفاءة أهل إسماعيل، ضد الأجوبة الغامضة ورفض البوليس السياسى، ضد بيروقراطية القضاة. لم تصلنى أية أخبار من إسماعيل ولا أعرف إن كان قد استلم رسائلى. كل ما أعلمه هو أنه سيمثل أمام المحكمة مع متهمين آخرين. وأتساءل لماذا لم يودع فى نفس السجن معهم؟

تتوالى زياراتى لمكاتب أمن الدولة. وفى كل مرة أتركها بخطى متسارعة كأنما أريد وضع مسافات بينى وبينها. وأرمى بنفسى باستمتاع رغم ثقل الإحباط والإهانة، وسط ضجيج الشوارع حيث تمتزج الكلاكسات بنداءات بائعى الجرائد وبأصوات وضحكات المارة. هذا الضجيج يحط من ثورتى ويبعث فى رويدا رويدا الهدوء. أمر أمام واجهات المحلات فى شارع سليمان باشا، عدلى، ثروت وقصر النيل دون اكتراث. وحدها واجهة مكتبة ليفر دى فرانس تستوقفنى.

فى أول مرة اشتريت منها كتاباً اقتربت منى إيفات قائلة "تخفيض ٢٠٪ لمدام".

ثم استدارت نحوى بلطف "عندما تمرين من هنا تعالى واشربى القهوة". إيفات فرازلى زميلة فصل فى مدرسة القلب المقدس. التقينا بعدها بسنين فى هذه المكتبة فقدمت لها إسماعيل وتبادلنا أطراف الحديث، ثم سجلنا اسمنا على قائمة الزبائن الذين ترسل لهم جرائد ومجلات، مثل لو موند، لوبسرفاتور ولى تو مودرن...

امرأة شابة، شامخة القامة، وجهها قليل الجمال، ذو ملامح ذكورية. مثقفة وظريفة. أختها الصغرى التى تعيش فى كندا من أقرب صديقات إنجى. لم أرها منذ

وقت طويل ومنذ علمت بما حصل أصبحت تستقبلنى بحفاوة زائدة. وأجد فى الأوقات التى أقضيها معها فى الحديث وشرب القهوة، ملاذا ممتعا آخر، يهدئ من غليان ثورتى عند اشتداده. أصدقاؤها يدخلون لإلقاء التحية يطالعون الكتب ويسترخون. صحفيون مصريون وفرنسيون، مثقفون وفنانون. أما أنا فأتساءل: كيف أن هذه المرأة التى تبدو لى يمينية تستقبلنى بهذه الحفاوة؟ تتحدث معى بطيبة وبحياء وخاصة دون خوف لأن كل المارة يمكنهم مشاهدتنا من وراء الزجاج. امرأة ذات قلب وذكاء كبيرين.

التقينا أنا وإنجى بفرنسيين يعيشون فى مصر ونشأت بيننا صداقة. جان وسيمون لا كوتير والمستعرب أندريه ريموند النزيل فى المعهد الفرنسى للآثار، حيث يحضر رسالة عن حرفيى وتجار القاهرة فى القرن التاسع عشر.

استقبلناهم على العشاء وحاولوا مساعدتنا بإرسال خطابات إلى رابطة حقوق الإنسان وإلى منظمات دولية بعثت بدورها خطابات احتجاج إلى عبد الناصر.

كما وعدنى أندريه أن يكلم لوى ماسينيو عن إسماعيل كى يتدخل لدى عبد الناصر.

-٧-

"لماذا لا تذهبين لرؤية لطفى الواكد؟" قالت ليليان وهى تتحدث معى فى سيارتها. "ماذا ستخسرين؟ جربى...". قصيرة القامة ونحيفة، يغطى رأسها شعر أسود مموج. عيناها لامعتان مثل الجوهرة ويشع منها الذكاء والمرح. ليليان الأرقش تسحر كل من يقترب منها، تجمعها علاقة بمحامٍ صغير اسمه لطفى الخولى يعمل لدى والدها وهو أحد كبار محامى القاهرة. لطفى صديق حمدى ويكتب مقالات فى مجلة روز اليوسف، زارنا ذات يوم بصحبة ليليان ليتعرف علينا ومن يومها لم ألتقِ بهم إلا بعد اعتقال إسماعيل. الاثنان ينتميان لليسار.

شرحت لى ليليان أن لطفى الواكد ينتمى لمجموعة الضباط الأحرار، وأنه الآن يرأس يومية الشعب. كان هذا يوم ١٧ أكتوبر.

"... وهو فى أعماق هذه البشاعة راح يبتسم..." هكذا ردد إسماعيل بصوت حاد ومتحمس شعر بول إيلوار فى ظلمة ليل شارع باريسى. متى سأستمع إليه ثانية؟. كم تبدو باريس نائية الآن. أنا فى القاهرة عاصمة مصر، أنتظر وأنا جالسة قرب المكتب إلى أن ينتهى الرجل من مكالمته التليفونية. الأكتاف عريضة، والشعر أسود وأجعد، العيون غائرة، والأنف مستقيم وكبير وبين الحاجبين خطان من التجاعيد يضفيان مزيدا من الجدية على الوجه الأبيض.

"تحت أمرك ماذا يمكننى القيام به من أجلك؟". اضطربت لهذا السؤال المفاجئ والمباشر وهذا الوجه الحاد.

"نعم... أنا جلبيرى أفلاطون... ولم تصلنى أخبار عن زوجى منذ أكثر من أربعة شهور، الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله...".

"أنت زوجة الدكتور إسماعيل؟...". استقام وردد "أنت يا سيدتى زوجة الدكتور إسماعيل؟..". جعلته الدهشة يبتسم فانمحت للحظة الحدة من وجهه.

أجبته إننى فعلا زوجته وإننى لا أعرف إن كان حيا أم ميتا و.... عَلِقَت عيناى بنظرته. نظرة مهتمة تتصفحنى. اختفت الابتسامة بينما واصلت سردى بصوت مختنق. فجأة رفع يده قائلا: "وتريدين رؤية زوجك؟...". زاد اضطرابى وهمست: "نعم...". لم أفهم معنى سؤاله، مسحت يدى بمنديل وشعرت بالحر.

أما هو فأمسك بسماعة التليفون: "ألو إدينى...". لم أسمع جيدا اسم الشخص. "ألو... بخير الحمد لله... وأنت؟... اسمع...". خفض صوته. لو كنت أجيد العربية أكثر لكنت فهمت. أنا مستاءة. ".. عندى هنا..." أحاول عدم النظر إليه. "متى تريدين رؤية زوجك؟..". هل سمعت جيدا؟ أستطيع بالكاد السيطرة على نفسى. فكرر سؤاله. فأجبته بسرعة، وكأننى أمسكت فجأة بطوق نجاة وسط محيط من التيه. "فى أقرب فرصة ممكنة...". هل أنا أحلم؟ أسمعه يضحك مع الرجل الذى على الخط. "هل يناسبك هذا الصباح؟". أوافق. لا يجب أن أضيع ثانية يمكنه تغيير وقته. "متى؟" "الحادية عشرة جيد؟..ما هو اسمك؟..". يرفع حاجبيه ويكرر اسمى فى التليفون، ثم وضع السماعة وابتسم. لاحظ دموعى لكنه سرعان ما استعاد ملامحه الحادة. "فى تمام الحادية عشرة كونى أمام البوابة رقم ٧ فى وزارة الداخلية. أعطيهم اسمك فقط... وأرجوك ألا تكلمى أحداً عن هذه الزيارة. عدينى لا أحد...". وقف ليصافحنى "مع السلامة. الله معاك!". خرجت من المكتب مسرعة وأوقفت تاكسى أعطيت عنوانى للسائق المال الذى معى لا يكفى. طلبت منه إن كان يستطيع انتظارى ليقودنى بعد ذلك إلى العباسية. وافق. أخذت كل النقود التى بحوزتى صففت شعرى بسرعة وضعت بعض الماكياج ونزلت بينما الخادمة تنظر إلى مرتاعة.

طلبت من السائق أن يتوقف عند جروبى. اشتريت كيلو شكولاتة ودستتين باتيه "نعم مدموازيل، جبنة ولحمة بسرعة من فضلك أنا مستعجلة!" عبرت الشارع مهرولة نحو فتحى بائع السجائر واشتريت خرطوشتين جيتان(٦). ثم بسرعة إلى التاكسى الذى بدا على سائقه الدهشة. "إلى العباسية الآن؟ أين بالضبط؟" "أقصر طريق لو سمحت إلى السجن العسكرى. تعرفه؟"

الساعة العاشرة وخمس وأربعون دقيقة. أظن أننى لن أتأخر. أشعل سيجارة وأحاول الاسترخاء. التقت عيناى فى مرآة السيارة بنظرة السائق المتسائلة "نعم أعرف السجن العسكرى. عندك أحد هناك؟" "نعم زوجى...". "يقولون إنه صعب.. الله معك... ربنا كبير...".

الوقت يأزف والخوف احتل مكان الحماس الذى كان يحملنى. هذه المرة يدى ترتعش وأنا أشعل السيجارة الثانية.

أهدى واحدة للسائق. ماذا لو لم يعلم الجنود بقدومى. ربما نسى الشخص الذى تكلم مع واكد أن يعطى الأوامر. يا ربى إن كنت موجودا فمكنى من رؤية إسماعيل... هذا أمر مثير هل يعقل أن سلطة الواكد أقوى من سلطة مدير المباحث؟

بضع كلمات سحرية ستمكننى من رؤية إسماعيل؟ تعرفت على المكان. سألنى السائق: "قلت الباب رقم ٧؟...". هدأ من سرعته. يداى مبللتان بعرق بارد. ليس فى حوزتى تصريح. كيف سيتذكر الجندى اسمى الغريب؟... لا زال أمامى عشر دقائق وأطلب من السائق التريث. لا أريد الوصول قبل الموعد. "أيوه يا مدام لكن لا أستطيع

(٦) نوع سجائر فرنسية.

الانتظار أمام البوابة... يمكن أن يسمحو لنا بالدخول...". محال. جنود عدة يحرسون البوابة ٧ ويشيرون إلى السيارة بالابتعاد. دفعت الأجرة وجمعت أغراضى ونزلت.

"شكرا يا مدام ربنا معاك...".

تقدم أحد الجنود بينما كنت أقترب من البوابة الحديدية فأعطيته اسمى. "تعالى معى... ماذا معك؟...". عبرت البوابة. الأمر لا يصدق! شعرت أننى سأفقد توازنى، طنين مزعج يملأ أذنىّ وقلبى يخفق بسرعة.

"هذه أغراض لزوجى...". كنت أحاول مجاراة الجندى فى مشيه بخطى كبيرة. الرمل يصر تحت أقدامنا. حولنا مبانٍ هنا وهناك وجنود فى ذهاب وإياب ينظرون إلىّ باستغراب. كيف تبقى هذه الزيارة سرية مع كل هؤلاء الجنود. توقف مرشدى أمام مبنى أصفر اللـون من طابقين.

"هنا...". تحف جانبى السلالم التى تؤدى إلى الباب أصص من الصبار. جندى آخر وراء الباب تفحصنى قبل أن يسمح لى بالدخول، واختفى الأول.

"تعالى... انتظرى هنا...". أدخلنى إلى قاعة واسعة مستطيلة الشكل. اندهشت رغم تأثرى الشديد لمنظر هذا المكان الذى يشبه صالونات البيوت البرجوازية. أرائك تقليد من طراز لويس السادس عشر. منفضات على طاولات صغيرة وزهرية بها ورد اصطناعى. رائحة عفونة وسجائر مطفية تحوم فى المكان وتزيد من وطأة قلقى. أنتظر. يكاد يكون الجو بارداً هنا. أرتعش. مرت عشر دقائق طويلة وفجأة فتح باب لم ألحظ وجوده، وظهر إسماعيل. وقف دون حركة ثم تقدم خطوة وهو يترنح بينما صوت رجل وراءه يصرخ: "هيا! تقدم...". رافقه ضابطان كانا يدفعانه لدرجة أنه كاد يقع. بدا وكأنه لم يرنى بسبب الضوء الشديد. كان يلبس أحد القميصين اللذين أرسلتهما إليه فوق بنطلون البدلة التى كان يرتديها يوم ١٥ يونيه. حلقوا شعره الذى بدأ فى

الظهور ثانية أسود وغليظا. لن أنسى أبدا عينيه عندما وقعتا على. شعرت بصرخة بداخلى وأنا أراه يقف وسط القاعة لحظة تعرفه على. دفعه الضابطان مرة أخرى.

همس وأنا أبتسم له: "هذه أنت؟...كيف استطعت؟...". "نعم هذه أنا...". وقفنا محرجين وأمرنا أحد الحراس بالتحدث بالعربية فانصعنا. ثم ارتميت فى أحضانه متناسية النظرات التى ترقب حركاتنا. ضمنى إليه وهمس مرة أخرى: "أخرجينى من هنا أرجوك!..". سحبته من يده ليجلس بجانبى. تردد ونظر إلى الضابط الذى وافق. إسماعيل يطلب الإذن! "أخرجينى من هنا أكاد أجن...".

وجهه متورم ويده اليمنى ترتعش قليلا بينما السيجارة بين أصابعه. كتمت غضبى وابتلعت دموعى لأبتسم له. الاضطهاد الذى مورس عليه باد على ملامحه ولم ينجح وجودى فى محوه. فتحت العلبتين ليتمكن الضباط من تفتيشهما. "ليس الآن.. كيف حال والدتك؟ "أخبرته عن أحوال عائلتى وعائلته. كنا نتحدث بالعربية لكننا تمكنا من إيجاد شفرة فى مواجهة الرقابة. أجزاء جمل بالفرنسية كنا ندسها فى أحاديث عامة بالعربية. حملات صحفية فى أوروبا... الأصدقاء يحيونك... فؤاد بحالة جيدة". "سيجن جنونى... مسجون فى زنزانة... دون جرائد ولا كتب... أرجوك يا بولي إبذلى أقصى جهدك... أريد تحويلى من هنا... إلى أى مكان... السماح لى بالكتابة والقراءة... لم أتلق رسائلك... أتحمل شتائمهم... لا أرى سواهم... يرمون طبق الأكل القذر على الأرض... أنام على الأرض... هذا هين أمام الوحدة...".

"الزيارة انتهت!" الجملة نزلت علينا مثل المقصلة وجعلت إسماعيل ينتفض واقفا. التفت نحو الضابط مشيرة إلى الطرود المفتوحة: "هل تسمح أن يأخذها معه؟"... نظر إلى، وقال وهو يهز كتفيه: "الباتيه فقط... سأسلمه الباقى فيما بعد... هيا...".

"كن واثقا أننى يا حبيبى، لن أتوقف ثانية... "همست هذه الكلمات فى أذن إسماعيل بسرعة وهو يضمنى إليه بقوة لدرجة أنه آلمنى. لكن صوت الضابط فرقنا فجأة: "هيا يا إسماعيل امشِ".

استطعت أن ألمح فى خضم الموقف فى أعين إسماعيل ما يشبه بريق أمل وعلى شفتيه ابتسامة. ثم استدار.

"من هنا يا مدام!". تباطأت للنظر إليه وهو يبتعد. قبل أن أعبر باب الخروج ألتفت مرة ثانية. ها هو يختفى تماما مستقيما كالعصا يحيط به ضابطان. خُيِّل إلى أن الباب ابتلعه.

لم يعلم أحد بزيارتى هذه سوى أمى وإنجى. لن تتفوها بشىء. أخفيت الأمر عن عائلة إسماعيل. دعم هذا اللقاء ثقتى. تصلنى من باريس رسائل دافئة من أصدقاء لم ينسونا. صدر ديوان أشعارى وبعثت لى دار النشر مئتى نسخة، منها اثنتا عشرة مرقمة سأقوم بإهدائها. وسيتولى لطف الله وإفيت بيع الباقى. أعجبنى الجزء الذى أهديته إلى بول إيلوار. أعيد قراءته راضية عما كتبته. تزارا كانت على حق.. إنها فعلا تجربة مفيدة، وفرحة وقتية. بدأت أبعث بمساعدة إنجى تلغرافات إلى السلطات المختلفة فى البلد. استقبلنى صاحب الثؤلولة، وأكد لى أن إسماعيل يقرأ. "مكتبة السجن تحت تصرفه...". أرسم الاستغراب على وجهى. "هناك مكتبة فى السجن؟...".

لا أكل ولا أمل. يتيح إصرارى مرور بعض الضوء فى العتمة. وأتمكن من رؤية إسماعيل ثلاث مرات فى السجن العسكرى دون أن أتمكن من تحويله من هناك. لكن علمنا بإقامة محاكمة. متى؟. لم تنشر عريضة الاتهام. المحامى الذى اختاره عز الدين مندهش. لم يتمكن حتى من رؤية موكله. لماذا هذا الإصرار على إبقاء إسماعيل فى السجن العسكرى؟

قشعريرة تمر بكل أعضائى من شدة المشاعر التى تنتابنى وأنا أعيد شريط هذه المشاهد. ها أنا أشاهد نفسى الآن من اثنتين وثلاثين سنة مضت برفقة ألم دفين ومكبوت. كنت أتخبط لأنسى ولأجد أنجع الوسائل لأتماسك خلال ذلك البحث المتواصل... ها أنا الآن أدير الصفحات!

جاء البروفيسور جان ديفور وزوجته من الإسكندرية لزيارتى. لمسة حنان هزت مشاعرى!... نلتقى أنا وإنجى بجان وسيمون لاكوتير. من المفروض أن يتدخل زميلهم روبرت بارت لصالح إسماعيل لدى عبد الناصر. لكن هذا اللقاء المثمر بالنسبة لبارت كان مخيبا بالنسبة لى! لقد انبهر بعبد الناصر: "رجل رائع، شخصية قوية، وطنية عالية... إلخ، إلخ". استفزنى حماسه. "وإسماعيل؟...". فاعترف مُحْرجًا: "كان لقائى قد انتهى...". "دكتور إسماعيل؟" قال ناصر، "سيحاكم. إن كان بريئا، سيطلق سراحه...". لم يطرح بارت موضوع السجن العسكرى.

"تحدثت مع ماسينيون عن إسماعيل" قال لى يوما أندريه ريموند. ووعد بالتوسط لدى عبد الناصر الذى سيستقبله فى الغد. "تعالى غدا إلى المعهد..". هناك طلب منى ماسينيون بصوت غير مقنع أن أضع أملى فى الله وأن أصلى. وراح يؤكد لى أن اسم إسماعيل انضم فى صلواته إلى أسماء كل الذين يعانون فى كل سجون العالم! انتابنى الفزع.

الأحد ١٢ نوفمبر... شاهدت برفقة أمى فيلما جميلا. "سانسو" لفيسكونتى... أخرجنى جمال اللقطات، والأزياء والمناظر الطبيعية وأداء الممثلين من التوتر الذى يقبع بداخلى منذ يومين... فيلم يعيدك إلى أجواء روايات ستندال.... هل تعانى من شىء؟ هل حدث لك أمر ما؟ كيف لى أن أعرف ذلك؟ كيف أطمئنك علينا؟ هل استلمت البطانية؟

الثلاثاء ١٥ نوفمبر... غسلت شعرى، قرأت، ورتبت بعض الأغراض... كلما استيقظت من النوم اعترانى غضب بارد وتأنيب ضمير لكونى فى هذا السرير المريح الدافئ؛ لكونى حرة. لكنى فى حقيقة الأمر لست كذلك. حياتى كلها مرتبطة بكيانه، مشرئبة نحوه للملمة آلامه ولإعادته للحرية.

لكل ساعة، ولكل يوم وَقْعُهما المدوى لتزداد آلامه ووحدته الرهيبة... على أن أسرع من وتيرتى لنقله من هناك.

الخميس ٢٣ نوفمبر... أقرأ هذا المساء مقالا عن مسرحية أوريستيا التى يحضرها جان لوى بارو(٧). الحوار الذى أدلى به مهم. سيفيدنى فى بحوثى المسرحية حول عملى "وردة" الذى أحاول إتمامه.

الجمعة ٢٤ نوفمبر... عيد ميلاد والدى الثانى والستين... بعثنا له وردا... ذهبت إلى الكوافير... تعود إلىّ صورة إسماعيل وهو ينتظرنى داخل السيارة قرب الرصيف... سواء فى الإسكندرية أو فى القاهرة كان يأتى دائما يأخذنى... سأحصل على أنباء هذا المساء.

ماذا تفعل أختى فى الإسكندرية؟ بعثت لى يوم ٢٩ باقة ورد داليا حمراء. لم تنس عيد زواجنا! أحضر بعد الظهر محاضرة قدم فيها جورج حنين وإتيان ميريال وإبراهيم فارحى، آخر رواية لأربير كوسيرى: "فقراء ومتعالين." التى حازت على نقد جيد فى فرنسا.

٩ ديسمبر... لم أنم طوال الليل. أصل فى الميعاد أمام بوابة هذه المدينة العسكرية حيث يقال لى ليس لنا أية تعليمات. ورجعت أجر أذيال الخيبة... كنت قريبة منه، تفصل

(٧) رجل مسرح وممثل فرنسى ولد عام ١٩١٠ .

بيننا بضعة شوارع وأبواب! ابتلعت دموع الغضب. وقررت بحثا عن بعض الراحة، أن أزور حامد عبد الله الرسام الكبير. قدم لى حامد وزوجته تحية حليم، وهى أيضا فنانة تشكيلية، عددا من أصدقائهما من بينهم الناقد إميه عزار. شد على يدى بقوة قائلا إنه اشترى ديوانى، وإنه معجب بأشعارى!

بالطبع أنا فخورة، مما يرفع معنوياتى قليلا.

الجمعة ١١ ديسمبر... أقرر الذهاب إلى وزارة الداخلية لطلب مقابلة الوزير.

الجمعة ١٨ ديسمبر... ليلة مضطربة. وصلت مبكرة. أدخلونى دون عناء. انتظرت ربع ساعة فى مكتب الضابط. وصل إسماعيل حليق الذقن مرتديا الجاكت الرمادى والبلوفر الجديد. يبدو بحالة جيدة وأخبرنى أنه تلقى رسائلى وبطانية الصوف. سمحوا له بمراسلتى. تحدثنا فى هدوء بالعربية تتخللها كلمات فرنسية. الأمر أسوأ من ذى قبل. أشعر أن الزيارات غير حقيقية، مبهمة. يبدو لى كل ما يفرقنا من جدران ورجال فظيعا..، أبقى بعد الزيارة فى حالة ظمأ... طلب منى عدداً من الكتب. لديه تصور عن كتاب يريد تأليفه.

الخميس ٢٢ ديسمبر. وزارة الداخلية. مبانٍ قبيحة يتحرك بينها ذهابا وإيابا، الضباط والبوليس فى الزى المدنى. أنتظر فى مكتب يكاد يخلو من الأثاث. بعد خمس دقائق نادانى أحدهم، وقادنى عبر بهو مشيرا إلى باب. دخلت قاعة ذات أثاث فاخر. وراء مكتب كبير كان يجلس السيد الوزير زكريا محيى الدين. وقف بأدب ليسلم على ويدعونى للجلوس. انتابنى فزع مفاجئ وخُيِّل إلى أننى أمام قاض. ابتسامته الخافتة على وجهه لم تفارقه طوال اللقاء. جبهته عريضة بفعل بدايات صلع، وجنتاه بارزتان، أما عيناه فغائرتان. يتحدث بصوت منخفض فيه ترددات تبعث فىّ القشعريرة. ينطق اسمى بصورة جيدة: "مدام جلبيرى ابنة حسن بيه أفلاطون... أراضى عائلتكم مجاورة لأراضينا... خسارة كبيرة أن يكون زوجك شيوعيا... نحن اشتراكيون، نعم، لكن هناك

فرقًا كبيرًا. تريدين تحويل زوجك؟ وتطلبين السماح له بتأليف كتاب؟... لا لست بحاجة لترقيم الصفحات... سوف نرى...". كتبت لدى عودتى: "يبدو أن عدم صدقه وسخريته تجسدا فى صوته. تركته بعد عشر دقائق يائسة ومهانة لأننى لم أستطع الإفصاح عما بداخلى...".

السبت ٢٤ . إنه يوم عيد ميلاده. أحاول أن أدفع إلى أعماق ذاكرتى ذكريات تلك الحفلات التى كنت أنظمها بحب كبير. أستغرق الظهرية فى اجترار أحزانى. أؤنب نفسى على فشلى فى تقديم طلباتى للوزير بصورة جيدة. حتى إننى لم أطلب له سريرا! فى حدود الساعة السابعة أكلم صاحب الثؤلولة. لم يكتف بالتنازل والرد على مكالمتى بل طلب منى مقابلته فى الغد باكرا لمناقشة موضوع الأوراق التى سيسلمها لإسماعيل!... أجهش بالبكاء. نوبة عصبية صغيرة. أنا مقتنعة الآن أنهم ما داموا قد سمحوا له بالتأليف فلن ينقلوه من هناك.

الأحد ٢٥ ديسمبر. الجو بارد. السماء رمادية. الساعة العاشرة أتمت الأمطار والرياح التنظيف الشتوى للمدينة. بضع دقائق بعد إعطائه اسمى سمح لى رجل البوليس بالصعود. كل شيء كان يسير بصورة طبيعية. وفور استعمالى كلمة "تحويل" نظر إلى صاحب الثؤلولة وقال: "هل تريدين القناطر؟". أحاول عدم إظهار فرحتى لهذا الوغد وهو يقول إن الوزير يسمح لإسماعيل بالتأليف وباستقبال زيارة! سينقل إسماعيل يوم الأربعاء... فرحتى عارمة رغم إعيائى الشديد. هدية رائعة لنا. لكنى لا أقدر على الاسترخاء خوفا من أن يغيروا رأيهم.... أن يماطلوا... خوفى كان فى محله!.

الثلاثاء ٢٧ دسيمبر. ها أنا أمام بوابة السجن العسكرى رقم ٧ . الساعة الثامنة ونصف. أدخلنى العسكرى صالة لم أكن أعرفها. كم صالة فى هذا المكان الكئيب؟ وصل إسماعيل مرتديا جاكيت البيت فوق البيجاما. لم يحلق ذقنه. علمت أن بعد زيارتى الماضية فتش القائد زنزانته. وصادروا كل شيء: البسكويت، والحلويات،

والسجائر! جاء نقله فى الوقت المناسب! حبيبى! كم هو جميل أن أراك، أن أسمعك. كم أتوق لرؤيتك فى ديكور آخر فترة أطول...

تأخر التحويل يومين بسبب زيارة تيتو. أرافق إنجى رغم ذلك آملة أن يكون فى القناطر. ينتظر زوج أختى ورفاقه إسماعيل بلهفة. سيعدون وليمة على شرفه... سلمنا الديك الرومى للمشرف على المطعم. أقضى ليلة رأس السنة عند أصدقاء. كانت السهرة ممتعة رغم كل شىء. شربنا الشمبانيا فى صحة إسماعيل. شربت وأنا أبكى. كم يؤلمنى غيابك يا حبيبى.

يقال إن إسماعيل نقل إلى سجن القناطر البارحة! أنا هادئة ومطمئنة. ليت كل شىء يكون يسيرا عليه، أن يكون له سرير.

الخميس ٥ يناير. كانت ليلتى سيئة. وصلنا أنا وإنجى متأخرتين. تم تعطيل المرور بسبب موكب تيتو وعبد الناصر. فى القناطر اضطررت إلى انتظار انتهاء العائلات من زيارتها قبل رؤية إسماعيل وحده وراء القضبان. يظل حجزه سريا! عشر دقائق فقط. لكنها ممتعة! كان يبتسم، سعيدا لرؤيتى. انهال على بالأسئلة حول صحتى! كيف تحملت كل هذا الوقت دون رؤيتك؟... أبدأ فى انتظار الخميس المقبل للزيارة الخاصة. حينها سأتمكن من ضمك إلى. أنام هذه الليلة سعيدة. ربما سأبكى قليلا من كثرة اشتياقى إليك... إلى حضورك... الطريق صعب وعسير، الصبر! جوع كبير... متى... متى؟!

أقرأ كل مساء رسالته مرات ومرات وسط هالة من القدسية. لم أسأل نفسى كيف تركوه يكتبها بالفرنسية. ولم أسأل نفسى ما هى الآلية التى رفعت الممنوعات التى سجن بداخلها إسماعيل. "زوجتى العزيزة، لم أتلق رسالتك التى كتبتها منذ أربعة أشهر، إلا اليوم. رغم ذلك كان أثرها جيدا على. تأكدى وقد رأيت الآن أن معنوياتى عالية فلا تقلقى بهذا الشأن. الوقت يمر بسرعة أكبر منذ أن سمحوا لى بالقراءة ولم

أعد أعانى من إحساسى بالفراغ الذى كان ينهشنى... أنا فخور بك وبشجاعتك، هذا جديد نوعا ما بالنسبة لى... أما حبك فمتأكد منه. اعتنى بنفسك، تماسكى. تحياتى وحبى لوالدتك. تعلمين كل الأمور التى عليك أن تبلغيها لعائلتى. قولى لفوفى الاعتناء بصحتها وأتمنى أن الولد الذى تنتظره قد ولد وبحالة جيدة. أرسلى لى المرة القادمة "تاريخ الفلسفة" الجزء الأول وكتاباً عنوانه "Survey of Contemporary Economics"، شكرا. زوجك الذى يفكر فيك دائما.

خلال زيارة لإسماعيل استعملت فوفى للإشارة إلى فؤاد مرسى! واستعمله إسما أيضا للإشارة إلى رفيقه الذى لا تعرف المباحث هويته. ولم يفك صاحب الثؤلولة أحد الضباط القلائل الذين يجيدون الفرنسية الشفرة.

أصبحنا أنا وإنجى نقوم برحلاتنا إلى سجن القناطر معا، نكدس على الكراسى الخلفية فى السيارة علباً مليئة بالأكل والأدوية والكتب والملابس النظيفة. نتحدث فى مرح خلال الرحلة ونردد المعلومات التى قد لا يجدها أزواجنا فى الصحافة. أصبحت أعرف أهالى المعتقلين. اقترب منا منذ أول خميس أول الوافدين مبتسمين: "مبروك! الأستاذ هنا! الحمد لله...". إنهم سعداء كأنما الذى تم نقله هو ابن أو زوج! كلهم يعرفون ما عاناه. نتشارك الإهانات والإحباطات والغضب والآمال. مجموعة من المتضامنين فى هذا العالم الذى يسوده تعسف قاس وعبثى.

ها نحن فى هذا الخميس نتقدم ببطء فى الرواق المؤدى إلى مبانى السجن مثقلتين بالأغراض. أحمل بطانية من الصوف لإسماعيل. "بولى! انظرى أم رزق. إنها تلوح إلينا. ماذا هناك؟".

وراحت أم رزق تجرى نحونا، كشفت ابتسامتها العريضة عن فم دون أسنان: "تأخرتم! مبروك! مبروك! لم يعد الدكتور إسماعيل فى الحبس الانفرادى!...أقسم لكم! أقول لكم إنه نقل... فى الزنزانة مع زوجك وابنى....الحمد لله! هل رأيتم نقلت لكم أنباء

سارة هذا الصباح!..". ها نحن نصل فى نشوى أمام الباب الذى يحرسه عدة عساكر. نعطى أسماءنا لأحدهم ليدونها فى السجل. أخذ أحد الضباط واثنان من العساكر أغراضنا. فتشوها وفتحوا البطانية. قام الضابط بعد ذلك بتصفح الكتب ووافق على كل شىء. إنه أظرفهم وأحسنهم معاملة لأهالى المعتقلين. انتظارنا لم يطل. نادونا مع بعض. استقبلنا إسماعيل وحمدى بابتسامات عريضة مرتديين بذلهم وحليقى الذقن. ثلاثة معتقلين آخرون يستقبلون هم أيضا زيارة ذويهم. خمسة عساكر يراقبوننا. سلمت إنجى على إسماعيل وسط سعادة اللقاء. أما حمدى فكان منتشيا وقال: "لقد نظمت حفلة لزوجك الذى أصبحنا نسميه المنفضة. فسألت فى وجوم: "لماذا المنفضة؟" فاستدار إسماعيل قاطبا حاجبيه نحوه: "اصمت قليلا! أريد أن أكلم زوجتى... لا تبالى يا عزيزتى. هذا رائع أليس كذلك؟ إنه انتصار! كم هى جميلة زوجتى هذا الصباح. كنت قلقا عليك، لقد بديت لى متعبة ومنهكة يوم الخميس الماضى... صحيح؟.... أحبك... قولى لى ما هى أخبار المحاكمة؟ هل فكرتم أنت وعز فى إيجاد محامٍ جيد؟... أرجوك أقنعى ثريا بمنع أمى من المجىء إلى هنا. سيتعبها كثيرا السفر من ملاوى إلى القاهرة ثم إلى هنا...".

لم يستطع عز وثريا منع تيزة من القيام بهذه الرحلة المضنية. أقلّنا كامل. بما أن دخول السيارات ممنوع اضطرت تيزة إلى المشى بخطى بطيئة فى الممر الطويل نحو الباحة التى تفصل سجن الرجال عن سجن النساء. ومكننا التصريح السحرى "زيارة خاصة" من انتزاع حق الجلوس فى الداخل فى انتظار النداء، من ضابط الحراسة. "تفضلوا. كم أنتم؟ ثلاثة فقط. الأسماء الموجودة فى التصريح...". خاب أمل كامل وراح يحوم ويجىء فى الفناء وهو يدخن.

ها نحن تيزة وثريا وأنا جالسات فى مكتب المدير. الغرفة لا تحوى سوى مكتب وأربع أرائك. وعلى الحائط فوق رأس المدير علق برواز ذهبى وبداخله سجل بخط كوفى: "الله أكبر". سيطر علينا الانفعال حالما ظهر إسماعيل الذى ارتمى فى حضن

أمه. لاحظت والدموع فى عينى أن الضابط تنحى جانبا من الحياء وراح يتظاهر بالقراءة. هدأ إسماعيل وهو يبتسم لأمه الباكية. "هيا يا ماما! انظرى إلى. ألا ترين أننى بخير؟ الحمد لله!..." ثم قبل بقوة أخته، ضمنى إليه وجلسنا. تجاذبنا أطراف الحديث تحت رقابة المدير واثنين من العساكر. تدوم الزيارة الخاصة ساعة مرة فى الشهر. زيارة أكثر إنسانية من الزيارة الأسبوعية التى رغم كل شىء كانت تضىء الأسابيع المتتالية. مثل كل أهالى المعتقلين نتربص بكل خبر أو إشاعة... ننتظر الإفراج بمناسبة عيد ميلاد عبد الناصر أو إعلان الدستور الجديد... العلاقات سيئة بين الأمريكان وعبد الناصر... ناصر يداعب السوفييت... يقال إنه ستقام محاكمة.

تتسارع الأحداث. نعيش أياما تاريخية مثيرة. ربما عاد إلى قريبا تواترت إشاعة المحاكمة. قد يقدم عدد من المعتقلين للمحاكمة أمام محكمة أمن الدولة. قد يكون إسماعيل على رأس القائمة! استبد بنا القلق. ومع أن الظروف السياسية تبدو مواتية لمحاكمة عادلة. لكن إن كان الأمر كذلك ما الداعى للمحاكمة؟ قال لنا القضاة وموظفو المحكمة إنهم ليسوا على علم بشىء وأحالونا إلى المباحث. حاول إسماعيل وحمدى طمأنتنا: "ليس لديهم أى دليل ضدنا إلا إذا قاموا بفبركته". وافق إسماعيل على المحامى الذى اختاره أخوه. ميتر محمد عبد الله. هو وميتر مصطفى مرعى من أكبر محامى البلد. أعلن لى ميتر عبد الله على غرار زميله: "لا أستطيع أن أحكم على الوضع ما دمت لم أطلع على عريضة الاتهام التى لم تصدر". قامته قصيرة، شديد الاسمرار، شعر مجعد وجبهة عريضة تعلو وجها عريضا ذا شفاه غليظة وأعين سوداء يشع منها الذكاء والمكر. دائم الابتسامة وهو يسألنى عن إسماعيل. بث فى الطمأنينة فرحت أرد على أسئلته يملؤنى الفخر والإعجاب بزوجى، أما هو فيصغى إلى باهتمام.

بدء انتظار من نوع جديد قوامه الأسئلة والخوف والآمال. مر الربيع كعادته فى مصر قصيرا مثل لمسة خاطفة. وسرعان ما ذبلت باقات السنط البنفسجى عند أول

نفحات الخماسين. نتبادل أنا وإسماعيل نظرات طويلة ومضطربة وبعض الذكريات. " لا تخافي... سيكون كل شيء على ما يرام ...". لكنى لا أستطيع أن أزيح الخوف الذى يتسلل إلى عروقى ويشل أعضائى. هل يمكن أن يحكم عليه بأقصى العقوبة؟

صدرت أخيرا عريضة الاتهام! ٦١ متهما سيمثلون أمام محكمة أمن الدولة بتهمة الانتماء للحزب الشيوعى المصرى غير المشروع، وبمحاولة الإطاحة بالحكم! إسماعيل أول المتهمين وحمدى ثانيهم. حصل المحامون أخيرا على تصريح بمقابلة موكليهم.

الأحد ٢٧ مايو. ستبدأ المحاكمة فى التاسع من يونيو. الميتر عبد الله متفائل، وطمأننى: "إذا احترمت حقوق الدفاع سنتمكن بسهولة من إثبات الحقيقة وفضح الأخطاء والتلفيق...". أكلى قليل ونومى مضطرب. لا أقوى على القراءة ولا الكتابة. آل لاكوتير يسألون عن قضية محاكمة إسماعيل وحمدى. هل سيتمكن المراقبون الأجانب من متابعة المحاكمة؟ هل ستكون الجلسات علنية أم سرية؟ لا أحد منا يستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة.

طال الانتظار أكثر من المتوقع. أجل تاريخ المحاكمة إلى ٢٨ يونيه! أسبوعان آخران من الترقب. لا يبدو لى إسماعيل قلقا وقال إنه اتفق مع المحامى على المرافعة: "ثقى فى! لقد حضرنا مفاجأة كبيرة... سترين..". انتخب عبد الناصر رئيسا جديدا لجمهورية مصر بـ ٩٩ فى المئة من الأصوات.

-٨-

باب الخلق، قصر العدالة القديم.

كردون من رجال الشرطة يحيط بالمبنى المهيب. زوجان من الخيول الرمادية يمتطيهما ضابطان تدق على الأسفلت. أصرت أمى على مرافقتنا. ها نحن نجتاز الباب الضخم المفتوح على مصراعيه. تستقبلنا روائح التراب والتبغ والبول. الساعة الثامنة صباحا. رجلان يرتديان جلبابين مهترئين، يثيران ندائف من التراب تتخللها عقاب سجائر وأوراق متسخة بواسطة مقشات بالية. تكاد تكون الكراسى كلها مشغولة. تلوح لنا أم رزق بيديها، "أهلا وسهلا...!". إنجى تراقب الشارع لرؤية قدوم الشاحنة. ترد أمى بهدوء على أم رزق. لا يفضح توترها سوى أصابعها الرفيعة وهى تلعب بمروحة اليد. يصل الأهالى فى مجموعات من اثنين أو ثلاثة أشخاص وأحيانا أكثر. ينضمون إلينا، يسألون ويسترسلون فى الدعاء لله فى تنهدات عميقة. تمتلئ الأسقف العتيقة بأصواتهم. أصوات متحمسة، متعجلة. مر أمامنا بعض الرجال الشباب مسرعين حاملين حقائب بينما تتطاير أذيال أرواب المحاماة حول سيقانهم.

"كم الساعة الآن؟... لقد تأخروا!... والمحامين؟... هل شاهدت محاميكم؟... لمحت محامينا فى روبه الأسود... هل تظنون أنهم سيسمحون لنا بحضور الجلسة؟ نعم معى التصريح..." أتابع الحديث دون اكتراث، يداى متجمدتان وقلبى يدق بقوة. أنظر إلى الساعة وأشرئب مترقبة. لا تزال إنجى أمام المدخل فى الخارج مع بعض النسوة. ظهر كامل وسلم على ماما مبتسما، وإذ الأصوات تتعالى فجأة: "ها هم! لقد وصلوا... الشاحنات!..." قفزت واقفة وتسللت وسط الجموع التى تتسارع نحو الباب.

"ابتعدوا! أفسحوا الطريق..." دفعنا بعض المعاونين إلى الخلف. ابتسمت لأحدهم: "اتركني أرى زوجي! وحياتك!.." فرد على قائلا: "قفى هنا يا بنت الناس ولا تتحركى!.." لاحظت وجود شاحنتين أمام المدخل. من وراء قضبان الفتحات الصغيرة على جانبيهما وجوه وأياد. أحاول التعرف على إسماعيل بينما يقف العساكر على السلالم فى الخلف. "ها هو الدكتور إسماعيل!.." صرخ أحدهم. "هذا هو؟ نعم، أول واحد ينزل! يقال إنه عُذّب... يا إلهى!.." وسط التدافع تمكنت من التعرف على شعره الأسود. توقف على الرصيف المقابل بعض المارة مندهشين للمنظر الغريب. يستفسرون من المعاونين الذين منعوهم من الاقتراب. أصوات تصيح بالأوامر. أتراجع وأتمكن من الوصول إلى ماما التى لم تبرح مكانها. إنها تدخن. اختفى كامل. وقع أقدام تصعد السلم. يأمرنا الأعوان بالابتعاد ثم اصطفوا على جانبى القاعة.

دخل المتهمون وسط التهليل. كلهم كانوا يبتسمون فى هدوء. ألقوا التحية برفع الأذرع ذات المعاصم المقيدة بالأصفاد. إسماعيل وحمدى أولهم. يرتدون بدلهم الصيفية وربطات عنق. "زوجى أنيق!". لكنه سيختنق من الحر فى هذه القاعة" ضحكت امرأة فى الخلف. لا أعلق. نظرى معلق على إسماعيل الذى يصرخ كى أسمعه: "جهزنا ضربة معلم! كونى واثقة!... كل شىء سيكون على ما يرام... صباح الخير يا حماتى!..". أتراجع لترى أمى صهريها. ترفع يدها وتجلس بسرعة وهى تبحث فى شنطتها عن منديل لتنشف دموعها. تغاضيت عن الموقف وسلمت على حمدى بإشارة باليد. مر المتهمون الواحد تلو الآخر وهم يبتسمون لذويهم لطمأنتهم. وامتزجت الأصوات القلقة فى هذه الأجواء المشحونة بالانفعال.

"ستفتتح الجلسة قريبا..." قال كامل وهو يقترب منا. "ماذا ستفعلين يا صالحة هانم لوحدك هنا؟ الجو حار جدا. سيارتى وسائقى تحت أمرك..". "اذهبى يا مامى" أصرت إنجى "سنمر على الأتيليه لنعطيك الأخبار حالما ينتهون".

"مدام إنجى؟". تقدم الرجل الشاب ونحن نقدم التصاريح لضابط بوليس أمام باب القاعة. "ألم تعرفيني؟ أنا أعمل مع زوجك، ميتر أبو العلا...". التفت الرجل المهذب نحوى وكامل: "اتبعونى سأساعدكم فى العثور على أماكن جيدة...". سألته إنجى والضابط يفحص تصاريح الناس أمامنا: "أنت تدافع عن أى متهم...؟". ضحك الرجل: "لا أدافع عن أحد فى هذه المحاكمة. لكنى لا أستطيع أن أفوت مرافعة ميتر وحيد رأفت، محمد عبد الله، ومصطفى مرعى... إنها قضية كبيرة!.."

التاسعة واثنتان وعشرون دقيقة. قاعة محكمة أمن الدولة.

امتلأت القاعة عن آخرها. ظل من لم يجدوا مكانا واقفين بمحاذاة الجدران. انحنى رجل شاب يرتدى جاكيت أزرق نحوى: "مدام عبد الله؟ أنت زوجة إسماعيل صبرى؟ أنا فلان. كان الدكتور إسماعيل أستاذى فى الإسكندرية. رجل رائع!... لا. لست محاميا بعد، أحضر الدكتوراه. لو سمحت يا مدام بلغى سلامى لزوجك... ستفرج إن شاء الله...".

فى هذا الصباح من الثامن والعشرين من يونيه احتشد عدد هائل من المحامين ورجال القانون. بعضهم فى أول حياته المهنية والبعض الآخر ذو سمعة كبيرة. كلهم متلهف لسماع مرافعات أكبر أسماء البلاد. إنه فعلا حدث ذو أهمية بالغة!

"ها هم!". سكتت الأصوات فجأة. اتجهت الأنظار صوب القفص يمين المنصة. لمحنا -إنجى وأنا- زوجينا وراء القضبان التى يشدون عليها بأيديهم. أقف وألوح بيدى لإسماعيل الذى لم يكن يرانى. فى الوقت نفسه، فتح باب قبالتنا ناحية اليمين. دخل المحامون تلفهم الأرواب السوداء وجلسوا فى الصف الأول. تبعهم مباشرة أعضاء المحكمة الستة. رئيس المحكمة محمود عبد اللطيف، ثلاثة مستشارين ومستشاران عسكريان من الرتب العالية. صدى وقع ضربة عالٍ مصحوب بصوت عال: "محكمة!". انتفضنا، وقفنا مثل الآخرين. ضحكنا من العصبية. وجلسنا مثل الآخرين. أشرئب

للإمعان فى وجوه من سياحكمون إسماعيل. الرئيس شديد الاسمرار، تقاطيع وجهه قاسية وحادة. وسط الصمت علا صوت أجش ذو نبرة سريعة. يتحدث الرئيس لغة عربية فصحى لا أفهم منها شيئا. استبد بى الفزع ولم أجرؤ على طلب استفسارات من أختى. إنجى عالقة بشفاه القاضى. ماذا يقول؟ يبدو لى أننى سمعت سبع سنين سجن!... إسماعيل، وحمدى وآخرون... ثم راح ينادى المتهمين بأسمائهم. ثم بعد؟... "رفعت الجلسة! ستعقد فى العاشرة ونصف. وستكون مغلقة!" غادر المتهمون أماكنهم. استطاع إسماعيل وحمدى إلقاء التحية قبل الاختفاء. تبعت أختى نحو باب الخروج مصدومة. لماذا جلسة مغلقة؟ لقد أكدوا لنا أن الجلسات ستكون عامة ... كنت أتوقع فعلة كهذه. من المؤكد أن المباحث وراءها. ألمح محمد عبد الله وأجرى نحوه. إنه أقصر المحامين قامة. مد يده نحوى وهو يبتسم. "هل أخافك القاضى؟"... إنها طريقته فى الكلام. لا نستطيع القيام بشىء حيال قرار الجلسة المغلقة". هز كتفيه العريضتين اللتين رفعتا أكمام الروب... بدا لى مثل طائر ليلى. "هيا اجلسى واشربى الشاى. اهدئى!..." ثم أضاف بصوت خافت: "لا تفقدى الثقة".

الساعة العاشرة وعشر دقائق، لم تدم جلسة الافتتاح سوى نصف ساعة. لا يمكننا رؤية المتهمين الذين ينتظرون فى قاعة محصنة. طلبنا الشاى. اقتربت منا أم رزق ومعها امرأتان: "ما هو رأى محمد عبد الله؟ لماذا مغلقة؟ سيبدؤون بالمتهم الأول أليس كذلك؟ زوجك، الدكتور إسماعيل؟..." تركت أختى ترد. بعض الأهالى التفوا حولنا ليسمعوا. أنظارهم متوترة. إلى أى نوع من المحامين لجؤوا؟. مبتدئين قبلوا أتعابا زهيدة للوقوف أمام أساتذة كبار. ماذا سيحصل للرفقاء الذين وجدوا عندهم طابعة؟ أوراقا تدينهم؟ حكما مخففا...". قلت لنفسى "كفى عن تعذيب نفسك، اشربى الشاى".

ماذا؟ "الجلسة بدأت" قال كامل مضيفا: "ستسألهم المحكمة: برىء أم مذنب". بدأوا بإسماعيل المتهم رقم واحد". لا أزد، كل هذا الكلام أعرفه. "لقد بدؤوا، لقد بدؤوا" ردد الآباء والأمهات والزوجات. انخفضت الأصوات. معظمهم راح يردد

الأدعية... ثم سرعان ما عادوا للحديث للسيطرة على توترهم. جدران الرواق العتيقة والمثقلة بالهموم لم تعد تعكس سوى صدى الهمسات يقطعه من حين لآخر وقع أقدام فرّاش أو بكاء طفل.

إننا فى عالم كافكا. كيف لى أن أتصور الأحداث التى تدور خلف هذا الباب؟ لا أرى سوى القاعة والقفص المريع الذى تكدسوا بداخله والمحامين فى ثوبهم الأسود. يا ربى اكتب له الإفراج!..

"صباح الخير!" سيمون، جان وبيرتو جاءوا بحثا عن أخبار. "صباح الخير! هذا لطف منكم! نعم بخير. للأسف الجلسة مغلقة... لقد بدأت منذ ربع ساعة. يستجوبون إسماعيل. يبدو فى حال جيدة... ستدوم الجلسة ساعة... ربما أكثر... إلى اللقاء... الصحفيون مهتمون بمحاكمة أثارت ضجة... ماذا يقصد إسماعيل بقوله ضربة معلم؟ ومن هو هذا الرجل المسرع حاملا حقيبة مهترئة؟... لقد دخل من الباب الخلفى الذى سلكه المتهمون!... يحاول كامل الحصول على معلومات من الشرطى الذى يحرس ذلك الباب.

"ماذا هناك يا كامل؟ من هو الرجل الذى دخل للتو؟ " يبدو كامل مندهشا. "لست أفهم! يدعى المعاونون أنه طبيب شرعى". أشعل سيجارة وعاد إلى ذهابه وإيابه. تتعاقب الدقائق مثل حبات السبحة التى يحملها الرجل الشائب الجالس قربى. يطول الانتظار وتزداد معه حدة التوتر والعصبية...

لكن خلف الباب حدثت المفاجأة(٨).

---

(٨) هذا الجزء رواه إسماعيل بعد الإفراج عنه.

المشهد الأول

قاعة جلسات محكمة أمن الدولة

الجلسة الثانية، على اليسار واحد وستون متهما وراء القضبان، فى المقابل هيئة الدفاع، تستدعى هيئة المحكمة شاهد الإثبات الأول، دخل حسن مصيلحى حلف اليمين وقرأ تقريرا طويلا ثم انصرف فور انتهائه.

بدأ الاستجواب، عند سماع اسمهم يرد المتهمون بمذنب أو غير مذنب.

الرئيس: المتهم الأول!

إسماعيل، " غير مذنب، لكنى أود الإشارة إلى أننى تعرضت للتعذيب ومستعد لإثبات ذلك...".

الرئيس: عن أى تعذيب تتكلم؟ سنرى هذا فيما بعد.

إسماعيل: أطلب إذن المحكمة، أريد أن أريكم الآثار.

ميتر عبد الله وقف: أعتذر عن تعطيل الاستجواب، لكنى أرجو من المحكمة أن تسمح للمتهم بخلع ثيابه.

الرئيس: طيب تعال!.

أخرج أحد العساكر إسماعيل من قفص المتهمين وقاده إلى المنصة، وراح إسماعيل ينزع أمام المحكمة الجاكيت وربطة العنق ثم فتح أزرار القميص ورفعه عن

ظهر تتخله خطوط طويلة. خرجت المحكمة من برودها لهذا المنظر وصدرت صرخة واحدة فى كل القاعة.

الرئيس: ارتدِ ثيابك وعد إلى مكانك....

انحنى فى اتجاه المستشارين وتشاوروا بصوت منخفض. ثم نادى المحضر وأمره بإحضار الطبيب الشرعى فورا. (سمع إسماعيل، الذى كان واقفا وراء القضبان مباشرة قرب المنصة، حديثهم). استمرت المحاكمة بعد ذلك دون انقطاع. وفى تمام الساعة الحادية عشرة رفع الرئيس الجلسة وسط دهشة الجميع وقرر استئنافها بعد نصف ساعة.

المشهد الثانى

غرفة المداولات

عاد رئيس المحكمة والمستشارون إلى أماكنهم على المنصة الصغيرة وحولهم الحاجب والمحضر ورجل بزى رمادى يحمل فى يده حقيبة بالية. القاعة أصغر من الأولى. طلب الرئيس من الحاجب إحضار المتهم الأول ومحاميه.

دخل ميتر عبد الله وإسماعيل.

الرئيس: المتهم الأول! هل ترى الستارة هناك؟... تفضل بخلع ثيابك. سيكشف عليك الطبيب الشرعى.

نزع إسماعيل كل ثيابه وراء الستارة. وراح الطبيب الشرعى يعاين جسمه بالكامل. الإجراء استثنائى. بعد انتهائه اقترب الطبيب الشرعى من المنصة. فى أثناء ذلك كان إسماعيل يرتدى ثيابه وسمعه يقول لهيئة المحكمة إنه سيوافيها بتقريره فى صباح الغد.

الرئيس: لا! الحاجب هنا أملى عليه ملاحظاتك فى الحال. خذ وقتك... سننتظر. واكتب تقريرك على مهلك لتسلمه لنا فى الغد.

كان هذا الإجراء شجاعا من طرف المحكمة لتجنب أى تدخل للمباحث للتأثير على الطبيب الشرعى.

اقترب الطبيب من الحاجب الجالس أمام الآلة الكاتبة. ارتفع صوته بنبرة مملة يصاحبه وقع دقات الآلة الكاتبة السريع.

الطبيب الشرعى: لاحظنا على جسم المتهم الأول إسماعيل صبرى عبد الله آثار حروق سببها إطفاء السجائر مثلما يدعيه المتهم. كما لاحظنا على ظهره آثار ضربات كرباج...

أوقفه الرئيس: لحظة. قل لى مصدر هذه الآثار ضربات قوية أم خفيفة حسب رأيك؟...

تردد الطبيب خوفا من التورط: متوسطة!

الرئيس: سؤال تقنى. كم من الوقت يلزم فى العادة كى تختفى ضربات الكرباج؟

الطبيب : إذا لم ينتج عن الضربات جروح تختفى الآثار بعد أسبوع أو أسبوعين. لكن إذا التهبت الجروح تظل الآثار ظاهرة للعيان من شهر إلى ستة أسابيع.

الرئيس بحدة: لكن هذه الآثار تعود إلى سنة. مما يدل على خطورة الجروح...

الطبيب: نعم سيادة الرئيس!

انتهت جلسة المداولات وانتقلت هيئة المحكمة مباشرة إلى قاعة الجلسات. الساعة الحادية عشرة وخمس وأربعون دقيقة.

المشهد الثالث

صاح الحاجب بصوت عال: "محكمة!"... افتتحت الجلسة الثالثة.

الرئيس: أدخلوا شاهد الإثبات الأول.

ظهر مصيلحى فى بدلة من الكتان واقترب من المنصة وفى يده مستندات. قرأ الاتهامات ضد المتهمين. كان واثقا من نفسه يتكلم بصوت قوى وهادئ. لم يخطر على باله لحظة أن جلسة مداولات قد جرت قبل ربع ساعة. سادت لحظة صمت بعد نهاية قراءته.

الرئيس: قل لى. يدعى المتهم الأول أنه كان ضحية للتعذيب... ماذا تقول فى هذا الموضوع؟

مصيلحى بابتسامة عذبة، رافعا كتفيه: يا سيادة الرئيس! يعيش المتهم فى الزمالك فى الرفاهية. فإذا أعطيناه يشرب فى قلة مشروخة سيعتبر هذا بمثابة تعذيب.

الرئيس بصوت حاد: لكن الطبيب الشرعى كشف على جسم المتهم! ووجد آثار حروق وضربات كرباج. ماذا تجيب؟

تيار من الاستنكار عبر القاعة.

مصيلحى رفع حاجبيه مندهشا: آه! ليس لى علم بهذا الموضوع. إذا حدث شىء عندما كان فى السجن العسكرى يا سيادة الرئيس فأنا لست مسؤولا عنه.

(بهذا الرد اقترف مصيلحى خطأ إذ نسى وجود مستشارين عسكريين بين هيئة المحكمة).

الرئيس متوجها للمتهم الأول: من قام بتعذيبك فى السجن العسكرى؟

إسماعيل صبرى: اثنان من ضباط الصف بإشراف مدير السجن. لكن خلال الأيام الثلاثة التى خضعت فيها للاستجواب كان مصيلحى يأتى لزيارتى برفقة عضو من النيابة العامة. وهذا الأخير لم يشر فى محضره أن جسمى كان داميا.

ارتفعت همسات استنكار وسط الحضور. كان يجب أن تسجل النيابة العامة فى محضرها حالة حسم المتهم الأول. وهذا الإغفال الذى تم اكتشافه ألقى بالشك على عريضة الاتهام فى مجملها.

"لقد انتهوا!... ها هم يخرجون!..." ظهر المتهمون لكن الضباط ومعاونى الشرطة دفعونا إلى الوراء. إسماعيل وحمدى فى حالة انتشاء. "رائع يا بولى، ضربة المعلم نجحت!... رئيس المحكمة هو نصيرى الأول!... إلى اللقاء!..." قنبلة! كونى متفائلة يا إنجى!" صرخ حمدى. لم ألحظ من قبل أن رقبة زوج أختى بهذا الطول.

"دكتور إسماعيل خلع ثيابه! وعرض جروحه على المحكمة!... لقد عذبوه فعلا!... عار!..." تعليقات الاستياء تتصاعد حولى.

"ابتعدوا! أفسحوا الطريق!.."

"سيتغير كل شىء بفضل الدكتور إسماعيل!..".

اقترب كامل مبتسما وصافح أصدقاءنا.

"Bonjour! Enchanté!" قال كامل بالفرنسية. "ألا تودين فعلا مصاحبتنا على الغداء يا إنجى؟...".

"شكرا يا كامل. أريد أن أطمئن أمى وأستريح قليلا... إلى اللقاء...".

"إلى البيت" قال كامل للسائق ويجلس بجانبى على المقعد الخلفى. بعد الاطمئنان والاسترخاء.

انتابنى شعور بالتعب الشديد. بالكاد نمنا أنا وَديدى.

بعد أربعة أيام. قصر العدالة. محاكمة الواحد وستين متهما على وشك الانتهاء. الساعة حوالى الثامنة وخمس وأربعين دقيقة.

عما قريب ستصدر المحكمة حكمها فى جلسة مغلقة.

ستتم تبرئة إسماعيل، أنا متأكد من ذلك "قال لى الميتر عبد الله البارحة مساء. محامى إنجى قال لها نفس الشيء بخصوص حمدى. هل سيتم الإفراج عنهم فى حالة البراءة؟ لكن بين الأمس واليوم توافر الوقت لوزير الداخلية وللرئيس الجديد لإعطاء الأوامر... قلت لنفسى "كفى عن تعذيب نفسك فكرى فى الآخرين. ماذا كنت سأفعل لو عثر البوليس على الأوراق التى مزقتها؟... مثل داوود مثلا...".

التاسعة وخمس وثلاثون دقيقة. بدأ محامو الدفاع يصلون الواحد تلو الآخر. يعبرون القاعة مسرعين كما لو كانوا متعجلين لإنهاء الموضوع، وربما كانوا مرتبكين من النظرات المتوجسة التى تتعقبهم. هيئة المحكمة لن تظهر إلا فى آخر لحظة مثلما فى الأيام الماضية.

على غير العادة امتلأ الرواق عن آخره. كل العائلات تنتظر معنا. صممت ثريا وماما على مصاحبتنا. أزواجنا ورفقاؤنا حلقوا ذقونهم وارتدوا ملابس نظيفة. وبعضهم وضع ربطة عنق، مثل إسماعيل وحمدى. كلهم يبتسمون ويرفعون أيديهم ليسلموا علينا. ترددت جملتان جديدتان لدى مرورهم: "براءة إن شاء الله!...الحرية! الحرية...".

"بسم الله الرحمن الرحيم". رتل رجل وهو يصاحب جموع الأقارب. أرى أخت أحد المتهمين وأمه ترشمان الصليب. لم أكن أعلم أنهما مسيحيتان. ثريا تقرأ هى أيضا الفاتحة. صفير خافت يصدر من شفتيها وهى تتحرك. تنتهى الصلوات بتنهدات عميقة و"الله أكبر"!. يتواصل الحديث بين السيدات بصوت منخفض. صرخة طفل تمزق

وطأة الانتظار. انطلقت ضحكة عصبية. راح كامل يمشى ذهابا وإيابا حاملا سبحته فى يده اليسرى أمام باب القاعة التى تدور فيها نهاية مأساتنا. يسترق السمع ويتبادل بعض الكلمات مع معاونى الشرطة المكلفين بحراسة المدخل.

"إذا كان كل شىء على ما يرام فلماذا دامت الجلسة كل هذا الوقت؟" قالت امرأة شاكية. كامل مستمر فى مشيه وهو يجفف العرق من على وجهه. كلهم براءة إن شاء الله!...

"كل شىء على ما يرام بفضل الله! ستعرفون كل شىء بعد قليل...".

"هل تعلمين يا بولى أتساءل إن كان المحامى على حق فى تشجيعه إسماعيل لإظهار آثار الضرب... لست مطمئنة..." ماذا عساى القول لكامل؟ لقد نقلت له رأى المحامى المطمئن.

وصل أصدقاؤنا. آل لاكوتير وصحفى من روز اليوسف. إنهم يبتسمون وقد بدا عليهم الوجوم والحيرة.

"إذا؟ الجلسة مستمرة؟... والأحكام؟". زودناهم بما لدينا من معلومات. صاحوا قائلين "عظيم أن يوافق رئيس المحكمة على الاطلاع على ما عاناه زوجك!... حضور الطبيب الشرعى نقطة فى صالحه!... المهم هو نزاهة المحكمة ورئيسها...".

أجبتهم قائلة: "عجلة القدر بدأت فى الدوران!"... وارتسمت على وجهى ابتسامة عصبية. لكن وجودهم وملاحظاتهم بث فى الراحة.

"ها هو قريبكم" قال جان. "ها هو قادم وتبدو عليه السعادة...". بالفعل اقترب منا كامل مشرقا وانحنى على أمه وثريا: "تم تبرئة إسماعيل وحمدى! نعم وحياة ولادى! الحمد لله! الحمد لله!..." نعانق ماما وثريا ودموع الفرح فى أعيننا. هما أيضا متأثرتان. نحاول عدم استعراض فرحتنا احتراما للآخرين الذين لم يعرفوا شيئا بعد.

لكن امرأة قرب ثريا سمعت وبادرت بقول مبروك. وتقدم الآخرون نحونا مبتسمين ومهنئين.

ثم استوقفهم ضجيج أصوات وضحكات. خرج المتهمون من القاعة دون الأصفاد. أسرع إسماعيل وحمدى نحونا. دموع فرح، معانقة وتهنئة. ومرة أخرى فرقنا الضباط والعساكر. للمرة الأخيرة!

"لا تخافوا، عودوا إلى البيت. سيُحضّرون أغراضهم ويوقعون على بعض الأوراق ثم يلتقونكم قريبا ...." قال لنا أحد الضباط بطيبة. اقتربنا ببطء من الباب محبطات لكن فى غاية السعادة. وأدرنا ظهرنا لهذا المكان الذى شهد مسلسل قلقنا.

أنا وأختى فى حالة من الذهول، لم نكن نتوقع رغم كل شىء البراءة ولا إطلاق سراح إسماعيل وحمدى. ورغم تأكيدات أزواجنا ومحاميهم عشنا هذه الأيام فى حالة من الرعب.

انتهت محاكمة الواحد وستين متهما. وأصدرت محكمة أمن الدولة أحكامها بكل نزاهة. أحكام بالبراءة كثيرة. ولم يدن سوى المتهمين المثقلين بالدلائل إذ صدرت ضدهم أحكام مخففة فيما عدا من عثر عنده على طابعة ومناشير مكتوبة بخط يده. وأطلق سراح كل من صدر ضده حكم بالبراءة. اقتيدوا إلى المباحث لبعض الإجراءات قبل اللحاق بأسرهم.

(٢)

السويس

-١-

تنتهى آخر صفحة من يومياتى بهذه الجملة الغبية:" الناس السعداء ليس لهم تاريخ ...". كتبتها فى أكتوبر ١٩٥٦ .

سعداء؟ بدون أى شك. ألقى نظرة خاطفة على إسماعيل. ها هو جالس على مكتبه. رأسه مائل قليلا، ملامح وجهه جادة. يكتب بتركيز. سعداء؟ لأننا مع بعض، أحرار... نوعا ما... نردد الحكايات بالجملة.

لم يعد أمامه سوى كتابة مقالات لجريدة الشعب. لم أكن أدرى أنه علم بطرده من عمله وهو فى السجن. قال لى وهو وراء القضبان "لماذا أنت حزينة. لا تفكرى بولى فى المحاكمة... لا تفقدى الثقة. المهم هو براءتى" هذا الإجراء الذى اتخذ قبل المحاكمة بشهر واحد زَجَّ بى فى حالة من الغضب والخوف. ألم يكن هذا بمثابة إنذار للمحكمة؟... حتى المحامى كان قلقا... لم أسجل انطباعاتى ومشاعرى. لم أسجل الأحداث المهمة... بدافع الحذر ربما. ولم أشعر سوى بالأسى عندما قيل لى:

"لدينا خبر سار لك يا بولى. وقعت الحكومة عقد أسلحة مع تشيكوسلفاكيا!" ما همنى! كان إسماعيل لا يزال يقبع فى السجن العسكرى. أعلن الدستور الجديد ولم يطلق سراح أحد!

ماذا كان بإمكانى الكتابة بخصوص هذا الرئيس الجديد الذى انتخب بـ ٩٩٪ من الأصوات؟! خمسة عشر يوماً قبل المحاكمة. قلت لنفسى ربما عبد الناصر أحسن من غيره، رغم أن هذا الرقم قد أزعجنى. أكد لى أصدقاء عدة أن لعبد الناصر شعبية كـبـيـرة وأنه تعلم الكثـيـر فى باندونج ... لكنى بقـيت على حـذرى. سـبب لى هذا الشخص،الذى لا أحب صوته، ورفقاؤه كثيرا من الألم... ومع هذا ها أنا مثل الآلاف غيرى مـعجبة بشجاعتـه!... ليتنا كنا فى الإسكندرية ذلك اليوم!... غطت الزغـاريد والهتافات على صوته. أكد لى إسماعيل ما سمعته بصوت بُحَّ من الانفعال:

"لقد أمم قناة السويس!..." قشعريرة عبرت جسدى وغرقت عيناى فى الدموع... كنت أحاول فهم باقى الخطاب.

مثل جموع المصريين استعدنا ثقتنا. حاولت أن أكتب قصيدة. دون جدوى. كان الحماس أقوى. كلمات الاستقلال، والحرية، والفخر كانت ترقص حولى.

"كدت أنفجر بالبكاء" قالت ماما لدى عودتها من باريس. "كل أصدقائنا المصريين اتصلوا بنا فخورين وسعداء... وأصدقاء فرنسيون عديدون كفوا عن مكالمة خالتكم...".

-٢-

أنا وماما وإسماعيل نتوجه إلى ميدان سليمان باشا. سنشترى رقائق من الورق لحماية زجاج النوافذ. اخترق الإسرائيليون سيناء، والبواخر الفرنسية والبريطانية والإسرائيلية تقصف بورسعيد منذ البارحة. انطلقت صفارات الإنذار ثلاث مرات من الأمس لليوم.

"يجدر بنا ربما اللجوء إلى المخبأ" اقترح إسماعيل. "تعالوا ندخل إلى الأجزاخانة". حيَّانا الصيدلى والبائع. ووقفوا معنا على عتبة الباب. المارة مشرئبون إلى السماء على أمل مشاهدة طائرة... صَفَّر ضابط بوليس وصرخ: "اختبئوا! هذا خطير!...". لكن لم يعرهم أحد انتباها.

"هناك يساراً، الطائرة!" صرخ أحد المارة. لا أحد يرى شيئا. لكننا سمعنا صريرا صاحبه فرقعات متتالية للمدافع المضادة للجو.

"هيا اضربوهم!... أولاد الكلب!...". رأينا مندهشين على الرصيف المقابل شحاتين، وهما يهددان بقبضة يديهما السماء.

"بن جوريون، مولى، أيدن! كلهم أوغاد!..."، "سترون من نحن!...".

إنهم شبه عراة يا حرام! قالت ماما: "يجب أن أعطيهم شيئا".

الإنذار لم يدم طويلا. افترقنا بعد شراء الأغراض. توجهت أمى للهلال الأحمر حيث عرضت خدماتها. أما نحن فعدنا إلى البيت، حيث بدأنا فى لصق الورق على النوافذ. استقبل إسماعيل بعد الغداء أحد أصدقائه في غرفة المكتبة. أما أنا فعندى

موعد الساعة الثالثة ونصف مع ماهى فى النادى. لقد سجلت نفسى مع ابنة خالتى فى حصص الإنقاذ التى تنظمها إدارة النادى بناء على طلب الأعضاء. سيدات من الهلال الأحمر وممرضات وأطباء تقدمن لإعطاء دروس بالتناوب. الطلبات فاقت التوقعات لدرجة أن الإدارة طلبت من المتأخرين العودة الأسبوع التالى. وقام ضباط على المعاش بتدريب شباب وحتى شابات بين السادسة عشر والعشرين سنة على حمل السلاح. وهنا أيضا فاق عدد المتطوعين احتياجات الجيش؛ لذا تم إعلامهم أنه سيتم استدعاؤهم فى حالة الطوارئ.

تم تكوين فرق للدفاع المدنى، ثالث أيام الاعتداء، فى كل أحياء العاصمة. تعمل إنجى التى شاركت فى تكوين هذه الفرق فى حى الجمالية الشعبى. وروت لنا أن النساء شابات ومسنات رددن "لو تجرأ أولاد الكلب على دخول مدينتنا سنستقبلهم بسكاكين المطبخ وغطيان الحلل!".

بعض الملاحظات للتعبير عن حماسى: "لقد كَهْرَبَ العدوان الثلاثى المصريين منذ الساعات الأولى. يبدو أن الفوارق الطبقية واختلافات الرأى قد تلاشت لحين. المستهترون واللامبالون والمرتابون كلهم امتلؤوا بنفس الحماس الوطنى. لقد نسينا منذ زمن بعيد أن قناة السويس جزء من مصر... هللنا وصرخنا فرحنا ثم انتظرنا متوجسين ومترقبين... هل ستستطيع البواخر عبور القنال دون حوادث؟ هل سيكون التقنيون المصريون على مستوى المسؤولية؟... فرنسا، وبريطانيا، والغرب كله كان ينظر إلينا متشككا محتقرا... وتوالت الأيام والليالى دون أن تخذل أملنا... ومثل النبات الظمآن، استرجعنا ابتسامتنا يغذيها فخر يافع ورائع...".

يؤدى العمال والموظفون مهامهم بجد ودقة. واتفق عمال مصانع الأدوية على القيام بساعات إضافية دون أجر.

لكن يبدو أن وقف القتال قد أحبط الأغلبية... الكثيرون لا يدركون درجة ضعفنا العسكرى. نحن فى حاجة إلى سلاح وطائرات وخاصة إلى تدريب.

حصلت النساء على حق التصويت. هل تدركن أهمية هذا الإنجاز؟ تدفع بهم الأمية إلى خمول لا تعرفن بعد كيفية التملص منه. تشارك أختى فى حملة مقادها توعية أكبر عدد من النساء بحقوقهن. أدرك أن هذه لحظة وعى. قادنى حماسى للالتحاق بمتطوعى الزمالك. كنا ثلاثة، نمر على العمارات الواحدة تلو الأخرى، وندق على الأبواب. تجربة أعتز بها. السفرجية وعاملات البيوت يفتحون لنا أو يغلقون الأبواب فى وجوهنا. لكننا نعاود الكَرَّة ونطلب رؤية ربة المنزل. وبعد بضع دقائق يفتح الباب لتظهر امرأة بالروب والبيجودى على رأسها: "ما الموضوع؟ ماذا تريدون منى؟ ومن أنتم؟...". ترمقنا بنظرة قلقة. وعندما نشرح لها سبب زيارتنا يتلاشى كل شىء، تعتذر وتقدم لنا القهوة.

كلهن كن يستقبلن جيدا يفتحن الأعين، يرفعن الأكتاف يترددن. بعضهن كن يضعن توقيعهن تحت توقيع الشغالات اللاتى يعملن لديهن. "لماذا عدم الاستفادة من هذا، إنهن يعطيننا الفرصة لقول نعم أو لا...". بعضهن يستوقفنا للحديث وأخريات تطلبن منا فرصة للتفكير واستشارة أزواجهن. استغربنا من إحراز نجاح أكبر لدى النساء الفقيرات. كن يبصمن بمنتهى الحماس.

-٤-

"نحن مدعوون عند إلهام يوم ٨ ..." قال لى إسماعيل "ارتدى ملابس عادية..".

دعت إلهام حوالى خمسين شخصًا. سهرة لا تنسى! المدعوون وأغلبهم من الحزب الشيوعى المصرى بجانب أعداء البارحة أعضاء الحدتيو. سألت إنجى عما يجرى.

"لقد تم توقيع توحيد الحزب هذا الصباح... ألم يخبرك إسماعيل؟..." فى الوقت نفسه ظهر فؤاد مرسى وعطيات. سلمت عليهم وهنأتهم! "مبروك!".

وهاهم من كانوا ينعتون بعضهم بالخونة يشربون ويأكلون معًا. فؤاد مرسى الأمين العام للحزب الشيوعى المطارد من البوليس السياسى يتحدث مبتسما مع أحد مؤسسى الحديتو. لقد عذب إسماعيل ليبوح باسم الأمين العام الحقيقى... يا إلهى! أنظر إليهم مرعوبة. سألت إسماعيل عندما كنا فى باريس: "لماذا لا تحاولون التغلب على خلافاتكم؟ مما لا شك فيه أنكم ستصبحون أكثر قوة لو اتحدتم... أكثر وزنا...".

"هذه أكبر مشاكلنا... قادة وكوادر هذه الأحزاب كلهم تقريبا من البورجوازية الصغيرة ومن طبقة المثقفين... غرباء عن مشاكل العامة..".

هل نسوا كل شىء؟ إنها لحظة تاريخية. هل سيتمكنون من العمل اليد فى اليد؟.

أستلقى بجانبه، إنها الواحدة صباحا: "قل لى يا "إسما" منذ أيام قليلة لم يكن أحد فيما عدا القلة، يعرف هوية فؤاد مرسى الحقيقية. الآن مع هذه الوحدة، الكل بات يعرفها. أليس هذا خطيرا؟ إنها مجازفة كبيرة...".

"المناضل السياسي يجازف دائما... مجازفة تستحق العناء. توحيد الأحزاب فى كيان واحد قوى فى هذا الوقت بالذات، تفتح الآفاق... كفى عن القلق، نامى الآن... سنتحدث ثانية فى الأمر فيما بعد...".

بعد بضعة أيام أعلنت الأهرام فى عناوين كبيرة إصدار العديد من القوانين. لم أفهم منها الكثير فانتظرت ساعة الغداء.

"تم تأميم الشركات والبنوك والمؤسسات الكبرى... ستصبح القيادات ورؤوس الأموال مصرية... نشهد تقلبات كبيرة فى هيكل الاقتصاد المصرى. على الاقتصاديين الماركسيين المشاركة بكل الوسائل فى هذا التغيير... هل تفهمين الآن أهمية الاتحاد؟ لنا رفقاء بين رجال الاقتصاد يمكنهم المشاركة فى هذا البناء الاشتراكى...".

"هل تعتقد أن هناك مجالاً للحوار بينكم وعبد الناصر؟".

"ربما ليس بصفة مباشرة. المهم الآن أن ندعم هذه الإجراءات...".

حصلت المعجزة! إنشاء عبد الناصر للهيئة الاقتصادية، ومنح "إسما" المكانة التى يستحقها المدير العام المهندس صدقى سليمان، وإسماعيل عُيِّن فى منصب مدير الشعبة الاقتصادية! أنا فخورة وسعيدة. ماما وديدى وحمدى فرحوا أيضا لهذا، أما بابا فكان متوجسا. هذه التأميمات لم تثر حماسه، على المصريين -على حد تعبيره- أن يكونوا على مستوى هذه الخطوة.

عاد مصطفى ونيمات إلى فرنسا وقدم إلينا ثانية أصدقاؤنا سمير وإزابيل أمين. سيستقرون فى شقة فى القاهرة. وحالما تقلد إسماعيل منصبه اختار سمير أمين ليكون من بين معاونيه.

فى هذه الأثناء كانت أجواء من عدم الرضا والقلق تحوم على نادى السيارات ونادى التحرير (نادى محمد على سابقا) والجزيرة ملتقى الطبقة الأرسطقراطية.

"إنهم مجموعة من الفلاحين والأميين. نحن مقبلون على الإفلاس!... قرر فلان بيع فيلته. وزوجته شرعت فى بيع مجوهراتها... هل تعرفون؟ يقال إن..." ثم تنخفض أصواتهم حتى لا يسمعهم أعضاء النادي الجدد. "انظروا إلى ملابس زوجة هذا المتسلق!...". تنطلق الضحكات.

عندما دعتنا ماما نحن الأربعة إلى العشاء فى نادى السيارات المشهور بأكله اللذيذ، اقترب منا أصدقاؤها وهنؤوا إسماعيل.

"إذن ماذا تظن وأنت رجل اقتصاد؟ ماذا سيحدث؟ هل تعتقد أن فلانًا كفء؟... أنا سعيد بإدارة المصريين لبنكى لكن أرجو أن يكونوا أهلا لذلك...".

فقلت ضاحكة: "يبدو أنهم مطمئنون لتعيين إسماعيل!...".

نقلت لنا ماما ملاحظات بعضهم بابتسامة يملؤها الفخر: "هنأنى فلان، وقال إن تعيين إسماعيل فى هذا المنصب يحسب لهؤلاء الضباط؛ لأنه شاب ذكى وكفء. وأضاف أنه سعيد لأنهم اختاروا رجلا من العلية..." استقبلنا هذه المجاملات بضحكات عالية.

"مبروك يا إسماعيل" صاح حمدى وواصلت إنجى: "ماذا تسمع! الحمد لله، إنهم يجدونك ذكيا وكفئا!"

"كلمنى السيد باولى هذا الصباح" قالت ماما لإسماعيل فى التليفون. "يخشى أن يتم الاستغناء عن خدماته... أشفقت عليه يا إسماعيل. أنا لا أعرفه لكنه عندما علم أنك صهرى كلمنى. قال لى إن بولتكس كل حياته. وإنه مستعد للعمل دون أجر...".

"ليطمئن يا حماتى. سيحتفظ السيد بولتكس بمنصبه. بولتكس من أحسن مصانع القماش فى مصر. نحن بحاجة إلى خبير مثله...".

-٦-

بدأ حمدى يبحث عن شقة كبيرة فى الزمالك. بطلب من ماما وافق كل من أختى وحمدى فورا على العيش معها.

"ماذا أفعل؟"، قال حمدى أمام إنجى: "أعيش مع امرأة لا تعرف سلق بيضة كما نعرف يا إسماعيل! أعبدها فهى سياسية رائعة ورسامة كبيرة لكنها ليست ربة منزل... مرة تنسى شراء البن ومرة أخرى الشاى!...".

سمعناهم دون تعليق. صحيح أن ماما متسلطة وعصبية لكنها متوافقة تماما مع صهرها. وحمدى يقبل منها كل شىء ويتفانى فى الاعتناء بها. أما إنجى فتعرف كيف تتعامل بدبلوماسية فائقة مع ملاحظات ونقد وأهواء ماما. إذ إن العيش تحت سقف واحد مع ماما يتيح لها التنصل من مسؤولياتها باعتبارها ربة بيت. هكذا تضرب إنجى عصفورين بحجر واحد: توفر لنفسها مساحة حرية أكبر، وتعطى لأمنا مصدر سعادة كبيراً. ليس غريبا أنها ظلت لآخر يوم فى حياتها ابنتها المفضلة!

بابا توفى! يوم ١٦ مارس ١٩٥٧... لزمنى شهرين لأخط هذه الكلمات الثلاث فى يومياتى.

"تبدين مستسلمة للأسى.."، قال لى ذات يوم إسماعيل: "تحركى! هذا لا يليق بك...". لم أدرك مدى ثقل الحزن الذى كان يغطينى والذى كانت ترمز له ثيابى السوداء. كنت أشفق على نفسى. رويدا وبمنتهى الرقة فك "إسما" أربطة الهواجس القاتمة التى لم أستطع التخلص منها. وأعلن لى بابتسامة مشرقة مؤخرا: "يود الرئيس أن أذهب إلى روما هذا الصيف!... إنه عمل بين الهيئة وجهات إيطالية. ستذهبين معى!...".

استرجعت توازنى وبدأت أحلم بهذا السفر.. أستطيع العودة الآن إلى يومياتى لرصد أحاسيسى وملاحظاتى. لقد فقدت شخصا عزيزا. كنت أكن له حبا جما. أنا نادمة لأن الخوف منعنى من الدخول إلى غرفته لرؤيته مرة أخيرة. قالت لى ماما وليلى إن وجهه كان هادئًا ومسترخيا... مثل كل الموتى.

مسكين بابا، كان قلقا على مصير مجموعة الذباب، وعلى إسماعيل الذى لم يكن يعمل. وفرح لما علم بتعيينه أياما قبل مرضه. كان فى مرتبة ابنه. جنازته كانت مؤثرة وكان من بين الحاضرين بعض طلابه القدامى الذين أصبحوا أساتذة. بكوا فيه الصديق والمرشد وأحد أكبر علماء البلد.

أنجبت أختنا زهرة المتزوجة من مهندس طفلا، أسمته حسن، ولد بعد وفاة جده بأسبوع.

لقد كان آخر يوم من سنة ١٩٥٦ يوما سعيدا. بدأت السهرة عند بابا وزوجته. أحتفظ بهذه الأوقات فى ذاكرتى كما لو كانت كنزا. كالعادة كلف بابا بتقطيع الديك الرومى. ما زلت أرى يديه اللتين طالما أعجبت بهما وهما تقطعان رقائق الديك الرومى. أرى نفسى أرقص بين ذراعيه وهو يقودنى، أسمعه وهو يقول لى مبتسما: "يا سلام! ابنتى ترقص جيدا...". نظرت إليه مندهشة: "هل نسيت يا بابا؟ أنا تلميذتك!.." وذكرته بأول دروسه لى فى حلوان. "كنت تؤكد على تماسك جسدى... كنت تقول لى اتركى نفسك للإيقاع وللموسيقى، كنت تقود حركاتى".

بعد بضع رقصات استأذنا وانصرفنا. "بهذه السرعة؟" قال بابا بشىء من الأسى لرحيلنا. "طيب استمتعوا بوقتكم، وكل سنة وأنتم بخير".

كان علينا بعد رحيله أن نواجه مسائل الميراث. لم أستطع كبح دموعى وأنا أدخل هذه الغرفة التى ما زالت تخيم عليها رائحته المميزة. رائحة كولونيا وتبغ. وافقنا على فكرة إسماعيل بالتبرع بمجموعة الذباب وبمؤلفاته وكتبه العلمية لكلية العلوم. حصلت على لوحة جميلة لفؤاد كامل وأخرى لجون كويلى كانت تبهرنى منذ طفولتى. كما حصلت على تسعة وعشرين جزءا من الموسوعة البريطانية وعلى طبعات قديمة من شكسبير ووليام بليك..

عندها قالت ماما بصوت قاطع: "تسريحة الباشا من السنديان! ستكون قطعة أثاث جميلة فى شقة إنجى" لقد نسبتنى أمى. نسيت أننى أنا كذلك بحاجة إلى مكتب. مع أنها كانت فخورة جدا عندما نشرت قصائدى.

كتب والدى ٥٠ فدانًا لليلى و٢٠ لتوفيق. لم نندهش أنا وإسماعيل لهذا الأمر كنا نتفهم قرارات والدى. واستطاع إسماعيل تهدئة غضب جلال وحمدى. ألم يكن طبيعيا أن يريد أبى تأمين مستقبل زوجته؟ وكان علينا أن نتخطى موقفنا من توفيق. لقد عمل هذا الرجل الذى تكون على يد والدى منذ صغره، طوال عمره فى ظله. كان علينا أن نكون على مستوى رغبات والدنا.

جلسنا بعد العشاء مع أصدقائنا فى غرفة المكتب. فُتِحَت كل النوافذ.

"إذن إنجى وحمدى فى الإسكندرية؟... لوقت طويل؟...".

"عشرة أيام ربما. لكن إنجى جاءت اليوم لحضور اجتماع نسائى... لم تتمكن من الانضمام إلينا هذا المساء. أظن أنها ستعود هناك فى الغد باكرا...".

"متى سينتقلون إلى شقتهم؟ كانت تقريبا جاهزة، عندما زرتها مع حمدى. الشقة جميلة... أين وجدت والدتك هذا الأثاث الجميل؟"

"صالحة هانم مواظبة على ارتياد المزادات منذ سنوات طويلة. إنها تحب هذا. الشقة جاهزة وصالحة هانم تنتظر عودة إنجى وحمدي للانتقال إليها... التليفون... من يطلبنا فى هذه الساعة؟.." وها هو "إسما" يعود متوجما: "أعتذر لكن يجب أن أذهب مع صالحة هانم وإنجى إلى الإسكندرية... وقع حادث لحمدى... ونقلوه إلى المستشفى...".

"ماذا حصل بالضبط؟ نتمنى ألا يكون الأمر خطيرا... سنترككم الآن إلى اللقاء..".

"سأذهب معكم انتظرنى يا "إسما" سآخذ شنطتى...".

بدأت ليلة مرعبة. شارع شامبليون. ماما واقفة على الباب فى انتظارنا. إنجى تحمل حقيبة صغيرة. لقد نسيت بيجاما حمدى فى القاهرة. رفضت أمى أن يقود إسماعيل ليلا. والسائق الوحيد الذى وافق على توصيلنا إلى الإسكندرية كبير فى السن

نوعا ما، وبدت لنا سيارته فى حالة سيئة. حلف أنه يمكنه توصيلنا إلى الصحراء إن شئنا. الساعة الثانية عشرة ليلا ولا يمكننا الانتظار أكثر. هذه المرة الأولى التى تضطر فيها ماما للركوب فى سيارة متهالكة كهذه يقودها سائق عجوز. جلس إسماعيل بجانبه ونحن فى الخلف. وبدأ الطريق الصحراوى القاحل ينسحب أمامنا. لم يقابلنا خلال ساعتين سوى شاحنة عسكرية.

"تحدث معه يا إسماعيل كى لا ينام. هل يعقل أن تنسى الواحدة بيجاما زوجها؟ يا لها من زوجة مثالية يتمتع بها حمدى المسكين!..." لم ترد إنجى على مداعبة ماما. ظلت تدخن فى صمت لازمها حتى وصولنا للمستشفى. شارفت الساعة على الثانية صباحا. ألهانا القلق الدفين عن جلوسنا غير المريح على هذه المقاعد وعن استعجالنا. شرح لنا السائق أنه لا يستطيع زيادة سرعته. محركه عتيق مثله! حاول إسماعيل أن يمزح قليلا للتخفيف من التوتر. قال لى فيما بعد إن ماما قد أخبرته: "ليس حادثا؛ بل جلطة فى المخ... لا أمل...". لكن إسماعيل ظل متفائلا. وخلال رحلتنا الجنونية كان يعد فى سره قائمة الأطباء الأكفاء الذين سيحضرهم لحمدى.

الساعة السادسة صباحا. رمقنا الممرضون وعاملات النظافة اللاتى كُنَّ يمسحن الأرضيات بلا مبالاة. يجب أن نصعد للطابق الثانى. وضعوا حمدى فى غرفة بمفرده قرب صالة العناية المركزة. إنجى تبعتنا متماسكة ولم تنطق سوى بنداء واحد: "أين حمدى؟! أريد أن أرى حمدى...".

أشارت ممرضة إلى باب زجاجى. لم يفهم أى منا ما تفوهت به من كلمات. وقفنا دون حراك أمام هذا الرجل المجهول الملقى على سرير من الحديد. هل هو فعلا حمدى؟ وجه أسمر نصفه مغطى بقناع الأكسجين ويصدر منه لما يتنفس شخير غريب. الدم يسيل على ذقنه ويلطخ الملاءة.

"هذا ليس حمدى!... ماذا تقول هذه الغبية؟! قل لها إنها مخطئة..." همست أختى بنبرة تقترب من التوسل.

"هيا بنا نخرج من هنا" قالت أمى بهدوء: "تعالى يا إنجى".

فى هذه اللحظة ظهر طبيب واقترح علينا الجلوس فى الرواق. "توجد مقاعد هنا...". سحبت أمى إنجى وجلسنا ننظر إلى إسماعيل وهو يتكلم مع الطبيب بصوت منخفض. ثم اقترب منا قائلا: لقد طلبت قهوة وساندوتشات..". فتح باب الغرفة التى يرقد فيها حمدى وخرج منه ممرض يجر وراءه جهاز الأكسجين.

"ما هذا؟ لماذا؟..." هرع زوجى نحوه. تنهد الرجل قائلا: "البقية فى حياتك!". انتابتنا رعشة وراح إسماعيل يصرخ بصوت يائس: "لا! مش ممكن! مش ممكن!..".

عادت أختى من الحمام. من سيخبرها؟ أنا أَمْ أمى؟ لكنها رأت الممرض وهو يدفع الجهاز. توقفت. فتحت عينيها واستقر نظرها على وجه إسماعيل المفكك. حضنتنى أمى بشدة لدرجة أننى شعرت بالألم. وقالت بصوت منخفض" إنجى فهمت!". وضع إسماعيل ذراعه على كتفى إنجى، وقادها نحونا ثم جعلها تجلس:

"لا أفهم! غير معقول! ماذا حدث؟ حمدى!...

تكلمت بهدوء وكأنها معلقة بأجوبة لا تأتى. عيناها التصقت بنقطة ما. رفضت بحركة الصينية التى جاء بها شاب بجاكيت أبيض وبنطلون أسود. وضعها على طاولة حديدية سحبها نحونا: "القهوة والسندوتشات التى طلبها البيه..".

أحاول الامتناع عن البكاء والكف عن النظر إلى إنجى. ألقى نظرة على الرواق المؤدى إلى بلكونة. يمكننى أن أرى البحر ومراكب الصيادين...

"جى جى عزيزتى...ألا تريدين رؤية حمدى؟" قالت أمى...".

نعم يا أختى، اذهبى لرؤيته. لقد غسلوا وجهه ونظفوا كل الدم... اذهبى يا عزيزتى. يجب أن تمحى من ذاكرتك مشهد احتضاره. لحظة لم تتعرفى عليه وهو يصارع الموت...

قادتها أمى نحو الغرفة الصغيرة. إسماعيل يتحدث قرب السلم مع رجل يكتب شيئا ما على ملف. الإجراءات!... ها هو يلتفت نحوى وألاحظ وجهه الشاحب وعينيه المتعبتين.

"أين إنجى؟..."

شفتاه ترتعشان. وجهش بالبكاء. هرعت نحوه لأرتمى فى أحضانه وأبكى.

" لا أصدق ما حدث... حمدى؟ حمدى؟...". ألمح ماما وأختى تغادران الغرفة الصغيرة وتتجهان نحو الكراسى. لم تلاحظا وجودنا. هدأ إسماعيل: "تعالى نذهب إليهما. اهتمى بإنجى!.. وحاولى عدم البكاء أمامها...".

لكن إنجى أخذت كرسيا إلى البلكونة وجلست بعيدا عن الأنظار وبكت. لحقت بها وضممتها إلى وقبلت شعرها. صدتنى: "أرجوك يا يولى، اتركينى! أنا بحاجة لأكون بمفردى...".

زوزو وجلال! لم ينس إسما إخبارهما. أختنا الصغيرة تبدو تائهة تتكلم بصوت منخفض. معرفتها بحمدى قليلة، لكنها كما قالت لنا فيما بعد صدمت بهذه الموتة المفاجئة، ولم تكن تفكر سوى فى حزن إنجى.

قدم جلال مساعدته لإسماعيل وماما لإتمام الإجراءات. وبما أنه سكندرى ويعمل فى البلدية قال: "سأتولى كل شىء. لا تقلقوا. أعرف كل الناس..." أمسك بذراع إسماعيل الذى شرب قهوته وذهب معه.

اقتادونا إلى محطة القطار منهكين من الأسى والتعب، قابلنا بعض الأصدقاء، المدينة كلها علمت بالوفاة والفجيعة. سمعت إحدى الصديقات تهمس فى أذن أمى: "التعذيب الذى تعرض له فى السجن هو السبب...". "لكن حمدى أطلق سراحه منذ سنة!..." قالت أمى. "صعقته جلطة فى المخ...".

ها هو القطار يسير عبر الأرياف. هل حمدى معنا؟ جسده الهامد، الممدد فى ذلك النعش الخشبى... حقول الأرز، مساحات خضراء تقشعر لمرور النسيم.

"لقد أخبرتُ عائلته. وجلال اتصل بالأهرام وأملاهم النعى... الجنازة ستقام غدا فى الساعة الثانية عشرة... سيدفن فى مدفن أسرته... ها هو النادل هل تريد كوكاكولا؟ أشعر بالعطش!". السائل دافئ ويمر بصعوبة. أبتلعه رغم ذلك، أنا متأكدة أنه أطعم من قهوتهم... سيكون يوم الغد فظيعا.." "Domani é troppo tardi, un altra giornatio". صوت حمدى وضحكته. لم يكن يفوته أى فيلم إيطالى حتى أفلام الميلودراما!.

لقينا العزاء فى شقة شامبليون. أتى ناس كثيرة. أصدقاؤنا والعديد من المحامين الذين أتوا بعد الجنازة لمواساة إنجى. وفاة محمد حمدى أبو العلا وهو فى سن الخامسة والثلاثين أثرت فى كل زملائه وأصدقائه: الكل كان يكن له التقدير.

تحملت إنجى كل هذه الزيارات بكثير من الوقار. اللون الأسود زاد وجهها الجميل شحوبا. ها هى تعيش ألمها وتتعرف على الوحدة التى تنتظرها.

"لماذا لا يسمح للنساء بالسير وراء النعش؟" سألت إنجى حين ظهر النعش المغطى بالورد. كان يحمله خمسة رجال، ويمشون به نحو السيارة التى ستنقله. وكان على رأس الموكب إسماعيل وعز الدين وكامل. رجال العائلة.

"عادة سخيفة، تُمْنَع النساء من التعبير آخر مرة عن التقدير لمن يحببن..." رمت أختى هذه الكلمات وغرقت فى البكاء.

٧أ، شارع حسن صبرى الزمالك. انتهت أيام العزاء الثلاثة أخيرا. بعدها بيوم سارعت أمى للانتقال مع إنجى فى الشقة الجديدة فى الطابق السابع. قرار صائب يتيح لأختى فرصة صحية لتغيير الأجواء. فى هذه الفترة تقبل إنجى بلا مبالاة خطيرة ما نقدمه لها من اقتراحات.

"لا يجب أن تبقى أختك لوحدها ولو للحظة" قال لى إسماعيل. وافقته الرأى ورحت مدفوعة بحبى الجم لها أزورها كل يوم. فى بداية الأمر كانت إنجى منشغلة بأمور الإقامة الجديدة، وقبلت مساعدتى بسعادة. غرفة نوم ومكتب ورواق طويل تحفه ونوافذ زجاجية سيكون مرسمها. أساعدها فى ترتيب كتبها الفنية وأوراقها وخاصة فى تعليق لوحاتها وتصنيفها فى خزانة لهذا الغرض. وبينما كنا ننتقل من غرفة لأخرى لاختيار المكان المناسب للوحات، لاحظت أن الهدوء يستقر فى ملامحها شيئا فشيئا.

"إنها إضاءة رائعة للرسم!.." قالت بعد أن وضعت حامل اللوحة. "زوجك وصل! أحضريه يا بولى. يجب أن يكون أول من يزور ما تسمينه ركنى الخاص".

وها هو إسماعيل مبتسما: "هذا رائع يا إنجى! أخيرا لك مرسم حقيقى بعيدا عن ضوضاء المنزل... هل انتهيتم؟... طيب إذن سننزل إلى حماتى، إنها تنتظرنا فى الروف...".

هذا الروف كما تسميه ماما عبارة عن تيراس كبير يطل على شارع حسن صبرى ومنه نعبر إلى صالة السفرة. تزينه أصص الزهور والزرع الأخضر. وآخر النهار يضع

السفرجي الأرائك والكراسي حول صينية مستديرة، حيث نلتقي لنتبادل أطراف الحديث ونشرب كأسا مستمتعين بطراوة المساء. وتقريبا كل يوم يأتي الأصدقاء للاطمئنان على أختي. وكثيرا ما تدعو المقربين منهم على العشاء.

"عندي شالات لمن تشعر منكن بالبرد" تردد أمي وهي تضحك. كم تبدو لي بعيدة تلك الليالي العائمة بالطراوة. لم نكن نستطيع الخروج دون جاكيت خفيف أو شال. منذ متى أصبح الصيف المصري حارا ورطبا هكذا؟

نحن في منتصف سبتمبر. أبدأ في التفكير في سفرنا إلى روما. أشعر بالحيرة عندما أفكر في أختي. أنا سعيدة بهذا السفر لكن قلبي يعتصر لأنني لا أقوى على فراقها. أما ماما التي قررت عدم ترك ابنتها شجعتنا. "حاولوا إقناعها". "لقد غضبت مني عندما اقترحت عليها الذهاب معي إلى روما".

لم تعد إنجي بعد إلى نشاطها السياسي؛ لكنها كانت تلجأ إلى مرسمها حيث تقضي أول النهار في الرسم. قالت لي إنها غير راضية عن عملها. "أحاول دون اقتناع، لمجرد تمضية الوقت...".

استغل إسماعيل الذي كان يزورها باستمرار، غياب ماما، وعرض عليها وجهة نظره التي أقنعتها.

وجدنا مفاجأة غير سارة فى انتظارنا فى مطار القاهرة. عند صعودنا الطائرة اقترب ضابطا شرطة من إسماعيل وطلبا منه مرافقتهما. حاول الاحتجاج قائلا: إنه مسافر فى مهمة رسمية لكنهما أمسكا بذراعه وأخذوه.

"لا تقلقى. سأستقل الطائرة القادمة..."

تكدرت وأخفيت دموعى. حاولت إنجى تهدئة أمى التى انهالت بالشتائم ضد الحكومة. لقد سبق لأختى أن عاشت مثل هذه التجربة وشرحت لها أنه إذا وضع الاسم على القائمة السوداء يظل عليها مهما كان الأمر. سلانا كثيرا وجه المهندس الشاب المصدوم الذى كان يرافق زوجى.

كان يردد "غير معقول! مش ممكن!... كيف سأعمل دون الدكتور إسماعيل؟".

لا تزال تاتى جميلة. لم تتغير منذ ١٩٥٣. ولو لم تكثر من الماكياج لبدت أكثر شبابا. كانت سعادتها كبيرة عندما رأت فى اليوم التالى إسماعيل يقترب من طاولتنا.

رجلاى تؤلمانى من المشى. الوقوف الممتد يتعبنى دائما. أكتب قليلا فى انتظار إسماعيل. اشتركت فى رحلة استكشافية للمحلات لإرضاء ماما وتاتى. وأظن أننا نعرف الآن كل المحلات الواقعة فى الشوارع الجميلة المقابلة لبيازا دى إسبانيا. قضت إنجى يومها مع صديقة إيطالية. وخلال المحاضرات التى حضرتها تعرفت إنجى على مندوبين من كل الجنسيات وخاصة إيطاليين. اتصلت بمن تحبهم. دعوها للغداء وتنزهوا بها فى أنحاء روما. أما نحن فسعداء باسترجاعها عافيتها.

كل مساء نتعشى مع بعض. وأصر إسماعيل على مصاحبتنا. فهو يعلم أن وجوده يسعد تاتي وإنجي. بعد يومين ستعود تاتى إلى باريس، وماما وإنجى إلى القاهرة. حينها سيتسنى لنا قضاء عطلة حقيقية وخاصة رؤية ريموند الذى سيأتى خصيصا من باريس للقائنا. قال لنا إنه أصبح أبًا لولد. هو جابى فى غاية السعادة، وسموه فليبو ماريو.

أشعر بالحزن لفراق تاتى. من يدرى متى سنلتقى ثانية؟

كل صباح فى تمام الساعة الحادية عشرة نلتقى بريموند فى محل اسمه روزاتى شارع فينيتو. ويبدأ بينه وبين إسماعيل نقاش طويل حول مصر. لم نلتق منذ مأدبة الغداء عند تاتى فى باريس عام ١٩٥٤.

"أريد أن أعرف كل شىء عنكما". أنف صديقنا الكبير يتحرك. "الإكسبريسو هنا رائع... إذن عانيتم الأمرين! وإنجى؟... هل تتصورين يا بولى أن أختك أرملة! ووالدتك؟ كيف واجهت وجود صهريها فى السجن؟... وفاة حمدى؟...".

كنا نجيب. أمنا التى تخفى عدم رضاها، والتى لا ترتاح لمعتقدات أطفالها، ولا تفهمها والتى لا تتفوه مع هذا بأى عتاب. وإنجى الشجاعة الرزينة التى تتماسك شيئا فشيئا.

يحاول ريموند إقناع إسماعيل بالمكوث فى أوروبا... أستمع إلى صديقنا، أرمق إسماعيل وألوذ بالصمت. يده اليسرى تدير فنجانه الخاوى. يستمع إلى صديقه ويبتسم بتلك الابتسامة الساخرة التى أعرفها جيدا والتى تعبر عن عدم موافقته.

"الساعة تجاوزت الواحدة هذا وقت الغداء. ألا تشعرون بالجوع؟...". توقف ريموند. عرف أن صديقه، وهو الذى يعرفه جيدا، لا يوافق على حججه.

"على كل حال فكر جيدا يا إسماعيل قبل أن ترمى نفسك فى التهلكة! لديكما أنتما الاثنان أكثر من أسبوع للتفكير فى الأمر... أين سنتناول الغداء؟".

يعرف ريموند أحسن مطاعم روما وتخصص كلٍّ منها . كنا نضحك لسماعنا اقتراحات صديقنا للتوغل في فنون الأكل. عندما نكون مع ريموند يصبح اختيار مطعم ضربا من الطقوس الجدية، التي تستدعي نقاشا طويلا.

سأل ريموند إسماعيل عن فترة السجن العسكرى. هز الأخير كتفيه قائلا: إنه كان يجز على أسنانه ويعض شفتيه مفكرا أنه سيموت أو سيبقى على قيد الحياة...

"وها أنت ترى يا ريموند لقد بقيت على قيد الحياة..." توقف "إسما" عن الكلام واسترسلت أنا . لم أتمكن من الصمت. حدثت ريموند عن السجائر التى كانوا يطفئونها على أرجله وأظافره التى اقتلعوها والضرب... أوقفنى إسماعيل الذى لا يحب الولوج فى هذا الموضوع. يفضل الكلام عن المحاكمة وعن ضربة المعلم... ريموند على دراية ببعض التفاصيل من خلال الرسائل التى تمكنت من إرسالها إليه ومن الصحافة أيضا . أستمع دون دهشة إلى الملاحظات التى يسوقها ريموند عندما راح إسماعيل يصف له ملامح مصر الحديثة التى ولدت عام ١٩٥٦ يوم تأميم قناة السويس.

ها هو ألبيرتو. نحن سعداء بلقائه وسلمنا عليه بحفاوة.

"كم يسعدنى لقاؤكم!" صاح رئيس تحرير الإنيتا **L'unita**(*).

ثم قال وهو يتصفحنا: "أنتما رائعان!..." يذكرنى وجهه بشعره الأسود المتطاير وجبهته العريضة ووجنتاه الغائرتان بملامح كوسيرى مع أقل من التوتر ربما . ألبيرتو جياكوفيلى صديق قديم. وهذا المساء نتناول العشاء مع جيانكارلو باجيتا .

"سيأتى أيضا أنتونيلو وسبانو وماريو" قال ألبيرتو "لقد أصروا كلهم على مقابلتك".

(*) الجريدة التابعة للحزب الشيوعي الإيطالي. (المترجم)

ألبيرتو هو من بين أصدقائنا الإيطاليين، الأكثر إتقانا للغة الفرنسية وهو أيضا أكثرهم انطلاقا وجموحا ولا تخلو طريقة كلامه من الألفاظ العامية. قام جيانكارلو، عند رؤيتنا وقد بدت عليه سعادة غامرة. وراح يحضن إسماعيل متأثرا بلحظة اللقاء ثم ابتعد عنه ونظر إليه مرة أخرى ويداه على كتفيه. هز رأسه الخالية تقريبا من الشعر وقال: "طيب تبدو بحالة جيدة..." والتفت إلى: "اعذريني يا بولى، أنا فى غاية السعادة لرؤية إسماعيل ثانية..." ابتسمت وصافحته.

"لا شك أن الأمر كان صعبا عليك أنت أيضا... تفضلى هنا..." وجلست قرب ريموند يقابلنى جيانكارلو الذى استحوذ على إسماعيل دون أن ينسى طلب نبيذ "مخصوص". نظرة عيونه الرمادية ذات الحواجب الرمادية الكثيفة المقتضبة التى تضفى عليها الحدة تنزلق من إسماعيل إلى باقى الحضور الذى مال برأسه لسماع إسماعيل. أتمعن فى هذا الوجه المعبر الذى غزته التجاعيد والذى يجذبنى.

لقد قاد جيانكارلو عضو الحزب الشيوعى مجموعة من مجموعات المقاومة وقضى سنوات عديدة فى السجون الفاشية.

"كل من هم على هذه الطاولة مروا بتجربة السجن" لاحظ ريموند مضيفا "فيما عدا جيلو بونتكورفو الذى كان صغير السن... كيف حالك يا جيلو!". صافح المخرج الشاب إسماعيل بحرارة، وقبل يدى. لقد نسيت كم هو جميل ومهذب.

"بولى دائما جميلة!". تحركنا قليلا لنفسح له مكانا.

"قولا لى أنتما الاثنان هل هى السجون التى تحافظ على شبابكما؟" أضحك. أنا سعيدة ومرتاحة. أسمع الأحاديث باهتمام وأضحك معجبة باللفتات الذكية التى تتخلل الكلام. لم ألتقِ منذ مدة بهذا الكم من الأصدقاء الأذكياء والمتفتحين... أرفع كأسى مع الآخرين.

"فى صحة إسماعيل وزوجته الشجاعة!...". التقت أنظارنا أنا وإسماعيل. "فى صحة الحزب الشيوعى المصرى الجديد!...".

الساعة تقارب الثانية عشرة. قررنا أن نلتقى فى مساء الغد. فكرة هذا اللقاء الثانى تسرنى.

-١١-

أتصفح الصفحات الأخيرة من يومياتى. وأتوقف أمام تاريخ ٤ يناير ١٩٥٨... ماذا فعلت بالصفحات السابقة؟ ربما مزقتها. لنحاول الرجوع إلى الوراء... عدلت عن كتابة مسرحيتى. لم أستطع مواصلتها. محاولتى باءت بالفشل فمزقت كل شىء.

أطالع باستمرار. حالتى الصحية ليست على ما يرام. مشاكل فى القولون وآلام بسبب الدورة الشهرية. المسكنات تصيبنى بالخمول. أجد نفسى مضطرة للاهتمام بأمور البيت. السفرجى كسول، طبيخه غير مقنع ويسىء معاملة قططنا.

أوصتنى إحدى الصديقات بسيدة لتلقّى دروسا فى اللغة العربية. وبدأت أقرأ أهم أخبار الأهرام. أقضى أياما طويلة بمفردى. "إسما" يعمل كثيرا. نتناول الغداء معا، لكنه كثيرا ما يعود متأخرا فى المساء بعد اجتماعات الحزب.

إنجى تتعافى ببطء. عادت إلى الرسم وإلى نشاطها السياسى. ورغم هذا نلتقى كثيرا كل يوم أحدٍ للغداء عند ماما وعند أصدقائنا. قدمت لنا مينا بعض الأشخاص الظرفاء تبنونا بسرعة. نلتقى عند هذا أو ذاك للاحتفال بأعياد الميلاد، الكريسماس.. وبما أنه لا أحد منا يستطيع دفع تكاليف دعوة؛ قررنا أن يشارك كل واحد بزجاجة شرب وطبق أكل. وكثيرا ما نرقص على أنغام أحدث أسطوانة.

قابلت عدة مرات صديقتى توبسى التى سجن زوجها لأسباب لم نستطع تبيانها. وعندما أطلق سراح ريموند بعد ذلك بثلاثة أشهر قال لنا: "تعرف يا إسماعيل، استطعت تحمل الأكل القذر والإهانات لأننى كنت أفكر فيما تكبدته أنت. وتمكنت حتى

من رفع معنويات رفقائى بالحديث عن معاناتك... كنا خمسة عشر يهوديا، منهم اثنان مسنان وتقريبا عاجزان! كيف لهما أن يشكلا خطرا على مصر؟...".

ذهبنا للعشاء بعد أسبوعين عند توبسى وزوجها. للمرة الأخيرة، لا أزال أسمع ريموند وهو يقول ويشرح: "ماذا تريد يا إسماعيل؟ أهل زوجتى راحلون. شقيقا توبسى استقرا فى لندن... واعتقالى أقنعهم. لم يعد لى ولنا مكان هنا... أنا مدين لوالد توبسى...". امتلأت عيناه بالدموع: "لا أغادر مصر عن طيب خاطر. هذا الرحيل دون رجعة يمزق قلبى. أنا مصرى ولد فى حارة اليهود... وعائلتى تقيم هنا منذ أربعة أجيال...".

كان هذا بضعة أيام قبل الرحيل النهائى. أصدقاء حميمون سيذهبون دونما رجعة. لم يكونوا لوحدهم.

مصر التى كانت تابعة للدولة العثمانية ثم محتلة من الإنجليز استقبلت الأوروبيين والشوام الذين استقروا فيها للعيش. وكان هؤلاء بموجب استحقاقات للباب العالى، لا يقعون تحت طائل قوانين البلد. كان هذا ما يسمى بنظام الامتيازات بقواعده ومحاكمه المختلطة. كان هؤلاء الوافدون يسيطرون على الاستيراد والتصدير وتجارة القطن والمحلات الكبيرة والبنوك والتأمينات... إلخ. وبعد ٥٢ بدا لهم واضحا أن المصريين سيمسكون بزمام أمورهم. البعض منهم استبق الأحداث ورحل والباقى انتظر حتى جاء فرض الوصاية على الأملاك البريطانية والفرنسية ردا على الحملة العسكرية الفرنسية البريطانية.

الأمر لم يكن مفاجئا بالنسبة لى. ألم أحضر مزادات فى الإسكندرية بعد زواجى. مزادات كانت تقام فى فيلات فخمة فى الحى اليونانى وتجلب المصريين الأثرياء الذين كانوا يأتون خصيصا من القاهرة.

أُدَوِّن تاريخ ٢٤ فبراير. أحداث مهمة وحاسمة نقلتنى من الحزن إلى الفخر. تم إعلان الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا... شنت حملة نشطة وفعالة فى كل الدول العربية لمناهضة الحكم بالإعدام ضد جميلة بو حريد. رسمت إنجى للبطلة الجزائرية بورتريه ناجحًا، استوحته من الأفيشات والصور.

١٥ مارس. لا أدرى ما الذى أوقفنى عن الكتابة... أتت الضغوط الدولية والمظاهرات ثمارها. استبدل رئيس الجمهورية الفرنسية بعقوبة الإعدام عقوبة السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة.

٢٧ يوليه. أنا سعيدة بوجودى فى مصر وليس بالخارج. نعيش لحظات تاريخية. بكيت عندما أخبرنى صديق أنه تم قلب النظام الملكى فى العراق... تم شنق الوصى على العرش فى الساحة العمومية... هل سيتذوق العراق طعم الحرية؟ توجه قادة الثورة إلى الشعب يوم ٢٣ يوليه.

لكن هل كان على الثوار أن ينتقموا بهذه الوحشية؟

قدم بيت صالحة للأزياء تشكيلة الشتاء فى صالة كبيرة فى سميراميس. حشود كبيرة أصرت على حضور هذا الحدث القليل من نوعه فى هذه الفترة. صاحب الباشوات زوجاتهم لمشاهدة عارضات الأزياء. صلع، بشعر أبيض أو رمادى أغلبهم يحمل فى يده طربوشا. لقد استطاعوا أن يتخلوا عن بدلات السوموكينج التى تقبع فى دواليبهم لكنهم لم يتمكنوا من الاستغناء عن هذه الطرابيش التى تنتمى إلى عهودهم وطبقتهم. أما زوجاتهم وبناتهن فى سن الزواج فلا يزلن يجرؤن على الظهور بالفساتين السواريه خلال سهرات الموسم على ضيقها وقلتها. لا تزال ثرواتهم التى أتت الإصلاحات على جزء كبير منها، تمكنهم من ارتياد بيوت الأزياء لكن مع تقليص اختياراتهم. الخوف من مصادرات أو إصلاحات زراعية أخرى يجعلهم أكثر حذرا وأكثر تواضعا.

لكن رغم النجاح الذى لاقته التشكيلة، كان عدد الزبائن قليل. ماما أحبطت وبدأت تفكر فى إمكانية وقف نشاطها. ربما هذه أول مرة لا تغطى فيها مصاريفها.

الساعة الثانية عشرة وثمانٍ وأربعون دقيقة، إسما على وصول من آن لآخر. ربما تأخرت الطائرة. مصريين كانوا أم سوريين الطيارون لا يحترمون المواعيد. أو ربما قامت سيارة الهيئة الاقتصادية بتوصيل الزميل الذى رافق إسماعيل إلى دمشق. ستة أيام بدت لى دهرا... أنا راضية عما أكتبه. وقرأت بمتعة كبيرة "يوميات شابة جادة"(٩) لسيمون دى بوفوار. وبعض الدراسات عن المسرح. قليلا من التبضع وسط البلد وعشاء مرتين مع ماما وإنجى...

لماذا كان غياب إسماعيل بهذا الثقل؟... لماذا يستبد بى القلق كلما وجدت نفسى لوحدى...؟ التليفون يرن. لا يكف عن الرنين منذ البارحة.

"ألو؟ صباح الخير! لا إسماعيل لم يعد بعد... إنه على وشك الوصول. أنتظره على الغداء... سيتصل بك دون شك هذا المساء...".

أخبرنى إسماعيل قبل سفره بيومين أن عبد الناصر يرسله إلى دمشق لمحاولة رسم صورة واقعية عن الاقتصاد السورى. والمهمة كانت فى غاية السرية. ولهذا لم أعرف ما أقوله عندما كان أصدقاؤنا يتصلون بإسماعيل. وقفت آذان بوسى وكوكولين فى الوقت نفسه الذى أغلق فيه باب المصعد... خطوات إسماعيل! أفتح الباب وأرتمى فى أحضانه.

"هل سمعتنى؟... صباح الخير يا عزيزتى..." وأضاف محتجا ضد القطط التى احتفت به بالالتفاف حول رجليه "اتركونى أدخل...". "سأغسل يدىّ ونأكل. أتضور جوعا".

---

(٩) "Les mémoires d'une jeune f'ille rangée".

حدثنى إسماعيل على المائدة عن رحلته مهموما.

"دمشق مدينة جميلة ونظيفة. وجابوا بنا فى كل أنحائها. ودعيت على الغداء عند أحد الأثرياء السوريين. كم تمنيت أن تكونى معى. يعيش فى بيت عائلته. روعة من الطراز العربى. احتفظ بالأسقف الخشبية والمشربيات والموزاييك. وتصورى أنه وضع أثاثًا من نوع اللويس السادس عشر فى الصالة وفى كل مكان. مزيج ناجح!" توقف وقشر برتقالة ثم تنهد: "ما داعى الحديث عن الوحدة. المصريون جلبوا لأنفسهم الكراهية. لقد صدمتنى تصرفاتهم تجاه السوريين. يبدو الأمر كما لو كنا غزونا سوريا. يتصرفون مثل المستعمرين يتعاملون بتعالٍ وازدراء... وإن كان السوريون هم الذين طلبوا الوحدة معنا فهم الذين سينهونها... لقد أدركت جيدا أن السوريين نادمون على هذه الوحدة... سأقدم غدا تقريرى لعبد الناصر... سأعرض عليه الأمر بصراحة ووضوح.

وخاصة لا تكلمى أحدا بما حدثتك عنه... اطلبى لنا قهوة وساعدينى فى فتح أمتعتى... هناك هدية لك... مفرش طرابيزة سورى بيج وذهبى... سنستعمله فى المناسبات الكبيرة. أنا متأكد أنه سيعجبك". المفرش جميل فعلا ورتبته بعناية مع باقى المفارش. لن تأتى فرصة لأستعمله.

تحتفظ ذاكرتي بشهر ديسمبر رمادى اللون. رمادى مثل جدران الصالة وقت غروب الشمس. رمادى وراء أضواء المصابيح. عاد إسماعيل فى الساعة التاسعة. العشاء يبرد. أقرأ وأنظر إلى ساعتي. يجب أن أمنع نفسى من إبداء أى استياء لو عاد الساعة الحادية أو الثانية عشرة؛ لأنه يتشنج ويصرخ فىّ لأننى أعلم أنه لم يكن يمرح. فيعم حولى اللون الرمادى وأثور... نتشاجر. يأتى عتابى دائما فى الوقت غير المناسب... وحينها ينغلق وجه إسماعيل أمامى.

يوم الرابع عشر من ديسمبر دعت إنجى أصدقاءنا الذين تعرفنا عليهم من خلال مينا. سيحتلون حيزا كبيرا فى السنوات التالية. إيلى وزوجها سعيد زميل سابق لحمدى، حنا الرائعة وزوجها على، سيزا التى تحضر دكتوراه فى الأدب ونبيلة الجميلة وزوجها على عرفان طبيب فى أول المشوار.

نبيلة التى تدعى نفسها يسارية تقرأ كثيرا وتحب سارتر وكامو. زوجها هاوٍ موسيقى. يحب خاصة الموسيقى الكلاسيكية، لكنه يستمتع أيضا بموسيقى الرقص. يبدو إسماعيل متأثرا بابتسامات نبيلة المداهنة. شرع فى مغازلتها بطريقة أزعجتنى. أحاول إبداء عدم الاكتراث بالحديث مع الآخرين وأنا أتابعهما. هل أشعر بالغيرة؟ كنت أظن عدم معرفة هذا الإحساس. لم يعطنى إسماعيل قبل هذا أية فرصة للشعور به. ربما السبب هو التوتر الخفيف الذى تسلل بيننا؟ يعمل إسماعيل لساعات طويلة ويعود متأخرا منهكا وعصبيا ومهموما. غمزات نبيلة تداعبه وتسره.

انضممنا فى آخر ليلة من السنة إلى أصدقائنا عند قريب لتاتى يقطن هو وزوجته فى جاردن سيتى. كل واحد منا جاء بزجاجة ويسكى أو طبق أكل. على هو المسؤول كالمعتاد عن اختيار الأسطوانات، ورحنا نرقص بدافع المتعة والبرد فى الوقت نفسه. الجو قارس البرودة هذه الليلة.

نبيلة مصرة على إعجابها بإسماعيل. وها هى تستعرض إغراءها عليه مثل تلك الليلة وهو يستجيب. أنواع الموسيقى تتوالى من شلو إلى رومبا وتانجو. يدعونى الرجال الواحد بعد الآخر للرقص. كلهم يرقصون أحسن من إسماعيل وأنا أترك نفسى مستمتعة بالأنغام. أما السيد زوجى فيرقص ملتصقا بنبيلة تاركا إياى تماما. رقص بدافع الأدب مع النساء الأخريات، لكنه لم يحجز لى سوى رقصة واحدة ليعود ثانية لغنيمته. أما على فلم يبدُ عليه الانزعاج من مداعبات زوجته. وها هى الغيرة تغمرنى ثانية. أنعت نفسى بالغبية، ولكن هذا لا يمنعنى من الشعور بالتوتر. الساعة الثانية عشرة تقترب! وقررت التدخل. أقترب من الزوج المتلاصق أفصل بينهما قائلة وضاحكة: "بعد إذنك يا نبيلة أود أن أرقص مع زوجى وقت إطفاء الأنوار..." ولا أتذكر ما قالاه. الأنوار أطفئت! "سنة سعيدة يا حبيبتى!..." وضمنى بقوة إليه... شعرنا كلنا بالبرد بعد العشاء. المدفئة الصغيرة التى تعمل بالبترول لم تكن تكفى لتدفئة الصالة الكبيرة... وعندها اقترح أحدهم أن نكمل السهرة فى المينا هاوس. الساعة كانت تقارب من الواحدة صباحا. اعتذرت إنچى وآخرون. أما أنا فلم أجرؤ على الرفض. كان إسماعيل يبدو متحمسا فركبت الموجة. توزعنا على سيارتين وتركنا سيارتنا أمام العمارة.

صخب من الموسيقى والضحك والأصوات المنفعلة كان يملأ خيمة كبيرة نصبت فى حديقة المينا هاوس. المكان ممتلئ عن آخره ولا توجد طاولة شاغرة. لكن إلهام ألح وراح يتفاوض مع الميتر ثم أعطاه بقشيشا. فوافق على ترتيب مكان لنا. "تعالوا لدينا طاولة" قال صديقنا وهو فى غاية السعادة. "اتبعونى".

استقبلتنا فى الخيمة الضخمة موسيقى السامبا الملتهبة. ارتخت عضلاتى لبرهة. الفرقة الموسيقية تحمل بجدارة لقب أحسن فرقة فى القاهرة. نتبع إلهام عبر الأكوام البشرية نحو الطاولة البعيدة كل البعد عن ساحة الرقص لدرجة أننا لا نراها. فى انتظار طلبنا قامت نبيلة وإسماعيل للرقص. أحاول أن أهون من الأمر، لكنى أرفض أن أرقص. مزاجى معكر وأشعر بالتعب. ها هو ابن عم على ومضيفتنا يعودان من هناك. "من المستحيل الحركة. ساحة الرقص مكتظة! خسارة! الفرقة فى غاية الروعة!" قالوا بأسف. "الرقص كان سيشعرنا بالدفئ. أين اختفى إسماعيل ونبيلة؟ لا شك أنهما يتحركان فى نفس المكان". أكْبِتُ غيظى. أسأل نفسى السؤال نفسه. ابتلعنا الكونياك وقررنا الرحيل. دفع إلهام الفاتورة وانتظرنا عودة نبيلة وإسماعيل... زاد توترى لرؤية استعجال أصدقائى واستيائهم. ها هما أخيرا! مبتسمين وراضين عن أنفسهما. لاحظ إسماعيل أننى مستاءة منه. ضمنى بحنان إليه فقمت بصده. ودخلنا سيارة إلهام الذى يسكن الزمالك.

"سأوصلكما. وستأخذ سيارتك غدا..."

أدرك إسماعيل وهو أمام الباب أن المفاتيح ليست معه. نسيها فى جيب المعطف الذى تركه فى المينا هاوس. الحمد لله أن مفاتيحى معى. "ما هذه القصة! سيكون الوقت ضيقا غدا...".

"نحن غدا الآن...".

"الذهاب لأخذ السيارة ثم التوجه للمينا هاوس لاستعادة المعطف".

"آمل أن تجده! مع كل ذلك الحشد الموجود... من الممكن أن يسرق..." خلعنا ثيابنا ونحن نتشاجر.

"منذ متى تحب الرقص إلى هذه الدرجة؟ ومع كل هذا الزحام! الآخرون حاولوا لكنهم عادوا... لم يكن رقصا بل تدافعا!".

أطفأت نور النجفة وتركت الأباجورات. كان إسماعيل يبتسم لى بحنان وأنا أدخل تحت الملاية.

"تعالى يا حبيبتى، غيورة وعبيطة. تعلمين أننى أحبك..." تكورت بين ذراعيه. كم هذا جميل ودافئ.

"كل عام وأنت بخير يا حبى!" "كل عام وأنت بخير يا أنت".

"هيا نامى الساعة تعدت الخامسة....".

كانت هذه الساعات الخمس الأولى من اليوم الأول من يناير ١٩٥٩.

(٣)

الباب الثانى

-١-

أطفأنا الأنوار وفجأة اهتز الباب بطرق مدوٍّ؛ صاحبه عويل الجرس المتواصل. لم نتحرك.

"إنهم مجانين سيكسرون الباب!..." قمنا وارتدينا الروب. "لا تقلقى ليس لدى أية أوراق فيها إدانة". أحاول أن أقنع نفسى أنهم لم يأتوا لإيقافه.

إنهم خمسة. كاد أولهم الذى كان يتكئ على الباب أن يقع عندما فتحه إسماعيل. تجاهلوا احتجاجاته ودفعوه. "ماذا تريدون؟ ولماذا كل هذا الصخب؟"

"لدينا أمر تفتيش...". فرد عليهم "إسما" بنبرة متعالية "رنة جرس واحدة كانت تكفى لإيقاظنا...".

"على كل حال لم ننم بعد لقد رجعنا للتو". رمقه الرجل الطويل الشديد السمارة بنظرة متوجسة، يبدو أنه هو الذى يدير العملية. "لقد طرقنا الباب طويلا كيف دخلتم؟ وأين كنتم؟...".

"فى المينا هاوس فى حفلة رأس السنة..." إسماعيل فى غاية الهدوء.

"كيف عدتم؟ وأين سيارتكم؟... لديكم سيارة...". كانوا ينتظروننا فى الجراج! ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه إسماعيل وقال:" نعم لدى سيارة. تركتها أمام العمارة.." وراح يشرح لهم... فأصبحوا أكثر تهذيبا وراحوا يباشرون التفتيش... عندما سمعتهم يأمرون إسماعيل بارتداء ملابسه أسرعت نحو الدولاب وبدأت أحضر حقيبته.

"ماذا تفعلين؟..." قال لى أحدهم وهو يتبعنى.

"لقد قيل لى مرة إن زوجى سيعود بسرعة ... وظل شهورا دون ملابس...". أتحرك بسرعة. لا أنسى شيئا. أدوات الحلاقة، والملابس وحتى البطانية من الصوف. أغادر الغرفة محملة بالحقيبة وإذا بأحدهم يقطع سلك التليفون ويأخذ دفتر التليفونات.

"لقد قطعتم التليفون لماذا؟ وهذا الدفتر لزوجتى. أنتم ترون أن الأرقام والأسماء مدونة بالحروف اللاتينية". أعادوا الدفتر إلى مكانه وتنفست الصعداء.

"تماسكى". ضمنى "إسما" إليه بقوة وهمس: "اعتنى بنفسك! خذى القطط واذهبى عند أمك... وأخبرى أختك بأقصى سرعة ممكنة...". إنه النفس الدافئ للرجل الذى أحبه.

ذهب إسماعيل مرة أخرى. جلست على سريرى. بكيت ودموعى أراحتنى. أداعب قططتى التى تموء بصوت خافت... تمر بعض الدقائق. نسيت أنه على أن أخبر إنجى بسرعة!

رمانى خضر البواب النوبى بنظرة غاضبة عند نزولى تحت. "أيقظونى فى الساعة الواحدة صباحا! توالت الأسئلة عن زوج حضرتك. أين هم؟ أين سيارتهم؟... تسببوا فى جلبة واسكان اشتكوا..." أسمعه محرجة ونظرى مصوب نحو الشارع. يجب أن أجد تاكسى بسرعة.

الساعة الثامنة. أضغط على الجرس وها هى فاطمة تفتح الباب. ضربت صدرها بيدها وصرخت: "مدام بولى! طلقك زوجك؟..." يبدو أن حالتى سيئة، ابتسمت: "طبعا لا يا فاطمة! كنت أفضل ذلك لو تعلمين... جهزى فطور إنجى... هيا بسرعة...".

أصعد بهدوء حتى لا أوقظ ماما. أطرق الباب ثم أدخل غرفة إنجى المظلمة. خيط من النور يتسرب عبر الستائر، اقتربت ببطء من السرير وانحنيت نحو أختى التى تنام بهدوء. نظرت إليها وللحظة استرجعت تلك الحميمية القديمة أيام كنا نتقاسم نفس الغرفة والأسرار. لا تزال تحتفظ أثناء نومها بنفس التعبير الطفولى المشاكس على وجهها.

"إنجى! إنجى! استيقظى...". داعبت خدها... قائلة: "أختى الصغيرة ذات البشرة ناصعة البياض". لا تزال بشرتها ناعمة. فتحت عينيها والتصقت بعينى المتلالئة بفعل الدموع التى لم أقدر على حبسها. "ماذا حصل يا بولى؟". استقامت. "ماذا تفعلين هنا. كم الساعة الآن؟ حدث مكروه لإسماعيل؟ زفت... كنت أتوقع ذلك...".

"لقد أخذوه هذا الصباح فى الساعة السادسة... وقطعوا سلك التليفون... طلب منى إسماعيل أن أخبرك فورا... اغسلى وجهك.. طلبت من فاطمة أن تحضر لك الفطور..".

"طيب، طيب" قالت وهى تزيح المجلات الفنية والجرائد المتناثرة على الطاولة قرب السرير.

"قولى لفاطمة أن تضع الصينية هنا وليس فى المكتب! لا تتركيها تدخل المكتب ولا المرسم...". ثم اختفت. أسمعها وهى تفتح وتغلق الأدراج وتذهب وتروح بين المكتب والمرسم المتلاصقين. أتمنى أن تتذكر كل الأماكن التى وضعت فيها أى شىء يمكن أن يدينها أو يدين الرفاق! الألم فى بطنى يعاودنى من جديد! وإنجى فى الحمام.

"هل استيقظت مدام إنجى؟" دخلت فاطمة بجسمها البدين حاملة الصينية. انصاعت لحركة يدى. من المعتاد أن تأخذ إنجى فطورها فى المكتب وهى تستمع إلى الراديو.

"لقد وضعت فنجانا إضافيا لك مدام بولى!...". ثم أخذت فاطمة تتصفح وجهى بفضول. يتوقف نظرى على زخرفات الصينية. "توقفى عن الأسئلة يا فاطمة". نسيت تماما أننا مررنا البارحة لزيارة ماما. أتماسك. وأشرح لها أن إسماعيل غادر اليوم باكرا. وغيرت الموضوع بالسؤال عن موعد طلب ماما لفطورها.

"فى الساعة العاشرة" ردت إنجى التى رتبت خصلات شعرها وجلست على كرسى أمامى. تنهدت وهى ترتشف قليلا من الشاى. "أظن أننى لم أنس شيئا. كلى شيئا. أنا متأكدة أنك لم تتناولى شيئا. احكى لى ماذا حصل بالضبط... هل تتصورى أن الساعة الثامنة فقط. يا لها من سنة سعيدة!... أنا متأكدة أنهم أوقفوا رفاقا آخرين... وفصلوا التليفون حتى لا تتمكنى من الاتصال بأحد...". التقت نظراتنا. "لمنعى من الاتصال بأصدقائنا!...".

"اشربى الشاى يا إنجى. سأتصل بإلهام... سيرد علينا السفرجى أو الدادة..." أبدأ. الخط مشغول. ربما يتحدث أحد الخدم فى التليفون. ربما إلهام وداتى نائمان. أحاول الاتصال بشقيق داتى، من المؤكد أن والدته مستيقظة... الخط مشغول أيضا.

"هذا غير طبيعى، قالت إنجى، جربى نوال... مشغول؟ تعالى يا بولى لا تتعبى نفسك. لقد تم اعتقالهم جميعا. أنا متأكدة...". أجلس قربها وأشعل سيجارة. ألقى نظرة على الساعة. التاسعة. سأتصل بصدقى سليمان بعد عشر دقائق. إنه مدير الهيئة الاقتصادية وعبد الناصر يُكِنٌّ له التقدير. ربما استطاع مساعدتى.

نحاول فهم ما يجرى. الأمر صعب. المهم أن نضع خطة حركة. علينا طبعا أن نبدأ بماما! وهناك أيضا الحزب. إنجى وإسماعيل أعضاء فيه... وفؤاد. علينا أن نعرف من هم الذين اعتقلوا وأن نحذر الباقين.

"عليهم أن يحتاطوا بسرعة" قالت إنجى. نحن -الاثنتين- أمام وضعية صعبة مليئة بالمخاطر. أدرك فجأة الخطر المحدق بأختى. ألم يعتقلوا نساء؟ "علينا أن نتحرك بسرعة وبحذر" أضافت إنجى." على الذين يستطيعون ذلك أن يتواروا فى السرية... لكن هذا ليس يسيرا. بعض الرفاق جاهزون لهذا... يتطلب الأمر نقودا وأوراقا... سأشرح لك فيما بعد... على أن ألتقى بمينا... لا تقلقى... لا أظن أنهم سيعتقلوننى الآن... سأرتدى ثيابى... ثم سنعلن الهدية الجميلة التى جلبتها لنا سنة ١٩٥٩ ... عاودى الاتصال بأصحابنا... ربما...".

أصابتنى فكرة الخطر المحدق بأختى بالفزع. لا يا ربى... إنجى لا... أبتلع دموعى. أذهب إلى الحمام للمرة الثالثة منذ الصباح. تصفحت أختى الأهرام وتركته على ركبتيها. أبتلع حبة دواء مع الشاى البارد. "حبيبة قلبى" قالت إنجى بحنان. نحن- الاثنتين- جنبا إلى جنب على حافة الخطر يمزقنا الخوف. نحن مثقلتان بحمل الأسى الذى سنسببه لأمى. نتصل مرة أخرى بأصدقائنا. إنهم أعضاء الحزب وذووهم من الطبقة البرجوازية! كل الخطوط مشغولة.

قال لى سكرتير صدقى سليمان إن رئيسه فى الأقصر! وعبد الحميد بيه؟ لا يأتى اليوم اتصلى به يوم السبت.

"إنه من أكفأ معاونينا" قال إسماعيل يوما: "متفان فى عمله". أضع السماعة غاضبة ومحبطة. ماذا يفعلون فى الأقصر؟ ألم يقل إسماعيل إن صدقى بيه لا يأخذ إجازة أبدا؟

"يا للغباء، نسينا أن اليوم هو الخميس...".

"المدام شربت الشاى وتنتظركم" قالت لنا فاطمة.

ها هى أمى تنظر إلينا ونحن نقترب منها. لا تزال فى سريرها، ظهرها مسنود على مخدتين. عيناها الكبيرتان تحدقان بفضول وريبة. كان من المفروض أن نأتى

لزيارتها أنا وإسماعيل فى الساعة الواحدة ونصف ظهرا. قبلناها وجلسنا على حافة السرير. إنجى هى التى أخبرتها النبأ.

"ماذا تقولين؟ إسماعيل اعتقل؟ ثانية؟".

حاولنا أن نشرح لها... قامت إنجى ببعض التأليف... وأضافت أن صدقى سليمان يُكِنُّ تقديرا كبيرا لإسماعيل وأنه سيتدخل لدى عبد الناصر.

فصرخت أمى "عبد الناصر هذا وحش!". "كلما يعين إسماعيل فى منصب مهم يقوم باعتقاله!...".

وراحت تحرك رجليها يمينا وشمالا تحت الغطاء. وشدت بأصابع يدها الرفيعة رداءها. لم يبدُ من اضطرابها سوى هذه الحركات.

"وماذا يفعل صدقى سليمان هذا فى الأقصر؟ لطالما قال لنا زوجك: إنه لا يكل من العمل. هل يحتفل بالعام الجديد فى الصعيد؟..." أجبتها إن هذه عادة أوروبية وأكيد أن هناك سببًا. قامت إنجى باستدراك الموقف وطلبت منى أن أحكى لها ظروف الاعتقال. فرحت أصف ببساطة مركزة على الجوانب المضحكة من تلك اللحظة العصيبة. تمكنت من إضحاك ماما وإنجى. ها هى أمى تستمع دون أن ترفع نظرها من على وقد أرهقها هذا الحدث الأليم. لم تظهر أية علامة للقلق. ولم تعبر يوما بصوت عال عن عدم رضاها عن معتقدات صهرها وابنتها السياسية حتى وإن كانت عارفة بنشاط هذه الأخيرة.

ردت على كل مكالمات صديقاتها للتهنئة بالعام الجديد. كانت تنظر إلينا وتبتسم وترد "شكرا عام سعيد لكم جميعا... إن شاء الله!...".

"إنه فعلا عام سعيد..." قالت وهى تضع السماعة. "طيب يا أولاد، أظن أن الوقت حان لأستحم وأرتدى ملابسى. ماذا ستفعلين يا بولى؟ ألن تخبرى شقيق زوجك؟...".

ومن يومها قررت هذه المرأة القوية والمتسلطة، بحدس الأمومة أن تنصاع لقراراتنا وألا تتدخل. تركتنا نتحرك ونعمل فى هذه الدائرة غير المرئية التى انغلقت علينا وعلى مئات غيرنا. دائرة تنتصب بداخلها جدران السجون الكئيبة، يناضل بداخلها رجال ونساء من أجل حياتهم وحقوقهم. وفى حيز ضيق من الحرية فى الخارج، يتخبط قطيع العائلات والرفاق ويتعارك مع الأبواب الموصدة.

أكبت حزنى ومخاوفى وكرامتى المجروحة لأشحذ قواى التى عبرت بها تجربتى الأولى.

التليفون لا يكف عن الرنين حتى موعد الغداء. أصدقاء والدتنا وأصدقاؤنا وبعض الأقارب.

"حاولنا الاتصال ببولى وإسماعيل... خطهم دائما مشغول. ما هذه الثرثرة!... بلغيهم تهانينا".

رفعت ديدى عينيها إلى السماء وضحكت معى. مينا تصر: "هل كل شىء على ما يرام؟ أنت متأكدة؟...". أومأت لنا إنجى بخفض صوتنا. سكتنا ونحن نحدق إليها.

"أنا بخير شكرا... لكن إسماعيل المسكين متوعك... ماذا؟ إلهام مزكوم أيضا؟ من المؤكد أنه برد البارحة بالليل... سهرنا طويلا... كل عام وأنت بخير يا مينا! شكرا..." أغلقت أختى ونظرت إلينا. "هل فهمتم؟ إلهام اعتقل هو الآخر. طبعا لم تعطنى تفاصيل. ربما علمت بالأمر من خادمه...".

"ربما نزلت مينا عندهم... إنها تسكن الشقة التى فوقهم...".

"ربما. وفكرت فى الاتصال بنا...". ثم تمتمت إنجى: "لو سمعتها يا بولى. كانت تتكلم بصوت منخفض ومريب...".

"لماذا اتصلت بك يا إنجي. كانت تريد أن تتأكد أنهم لم يلقوا القبض عليك أنت أيضا؟..."، نحاول أن نضحك ونطمئن ماما باللجوء إلى كذبة بريئة.

بالكاد أكلنا من الديك الرومى ومن أبى فروة المسكرة، والأرز الأحمر والجاتو بالشكولاتة الذى أعطت تاتى وصفته لماما. مما أحبط "محجوباً" السفرجى.

"طلبت أن يحضروا لك غرفة الضيوف" قالت أمى. "لا يمكن أن تقضى الليل بمفردك ودون تليفون".

"ماما على حق" أضافت أختى. "أنا متأكدة أن إسماعيل كان سيوافقنا الرأى... أعلم أنك تأملين أن يبعث لك بمرسال.. لا تقلقى سيفكر فى بعثه إلى هنا...".

أين أنت يا إسما. فى مركز بوليس أم فى السجن؟ أى سجن؟ ربما أن... لا! أعلم أنه لا يحق لى الأمل. لا يمكن أن نقول إن الجو السياسى منفرج. على أن أخبر يوم السبت مدير الهيئة الاقتصادية. علىّ أن أتصل بأكبر قدر من الناس حتى أضمن حسن معاملة إسماعيل. أستوحى خطواتى من تجربتى الأولى. التحرك بسرعة وعدم إضاعة الوقت. كون حياة رفيق دربى بين يدىّ يقلل من حزنى، ويبعد الصور الفظيعة التى أحاول نسيانها، والتى تطفو على السطح مثل الطحالب المتعفنة.

-٢-

٢ يناير ١٩٥٩

إسما كان محقا فى تخمينه. لم يكن وحده. لقد اعتقلوا مئات الأشخاص.

ذهبت هذا الصباح عند عز. تحدثنا طويلا. كان متأثرا وحاول التخفيف عنى. عرضت عليه الموقف. أتساءل إن كان فهم أن أخاه اختار طريقه منذ أمد بعيد وأننى أوافقه على هذا الاختيار.

لم تكف ثريا عن البكاء. فقلت لها: إن إسماعيل أخذ منى وعدا قبل زواجنا بأن لا أتدخل فى حياته السياسية... وأنه هو الذى يؤثر على أصدقائه..

اهتمام صديقاتى يهون على. أتلقى زياراتهم باستمرار مما يخرجنى قليلا من كآبتى.

٣ يناير.

قامت الشعبة التى تعمل تحت رئاسة إسماعيل بزيارتى. خمسة شبان من بينهم سمير أمين[١٠] الذى يكن له إسماعيل كل التقدير. تأثرت كثيرا لهذه اللفتة. تأثروا كثيرا لما حصل وعرضوا على مساعدتهم بإلحاح. كيف؟ إنهم صغار فى السن ولا تربطهم علاقات بأصحاب النفوذ. شجعونى على لقاء صدقى بيه.

---

(١٠) أسمح لنفسى الآن أن أورد أسماء أصدقائنا الذين طرقوا معى كل الأبواب. لم أفعل ذلك عند كتابة يومياتى خوفا عليهم. من كان يدرى.

مـرت علينا فـى أول يوم من يناير تـانت وحيـدة وابنتـهـا وخطيبـة ابنهـا. كُنّ يردن معرفة إن كنت وصلت لأى شىء. عبارة مبـهمة استـعملناها بنبرة من التسـاؤل القلق. عبارة استعملناها فيما بعد كثيرا.

أين سيـأخذونهم؟ إلى سـجن النقض؟ إلـى القلعة؟ الفيـوم؟ طرة؟ أبو زعبل أو ربما إلى الخارجة؟... الخارجة؟ أين توجد الخارجة؟

"على بعـد مـئـات الكيلو مـترات من أسـيـوط"(١١) ردت داتى." حكت لى زوجة آبى حرارى عن سفره إلى هناك. كابوس حقيقى! يسمح لآبى بالزيارات لأنه تمت محاكمته. يقبع فى الخارجة منذ أكثر من سنة.

التقيت بآبى وهو يهودى مصرى فى باريس، حيث كان يدرس علوم الآثار. لم يكن متزوجا آنذاك... والآن حُوكم وزُجَّ به فى الواحات.

يا ربى! أرجوك الخارجة لا!...

ثم قلت لنفسى "لماذا التفكير فى الأسوأ".

"ثم إنكم لا تعلمون إن كانت ستجرى محاكمة". أردفت إنجى. "يقول الرفاق عندما يُرْسَل المسجونون إلى الخارجة هذا يعنى أنهم حوكموا من طرف محكمة... تذكروا محاكمة ٥٥ ... دام التحقيق شهورا..." بدا وجه لولو شاحبا.

٤ يناير.

اعتقدت لأول وهلة أن صدقى سليمان يتهرب من مقابلتى. أما عبد الحميد حسنى فكان فى منتهى الظرف. تحدثنا قليلا ... كنت متأثرة للغاية لوجودى فى هذه المكاتب

(١١) الأمر الذى أكده لى إسماعيل فيما بعد. سافر المعتقلون متراصين وواقفين إلى أسيوط ومن هناك حملتهم شاحنات إلى سجن الوادى الجديد.

التى عمل فيها زوجى بكل تفان وحماس، وبدأت فى البكاء، أعترف أننى تماديت، حزنت على نفسى وما آلت إليه الأمور فانهالت دموعى، حاول السكرتير المتعاطف أن يهدئ من روعى بغبارات مبهمة وبنصائح، أخيرا طلبنى صدقى سليمان، رجل أسمر طويل القامة ذو ملامح عابسة لا يبدو عليها أنها تعودت على البشاشة، ورغم هذا المظهر المنفر وعدنى صدقى بيه بالقيام بكل ما فى وسعه لمساعدة إسماعيل.

وراح يردد، وهو يصافحنى أمام المدخل "سنقوم بالمستحيل".

وكان صدقى سليمان عند وعده، بعد يومين جاءت موظفة شابة من الهيئة الاقتصادية لزيارتى، قالت لى إن عبد الحميد بيه وشخصا آخر تمكنا من الحصول على تصريح لزيارة إسماعيل.

أين؟ لم يكن لديها أدنى فكرة، كانت مكلفة بتبليغى أنهم كانوا على استعداد بتوصيل طرد ورسالة لزوجى، فقط.

٧ يناير.

" هناك رجل يريد التحدث إليك فى التليفون يا مدام!"... ما الأمر؟

" ألو؟ بولى؟..." يا إلهى إنه إسما! إنه صوته الصافى والدافئ، ضحكته المميزة التى انطلقت عندما شعر بسعادتى بهذه المفاجئة، صرخت من الفرح: "إسماعيل!" حديث عادى، طبعا هم يراقبونه.

"أنا بحالة جيدة! لا تقلقى بشأنى..." نبرة صوته كانت توحى أنه يعامل جيدا، طلب منى أن أرسل له بعض الأغراض... حبيبى! صوته! نبرة صوته!

قمت فى مساء اليوم نفسه بزيارتى الثانية لمكاتب المباحث، حيث تركت الأغراض التى طلبها إسماعيل، يبدو أنهم تلقوا الأوامر، فتح الشرطى الطرد وتفحص محتوياته ثم وافق على كل شىء بنفس تهذيب شرطى البارحة، لكنهم يرفضون إلى الآن،أى طعام حتى المعلبات.

ذهبت بعد ذلك عند أخت زوجى لأطمئنها على الطرود. ثريا مصممة على مساعدة أخيها ووضعت سائقها وسيارتها تحت تصرفى. وراحت تحث كامل على الاستعلام عن إسماعيل لدى الشخصيات الكثيرة التى يعرفها. وهكذا اكتشفت فيها، وهى التى بدت لى سلبية سنة ٥٤، جانبا لم أكن أعرفه. تكلمنا طويلا واكتشفت أننى كنت مجحفة فى حقها. ثريا لم تكن أبدا سلبية. نسيت أنها تلقت تربية مختلفة تماما عن التى تلقيتها. تنتمى إلى عائلة تسيطر على نمط حياتها التقاليد والأعراف والأحكام المسبقة. جعلنا كلامنا مع بعض بقلب مفتوح نتقارب.

ها أنا أستمع إلى لولو خطيبة ميستو التى طلبت أن تنفرد بى. توقفت وراحت عيناها الخضراوان تسألانى. أعلم أنها تثق فى. ألست أكبر واحدة فى المجموعة فيما عدا والدة خطيبها التى حاولت إحباط عزيمتها. حدثتها عن الإجراءات، والانتظار، والخوف... ألم تقل لها إنه لا أمل فى أن يطلقوا سارحه قريبا؟ أجبتها على الفور "ليس عندى نصيحة أقولها لك. خطيبك ترك لى حرية الاختيار. الأمـر يتعلق بحياتك ومستقبلك...". لكنها احتجت. بالنسبة لها المسألة لا تحتاج إلى تفكير. إنها متمسكة بخطيبها ولا تفكر فى فك الارتباط. هل هو متمسك بها؟.

أنا بالفعل أكبر نساء المجموعة المكونة من جهة من زوجات المعتقلين الجدد من الشيوعيين ومن جهة أخرى من أصدقاء مينا. لقد جئن لزيارتى ذات صباح ودار الحديث حول سهرة نهاية السنة. استمعن إلىّ باهتمام وبتعاطف شديد لأنه لم تصلنى أية أنباء عن إسماعيل أو عن المكان الذى يحتجزونه فيه.

"هذا لطيف من طرف هؤلاء السيدات!" قالت أختى بعد رحيلهن.

"زيارتهن هذه أثرت فىّ، خاصة أننى لا أعرفهن إلا منذ شهور... لمينا صديقات رائعات".

لم نكن ندرى أن هؤلاء السيدات الشابات سيصطحبننا فى هذا المشوار، وأنهن سيساندننا خلال سنوات محنتنا.

-٣-

١٥ يناير

صوت داتى سعيد! "ماذا تفعلين الآن؟ نعم أعلم أن الوقت تأخر لكن تعالى اشربى القهوة...". وافقت دون مناقشة خاصة فى التليفون.

عندما تكون إحدانا زوجة معتقل تقبل دائما مثل هذه الدعوات المفاجئة لشرب القهوة، والتى تشير دائما أن هناك معلومات عن الشخص المحبوب.

ذهبت إليها مسرعة، كنت أجرى تقريبا. يا ترى ماذا لديها لتقوله لى؟ أتمنى أن يكون "إسما" بخير. وأعود وأقول لنفسى لا تفكرى فى الأسوأ يا بولى.

كاد يغمى على عندما سلمتنى داتى رسالة بابتسامة حميمية. تصلنى أصوات. تانت وديدة، أخت إلهام ولولو فى الجهة الأخرى من الصالة. أما أنا فرحت وأنا واقفة أفتح بيدين ترتعشان القطعة الصغيرة من الورق الرقيق: "حبيبتى الصغيرة!..." دموع الفرحة حجبت رؤيتى. أمسحها وأشرع فى القراءة سعيدة ومطمئنة. أضع الورقة الصغيرة فى حقيبتى وألتحق بالسيدات. بعد ذلك قرأت آلاف المرات هذه الأسطر القليلة التى كتبت فى عجالة. حملتها فى أعماقى وتمسكت بها وأنا أنتظر...

إنهم فى سجن القاهرة. إنهم بحالة جيدة. وطلبوا فى مراسيلهم بعض الأغراض. نحن فى غاية الغبطة فيما عدا تانت وديدة التى شعرت بالإحباط لأن ميستو لم يكتب سوى للولو التى طلب منها أن تنساه وألا تنتظره! ربما تشعر أنها حرة الآن! كلفها

بتقبيل والدته. يهيأ لى أن هذه الأخيرة تريد أن تفسخ لولو خطوبتها... لكنى لا أهتم بمشاكلهم هذه. وددت لو استطعت كتابة بعض الأسطر لإسماعيل.

"نحن أيضا" ردت داتى. "لكن الرجل رفض أن ينتظر" ورحل فى الحال قائلا: إن الأمر الآن خطر وإن الرقابة شديدة.

"خسارة" قالت لولو بصوت مهزوز. "كنت أود أن أكتب لميستو بأننى سأنتظره..." وبدا على وجهها التحدى. الحب؟ أم صعوبة تصور المستقبل الذى ينتظرها؟ ربما هو حب فى إثبات الذات. القليل الذى تعرفه عن القضية التى يناضل من أجلها ميستو لا يكفى لحقنها بهذا القدر من الشجاعة.

و قد يلزمها منها الكثير لتواجه أهلها ووالدة خطيبها التى لا يبدو أنها تحبها كثيرا.

جاءتنا خطابات أخرى مقابل بعض النقود تمت كتابتها بحرية أكبر. خطابات بيننا وبين معتقلينا. الأحياء لها وزنها من السعادة والحزن والخوف...

المساء الساعة الحادية عشرة وربع.

السعادة تغمرنى وأنا أقرأ مرارا وتكرارا السطور التى كتبتها. كم أنا معجبة بالطريقة التى استطعت بها التعبير بكلمات قليلة. لا تقلق يا حبيبى! لقد جعلت منى امرأة سعيدة. ولا أطلب سوى أمرٍ واحدٍ. عودتك.

العودة = الحرية. تومض هذه الكلمات وتنطفئ على مر الأيام الطويلة. كلمات تبتعد عنا كلما توالت ليالى الانتظار والخوف. نحن نشكل قطيع المنتظرين وأنا ضمنه. وكأنه جوقة تراجيديا لا يعرف أحد مداها. أعيد قراءة ما كتبته البارحة.

"أنا التى تنتظر على عتبة هذا الباب الموصد من الفجر إلى الليل". ها أنا أكتب بالقلم الجديد الذى اشتريته عند "ستاندرت". قلم من ماركة شيفر..." اشترى لنفسك

من طرفى بمناسبة عيد ميلادك هدية" كتب لى إسما فى كلمته الموجزة "يمكنك صرف خمسة جنيهات!...". أتصور ابتسامة إسما الساخرة وهو يكتب على عجالة هذه الجملة.

"إنها ليست إشاعة بل حقيقة!..." ها هى ذاتى تنظر إلى: "لقد فصلوا جميعهم!...".

لهذا الإجراء دلائل سيئة. لن يكون هناك إطلاق سراح عما قريب. المنفى فى الواحات. يبدو أن للمعتقلين معلومات أكثر منا. طلب عادل صندلا، أما إسما فبيجاما صيفية... فى فبراير.! أرادوا أن يرتبوا كل شيء قبل رحيلهم... أنا متأكدة أن إسماعيل وإلهام وميستو طلبوا التوكيلات لرؤيتنا. لكن الحيلة لم تنجح!

على أن أذهب إلى البنك لأرى إن كانوا حولوا مرتب فبراير. منذ أكثر من أسبوع كلمنى موظف من الهيئة الاقتصادية... هل وصل أمر الإقالة إلى صدقى سليمان؟ أكيد. ربما كان له من السلطة ليرفض... ها أنا أهلوس. أعلم جيدا أنه سينصاع مثل الآخرين. الكل يخاف من عبد الناصر ومن الشيوعيين.

يكفى يا بولى... أين إرادتك. تعلمى أن تواجهى أسوأ الأنباء ببرود... أنت مستاءة لأنه فصل من عمله... قولى لنفسك كيف ستعيش كل النساء اللاتى يعتمدن على مرتب الزوج أو الابن؟ كم منا له موارد خاصة تغنيه عن المرتب؟ خمس عشرة ربما عشرون؟ أما الآخريات فجلهن بسطاء أو فقراء...

سأذهب هذا المساء إلى النادى بصحبة ماهى وأجلس قليلا فى الشمس... وبالليل سأذهب إلى السينما مع عرفان. هل حجزت نبيلة الأماكن؟... على ملء الفراغات وحجب الأسئلة المخيفة وإبعاد السكون الداكن الذى يفصلنا عنهم.

سأتوجه إلى المباحث غدا صباحا. هذا يشعرنى بالاطمئنان. الزيارة لا تزال ممنوعة والمراسلة أيضا. والحبل الوحيد الذى أعتصم به فى هذا النفق اللا متناهى هو

شراء الأدوية والثياب والسجائر ولفها بكل الحب ثم كتابة اسم المرسل إليه، وأخيرا تسليم الطرد للشرطي... كأنها إشارة منى إليه فى خضم هذه الدهالين.

سأذهب بعدها إلى أخت زوجي. كامل سيعود من البلد هذا المساء، يجب أن يكتب تظلما لطلب تحويل إسماعيل للمستشفى. يجب أن يستشير دكتور أنف وأذن من أجل الجيوب الأنفية وأيضا جراحا لأنه معرض لالتهاب الزائدة الدودية. على أن أحاول كل المحاولات لأتمكن من رؤيته ولتعطيل رحيله إلى المنفى، من حق المعتقلين أن يتلقوا الزيارات فى المستشفى...

نادى الجزيرة. أنا وماهى جالستان تحت الشمس على المساحة الخضراء التى تمتد من حمام السباحة يمينا إلى الليدو. كثير من الناس جاؤوا ليستمتعوا بهذه الظهيرة الجميلة من شهر فبراير. نتبادل أطراف الحديث. أرد على الأسئلة التى تطرحها ابنة خالى.

الشمس قوية، نحرك كراسينا لندير لها ظهورنا . نتابع ذهاب الناس وإيابهم بعضهم من معارفنا أو من أصدقاء أيام سهراتنا الراقصة.

"صباح الخير يا بولى! صباح الخير يا ماهيفاش! إنه يوم جميل أليس كذلك؟... كيف حال إسماعيل؟... لا! لا يمكنك زيارته؟... هذا غير معقول!. "ثم ينحنى نحونا قائلا بصوت هامس:

"هل علمتم بالخبر؟... لقد وضعوا مدرسة العائلة المقدسة تحت الحراسة!...".

"علمت بهذا" قالت ماهى وهى تشعل سيجارة. "كنت سأكلمك عن هذا يا بولى. إنها فضيحة".

"ششت! اخفضوا أصواتكم..." وراح الضابط الأسبق يرمى نظرة حوله.

أما أنا فكنت أصغى بعدم اكتراث. لا يهمنى وضع اليسوعيين تحت الحراسة. ما هذا إلا إجراء تعسفى آخر. وما أكثرها هذه الأيام. وهو أقلها خطورة بالنسبة لى وإسما. لو كان لنا ولد لكان ذهب إلى مدرسة مصرية، مثل تلك التى تتلمذ فيها عز وإسماعيل.

"علينا أن نتوقع أى شيء من هؤلاء الجهلة... أنا شخصيا أفكر فى إرسال ابنى ليواصل دراسته في بيروت... أو لندن؟... ماذا تريدون؟... أصبحت الجامعة مجانية ويدخلها كل من هب ودب..." أحاول أن أتمالك أعصابى. أشعل سيجارة. سئمت من سماع مثل هذه التفاهات. أحرك رجلىّ يمينا وشمالا وأنا أضعها فوق بعض، محاولة التظاهر بعدم الاكتراث. مجانية التعليم هى ربما من أهم قرارات عبد الناصر. لكنى ألزم الصمت. لا يبدو لى مفيداً أن أعرب عن رأيى. إنهم يكلموننى من ضفة أخرى. كم أود أن أقوم وأعود إلى البيت.

"بولينا! لا تقولين شيئا! يبدو أنك تشعرين بالبرد... هل تودين العودة للبيت؟".

"زوجى العزيز". أحاول أن أكتب بخط واضح قدر الإمكان. أنهل من مخزون الكلمات العربية القليل لدى. أسطر جملا قصيرة أحدثه فيها عن عائلته وعائلتى. أخبره أننى انتقلت والقطط للعيش مع ماما. إننى أخرج مع الصديقات وأذهب إلى السينما وإلى النادى. أريده أن يعلم أننى لا أقبع فى البيت أبكى على حالى... لقد كانت رسالته قصيرة ولم تشبع ظمأى. ورقة كراسة قطعت فى عجالة. من المؤكد أنهم لا يسمحون لهم بكتابة رسائل أطول. كتب "إسما" إلى عائلته أيضا. أتجنب الكتابة عن أختى... ولا أقول له إن إنجى عرضت لوحاتها الأخيرة فى الأتيليه. ورغم ظروف غير مواتية كان المعرض ناجحا. كانت فرصة سعيدة للالتقاء ثانية بكامل التلمسانى. حرص هذا الفنان التشكيلى الكبير على الوقوف على تطور تلميذته. ابتعدت قليلا لأتركهما يتحدثان عن الفن. ولم تترك لى تعبيرات السعادة والفخر على وجه أختى أدنى شك فى إعجاب أستاذها.

هل يستطيع "إسما" أن يقرأ الصحافة، أن يستمع إلى الإذاعة؟ ثلاثة أيام قبل نهاية المعرض أدلى عبد الناصر بخطاب قوى أدان فيه اليسار والشيوعيين الذين وصفهم بأتباع الاتحاد السوفيتى! فقررت إنجى سحب لوحاتها على الفور والدخول فى السرية. كانت تنام عند أصدقاء لمينا فى انتظار أن يجد لها الرفاق مخبأً آمنا. كان على مينا أن تتصل بى كل يوم. وفى حال قدوم البوليس إلى البيت كان علي أن أقول إن لدى نزيفًا.

إشاعة رحيلهم إلى واحة الخارجة تتضخم منذ أسبوع. سلمت للمباحث حقيبة مليئة بثياب صيفية وبالأدوية. قبلوها!

"غدا الساعة العاشرة مساء فى محطة باب الحديد..." ثم قطع المجهول الخط على التليفون. أرتعش وأكلم داتى التى قالت لى: "أعلم". "أخبرت ماما ولولو ونوال...".

إسما! ستفرقنا مئات الكيلومترات! يجب أن أجد وسيلة لرؤيته قبل الرحيل. أتصل بكامل الذى يرد بصوت نائم. وعدنى بالاستفسار عن الأمر وطلب منى أن أهدئ من روعى.

"انتظرى قليلا إننا فى رمضان والناس لا تذهب إلى مكاتبها قبل العاشرة...". صحيح نسيت أننا فى رمضان! لن أستطيع التحرك قبل الساعة العاشرة!...

"لقد طرقت كل الأبواب"، قلت لشقيقة زوجى. "المباحث تخفى الأمر. احتطت وأنا أسأل ضابط الحراسة حتى لا أثير شكوكه... لا يجب أن يعرف أحد أننا علمنا بالأمر... وأجابنى ابن الكلب هذا أن المعتقلين فى القاهرة وأن الزيارة ممنوعة... وفى النيابة قال لى أحد المعاونين إنهم غير مختصين بالشيوعيين. وفى سجن القلعة أومأ أحد العساكر برأسه عندما سألته إن كانوا سيسافرون اليوم... لكن يبدو أنه لم يكن يعرف الساعة...".

اتصلت بداتى. ليس لديها جديد سوى أن زوجة أحد المعتقلين تعتقد أنهم سينطلقون من محطة الجيزة. ورحنا نتدارس الموضوع فى حيرة من أمرنا.

قال لنا المتصل محطة باب الحديد، فقررنا التوجه هناك، والتقينا فى حدود الساعة السابعة والنصف بعد الإفطار.

قطارات الصعيد بعيدة عن تلك المتجهة إلى الشمال. ثريا ترشدني. نمشى نحو عشر دقائق. صديقاتنا الثلاثة وصلن. القطار الوحيد الذى سينطلق هو قطار فاخر به كبائن نوم ومطعم... نمشى عبر حشود الناس ونلصق وجوهنا بكل نافذة. لا شىء. الوقت مبكر ولا شىء يدل على أن المعتقلين سيمرون من هنا. لا أثر لشرطى أو لمخبر. المراقبون والحمالون وبائعو الجرائد لا يعلمون شيئا. انطلق القطار وسط صخب العَجَل والفرامل التى تصرخ. ماذا لو كانوا ذاهبين من الجيزة؟ ها هو رئيس المحطة. فاجأته أسئلتنا. هل هناك قطار متجه إلى أسيوط؟ قطار على متنه سجناء سياسيون. لفظنا كلمة سجناء بصعوبة. هز كتفيه وقال "هناك قطار سيقوم بعد ربع ساعة لكنى لا أعلم شيئا. لم يخبرنا أحد من الأمن. سينطلق هذا القطار فى تمام التاسعة وعشر دقائق...".

ماذا نفعل ننتظر هنا أم نذهب إلى الجيزة؟ نمشى ذهابا وإيابا وفكرنا مشتت بفعل الضجيج حولنا. نراقب كل المنافذ التى يمكن أن يدخلوا منها. القطار يصل ويتوقف أمامنا. قطار فاخر آخر تنزل منه مجموعة مرحة من السياح. وفجاءة صاحت إحدانا "انظروا! تعالوا!...". هرولنا باتجاه مؤخرة القطار حيث كتب على العربتين : عربة سجن. تجمد الدم فى عروقنا ورحنا نحدق فى النوافذ الضيقة ذات القضبان. نبحث. العربات خالية.

"ماذا تفعلون هنا؟ عمّ تبحثون؟". انتفضنا خوفا من صوت المراقب المندهش من رؤيتنا أمام عربات السجن. انهلنا عليه بوابل من الأسئلة لم يفهم منها شيئا. فراحت ثريا تشرح له مشكلتنا بكل هدوء. رفع ذراعيه معبرا عن عجزه: "لكنى لا أعلم شيئا! لم يخبرنى أحد. هذه العربات خالية. لا يوجد سجناء هنا. حاولوا فى الجيزة. الله

معكم!...". لم يكد يكمل كلامه حتى استدرنا فى اتجاه باب الخروج. الحمد لله أن السائقين منتظرون أسفل السلم.

"إلى مجطة الجيزة!" صاحت ثريا. وانطلقت السيارتان وسط زحام من السيارات والمارة مما منع السائقين رغم تمرسهما من الإسراع. تحسن الوضع قليلا على كوبرى قصر النيل لكن سرعان ما توقفت الحركة أمام عدد السيارات المتجهة إلى الجيزة. من هو الغبى الذى أعطانا معلومات خاطئة؟... الساعة التاسعة وخمس وثلاثون دقيقة! ولا نزال فى أول شارع الجيزة... يا ربى لن نلحق بهم!... ليتنى أستطيع رؤية إسما! ليته يستطيع رؤيتى... لكن كيف؟ والدنيا ليل!.

العاشرة وأربع دقائق. ما زالوا هنا! انظروا شاحنات البوليس هنا واقفة بطول الرصيف. أعداد كبيرة من الضباط والشرطة فى زى مدنى. مجموعة من المعاونين يراقبون الممر المؤدى إلى داخل المحطة. المشهد خيالى. يبث مصباح على حافة الرصيف نورا أصفر، فى ظلمة هذه الليلة التى تفتقد إلى قمر، ليظهر مستطيل المحطة وأغصان الأشجار المرتفعة نحو السماء وفى العمق كتلة متحركة ومتألمة. إنها العائلات التى تتدافع أمام الشريط الأمنى.

"ماذا تفعلون هنا؟ انصرفوا! هيا لا تبقوا هنا!..." وراح الضابط يدفعنا بعنف. "ارحلوا من هنا... روحوا مع الآخرين!..." فاتجهنا نحو الكتلة فى اندهاش محاولين التعرف على وجه أليف.

"أين كنتم؟... نعم إنهم هنا!... لقد صعدوا فى القطار... بالكاد لمحناهم... كان البوليس يحرسهم كما لو كانوا مجرمين!... أنا شاهدت شاحنة مليئة بالأمتعة كان العساكر يحملونها إلى القطار. ثم جاءت شاحنتان بعد ذلك ولم نستطع أن نرى سوى الرؤوس لأن العساكر كانوا يدفعوننا ببنادقهم للخلف. فناديت بأعلى صوتى ابنى... أنا كذلك ناديت زوجى... لكننا كنا على مسافة بعيدة ولم يتمكنوا من سماعنا... كانوا

يرفعون أيديهم المكبلة... بعضهم سمع اسمه ورد... كان يجب أن تروا وجوه الضباط لما شاهدونا! كانوا مندهشين وفى غاية الغضب من وجودنا. هل تعلمون ماذا قالوا؟... ماذا؟ كيف علموا بالأمر؟ من أخبرهم؟... هذا غريب... مع أنهم أخذوا كل الاحتياطات اللازمة لإخفاء أمر رحيلهم... هل تعلمون؟... عندما صعدوا فى القطار وقبل الدخول إلى العربة صرخوا مع بعض: "سنعود! سنعود!...".

بعض النساء رحن يرفعن مناديل بيضاء، البعض الآخر راح يصلى. الوجوه غارقة فى الدموع. أما أنا فأستمع لهذه الأحاديث حولى وأنا أحدق فى هذا الشىء الداكن الطويل الذى أخمن أنه القطار. القطار الذى زُجَّ فيه إسماعيل والآخرون مثل القطيع. هاهم ينتظرون لحظة الرحيل متسائلين مَنْ مِنْ أقاربهم واقف على بعد أمتار... أنا هنا يا إسماعيل. أنت عارف أليس كذلك؟... هزنى صوت صفير مدوٍ. تسمرت مكانى وحبست أنفاسى، مثل الستين عائلة الأخرى.

"الله معكم!...". دعوات وهمسات وبكاء. الكل ينصت لضجيج القطار وهو يتحرك ببطء ثم بسرعة. هذا القطار يحمل الحبيب لمجهول بعيد ومخيف. القطار يبتعد ويزداد ضجيجه وطأة، يطلق صفارة أخيرة يمزق الليل ومعه قلوبنا.

"يا حبيبى هل أحسست بوجودى؟ كنت هنا البارحة مع أختك وكل الذين استطاعوا المجىء".

رغم السرية التى أحاطوا بها عملهم المشين. انتظرت هذه اللحظة، كنت متخوفة منها منذ أسبوع والآن لم أعد مندهشة. جرحى المفتوح يؤلمنى. وها أنا أردد بنوع من السادية: إنه فى الواحات، إنه فى الواحات، كما لو كنت أود التعود على هذا الألم بداخلى. من لم يمر بهذه التجربة لا يمكنه أن يتخيل مشاهد ليلة البارحة. ذلك السباق المجنون للوصول إلى محطة مصر ثم إلى الجيزة، الشرطة، والعائلات التى استبعدت بعنف لكنها ظلت رغم ذلك واقفة مكانها حتى انطلاق القطار.

"هذا جميل..." قال جميل[١٢] وهو يضع الأوراق فوق الطاولة. أنا سعيدة لأن صديقى أحب قصيدتى. كنت سعيدة كذلك بلقاء أصغر أصدقاء الطفولة بعد سنوات مضت. هذا الممثل الشاب الذى يعيش فى باريس جاء ليقضى شهر إجازة فى مصر.

علم باعتقال إسماعيل فجاء لزيارتنا. لكن اليوم إنجى غير موجودة. أشرح له أسباب غيابها. هل فهم؟ لا يزال على معتقداته، لا يزال يساريا. لا يزال رجلا وسيما. "هل تذكر يا جميل كنت أقول: لك عيون غزالة تائهة؟"... يضحك.

"بالفعل! تائهة لأنك كنت تجبريننى على القيام بقفزات راقصة غريبة، كنت تعذبيننى!..." ورحنا نضحك.

٢٤ مارس... فزعت من مظهرى وأنا أرى نفسى فى المرآة البارحة صباحا. عيناى ذابلتان، ملامحى مشدودة، لونى شاحب. بدا لى وجهى مسنا. أرغم نفسى على الذهاب للكوافير. ماما ستعود هذا المساء وعلى أن أخبرها بالنبأ الخطير. كان على أن أبذل مجهودا كبيرا وأرسم على وجهى الارتياح. كان جميل لطيفا للغاية. دعانى للمطعم وأوصلنى إلى المطار... اكتفت أمى بهز كتفيها عندما أخبرتها أن إنجى تعانى من نزلة برد.

أصف هذا المشهد الذى لم أكتبه فى يومياتى بدافع من الاحتياط.

الساعة الحادية عشرة مساء. جميل وماما وأنا نحتسى الويسكى. ثوانٍ من السكون. الخوف يتملكنى. رمقنى جميل بنظرة متسائلة.

"إذن أختك ليست مريضة، بل فى الريف؟"... متى تعود؟... ماذا يحدث؟...". أشعلت سيجارة وأخذت منها نفسا ثم بدأت: "الأمر كالآتى يا مامى. علمنا أن

---

(١٢) الممثل جميل راتب.

الاعتقالات متواصلة... وتعلمين أن إنجى على القائمة السوداء... فقررت أن تبيت خارج البيت...". نهض جميل ليشعل سيجارة أمى. استنشقت منها نفسا دون أن ترفع بصرها عنى.

"تنام عند أصدقاء... لبضعة أيام...".

"عند من؟ ابنتى تنام خارج البيت الآن...".

"لا يا تانت صالحة! " قال جميل مبتسما. "ديدى لا تنام خارج البيت! من الطبيعى أن تأخذ حذرها...".

"حذرها؟ هل تخاف جى جى من شىء ما؟ ما زالت مع الشيوعيين؟... منذ متى يعتقلون النساء؟".

"لا شبهة على إنجى. ولا على إسماعيل أو غيره. عبد الناصر ومن معه أصبحوا مجانين... سبق لهم أن اعتقلوا نساء. وليس من الضرورى أن ترمى إنجى نفسها فى فم الأسد!... ستأتى لزيارتك غدا... تفهمين يا مامى... الشرطة تتحرك دائما فى الليل. غدا سيكون لك كل الوقت للتحدث إليها... إنه ظرف مؤقت...".

"أرى منكم العجائب!...". أنتم! ها هى مرة أخرى تعبر عن استيائها باستعمال الجمع! وضعت كأسها على الطاولة ونهضت.

"سنرى ماذا ستخترعه الآنسة إنجى غدا! الوقت تأخر! عد إلى بيتك يا جميل، ألف شكر! تعالى لزيارتنا وقت ما تشاء... تعال للغداء...".

اصطحبت جميل إلى الباب "هل تعتقدين أن تانت صالحة تدرك ما يدور؟...".

تدرك ماذا؟ أبعاد المحنة التى بدأت تعيشها؟ لقد قبلت بتفسيراتى المبهمة وتمسكت بها كمن يتمسك بطوق نجاة. أعلم جيدا أن أمنا لها ما يكفى من الفراسة

ومن الرقة لتفهم أننى أخفى عنها جزءا من الحقيقة. حقيقة لا تستطيع مواجهتها من ثقلها عليها.

ها نحن جالسات أسفل سرير ماما نبتسم فى هدوء كأن شيئا لم يكن.

"تستحقين الضرب! ما هذه القصة؟...". الحاجبان مقطبان، السيجارة بين الأصابع. ماما تتفحص وجه ابنتها الصغرى.

"من الطبيعى يا ماما أن آخذ احتياطاتى، تفهمين...". وبنبرة طبيعية راحت الشابة التى لم تنقطع عن الشيوعيين تشرح لأمنا أنها لا تريد أن تعتقل وأن تسجن... وأن المخاطرة تعد غباء.

"أكيد أنك ستستائين لو ذهبت إلى السجن مثل زوج ابنتك... ليلى وسعيد يعتنيان بى جيدا. رتبوا لى غرفة تطل على النيل... الأمر يبدو مثلما كنت فى سفر..." أنظر إلى أختى الصغيرة بإعجاب. لا شىء فى هيئتها أو فى طريقة حديثها يوحى بالخطر الذى يتهددها. قلل استرخاؤها وروح الدعابة فى كلامها من وطأة القرار الخطير الذى أخذته على أمى وتحول الأمر إلى مجرد كوميديا خفيفة.

"آه! بكل هذه القصص نسيت هداياكم! انظروا فى الشنطة! تاتى بعثت لكم حقائب. واشتريت لكم بلوزات...".

تناولنا الغداء فى جو من المرح. تكلمنا فى مواضيع عادية مما جعلنا نستمتع بفرحة اللقاء وإن كانت عابرة. كل واحدة منا تبعد عنها بطريقتها قدر المستطاع. القلق الآتى لا ريب غدا.

-٥-

٢٨ مارس

.... رنين الجرس المتواصل ينتشر وسط الصمت ويتخلل نومى. أضىء الأباجورة وأنظر إلى الساعة: الخامسة وعشر دقائق! إنهم هم! لا شك فى الأمر. أرتدى الروب بسرعة وأهرول لإيقاظ فاطمة، بينما الجرس لم ينقطع. أسأل من بالباب.

"بوليس! افتحوا!"

"هل هذه شقة إنجى أفلاطون؟...". إنهم خمسة. قام صاحب السؤال بدفع الباب الذى كنت أختفى وراءه.

"لا! هذه شقة مدام صالحة أفلاطون...". وتراجعت بعد هذا الرد الجاف إلى الوراء لأتركهم يدخلون.

"لكن إنجى أفلاطون تسكن هنا أليس كذلك؟ نريد أن نكلمها...".

"إنها تسكن هنا بالفعل. لكن الآن هى فى سفر....". ارتسمت على وجهى ابتسامة باهتة.

"هكذا إذن... وأين ذهبت؟...". هززت كتفىّ فى حركة عجز.

"... لست أدرى! تعرفون أختى إنسانة مستقلة. إنها فنانة، وتسافر كثيرا....".

"طيب! سنفتش البيت..." فى هذه اللحظة راح أحدهم بعد أن لاحظ التليفون فوق الطاولة يقطع سلك التليفون. لم يلاحظ أن الجهاز موصل بفيشة. (لأن الشقة واسعة قامت ماما بتركيب أربع فيش فى بضع غرف).

قمنا أنا وفاطمة باصطحاب هؤلاء الرجال عبر المنزل.

"طيب أين غرفة أختك؟... فوق؟ تعالوا...". صعدنا السلالم. الغرفة الأولى هى غرفة ماما! عندما اقترب منها أحدهم ووضع يده على المقبض صرخت فيه فاطمة مرعوبة:

"لا! هذه غرفة مدام صالحة! تعالوا. غرفة مدام إنجى من هنا...". دخلوا وقلبوا السرير، ثم سحبوا بعض الكتب الفنية، تصفحوها ورموها على الأرض. فتحوا الباب المؤدى إلى المكتب. فتحوا أدراج المكتب الذى كان ينتمى لجدى. استولوا على الأوراق وراحوا يقرؤونها. فتشوا طويلا ثم أخذوا بعض الكتب ورسالتي تعزية باللغة الإيطالية. رأى أحدهم التليفون وقطع السلك! أطلب بحركة من فاطمة التى تلطم على وجهها أن تصمت.

"هذا؟" وفتح الرجل الباب المؤدى إلى مرسم أختى دون أن ينتظر جوابى.

"هذا مرسم إنجى. لن تجدوا فيه سوى رسومات ولوحات...". بدا لى واضحا أنهم ملوا من التفتيش. يعلمون أنهم لن يجدوا شيئا. توقفوا ثوانى أمام لوحة كبيرة فوق الحامل. امرأة غارقة فى دمائها وبقربها بنت صغيرة رثة الرداء ذات عينين واسعتين ينبعث منهما الرعب. خلفية اللوحة سوداء تتخللها خطوط زرقاء وأشكال مدافع مشتعلة...

اللوحة تعبير عرفان لشهداء بورسعيد. بعد أن ألقوا نظرة أخيرة على هذه الغرفة الواسعة المليئة باللوحات طلب الشرطى المسؤول عن قيادة العملية الدخول إلى غرفة ماما.

"لحظة لو سمحت سأرى إن كانت مرتدية ملابسها...". فتحت الباب قليلا. كانت تنتظرهم فى سريرها.

"عفوا يا مامى يريدون تفتيش غرفتك". نظرت إليها وركزت على التليفون فوق الطاولة قرب السرير. أشرت إليه بحركة برأسى. فاطمة الواقفة وسط الغرفة تنظر إلى هى الأخرى. بدا عليهن الاستغراب فأضفت بالفرنسية: "الجهاز... هل يمكن أن يدخلوا يا ماما...الجهاز...". ثم أغلقت الباب.

واستدرت نحو البوليس.

"دقيقة الشغالة أيقظتها. إنها ترتدى ملابسها...".

"يمكنكم الدخول" قالت فاطمة وهى تفتح الباب. دخل أحدهم الغرفة وبقى الآخرون فى الخارج. اختفى التليفون!

جاب نظر الرجل فوق الأثاث ثم تردد قليلا كأنه شعر بالإحراج: "ماذا يوجد هنا؟" مشيرا إلى أدراج قطعة من الأثاث فى مواجهة السرير. ثم سحب أول درج.

"أغراضى" قالت ماما بحدة. "كل شىء هنا يخصنى. إنها غرفة نومى... يحتوى هذا الدرج على إشارباتى وقفازاتى...". أغلق الرجل بسرعة الدرج دون أن يكمل مهمته وطلب:" وهذا الباب هناك.؟...".

"الحمام..." قالت فاطمة التى همت بأخذه إليه. ألقى الرجل نظرة سريعة وقال: "طيب...". ثم ذهب. وراقبناهم فى دهشة وارتياح ينزلون السلم. تبعتهم وأنا أتساءل عما سيفعلونه. لا شىء. بحثوا عن باب الشقة تقدمتهم وفتحته على مصراعيه. لم ألاحظ أن شرطيا آخر كان ينتظرهم عند الأسنسير. ألقى التحية عليهم. كم أتمنى لو استطعت الصراخ فى وجههم أن يذهبوا إلى الجحيم!

"حالما تعود أختك، أخبريها أن تتوجه إلى المباحث العامة... هل فهمت؟..." هل فهمت! أكاد أضحك. يجب أن يكون المرء غبيا ليلبى دعوتهم.

أخيرا رحلوا! الساعة السابعة صباحا!

لاحظت الشرطى المنتظر وأنا أغلق الباب. محجوب وصادق متسمران فى مكانهما أمامى فى حالة ذهول. أبتسم لرؤيتهم فى هذه الحالة. أطمئنهم وأطلب منهم أن يحضروا لنا الشاى والفطور فى غرفة ماما.

"لقد ذهبوا يا مامى...".

"هل أنت متأكدة؟" ثم أضافت بابتسامة فيها تهكم: "التليفون هنا! فى الدرج الذى أضع فيه حقائبى. ظننت أن قلبى سيتوقف عندمت فتح الفليك(١٣) أول درج... قولى لى يا بولى ماذا فعلوا عند أختك... هل وجدوا شيئا؟". أحكى لها التفاصيل وأنا جالسة على كرسى قرب السرير. ولا أنسى أن أخبرها عن دعوتهم. فانتفضت قائلة "أكيد! يتصور هؤلاء الفليك أن جى جى بهذا الغباء...". الفليك؟ ماما قالت فليك؟ ورحت أضحك. هذه المرة الأولى التى تتلفظ فيها أمى بكلمة بهذه السوقية!

"فليك، قلت فليك يا مامى...".

"ما لك تضحكين مثل البلهاء؟ نعم قلت فليك. هذه لغة فرنسية أليس كذلك؟...". فى هذه اللحظة ظهر صادق وفاطمة بصينية الإفطار.

" ما قام به هؤلاء الضباط مشين يا مدام! لم يسمحوا لنا بالدخول إلى المطبخ... وصعدوا إلى غرفتنا وطلبوا هوياتنا...". يقطن صادق ومحجوب النوبيان فى غرفة على السطوح.

" ثم نزلت ووجدت رجلا كان ينتظرنى أمام باب المطبخ. سألته ماذا يريد فصرخ فى وجهى: "وأنت؟ ماذا تريد؟...". قال هذا لى أنا يا مدام! منعنى من فتح الباب. المفاتيح كانت فى يدى. فقلت له: "اتركنى أنا أشتغل هنا روح فى ستين داهية!... لماذا

---

(١٣) شرطى بالفرنسية الدارجة.

تضحكين يا مدام؟. ما المضحك فى كل هذا؟..."، مصطلحات صادق المسكين وسرده فجرت ضحكاتنا. حتى فاطمة كانت تضحك.

احتست ماما الشاى بتأنٍ، لم تلق نظرة واحدة على الجريدة. أما أنا فأشرب قهوتى وأتناول فطورى بشهية. نبتسم لبعضنا فى سعادة لأننا استطعنا أن نضلل الشرطة. استراحة قصيرة قبل أن يسطو علينا ثانية القلق على إنجى.

"وإنجى؟ ماذا ستفعلين؟..." صوتها قلق. أشرح لها أن ابنتها ستبلغ بالأمر وأن عليها أن تستمر فى الاختباء. من حسن الحظ أن لدينا التليفون.

فى هذه اللحظة رن جرس الباب.

"انزلى بسرعة... أنا سأخفى التليفون...". هل يمكن أن يكونوا هم ثانية؟ إنه التمرجى الذى يأتى كل يومين ليعطى ماما حقنة. ها هو محاط باثنين من المخبرين الذين يطلبون منه أوراقه. محجوب فى غاية الغضب: "إنهم يمنعونه من الدخول!.. قال لى الشرطى: إنه تلقى الأوامر". لا أحد منا يستطيع الخروج من البيت أو استقبال أحد... رحل التمرجى غاضبا قائلا إنه سيعود فى الغد. أغلقنا الباب وراح محجوب يقول فى يأس: "كيف سأطبخ يا مدام؟... هناك شرطى آخر أمام باب المطبخ..." حاولت أن أهدئ من روعه: "اذهب وخذ الشاى مع فاطمة سنرى ماذا سنفعله... لكن اهدأوا كلكم...".

الآن على أن أخبر أختى بأى ثمن. أصعد إلى غرفة والدتى، أفتح الدرج وأمسك بالتليفون الثمين. ماما تدخن سيجارتها وهى تنظر إلىّ. أتمنى أن تكون مينا مستيقظة وأن ترد بنفسها! لا يجب أن أقول اسمى فى التليفون. رد على صوت مبحوح: "ألو! مينا؟ آسفة على إيقاظك. لكنى أود أن أعتذر لا أستطيع المجىء هذا المساء... لماذا أنت مندهشة هكذا! لقد دعوتنى على العشاء... لكن أنا مريضة أعانى من نزيف... مينا!

استيقظى! لقد طلبت الدكتور... لأرى ما موضوع هذا النزيف... هيا يا مينا استيقظى!".

بدا القلق على ماما "هل تعتقدين أنها فهمت؟ وأنها ستخبر إنجى؟"... فصلت التليفون وأعدته إلى الدرج، ثم قلت لنفسى يجب أن أعيد توصيله. من الممكن أن تتصل إنجى كما أن على ماما إخبار فيكتوريا أنها لن تذهب اليوم.

"اسمعى يا مامى سآخذ دشا بسرعة وأعود. ردى على التليفون... وإن سألت إحدى صديقات إنجى عليها نادى على".

أفكر فى أختى وأتمنى أن تكون مينا قد فهمت وأسرعت بإخبارها.

"قولى لى يا بولى إلى متى ستدوم هذه المسرحية؟ هل سيحتجزنا هؤلاء الأوغاد طويلا؟..."، أتنهد، لا أجد ما أرد به. ما أعرفه الآن أننا سنتمكن من إعداد الغداء! صعد البوابون يسألون عن أخبارنا وأعطاهم محجوب نقودا لشراء ما يلزمه.

الساعة العاشرة ونصف، التليفون يرن،

"ألو صباح الخير! أنا مينا..." أنظر إلى ماما مبتسمة. ليست مينا بل إنجى.

"ماذا حدث لك؟ لم أفهم جيدا! هل أنت مريضة؟ نزيف؟ اعتنى بنفسك يا حبيبتى وقبلى أمك...".

أطمئن ماما دون أن أقول لها إن أختى ستضطر للرحيل من بيت أصدقائنا. ستبحث مينا وأحد الرفقاء عن مكان آمن لإنجى.

أخبرتنى هذه الأخيرة فيما بعد عن مشهد مضحك حدث لها فى ذلك الصباح. كانت تتناول فطورها عندما جاءتها مينا. "فهمت فى الحال ما حدث. لكننى اندهشت لرؤية مينا فى تلك الحالة من الاضطراب. إذ اندفعت نحوى وهى تصرخ بسرعة، ارتدى

ملابسك، بولى تعانى من نزيف!" كانت مينا بالطبع تعرف كلمة السر لكن خوفها على إنجى شل أفكارها.

ظللنا أنا وماما فى غرفتها الواسعة ننسج خيوط الصبر ونسترق السمع لصوت الأسنسير كلما اقترب من طابقنا. التصق هذا الصوت بذاكرتى فيما بعد وكلما سمعته تذكرت تلك الأيام المدججة بالخوف.

ها هو محجوب يقف عند الباب مبتسما "أحضر لى البواب ما كنت أحتاجه ووافق الشرطى. طبعا بعد إذنك سأعطى شيئا لابن الكلب هذا، اعذرينى فى هذه الكلمة... هل أحضر بعض القهوة؟".

"طبعا".

"هل تعتقدين يا بولى أننا يمكن أن نثق فيهم؟...".

"طبعا يا مامى. لا تقلقى. إنهم مرتبطون بك...".

"إنها كارثة لو أخطأ أحدهم وقال أمام الشرطى: إننا نستطيع استعمال التليفون!".

"اطمئنى يا مامى أهم شىء قمنا به. استطعت أن أكلم مينا التى أخبرت إنجى... لا أحد يحب الشرطة خاصة عامة الشعب...".

أوقفنى جرس التليفون. فقالت أمى "قولى: إننى خرجت لو المكالمة لى".

"ألو بولى؟ كيف حالك وتانت صالحة؟...". إنه صوت جميل صديقى الشاب. أقول له إننى متوعكة. "ماذا بك يا حبيبتى؟ على كل حال كنت أنوى تناول الغداء معكم وقضاء بعض الوقت معك ...". يا إلهى كيف أشرح له؟

"ليس اليوم يا جميل. أعانى من نزيف وأرقد فى السرير...".

"كيف؟ نزيف؟ أنا قادم...".

"لا!..." كدت أصرخ فى وجهه. "لا يا جميل لا تأتِ... أريد أن أبقى بمفردى... كلمنى غدا... سأشرح لك... هل تفهم يا جميل... لكن لا تأتِ اليوم...".

"طيب، طيب، كما تشائين، اعتنى بنفسك، سأكلمك غدا...".

"المسكين جميل... إنه فى غاية الإحراج، كان ينوى تناول الغداء معنا. تصورى يا مامى أن يأتى ويمنعونه من الدخول!...". نضحك. "كان من المفروض أن أقول له: إننى أعانى من نزلة برد... طبيعى أنه لم يفهم، كيف له أن يتصور أننا محبوسات فى بيتنا؟...".

ومر هذا اليوم التاريخى فى هدوء، لم يرن التليفون، غادر البوليس مواقعه! وأفرج عنا أخيرا!

اعتقلوا مثلما خمنت عددا كبيرا من الصحفيين والمثقفين من بينهم الأستاذ لويس عوض مع أنه لا ينتمى للتيار اليسارى ومن أصدقائنا، هناك لطفى الخولى ولطف الله سليمان ونحو عشرين امرأة. دامت الاعتقالات بضعة أيام.

وإنجى؟ غادرت شقة أصدقائنا حتى تجنبهم المتاعب، وأخبرتنا مينا أن حنا وعلى إدريس استضافاها فى بيتهما فى الإسماعيلية، حيث ستقضى بعض الوقت. زارتنى مينا ومعها قائمة من الأغراض التى طلبتها أختى. كانت تريد إضافة إلى الثياب علبة الرسم.

من المفروض أن يأتى جلال لتمضية ليلتين عندنا. كلمنى ثلاثة أسابيع بعد اعتقال إسماعيل ليبلغنى أنه تخلى عن مشروعه لبيع حصة زوزو فى الأراضى ما دام إسماعيل غائباً، وأنه سيتولى إدارة ممتلكاتنا. لفتة لطيفة.

سحبت مبلغا صغيرا من حساب إسماعيل فى البنك. واكتشفت أن الهيئة الاقتصادية حولت مرتب شهرى فبراير ومارس. ألم يصل للهيئة أمر فصله وقطع مرتبه؟(١٤).

٣١ مارس.... التقيت هذا الصباح لدى خروجى من عند الكوافير ليليان. وعندما علمت أننى متجهة إلى مكاتب المباحث صممت على اصطحابى. هناك استعلمنا عن حقوقنا فقيل لنا إننا نستطيع إرسال السجائر والثياب والأدوية لأزواجنا من الأول إلى الخامس من أيام كل شهر وذلك عن طريق إدارة السجون. كما لنا الحق فى مراسلتهم بالعربى طبعا كل أسبوع، أما هم فكل خمسة عشر يوماً.

٤ أبريل .... علمت أن سلسلة الاعتقالات الأخيرة دفعت إيزا(١٥) وزوجها لمغادرة مصر! أنا مستاءة من هذا الرحيل الذى سيحرمنى من صداقتهما. وصلتنى رسالتان من إسماعيل! الأولى بتاريخ ٧ مارس والثانية بتاريخ ١٧ مارس. كدت أنفجر بالبكاء. الأولى، رسالة قصيرة مكتوبة بالعربية! أما الثانية فبالفرنسية الحمد لله!. إسما لم يتلق رسائلى.

سبب لى التوتر الذى عشته خلال الأسبوعين الماضيين انهيارا عصبيا طفيفا. لم أستطع انتظار موعد الإفطار، وهرولت إلى بيت أخته لتقرأ لى الرسالة المكتوبة بالعربية ولأسلمها الخطاب الذى أرسله لها. بكينا معاً. لم أبك منذ اعتقاله. شعرت بعدها ببعض الارتياح.

---

(١٤) لم يعبأ صدقى سليمان بأمر الطرد الذى صدر من المباحث. ولم يذعن إلا عندما وصله خطاب رسمى من رئاسة الجمهورية. قرار شجاع من طرفه خاصة فى الظروف السائدة آنذاك.

(١٥) إيزا هى إزابيل [illegible]جة سمير أمين.

ذات صباح من هذا الشهر -دائما فى رمضان- جاءت مينا لزيارتى. أخبرتنى أن إنجى تقيم عند زوجين دون أطفال فى مكان ما فى شبرا. وحدها تعرف العنوان. أخذت مينا بعض الثياب، وحذاء، وقهوة، وشايًا، وجبنًا، وعلب لبنٍ مركز ونقوداً. أختى راضية عن هذا الترتيب ويمكنها أن تواصل النضال!

أما صديقتنا مينا فرغم انشغالها بتحضير ليسانس الآداب فإنها تجد وقتا كافيا لمساعدة إنجى. عادت بعد يومين وطلبت منى مبيدا للحشرات؛ لأن البيت ملىء بالبراغيث.

"خاصة السرير الذى تنام فيه أختك! لو ترين السرير! سرير بأعمدة من النحاس مثل أيام زمان....".

أحاول أن أتصور أختى فى هذا المكان الضيق وسط حى شعبى وناس فقيرة وبسيطة. طمأنت ماما قائلة إن إنجى فى مكان آمن، وضعنا بيننا بصورة عفوية اتفاقا ضمنيا. وكل ما يتعلق بابنتها المفضلة انحسر فى سؤالين: "هل لديك أخبار عن أختك؟... هل هى بخير؟... الحمد لله!".

لم تغير أمى شيئا من روتين حياتها، لكنها تعتنى بى دون أن تظهر ذلك ودون أن تطرح على أسئلة. تعلم جيدا أننى سأخبرها عند عودتها من الأتيليه عن نتائج ما أقوم به من مساعٍ، ولو كانت ضئيلة. هذا هو المحور الأساسى لحواراتنا. تبتسم من السعادة عندما أخبرها أننى تلقيت رسالة من إسماعيل الذى يسأل دائما عن أحوالها، وتحرص كل صباح قبل مغادرة البيت على ألا أقضى السهرة بمفردى. فتقترح على الذهاب للسينما أو دعوة أصدقائى على العشاء.

أحيانا تأتى داتى مع والدتها أو لولو وليليان لقضاء الأمسية عندنا. نقضيها فى لعب الكوتشينة وفى الضحك على وقع الخسائر والفوز. هذه اللقاءات تسلينا

وتغنينا عن الحديث فى السياسة. ننتمى لأعمار وعوالم مختلفة، لكن تربطنا محنة واحدة. هناك الأخت والأم والزوجة والخطيبة.

ثريا تساعدنى على كتابة خطابات أطلب فيها تحويل إسماعيل إلى القاهرة لعرضه على الأطباء. أركز على أنه قبل اعتقاله كان يعانى من المصران الأعور ومقرر أن تجرى له عملية. بعثت بهذا الطلب إلى كل الجهات المسؤولة.

وصلتنا أنباء مقلقة من الخارجة. قرأت الرسالة التى بعث بها إسماعيل مرتين لأتمكن من فك رموزها. انتابنى الفزع. كلمت داتى التى سارعت بالقول: "بولى؟ هل يمكن أن أزورك بصحبة ماما الآن؟".

تانت وديدة وداتى فى حالتى نفسها أمسكنا الرسائل الثلاث التى كتبها أحباؤنا المعتقلون وتبادلنا ما كتبوه. كأنهم اتفقوا. كل واحد منهم زودنا بعنصر يتيح لنا تخيل ظروفهم المعيشية. ينامون على الأرض. تم حبسهم فى مجموعات من خمسة عشر معتقلاً فى زنزانة تتراوح مساحتها ما بين ٥ و٦ أمتار مربع. لا يخرجون منها إلا عشر دقائق كل يوم. يصارعون الذباب كل يوم وأكلهم مريع. ولم يتلق أحد منهم رسائل أحبائه.

خمسة عشر فى زنزانة ضيقة! كيف نخرجهم من هذا الجحيم؟ الخارجة معروفة بحرارتها فى الصيف. ما هو السبيل لتحسين ظروفهم؟ تقديم عرائض أخرى للسلطات. تنظيم رحلة إلى هناك. هل سيعطوننا تصريحا بذلك.

لماذا يصر إسماعيل على تقليصى لمشترياتى؟ من المؤكد أنه علم بموضوع فصله. سأطمئنه فى رسالتى القادمة. جلال يسلمنى كل شهر مستحقاتنا. وسيسعد إسما عندما يعرف أنه عدل فى الوقت الراهن عن بيع حصة زوزو.

"إن لم يكن إسماعيل مريضا لماذا تصرين على تحويله للمستشفى يا بولى؟ لماذا؟"

لألف سبب. أشرح للأصدقاء ولعائلة إسماعيل أنه يعانى من الجيوب الأنفية، وأن نوبة مصران الغليظ داهمته قبل اعتقاله بقليل، ومن المحتمل أن يعانى مجددا هناك فى أقاصى الصحراء. على كل حال طلب منى ضمنيا أن أتولى هذا الموضوع. إذ يمثل المستشفى، فى نظر المعتقلين، هدنة تصلهم خلالها أصداء المدينة من خلال الأطباء والممرضات والزوار. ورغم رقابة الشرطة والمباحث يتمكن الواحد منهم من مقابلة والدته أو زوجته التى تفلح فى تزويده بطبق أكل أو حلويات، بسجائر، بخمسين قرشا أو بجنيه. لحظة قصيرة يتم فيها تحدى الممنوعات. وتصل السعادة عند أوجها فى حالة المرض الخطير أو العملية الجراحية عندما تحصل العائلة على إذن رسمى بالزيارة يتم انتزاعه بشق الأنفس.

-٨-

كللت خطتى بالنجاح. إسماعيل فى القاهرة! غمرتنى السعادة وسلمت طردا للبوليس. ثم هرعت إلى ثريا أزف لها الخبر السعيد، وطلبت تحسبا من كامل أن يصحبنى فى الغد إلى النيابة، فقد يقدمون على أى شىء غير متوقع. حتى إنهم يستطيعون إرساله مرة أخرى إلى الخارجة دون عرضه على دكتور.

علمت فى اليوم التالى أن إسماعيل فى المستشفى لإجراء عملية جراحية! كتبت فى اليوم نفسه "هنا تبدأ رحلتى العجيبة التى تتسارع لها ضربات قلبى".

توجهت بسرعة إلى أخت زوجى وجعلتها تكتب لى طلب زيارة قبل إجراء العملية لإسماعيل. ثم توجهت به إلى المباحث ومن هناك إلى الكوافير. القلق يلازمنى. ستجرى له العملية فى أية ظروف؟

سمعة قصر العينى سيئة للغاية.

"هذا صحيح" قال لى صديق طبيب "لكن قصر العينى هو أكبر جامعة طب فى البلد يدرس فيها أكفأ الأطباء. أن يكون الطبيب أستاذا فى قصر العينى ذلك شرف كبير...".

اقترح أن يصطحبنى الساعة الثامنة صباحا للمستشفى.

"لا أعدك بشىء يا بولى. سأحاول أن أعرف... لست أدرى أين وضع إسماعيل...".

تنتصب هناك بعيدا فيما وراء الأسلاك العالية جدران المستشفى العتيق الصفراء. وبينما كنا نقترب من البوابة المغلقة لاحظت بعض أعوان البوليس. فسألت قلقة: "ماذا يفعلون هنا؟".

"لا تخافى. هناك دائما أعوان شرطة عند الباب يمنعون الناس من الدخول فى غير أوقات الزيارة. لكنهم سيفتحون الباب. رأيت؟".

"انتظرينى هنا، سأرى ما يمكن فعله. اصبرى قليلا..". أنظر حولى. ثلاث ممرضات ينزلن السلالم الرئيسية ويعبرن القاعة الواسعة وهن يضحكن. إنه مسطح واسع زرعت فيه هنا وهناك بعض الأشجار وتتخلله مربعات من نبات إبرة الراعى الضامر وكثير من الأعشاب الضارة. ثم جاب نظرى عبر نوافذ المبنى العالية، زجاج معظمه مكسور، وعبر البلكونات الضيقة، والأروقة، والسلالم المؤدية إلى مختلف الأقسام. يظهر ثم يختفى رجال ونساء فى ثياب بيضاء. ربما استطعت أن أرى إسما، رجلان بزى بنى، خمنت أنهما من البوليس، يمران بجانبنا. دقات قلبى تسارعت، انحنيت كأننى أبحث عن شىء وقع على الأرض. ابتعدوا. أين وضعوا إسما؟ فى أى طابق؟ وأى قسم؟

"إسماعيل فى الطابق الثانى، الجناح ب" قال صديقى. وبإشارة بيده أرشدنى إلى فتحة "هذه السلالم على اليسار... سأتركك... Good Luck...!".

بينما ابتعد مسرعا لمحت إسماعيل يقوده عسكرى من يده.

"حبيبى!" الصوت المحبوب اختنق من التأثر. ضمنى إليه بقوة ثم أبعدنى قليلا لينظر إلى.

"لقد أصبحت هزيلة يا حبيبتى! لماذا؟... اسمعى. هل تقدمت بطلب زيارة؟ من حق كل معتقل أن يلتقى بعائلته قبل أن تجرى له العملية. سأرفض العملية ما دمت لم ألتق

بكما أنت وأختى...". الشرطى تململ وأمسك بذراع إسماعيل. "طيب... طيب أنا قادم...". استطاع إسماعيل أن يبتعد عنه ليقبلنى. ثم سار معه واختفى.

كل شىء كان سهلا ورائعا. حصلت على الإذن السحرى وسمح رجال الأمن لسائق التاكسى بالدخول إلى البهو المؤدى إلى السلالم. أدخلنى شرطى إلى العنبر، حيث كان إسماعيل ينتظرنى مبتسما وسعيدا. لف ذراعيه بشوق حول جسمى. جلسنا وتكلمنا وأيدينا متشابكة. لم يصر الشرطى على أن نتكلم بالعربية. ولم يضايقنا أيضا. الأطباء والممرضات يعبرون القاعة دون النظر إلينا. تحدثنا عن كل شىء. عن عائلته، عن والدتى، عن إنجى " أختك الرائعة" كما وصفها. عن الوضع السياسى، وأخيرا عن الخارجة حيث الحياة القاسية.

"لكن لا تقلقى. سنجتاز المحنة. أصعب شىء كان رحلتنا إلى أسيوط. جحيم! زد على ذلك أن أحد الرفقاء كاد يموت من نوبة حادة للمصران الغليظ! نجا بأعجوبة. معجزة... ولهذا قررت السلطات ألا تجازف فيما يخصنى بعد العرائض التى بعثتها والشكاوى المتكررة".

عبرنا عن احتجاجنا لما قال لنا الشرطى: إن الوقت نفذ فأمهلنا عشر دقائق إضافية. وضح لى إسماعيل أننا نستطيع زيارته بعد العملية مباشرة.

"تعالوا الساعة الثامنة. سيستضيفكم أحد المرضى المقيم فى الغرفة المجاورة عنده حتى عودتى. لا يمكنه الكلام لكنكم ستفهمونه بالإشارة. إلى الغد إذن! نامى جيدا أريد أن أفتح عينى عليك وأنت فى حالة جيدة ... لا تقلقى.

"لا تخافى يا مدام" قالت إحدى الممرضات. "عملية المصران الأعور بسيطة. لعب عيال...".

سهل أن يقال لى لا تقلقى. نشوة لحظات اللقاء بدأت تزول. وكل خطوة تبعدنى عنه تزيدنى خوفا عليه وتخنقنى.

ماما لم تخرج هذا المساء، وظلت فى البيت تنتظر عودتى بصحبة نبيلة وعلى. جاؤوا ليطمئنوا على، دعتهم ماما على العشاء، اتصل بى كامل أخيرا ليخبرنى أنه سيمر بصحبة زوجته ليأخذنى فى تمام السابعة والنصف صباحا. تناولت مهدئا لأنام.

١٠ مايو. لن أنسى أبدا هذا اليوم. أقود ثريا وزوجها عبر السلالم والممرات الطويلة. نمشى فى صمت. ثم بدأنا رحلة الانتظار أمام بوابة العنبر. لم يعرنا موظفو المستشفى القلائل فى هذا الصباح أى اهتمام. واستفسرت منا إحدى الممرضات وهى تحمل كومة من الملايات إن كنا نبحث عن أحد. فقلت لها بابتسامة خجولة وبصوت منخفض: "من المفروض أن تجرى عملية المصران الأعور لزوجى...". هزت رأسها ونظرت إلى ثريا وكامل ثم قالت: "المعتقل؟... لقد أخذوه إلى غرفة العمليات... لا يمكنكم رؤيته... الحراسة مشددة عليه... على كل حال انتظروا هنا...". وأشارت إلى الدرابزين: "إياكم أن تقتربوا من العنبر! الله معكم!...". ثم ابتعدت وهى تهز مؤخرتها الممتلئة. لم نفكر حتى فى سؤالها متى بدأت العملية. ثريا تصلى وتصدر من بين شفتيها همسات غير مفهومة. أما كامل فراح يمرر حبات سبحته من العاج المصفر بين أصابعه. أشعلت سيجارة. أحاول دون جدوى أن أبعد عنى الصور المريعة التى تسيطر على. إسما وهو محاط بأطباء ملثمين، ومقصاتهم تعبث فى بطنه المفتوحة... الدم.

"كم الساعة؟ العاشرة! لماذا كل هذا الوقت؟... ماذا يفعلون...". ندخن نحن الثلاثة. نمشى قليلا ونحن نتكلم بصوت منخفض. نتكئ على إحدى النوافذ العريضة. الزجاج نصفه مكسور. من المؤكد أن الجو هنا بارد فى الشتاء. كلما كنت أمر بالسيارة قريبا من هنا وأشاهد من بعيد هذا المبنى الضخم بنوافذه ذات الزجاج المكسور أصفه بالكئيب! وها أنا فيه مع زوجى! أخرجنى صوت كامل من تيهى.

"ها هم!...". انطلقت نحو السرير المتحرك الذى تدفعه إحدى الممرضات يصطحبهم ضابط مباحث وشرطى. ماذا قلت لهم؟ طمأنتنى الممرضة قائلة: "مبروك!

العملية نجحت بحمد الله!... هو نائم. لا توقظوه. لا يزال تحت مفعول التخدير...". رغم دموعى استطعت أن أرى وجهه الجميل الشاحب قليلا، وشعره الأسود على الوسادة البيضاء، وشفتيه الجافتين المتباعدتين قليلا. أمسكت بيده وهمست: "أنا هنا إسما حبيبى!...". ودون أن يفتح جفونه ارتسمت ابتسامة على وجهه.

"تتالى!... أنت هنا! كم هذا جميل!...". لم ينادنى باسم تتالى منذ زمن طويل. صرخت الممرضة من الفزع وقالت: "هل هذا ممكن؟ كيف أفاق بهذه السرعة؟...". اقترب الضابط، انحنى واسترق السمع. هل يأمل فى الحصول على اعترافات مدوية؟

"أنا هنا يا إسما...". قبلت يده النضرة. كامل وثريا اقتربا منه وانحنيا على السرير.

"نحن الثلاثة بالقرب منك يا حبيبى! لا تجهد نفسك...". فتح عينيه السوداوين. نظرته ما زالت تائهة.

"روح قلبى! جميل أن أراكم بجانبى... ثريا اشتقت إليك... أنا بخير اطمئنوا... بولى! تعلمين؟ لم أتكلم تقريبا أثناء هذيانى... لم أفكر إلا فيك... بذلت مجهودا جبارا كى لا أتكلم... الأمر غريب تعلمين؟ أنا مشتاق إليك بشدة...".

"كفاية!" صرخ الضابط. ربما تضايق لأنه لا يفهم ما نقوله. حاولت الممرضة أن تطمئننى عندما رأت دموعى فقالت وهم يضعون إسماعيل على السرير: "كل شىء تمام. هل أنت مطمئنة الآن؟... يجب أن يستريح...".

"مبروك! ألف مبروك يا بيه!" راح يردد الشرطيان اللذان يحرسان الباب. كامل فهم وفتش فى جيوبه، ثم أعطى كلاً منهما خمسين قرشا.

"تحت أمرك" قال الاثنان ممتنين.

"شرطيان وضابط لحراسة أخى؟" قالت ثريا وهى تمسح دموعها. "غير معقول فعلا! هل إسماعيل بهذه الخطورة؟ هل يتصورون أنه سيهرب وبطنه مفتوحة؟...".

"الحمد لله! ألم تطمئنوا الآن؟ هيا بنا نذهب!...تريدين البقاء يا بولى؟ طيب خذى بالك من نفسك... مع السلامة...".

أتابعهم وهم يبتعدون وأمسح وجهى المبلل بالدموع والعرق. الفراشون يدخنون دون أن يعيرونى أى اهتمام. التصق نظرى بالغرفة المقابلة. الباب نصف موصد. من المفروض أن يظهر الأبكم الذى حدثنى عنه إسماعيل البارحة. لا يمكننى المكوث هنا أكثر إذ إن الشرطى قد يخرج فى أى وقت من العنبر... ها هو!

يرتدى الرجل جلابية بيضاء تتخللها خطوط خضراء. وقف عند الباب وأشار إلى بالدخول عنده وهو يصدر أصواتا غير مفهومة. أنفذ ما طلبه منى وأنا أبتسم. عنبره المكون من ثلاثة أسِرّة يشبه عنبر إسماعيل. ألمح من وراء الستارة طبيبا وممرضة منكبين على مريض. الأبكم اسمه عزوز وأجريت له منذ عشر سنين عملية لاستئصال ورم سرطانى من الحنجرة. كانت حالته ميئوساً منها. ونجاته كانت بمثابة المعجزة. كان وحيدا وفقد مصدر رزقه فقبل بكل بساطة أن يكون حقل تجارب. فتبناه قسم الجراحة من الدكتور الكبير إلى عاملة النظافة لطيبته وكرمه وخدماته. كلهم يحبونه ويتابرون فى تدليله.

عزوز هو الذى قاد لقرابة عشرة أيام المشاهد المضحكة للقاءاتنا السرية بالتعاون الضمنى مع الأطباء الشباب والممرضات. كلهم سعيد بتحدى الشرطة. عن طريق باب موصل بين العنبرين تمكنت من الحركة دون أن يرانى ضابط الخدمة. أما الأعوان فكان من السهل شراء صمتهم بورقة نقدية أو علبة سجائر.

فى مساء هذا اليوم الحافل جلست أنا وماما فى المكتب نشرب كأسا ورويت لها تفاصيل مغامرتى.

ترك الشرطى مكانه لقرابة الساعة، فقضيتها مع إسماعيل ... مر طبيب ترافقه ممرضة بالقاعة وتظاهروا بعدم رؤيتى. جاءت ممرضة الصباح عدة مرات لتقيس حرارة إسماعيل وضغطه، إلخ. كانت ظريفة وفى كل مرة تطمئننى. كلفتنى بوضع وعاء على مقربة من إسماعيل كلما شعر بالغثيان وبتمرير قطعة قطن مبللة على شفتيه إذا أراد أن يشرب. كان يتألم بالطبع، لكنه لم يكن يتأوه. يكتفى بعَضّ شفتيه والابتسام لى. حرارته كانت مرتفعة قليلا وكان كثير الكلام. "تصورى يا مامى! علم باختباء إنجى... ووافقها فى قرارها...". لا أقول لماما إن إسما يجد أختى رائعة. إنه هو ورفقاؤه فى السجن يعتبرونها بطلة.

روى لى إسماعيل أنه بذل مجهودا كبيرا حتى لا يتكلم. مما أثار دهشة الأطباء والممرضين أثناء العملية.

"لم أكن أرى سواك" همس لى وهو نائم على هذا السرير ... جسمك الذى اشتقت إليه بشدة...". وأرانى وهو يضحك مصرانه الأعور وهو يسبح فى المحلول داخل وعاء.

"انظرى كم هو جميل! صرح لى الجراح بابتسامة ساخرة أننى كنت أستطيع أن أعيش به مائة عام دون أية مشاكل... كانت الوسيلة الوحيدة لأتمكن من رؤيتك والاطمئنان عليك ومعرفة ما يجرى على الساحة السياسية... وكذلك لأبتعد لفترة عن ذلك المعتقل...".

حالما رأى عزوز الشرطى أبلغنى بالأمر ومررت إلى العنبر الآخر. كنت سأموت من الخوف... انتظرت فترة طويلة. ثم فهمت من عزوز أنه يمكننى الانصراف. وضعت منديلا على فمى حتى لا يتعرف على الشرطى، أدرت له ظهرى وجريت.

هكذا تمكنت من رؤية إسماعيل كل يوم لبضع دقائق أو لنصف ساعة. يسمح لى حراس الباب الرئيسى بالدخول إلى المستشفى دون عناء. عرفت بالخبرة أمن طريق

للوصول إلى الجناح (ب). السلالم العديدة الممرات الطويلة التى أغبرها. تعلمت أن أرفع أرجلى عن الأرض حتى لا يحدث كعب حذائى صوتا وهو يرتطم على البلاط الرمادى. وعرفت كذلك فى حالة استشعار الخطر أى اتجاه أسلكه لأختفى عن الأنظار، مثل الحرامى! الأطباء والممرضات شعروا بالتعاطف مع هذا المريض المسجل خطر. طيبته وأخلاقه العالية وربما شخصيته اللامعة سلبت قلوب كل من اقتربوا منه. هكذا حصل له الدكتور المساعد الشاب الذى أجرى له العملية على تمديد لإقامته فى المستشفى بحجة أنه يحتاج رعاية خاصة، رغم احتمال وقوعه فى مشاكل خطيرة مع المباحث. أما طبيب المناوبة الليلية الشاب هو أيضا، فكان يزوره ليتحدث معه عن أحوال البلد الاقتصادية والسياسية. وعرض على أن أعطى اسمه لرجال الأمن عند البوابة الرئيسية حتى يسمحوا لى بالدخول دون مشاكل.

"تعرف يا إسما..." قلت وأنا أضحك، " لدى إحساس أنهم مقتنعون أننى صديقته الحميمة. كلما دخلت ترتسم على وجوهم ابتسامة خبيثة...".

"حوار فى البلكونة"، هذه هى الجملة التى كتبتها فى اليوم التالى. "هل حلمت؟ لقد تكلمنا عن كل شىء. العائلة والأصدقاء. مثل ذى قبل. الفراق لم يكسر شيئا بيننا. استرجعنا كل شىء كأن شيئا لم يكن. فى حقيقة الأمر رغم المسافات وما حدث فلم يبتعد أحدنا عن الآخر. كم من الناس يتمتعون بهذا القدر من السعادة. أستمد منه قوتى كما ينهل الظمآن من ينبوع. معركتى الوحيدة هى ذلك القلق من أن أشيخ قبله، أن أذبل بسرعة...".

لكنه قلق محدود وظرفى. تسكننى شتى المخاوف رغم سعادة لقائه كل يوم. هذه الفرحة العارمة المضيئة تحملنى فيما وراء هاجس أن يكتشف ضابط المناوبة أمرى ويعيد إسماعيل إلى الواحات. مثل تلك الليلة التى دقوا طويلا على بابنا الساعة الثانية صباحا. هل أخبرهم أحد عن ذهابى إلى المستشفى؟

استيقظت مرعوبة وذهب فكرى إلى إسماعيل. كنت مقتنعة أنهم اشتموا خبر زياراتى السرية لإسماعيل وأنهم سيعيدونه إلى الخارجة. سيفتح الجرح من جديد... سيتعفن... أيقظت فاطمة وفتحنا لهم الباب. سألتهم بصوت عالٍ عم يريدون. سؤال منحوس تسبب فى سوء فهم غبى.

"أنتِ!" رد الشرطى وهو يشير بإصبعه إلى. " أين غرفتك؟..". لأول مرة، فقدت أعصابى. لا أتذكر ما قلته لهم وأنا أقودهم إلى غرفة نومى.

"ما هذا الصراخ؟ ماذا يجرى؟.." نزلت ماما السلم، فتوقف الشرطيان ونظرا إليها. فقدمت نفسها إليهم بنبرة من التعالى.

"نريد فقط أن نفتش غرفة ابنتك...". أدخلتهم الغرفة تتبعنى فاطمة وماما التى جلست وهى تلقى على نظرة عتاب لم تحدث أى أثر على. فقدت أعصابى ونعتهم بالهمجيين الذين لا يحترمون أحدا.

"ماذا يريدون يا حبيبتى؟ لماذا أنت بهذه الحالة؟". أجبتها بالفرنسية إننى لا أعرف دون أن أجرؤ على إخبارها أنهم هنا لاعتقالى. أحاول لملمة شتات أفكارى. سيأمروننى بالذهاب معهم وبارتداء ملابسى. على أن أجهز حقيبتى. ماذا ستفعل ماما، من سيساعد إسماعيل؟ إنجى؟ أنظر إليهم وأنا جالسة على حافة السرير. اثنان منهم يتحسسون بأيديهم ثيابى داخل الدولاب. ثالثهم يتفقد علب كرياتى وأدوات الزينة فوق الطاولة. أما الرابع فواقف عند عتبة الباب قرب فاطمة. وعندما هَمَّ أحدهم بفتح أول الأدراج التى أضع فيها ثيابى الداخلية قلت بالعربية: "عيب أن يفتش رجال ثياب سيدة...". ترددوا قليلا لكنهم فتحوا الدرج الثانى... نهضت واقتربت منهم. فى هذا الدرج كنت قد وضعت ظرفين فيهما نقودى ونقود إنجى. وثرت فيهم فور لمسهم لهما: "لا! لا تقتربوا من هذا! هذه الأظرف فيها نقود لا تخصنى! إنها لإنجى...". فاستدار

الشرطى نحوى: "ماذا تقولين؟ إنجى؟ إذن من أنت؟...". فأجبته فى ذهول: "أنا جلبيرى أخت إنجى وزوجة الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله المعتقل فى سجونكم!".

"أختك ليست هنا؟ أين غرفتها؟...". تنفست الصعداء. لم يأتوا من أجلى! هيئ لى أننى انتشلت من بحر كان قد ابتلعنى. أود أن أنعتهم بالأغبياء. بعدما اطمأننت نهائيا قدتهم إلى غرف أختى الثلاث وأنا أردد كما فعلت فى المرة الماضية أن أختى مسافرة. اكتفوا بإلقاء نظرة وتجولوا فى المرسم مبهورين بالكم الهائل من اللوحات. وسألنى أحدهم بعد أن توقف أمام لوحة كبيرة: "ألا تأتى إنجى هنا من حين لآخر لتضيف رتوشات على هذه اللوحة؟...". ماذا دهاه؟ " طبعا لا! الرسام لا يهمل هكذا عمله! هذه اللوحة منتهية منذ زمن... انظر إلى التاريخ: ١٩٥٣ ...". هز رأسه وانصرفوا دون أن ينظروا إلى اللوحات التى على الأرض. ولم ينسوا أن ينبهونى مرة أخرى أنه على إخبار أختى بالتوجه إلى مكاتبهم فور عودتها.

أخذت بهذا الفصل كفايتى من الرعب. شرحت بكلمات مبهمة لماما سبب توترى ثم قالت لى: "كدت أن أنسى... حصلت أختك على الجائزة الأولى فى مسابقة المناظر"(١٦). ثم أضافت: "مائتا جنيه! هنأتنى توتو هذا الصباح بالتليفون. قرأت الخبر فى الأهرام اليوم... ما بك؟ ماذا يضحكك هكذا؟..". الموقف كله مضحك!

"يا مامى كيف نسيت؟... مش معقول ألا تدركين ما حدث؟ قرأت المباحث الخبر وبعثوا بالبوليس هنا!". تصور هؤلاء الأغبياء أن إنجى فى البيت وأنها ترسم بكل طمأنينة... أتذكر الآن أن إنجى أرتنى لوحة كانت ستقدمها للمسابقة. "شىء جميل أن تمنحها لجنة التحكيم الجائزة الأولى... فى هذا التوقيت...".

---

(١٦) فى أواخر فبراير ١٩٥٩ وقبيل معرضها الأخير كانت إنجى قد قدمت هذه اللوحة لمتحف الفن الحديث، حيث نظمت وزارة الثقافة مسابقة فى فن رسم المناظر.

الصدمة التى تلقيتها فجر هذا اليوم جعلتنى متوترة لدرجة أننى لم أتماسك أمام إسماعيل. كنت قلقة وظللت أنظر باستمرار حولى. فطلب منى بلطف وبكثير من الحسرة أن أنصرف.

"أنا أكاد لا أعرفك! عودى لما تستعيدين هدوءك...". نفذت ما طلبه منى، خجلت من نفسى وغضبت منها. ضيعت إحدى اللحظات النادرة والثمينة التى تبقت لنا. كلانا يعلم أنه سيحرم منها فجأة إن عاجلا أم آجلا. وستتآكل أعصابى تحت وطأة البعاد والكيلومترات التى ستفرق بيننا. سأسترجع هدوئى ونضارتى وسأعرف كيف أدخل البهجة عليه فى المساء. هو أيضا قرأ الخبر المتعلق بإنجي. ضحكات سعادة متطايرة، نظرات متبادلة يملؤها حنان لا متناهٍ كان كفيلا بأن يبعد شبح كلمة واحدة: المحاكمة.

شهر مايو يوشك على الانتهاء. خوف جديد يحوم فوق عدد كبير ممن اعتقلوا فى بداية العام وذويهم. المحاكمة! الظروف الحالية لا تبشر بمحاكمة عادلة. ولا بإطلاق سراح فى حالة البراءة.

"لا تتشبثى بحبال ذائبة!" قال لى إسماعيل. "لو عرضونا على محكمة عسكرية فى هذا الوقت فلن ينجو منها أحد تقريبا".

الإشاعة قوية. ستون معتقلاً سيمثلون أمام المحكمة العسكرية. هل عز وكامل على علم بهذا؟ أجوبتهم على أسئلتى جاءت مبهمة. أنا قلقة بشأن تحويل عدد من الرفاق إلى القاهرة ووضعهم فى سجن القلعة.

"لمزيد من التحقيقات" قالت داتى. تتوجه كل يوم إلى سجن باب الخلق لمحاولة رؤية زوجها من خلال القضبان. يتحاوران بالإشارات.

"طلبَ منى أن أختار له محاميا جيدا. ما رأيك يا بولى؟ المحاكمة شىء جيد؟... لا يوجد أى دليل ضده. سيطلق سراحه بالتأكيد... المحاكمة أفضل من المكوث فى الواحات.. أَمْ ..لا؟..". نظرتها تتوسل إلى. تحرجنى. بماذا أجيبها؟

"لا أعلم إن كان أفضل يا داتى. كل شىء غامض. لننتظر بضعة أيام..." إنها الجملة نفسها التى أرددها لنساء أخريات خائفات، يردن الاطمئنان على مصير رجالهن. نساء لا تفهمن أسباب وجودهم فى السجن ولا تلك التى تمنعهن من رؤيتهم.

فى هذه الأيام، قاعة انتظار المباحث أصبحت قبلة عائلات المعتقلين الذين زاد عددهم منذ حملات أبريل. تم حبس النزلاء الجدد فى الخارجة والفيوم، مثل لطفى الخولى زوج ليليان، ولويس عوض، وسعيد خيال وغيرهم. التقيت بزوجة الأستاذ عبد العظيم أنيس الشابة. الرجل قمة من قمم الرياضيات. كان فى الفيوم وتم نقله إلى الخارجة. وأتوقع أن يرسل إسماعيل إلى هناك. لكن متى ستحدد المحاكمة؟

ذات مساء كنت فى عنبر خالٍ، وقالت لى ممرضة بصوت خافت كما لو كانت خائفة:" لقد جاؤوا لأخذه هذا الصباح... جمعوا كل أغراضه ورحلوا... " ثم أضافت عندما رأت التأثر على وجهى: "لا تقلقى بشأنه، تعلمين أنه بخير...". أعلم أن إسماعيل شفى تماما، وأن الأطباء منحوه أيام راحة إضافية. لكننى تعيسة وقلقلة أيضا عند التفكير فى الخارجة. ولم أعرف حينها أن ضباط المباحث حققوا مع الطبيب المسؤول عن القسم ومع مساعديه بخصوص الامتيازات التى حظى بها إسماعيل.

إنجى بحالة جيدة خاصة بعدما بعثت لها بعض أدوات الرسم عن طريق مينا، نقطة التواصل الوحيدة بيننا. إنها تعيش منذ أكثر من شهر مع الكهلين لا تبرح مكانها وسط ذلك الحى الشعبى، رغم أنف المباحث. لا أحد بما فى ذلك وزير الداخلية وزبانيته يمكنه أن يتصور أن امرأة من عائلة عريقة ضحت بحريتها ورفاهيتها من أجل قضية حزب منبوذ من الحكومة. زيارة البوليس الثانية لبيتنا أثبتت لنا أنهم لا يعرفون مكان أختى، وأنهم لا يراقبون مينا مما شجعنا على التخطيط لزيارتها.

لكننا علمنا بوجود حالات جدرى، قلقنا على إنجى. قام الدكتور على عرفان الذى انتقل للسكن فى عمارتنا مع زوجته، بطمأنتنا وبتطعيمنا. ثم ذهب مع مينا إلى شبرا لتطعيم إنجى.

رحنا أنا ومينا نعبر والخوف يضغط على أعصابنا، الزقاق الضيق المليء بالحجارة. مجموعة من الأطفال تلعب كرة القدم ببواقى كرة تنس. على الجانبين مبانٍ

قديمة من ثلاثة وأربعة طوابق تحف مداخلها أكوام الزبالة. أركز على البناية التى تختبئ فيها أختى فى حالة رجوعى بمفردى. أصعد مع مينا التى تسبقنى، السلالمَ الضيقة إلى الطابق الثالث.

دقت مينا ثلاث مرات على الباب. فتح لنا الزوجان الباب. المرأة تبدو غير مرحبة وبالكاد ردت على سلامى. شعرها ملفوف فى منديل أحمر باهت اللون وأنفها معقوب. أشار زوجها بلطف نحو غرفة ديدى. كل منهما كان يرتدى جلابية بالية لكن نظيفة. أختى كذلك. حضنا بعضنا ونحن نضحك من السعادة. تركتنا مينا بمفردنا.

"تفضلين الكرسى أو الكنبة؟...". نظرنا إلى بعضنا لحظة كما لو كنا عاشقين. لاحظت أن أختى وضعت كحلا فى عينيها. ضحكت.

"هل رأيت؟ هذا جزء من زيى التنكرى. وضعته بصعوبة. كلمينى أولا عن مامى. كيف تعاملت مع الموقف؟ وإسماعيل؟ تقول مينا إنه سيكون هناك محاكمة...".

وراحت إنجى تدخن بينما أسرد عليها الأخبار. تقاطعنى أحيانا عندما أسرع فى الحديث. لكن الوقت يمر بسرعة وعلى الرحيل. كلمتنى هى الأخرى عن حياتها. أوقات صعبة تقضيها بين هذه الجدران، وقودها الخوف والملل. تخرج أحيانا ليلا لتلتقى ببعض الرفقاء. تلبس جلابية وتلف جسمها فى ملاية سوداء. حكت لى كيف كادت تقع أكثر من مرة، وأنها تجد صعوبة فى صعود الأتوبيس والترام فى هذا الزى. أما باقى الوقت فترسم وتقرأ الصحافة وبعض الكتب التى تزودها بها مينا. تتناول طعامها برفقة الزوجين. واضطرت لزيادة المبلغ الذى تعطيه إياهم كل أسبوع حتى تتمكن من أكل قطعة لحم من حين لآخر خلال الأسبوع. وفهمت دون أن تقول لى شيئا أن أيامها طويلة ووحدتها ثقيلة. حتى إنها لا تستطيع الاستمتاع بالنظر إلى أسطح المنازل، حيث تنشر النساء غسيلهن ولا بالنظر إلى الشارع الملىء بالحيوية والألوان، إذ إنها اكتشفت أن شابا كان يراقبها من الشباك المقابل ويبعث لها بالقبلات وأفهمها أنه يريد مقابلتها.

"لم أعد حتى أجرؤ على الوقوف أمام النافذة...". ضحكنا من الموقف لكننا كنا مثقلتين بالهموم.

"حتى فى شبرا لك معجبون! هل تتذكرين ذلك المعجب فى شارع الفلكى؟ كان هو الآخر يقوم بإشارات من شباكه...". وضحكنا مثل الماضى عندما كنا نبوح لبعض بأسرارنا. الماضى الذى عاد لبضع لحظات. مجرد فقاعة ما فتأت أن انفجرت تحت وطأة السر الثقيل الذى يربطنا. قبلنا بعضنا بقوة كل منا تحاول إخفاء تأثرها. تواعدنا على اللقاء ثانية، قريبا، إن كان ذلك ممكنا.

كدت أختنق من الأسى وأنا أقترب من الشارع العمومى. ابتلعت دموعى. كم من الوقت ستعيش هكذا؟ كيف تتحمل هذا البيت الكئيب الذى تقضى فيه أياما طويلة؟ الزوجان المتذمران طول الوقت واللذان لا يكفان عن طلب المزيد من المال!

المرور مختنق والتاكسى الذى يقلنى يتحرك ببطء. المارة يعبرون الشارع فى لامبالاة تعرضهم للخطر. أستعجب من جسارتهم. أحاول أن ألمح شيئا من البيت الذى ولدنا فيه. ها هو! تعرفت على البوابة التى تعلوها لافتة قبيحة كتب عليها بالعربية "مدرسة الإسماعيلية". وسرعان ما توارى الماضى أمام سينما "دولى بالاس"! المساكين ريتا إروارث وتايرون باور فى حالة مزرية على الأفيش المتهالك! كانت ديدى من أشد المعجبين بتايرون باور. لم تكن تفوت أيا من أفلامه... أختى العزيزة... أستجمع قواى وأنا أقول لنفسى، لا دموع ولا ضعف. أختى امرأة راشدة. أنا فخورة بها مثلما أنا فخورة بإسماعيل. وعلى أن أستمد القوة من هذا الفخر وأن أكون جديرة بهما. كما لو كان شجرة كبيرة تنمو بداخلى، استقى قوتى تحت ظلها. أية قوة!

ماما تستمع إلى كل كلمة أتفوه بها وهى تحدق فى. تضىء وجهها ابتسامة لإحساسها بهدوئى رغم التعب الذى يبدو على. أشعر أننى منهكة بعد تلك الرحلة

الصباحية. تريد أمـــى أن أستـشير طـبيبا، ربما هى على حـــق. يبدو عليها الرضا لسماعها أن صحة ابنتها المفضلة جيدة، وأنها بخير. لا يبدو على الكذب. ليس كثيرا.

"كل هذا جميل". الثلج يرتطم ببلور الكأس، "لكن متى ستنتهى هذه المسرحية؟"... سؤال رددته أمى كثيرا كلما تحدثنا عن إنجى أو إسماعيل. وأنا أجيب محرجة حسب الظروف: "يبدو أن... من يدرى؟... ننتظر...".

إسماعيل لم يرحل! إلهام هو الذى أخبر زوجته. أما أنا فكعادتى أخذت تاكسى ممن يجولون بعيدا عن عمارتنا.

"إلى سجن القلعة لو سمحت...". نظر إلى السائق مندهشا ثم انطلق. هل شعر بالتحدى فى صوتى وأنا أعطيه العنوان؟ وددت لو سألنى لأجيبه كما أفعل فى كل مرة. صديقاتى لا يجرؤن ويخجلن. لماذا؟ أعتقد أن كل المصريين يجب أن يعلموا بهذا الظلم. يجب أن يعرفوا أن المئات من المواطنين مثلهم يقبعون دون وجه حق فى السجون.

ها قد وصلت. يتناثر على اليسار حى عشوائى على جانب من الهضبة فى مواجهة سور السجن. أقف على الرصيف أمام البوابة الكبيرة وأنظر إلى نوافذ الطابق الثالث. سيتعرف على أحد الرفاق. وإن لم يكن إسما هنا سيبلغنى بالأمر بواسطة الإشارات. السجن كبير. أربعة طوابق ذات لون بنى متسخ يميل إلى السواد. الأسوار العالية زرعت على حوافها شقف زجاجات. التصقت رأس رجل بقضبان إحدى النوافذ. ها هو يشير بيده لإحدى النساء الجالسات على حافة الرصيف. اقتربت منهن أملا فى التعرف على وجه مألوف بينهن. التفتن إلى بفضول. كلهن ملتحفات بالملايات السوداء. لم أتعرف على أى منهن. قضايا مدنية ربما.

"كيف حالك!... زوجك بالداخل؟... يا الله!... يا مسكينة... تعالى اقعدى... هنا...". تنحت اثنتان لتفسحا لى مكانا. جلست على الأرض حتى لا أحرجهن وشكرتهن.

"عندك زيارة؟ كم سنة؟... محكوم عليه بكم سنة؟... معتقل شيوعى؟ ما معنى هذا؟ ربنا معاك!". الرصيف غير مريح. نهضت قائلة: "سأمشى قليلا..". وصلت باكرا ورحت أمشى ذهابا وإيابا وأنا أنظر إلى الجدران العالية التى تتخللها فتحات ذات قضبان. أتفقدها الواحدة تلو الأخرى وأنا أغمض عينىَ من وطأة الشمس الحارقة. أمسح بعناية العرق المتصبب من جبهتى وذقنى. الألم فى الجهة اليمنى من بطنى يزداد رغم أننى أخذت حبة دواء قبل النزول من البيت. فتح باب السجن وظهر عسكرى يحمل دفترا. هرولت النساء نحوه. إنه وقت الزيارة. أحسدهن على هذه الرفاهية. الجو يزداد حرارة. أشعة الشمس قوية. الساعة تعدت العاشرة. داتى نصحتنى بالانتظار. لكن كم من الوقت؟ سأبقى ربع ساعة إضافية... المرة القادمة سأجلب معى مروحة يد. أستمر فى الذهاب والإياب. وإذا بشخص يلوح بيده من الطابق الرابع. لمن؟ لى؟ وجهت سبابتى إلى صدرى. فهز الرجل رأسه بنعم. وراح يشير إلى إبهامه. زوجى؟ ورفعت يدى اليسرى وأنا أبتسم نعم، نعم غدا. ثم اختفى. لماذا لم يظهر إسما؟ ظل المستطيل وراء القضبان خاويا. أسود. أين إلهام وميستو؟ هل يمكن أن يكون إسماعيل مريضا؟ هل فهمت جيدا إشارات ذلك الرجل المجهول؟

رن جرس التليفون دقائق بعد وصولى إلى البيت.

"المكالمة لك. لم يرغب فى إعطاء اسمه...".

صوت خافت ومبحوح: "الدكتور إسماعيل بخير. يطلب منك إرسال خمسة جنيهات... الساعة السادسة هذا المساء فى مقهى القلعة... اجلسى على طرابيزة وسأكون هناك. أنا معلم القهوة ما تخافيش...". ثم أغلق السماعة.

خلصتنى الفرحة من ثقل جاذبية الأرض ومن همى الكبير. وتجدد الأمل فى أن أراه ثانية. الأمل فى أنه لن ينقل إلى الخارجة. رددت لى صديقاتى أن أزواجهن لم يبرحوا لمزيد من التحقيقات وأن المعاملة هنا أحسن. ثم إنه فى حالة المرض يمكن

تحويلهم للمستشفى. ربما أبقوهم هنا حتى المحاكمة... من الأفضل ألا أفكر فى هذا. القوة تكون فى الاستمتاع بكل لحظة متاحة. إسماعيل بخير وبعد قليل سأحصل على أخبار أخرى.

بدأت بمسح نوافذ السجن بنظرى. مرت فى الطابق الثالث من وراء القضبان وجوه مألوفة. تعرفوا على وأشاروا إلى بالانتظار. ثم ظهر وجه الحبيب! مبتسم وبحالة جيدة. نتحاور بالإشارات. الأمر صعب. لكننا نتمكن من التواصل. المعاملة أحسن من الخارجة. على أن أسلم خمسة جنيهات للقهوجى مقابل حقيبة أعطاه إياها إسماعيل.

"ماذا أقدم لك؟ شاى، قهوة، كوكاكولا باردة؟". الكوكا كولا أأمن، مسحت فتحة الزجاجة بمديلى. هل أقول للرجل إننى أنتظر المعلم؟ الساعة السادسة. أبتلع قليلا من المشروب الدافئ الذى يزيدنى إحساسا بالعطش. لعل القهوجى فى قيلولة مثل كل الزبائن. يأتون فى الغالب بعد الشغل. أشعل سيجارة.

"مساء الخير يا مدام". اقترب منى رجل طويل وبدين فى جلابية زرقاء. رمقنى مبتسما ثم قال: "شاى بالنعناع مخصوص هنا!". ثم زاد اقترابه نحوى برأسه المستدير وشعره الأسود وهمس: "عندى شنطة لك. عندما تدفعين الحساب اتركى لى الخمسة جنيهات..." ثم استقام وهو يكاد يصرخ: "طيب يا جمعة أين الشاى بالنعناع؟ أنت نائم يا غبى! الزبونة مستعجلة!".. ثم انخفضت نبرة صوته: "الدكتور بخير ويسلم عليك. ويقولك إن الزيارات مسموحة..." انتفض قلبى من السعادة. أحاول ألا أبتسم كثيرا. أفتح حقيبتى وأسحب منها ورقة خمسة جنيهات وورقة جنيه للقهوجى وبعض الفكة للمشروبات. استولى عليها بسرعة: "الله يحميك يا مدام!".

كيف فعل هذا؟ الحقيبة عند رجلى. أمسكت بها ونزلت السلالم بحذر بينما بدأ الزبائن فى التوافد وهم يسلمون على بعضهم بصخب. بالكاد لاحظوا وجودى. ألقيت

نظرة على المبنى الرمادى الذى يقبع فيه الرجل الذى أحبه ثم ركبت تاكسى. استلقيت على الكنبة الخلفية باستمتاع. سآخذ دشا وسيأتينى صادق بليمون ساقع. على أن أفكر بترو فى موضوع الزيارة الذى لم تكلمنى عنه تانت وديدة ولا داتى. على أن أكلم هذه الأخيرة وأن أجهز الطلبات. سارعت بفتح الحقيبة فور عودتى. روائح عرق والكولونيا ارتفعت نحوى. إنها رائحة إسما وودت لو استطعت الاحتفاظ بها أطول وقت ممكن. لكن فاطمة ستعيد لى هذه الملابس بعد غسلها غدا قبل الخامسة مساء. هل يمكن أن أسمح لنفسى بهذه السعادة على هشاشتها لأن إسما هنا فى القاهرة، ولأننى أستطيع رؤيته ولو من بعيد ولو للحظة. لماذا يبقونهم هنا لو لم يكن من أجل المحاكمة. لكن المعتقلين يقولون إنهم لا يأملون فى أحكام بالبراءة. فمن الأفضل إذن ألا يكون هناك محاكمة.

على أن أبعد الخوف عنى... أن أستمتع باللحظة الراهنة... وغدا يوم آخر. Domani e un altro giorno(١٧) كما كان يحب أن يقول حمدى وهو يقلد ممثلا إيطاليا.

حصلنا على تصريح بالزيارة. سلمنى موظف بالنيابة تصريحا لثلاثة أشخاص: حماتى، وثريا وأنا. ورد بلطف على سؤالى: من المفروض أن تجرى المحاكمة قريبا. إسماعيل صبرى هو المتهم الثانى. سيمثلون أمام محكمة عسكرية. وضعت التصريح الثمين فى حقيبتى وعدت إلى البيت. المغص أعيانى وتناولت وجبة خفيفة. أخذت قسطا من الراحة قبل أن أقوم برحلتى إلى سجن القلعة! زيارة عن بعد كما سميناها، لكنها تملؤنا سعادة ونحرص على عدم تفويتها. فى انتظار المحاكمة.

---

(١٧) غدا يوم آخر.

يومان بعدها جاءت تانت وديدة ولولو لزيارتى بعد زيارة للمباحث والنيابة.

فى النيابة قالوا لنا إنهم تلقوا أمرا بمنع الزيارات! وفى المباحث كان استقبالهم سيئا، ولم يكونوا على علم بشىء!... سيلعبون بنا..." قالت تانت وديدة. تناقشنا فى الموضوع بمزيج من الحسرة والغضب والحيرة.

"سنمر عليك فى تمام الساعة الخامسة... سنحاول إخبارهم إن كانوا لا يعلمون...".

كانوا على علم. وطلبوا منا أن نحتج. رفض وكيل النيابة استقبالنا وطلب منا سكريتره أن نتقدم بشكوى مكتوبة. ما العمل؟ استقر الرأى على محمد عبد الله. وافق هذا الأخير الذى طلب منه عز الدفاع عن إسماعيل وعلى تولى قضية ميستو أيضا.

استقبلنا الرجل بلطف وتسامر معنا قليلا، ثم استمع إلى طلباتنا. لكن هذا المحامى الكبير لم يستطع أن يطمئننا بخصوص المحاكمة. ولم يخف قلقه.

وظل عز الذى لم أكن أراه كثيرا يتابع التطورات بالتليفون مع محمد عبد الله. أخبرتنى ثريا أن عز علم بإشاعات تقول إن الأحكام مقررة مسبقا.

انتابتنى قشعريرة لسماع هذا. العقوبة القاسية هى عشر سنوات سجن مع الأشغال الشاقة. قلت لنفسى: لا تفكرى فى الموضوع يا بولى، أمامك وقت لتقلقى... عريضة الاتهام لم تنته، وبالتالى لم يحدد تاريخ المحاكمة.

"لا تغضبى منهم يا لولو. تريد تانت وديدة وداتى أن تتأكدى أنهما لن تغضبا منك لو فسخت وأنهما لن تحكما على قرارك. تعلمين أن ميستو قد يحكم عليه بخمس أو سبع سنوات سجن. يلزم كثير من الحب لتحمل كل هذه الفترة من الانتظار. الحياة التى تمضى والشباب الذى يرحل. الواحدة منا تنظر فى المرآة لتسألها: كم من الوقت سيحتفظ وجهى بنضارته قبل أن تظهر أول التجاعيد؟... التجاعيد قد تحل قبل الأوان. الحرمان من السعادة محنة عصيبة... كم سيكون سنك بعد سبع سنوات؟".

حبست لولو دموعها وتهز رأسها "اسكتى يا بولى، لا تقولى مثل هذه الأشياء! أرجوك، الله يخليك...".

"كل هذه التضحيات التى تقومون بها. هل من فائدة من كل هذا العذاب الذى تتحملونه بشجاعة واعتزاز؟ إلى أين سيقودنا كل هذا؟ هل لديكم القوة الكافية؟ وهل أنتم بالعدد الكافى للوصول إلى مستقبل مختلف؟ من الأفضل أن أتوقف عن الكتابة. أنا الآن فى القاع. أعلم هذا، لكننى لا أستطيع التصدى للتيار الجارف...".

قيل إن عريضة الاتهام صدرت. أسرعنا إلى النيابة. خبر كاذب. أعصابنا مشدودة عن آخرها. أضف إلى هذا أننا علمنا أنهم يعاملونهم أسوأ معاملة. لا يخرجون من الزنزانات إلا ساعة فى اليوم! فى هذا الحر!

"لقد تم اعتقال مدام إنجى"، قال الرجل في عجالة. "إنها فى القناطر. أرسلوا لها بأقصى سرعة ثيابا...".

هل جلست على الكرسى قرب التليفون أم أننى ظللت واقفة؟ حالة ذهول. تخللتنى الكلمات القليلة التى سمعتها للتوّ ببطء دون أن تحدث فِىَّ ألمًا فَوْرِيا.

"إلى من كنت تتحدثين يا بولى؟... ما بك؟..." ماما! اقتربت منى وعيناها الكبيرتان تحدقان فى. لقد نسيتها! على أن أخبرها.

"إنجى اعتقلت... إنها فى سجن القناطر..." تلقت الصدمة دون أن يتحرك لها ساكن. وفجأة انفجر غضبها.

"ابنتى فى السجن! ما هذا الذى تفعلونه بى؟ أختك العزيزة لم تدخر جهدا لتضع نفسها فى هذه الورطة... فى السجن.. إنجى؟... لم يكن ينقصنى إلا هذا! على كل حال لا تعتمدى على لأجرى فى كل اتجاه كما تفعلين أو لأذهب لزيارتها فى السجن! مستحيل. ما عليها إلا أن تتدبر أمرها...".

"مامى أرجوك. ليس عليك أن تساعدى إنجى. أنا سأتكفل بهذا... ومثل ما قلت لن تتكفلى بأمرها...".

"أين أنت ذاهبة؟...". أتجه إلى غرفة فاطمة. على أن أحضر الثياب لأختى.

أجبت باقتضاب "أحضر حقيبة لإنجى لأسلمها للمباحث...". كنت أريد أن أقول لها أن تبتعد عنى. إحساس بالثورة يغمرنى. ضد اعتقال أختى، وموقف أمى. ضد كل ما على تحمله. لكن هذه الثورة تساعدنى على إبعاد الحزن عنى وعلى تجنب الانهيار العصبى.

ورحت أفكر وأنا أحضر حقيبة ديدى بمساعدة فاطمة. كيف علمت المباحث بمخبأ إنجى؟ من أوشى بها؟

وضع جرس الباب حدا لتساؤلاتى... سمعت صوت مينا ثم خطواتها فى الرواق. ها هى تحاول أن ترسم ابتسامة بائسة على وجهها. "هل عرفت؟ أخبروك؟...". أهز رأسى وأنا أبكى..." أنا أجهز لها بعض الأغراض لأسلمها للمباحث...".

فقالت: "لا. عليك أولا أن تذهبى إلى شبرا لإحضار كل أغراضها، وعليك أن تفتشى حجرتها جيدا للتخلص من كل الوثائق... إذ يقال إن إنجى اعتقلت فى الشارع برفقة رفيقين... من المؤكد أنها وشاية..".

تملكنى الرعب وأنا أدق باب الشقة التى عاشت فيها أختى ثلاثة شهور. استقبلنى الزوجان ببرود ورفضوا السماح لى بدخول غرفة إنجى. طلبوا استفسارات ونقودا. واضطررت إلى رفع صوتى مع إعطائهم إيجار يوليه وأغسطس. "لتعويضنا" قالت العجوز... (كنا فى شهر يونيه. وإنجى اعتقلت يوم ١٩). أفسحوا لى الطريق أخيرا. دخلت الغرفة وأغلقت الباب بالمفتاح. سحبت الحقيبة الصغيرة من تحت السرير ورحت أرصّ فيها أغراض ديدى وأنا أتحسس الثياب والبطاطين والملايات. كما فتحت علب

السكر والملح. لم أجد شيئا. أفرغت الصندوق الذى كانت تستعمله دولابًا وقلبت مرتبة السرير. أين الأوراق؟. وفجأة لمحت فوق السرير حائطية كنت قد أرسلتها لها بناء على طلبها: اقتلعتها من الحائط فسقطت رزمة صغيرة على السرير. أخذتها وخبأتها فى خصرى. وبعد أن ألقيت نظرة أخيرة على المكان خرجت وفى يدى الحقيبة والترانزيستور. لكن المرأة التى كانت تنتظرنى واقفة برفقة زوجها أشارت إلى الجهاز بإصبعها قائلة: "أريده"، وكشفت وهى تحرك شفتيها عن فم خال من الأسنان. "كَذِكْرَى!...".

وضعت الترانزيستور على الأرض دون أن أنبس بكلمة، رمقتهم بنظرة احتقار ثم خرجت. نزلت السلم ببطء بسبب ثقل الحقيبة ولحسن الحظ لم أقابل أحدا. اتجهت بسرعة إلى الشارع العمومى. حرصت رغم خوفى على تغيير التاكسى مرتين.

روت لى أختى فيما بعد بدعابتها المعهودة تفاصيل اعتقالها. كانت تتحدث فى الشارع مع اثنين من الرفقاء وفجأة حاصرهم البوليس... سألوها عن اسمها وهم يخلعون عنها الملاية السوداء. كاد يغمى عليهم عندما تعرف أحدهم على إنجى أفلاطون. وعندما دخلت مكتب مدير المباحث ومعاونيه لم تستطع التحكم فى نوبة ضحك تملكتها وهى تنظر إلى الدهشة على وجوههم. المرأة التى طالما بحثوا عنها والتى عانوا قبل العثور عليها تقف أخيرا أمامهم فى زى سيدة شعبية. الغنيمة لها أهميتها بالنسبة لهم، إذ هى المسؤولة عن خلية مكونة من خمسة أعضاء فى الحزب الشيوعى السرى. وكان همها الوحيد إخفاء الوثائق الموجودة فى صدريتها. فطلبت الذهاب إلى الحمام وهناك مزقت الورق قطعا صغيرة ورمتها فى التواليت. لكن السيفون لم يكن يشتغل جيدا، فاضطرت إلى دفع كومة الورق داخل الفتحة بيدها. ثم بعد محاولات عديدة نزل شلال من المياه من السيفون وابتلع أدلة الإدانة... ثم كان دخولها إلى سجن النساء فى

القناطر مدويا. نظر إليها مدير السجن بنوع من الارتباك "ضابط آخر ومعه سجان وسجانة راحوا يحدقون فىَّ بدهشة. وعندما أدخلونى العنبر لم تتعرف على رفيقاتى. كنت قد ارتديت ثانية ملايتى السوداء التى غطيت بها رأسى كذلك. فسلمت عليهم وقلت لم تتعرفوا على؟ فصاحوا: لكنها إنجى!".

كان اعتقال إنجى صدمة بالنسبة لكل المعتقلين الذين ربما علموا به قبل باقى الناس. واندفعت صديقات أمى لمواساتها والاطمئنان عليها وربما أيضا لإشباع فضولهن. أما صالحة فلم تغير شيئا من روتين حياتها. ولم يظهر منها ما يدل على المعاناة التى تمر بها. لكننى أستشف أن اعتقال ابنتها وضعها أمام الحقيقة التى طالما رفضت مواجهتها. مثل كل من ينتمون إلى طبقتها لم تكن تطيق كلمة الشيوعية. وطالما رفضت أن تأخذ أفكار أختى محمل الجد. أما اليوم فلم يعد هناك مفر بعد الصدمة التى زعزعتها بقوة وتأرجح رد فعلها بين الألم والإهانة. وها هى أمنا التى حاربت منذ صغرها لفرض إرادتها وقراراتها، تجد نفسها فجأة لا حيلة لها وسط بحر من الحزن والقلق. لكنها استعانت بسلاحين لمواجهتهما، إبائها اللامتناهى ورباطة جأشها.

هذا لم يمنع من تعرضى لوصلة عتاب طويلة نفس الليلة بعد عودتى. وبينما كنا نحتسى كأسا بصحبة بعض الأصدقاء راحت تقول: "لا أفهم أختك. لم ينقصكم شىء. تربيتم فى الرخاء ترتدون أحسن الثياب من أحسن بيوت الأزياء... قولى لى: ماذا ستأكل فى السجن هذه الآنسة المتعففة؟ ما هذه الشيوعية التى قادتها إلى السجن؟ إنها عار على!...".

فصرخت "إنجى عار؟". "لا يا مامى يجب أن تكونى فخورة بابنتك وبإسماعيل! شرف أن يكون المرء فى السجن هذه الأيام!..." سكتت أمى وراح أصدقاؤنا يغيرون الموضوع. وكم كانت دهشتى كبيرة عندما كنت أسمع أمى تردد مرارا خلال السنوات التالية فى تحد إن "الوجود فى السجن شرفا".

وحرصت على عدم إطلاعها بكل الخطوات التى كنت أقوم بها وكذبت عليها مثل ما فعلت فيما يتعلق بإسماعيل. تعلم طبعا أين أذهب مرات عديدة فى الصباح الباكر. وتعلم أيضا أن همى الوحيد فى الوقت الراهن هو المحاكمة.

"هل لديكم أخبار يا عزيزتى" تقول لى عندما تلاحظ علىّ القلق الذى أفشل أحيانا فى إخفائه عنها.

وعندما أخبرتها وهى تستعد للخروج ذات مساء بنبرة مبتهجة "تعلمين يا مامى سلمت هذا الصباح حقيبة إنجى للمباحث... وقبلوها..." ردت على ببرود "فعلا!... هل ستذهبين للعشاء عند عزيزة هذا المساء؟". فقلت محبطة "نعم ثم سنذهب إلى السينما بعد ذلك". وأردفت وأنا أغادر الحجرة "لكن قولى لى ألم يكن من المفروض أن تسلمى هذه الحقيبة البارحة؟...". هذه المرأة التى تحاول أن تتقمص دور اللامبالاة لم تنس أننى توجهت إلى المباحث البارحة صباحا.

"نعم يا مامى لكنهم طلبوا منى العودة اليوم. الثلاثاء هو يوم السيدات..." وأضفت كذبة صغيرة حتى أطمئنها: "وافق رجل البوليس على كل الأغراض.". ولم أحكِ لها طبعا كيف فتش الحقيبة أمام اثنين من زملائه والنساء اللاتى كن ينتظرن دورهن. رفع الثياب قطعة قطعة وراح يتحسس الخياطة قبل أن يرميها بجانبه ثم أخذ الملابس الداخلية والكيلوتات... وعندها احتججت. "أنت ترى أنه لا يوجد شىء. مجرد نايلون!. وعندما راح يتحسس الفوط الصحية ثارت ثائرتى وصرخت فى وجهه: "عيب عليك! ألا تخجل؟" وشدت يد على كتفى، صاحبها صوت امرأة تقول: "اهدئى، لا عليك، ما يرحموش وما يختشوش...". أظن أنها كانت والدة إحدى المعتقلات التى تركت رضيعها وعمره ثلاثة شهور. أما زوجها فمعتقل مع إسماعيل فى سجن القلعة. الجدة هى تتكفل بالرضيع. كم من المآسى حولك يا بولى! لا تنسى هذا... قولى لنفسك دائما إن حالك أحسن من غيرك.

أستمر فى الكتابة من حين لآخر. أقرأ كثيرا. كينو، أراجون ولورنس دورال... سينما، من حين لآخر عشاء مع أصدقاء أو كوتشينة برفقة ليليان التى أكن لها يوما بعد يوم مزيدا من الحب والاحترام. التقيت بشقيقتها الكبرى جيرمان عند والدهما المحامى الكبير ميتر أرقش.

جاءت جيرمان المتزوجة من رجل إسكندرانى، لقضاء بعض الوقت مع أختها التى لم تبرح شقتها. أما ميتر أرقش الذى أخذت منه الأختان روح الدعابة فهو رجل جذاب. توفيت والدتهما وهما فى سن صغيرة وتزوج الوالد من لبنانية أنجبت منه طفلة.

فى خلفية أيامى المتتالية هناك قطيع النساء اللاتى تنتظرن مثلى. ألتقى بهن يوميا فى مختلف المكاتب التى نقصدها لتسليم طلباتنا. نتحدث ونتبادل الأخبار والشائعات. كثير منهن لا يفهم سبب اعتقال الزوج أو الابن: "طيب، فى حاله، ومجتهد". أغلبهن يرضى بالأمر الواقع بمعونة الله. كلهن يحرمن نفسهن من أشياء كثيرة ليبعثن الأدوية والملابس. بعضهن فى سن متقدمة وفى حالة مادية مزرية. يكظمن غيظهن أمام معاملة الشرطة الغليظة. أكن لهؤلاء النساء تقديرا عميقا وأشفق عليهن فى الوقت نفسه. نلاقى تانت وديدة وداتى وأنا استقبالا حافلا من طرفهن ممزوجا ببصيص أمل. وكأن انتماءنا لطبقة ميسورة يعطينا الحق فى الحصول على شىء أكثر منهن.

وتعود إلى ذهنى مقولة لماركس: "للبرجوازية الصغيرة رجل فى الأرسطوقراطية وأخرى فى البروليتارية".

وصلتنا أول رسالة من إنجى يوم ١٠ يوليه، كتبتها بالعربية لكنها استعملت عبارات بسيطة أستطيع فهمها: "ماما وبولى العزيزتين، أعتذر عن سوء الحظ الذى يضطرنى لمراسلتكما من هنا. أرجو أن تكونا بخير. لقد علمتم بالطبع كيف اعتقلت فى الشارع. اصطحبونى لوزارة الداخلية لاستجوابى، دون جدوى. ولم يمسكوا شيئا ضدى. وبعد يومين نقلونى إلى سجن القناطر، حيث وضعت فى عنبر السجينات

السياسيات. لا تقلقا على صحتى ومعنوياتى فأنا بخير. كنت سعيدة بتلقى......". ومررت بسرعة على التفاصيل والتعليمات لأتمكن من الرد عليها بسرعة. "أرسلى لى من فضلك عدة الرسم...." ثم تلت قائمة من الأشياء التى تحتاجها هناك. وطلبت منى أن أعلق لوحاتها و"القماش الهندى"!... وأنهت رسالتها بكتابة العنوان.

كيف سمح الرقيب بمرور الورقة الصغيرة التى أرفقتها أختى بالرسالة؟ رسمت عليها ثلاث قوائم حديدية علقت عليها ثلاثة أسرة. وكان هناك سهم يشير إلى السرير الثالث "هذا هو السرير الذى أنام فيه". طبعا لم أقرأ هذه الرسالة لأمى واحتفظت بالرسم كأنه شىء ثمين. كلفت فاطمة بشراء القبقاب فى السيدة زينب وإخفائه فى دولابها. وقبل أن أكتب لإنجى طلبت من ليليان أن تترجم لى الرسالة حتى أتأكد أننى فهمت كل شىء.

وسألتنى ليليان وهى تضع الرسالة بجانبها: "ماذا قلت لأمك؟".

"ماما سهلت على المهمة ولم تطلب منى أن أقرأها لها. وقلت لها إن إنجى تقضى وقتها فى الفناء مع باقى المعتقلات وإنها ستبدأ فى الرسم...".

"قبقاب" قالت ليليان "لا بد أن المراحيض فى حالة مزرية حتى تطلبها أختك... كيف يكون الأمر عند الرجال إذن!".

فى المساء نفسه كتبت لأختى. طمأنتها بشأن قطعة القماش الهندية: "إنها فى غاية الجمال. وضعته بعناية شديدة على مخدات الكنبة الحمراء...".

صادق يدق على بابى. إنها السابعة:

"شخص غريب يطلبك يا مدام بولى...". الشابة الجميلة السمراء ذات العيون الواسعة ترتدى زيا كاكيا. إنها سجانة! قالت لى مساء الخير باستحياء وأخرجت من صدريتها ورقة صغيرة. إنه نفس الورق الناعم كتبت عليه على عجلة بضع كلمات بالفرنسية: "سلمى للشابة اثنى عشر جنيها وفرشتين للرسم وأقلام فحم... نحن

عشرون فى الزنزانة وسط البق والبراغيث والصراصير. حاولى أن تقنعيها بقبول المبيدات. نحن نضغط على المدير ليتم نقلنا من هنا. قربنا من العنبر الذى يأوى القوادات والعاهرات شىء لا يطاق. مشادات ليلية تصحبها شتى أنواع الشتائم القذرة. إنه قاع المجتمع...".

"من هذه المرأة؟" سألت ماما وهى تدخل البيت.

"سلمتنى رسالة من إنجى. إنها بخير وتقبلك..." طلبت بعض النقود وفرش رسم... نعم يا مامى أعطيتها كل شىء...". هزت رأسها، تنهدت ونهضت.

"سأصعد لأغير ملابسى. هل نذهب إلى قصر النيل؟... يقال إنه فيلم جيد"(١٨).

وتتواصل رحلة البحث عن الأخبار. اعترف ميتر عبد الله أنه لا يمسك بمعلومات ملموسة. ولا يمكنه طلب مقابلة موكليه قبل الحصول على عريضة الاتهام. حرر طلب توكيل من أختى إلى.

"من المفروض وطبقا للقانون" راح ميتر عبد الله يشرح "سيتم استدعاء ممثلٍ عن الشهر العقارى معكم إلى سجن القناطر. يجب أن توقع أختك على التوكيل بحضورك...". لكن بالنسبة للرجال تم تحرير التوكيلات من خلال المباحث والشهر العقارى. ربما سيكون الأمر مختلفا بالنسبة لإنجى. وسأتمكن حينها من رؤيتها.

لا أصدق أن مصائرنا بين أيدى هؤلاء الناس مع أن من المفروض ألا أندهش بعد ما رأيت وعايشت قوة المباحث المطلقة. لكن رغم كل شىء أستغرب لكل هذا الكم من الاحتياطات التى يفرضها هؤلاء الضباط على المعتقلين الشيوعيين. نساء ورجالا. من

---

(١٨) قليلون هم الناس الذ[illegible] سموز الفيلم الذى سيشاهدونه أو المخرج. يقولون دائما "فيلم ميترو، أو سينما الأوبرا، إلخ .

الغريب أن يخاف منهم عبد الناصر كل هذا الخوف، عن أى اشتراكية إذن يتحدث هذا الدكتاتور الذى ألعنه فى سرى؟

اشتراكية، شعب، ثورة، كلمات يلجأ إليها كثيرا فى خطاباته التى يحملها صوته ذو النبرات الحديدية. صوت غير مريح. لماذا يخشى اليسار؟ مع أنه تيار منقسم، ضعيف مكون فى أغلبيته من مثقفين وبرجوازيين صغار، قليلون هم العمال والفلاحون. على الأقل هذا ما يبدو لى.

وهذا التقارب مع الاتحاد السوفييتى؟ السوفييت الذين سيتولون بناء السد العالى... وتشيكسلوفاكيا؟.

تسلم المتهمون عريضة الاتهام! أخيرا فهمت العائلات أبعاد الموضوع. وتم الاتصال بالمحامين لطلب إذن للزيارة. حولنا ضباط المباحث للنيابة. وأبلغنا الموظفون أنهم لا يعلمون شيئا.

١٨ يوليه... لم تشبع الزيارة اشتياقنا. نصف ساعة فى قاعة ضيقة مكتظة. "إسما" وأربعة معتقلين آخرون كانوا فى استقبال ذويهم. المكان كان ضيقا لدرجة أن الجميع كان متلاصقا. كنا نتكلم بسرعة ونقترب من بعضنا حتى نتمكن من سماع بعضنا. الكلام كثير والوقت قليل. ظل كل ما لم يُقل معلقا.

٢٠ يوليه... "نوع آخر من الانتظار. الخيال يصقل ثم يبنى ويهدم ما ينقضى من الزمن. نحاول أن نعرف ما يجرى. أن نخمن... هذا يستوعب كل تفكيرى...".

بلغنا أن تصاريح الزيارة سحبت! كما منعت طرود الأكل والكتب. لا! لا! لا!... موانع مستمرة... يقال إن المحاكمة ستقام فى الإسكندرية. ما هذا الجنون؟ من المؤكد أن الشائعة غير صحيحة.

تحاول عائلات الأربعة وستين معتقلا معرفة مكان المحاكمة. أحالنا ضباط المباحث مرة أخرى إلى النيابة. نحن مجرد كرة مضرب يتبادلونها على نغمة جملة لم يعد لها

معنى عندنا: "فوتوا علينا بكرة". تانت وديدة وداتى ولولو وأنا لم نعد نفترق. نذهب معًا لزيارة الميتر عبد الله الذى لا يبدو مطمئنا لكل هذه السرية التى تحيط بالمحاكمة.

"أظن أن الكثير من العائلات لن تمكنها ظروفها من حضور المحاكمة. هل تتصورون تكلفة السفر والإقامة؟...".

"سمعت البارحة حديث بعض النساء. قالت إحداهن إنها ستسكن عند عمها وأخرى عند ابن خالها... لكن العديد منهن لن يتمكن من الذهاب...".

"يقال إنه سيسمح للصحافة بالتغطية...".

"سنكون سعداء باستقبالك. سأضعك فى غرفة ابنى. لا تقلقى بشأنه سيتقاسم غرفة أخته....".

"ستأتين عندنا" قال جلال البارحة. "تضطرنى شؤونكم للسفر كثيرا إلى المنشية. وزوزو تشكو دائما من أننى أتركها وحدها. ستمكثين معها...".

تأثرت كثيرا بهذا العرض وشكرته مؤكدة أن الأمور لا تزال غير واضحة بالنسبة للمحاكمة.

اليوم هو يوم عيد بالنسبة لى. وصلتنى رسالتان. واحدة بالعربية من ديدى والثانية بالفرنسية من إسما.

ليست بضع كلمات كتبت على عجالة بل رسالة حب. أجمل رسالة حب كتبها لى على الإطلاق.

نعم يا حبيبى سأحاول أن أكون على مستوى الصورة التى رسمتها لى. لم أكن يائسة بل مجهدة. كم أود طمأنتك على حالى وعلى والدتك المسكينة التى انتظرت كل ذلك الوقت تحت الشمس... طلبت منى أن نحتج على موضوع الأكل.

أخبرتنى أختى كذلك أن المسجونات يعانين من الجوع... الحمد لله أنها حصلت على كل شىء إلا عدة الرسم. سأذهب عند هؤلاء الأوغاد غدا أسأل عن الموضوع. وسأذكرهم أن الرسم مصرح به فى السجن وأن أختى حاصلة على الجائزة الأولى... ذكرتنى ديدى بالتوكيل متمنية بذلك أن ترانى، وأنا كذلك.

٥ أغسطس... قابلت أختى فى صباح هذا اليوم. يا لها من لحظات. أغلق دفتر يومياتى، وأتذكر. أصرت ماما على أن أصطحب فاطمة معى حتى لا أقوم بكل المشوار وحدى. مشوار قطعته مرارا مع أختى... لزيارة إسما وحمدى. الآن حمدى توفى وإنجى فى السجن!

منعوا فاطمة من الدخول، ورافقنى مجند إلى الفناء. كانوا قد جهزوا طاولة وكراسى بجوار حائط. مدير السجن ومعه شرطى كانا جالسين.

"مدام جلبيرى؟" سأل المدير. "تفضلى". ثم مستظرفا "جلبيرى اسم تركى أليس كذلك؟". قلت نعم. تساءلت: كيف ستسير الأمور؟. ثم قال الشرطى: "إنهم أتراك، إقطاعيون" وانكمشت شفتاه. "تصور حضرتك شيوعية إقطاعية. طبيعى أن تكتب توكيلا لأختها... ناس أغنياء... شيوعية!...". أشعلت سيجارة. وصل مندوب الشهر العقارى ويتبعه رجل بيده دفتر كبير وأوراق. كنت أراقبهم بينما المدير يستقبلهم ويعرض عليهم الشاى. المندوب طويل وبدين يحمل شاربا غريبا أما كاتبه فقصير ونحيف. ذكرنى الاثنان بلورال وهاردى!

هاردى مسح العرق عن جبينه بعصبية: "طيب... لنسرع... أين هى؟...". صفق المدير وانحنى فى اتجاه مجند وهو يقترب. تسارعت ضربات قلبى وأنا أفكر فى الأمر الذى أعطاه. ثم توجه المدير نحوى قائلا وهو يحرف مرة أخرى اسمى: "مدام جيلبرى، نحن نقدم لك خدمة. ستأتى أختك لتوقع، وأرجوك ألا تكلميها. هل هذا مفهوم؟...".

وراح المندوب ينقر الطاولة بقلمه. الصوت مزعج ويزيد من توترى. ها هى السجانة التى سلمتنى الرسالة تمسك أختى من ذراعها. فراحت هذه الأخيرة التى تسمرت مكانها تصرخ "إنها أنت يا بولى!...". كانت سترتمى نحوى عندما صاح الشرطى: "أمسكوا بها... ولا كلمة. تعالى اقرئى التوكيل، وقعى، وانصرفى...". أحاول التحكم فى غضبى وأنا أحدق فيها. إنها جميلة. وجهها دون مساحيق وشعرها طويل وغير منسق. ترتدى فستانا مجعدا.

ضحكت وقالت بدهشة. "تريد أختى أن أوقع لها توكيلا؟ طيب. هل لى أن أتشرف بمعرفتك يا أستاذ المندوب؟.." ها هى تمثل الآن. تأخذ وقتها. ثم طلبت بنبرة بريئة: "ممكن كرسى؟"... وغمزت لى. قدم لها المندوب الأوراق: "هيا وقعى... لننتهى من هذا. أعطها كرسيا... وقعى هنا...".

"لحظة يا أستاذ. ما هذا الموضوع؟ توكيل عام؟".

"نعم طبعا توكيل عام... مكتوب بالبنط العريض...".

"نعم صحيح!...".

"طيب! وقعى...الأوراق سليمة، اطمئنى...".

سحبت سيجارتين من علبتى وقدمت واحدة لأختى.

"ليس لدى كبريت!... شكرا..." غمزة أخرى منها وهى تسحب نفسا. أخذت التوكيل وراحت تقرأه ببطء بينما هاردى عاد لينقر الطاولة بقلمه مغلوبا على أمره. توقف عندما طلبت منه إنجى استفسارا عن كلمة استعصت عليها. الموقف كوميدى وكدت أضحك. كنت فى غاية السعادة. ذكرنى المشهد بأيام الثانوية. ابتلع الشرطى زجاجة كوكا كولا ثانية وراح يتجول ذهابا وإيابا. نهض المدير ومشى بجانبه. لكنهما لم يبتعدا وظلا يراقباننا وهما يتحدثان بصوت منخفض. أما لورال فوقف وراء المندوب فى

دهشة من أمره وهو ينظر إلينا. ابتلعت ضحكتي. كم وددت لو استطعت التحدث مع ديدى عن سحنة هذا الأبله. فرغت من القراءة وابتسمت. أمسكت بالقلم ووقعت فى الأماكن التى أشار إليها المندوب الذى قال بكثير من الارتياح: "الحمد لله!".

حينها اقتربت السجانة من أختى. "خذى المسجونة" أمرها المدير. عندها قمت وأمسكت بالتوكيل الذى سلمنى إياه المندوب قائلة: "دقيقة يا أساتذة".

"ماذا هنالك، كفاية!". رمانى هاردى بنظرة سوداء.

"قرأتِ هذا قبل أختك...".

"هل فهمت كل ما هو مكتوب يا إنجى؟...".

ضحكت بهدوء: "نعم...".

"منعتكم من الكلام مع بعضكما!". ضرب الشرطى بقبضته على الطاولة.

"يا سيادة الضابط" واستدعيت كل ما فِيَّ من تعالٍ "أنا وأختى إقطاعيتان. وهذا صحيح. عندنا فدادين وبيوت... ولنا كذلك مشاكل لا يمكننى حلها دون هذا التوكيل...".

"مدام جيلرى..." راح يترجانى المندوب. "ما اسمك بالضبط؟..." فقلت وأنا أعرض أجمل ابتساماتى "جولبارى". كم تسلينا أنا وأختى.

"مدام جولبارى، أقسم لك بشرفى أن هذا التوكيل سليم... ويعطيك كل الحقوق. أرجوك وقعى...". انصعت فى الوقت الذى سمعت فيه أختى تقول "مع السلامة"، التفت نحوها ونهضت لأرمى نفسى فى أحضانها رغم اعتراضات المدير والشرطى.

وهمست لها "ماما بخير. وتقبلك..." وراحت السجانة تسحب إنجى من ذراعها: "كفاية!". تراجعت أختى واقتربت منها خطوتين لأقول لها بالعربية: "أنا ذاهبة

للإسكندرية. عند زوزو فى إجازة...". ثم بسرعة وبالفرنسية "نصفى الثانى والأصدقاء يسلمون عليك... سأحضر المسرحية...".

ضحكت ماما من الارتياح وهى تستمع إلى سردى.

"... أى فستان كانت ترتدى أختك؟... لماذا هذه التمثيلية العبثية؟ هل أختك خطيرة إلى هذه الدرجة؟...". وشعرت بنوع من الفخر فى صوتها.

سَيَمْثُل المتهمون الأربعة وستون أمام محكمة عسكرية يوم ١٥ أغسطس في الإسكندرية. أخبرنا المعاون الشاب ورأسه منكبة على ملف مفتوح، كأنه خائف من مواجهتنا. غلب عليه الخجل والإحراج وهو يعلمنا أن الأهالي سيتلقون تصاريح تمكنهم من حضور الجلسات.

"لماذا الإسكندرية؟" صرخ صوت نسائي. "أريد أن أفهم..." وأضافت بتحدٍ "لماذا يتعب حضرات اللواءات أنفسهم ويذهبون إلى هناك؟".

"على كل حال" قالت أخرى: "الأحكام جاهزة... نحن نعرف ذلك...".

"حضراتهم يرغبون في إجازة على البحر! لكن نحن؟ والمصاريف، وثمن التذاكر؟"

"كل هذا جميل، لكن ليس لنا سكن في الإسكندرية... والأولاد؟... الصبر طيب!".

"هذا تعذيب... لماذا يا ربي لماذا؟".

"اهدؤوا، اهدؤوا" راح يقول المعاون وسط هذا الكم من الاحتجاجات التي تعالت حوله. ومن عجزه أمام الموقف لم يجد سوى بعض الجمل السطحية والخاوية ليقولها لهذا الجمع "الله معكم! كل شيء سيكون على ما يرام... ستتمكنون من رؤيتهم...".

"وأكل عيشي. قل لي كيف سأستطيع الذهاب إلى هناك؟ لماذا يعامل ابني مثل المجرم؟...". دموع ثقيلة سالت على خدود الرجل المتحدث. أشعلت سيجارة ومشيت طولا وعرضا في هذه الصالة المكتظة. أنتظر داتي التي ذهبت لمقابلة النائب العام.

أرغب فى الصراخ، فى إطلاق العنان لغضبى فيعلو فوق الجميع. لما كل هذا إن كانت الأحكام جاهزة؟

"هل تظن يا حضرة المعاون أننا سنتمكن من رؤية أولادنا؟ ونحضر الجلسات؟...". صوت المرأة ذات الزى المتواضع يرتعش. "تظن أنه على أن أتدبر أمرى للذهاب للإسكندرية؟". الكل سكت ونظر إلىّ المعاون الذى مسح جبينه وتنهد "التعليمات جاءت من رؤسائى. فى هذه المحاكمة لا شىء أكيد... ارجعو بعد أيام...".

غادرنا المكان ببطء مثقلين بالهموم. أكّدت لنا داتى المكان والزمان. طلب منها سكرتير النائب أن ترجع إليه بعد غد لتتسلم التصريح. دعوة! سيدون عليها اسمنا ولقبنا. تذكرة مجانية لحضور عرض مسرحى.

(٤)

محاكمة الإسكندرية

-١-

الرابعة وأربعون دقيقة... من المفروض أن أصل إلى سيدى جابر فى حوالى الساعة السابعة... لا شىء ذو أهمية فى جرائد هذا الصباح. أحاول أن أنام دون جدوى، مع أننى مرتاحة على هذا الكرسى. ذلك الخوف المعتاد ينخز صدرى. هل ستمكننى هذه الورقة التى أمسك بها من حضور الجلسات؟..." العميد هلال، رئيس المحكمة العليا لأمن الدولة يوافق على حضور مدام جولبارى... جلسات محكمة الإسكندرية."... هل تم نقلهم إلى هناك؟ وكيف؟ بالقطار أم فى الشاحنات؟ فى أية ظروف؟... أعيد قراءة الرسالة القصيرة التى وصلتنى البارحة. "ذِكْرَى إجازة السنة الماضية راسخة فى ذاكرتى... لكن لنفكر فى المستقبل... فى التفاؤل...". إنها الرسالة الثالثة التى بعثها "إسما" منذ الزيارة. يحاول أن يعبر عن حبه وثقته فى. ربما، وهو داخل سجنه، رسم لى صورة مثالية. أما أنا فأنهل من رسائل الحب هذه.

سيدى جابر! أخيرا! أتعرف فورا على قوام جلال المشوق. وإلى جانبه أختنا الصغيرة زوزو وأقصرنا قامة. إقامتى الطويلة عندها ستجعلنى أكتشف شخصيتها وقلبها الطيب وروح دعابتها التى لا تفارقها أبدا.

وضعتنى زوزو فى غرفة ابنها وعملت جاهدة لتجعلها مريحة. "ماذا يحدث؟". أصوات عالية وبكاء مصدرها الغرفة المجاورة. زوزو إلى جانب أطفالها.

"كفاية دلع! ماذا ستقول تانت بولى؟". ثم عادت أختى وفى يدها الصغير حسن الذى أخذ فى الصراخ. فحاولت تقليده. اندهش من حركاتى وتوقف وهو يحدق إلى بعينيه السوداوين. وددت لو طبعت قبلة على وجنتيه المنتفختين؛ فيما بعد. ولد جميل يذكرنى بوالدى. نفس الشعر الأسود الكثيف ونفس النظرة الماكرة. سنه نحو ثلاث سنوات، أما أخته فسنة وبضعة شهور. بنت شقراء جميلة وردية وممتلئة.

-٢-

ساحة المنشية، الخامس عشر من أغسطس، الساعة الثامنة صباحا. كردون طويل من العساكر يحرس مداخل مبنى محكمة الإسكندرية. عدة ضباط يتفقدون تصاريحنا أسفل السلم العريض المؤدى للساحة. ثم اصطدمنا بحاجز آخر منعنا من الوصول إلى الباب الكبير. أمام عددنا الكبير راح الضباط يدفعوننا قائلين: "كيف جاؤوا كلهم!؟".

"اشتروا التذاكر فى السوق السوداء!". قال أحد الجمع فضحكنا وقل التوتر.

"سنتمكن من دخول القاعة! سنراهم!...". ابتسمنا ونحن متراصون فى انتظار اللحظة الحاسمة. أمهات وآباء وأخوات جاؤوا من القرى والمدن المترامية فى أطراف الوطن للوجود مع الأقارب المتهمين "بجرائم ضد أمن الدولة". جمهور متفرج على المهزلة الدرامية التى تبدأ.

القاعة واسعة وأقل جفاء من نظيرتها فى القاهرة. يرتفع وراء الكراسى المذهبة المخصصة للقضاة بروازان: آية قرآنية: "وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ"، وصورة لعبد الناصر مبتسما.

فى المقابل صفان من المدرجات وفى اليسار القفص الذى سيوضع فيه المتهمون. جلسنا.

"لا تنسوا أن أزواجنا هم الأوائل على القائمة...".

"هل تظنين أنهم سيدخلون فى الأول؟".

"على كل حال زوجك سيراك فورا". وراحت داتى تنظر إلى صديقتنا البدينة التى ترتدى فستانا برتقاليا طبعت على قماشه أزهار كبيرة.

"صباح الخير!". صوت مرح ومنهك.

"عايدة! أين كنت؟ تعالى من هنا...". زوجها أستاذ رياضيات فى الجامعة.

"أف! جئت لتوى من المحطة، كنت سأتأخر عن القطار هذا الصباح...".

انتشر أقارب المعتقلين فى المدرجات. يسلمون على بعضهم ويشجع بعضهم بعضًا. يتضرعون لله وهم يبتسمون. يتقدم رجل مسن ببطء. شابة تمسك بكُمّ بدلته المتهالكة وتهمس "من فضلكم والدى بصره ضعيف، لو سمحتم...". فنهضت سيدتان وتركتا مكانهما قرب القفص. أثرت فىَّ هذه اللمسة العفوية. كم هو كبير حيز الكرم لدى هؤلاء الناس البسطاء. كثير منهم لم ير الابن أو الزوج منذ أول يناير. أحد الحاضرين راح يقرأ بصوت عال الآية القرآنية التى تلمع حروفها أمامنا. كلمة العدل بمحاذاة صورة عبد الناصر. الصورة نفسها على جدران المكاتب والمحلات، فى كل مكان... هذه الابتسامة تسخر منا! إلى من تبتسم يا عبد الناصر؟ إلى ماذا؟

"ها هم!". قمنا متوترين. أما هم فسلموا علينا مبتسمين فى استرخاء. يشرئبون حتى يراهم الوجه المألوف وسط الحشد. إنهم يبحثون عنه. جلبة لا توصف عمت القاعة. تشابكت النداءات والأسئلة والأجوبة. الكل يحاول أن يلتقط الكلمات المتناثرة التى تخصه. بعض النسوة يبكين. أما أنا فوقفت فى الممر؛ حيث يستطيع إسماعيل أن يرانى. كم هو جميل فى هذه السترة الزرقاء رغم نحافته وشحوبه. ماذا يقول؟ ها هو يبتسم. ماذا؟ أنا جميلة؟... أخبار عن أختى؟ نعم! تراسلنى، إنها شجاعة..." قدموا طلبات من أجل الأكل، نعانى من الجوع!".

"محكمة!". صفعنا فجأة صوت المحضر الذى لم نلحظ قدومه. أعصاب الكل تصلبت وعم السكون.

الأدعية وحدها ظلت تتخلل الصمت وترتعش مثل الأوراق فى كنفه. وسرعان ما توقفت هى الأخرى بظهور المحامين الذين اتجهوا مسرعين نحو أماكنهم أسفل المدرجات.

"محكمة" صاح المحضر مرة أخرى وهو يشدد على الحرفين "مة". ثم دخل من الباب فى مؤخرة القاعة ثلاثة عسكريين بالبدل ومدنى فى الرداء الأسود فوقه وشاح أحمر. إنه معرفة قديمة! المدعى العام! وخمنا أن الرجل ذا الشعر الأبيض والبشرة الفاتحة المدجج بالأوسمة ما هو إلا اللواء أحمد هلال رئيس المحكمة.

هكذا بدأت إذن الجلسة الأولى. "هل من بينكم من له أى اعتراض على المحكمة؟". فأجاب المتهمون الواحد بعد الآخر: "ليس لى أي اعتراض على الأشخاص الذين سيحاكموننى، لكنى أعترض على محاكمتى من طرف محكمة عسكرية...". إجابة مهمة ترجمتها إلى داتى فورا بصوت منخفض. وبما أننى لا أريد أن أشتت فكر صديقاتى قررت أن أركز دون أن أسأل. سيشرحن لى كل شيء فيما بعد.

استمر الموضوع إلى الساعة الرابعة. وتقرر تأجيل الجلسات ليوم الاثنين. كتبنا عدة عرائض للحصول على تصريح لرؤيتهم ولإرسال الطعام. يجب أن تقدم لرئيس المحكمة. وفى انتظار فرصة مقابلة هذا الشخص المهم استطعنا أن نتدبر وسيلة لإرسال بعض السندوتشات. لكن كل شيء توقف عندما اكتشف أحد الحراس وهو يفتش بضمير، رسالة داخل ساندوتش.

صممت ماما التى جاءت لليلتين فى الإسكندرية على زيارة صهرها. وبينما كنا أنا وإسماعيل نتبادل الإشارات لمحتها وهى تمسح بطرف منديلها عينيها المختفية وراء نظارتها السوداء. تأثرت بهذه المشاهد وبخاصة أن ابنتها فى السجن. ما لهذه المرأة الأرسطقراطية وكل هذا؟

اصطحبت كذلك حماتى إلى المحكمة. كان المتهمون قد دخلوا وراح الأقارب يسلمون علينا لدى مرورنا ويفسحون لنا الطريق. "إنها والدة الدكتور إسماعيل!...".

أما أنا فكنت أقودها من يدها، بالسواد الذى تتوشح به والذى رفضت التخلى عنه وبتلك الطرحة من الشيفون الأسود كانت تيزة تبعث على الاحترام والتعاطف. لم تتمكن من حبس دموعها، كلمها إسماعيل وهو فى غاية التأثر برقة وقد وجد الكلمات التى تطمئنها لدرجة أنه تمكن من جعلها تضحك. "شايفة يا ماما ابنك الحبيب زى الفل...". هزنى هذا المشهد. هذه المرأة المجهدة مبكرا من محن الدنيا تقف هنا لترى ابنها وراء القضبان. لكننا اكتفينا بنعمة رؤية وجوههم تقريبا يوميا من وراء القضبان. وكثيرا ما نجرى عند انتهاء الجلسة صوب الجهة الخلفية للمبنى ونقف فى الشارع أمام صفوف العساكر والشاحنات لنسلم عليهم مرة أخرى وهم يمرون مقيدى الأيدى لكن مبتسمين فى عجلة يحثهم عليها الحراس. تظهر حينها وجوه من وراء أسلاك نوافذ السيارات الضيقة من أجل وداع أخير، رسالة أخرى ابتسامة قبل الرحيل. لا شيء يثنى عزيمتنا، لا الوقوف فى طوابير طويلة ولا القلق ولا التعب. كل ما يهم هو أن نراهم أطول وقت ممكن، ثانية، ثلاث ساعات. كجوع لا يهدأ وعطش لا يروى. سباق ضد عقارب الساعة تحسبا لما سيأتى. يشرف شهر أغسطس على نهايته. لا أحد يدرى كم ستدوم المحاكمة. من المفروض أن يباشر المتهمون مرافعاتهم بعد يومين ثم ستليها مرافعات محاميهم. ستنتهى إجازات الأقارب الذين يعملون فى القاهرة وفى مدن أخرى وسيضطرون لمغادرة الإسكندرية دون الحصول على إذن زيارة.

تبذل أختى قصارى جهدها بدأب غير محسوس، لتسلينى وتوفر لى أكبر قدر من الراحة. فها هى تقترح على الذهاب إلى البحر أو إلى السينما أو لعب الكوتشينة. وهذه كانت سبلى الوحيدة لمعالجة المخاوف التى تؤرقنى. كل يوم يمر أكتشف فيه قلبها الكبير وتتعمق محبتى لها، كثيرا ما نتبادل أسرارنا ونحن نحتسى فنجان قهوة. ثم تنتابنا وصلات ضحك تقربنا أكثر من بعضنا، مثل قضية الصدرية! لصغر حجم صدرى لم أكن أرتدى صدرية، وذات يوم كان يجب أن أخفى خمسة جنيهات. فأعطتنى زوزو إحدى صدرياتها بعد أن صغرتها حتى لا تسقط الورقة النقدية. قبل أن تبدأ

الجلسة تسللت وراء صديقاتي حتى لا يلمحني الحراس عندما أضع يدي في صدري. وهكذا حصل إسماعيل على النقود. ضحكنا نحن -الاثنتين- من الوقوف. كم جميل أن نتمكن من الضحك في هذه الظروف. الحمد لله أننا لم نفقد هذه القدرة.

-٣-

قاعة الجلسات، فى هذا الصباح من الثلاثين من أغسطس، مكتظة عن آخرها. تقريبا كل المحامين حضروا. من المفروض أن تعطى الكلمة للمتهمين. هل ستحترم المحكمة هذا الحق؟

قطع النداء باسم ولقب المتهم الأول المدعو للكلام الصمت السائد. نظراتنا وأسماعنا اتجهت صوبه.

ها هو الدكتور فؤاد مرسى أستاذ الاقتصاد السياسى فى جامعة الإسكندرية يقترب، ويمسك بيديه القضبان ثم يبدأ فى الكلام بصوت واضح وقوى. لا يدافع عن نفسه بل يتهم. ودون أن يذكر اسم رئيس الجمهورية ها هو المتهم يتحول إلى مدعٍ. خطابه شديد اللهجة. السياسة المتبعة من طرف حكومة الجمهورية العربية المتحدة تعد مساسا بالوحدة الوطنية...

وسرعان ما تحولت الدهشة التى انتابت المنصة إلى استياء. وراح القضاة يتشاورون ويتهامسون. وقرع الرئيس بمطرقته على الطاولة:

"توقف! لم نطلب منك أن تتكلم فى السياسة، بل أن تدافع عن نفسك!".

"أعطنى بضع دقائق يا سيدى الرئيس". وواصل المتهم "هذه السياسة تمس بالوحدة العربية فى مواجهة الإمبريالية، كما تمس بالأخوة بين العرب وبمن ساندوهم دائما...".

زاد استياء القضاة. أما رئيس المحكمة فصاح غاضبا: "كفى! أسحب منك الحق فى الكلام! لننتقل إلى المتهم الثانى..".

لكن التنديد غطى على صوت اللواء هلال، وصاح المتهمون مع بعض: "اتركه يتكلم! هذا حقه! هذا ليس عدلا!" كما احتج عدد من الأقارب كذلك. ولإخماد هذه الثورة غادر القضاة القاعة. وبعد ربع ساعة استمرت الجلسة من جديد.

أشار إلينا إسماعيل وآخرون من زملائه بالانتظار وهم يحيطون بفؤاد. أما على المدرجات فالكل يتكلم بحماس. هل كان على المتهم الأول أن يقوم بمثل هذه المداخلة؟ ما فائدتها سوى إلحاق الأذى بالآخرين؟ قد تسحب منهم المحكمة الحق فى الدفاع عن أنفسهم، لقد أغضب القضاة... لماذا تحدث باسم الآخرين؟ هل استأذنهم؟ انتهى الأمر ستتم إدانتهم. نزلنا داتى وأنا لتقبيل زوجة فؤاد التى تبكى. "يجب أن تكونى فخورة بزوجك. لقد تحلى بشجاعة رائعة، وتكلم باسمهم، هذا مهم للغاية. خسارة أنهم أوقفوه. انظرى فؤاد يناديك...".

بعض النسوة نعتن فؤاد بالمجنون، بعديم المسئولية.

"فؤاد لم يشتم أحدا، لقد انتقد...". "هل كنتن تعلمن أن فؤاد تولى مسئولية عرض رأى الحزب؟ الرفاق اتفقوا...".

"بينى وبينك" قالت إحداهن: "لا أخفى عنك أننى خائفة. هل من المفيد أن يشتموا الحكومة؟".

"أنا أيضا خائفة. هم الذين أخذوا هذه المجازفة...".

جازفوا لأنهم لا يتوقعون البراءة... إنها مقامرة. ألم يقل لى إسماعيل أنه لا يتوقع الكثير وهو يطلب منى أن أشترى له بدلة صوف زرقاء... ونحن فى شهر أغسطس! اندهشت: "ستنفعنى فيما بعد، فى حالة ما إذا نقلونا إلى الواحات..." وأضاف

مبتسما: "حتى أوفر بدلى الشتوية... ألا تريدين أن يكون زوجك أنيقا؟ المتهمون يرتدون الأزرق فى الشتاء".

إذن إسماعيل يتوقع الإدانة. حاولت جاهدة أن أرسم ابتسامة وأنا أرتعش. ثم أضاف ليطمئننى: "هذا مجرد احتياط...".

فى اليوم التالى جاء دور إسماعيل، وعلا صوته وسط السكون. بدا مرتاحا هادئا وصلبا. لا أذكر أننى كنت فخورة به مثلما كنت هذا اليوم. لم أشك يوما أنه أعطى أحسن ما عنده لإتمام عمله فى صالح البلاد. القضاة يركزون أنظارهم عليه ويستمعون إليه وعلى وجوههم التعبير البارد نفسه. وعندما انتهى من مداخلته طلبوا منه الجلوس بحدة. كم وددت التصفيق وتقبيله.

ذات يوم عشنا مشهدا عصيبا. توفيت ابنة أحد المتهمين. كان عمرها سنتين. توقفنا عن الكلام عندما شاهدنا الأم الشابة وهى تمشى بثياب الحداد نحو زوجها. وجهها كان منقبضا وترددت فى الاقتراب من القفص. فأشار لها الحارس ربما متأثرا بالاقتراب. فأسرعت ورمت برأسها بين القضبان ناحية رأس زوجها. واستغرق الاثنان فى البكاء. اضطرب المتهمون والتفتوا إلى الناحية الأخرى. أما نحن فبكينا. من منا يمكنه أن يواسى هذه الأم؟ "أنت شابة وسترزقين بأولاد آخرين...". الوقت؟ بضعة أيام، شهر، سنة؟ ماذا ينتظرنا؟ الحكم، البراءة دون الإفراج... الإدانة والسجن سنتان، أربع أو عشر سنين؟ الحياة تنقضى فيما وراء الأسوار... والد أحد المتهمين توفى، والدة آخر كذلك، خطيبة فسخت الخطوبة... أحداث صغيرة وكبيرة تنسجها الأحزان والأفراح كذلك رغم كل شىء. تتوالى وتحدث وقعها الخاص على هؤلاء السجناء.

أكن لهم احتراما كبيرا. ما هذا الدمار؟ ما هذا الإهدار؟ بعض الشباب منهم تعوزهم الخبرة السياسية ويأخذون الكلمة فى حين كان يجب أن يصمتوا. يدافعون عن أنفسهم بسذاجة.

حضرنا مشهدا سخيفا. تراجع أحد المتهمين. وتابعناه خجلين من أجله وهو يهين نفسه. بماذا شعرت زوجته؟ ربما حثته على ذلك؟ ربما اعتقد أنه سيتجنب الحكم عليه ويطلق سراحه. لكن ألم يستطع الحفاظ على ماء الوجه؟ من الصعب الحكم على الموقف دون معرفة الظروف التى أدت إليه. ربما ظن نفسه قادرا على الاحتمال ثم قضت عليه وعلى معتقداته المعاملات السيئة التى لاقاها... بدا على وجه إسماعيل ورفاقه الاشمئزاز والاحتقار.

-٤-

الإجازة على وشك الانتهاء، ودخول المدارس اقترب، عدد المصطافين فى تضاؤل، والمرحلة الأخيرة من المحاكمة بدأت، الكلمة لمحامى الدفاع، دشن الميتر محمد عبد الله محامى إسماعيل وإلهام وميستو الجلسة، كل المحامين حاضرون.

احتل ميتر عبد الله المنصة لمدة ثلاثة أيام، ولم يكتفِ هذا الخطيب المتمرس بالدفاع عن موكليه لكنه شكك فى المحاكمة فى مجملها. واستمع إليه أعضاء المحكمة دون مقاطعة، وابتسم المتهمون الأربعة وستون من الارتياح وهم يتابعون كل كلمة ينطق بها. نحن أيضا. نسمة تفاؤل داعبت الوجوه، هنأه زملاؤه وهم يضحكون: "لم تترك لنا شيئا لنقوله...".

"هل تظن يا ميتر أنهم سيفرجون عنهم؟" سألت والدة ميستو فى خجل بينما كنا نشكره، حينها اختفت ابتسامة المحامى واستولت على نظرته الحدة، ثم رد فجأة: "ما أتمناه هو البراءة أو أحكاما مخففة لإسماعيل أو ابنك، لكن الإفراج فخارج عن نطاقى...".

"أظن أن تشاؤمه مبالغ فيه! ألم يطلق سراح إسماعيل يوم إعلان براءته؟ لا؟...". لولو المسكينة تبدو منفعلة. "نعم وزوجى وعادل وزوج إنجى، لكن كان هذا فى ١٩٥٦ ... أليس كذلك؟".

"نعم كان هذا فى ١٩٥٦ ...". لماذا تحدقن فىَّ هكذا؟ لا أستطيع الرد على هذا السؤال، لا أستطيع أن أقول: "هذه المحاكمة مجرد مزحة! لن يفرج عنهم!". تتشبث كل

واحدة منهن بقطعة أمل. هن بحاجة إلى ذلك. وأجبت: "لا أظن شيئا! الآن أشعر بالجوع!" ضحكت: "لنتشبث بالأمل!".

"أليسوا اشتراكيين؟" قال زوج أختى وهو يقضم ورقة خس. حضرت لى زوزو التى لا تكف عن الاهتمام بى، الكوسة المسلوقة. لم تنس أننى لا آكل بعض الخضار. "كم محاميا سيترافع؟ خذى أنت تحبين أوراك الدجاج...".

"شكرا! ليس لى أدنى فكرة. فيما عدا المحامين الكبار، هناك محامون صغار وآخرون عينتهم المحكمة بالنسبة لمن لا إمكانيات لهم... أمامنا حوالى عشرة أيام... ثم من المفروض أن يصدر الحكم. متى؟ أين؟ هنا أو فى القاهرة؟ لا أحد يعلم...". أشعر أن المجهول الذى تحمله أجوبتى يسحقنى.

"اذهبى لتستريحى. خذى قيلولة...". أختى الصغرى محقة. على أن أستريح، أن أستلقى بمفردى فى غرفتى، أن أغمض عينىّ. أن أدفع عنى الأسئلة. على أن أكرس كل طاقتى للحصول على إذن زيارة خاصة. مللنا من التلامس بأطراف أصابعنا من خلال القضبان... "علينا أن نستعد لكل الاحتمالات" قال لى إسماعيل. "من المحتمل أن تنقل للواحات قبل الحكم، أو أن يبقونا فى القاهرة... ابذلوا جهدكم للحصول على زيارة خاصة بمناسبة المولد النبوى...".

وها هى الصدفة السارة تضعنا على طريق رئيس المحكمة! وجها لوجه. توقف ورد بلطف لسلامنا. كان يبتسم لنا بروح أبوية: "زيارة خاصة لمولد النبى؟ إن شاء الله! أعطونى طلباتكم...". غذى موقفه المتفهم واللطيف الأمل فينا.

كتبت لى ديدى فى رسالتها المؤرخة ٢٩ أغسطس: "أتمنى أن نتلقى أخبارا سارة هذه الأيام".

لا هى ولا رفيقاتها اللاتى يوجد أزواجهن بين المتهمين فى القضية تجهل أن اللعبة منتهية.

تتلاقى رسائلنا فى حيز الزمن. وتتنقل ببطء القصاقيص البائسة لحكاياتنا الصغيرة، مثلما لو كانت تحملها أجنحة يمامة مجروحة...

. انتهت الدراما الكوميدية لمحاكمة الإسكندرية يوم الثالث من أكتوبر. قوبل طلبنا لرؤية المتهمين قبل ترحيلهم عن الإسكندرية بالرفض.

(٥)

أبو زعبل

-١-

تم ترحيل المتهمين إلى القاهرة. أين؟ حاولنا طيلة شهر كامل أن نعرف مكان احتجازهم. إدارة السجون، والنيابة، والمباحث. كلهم قالوا إنهم لا يعلمون شيئا. وكل الطرود رفضت.

"إنهم فى أبو زعبل!". هرعنا نحو زوجة المتهم التى أبلغتنا بنتائج بحثها.

ذهبت إلى هناك... وأثارت أجوبة الجنود عند الباب المترددة والمبهمة شكوكها.

"هناك أمر غريب! الله يخليكِ! امشى! لم أر شيئا... أقول لك ترحيلة كاملة من المسجونين جاءت هنا... سياسيون...".

تبادلنا الآراء ونحن تحت وقع الصدمة. ما العمل الآن؟ نطلب مرة أخرى زيارة... لا يمكن أن نكتب للسلطات ونقول لهم إننا نعلم أين هم!

وإذا بتصاريح الزيارة تصلنا! تانت وديدة ولولو وداتى هن أول من توجهن إلى أبى زعبل. وفور عودتهن كلمتنى داتى. بدا لى أنها تبكى. "أحاط بنا الضباط. أما هم فكانوا يرتدون بدل المساجين. بدوا تائهين.. لم نتمكن من تسليمهم أى شىء، حتى الأدوية. ماذا فعلوا بهم؟ يا ربى الأمر مريع... قلنا نحذرك...".

ما العمل؟ مع كل هذا ذهبت إلى الكوافير. وجهزت طردا لإسماعيل. من هذا السجن الذى لم أكن أعرفه سأتذكر دائما الجدران الصفراء المائلة إلى الرمادى وإسماعيل بين ضابطين.

٢٤ نوفمبر... بمرور الساعات التى تتساقط علينا بكل ثقلها، أستعيد كل دقيقة سمح لنا بها سخاؤهم. ها أنا أراك فى هذا الرداء بلون الرمل.. عيناك جاحظتان وسط وجه نحيل تغطيه لحية عمرها أيام. وتلك الكاسكيتة التى بالكاد تغطى رأسك الحليق... صور المعتقلات النازية تفرض نفسها على ذهنى... الفرق الوحيد أن هناك زى المعتقلين كان مخططا.

أما أنت يا حبى، فلم يفارقك شموخك واعتزازك بنفسك. كنت جالسا وراء القضبان بابتسامتك التى تتحدى العالم. فهمت منك أهم الأمور مثل المرة السابقة. أنا بخير ووالدتك كذلك. كنا نتحدث بالعربية... "والصداع؟ والجيوب الأنفية؟ أما زلت تتألم؟ أين...؟. كنت فى الوقت نفسه أمرر يدى على جبهتى وأنفى وخدودى. كنا ننظر لبعضنا بقوة. الضباط الثلاث يحدقون فينا. "هنا أكثر؟" أضفت وأنا أتحسس شعرى أعلى رأسى. "مثل المرة الماضية؟". وأجبت وأنت تبتسم: "نعم مثل المرة الماضية...". لم أحرك ساكنا ووعدتك أن أقوم بالإجراءات الضرورية حتى يتم تحويلك للمستشفى... وهنا أوقفوا حديثنا بعنف. الزيارة انتهت!... مثل المرة السابقة فى السجن العسكرى! هؤلاء الأغبياء لم يفهموا شيئا.

قضيت باقى النهار عند أختك برفقة شقيقك وزوجها. تكلمنا طويلا. ولأول مرة اتفقنا على ما كان يجب أن أقوم به. اقترحت تجمعا نسائيا أمام منزل الرئيس لطلب مقابلة خاصة. يجب أن نعلمه بهذه الأمور الخطيرة التى يجهلها على حد تقديرنا والتى لن يقبلها. لكن عز وكامل أثنيانى عن ذلك.

"من الأفضل ألا يكون تجمعا كبيرا... سيظن البوليس أنها مظاهرة... من الأفضل التوجه إليه فى مجموعات صغيرة واطلبوا مقابلة سكرتير الرئيس...".

٧ نوفمبر! أختى كتبت لى: "نسيت أن أزف لك خبرا مهما: رجل صغير وجميل اسمه ياسر، ولد فى السجن. يملؤنا وجوده بيننا حنانا ويغذى فينا الأمل أننا نحن أيضا فى يوم ما سنصبح أمهات. هل تظنين يا بولى أن الوقت سيسعفنا؟".

انتقلت من حالة الضحك إلى حالة الغضب العارم. حصلت أختى على تصريح بالرسم لكن بشرط: ستباع لوحاتها مع الأغراض والأثاث الذى يصنعه السجناء المدنيون خلال السوق السنوية.

اضطرت إنجى للموافقة على هذا الشرط الفظيع... قررت أن أتحرك بأى ثمن.

-٢-

"هنا"، قال السائق. لاحظت على يمينى ضابطين من الشرطة العسكرية وجنوداً يسدون مدخل شارع مزروعة جوانبه بالأشجار. كانت تظهر من وراء أغصانها التى تساقطت من عليها الأوراق أسطح فيلات صغيرة.

"تمهل!". أخرجت رأسى من النافذة وتسلحت بأجمل ابتسامة لى لأكلم الضابط الذى أسرع نحونا.

"صباح الخير يا حضرة الضابط. أين السكرتارية؟".

"نعم السكرتارية! أول شارع يمين. لكن ممنوع دخول السيارات...".

"قلت لك: لن يسمحوا لنا بالدخول...".

اهدأ. لا تكن متشائما...أوقفنا هنا....". اثنان من الحراس كانا يقفان عند الباب الخارجى وطبعا منعانا من الدخول. وبدأت الأسئلة المعهودة: "من أنتم؟ لماذا؟ لديكم موعد؟". شدتنى تانت وديدة من طرف الجاكيت: "لا فائدة... تعالى نعود إلى البيت...".

أقنعتهم بالعودة بعد غد... علينا أن نحاول مهما كان الثمن.

وعدنا نحن الثلاثة إلى منشية البكرى. السكرتير غير موجود. مشغول للغاية...

"من المستحيل أن تقابلى هذا الرجل... لا فائدة...". يئست صديقاتى. أما أنا فلا!.

علمنا أن الزيارات ممنوعة. لماذا؟ فقط ثمانية عشر معتقلاً استطاعوا رؤية ذويهم. ماذا حصل هناك؟ أوامر وأوامر مضادة... عالم مغلق ومقلق. المعتقلون السياسيون

الأربع وستون يخضعون لنظام المسجونين المدنيين! لن أستسلم. هناك وسيلة ما. وبما أن صديقاتى انسحبن سأتحرك بمفردى. سأطلب مقابلة السكرتير! مقابلة الرئيس.

يجب أولا أن أتمكن من الدخول إلى الحديقة ثم إلى المنزل وعلى محاولة إقناع أحد الموظفين أو السكرتير الشخصى للرئيس بمقابلتى. كيف؟... على المثابرة! لأكتب رسالة إلى عبد الناصر وأسلمها له يدا بيد! لا أحد غيره سيعرف محتواها. ستقولين هذا للسكرتير إن وافق على استقبالك. ليس إن! يجب أن تتمكنى من مقابلته...

انتابتنى سعادة محفوفة بالرعشة ورميت نفسى فى خضم مشروعى. تكاتف حبى لإسماعيل وتجربتى المؤلمة مع السجون وساعدانى على تنقية الكلمات المناسبة.

وكتبت لعبد الناصر أبلغه بأمر فى غاية الخطورة. أمر يمس بسمعته وسمعة مصر. لجأت إليه لأننى متأكدة أنه لن يرضى عما يجرى. ذكرته بمن هو إسماعيل وبمحاكمته وحبسه فى أبو زعبل. أضفت أننى بدون أخبار عنه، وأننى لا أستطيع أن أرسل له شيئا. ضف إلى ذلك أن هناك شائعات تقول إنه والمعتقلين الآخرين قد تعرضوا للتعذيب، وإن أحدهم قد توفى. وإننى فى غاية القلق... إلخ.

اجتزت خطوة! سمح لى الحارس الذى أعطيته اسم أفلاطون بالدخول. وجدت نفسى فى رواق تم تحويله إلى قاعة انتظار. أربعة أشخاص كانوا جالسين على كراسٍ بطول الجدار. بعد أن استغرقوا فى النظر إلى، غرز رجلان رأسيهما فى الجرائد التى كانت تخشخش تحت وطأة أيديهم. وعاد الاثنان الآخران إلى حديثهما. لمحنى شاب بنظارة وهو يمر مسرعا حاملا ملفا. ظللت واقفة وسط القاعة.

"نعم؟ هل من أمر؟".

"صباح الخير". أحاول أن أبتسم بينما الخوف يتملكنى. "أريد أن أقابل سكرتير الرئيس... الموضوع مهم... مسألة حياة أو موت...". شعرت بنظرات الرجال الأربعة تقع على. هز الرجل الشاب رأسه ثم وضع الملف جانبا وطلب منى الجلوس.

"تفضلى... أعطنى اسمك... لا أعدك بشىء... هو مشغول جدا... كيف تكتبين اسمك؟".

"السيد السكرتير غير موجود النهار دا. كلهم يقولون إن الموضوع مهم... كلهم مستعجلون... ارجعى فى يوم آخر. غدا لو أردت. لكن لست متأكداً. من الضرورى أن يكون هناك موعد...".

غادرت الفيلا بخطوة أكثر صلابة وألقيت نظرة على بيت الرئيس. لمحته. ضباط وجنود يتجولون أمام السور المغطى بالنباتات المتسلقة.

لم ألمح سوى المدخل وجزء من الواجهة. فيلا متواضعة تشبه فى بساطتها الفيلا المخصصة للسكرتارية.

الرجل الذى أعلن الحرب على الشيوعيين يعيش إذن هنا مع عائلته!... أشعر بالبرد وأنا أتوجه نحو الشارع العمومى.

بعد ثلاث زيارات للسكرتارية أعلمنى الشاب صاحب النظارة أن السكرتير وافق على مقابلتى يوم الأربعاء الساعة الحادية عشرة!... بعد غد!.

وصلت قبل الموعد. بحثت عن كرسى فى الصالة المكتظة بالناس. نهض رجل كهل وترك لى مكانه. الساعة تقارب الحادية عشرة. لمحنى الشاب صاحب النظارة وطلب منى الانتظار.

الثانية عشرة والربع! كثير من الناس رحلوا. لماذا؟ ماذا كانوا يريدون؟ مقابلة صاحب النفوذ، سكرتير الرئيس؟ مسألة حياة أو موت مثلى؟ وددت لو استطعت الاسترخاء قليلا وطرد هذا الخوف الدفين الذى يقبض على صدرى... قال لى الرجل المتعجِّل "لم يصل بعد. اصبرى قليلا...". طبعا سأصبر. حلقى نشف من كثرة السجائر التى دخنتها. أحسد الرجل الذى يشرب بشراهة أمامى كأس الماء الذى طلبه. لا أريد أن أشرب حتى لا أذهب إلى الحمام... السكرتير يتناول غداءه أم ماذا؟ ربما لن

يأتى... ربما نسى الموعد... لا أطيق هذا الانتظار! الشاب لم يظهر ثانية. على كل حال لا أستطيع إزعاجه ثانية. اصبرى، الصبر طيب! ما معنى هذه الجملة. طيب؟... أصبر لكن كم ساعة؟... وما معنى كلمة مأمورية التى تفوه بها الشاب صاحب النظارة عندما قال إن السكرتير فى مأمورية؟ ربما هو عند الرئيس. بالقرب من هنا. مجرد بابين يفصلاننا. هذا هو السهل الممتنع. أنا متأكدة أنهم سيصرفوننى... لم يبقَ سواى. أنتظر وحدى مثل البلهاء... "مدام؟...". أرتعش فجأة وأنا أنظر إلى الرجل وهو يشير إلى. يا ربى! اجعل الأمور تيسر جيدا. هل أستطيع التعبير جيدا عما أريده؟ أدخلنى الرجل المتعجِّل إلى المكتب وأغلق الباب وراءه. الأثاث بسيط.

قام رجل أسمر من وراء مكتب صغير وجلس ثانية: "صباح الخير يا مدام. آسف على استقبالك فى وقت متأخر... تفضلى...". حاجباه السوداوان مقضبان وملامحه حادة. جلست. تشابكت يداه فوق الملفات المعروضة أمامه وحدق فى. "تحت أمرك...". لا يكف عن التحديق فى وها هو يضيف: "أحول كل الطلبات والشكاوى للرئيس... بنفسى...".

"ما أود أن أقوله للرئيس خطير... لا أحد...". رفع يده: "كونى متأكدة ألا أحد غير الرئيس وأنا سيعرف محتوى خطابك...". ومد يده فوق المكتب! ترددت قليلا وسلمته إياه. ونظرت إليه وهو يخرج الأوراق من الظرف. أشعر بغصة، والغضب دفع بالدموع إلى عينىّ. كان يقرأ باهتمام دون أن تختفى الحدة التى على وجهه. استوقفه توقيعى. ربما هو لقبى مرة أخرى!

"طيب!" وراح يطبق الأوراق بعناية. "سأسلم رسالتك للرئيس... بنفسى. فى يده..." هل سيقرؤها الريس؟ هل تعاطف سكرتيره مع الحزن البادى فى عينىّ. نبرة صوته كانت ألطف وهو يدلى لى بوعده هذا. نهضت محتفظة بالابتسامة المبهمة التى التصقت بوجهى طوال اللقاء. شكرته بصوت مختنق. وبينما هممت بالمغادرة سمعته يقول: "مع السلامة. سنتصل بك...".

ارتعشت. الجو كان باردا فى هذه الغرفة. هل هى علامة؟ هل هو وعد ما؟ متى؟ مشيت مسرعة رغم تعبى الشديد. أكثر من ثلاث ساعات! نظرة إلى السور على يمينى... هل هو الآن يتناول الغداء مع عائلته؟ هذا الوغد الفائق القوة الذى بين يديه حياة إسماعيل ورفاقه... كم أمقته!

-٣-

٢٩ نوفمبر... أتساءل إن كنت تعرف أى يوم نحن. بعد شهر ستتم سنة من التجوال من سجن لآخر، ومن سوء المعاملة. سنة وأنت تعانى. تفصلنا الجدران والقضبان. ومع ذلك، هذه الليالى والأيام من البعد والفراق، رسخت جبنا. اخترنا طريقا أصعب من الكابوس. حتى لو حرمونا من كل شىء لن يستطيعوا شيئا ضد احترام الذات الملاصق لنا مثل الجلد بالجسد. مَرَدُّ تأثرى اليوم هو انبعاث ذكريات أعياد زواجنا والسنين الرائعة التى منحتنى إياها.

هل من أخبار؟ لا. لا شىء. نذهب من حين لآخر، رغم ذلك، فى جولة للبحث عن معلومات. ونعود نجر أذيال الخيبة.

"لا شىء!" يقول لنا الشرطى. يفتش فى طرد إنجى الأسبوعى الذى وضعته على الطاولة.

"السماح لها بالرسم؟ سلمت لك عريضة فى الموضوع...". يهز كتفيه ويقول: "لم يصلنى رد. تعالى الأسبوع القادم...".

لم أَعُدْ أَعِدُّ الأيام. المؤكد أن ذلك السكرتير لم يسلم رسالتى للرئيس. أشد على إشاربى. أشعر بالبرد. أتوجه مسرعة إلى شارع شامبليون. نقلت ماما أتيليه الخياطة الخاص بها إلى شقتها القديمة... على أن أعود إلى الزمالك عند السادسة، حيث ستأتى سجانة إنجى لأخذ أنابيب الألوان. ستسعد أختى بهذا. لدى مجموعة كبيرة حصلت عليها بعناء بعد أن فتشت طويلا عن محل بيع هذه الأغراض. كيف تخبئ

إنجى هذه الألوان والفرش؟ على ماذا ترسم؟ الكارتون؟ الورق الردىء؟..، إنجى! كم أنا مشتاقة إليها!.

رسالة من أختى. تشعر بالكآبة هذه الأيام. طلبت منى رسائل طويلة وتساءلت لماذا لم أعد أكتب أشعارا وقصصا. طلبت منى صورة لى مع أولاد أختنا. لكنى أرسلت لها واحدة! هل صادرها هؤلاء الأوغاد؟

منتصف ديسمبر. البرد حط أوزاره، والصمت حول أسوار أبو زعبل يزداد ثقلا. لم تتسرب أية أخبار عنهم. أما الأمل فى الحصول على أية إشارة من سكرتير الرئيس، فيتضاءل يوما بعد يوم. أنا مقتنعة أن عبد الناصر لم يقرأ رسالتى. أو أنه لم يتأثر بمحتواها. ومع كل هذا لا يجب أن أستسلم لليأس. أحاول ألا أفكر فى الغد، أن أقول لنفسى إنه يوم مثل غيره من الأيام والليالى التى أحياها منذ ما يقرب السنة بدونك!

الأمر صعب! نبض المدينة ازداد سرعة ولمعت على واجهات المحلات الزينة الفضية والنجوم والملائكة المنتشرة حول بابا نويل الغارق فى ندائف القطن! لم أخرج حتى لا أراهم. جاءت عطيات وليليان لزيارتى هذا الصباح. تمكنت من رؤية لطفى. كان للزيارة وقع شديد عليها.

٢٤ ديسمبر. ذهبت هذا الصباح عند ثريا. حررنا مع بعض تليغرافات وجهناها للكل. تمت المهمة بصورة ميكانكية. أحفز نفسى على المقاومة. أجز على أسنانى وأشد على قبضة يدى. أتجنب التفكير فى نفسى... أشعر أننى شخت. وأنت هناك بيديك المجروحتين، بجوعك، بأفكارك... والبرد.... أود أن أعرف أنك لست بمفردك فى زنزانة.

منذ أن سلمت طرد إنجى لم أعد ثانية إلى المباحث. أطوف مثل روح تائه على أرصفة شارع قصر النيل. وأعود إلى هناك لأسأل ذلك السؤال الأبدى ولأسمع الشرطى يجيب بتململ: "لا شىء".

ساحة الحرية، عزايفيتش. هل لا تزال الجرانيتا التى يصنعونها لذيذة. رائحة فول ساخن تدغدغ للحظة أنفى. أعبر الشارع وألقى نظرة على واجهة الجامعة الأمريكية. ها هو "أسترا" بكوكتيلاته ذات الفواكه المجمدة، شلة أصدقاء الجامعة... المداعبات، الأحلام... "مراهقتى المحمومة".

صور حنين ما لبثت أن بعثرتها جدران المباحث العامة.

فى القاعة تجلس امرأتان فى ثياب سوداء. أسلم عليهما بحركة من رأسى. منذ فترة لم أعد ألتقى بأقارب المعتقلين فى أبو زعبل أو الفيوم. يصلون فى وقت متأخر عن هذا وبوتيرة أقل. ما الفائدة؟ إذا كان الجواب فى نهاية مشوار مرهق هو " لا شيء". كلمة تذكى الحزن والثورة بداخلهم. وها هم ينتظرون بصبر. أليس الصبر طيبًا؟.

أتعرف على الشرطى الجالس وراء جريدته. "صباح الخير! أنا جول...".

فقاطعنى الرجل "عارف، عارف". "عارفك... نحن ندرس الموضوع...". ذهلت لأنها المرة الأولى التى يرد على بجملة مكتملة!

كيف أفسر هذه الكلمات القليلة المبهمة؟... وأعود وأقول لنفسى لا تتركى نفسك للأوهام.

قال لى صادق وأنا أغلق باب الشقة ورائى: "اتصل بحضرتك شخص فى التليفون... لا أعرف. رجل لم يعط اسمه...". زفت! دخلت المطبخ. كان محجوب منشغلا بعجينة ما والتفت نحوى قائلا: "اتصل بحضرتك رجل من عشر دقائق. وطلب أن يكلمك. لم يترك رسالة. وقال إنه سيتصل ثانية... أعتقد أنه ضابط. كان يتكلم بالأمر...".

غضبت لضياع المكالمة. ورحت أنتظر وأسأل نفسى ألف سؤال. قليلون هم من يتصلون بى لتزويدى بأخبار عن إنجى أو إسماعيل، ولا يذكرون اسمى ولقبى. لقد قال لى رجل المباحث هذا الصباح إنهم يدرسون المسألة.

"ماذا هناك؟" قالت ماما بقلق. بما أن وتيرة عملها هدأت قليلا هذه الأيام عادت في موعد الغداء.

"لا شيء يا مامى. أنتظر مكالمة...". لم أستطع أن آكل السمك.

التليفون! أرد بينما قلبى يخفق بجنون: "ألو؟ صباح الخير! متى تريدين حضرتك مقابلة الدكتور إسماعيل؟". فأجبت وأنا أصرخ تقريبا: "ماذا تقول؟ هل يمكن أن أراه؟... الآن! فورا!..." ضحك الرجل. "لا يا مدام ليس بهذه السرعة. يوم الأربعاء الساعة الحادية عشرة صباحا؟... فى مكتب مباحث شبرا الخيمة. أرجوك لا تخبرى أحداً. هذا تصريح خاص..." ارتعشت وإذا به يواصل: "وأى يوم تريدين رؤية أختك إنجى؟....". سكت ثانية، مذهولة مما يجرى ومرتبكة من السعادة التى غمرتنى فجأة. فحدد لى الرجل يوم الخميس التالى فى المكان والساعة نفسهما.

"فهمت جيدا يا مدام؟ هذه زيارات خاصة...". ابتلعت دموعى وعدت إلى السفرة معلنة: "سأرى إسماعيل يوم الأربعاء وإنجى الخميس! يجب أن تأتى معى يا مامى! أنت والدتها والرجل لم يتحدث عن تصريح. لا أصدق! إنها معجزة!... إنها خدمة خاصة لا يجب أن يعلم بها أحد...". ابتسمت أمى وهى ترى الفرحة تغير ملامحى. جلست وأكلت بنهم. تساءلت كيف سأملأ الساعات التى تفصلنى عن يوم الأربعاء. بعد غد! زيارات استثنائية! هكذا إذن قرأ عبد الناصر رسالتى. لكننى لم أذكر فيها إنجى... الأمر غريب! يعرف كل شىء عن إسماعيل... لكن إنجى؟ هكذا انهالت عليه برقياتى وتظلماتى بينما كنت متأكدة أنه لم يتلقها. وأن سكرتيره وموظفيه كانوا يرمون مجمل شكاوى أقارب المعتقلين فى المهملات. أخمن أنه أعطى أمرا لرئيس المخابرات بتمكينى من رؤية زوجى، وأن هذا الأخير أراد أن يكون ملكيا أكثر من الملك وأهدانى تصريحا لزيارة أختى!... لكن لماذا شبرا الخيمة؟ لماذا ليس فى أبو زعبل أو القناطر؟ ربما لدواعى السرية.

بعد أن سارت السيارة بمحاذاة النيل لفترة توغلت فى شارع شعبى، وصرخت سلفتى فى السائق: "اسأل على الطريق... وإلا سنتأخر...". طلبت منها أن ترافقنى، ربما يرق قلب الحارس ويتركها تدخل، سيكون إسماعيل سعيدا برؤية أخته. توقفت السيارة أمام مبنى بشع مائل للصفرة يحرسه مجندان.

"إلى الأمام! إلى الأمام! لا تتوقفوا هنا...". لكنى كنت قد نزلت.

"صباح الخير! من فضلك أخبر الضابط المسؤول أن جلبيرى أفلاطون وصلت... إنه فى انتظارى...". تفحصنى الجنديان وجعلانى أعيد على مسمعهما اسمى الذى أضفت إليه اسم إسماعيل. ظهر الجندى بعدها بقليل وأشار إلى قائلا:

"اصعدى! أنت وحدك، أنت لا" وهو يوجه كلامه لثريا. التفت وابتسمت له: "هى معى. هذه أخت الدكتور إسماعيل...". هز كتفيه وتمتم وسبقنا نحو سلم ضيق من الخشب تغطيه سجادة بالية ومتربة. صعدنا وراءه إلى الدور الأول. راح يدق على باب موارب. كنا فى غاية الانفعال. نظرنا لبعضنا. هل إسماعيل هنا؟

"تفضلوا!". الصوت قوى ومبحوح. دخلنا فى القاعة الصغيرة التى ينفذ إليها الضوء من نافذتين صغيرتين مفتوحتين على الشارع. قطب الضابط الجالس وراء الكرسى حاجبيه: "ما الموضوع؟... عندى تصريح واحد لزوجة إسماعيل. من منكن؟". أجبته بحياء: "أنا! يا سيادة الضابط، المدام أخت إسماعيل، من فضلك اسمح لها...".

"لا! لا أستطيع أن أخالف الأوامر... حامد!". قدَّم الجندى الذى ناداه التحية العسكرية وطرق على الأرض بكعب حذائه.

"انزل مع المدام! لتنتظر فى الصالون...". أشفقت على ثريا وأنا أرى الخيبة على وجهها. أعجز عن التصرف... وأقول لنفسى لننتظر ونرى... ربما بعد قليل... جلست بينما الضابط يحدق فىّ.

"مـاذا يوجـد فى العلب؟..." . وقـرب ذقنه الرفـيع منهـا . "تفـاح، وبتـى فـور، سجائر وبونبونى..." . وضعت الأغراض على المكتب ورحت أفك الربطة بينما هو يتابع حركاتى.

"تفضل..." . أحاول أن أرسم ابتسامة ودية. رفض بإيماءة، وأشار إلىّ أن أرفع الأشياء من على مكتبه. الساعة الحادية عشرة والربع! فتمتمت بخجل: "كنت أعتقد أن الموعد الساعة الحادية عشرة..." . هز رأسه، أمسك بالتليفون وراح يدير الأرقام. أهى أرقام أبو زعبل؟ يتكلم بصوت خافت، بالكاد أسمعه. بدا عليه التململ وقال: "طيب، طيب..." . ثم انحنى على ملف وراح يتصفحه. أشعلت سيجارة. بما أنه لم يقل كلمة فهذا يعنى أن إسماعيل علىّ وشك الوصول... أحاول أن أتبين الأصوات المختلفة المتصاعدة من الشارع. أصوات، وصراخ، وكلاكسات، ونداءات... سينقلونه إلى هنا فى سيارة بوليس. صفق باب. باب منزل.

"اسمك ليس اسما عربيا ..." . نظرت إليه مندهشة. "تركى..." .

"إذن أنت تركية؟" ابتسمت.

"مصرية..." خطوات على السلم، خطوات شخصين.

٣٠ ديسمبر... لما دخل العسكرى المكتب وقال للضابط: "إنهم هنا!" ظننت أن قلبى قد توقف، وأصابنى الدوار عندما أدركت أن الرجل الذى دخل كان أنت إسماعيل. برأسك المحلوق وذقنك الطويلة، ونظارتك. لم أتعرف عليك! وأظن أنك كنت مذهولا لرؤيتى فى هذا المكتب فتمتمت: "هذه أنت؟" . ثم قمت بضمى إليك بشىء من الارتباك. شعيرات ذقنك شوكت خدى. وجلسنا على الفور قرب الطاولة وقربت كرسيا منك. طلب منى الضابط التحدث بالعربية. واضطررنا للانصياع. وتمكنت رغم ذلك من تزويدك ببعض الأخبار مع إدخال بعض الجمل بالفرنسية بصوت خافت. كم أنا نادمة لأننى لم

أجلب لك وجبة حقيقية. يبدو أنك جائع. تعلم يا حبى تصورت على الفور فظاعة حياتك هناك. كنت تبدو كما لو كنت متنكرا فى تلك البدلة الزرقاء من الصوف المجعد. هذا الزى التنكرى يخفى جسدك المغطى ربما بالكدمات والجروح. لا أستطيع أن أكذب على نفسى. ما كان على سوى أن ألاحظ العلامة بطول ثلاثة سنتميترات التى تتوسط رأسك. هل سينبت الشعر ثانية فى هذا المكان؟ المهم أن الضربات التى تلقيتها لن تؤثر عليك فيما بعد! قلت:

"أنا أتحمل كل شىء لا تقلقى. لم أكن أتوقع أننى سأتحمل إلى هذا القدر...". فسألته إلى متى؟ قوة احتمال الإنسان لها حدودها... لماذا ترتدى نظارة؟". قال: "بسبب الريح والغبار...". هل هذا صحيح؟ ألا يوجد سبب آخر؟ بدت لى أسنانك سوداء، فظيعة... ماذا فعلوا بك يا حبى الجميل؟... لا يهم! المهم أن يكفوا عن تعذيبهم لك. أن تصبح ثانية الرجل الرائع الذى كنت دائما. وإن كنت لم أستطع التعبير عما بداخلى فذلك بسبب العسكرى الذى كان يصغى إلينا. كل ما استطعت قوله هو تمنياتى لأصدقاء يوم زفافهما بأن يسعدوا مثلنا نحن -الاثنين-... قلت لى إنك فكرت فى كثيرا يومى ٢٩ نوفمبر و٢٥ ديسمبر... كنت أعلم ذلك. يصعب على وصف هذه الساعة التى قضيتها معك وأنا أنظر إلى تلك العلامة على رأسك كلما انحنيت، إلى يدك المتورمة، إلى ظافرك الأوسط المنزوع والسبابة المائلة للزرقة. قلت لى إنك قمت بتقييم حياتك يوم الرابع والعشرين بهاتين السنتين الضائعتين. وإن ذلك ليس بالخسارة الكبيرة لأنك تعلمت الكثير خلال ثلاث وثلاثين سنة. قلت إنك لم تفقد الأمل فى العيش ما يكفى من العمر لتحقيق كل ما تتمناه.

"لماذا لم يخبرونى؟" قال إسما: "لم أتمكن حتى من حلق ذقنى...".

"اجلسوا. عندكم ساعة" قال الضابط بصوت حاد. "هذا تصريح استثنائى...". اتضح كل شىء. اضطرت المباحث وإدارة السجون لخرق القواعد المطبقة فى سجونهم. وجلبوا إسماعيل فى سرية تامة. زملاؤه ليسوا على علم بالأمر. أما أنا فلم أقل شيئا

لأصدقائى... وحدها ماما كانت على علم بالأمر. ضحكت من الارتياح وهى تصغى إلى صوتى فى التليفون:

"كل شىء على ما يرام. يجب أن تأتى معى غدا صباحا... أنا متأكدة أنهم سيسمحون لك برؤيتها...".

"سنرى... لم أقرر بعد... ماذا تريدين أن تأخذى لها؟... اطلبى من محجوب ما تريدين... نلتقى هذا المساء...".

جمعت خدمنا الثلاثة وحلفتهم ألا يتفوهوا بكلمة عن هذه الزيارات. أعلم أنهم سيلتزمون بالوعد. هم أوفياء لأمى وأختى. تورد وجه محجوب البدين والأسمر من السعادة عندما طلبت منه دجاجة مشوية ومحشوا وجاتوه بالشكولاتة.

الخميس صباحا، ٣٠ ديسمبر. أنا وماما ندخن داخل التاكسى. أشعر ببعض القلق. ماذا سيكون رد فعلها لو منعها الشرطى من رؤية إنجى؟ لو أمرها بالانتظار فى "الصالون"؟

"سأعود إلى المنزل لو عاملونى بفظاظة" قالت لى البارحة. اليوم هى أكثر هدوءا. تكتفى بالتعليق على المارة الذين يعبرون الأزقة المليئة بالقاذورات. العربات التى تتحرك فى كل اتجاه تضطر السائق للقيادة ببطء.

"انظرى إلى هذا! ينف فى يديه! الأمر مقزز!... وهذا الولد يتبول أمام كل الناس!... ما هذا الحى؟ لماذا اختار هؤلاء الأغبياء هذا الحى الفقير؟ مع أن هناك أقسام شرطة فى وسط المدينة...".

أحاول أن أقنع العساكر بالسماح لأمى بالدخول. وصعدنا السلالم. لكن العسكرى دق على باب آخر. واستقبلنا ضابط آخر. قطب حاجبيه وهو يرى أمى التى قدمتها له بسرعة وأنا أبتسم. تنهد الرجل الأصلع المكتنز الجسم:

"هذه زيارة استثنائية باسمك... لا أستطيع..." ونهض عندما مدت ماما يدها نحوه.

"هذه أم يا سيادة الضابط. أمّ لم تَر ابنتها منذ شهر أبريل... احسب كم شهراً...".

"عندى تعليمات...".

"اسمع حضرتك.." راحت تقول ماما بهدوء: "كل ما أطلبه هو أن أرى ابنتى وأطمئن على صحتها. سأجلس هنا فى الركن ولن أتكلم...". وفجأة رنت ضحكة. إنها ضحكة إنجى يصاحبها صوت خطى.

"مش معقول!" هللت ديدى التى ارتمت فى أحضان ماما. "مامى! بولى! أنا أحلم!". احتضنا فى حالة من التأثر الشديد. والتفتت إنجى نحو الضابط الذى جلس مستسلما.

"لماذا لم يخبرنى أحد؟ نادوا على ورمونى فى بوكس البوليس، كنت أظن أنهم يختطفوننى..." ضحكنا من السعادة. سحبت كرسيا لأجلس بالقرب منها قدر الإمكان. فتحت العلب.

"ممم! ما هذه الأشياء الحلوة!" ورمقت إنجى الضابط بشىء من السخرية: "تسمح أن أتذوق؟..." واستولت على جناح دجاجة.

"تأكلين بيديك؟ بولى! نسيت الشوكة والسكين!...".

"ممنوع!" قال الضابط الذى لم يستطع أن يمتنع عن الابتسام.

"ممنوع؟ لماذا؟...".

"مامى يا حبيبتى. اتركى البروتوكول قليلا. أنا تعودت".

وراحت إنجى تسألنى بصوت خافت وهى تأكل: "ما مناسبة هذه الزيارة؟ هل من أخبار؟ ونصفك الثانى؟".

"أنتم أتراك؟... أسماء بناتك...".

"آه لا! ليس أتراكًا، بل شركسيين... جدنا الكبير...".

وراحت ماما بعد أن تسلحت بأجمل ابتساماتها تشرح أصولنا، وهى تذكر الباشا الفلانى والأميرة كذا، وتصف قصر الجيزة وقصر شبرا. تتحدث عن حياتها كامرأة مطلقة، عن بيت الأزياء الذى تديره. أما الضابط فكان يلقى بأسئلته وهو مندهش ومعجب بهذه المرأة الحيوية التى ما تزال جميلة. يهتف تارة ويضحك تارة أخرى. إنها فرصة ذهبية بالنسبة لنا نحن -الاثنتين!- واغتنمناها لتبادل الأخبار بالفرنسية. طبعا أنا التى أتكلم وأدس بدافع الحيطة من حين لآخر كلمات بالعربية. شرحت لها بسرعة كيف حصلت على الزيارة... ثم انتقلت إلى الوضع السياسى الذى لا تنذر آفاقه بأى انفراجة رغم وجود السوفييت الذين جاؤوا لمساعدتنا على بناء السد العالى بأسوان. لم أحلل خطاب الرئيس لأن إنجى أوقفتنى. لقد كان لهم الفرصة لسماع عبد الناصر فى الراديو. وتحدثت بعد ذلك عن إسما وعن زيارة البارحة. وتعمدت عدم ذكر تفاصيل كثيرة مؤلمة لأننى أعلم أن عددا من المعتقلات هن خطيبات أو زوجات لمتهمين فى محاكمة الإسكندرية. كانت أختى تحدق فى ولاحظت الحزن على تعابير وجهى: "المعاملة سيئة هناك أليس كذلك؟". هززت رأسى بنعم. وأضفت أن كل العائلات تنتهز كل عيد لترسل التظلمات للسلطات.

"تعلمين يا مامى" قالت إنجى فى وقت ما: "إذا كنت أستطيع أن آكل القاذورات التى يقدمونها لنا فهذا بفضل تربيتك. زميلاتى لا يصدقن أننى أستطيع ابتلاع ما يقدمونه لنا على أنه وجبات. لكن بفضل النقود التى تصلنى أستطيع أن أشترى معلبات

من كانتين السجن. وأرسم كثيرا... تسلمت اللوحات والألوان... يسمحون لى بالعمل.. لكنهم يسلموننى إياها بالقطارة...".

وراحت تحدق فى بنظرتها الذكية: "ليس لديك وقت للكتابة... أنت نحيفة..." ثم وهى تخفض صوتها: "سأرسل لك خطابا... موعد فى قصر العينى...لا تقلقى... استشارة عند دكتور الأسنان. فرصة لنلتقى...".

"كنت رائعة!" قلت لماما ونحن فى التاكسى الذى كان فى انتظارنا. "هل ستذهبين إلى الأتيليه؟..." "نعم شارع شامبليون!". "... هل استطعتم الحديث براحتكم؟ قصدت أن أحكى له قصصا..." وراحت تضحك ثم قطبت حاجبيها "أختك فقدت الكثير من وزنها، أما بشرتها! إنها ملتهبة. لماذا لا ترسلين لها كريمات لليل آردان[١٩]؟... هى فى حاجة إلى كريم للبشرة الجافة...".

حدث مصيرى. دشنت أعمال السد العالى يوم ١٩ يناير! وافق الاتحاد السوفييتى على المشاركة فى المرحلة الثانية. أتوقع ما سيحدث... اختلط الأمل فىَّ بالقلق. ماذا ينتظرنى؟

بعثت لى إنجى هدية بمناسبة عيد ميلادى. شكلها رهيب لكنى تأثرت بها كثيرا. كيس نظارة وكيس مشط من القماش الأسود المطرز بالخيط الأصفر. هل طرزته بنفسها؟ لكنها لم تمسك إبرة من قبل! دعوت ليليان وعزيزة يوم الأحد لحضور عيد ميلادى... هل ستصلنى أية أخبار؟

٥ فبراير... تمر الأيام. لا شىء يتحرك. لكن بصيص أمل لمع مثل نجمة صغيرة فى سمائنا السوداء. مُنحت الحقوق السياسية للوفديين والليبراليين... وتم الإفراج عن

(١٩) ماركة شهيرة من كريمات العناية بالبشرة.

بعضهم... علمنا أن الأحكام ستصدر قريبا! وانتقلت من حالة التفاؤل إلى الرعب. نعم أم لا. هذا هو السؤال.

معرض لمارجو فييون. رائع. كم تمنيت اقتناء إحدى لوحاتها المائية. اثنان من أصدقائى اشتروا لوحات. يوم الافتتاح التقيت بأندريه شديد. جميلة وجذابة رقيقة وذكية كذلك. مما لا شك فيه، حياتها ناجحة. كاتبة جيدة وشاعرة جيدة كذلك. أود أن ألتقى بها مرة أخرى، أن أتعرف إليها أكثر. خاصة أن أستكشف مسار نجاحها. هل سأجرؤ على توجيه هذه الأسئلة لها؟ على أن أفعل هذا حتى لو كانت الأجوبة لن تفيدنى فى شىء. أظن أن هذا سيشجعنى على العمل... أود أن أتحدث معها بكل صراحة... علىَّ أن أخطو هذه الخطوة؛ لأحفز نفسى. لست راضية عن نفسى... خاصة أننى أشعر بالرغبة فى الكتابة هذه الأيام... فى أن أكتب كل ما يتحرك بداخلى ويود التبلور فى قصيدة.

٨ فبراير. الأخبار متعارضة. يظل كل شىء مبهما... أما أنا فمتوعكة من قرص البليرجال الذى أخذته لتهدئة آلام بطنى.

رسالة جميلة من أختى. شكرتنى على المفاجأة التى وصلتها يوم ٣١ ديسمبر، وأبلغتنى أنها أنهت ثلاث لوحات سمح لها القائد بالاحتفاظ بها. سترسلهم من الغد إلى إدارة السجون التى ستبعثها للمباحث التى ستعطيها لى. أخيرا!

١٧ فبراير... من الغريب كيف أن الظروف، فى وقت ما من الحياة، تكشف عن أجوبة أسئلة مستعصية. منذ ما يقرب من الشهر أكتفى بحياتى بوصفى زوجة معتقل فقط. قررت بعد عودتى من الإسكندرية ألا أكتب. كنت قد وصلت إلى قاع المحيط، تتجاذبنى الأخبار السيئة. ووجدت فى هذا ذريعة لعدم الكتابة. لكن عندما رأيتك المرة الماضية وتأكدت أن معاملتهم لكم تحسنت قليلا، هجمت على صور مبهمة وأجزاء أبيات شعرية وقصائد. المهم شعرت بحاجة ماسة للعمل. كما ضغطت على نفسى لأبذل جهدا

جسديا حتى أتمكن من زيارة المعارض الفنية وكتابة ملخصات لإنجى بناء على طلبها. التقيت بفنانين سألوا عن أخبارها.

سمح لى لقائى الطويل مع أندريه شديد بوضع النقط على الحروف. ردت على أسئلتى بكل صراحة، لم يساعدها أحد، اعتمدت فقط على موهبتها وعملها الدءوب. لم يكن لديها حياة اجتماعية. كانت تكرس كل وقتها لعملها وعائلتها. أرسلت بقصة أو اثنتين لمجلة. وجاءها الرد على الفور وتم النشر. صادفها الحظ مرة أو مرتين. اطلع رينيه شارل على أشعارها فى مجلة مركيير فرانس وتحمس لها. وحدث نفس الشىء مع موريس نادو... كانت فخورة بهذا النجاح الذى حازته دون مساعدة أحد... هذا هو الطريق الذى اخترته دون أن أفك رموزه. بعد صدور "النيل" الذى لم يحرز نجاحا، شعرت بخيبة الأمل، وقلت وتيرة عملى. كنت أخصص وقتا كبيرا للأعمال المنزلية التافهة... أما الآن فأنا ناضجة. أشعر بذلك. الأحزان التى مررت بها والآلام التى ألمت بى غيرتنى. نظرتى لكل الأمور أصبحت مختلفة... لم يبق سوى القليل من الوقت لإنجاز شىء ذى قيمة. أعيش أهم سنين حياتى. مرحلة سنية وسطية. لن أضيع ثانية واحدة. كل ما على القيام به هو استغلال هذه الجرأة التى يصفنى بها الكثيرون. رغم ما يردنى من أخبار رغم القلق والخوف... البدء خطوة خطوة. بسبب ما تفرضه على الظروف من عدم استقرار على أن أنسى عادة الكتابة فى أوقات معينة. علىَّ أن أكتب وأقرأ فى أى وقت. مثلا هذا الصباح علىَّ أن أنجز بعض الأمور فى نادى السينما. سأغلق على نفسى بعد الظهر.

١٩ فبراير... غمرتنى السعادة وعندما تلقيت رسالتك. قصيرة لكنها فى غاية الجمال. مصادفة حلوة أنك كتبتها يوم ٢٤ يناير. تتمنى لى عيد ميلاد سعيد، وتطلب منى أن أشترى لنفسى من طرفك كتابا أختاره. تتمنى أن ترانى قريبا فى ظروف أخرى!.

كنت أفكر البارحة فى حبنا الذى ازداد صلابة خلال الثلاثة عشر شهراً ونصف. أعلم أننا عرفنا بعض الاحتكاكات عام ٥٨ . كنت مسؤولا عنها فى كثير من الأحيان لكن كان لى يد فيها أنا أيضا.

أقول لك يا حبيبى؟ أظن أنك كنت ستعيش فى توافق تام معى لو... لو أننى تحليت بإرادة أقوى وبشجاعة أكبر فى العمل، جزء لحياتنا معا وجزء للكتابة. هذا كان سيجنبنا المعارك غير المشرفة لى ولك. الراحة المنبعثة منى والتى أشعر عندما أكون راضية عن يوم من العمل كانت ستعكس لك عند عودتك متأخرا فى المساء متأهبا لتكون سخيفا، الصورة التى كنت تنتظرها عنى والتى كنت بحاجة إليها. طالما شجعتنى على الكتابة. وأنت الوحيد المقتنع بمواهبى (ربما إنجى كذلك؟). وأعلم أنك كنت ستفتخر بنجاحى.

لا تستطيع أن تتصور سعادتى بهذا الشعور وبهذا النهم للكتابة. الأفكار والصور وليدة ثورتى تتزاحم وتصرخ حاجتها للتبلور فى كلمات وأنغام. أشعار، قصص. ما أدرانى... بضع ملاحظات لكتابة رواية. "اللاتى ينتظرن"، إنه نفس عنوان أولى قصائدى التى نظمتها العام الماضى... أغنية الفقدان.

نعم، كم هى كثيرة الأشياء التى أود التعبير عنها بالكلمات. أن أغنيها. هذه هى حقيقتى. إنها هنا. فى حقيقة المسألة هى أن أستجمع نفسى، أن أسترجع التوازن اللازم لحياتنا معا من وراء الجدران وفى نفس السرير.

رسالة أولى من إسماعيل قادمة من أبو زعبل ومكتوبة بالعربية مثل كل رسائل أختى. لكن خط السيد زوجى غير واضح. فهرولت عند ثريا لمشاطرة فرحتى. حفظتها عن ظهر قلب وأعدت كتابتها فى كراسة يومياتى. سمحوا لهم بمراسلة أهاليهم. هذا مؤشر جيد! تلقت صديقاتى الواحدة بعد الأخرى خطابات من رجالهن. رسائل مطمئنة، وقصيرة، وعادية، تكاد تتشابه كلها. "أحسن من لا شىء".

٢٢ فبراير. إنه عيد الوحدة العربية، واليوم عطلة رسمية. سافر رئيس الجمهورية إلى دمشق، لكن مصر فى حالة تأهب وتم مصادرة الشاحنات. هل ستندلع الحرب بين مصر وسوريا بعد سنتين من الوحدة؟

أحاول جاهدة قراءة الصحف. أطرح الأسئلة لفهم الوضع. وأتذكر ملاحظات إسماعيل لدى عودته من دمشق: "المصريون يتصرفون مثل غزاة. ويغذون بهذا الكراهية لدى السوريين ضدهم...". هل يذكر عبد الناصر التقرير الذى قام به إسماعيل؟

قضى جلال ثلاثة أيام عندنا. انتقل بلا هوادة بين المكاتب لتدبير شؤوننا "الأفلاطونية"!.

١٩ مارس... الألم ينغص على حياتى ويحد من حركتى. كل شهر أعيش العذاب نفسه. يومان وليلتان من الألم. أنا منهكة وشبه مخدرة بفعل الأدوية... لدى رغبة عارمة فى البكاء على حالى لكن قليلا من الصفاء المتبقى يمنعنى من ذلك... كل ثانية من حياتك ومن حياة إنجى ما هى إلا عذاب. فكيف لى أن أرثى نفسى! أن أحزن على السن وما يوقعه على من تجاعيد من دونك! على الأفق المسدود! على آلامى الصغيرة... التافهة. هراء! أشفق على الذين لا يجيدون الحب، لا يقدرون على العطاء... الذين سيكتشفون يوما ما أفظع صور الوحدة. دون صديق أو لمسة احترام.

حصلت إنجى أخيرا على تصريح بالرسم والاحتفاظ بلوحاتها. سقطت وهى ترتب سريرها الموجود أعلى سريرين ثانيين. الحمد لله أنها لم تكسر ساقا أو ذراعا.

انتهيت من حساباتى وحسابات إنجى. الأمر غير مبشر.

"حاولى أن تقتصدى أكثر" قال لى جلال على الغداء. ووعدنى أن يفعل المستحيل ليسلمنا المبلغ نفسه الذى كنا نتلقاه كل شهر رغم ما تتطلبه إدارة الأراضى من

مصاريف باهظة. لم تنته بعد إجراءات الوراثة وما زاد الطين بِلَّة المرض الذى أصاب ثلث أرباع أشجار الموز. يفكر جلال فى بيع الأحصنة العربية الرائعة والحمير.

"ما رأيك؟". لم أجب. جلال على حق. من سيمتطى هذه الخيول التى كان يفتخر بها أبى كثيرا؟ نحن الثلاث لا نجيد ركوب الخيل وكنا نستخدم الحمير. قطب جدى يوما حاجبيه وهو يبتسم عندما أخبرته بشاعرية وأنا أستعرض مدى ثقافتى أننى أحلم مثل فرانسيس جايمس بالذهاب إلى جنة الحمير!

لا مفر من طى صفحة الماضى والعيش فى الحاضر... ليفعل جلال ما يراه صوابا. علينا أن ننتظر بيع غلة البرتقال فى شهرى يونيه ويوليه. هل علىّ كما اقترح علىّ زوج أختى أن أفسخ عقد شقتنا؟ أرفض التفكير فى الموضوع الآن وأفضل شد الحزام والتمسك ببصيص الأمل إلى أن يصدر الحكم. سأتدبر أمورى. أعتبر نفسى محظوظة بالمقارنة مع آخرين، بما أن أمى تتكفل بسكنى وثيابى وأكلى... عائلات عديدة تتلقى معونات شهرية من الحزب. أخمن أن مصدرها هو الاشتراكات التى تدفعها العائلات الميسورة.

قبل اعتقالها طلبت منى إنجى أن أسلم شهريا ٢٥ جنيها لزوجة أحد الرفقاء. إسماعيل كان يعطى ١٥ جنيها. لكن مع وقف مرتب إسما اضطررت لتقليص المبلغ. هذا الصباح سلمتها ١٥ جنيها لا غير. احمرَّ وجهى من الخجل وهى تنظر إلى بعينيها الخضراوين بشىء من الاحتقار. وتعرضت كالعادة لتعليقاتها اللاذعة: "أنتم الأرسطقراطيون تتدعون أنكم شيوعيون... لكنكم لا تفكرون فى الفقير..." وراحت تمعن النظر فى الصالون بأثاثه الفخم "لا تقولى لى إنك محتاجة!...".

لكنى لم أحتسب نفسى يوما شيوعية، لم أدع هذا يوما. كنت أود أن أشرح لهذه المرأة الناقمة، المجروحة والتى ربما تحسد وضعى كثيرا، أنه يصعب علىَّ أن أطلب من

أمى مساعدة عائلات الرفقاء. استحالة! كزوجة إسماعيل علىّ أنا تحمل مسؤولياتى. الأمر مختلف بالنسبة لوديدة التى علمت دائما بنشاط ابنها، وقبلت به ذاعنة. أخمن أنها وابنتها وكذا أخريات يسلمن لهذه المرأة مبالغ أكبر... إمكانياتهم تسمح بذلك.

رسالة من إنجى! تأمل فى رؤيتنا يوم عيد الأم! وتصف كيف أن إدارة السجن تتأهب لاستقبال أمهات سجينات الحق المدنى.

أول أغصان أشجار المشمش المزهرة تملأ واجهات عرض بائعى الزهور. لكنى لا أكاد أعيرها انتباها. أتوجه كل يوم بمفردى أو برفقة إحدى الصديقات، إلى مكتب المباحث. المتهمون فى محاكمة الإسكندرية قاموا بإضراب عن الطعام! منذ متى؟ كيف تم إبلاغنا كلنا؟ لم يتمكن البوليس الذى توافد عليه الجميع من إخفاء دهشته. وردوا علينا مرة أخرى وهم فى حرج من أمرهم أنهم لا يعلمون شيئا. هذه القاعة لم تستقبل كل هذا الحشد منذ فترة طويلة.

الوجوه المنهكة والشاحبة، العيون المتورمة من الأرق. إنه الخوف. الإضراب عن الطعام فى الوقت الذى لا يكاد يشبعهم ما يعطونهم إياه. كيف سيصمدون؟ كم سيستمر هذا الإضراب؟ ما هى مطالبهم؟ وهل هذا سؤال؟ ما يريدونه هو الكف عن المعاملة السيئة، زيارة أهاليهم لهم، وصول الرسائل، العلاج... احتللنا قاعة المباحث تارة وقاعة النيابة تارة أخرى لمدة ثلاثة أيام متتالية. وتساءل المحامون والمحضرون والبوليس كيف علمنا بالموضوع.

وصلنى خطاب أختى التى أرعبها الأمر بعد نهاية الإضراب. لحسن الحظ أننى أستطيع طمأنتها إذ علمنا بارتياح أن المعتقلين قد حصلوا على بعض التحسينات فى المعاملة... كتبت لأختى أننى سأتصرف لموافاتها بتفاصيل أكثر فى أقرب وقت ممكن. "اقرأى جيدا رسائلى بين السطور...".

١١ مايو... قررت فسخ عقد إيجار الشقة بأقصى سرعة. سينقل كل شىء إلى بدروم عمارة قديمة فى شبرا تستعمله ماما لتخزين الأثاث القديم. سأوفر بهذه الطريقة

مبلغ الإيجار الذى كان يبتلع جزءا من ميزانيتى. علمنا للتو أن ملف المحاكمة قد يكون بين يديه! الحكم على وشك الصدور إذن. أتقلب بين الأمل والتشاؤم.

احتفلت إنجى وزميلاتها فى زانزاناتهن. لا يبدو أن كريمات مدام بالوك قد حلت مشاكل البشرة التى تعانى منها إضافة إلى أنها تعانى كذلك من مشاكل فى القولون. لن أكلم أمى عن هذا. على كل حال أنا لا أقرأ لها رسائلها. ستكتب لى ليليان عريضة لطلب تحويلها إلى المستشفى... أبحث عن عمل.

٢١ مايو. الأخبار متناقضة هذا الصباح. لقد وافقوا على الأدوية ويمكننا تسليمها فى بداية الشهر. لكن من ناحية أخرى قيل لنا إن الإفراج أمر مستبعد. ورددت لنا إحدى الصديقات هذا الكلام.

طبعا هناك شىء ما تغير منذ فشل مؤتمر القمة. وموقف خروتشاف الذى قال لا للولايات المتحدة بعد رحلة الـ UN.. أنا واثقة مع هذا أن الشعوب لم تعد ترغب فى الحروب. ثم إن الاتحاد السوفيتى أقوى من أى وقت مضى. وإن كان هناك خطر ما ألن نكون كالعادة فى الصفوف الأولى؟ إنه يعلم هذا مليا.

٤ يونيه... أكره هذه الأعياد. المحال والإدارات مغلقة. وعلىَّ أن أملأ هذه الأيام الخاوية. أن ينهشنى القلق وأنا بالقرب منهم أفضل بكثير من البعد. لو كنت ذهبت للإسكندرية لكنت شعرت بتأنيب الضمير وكان التوتر سينخز أحشائى كلما فكرت أنه ربما قد بعث بخطاب... سأحاول أن أنكب على العمل.

لكن الفرح ينفجر بصورته الطفولية مع البومب الذى يرميه الأطفال. وها هى السعادة تتصاعد صاخبة واستفزازية على أنغام أيادٍ مجهولة صغيرة تضرب على الدفوف. حتى أشجار الشارع فى حالة فرح. الزهور الحمراء مشتعلة. وها أنا أراك تستمتع بكسلك فى سريرك فى القاهرة أو الإسكندرية أو فى الريف. وها هى

ابتسامتك وأنت تتكلم عن الإجازة التى كنت تنوى أن تأخذها، أن نأخذها معا: "ماذا تريدين أن تفعلى اليوم يا صغيرتى؟ " هل تعلم أن إنجى قالت لى بينما كنا نتحدث عن العلاقات الزوجية: "من بين كل أصدقائنا إسماعيل هو الأكثر نجاحا فى إدارة حياته الزوجية".

أعلم أننى محبوبة أكثر من أى واحدة، لكن مرد هذا لطبعك فى إنجاز كل ما تقوم به على أحسن وجه.

العمل، والطبخ، والتنزه، والجنس، والحياة الزوجية.

٢٩ يوليه... يبدو أن يومياتى تحولت إلى مجرد مدونة. لا يهم. أنا أكتب لمتعتى الخاصة. عندما أرغب فى ذلك. أو ربما لأوهم نفسى أننى أتكلم معك... لكنى أشعر بالكسل هذا الصباح وفى الوقت نفسه برغبة فى الكتابة... بماذا أبدأ كيف أروى كل ما حدث منذ الرابع من يونيه؟

أعيش وسط ضباب يثقل قلبى. ابتكرت كل الحيل لإنجاح ما أقوم به من مساعٍ بمفردى. لم يعد أحد يرغب فى مرافقتى. أشعر أن صديقاتى استسلمن للعجز والخوف. اقتربت من اليأس. لم أغرق فيه لأننى أرفضه كما أرفض الاستسلام. لن أستسلم إلا أمام الموت. مع أنه أعمى وغير عادل ولا مفر منه.

وهكذا قضيت حياتى على حافة اليأس، حتى وصلت إلى منتصف شهر يونيه. كثيرا ما كنت متوعكة. عانيت من نوبات حرارة وصلت أحيانا ٣٩ درجة. وذات صباح بينما أنا فى سريرى إثر نزلة برد تصفحت الأهرام. وفجأة وقعت مذهولة على اسم فى صفحة الوفيات. شُهْدِى عطية! الذى دفن قبلها بيوم... إنه وطنى بارز. ظل الاسم يرن فى أذنى غير مصدقة ومتمنية أن هذا الاسم واللقب ربما يكون لأحد أقربائه. "بلى إنه هو." ردت على داتى وهى تبكى. "يجب أن نلتقى... سأمر عليك لشرب فنجان قهوة...".

لم أكن أعـرف عن هذا الرجل الشـاب سـوى أنه المتـهم الأول فى مـحـاكـمـة الإسكندرية الثانيـة... كـان شـهـدى وأصـدقـاؤه قد وصلوا لتوهم إلى أبـو زعبل، حـيث عانوا من آلام الآخرين نفسها! (مع أنهم كانوا يساندون عبد الناصر!)... وهكذا وجدت نفسى أمام حقيقة واضحة وهى أن جهودى التى بذلتها منذ يناير ٥٩ لم تكن كافية، بل قد تكون بلا جدوى!

-٦-

وفـــاة شـهـدى عطيـــة لم تكـــن بلا فـائـدة! فـتحـــت لنا أبـــواب أبو زعـبل. أحدثت الوفـــاة ضجـــة كبيرة. وتناقلـــت الإذاعات الخارجيـــة الخبر، وثارت عائلة شهدى مطالبة بإجـــراء تحقيـــق. وحاصر أهالى المعتقلين مكاتب المدعي العام وإدارة السجون وطبعا المخابرات.

لم يخطر على بالنا أن عبد الناصر كان يحضر اجتماعا برلمانيا فى يوغسلافيا عندما وصله الخبر. وطرح عليه بعض النواب أسئلة حول وفاة شهدى. رد عبد الناصر أنه ليس على علم بالأمر وأرسل أوامره على الفور. تم إقالة القائد العام للسجون ومساعده. وكلف موظفين فى النيابة العامة بالتحقيق فى أبو زعبل. عين المعتقلـــون اثنين من زملائهم للإدلاء بشهادتهم نيابة عنهم! الدكتو عبد العظيم أنيس والدكتور إسماعيل صبرى عبد الله. وتمثلت مهمتهم فى تزويد سلطات النـيابة بـكل تفاصيل الأحـــداث التى أدت إلى وفـــاة شـهدى، وزمـيلـين آخـــرين توفـيا همـا أيضـا إثر التعذيب وأخيرا بمعلومات عن ظروف اعتقال الجميع(٢٠).

---

(٢٠) لم نتعرف على هذه الظروف إلا بعد إطلاق سراحهم. كان المعتقلون يمشون حفاةً علـى البازلت فى اتجاه المنجم الذى كانوا يقطعونه بمطارق صغيرة. كان عليهم كسر أجـزاء من البازلت ووضعها فى أكياس. إنها عملية صعبة. وعندما يعجز أحدهم عن أداء العمل ينهال عليه السجان ضربا بالهراوى.

فتح باب الزيارات! وتمكنا أنا وثريا من رؤية إسماعيل. كم كان ممتعا ومطمئنا أن أجدك بعد ظلمة القلق التى كانت تفصل بيننا. كنت أحمل بداخلى الوجه الذى طالعتنى به يوم ٣١ ديسمبر. لم أتعرف عليك يومها. لكن هذا الصباح وإن بدوت شاحبا فإنك كنت أنت! علمت بعدها بعشرة أيام أنك كدت أن تموت فى شهر ديسمبر!... طلبت منى وأنت تطمئننى، أن أعمل على ترحيلك للقناطر.

لم نتمكن من ترحيل رجالنا إلى القناطر، لكننا حصلنا على زيارة طبية دورية وعلى فتح كانتين، وأخيراً على تصريح زيارة فى شهر أغسطس.

-٧-

ظهرت فجأة انفراجة فى الأفق: سيطلق سراح أربع نساء وفوج من الرجال. من بينهم لطفى الخولى، ولطف الله سليمان، ولويس عوض.

امتلأت قلوبنا بالسعادة والأمل. لكن سرعان ما تكدرنا بعدما تلقينا عدة مكالمات مبعثها المودة والفضول أيضا.

"مبروك! قريبا سيأتى دور إسماعيل وإنجى... كلهم إن شاء الله!... لماذا لم يفرجوا عن الجميع؟".

أرد بعصبية إن إنجى ستمثل أمام المحكمة وإن إسماعيل فى انتظار صدور الحكم.

وها نحن نجتمع مثلما نفعل عند سماعنا أى خبر مهم. التقينا هذا المساء عند داتى. منذ زمن بعيد لم يمتلئ الصالون الصغير بضحكاتنا المنفعلة. كنا نتكلم كلنا فى الوقت نفسه، وكل واحدة منا تدلى بتوقعاتها. كما كنا نريد مكالمة ليليان وجينات لتهنئتهن وسماع صوت العائدين.

"لنتمهل قليلا" أوصت داتى. أنا وماما عدنا للتو من عند خالتى. كان ابنها وزوجته سيطردوننا! وقالت لى الأخرى: من الأفضل ألا تزورونا لفترة حتى لا تورطوا زوجى... تصرف هذه الحمقاء يكفى للحكم عليها".

"الحمد لله أن الجميع ليس مرعوبا مثلها!...".

"وليليان؟ إنها صديقتك يا بولى...".

"سأجرب...".

"بولى!" صاحت ليليان. "أين أنت؟ يصر لطفى على رؤيتك هذا المساء. عند داتى؟ جميل، لا تتحركى من هناك. سنمر بعد ساعة...".

لم أتمكن من عدم المقارنة بين الموقفين مع أننى أعلم أن المقارنة صعبة لأنهما عالمان مختلفان. على كل حال لم أرتح يوما لابنة خالة داتى. أشعر أننى قريبة جدا من ليليان التى أحبها وأقدرها كثيرا.

واصلنا حديثنا نحن -الثلاثة- ونحن ندخن ونراقب ساعاتنا. لم نفكر فيما يتعرض له صديقنا من أخطار.

بمجيئه إلينا. زيارة زوجة عضو فى الحزب يوم خروجه من السجن للقاء زوجته وحماته وزوجة عضو آخر يتطلب كثيرا من الشجاعة والجرأة.

وصل لطفى وليليان فى حوالى منتصف الليل وهم يشعان سعادة. توالت القبل والتهانى وصرخات فرح، ثم جلسنا حوله وأجابنا عن أسئلتنا حول صحة رجالنا ومعنوياتهم. وراح يستمع إلينا بينما حلت على وجهه ابتسامة حادة، ثم سرد علينا فى عجالة ما عاناه هو وزملاؤه فى الفيوم وأبو زعبل. توقفت فجأة المعاملة السيئة بعد موت شهدى عطية.

"كان الضابط والعساكر يفرضون على المساجين نظاما أكثر صرامة من الذى كان يفرض على مساجين القانون المدنى. كلما توجه أحدهم إلينا بالحديث صب علينا وابلا من الشتائم القميئة. وأى تعبير عن تذمر أو استياء كان ينتهى بصاحبه إلى الزنزانة الانفرادية بعد وصلة من الضرب. كان يسمح لنا بخمس دقائق صباحا ومثلها مساء للذهاب تحت الحراسة إلى الحمام. فى أبو زعبل زوجك بطل يا بولى!". فقاطعته ليليان: "لا يا لطفى من فضلك لماذا؟". ثم واصل: "كان المحكوم عليهم والمعتقلون

السياسيون يجبرون على الأشغال الشاقة. يكسرون الحجارة فى محجر يساقون إليه حفاة. حتى المرضى لم ينجوا من هذه الرحلة. وتم التركيز على قادة الحزب، حيث رتب لهم فى أبو زعبل استقبال خاص. أمام المساجين قام مدير السجن، اثنان من الضباط وضابط من المباحث قاموا باستدعاء فؤاد، وإسماعيل والآخرين تباعا. وطلبوا منهم وهم يهددونهم بالعصى أن يهتفوا لعبد الناصر. رفض إسماعيل قائلا: "ليس فى هذه الظروف. أبدا..". فانهالت عليه الضربات ولم يتوقف العساكر إلا ليسمعوا منه الهتاف للرئيس. أما هو فكان يردد لا! فى كل مرة. فيزداد الضرب قوة وشدة على رأسه وكل جسمه. وتوقفوا عندما فقد إسماعيل وعيه. وأمر الضباط عندئذ بنقله إلى زنزانة انفرادية، حيث قضى فيها عشرة أيام... وعندما ساقوه إلى المنجم ساعده الرفقاء على كسر الحجارة وملء الأكياس... أيا كان السجن، كل شىء يعرف... إنه ما يسمى بالتليفون العربى... القيل والقال... هكذا علمنا باعتقال إنجى، وعرفنا اسم من وشى بها... كيف تعامل النساء... شهدى مات بعد أن تلقى ضربة على قفاه... ندين له بوقف التعذيب وتحسين ظروف معيشتنا[٢١]. طبعا كان للاحتجاجات فى الخارج أثرها كذلك... بعض المعتقلين الذين تم نقلهم من أبو زعبل إلى الفيوم هم الذين زودونا بهذه المعلومات... ولم يبقَ فى أبو زعبل سوى المتهمين فى المحاكمتين... ولا أظن أنه سيفرج عنهم قبل صدور الأحكام... يريد أن يتم تكميم الشيوعيين... علينا أن ننتظر قبل أن نحكم على السياسة الداخلية التى سيتبناها...".

وهكذا تبخر أملنا فى إطلاق سراح إنجى بمناسبة أعياد الثورة. هى أيضا متهمة "بمحاولة قلب النظام". نصحنى ضابط فى المباحث بالتوجه لمحكمة الدولة العليا.

(٢١) كان شهدى من قيادى حزب الحركة للحريات الوطنية، الذى تبنى خطى مختلفة عن الحزب الشيوعى. ولهذا رغم التهديدات والضرب ظل شهدى يصرخ: "يحيا عبد الناصر!". لكن مع هذا لم يوقف الضرب هؤلاء المجانين وقضى نحبه.

وهمس لى وكيل نيابة شاب: "أظن أن المحاكمة لن تقرر قبل أكتوبر... الإجازات على الأبواب...". توجهت إلى الميتر عبد الله وأنا فى غاية القلق، ووافق المحامى الكبير على الدفاع عن أختى.

وراح يحدق فىَّ بعينيه السوداوين الماكرتين من وراء النظارة التى تنزلق من على أنفه: "لا داعى للاستعجال يا مدام جلبيرى.. اهدئى... سأذهب من الغد إلى المحكمة لأعرف إن كانت عريضة الاتهام نشرت. وإن كان سأطلب الإذن بمقابلة أختك... نعم أعلم أنك تودين رؤيتها... سأقوم باللازم... هل تمكنت من مقابلة دكتور إسماعيل؟ كيف حاله؟...".

تلقيت مكالمة تليفونية فى صباح الغد بينما كنت أتأهب للخروج علمت على إثرها أن إنجى فى قصر العينى!

"ستتعرفين على العساكر... إنها فى انتظارك اليوم...".

بين السعادة والخوف من أن أطرد من المكان بقى لى رغم كل شىء قليل من الصفاء للتفكير. جمعت بعض النقود واشتريت بعض الحلويات من عند سيمونس، وسجائر وارتميت داخل تاكسى. ماذا أقول للحراس عند البوابة؟ اقترب أحدهم من باب السيارة ابتسم لى ثم سمح للسائق بالدخول إلى باحة المستشفى. جيد! لن أضطر للمشى، المسافة الطويلة فى اتجاه المبانى التى أصبحت أعرفها جيدا!

"الله معاك" قال السائق. "الله يشفى كل المرضى!".

عرفت عند رؤية زى العسكرى الصيفى كبقعة بيضاء من بعيد، أننى وصلت إلى الهدف المنشود. وفهمت من مرور امرأة من وراء قضبان النوافذ الكبيرة أننى أمام عنبر السجينات. وها أنا أتقدم بحذر. أنظر حولى مستعدة للاختفاء عند استشعار أى خطر. المخبر قد يتعرف على. يقال إننا أنا وأختى فينا ملامح متشابهة. وفجأة لمحت امرأة تلوح إلى. انتصب العسكرى واقترب من النافذة التى طلت منها أختى. تفاوضت قليلا

معه. أما أنا فتسمرت مكاني مرتابة وتابعت الموقف. استدار نحوى ونادانى: "أنت! تعالى... سلمى عليها... دقيقتان فقط...".

التصقت إنجى وهى تبتسم بالقضبان حتى أتمكن من رؤيتها. أما أنا فوقفت على أطراف أصابعى. رمت لى قبلة: "أنا هنا لبعض الكشوفات... اسمعينى جيدا". وراحت تنظر وراءها. "الزميلات يتولون الحراسة... والشرطى المناوب لا يبرح باب العنبر. لقد دخل هنا مرتين. قذر... ماذا جلبت لى؟ سجائر؟ سلميها للعسكرى سيوصلها إلى. احتفظى بالحلويات. وأرسليها مع فاطمة ومعها وجبة. ستتصرف. قولى لها أن تأتى إلى هنا سننتظرها. لى حق فى زيارة. قدمى الطلب غدا... وأخبرينى عن المحاكمة...". ظهرت وراء أختى فى هذه الأثناء امرأة شابة ذات وجه حاد المعالم: "صباح الخير! هيا يا إنجى الرجل آت، بسرعة يا بولى ارحلى!".

"مع السلامة" همست إنجى. "أعطى جنيهين للعسكرى مع السجائر ولا تأتى قبل موعد الزيارة. الوضع خطر فى الوقت الحالى...".

نجحت فاطمة فى تسليم أكل يكفى عدة أشخاص. وبعد يومين تسلمنا أنا وماما تصريحا بالزيارة.

كانت نحيلة وبشرتها ملتهبة. تضحك كثيرا. بدت على راحتها فى هذه القاعة الواسعة بأسرتها الستة ودواليبها الثلاثة من الحديد الأبيض. قدمت لنا زميلاتها الثلاث. "من فضلك يا بولى احكى لإنجى الأفلام التى تشاهدين. طريقة سردك جميلة...".

"نحن فى الجنة هنا". ثم سحبت إنجى دخان سيجارتها. "نتمنى البقاء هنا أطول وقت ممكن. على العموم قالت لى دكتورة النساء البارحة إننى أعانى من التهاب فى المبيض! ماميشكا لا تقلقى هكذا الموضوع ليس خطيراً. أعطتنى علاجا طويلا. هل علمت أن عريضة الاتهام نشرت؟".

تسلم المحامى نسخة وطلب مقابلتك... أظن أنه سيأتى هذا المساء، إنه متفائل، وأكد لى إن لم تتدخل أية سلطة سيتحصل على البراءة...".

"ونصفك الثانى؟..." خفضت إنجى صوتها. الشرطى الذى يرافقنا خلال هذه الزيارة طلب طبعا أن نتحدث بالعربية. انصعنا ولكننا تمكنا من إدخال بعض الجمل بالفرنسية فور اختفائه. "قابلت إسماعيل منذ ثلاثة أيام، إنه بحالة جيدة... تم فتح البوفيه وسيزورهم أطباء بصفة دورية. أما الشتائم والتحرشات فتوقفت...".

قطبت إنجى حاجبيها واكتست الحدة وجهها، وراحت تسحب دخان السيجارة بشدة ثم حركت يدها كأنما أرادت أن تبعد القلق، وابتسمت.

"هذه أنباء مطمئنة. ومتى ستلتقين به؟ فى أغسطس؟".

مرت ثلاثة أيام دون أخبار عن إنجى، لكن فاطمة كانت تذهب كل مساء محملة بالأكل. "عندما وصل الضابط المناوب كان مزعجا. لكن الحمد لله أخذ الأغراض. يهيأ لى أن فى عنبر الرجال مريضًا فى حالة خطرة. والله! كانوا يسرعون ويدخلون العنبر. وخرجت ممرضة وفى يدها ثياب ملطخة بالدم! وأخرى كانت تصرخ إن أنبوبة الأكسجين لا تعمل!...".

وبعد مرور خمسة أيام نهشنى فيها القلق بخصوص هذا المريض المجهول، أخبرتنى فاطمة أنها تمكنت من لقاء أختى لمدة دقيقة.

"هى بخير. فى انتظاركم غدا فى قسم أمراض النساء. وأعطتنى هذه الرسالة لحضرتك...".

لم تكن رسالة بل تقريرا تفصيليا عما حدث: توفى سيد أمين عبد العال مناضل نقابى وعامل فى النسيج، عضو اتحاد نقابات الظاهر، ست وخمسون سنة، متزوج وأب لطفلة عمرها اثنتا عشرة سنة. اعتقل فى مارس تسعة وخمسين فى سجن الفيوم. كان سيد يعانى من قرحة فى المعدة ويتقيأ الدم باستمرار. عانى سبعة شهور قبل أن تقرر

سلطات السجن نقله إلى المستشفى. عولج وتحسنت حالته. ثم تلا هذا السرد شرح إكلنيكى بتطور المرض وبالعلاج الذى وفره المساجين للمريض. "نحن النساء الثلاث والخمسة رجال لم نفارقه...". وحاول الأطباء والمعتقلون إقناع الشرطى للسماح لزوجته التى كانت تنتظر فى الخارج قرب النافذة، بالدخول وتقبيله مرة أخيرة. لكن الرجل الغبى والجبان رفض "لأنها لم تكن تحمل تصريحا رسميا".

طبقت الورقات التى خطت على عجالة وأنا أبتلع ريقى بصعوبة. ما هذا الإهمال وهذه المعاملة غير الإنسانية. إنه موقف متعمد تجاه المعتقلين الشيوعيين. قبل هذا أوشك رفيقان على الموت عام ١٩٥٩ فى الواحات بسبب عدم توفر العلاج. لكن لحسن الحظ أنقذهم دكتور من بين المعتقلين. كان يمكن أن يلاقيا مصير سيد نفسه. سأكتب قصة وسأهديها لهذا المجهول سيد.

٢٠ سبتمبر... أعيش أسبوعا هادئا فى الإسكندرية. البحر والسباحة مع زوزو أنعشانى. وتناولنا العشاء عند بيترو وفى السانتا لوتشيا. أحب أولادها كثيرا. وقدمت فور عودتى طلبات زيارة والتقيت بأصدقائى العائدين من إجازاتهم. الغائب الوحيد هو ماما التى اشتقت إليها كثيرا.

بدا لى إسما فى حالة أحسن من المرة السابقة. وتمكنا من الحديث لمدة عشرين دقيقة. كان هذا ممتعا! وها أنا بدأت أنتظر زيارة أكتوبر! كما أننى رأيت إنجى مطولا دون أن يقاطعنا أحدهم... وعدت إلى البيت فى حالة نشوة. أختلى بنفسى، أقرأ وأكتب أيضا. أنا راضية عن إنتاجى. أشعر أننى فى حال أفضل، ولم أعد أشعر إلا نادرا بضرورة البحث عن ملاذ فى السينما أو لدى صديقة.

٣ أكتوبر... طلب ضابط من أحد العساكر إخبار إسماعيل. جاء حاملا وردا فى يديه! أهدى واحدة لأخته وأخرى لى. ضم يدى إلى يده وهو يحدث والدته الرائعة فى إبائها. وطلب منى أن أبلغ إنجى ألا تتخلى عن شجاعتها... "كم أنت أنيقة" قلت لى.

كنت تبتسم من السعادة. وعندما حان وقت الفراق ابتعد الضابط وكذا والدتك وأختك ليمنحونا بعض الخصوصية. وقلت لى إنك سعدت برائحة عطرى التى وجدتها على علبة النظارة التى أرسلتها إليك. وطلبت منى أن أضع قليلا منه على علب الأدوية فى الطرد المسموح به شهريا. كما طلبت منى ألا أصبغ شعرى حتى لا أضيع لونه الطبيعى. كنت تحب خصلتى البيضاء... تفاصيل كثيرة أشبعتنى سعادة. كنا متأثرين كما لو كنا مراهقين. وعدت إلى بيتى حاملة الباقة الثمينة التى أسرعت بوضعها فى زهرية. وعلمت من آخرين أنك أنت الذى زرعت الورود. هذا الصباح قمت ببعض المشتريات لك ولأختى. ثم طالعت قليلا. لن أخرج إلا بعد حين.

٨ نوفمبر... اشتغلت جيدا هذه الأيام. بصورة غير منتظمة. لكنى راضية عن لقائى بسيمون دى لا كوتير. كانت قد قرأت وأحبت شعرى وسألتنى إن كنت لا أزال أكتب. فسلمتها قصتى القصيرة الأخيرة "القمر على بابنا" وجدتها جيدة وستنشرها فى مجلة "دراسات متوسطية".

...انتابنى قليل من الحزن وأنا أقرأ مقال أ. بابادوبولوس فى مجلة القاهرة "الكتاب العرب باللغة الفرنسية". لو فكرت فى أن أرسل إليه شعرى المنشور عند سيجيرس! لو...! إنها غلطتى نوعا ما.

تتم الزيارات إلى أبو زعبل فى الأيام العشر من أول كل شهر. وبما أننا لم نتمكن من الاحتفال بعيد زواجنا مع بعض يوم التاسع والعشرين. ذهبت هناك يوم ٣ نوفمبر ومعى بالإضافة إلى علبة الأكل تورتة كبيرة غرست فيها تسع شمعات وكتبت عليها: "إسماعيل- بولى تسع سنوات من السعادة. كان إسماعيل عائدا من المحجر يسبقه اثنان من العساكر. لكن لسوء الحظ ظلّ المدير الجديد وأحد العساكر معنا. أظن أنهم فرغوا لتوهم من دورة تفتيش ولم يجدوا ما يتلهون به سوى أن يستريحوا بقربنا. كانوا يتحدثون بصوت عال وهم ينظرون إلينا. لكننا تمكنا من الكلام رغم هذا. لم أفهم لماذا استمر إسماعيل فى الذهاب للمحجر؛ فشرح لى أنه ظل يكسر الحجارة ليتحدى

ضباط المباحث. إذ قدم هؤلاء السادة أوراقا للمعتقلين وطلبوا منهم التوقيع عليها مقابل الحصول على معاملة أفضل و على تسريح في المستقبل القريب. ورفض زوجي هذا العرض المهين وكذا فعلت أختي. وعلمت أن معتقلا واحدا فقط رضي بالعرض.

الإشاعات التي تصلنا جيدة. هل لي أن أتفاءل؟ على أن أتحلى بالهدوء والشجاعة لمواجهة الأحكام التي ستصدر قريبا.

لكن دائرة التفاؤل لم تكتمل إذ علمنا أن إنجي ستمثل أمام المحكمة يوم ١٩ ديسمبر. كنت آمل بغباء أن المحاكمة ستلغى. زد على هذا أن المحامي غير راض عن القاضي الذي تم اختياره. وها هو يحاول التهدئة من روعي. اعتقالها مع أحد أعضاء الحزب الشيوعي ومتنكرة في زي سيدة شعبية قد يحسب ضدها. تحتفظ أمي في الوقت الراهن بشجاعتها وهدوئها. هي تدرك مدى الخطر الذي تتعرض له ابنتها لكنها تأمل في البراءة.

وصلتني رسالة من إسما ملأتني سعادة، ستساعدني على تحمل هذه الأيام المثقلة بالتساؤلات. قامت ليليان بترجمتها لي ونقلتها كلمة بكلمة في كراستي: "إن أجمل الأيام هي التي لم نعشها بعد...". أتذكر طبعا. ناظم حكمت وبابلو نيرودا وغيرهم ممن اكتشفناهم في باريس.

كلما اقترب موعد المحاكمة ازدادت أمي عصبية. وعلى مثل عادتها في هذه الأحوال تنفس عن نفسها بالصراخ في وجهي. أحاول أن أتحمل وأخمن أنها تعاني من مشاكل مادية. وتيرة العيش التي تصر عليها، الطباخ والسفرجي ومديرة المنزل وعامل النظافة والمكوجي والغسالة... كل هذا يمثل أعباء مالية كبيرة. وهي في الوقت نفسه ترفض إغلاق بيت الأزياء مع أن عدد الزبونات في تضاؤل. من جهة لأنهن لم تعدن تخرجن مثل ذي قبل، ومن جهة أخرى لأنهن تأثرن بالإصلاح الزراعي وقوانين الحراسة. وعلمت أن ماما تخسر أكثر مما تربح. لكنها عنيدة...

عند اقتراب موعد المحاكمة ظهرت سيزا نبراوى فى الصورة وصممت على الحضور. سألت إنجى عن رأيها فى المسألة وهى التى نصحتنى من قبل أن أقلل مجال احتكاكى بصديقتها الكبيرة قدر الإمكان.

"لما لا" ردت إنجى. "لو أرادوا اعتقالها لفعلوا منذ زمن. سأسعد كثيرا برؤيتها!..". أما أنا فأظن أن وجودها سيكون له ربما وقعه على القاضى.

-٨-

وهكذا التقينا يوم التاسع عشر من ديسمبر أنا وصالحة أفلاطون وسيزا نبراوى أمام السلم الخارجى لباحة محكمة أمن الدولة فى الساعة الثامنة. ولحق بنا المحامى. "صباح الخير، صباح الخير". صافحنا واستغرق فى النظر إلى السيدة ذات الشعر الرمادى، "طبعا أعرفك يا مدام، أنت فارسة كل القضايا الجميلة... تعالوا اتبعونى...". قادنا ميتر عبد الله داخل صالة مكتظة، الرجال كلهم بجلاليب والنساء بملايات سوداء.

"من هنا" قال المحامى وهو يشير إلى مقاعد شاغرة فى الصف قبل الأخير. "مدام إنجى لن تتأخر. لم يرتد بعد ثوبه ويده تحمل شنطة ضخمة من الجلد القديم، واختفى.

"يا لها من قاعة كئيبة!" قالت سيزا هانم بصوت منخفض وأضافت "يا له من بؤس!".

"هل سيمر كل هؤلاء الناس قبلنا؟...". ها هى ماما بدأت تتململ. أنظر إلى هؤلاء المساكين الذين بالكاد استداروا نحونا. كلهم منشغلون بهمومهم. صمتنا ورحنا نتابع الحركة حولنا. النافذتان العاليتان ذاتا الشيش الموارب تضيئان بالكاد المشهد. كل شىء حزين ومترب وقذر. حتى المحاكمات. دعارة، وبسرقات صغيرة، وزنا، وطلاق. محاكمات تتم فى عجالة وتليها زغاريد أو صراخ وشتائم وبكاء. نسمع دون أن نفهم الكثير.

وها هى إنجى! يرافقها أحد المعاونين. تندفع نحونا. وبينما هممنا بضمها ومعانقتها لاحظت نظرات الاستغراب حولنا. جلست إنجى قريبا من المنصة. صدرت

كثير من الأحكام. أختى تدخن دون توقف وتعض على شفتها السفلى. وأخيرا فى تمام الساعة الثامنة استدعيت إلى المنصة. لكن محاميها طلب التأجيل ليوم ٢٢ ديسمبر. وافق القاضى ورفعت الجلسة.

٢٣ ديسمبر... أحاول أن أكتب عن هذه الساعات داخل المحكمة. قال لى ميتر عبد الله الذى زرته بالأمس إنه متأكد من مرافعته. "أتمنى فقط ألا تحصل مفاجأة!...". سببت لى ملاحظته الأرق ولم أنم طوال الليل. دخلنا الصالة الكئيبة فى تمام الساعة التاسعة والنصف. ولحقت بنا إنجى وهى مبتسمة وهادئة ومتأنقة. تم منادتها فى العاشرة. واستفاض وكيل النيابة فى وصلة اتهامات طويلة ضدها. كانت أمى فى غاية الغضب وكان على أن أحثها باستمرار بألا تحتج بصوت عال. وأخيرا جاء دور محامينا ليتكلم. طبعا لم أفهم الكثير لكن خطابته جعلت الناس الذين ينتظرون دورهم، يركزون فيما يقوله وينظرون إلينا. مرافعة ذكية ودقيقة وجريئة. "تمام" قالت سيزا هانم عندما جلس المحامى. حظينا باستراحة شربنا خلالها القهوة مع إنجى وتحدثنا. اقترب منا المحامى معلنا أنه سيفرج عن إنجى. فتسلل التفاؤل إلى. وبدت ماما وسيزا وقد عادت إليهما السكينة. لم تلاحظ أية منا أن وقت الغداء قد فات. كنا فى حالة انتظار قصوى متمسكات بتلابيب سؤال وحيد: الحكم.

كانت الساعة الرابعة عندما نودينا. وبدأ القاضى فى إصدار حكم إفراج عن متهم مريض ومنعنا الضجيج وصيحات الفرحة من سماعه وهو يتوجه بالكلام لإنجى. اتكأ على الطاولة وقضب حاجبيه وكأنه يوبخها كما لو كانت طفلة. سمعت أحد الجالسين قربى يقول: "إفراج مبروك!" وآخر استدار نحونا وقال: "سنة ونصف" سيفرج عنها بعد أسبوع...". طنين كان يملأ أذنىّ ورأسى عندما فهمت أن الحكم صدر. انتهى الأمر. غادرنا القاعة فى اتجاه المحامى وإنجى. وجهها يعبر عن الضياع. وأخبرنا ميتر عبد الله أنه حكم عليها بسنتين سجن! سيطلق سراحها بعد أسبوعين! طبقا للقانون

الجنائى سنة سجن تعنى تسعة أشهر. هل سيطبقون القانون الجنائى على أختى؟ الأمر غير أكيد. سأحاول الاستعلام عن الموضوع غدا. "آه يا أختى لو تمكنتِ من الوجود فى البيت بمناسبة رأس السنة!...".

لم يطلق سراح إنجى أفلاطون واللجنة الطبية فى قصر العينى قررت أنها شفيت وأن عليها مغادرة المستشفى.

ألم أعتد بعد على العيش في عالم عبثى حيث الممكن يجاور المستحيل؟

"كنت متأكدة" قالت أمى التى كانت فى انتظارى بهدوء "كدت أن أشترى وردا... إذن ستعود أختك إلى القناطر؟". لم ترفع رأسها نحوى ثم أردفت: "ماذا بعد معكم؟".

صعدت إلى غرفتى دون كلمة وبكيت. أكتب رسالة لإسما بالفرنسية بعد آخر لقاء لنا فى أبو زعبل.

"تعلمت من البداية معك أنك تطلب شيئا جوهريا من الإنسان: أن يحترم نفسه. أن يسير فى الحياة فى تطور مستمر. لقد حاولت دائما أن تقوم بأفضل ما يمكنك القيام به... أشكرك على النموذج الذى تقدمه لى. على أن أقول لك فى المرة القادمة إننى تلقيت ثناء على شجاعتى وإننى تجرأت على الرد: عندما تكون الواحدة زوجة رجل مثل إسماعيل لا يمكنها أن تتصرف بطريقة أخرى... هذا الثناء ملأنى فخرا وسعادة من أجلك. ارجع إلى قريبا لتأخذنى بين ذراعيك، لتحبنى ولأحبك...".

نستمر فى رؤية إنجى وفى إرسال طبق الأكل. لكن على أن أحارب على جبهة السلطات حتى أتمكن من الحصول لها على تصريح بالرسم. استطاعت أختى فى النهاية أن تعمل تحت الشروط غير المفهومة نفسها. ومن حين لآخر تتمكن من أن ترسل لى بعض لوحات. روائع!

رأيت إسما يوم ٢ يناير. كان شكله متعبا. يعانى من ألم فى الأمعاء. زيارة طويلة وممتعة. داعبته بخصوص جملة كتبها فى رسالة سابقة فقال: "صحيح أحبك أكثر من زمان...". انتعشت من السرور وشعرت بفخر كبير. ابتسمت لكننى كنت أسخر من نفسى. الإعلاء من مشاعر الآخر مع نوع من الاعتراف بالجميل؟ لا يمكننى أن أقبل بهذا. أريد حبه. كل ما أتمناه هو أن أكون مرغوبة عند عودته. الوقت يمر والتجاعيد على الأبواب. لا أتصـــور أننى ســأبلغ... سنة يوم ٢٤ يناير. أرفض أن أكــتب هذا الرقم.... القلق قابع فوقى مثل الهالة... لأننى سأبلغ هذه السن من دونك.

تبدأ مصر فى هذه الأيام من أوائل ١٩٦١ صفحة جديدة من تاريخها. امتدت التأميمات إلى كل فروع الاقتصاد ووضعت أملاك العائلات الكبيرة التى لم تتأثر حتى الآن تحت الحراسة.

إجراءات تزعزع أسس المجتمع المصرى المكون من شرائح كبيرة من الرأسماليين وملاك الأراضى. تنشر الجرائد قوائم طويلة لحسابات بنكية حتى يعلم القراء بمدى ضخامة الثروات التى يملكها هؤلاء "الرأسماليون الرجعيون".

اختبأ بعضهم من الرعب بعد أن علموا باعتقال عدد منهم. انتقل البعض الآخر ممن وضعت قصورهم وفللهم تحت الحراسة للعيش فى شقق وخفضوا مستوى معيشتهم. وبدأوا عند لقاءاتهم يغذون الحنين لهذا الماضى القريب وهم يتنهدون. واستمر، رغم هذا، الجميعُ فى تناول العشاء فى نادى السيارات واحتساء القهوة فى الجزيرة حتى مع وجود "أناس قبيحة" على النجيلة أو على التيراس.

وحالما مر الفزع عاد الجميع إلى المآدب والعشاء بين الأصدقاء وإلى الأمسيات والشاى والبيتى فور.

أيام بعد اعتقال بعض الإقطاعيين استقبلت أمى بعض الأصدقاء تأثر كثير منهم بالإجراءات الجديدة. لم يكن لدى ما أقوم به فوافقت على المكوث مستسلمة. وفى الوقت الذى اقتربت منهم وأنا أمد يدى أخبرنى فايز بابتسامة ساخرة: "هل تعلمين من اعتقل

مع محمد شعراوى وفؤاد سراج الدين باشا؟ شهريار راتب!...". ضحكوا وهم يرون الجزء الذى ظهر على وجهى.

"هذا مستحيل! أنت تسخر منى! شهريار لم يهتم أبدا بالسياسة، الخيول هى كل ما يهمه!...".

"أنتم تعرفونه جيدا، أليس كذلك؟".

"طبعا! هو وإخوته من أصدقاء الطفولة. تربينا تقريبا معًا... لا أفهم... لم نلتق منذ فترة. هل كان يمارس السياسة؟ أشك. كل ما أعرفه أنه الآن مطلق... غير معقول...".

"يبدو أن أحد ضباط البوليس السياسى زارهم فى السجن ليعرض عليهم صفقة...".

"التوقيع على تعهد بعدم ممارسة السياسة".

"وأنكل فؤاد باشا رفض...". قالت ابنة أخته بفخر.

"وطردهم محمد شعراوى وهو يصرخ ورماهم بوابل من الشتائم". استرسل فايز.

"أما شهريار وهو أصغرهم فلقد كان رائعا! رفض التوقيع... وقال لهم إنه لا يفهم لماذا هو فى السجن وإنه لن يوقع على شىء ما دام بين القضبان..." سئمت من سماعهم يثنون على أصدقائهم. كلما التقوا بى طلبوا منى أن أقنع زوجى وأختى بالتوقيع! فأوقفتهم قائلة: "إذا فهمتكم جيدا أنتم معجبون بهؤلاء الناس وتوافقون على موقفهم الشجاع والأبى. إذن لماذا تقترحون علىّ أن أقنع إنجى وإسماعيل بالعكس؟...". نظرت إليهم واحدا واحدا وأنا أبتسم. حل السكون والإحراج. فسأل فايز: "هل رأيت أختك مؤخرا؟ ربما التقت بشهريار....".

"زرتها قبل وصول كل هذا الحشد. من المؤكد أنها لم تلتق به. سجن الرجال منفصل...".

"هل يعلم أحدكم إن كان السجناء الذين مع إسماعيل ممن وقعوا قد أفرج عنهم؟...".

"لا لم يفرج عن أى أحد من هؤلاء الجبناء. أعلم فقط أنهم يحظون بمعاملة أفضل من الآخرين".

خلال زيارتى التالية لإنجى، قصت لى كيف عرفت بوجود صديق الطفولة فى سجن القناطر.

"تصورى، أمُّ السجانة أخبرتنى أن هناك شخصا كلفها بإلقاء التحية علىَّ... رجل شاب طويل القامة نحيف وأبيض البشرة... ونسيت اسمه! وعندما ألححت عليها قالت إن اسمه صعب مثل أسماء ألف ليلة وليلة. طبعا فكرت فى شيكو ونطقت اسمه. فضحكت وقالت نعم شهريار وطلب منى أن أبلغك كل تحياته... هل تعلمين لماذا اعتقلوه؟".

لا، لا أعلم. لماذا أوقفوا الآخرين؟ "محمد شعراوى مثلما قال فايز كان يسترسل فى شتم عبد الناصر علنا وبصوت عال. أما فؤاد سراج الدين الباشا مثلما كان يناديه أصدقاؤه وعائلته لم يكن له نشاط سياسى يذكر منذ أن حل الوفد. هذه الاعتقالات غير مفهومة. أما الوضع تحت الحراسة فيتماشى مع التأميمات. لكن لا يزال عدد الذين يملكون ثروات ضخمة كبيراً. يبدو أن السلطات تفضل سياسة الحذر.

-١٠-

ها هى إشاعات الإفراج تتسارع نحونا مثل الأمواج التى ترتمى على الشاطئ... الظروف مشجعة. موت باتريس لومومبا أثر على أعضاء عدم الانحياز. والتنديدات تعالت فى العالم بأسره... وفهمت من إسماعيل أن موقف الحزب سيظل مثل موقف أصدقائنا السوفييت وبلدان الكتلة الشرقية فيما عدا بعض الفوارق.

مات ملك المغرب محمد الخامس، هل سيتبع ابنه السياسة نفسها تجاه أفريقيا؟

قطعت بلجيكا علاقتها الدبلوماسية معنا، لماذا؟

شهد شهر مارس الإفراج عن عدة أشخاص. ولم تستفد أية امرأة من هذا الإجراء. يقال إن مرض أبو كعيب انتشر فى أبو زعبل ومنعت الزيارات مؤقتا. كان ضباط الإدارة فى غاية السوء معى.

تمكنت من رؤية إسماعيل يوم ١٦ . زيارة جميلة. تحسنت صحته واستطاع أخيرا أن يحكى لى كيف أصيب فى رأسه. غطى الشعر، بما أنهم توقفوا عن حلق رؤوسهم، تقريبا الإصابة. فهمت كيف تحمل الضرب. حضور الضباط والمساجين بينما الحية المتوحشة تضرب بشراسة شجعه على التماسك. مما ساعد الشباب والآخرين. أولئك الذين كانوا فى أعماقهم يتساءلون إن كانت المقاومة ذات جدوى فهموا أن إسماعيل كان يلوى أذرع الوحوش. واستعادوا كرامتهم. أفهم الآن كيف مر أكثرهم شجاعة بمراحل من الاكتئاب وخيبة الأمل. بعضهم لا يزال مكتئبا وضائعا. والبعض الآخر تمكن من اجتياز المحنة واستعادة وجهه الحقيقى.

كما أدركت معنى كلمات عجيبة مثل: "لم أتألم بصفة خاصة. كنت أقبض على يدى وأجز أسنانى حتى لا أصرخ. كان هذا بمثابة تجربة رائعة وإيجابية...". وتمكنت من أن أعبر له عن إحساس يحيا بداخلى. إن وجوده يمثل بالنسبة لى ليس فقط مصدر سعادة لكن مصدر قوة، وإن هذا هو سبب شجاعتى أثناء الأوقات العصيبة. وإننى كنت أتمنى أن يظل دائما قبالة نفسه والآخرين مثل ما كان دائما: نقيا وصادقا.

أثر فيه هذا كثيرا. وعندما حان وقت الفراق قال لى بابتسامة خجولة؛ لأن الضابط كان ينظر إلينا، إنه يفكر فىّ دائما، خاصة هذه الأيام: "إنه الربيع...".

٢٦ مارس. زرت أختى هذا الصباح. إنها بحالة جيدة. أنا مندهشة من شجاعتهما، ومن حبهما للحياة ومن صفاء ذهنهما.

يجب أن أجرى عملية الزائدة! محنة أخرى! لن أخبرهم الآن...

عدت إلى البيت من دون الزائدة. على أن أرتاح بضعة أيام قبل موعد زيارات أبريل. أنعشنى تليغراف إسماعيل الذى وصلنى وأنا فى المستشفى. علىّ أن ألقى نظرة على ملابسى الصيفية. بدأ الجو يميل للحرارة.

حصلت على تصريح زيارة لإسماعيل، وفشلت فى الحصول على واحد لإنجى.

"أختك معتقلة ولم تعد تحت سلطتنا... ربما فى المباحث...". واستدار ليهتم بحالة أخرى. طنين فى أذنىّ وأكاد أفقد توازنى، وشعرت بيد على كتفى: "ما بك؟ أنت مريضة؟".

"لا، شكرا. أنا بخير...".

ثم أحسست بغضب جعلنى أنطلق فى نزول سلالم إدارة السجون متجهة إلى ميدان التحرير. عبرت الشارع المؤدى إلى مكاتب المباحث. ماذا عساى أن أفعل؟ دخلت إنجى مرة أخرى تحت بند المعتقلين. أشعر بتعب لكنى أستمر فى المشى. ما كان على

أن أثق فى الإشاعات، أن أسمح لنفسى بالأمل. ازدادت شراسته ضد الشيوعيين مع أنه فى الوقت نفسه يضع الإقطاعيين والرأسماليين تحت الحراسة. لم يعد هناك مكان سوى لبرجوازية الطبقة الوسطى.

كيف سأخبر أمى. لم أزر هذه المكاتب منذ زمن. أعرف الشرطى المكلف بالرد علينا. ألقى التحية ببرود. أشعر بقليل من البرد رغم أن الجو حار.

"نعم! ماذا تريدين؟" ثم غرس جسمه فى الكرسى. طلبت مقابلة المسؤول عن الزيارات فى سجن القناطر.

"لا نمنح زيارات للمعتقلين. اذهبى لإدارة السجون. الضابط غائب... غدا ربما...".

ورحلت دون كلمة. هل إنجى تعلم؟ هل أبكى أمام المارة؟ ركبت تاكسى لأعود إلى البيت. هذا لا يبشر بخير.

(٦)

سنوات الرمل

-١-

"فؤاد: عشر سنوات، زوجك ثماني، ميستو: سبعة، عادل ومحمود: سبعة...". قالت لي أمي التي كانت تتابع الموقف: "ستقعين على الأرض، اجلسي...". فقلت وأنا أمسك بالسماعة بشدة: "ألم يفرج عن أحد؟".

التقى نظري بأعين أمي المتسائلة والقلقة. انهمرت في البكاء:

"حكم على إسماعيل بثماني سنين... ثماني سنين!". هرولت نحو غرفتي وأغلقت الباب. غرقت في الدموع. ما هذه الأحكام القاسية. تجربة جديدة، محنة جديدة ستطول. لا أشعر أن لي الشجاعة لمواجهتها. أنا منهارة لم يعد لي طاقة. وثريا؟ كيف سأخبرها؟ أنزلق في فوهة لزجة حيث تلصق الأسئلة ببشرتي مثل العلاقة. لا يا بولي تماسكي وكوني التي يظنها إسما. عليَّ أن أطلب تصريح زيارة في أقرب وقت ممكن. بعد صدور الأحكام سيرسلونهم إلى الواحات. ليس لدي أدنى شك.

سأغسل وجهي، وأضع كمادات الشاي على جفوني كما كنت أفعل زمان قبل أن أخرج للسهرة. عليَّ قبل ذلك أن أكلم ثريا وتانت وديدة وداتي. ستمران عليَّ للذهاب إلى إدارة السجون. بما أنهم حكموا عليهم فليسمحوا لنا على الأقل بالزيارة.

الحمد لله! كامل يعرف، وأخبرني بنبرة الصوت تلك التى يتحلى بها كلما كان عليه أن يعلن خبرا سيئا، إنه أخبر زوجته التى تبكي مثل المجنونة.

"قبلها نيابة عني وقل لها إنني ذاهبة الآن لطلب تصريح زيارة".

-٢-

فى هذا الصباح، الثامن من يوليه ١٩٦١ تبكى عائلات المتهمين مصير الأبناء والأزواج والأخوة الذين سيواجهون هذه العقوبات الثقيلة. هرعت إلى مكاتب إدارة السجون للتأكد من الأحكام وطلب تصاريح زيارة.

"الله يعلم أنه لا يستحق هذه العقوبة الطويلة!".

"غير معقول. أكيد، إنها إشاعة!".

"لماذا يا ربى؟ ما هو الذنب الذى اقترفه؟".

"كم سنة أخذ زوجك؟".

"وابنك؟... الله أكبر...".

تحاول تانت وديدة المتورمة العينين أن تُهَدِّأ من روع امرأة شابة فى حالة انهيار تام. تصرخ وتلطم وجهها وتشتم. اقتربت منى صديقتان وبصوت خافت: "يبدو أنهم سينقلونهم للواحات...".

"يرفضون منحنا تصاريح".

"قدمتم طلبات؟" "نعم رفضوا. يقولون إنهم فى انتظار الأوامر...".

"لا فائدة. هيا بنا... صباح الخير يا سعاد! هل رأيتِ؟...".

"الله أكبر! ألا يوجد تصاريح؟... أنا أقترح أن تكتبوا للواء هلال. نعم والله! أليس هو رئيس المحكمة؟".

"صحيح..." قلت. هيا بنا نعود إلى البيت.. وعلى كل واحدة أن تكتب رسالة للواء هلال... سنقدمها للمدير... لن نخسر شيئا... علينا أن نحاول رؤيتهم قبل أن يغادروا...".

٢٣ يوليه ١٩٦١ ... أحاول أن أترجم مشاعرى إلى كلمات على ورق. أجد صعوبة فى التعود على وضعى الجديد. علىَّ أن أكتب حتى لو كان ذلك مؤلما. سنتا العذاب الماضيتان لم تذهبا هباء.. لا أعرف بعد إن كانوا أرسلوهم للواحات. لم أستفق بعد من الصدمة. الكلمات تتزاحم فى ذهنى. كلمات مؤلمة وموجعة وهى تنطلق خارج ذاتى فى فوضى تامة... فى الوقت الحالى أنا سأحارب مثل الآخرين للحصول على تصريح.

... عندما أسترجع حالى، وصورتنا نحن -الاثنين- وأدرك أننى أكبره بأربع سنوات، أخاف. اليوم جسمى ما زال جميلا وبشرتى متماسكة وناعمة. أعلم أننى لا أزال أثير الإعجاب عندما تقع علىّ الأنظار... لكن هو؟ ألن يلاحظ فى كل زيارة مرتين أو ثلاثة فى السنة، آثار السن علىَّ؟ هل سيرغب فىَّ؟ هل ستدمع عيناه كما اعتادت، كلما لمسنى؟ ربما فى الأيام الأولى بسبب ظمئه إلى المرأة. لكن بعدها عندما يشبع رغبته سيجد أمامه رفيقة ذابلة والشفقة وحدها هى التى ستقود أفعاله... هذا خوف آخر...

هل سيصمد حبنا أمام هذه المحنة الطويلة؟ هل سيكون إسماعيل عند إطلاق سراحه الرجل نفسه الذى فارقنى فى الأول من يناير ١٩٥٩؟ كيف سنلتقى؟ عندما كنت امرأة سعيدة وهانئة فكرت أحيانا أن إسماعيل ربما قد يكون له علاقة عابرة! وكنت أتساءل وأنا أشعر بغصة كيف سأتصرف لو حدث أمر كهذا... كم يبدو هذا بعيدا الآن. الستار نزل فجأة وحبنا فى خطر... وأعود وأقول لنفسى أمورٌ كثيرة تربطنا: احترام متبادل، وإعجاب، وولع بالفن والأدب... وإن كان إسماعيل قد ضحى بصحته وبحياته يمكننى أنا أيضا أن أضحى ببضع سنين من الشباب فى انتظاره.

زارنا ضابط، من أقرباء كامل. طلب منى عشرة جنيهات لإسماعيل. "من فضلك أرجوك لا تكلمى أحدا عن زيارتى". قال لى وهو يضع النقدية فى جيبه. "حالما أعرف متى سيرحلونه سأكلم حضرتك".

لكنه كلمنى بعد هذا بأيام، وقال إن إسماعيل طلب عشرين جنيها. وإنه علىّ أن أسلمه إياها الساعة الثانية عشرة أمام جروبى سليمان باشا. رفض المجىء إلى البيت. توجست لأن إسماعيل لم يطلب من قبل هذا المبلغ الكبير.

وقفت أمام جروبى وسط حشود من الناس تدخل وتخرج إلى ومن المحل محملة بعلب الحلوى. هذا الغبى عرضنى للخطر. وصل بعد ربع ساعة. "ولا كلمة لأى أحد" راح يأمرنى. "لا أعرف متى سيرحلونهم. سأكلمك بعد عشرة أيام سأسافر سوريا فى مهمة. مع السلامة". هذا الرجل غريب! هل سيسلم المال لإسماعيل؟

لم نحصل بعد على تصاريح زيارة. وإشاعات ترحيلهم إلى الواحات لا تزال قائمة.

اتصل بى الضابط مرة ثالثة وطلب منى عشرة جنيهات. رفضت بحجة أننى أنتظر الزيارة. "طيب. سأتصل بك أول ما يصلنى أى خبر...". هل أنا صائبة فى رفضى.

أنتظر تانت وديدة التى ستمر على فى سيارتها بعد عشر دقائق فى رحلة أخرى جريا وراء أى معلومات. هذا الجرى يريحنا. ماذا عسانا أن نفعله من أجلهم؟ سوى إرسال الطرد الشهرى؟

١٦ أغسطس:

"الضابط لم يسلمنى سوى ثمانى ورقات. لا تعطيه أى شىء بعد الآن إلا إذا بعثت لك أسأل عن كوكولين، هذه هى كلمة السر". ما هذا الوغد؟ المهم الآن هو الترحيل. يقول إسما إنه وشيك. وطلب أن نسلم له طرده فى السجن.

"ألو بولى؟ أنا لو لو.. مساء الخير! خلاص، رحلوهم، تصورى... يبدو أن هناك نساء ذهبن إلى محطة الجيزة..." بكينا معا. "يا ربى! لم أعد أحتمل. تانت وديدة المسكينة لم تستطع الكلام، ابنتها معها. أظن أنها ليست على ما يرام...".

ذهب إسما من دون الطرد. من دون أن أتمكن من توديعه، ولو من بعيد. الساعة الآن الثامنة. هم ربما فى القطار يختنقون من الحر فى عربات مكتظة. مثل القطيع. تنزل الدموع... تطفئ قليلا من النار. وترفع الضغط من على صدرى. ضغط يخنقنى منذ ثلاثة أيام.

ماذا أفعل؟ أصعد إلى غرفتى لأنعش نفسى بقليل من الماء، وأفكر فى الطريق الذى ينتظرنى. طريق طويل وشاق.

كلمنى فى الصباح الضابط قريب كامل! أخبرنى هذا اللص برحيل إسماعيل! وطلب زيارتى فى السابعة بعد الظهر. سأنتظره. لم أقل له إننى عرفت أنه لم يسلم المال. أخمن أن وراء مجيئه شيئا ما.

"رسالة سأحرقها أول ما تقرئينها. الموضوع خطير...". جلسنا فى آخر الصالة. لم ألاحظ من قبل ملامحه الحادة. فتحت الورقة بأعين مبللة رحت أقرأ الأسطر التى كتبت على عجالة. أعيد قراءتها وأنا متضايقة من نظرات هذا الرجل.

"هيا يا مدام كفاية. اطمأننت؟"... ثم ابتلع لهيب ولاعته الذهبية الكلمات الثمينة التى خطها الحبيب.

احتقرت بالفعل هذا الرجل القاسى المنعدم الرحمة وأنا أتابع حركاته. رفضت أن أتوسل إليه ليتركنى أقرأ مرة أخرى الرسالة. فليذهب من هنا. الحمد لله أنه وقف: "هل فهمت حضرتك؟ منعك زوجك من الذهاب إلى الخارجة... مع السلامة". كدت أن أضحك فى وجهه. الحمد لله أنه لا يفهم الفرنسية! لم يمنعنى إسماعيل من الذهاب. هو قلق بشأنى ويخشى أن يكون السفر متعبا. هذا الضابط ندل من الوزن الثقيل وجبان.

حدث هذا مساء ١٧ أغسطس. البارحة غادر المتهمون فى محاكمة الإسكندرية والقاهرة فى اتجاه المعتقل فى الخارجة على بعد ٢٤٠ كم جنوب غرب أسيوط. سيبدؤون حياة جديدة وعائلاتهم كذلك. عليها أن تتعلم كيف تنظم السفر إلى هناك. على الأقل من لديهم الإمكانيات. وعددهم قليل.

-٣-

صور تتحرش بي. رمال ممتدة إلى الأبد وسجن يشبه كل السجون التى عرفتها حتى الآن وإسماعيل فى زى المساجين!... سأكتب له. أريد أن أرد على الرسالة التى كتبها قبل الرحيل. لا يا إسما لا أريدك أن تفكر فى العذاب الذى قد أقاسيه. لا تقل أبدا إن سعادتنا أجهضت وإنك تشعر أنك أفسدت حياتى. أنت تضعنى فى مرتبتك نفسها، وهذا يملؤنى فخرا، لكننى كثيرا ما أكون ضعيفة... كل ألم من آلامك وكل موقف شجاع من مواقفك أصبح أسطورة. ينتابنى شعور غريب. لقد تزوجت من رجل عظيم. واستحقاق هذه المرتبة يكلف ما يكلفه من عذاب ودموع. السعادة كامنة فينا ونعيش الحياة التى نختارها بإرادتنا. فالشجاعة والكرامة والصبر كلمات يصبح التحلى به سهلا؛ لأننى زوجتك ورفيقتك وأخت إنجى أفلاطون. هذا ليس بالأمر السهل.. لكن بفضلك أصبح من دواعى السعادة. أنا فخورة بأن أعيش حياة تتطلب منى كل يوم أن أتحدى قواى. أنا أشعر، بفضل كنوز حياتنا المشتركة والحب الذى تمنحنى إياه رغم المسافات، إننى أسعد من كل الذين يحيطون بى.

أكتب تقريبا كل ما أشعر به. أوقع على الرسالة وأضعها فى ظرف أكتب عليه بالعربية:

"إلى السجين الشيوعى دكتور إسماعيل صبرى عبد الله. سجن الوادى الجديد. واحة الخارجة. من طرف زوجته جلبيرى أفلاطون". حملت الرسالة تاريخ ٢٠ أغسطس. إنها الأولى.

أثمرت محاولاتى لإيجاد عمل. واستقبلتنى مديرة مدرسة البنات. كنت مرتبكة لكنهم خففوا عنى، وبعد استجواب طويل تم قبولى. لم يتعد مرتبى ١٧ جنيها نظرا لقلة شهاداتي. وشرحت لى المديرة مهامى الجديدة بوصفى مدرسة فرنسى لسنوات الأولى إعدادى والسادسة ابتدائى. "راجعى القواعد". وقدمت لى كتابا وهى تبتسم " نشطى ذاكرتك".

عثرت على أحسن وسيلة للهروب من القلق.

-٤-

كان هذا المساء استراحة ممتعة. مأدبة عشاء على شرف الكاتب الجزائرى مالك حدّاد! سيقدمه لنا ليلين ولطفى الخولى.

وصل أصدقائى فى الموعد، منفعلين وسعداء بلقاء الكاتب المشهور. قضت ماما أكثر من ساعة وهى ترتب باقات الورد وتسهر على تحضير الأكل فى المطبخ. أتذكر أصدقائى وهم جالسون فى آخر الصالة. شرع صادق فى تقديم المشروبات. ثم ظهر لطفى وليليان ومالك حداد مع جزائريين آخرين مصطفى لشرف ومحمد حربى. كان مالك حداد متوسط القامة، أسود الشعر والعينين، مستدير الوجه ومخضر البشرة. جلس على البرجيرو بدأ: "أين أنا؟ ماذا أفعل فى صالة هؤلاء الأثرياء؟ من المفروض أن أشكركم أليس كذلك؟ أنت جميلة هل تعلمين؟ ومن هم هؤلاء؟". وألقى نظرة احتقار على أصدقائى المذعورين. "حثالة من الأرسطقراطيين مثلك؟ ماذا تريدون منى؟ أن تنظروا إلى كما لو كنت حيوانا نابغة؟". شعرت فجأة أننى وسط أصدقاء زمن السرياليين، "ما بك تبتسمين مثل البلهاء؟ أنت قبيحة وأكيد غبية...". سمع لطفى وحربى ولشرف صديقهم وجاءوا لتطويق الموقف. وبوصول ماما سكت هذا المجنون. نهض وصافحها ثم رمى نفسه على الكرسى.

عندما نهضنا للجلوس إلى الطاولة اختفى لطفى وليليان مع حداد. "أنتم لم تفهموا" همس فى أذنى لشرف. "إنه سكران! يشرب كثيرا هذه الأيام... ويعانى من اكتئاب. مشكلته أنه لا يجيد العربية ليكتب بها... وقريبا سنعود إلى الجزائر، الجزائر

الحرة العربية" قال لى لطفى بعد هذا إن الرجل الذى كلمنى بلطف كبير كاتب، وإن إحدى مسرحياته عرضت فى باريس.

"أعطه أشعارك ليطلع عليها...".

وكنت قد التقيت محمد حربى فى السنة الماضية عند لطفى الخولى. شخص فى غاية الذكاء. لكن السهرة التى لم تبدأ جيدا استمرت فى أجواء ممتعة. ووعدنى لشرف الذى سلمته أشعارى أنه سيكلمنى ليعطينى رأيه.

٢٩ أكتوبر... كلمنى مصطفى لشرف! ودعوته على الغداء. وصل وفى يده باقة ورد. سعدت كثيرا بهذه الزيارة، وقال لى إن أشعارى أعجبته كثيرا. كنت مهتمة بآرائه فى كتابتى. وقال لى أيضا إن المهم أن يظل الواحد منا وفيا للطريق الذى اختاره لنفسه، وأن يعى مدى دور الكاتب فى بلده وإننى "مثال لذلك". حدثنى عن مسرحيته وعن أفكاره حول المسرح. كانت أفكارنا متقاربة.

أعدت صياغة قصتى القصيرة عن موت سيد فى المستشفى. اشتغلت دون هوادة لمدة ثلاثة أيام. وأظن أن نسختى الأخيرة جيدة. كتبت لى إنجى رسالة أثرت فىَّ كثيرا. إنها قلقة بشأن عملى فى المدرسة الثانوية وتخشى أن يشغلنى هذا عن الكتابة. هذان الشخصان المقربان إلى قلبى يؤمنان بى.

وكان لزوجى ولأختى الحق فى القلق حول هذا الموضوع. عشر ساعات من التدريس فى الأسبوع. لدى ٣٧ تلميذا فى السنة السادسة و٣٩ فى السنة السابعة. أوضحت لى مدام (أ) مهامى وزودتنى بنصائح ثمينة. وتصفحت قبل الدخول المدرسى كتاب القواعد والنحو. وكم كانت دهشتى كبيرة وأنا أكتشف ثانية القواعد الغريبة والمملة. لم أكن أتذكر شيئا. متى وكيف تعلمت كل هذا؟ يبدو لى أن كل شىء جديد. الحمد لله أن برنامج فصولى لا يحتوى إلا جزءا من هذا الكتاب!

ما كان يعرف بالليسيه الفرنسى وما يسمى الآن ليسيه الحرية ما زال على حاله. لم تتغير الباحة ولا الفصول ولا السلالم الحجرية مذ كنت هنا أتخبط فى تمارين الرياضيات.

المستوى الاجتماعى متباين للغاية. هناك مسيحيات من عائلات برجوازية وبعض اليهوديات وعدد كبير من المسلمات سواء من الطبقة البرجوازية المتوسطة أو من وسط متواضع. تعلمت الكثير وأنا أصحح فروض الإنشاء ذات اللغة المرتبكة. وهكذا عندما طلبت منهن أن يصفن غرفة نومهن، كتبت لى طالبة أن والدها جزار فى حى السيدة زينب وأنها تتقاسم السرير الكبير مع أختيها! جزار يحلم أن يكون جهاز ابنته شهادة من الليسيه، وربما من الجامعة، بالإضافة لإجادتها للفرنساوى! أدرس اللغة الفرنسية لبنات يتكلمن العربية. بنات وأولاد لا يعرفون إلا القليل من هذه اللغة التى تعلموها فى الفصول السابقة. قليل منهم يتكلمها مع أهله. أنا حادة وحازمة لكن بناتى التى يتراوح عمرهن بين الحادية عشرة والثالثة عشرة يحببننى ويحترمننى. ولن تقول أية منهن إنها كانت المفضلة لدى. لم أنس المواقف الظالمة لدى الراهبات فى القلب المقدس تجاه تلميذاتهن.

فى أوقات الفراغ بين فصلين أذهب إلى قاعة الأساتذة لأرتشف قهوة وأدردش قليلا مع زملائى ثم أنهمك فى عملية التصحيح المضنية. فروض منزلية، وإملاء، وإنشاء. العمل لا ينتهى. وتقريبا آخذ معى يوميا كومة من الكراريس لأصححها فى البيت بعد القيلولة. ثم أحضر درس الغد. ولا أنسى المعتقلين العزيزين اللذين أكتب لهما بانتظام، كما أسلم ما يحتاجون له لدى إدارة السجون. كثيرا ما أرفض دعوات على العشاء أو على السينما. أنا متعبة ولا أستطيع الخروج خاصة عندما أبدأ العمل الساعة الثامنة. كل يوم أستقل خط المنى باص الجديد بين الزمالك وباب اللوق حيث توجد المدرسة. الكتابة؟ سأتمكن من ذلك حالما أتعود على عملى الجديد الذى أحببته كثيرا.

كان منفى الواحات أشد عقاب، اضطــر أهــالى المســجونين تحمله لمدة أكثر من أربع سنوات. وأتساءل اليوم: كم منهــم خاصة الفقراء اضطر لدفع ثمن هذه الرحلة الطويلة إلى أسيوط ثم فى تاكسى أو الأتوبيس إلى الواحات. ٢٥٠ كم عبر الصحراء؟

أطلعتنا بولات زوجة أبى حرارى على أنجع السبل للوصول لسجن الوادى الجديد. إنها مغامرة حقيقية قمت بها مرتين أو ثلاثًا خلال السنة فى ظروف معقولة. لكن تقريبا فى كل مرة كان يحدث طارئ غير سار. تغير نظام الإجازات القديم فى الليسيه. ولم يعد لدينا سوى الكريسماس وشم النسيم والأعياد الإسلامية وطبعا الإجازة من يونيه إلى سبتمبر. فلم أستطع زيارة إسماعيل إلا يوم ٢٤ ديسمبر برفقة عطيات وولديها الصغيرين ونوال.

اهتمت عطيات بحجز تذاكرالقطار فى الدرجة الثانية. وأنا وافقت لأننى أعلم أن صديقاتى اقتصدن من أجل هذا اليوم المنشود. ما وفرنه مكنهن من تحضير بعض الأكل وشراء القهوة وعلب الحليب المركز والسكر والمعلبات. سيقتسم أزواجهن هذا كله مع زملائهم فى العنبر. تحملت بشجاعة المشوار الذى دام خمس ساعات على مقاعد مكسرة بينما النوافذ تنزلق عند أى حركة تاركة المجال لريح شديدة البرودة محملة بالأتربة.

"على كل حال هذا البرد سيحفظ المأكولات التى نحملها معنا!". تشاورنا قبل الرحيل حول الأطباق التى ستحضرها كل منا. أطباق يمكن الاحتفاظ بها بضعة أيام.

أما أنا فحملت فى حقائبى طبق "كريسماس بودنج" أرسلته ماما وسيتقاسمه إسماعيل كذلك مع أصدقائه.

ها هو فندق الإكسلسيور الذى حدثونا عنه ينتصب قبالة المحطة. الرجل بالجلباب الواقف فى الاستقبال لطيف للغاية. يشبه الإكسلسيور عند تصورى لفندق "دعارة"... حجزنا غرفتين وذهبت نوال إلى ساحة السوق للتأكد أن الحاج عامر قد تسلم التليغراف الذى بعثناه، وأنه سيكون موجودا فى التاكسى فى فجر الغد.

نزلنا حوالى الساعة السابعة إلى المطعم. يوجد بالقاعة ست طاولات من الحديد تشقق طلاؤها الأخضر محاطة بكراسٍ من القش. غامرنا وطلبنا من الجرسون طبق كباب مع كوكا كولا. كان من الصعب ابتلاع اللحم، لكن الخبز المحلى كان لذيذا. على الأقل هذا! نكات وضحك تختبئ وراءها مخاوف الغد.

كانت تنتظرنى فى الغرفة مفاجأة غير سارة. وجدت جيشا من البق فى الحقيبة التى كنت أفرغت محتواها من قبل فوق السرير حمدا لله. فزعت والصرخة التى أطلقتها جذبت عطيات ونوال. أنقذتنا قارورات البيرسول التى دفستها بين أغراضى. وشرعنا فى حرب ضد الحشرة اللعينة وقلبنا أسِرّة وأخيرا نمنا حوالى الساعة التاسعة رغم رائحة المبيد. كنا قد هلكنا من السفر والتعب.

فى الساعة الثالثة بدأنا نتناوب على الحمام ودورة المياه البدائية. وركبنا التاكسى بمساعدة البواب الذى ساعدنا على حمل الحقائب وهو يترنح من النوم.

الحاج عامر يجيد القيادة ويعرف الطريق جيدا. فور خروجنا من المدينة استقبلنا ليل الصحراء الواسعة. نسير على طريق معبدة تتسلل عبر الكثبان الرملية، وراحت النجوم تنطفئ ببطء، ثم أسرع فأسرع حتى اختفت فى خيط أبيض بدا وكأنه يصعد من الأفق. وحينها عرض الفجر كل جماله. وظهرت مساحات ممتدة من الرمال تتخللها صخور من الجرانيت الوردى أو البازالت الرمادى.

لا أصغى إلى حديث صديقاتى، لا أمل من النظر إلى الصحراء، ها نحن نترك الأسفلت وراءنا ونسلك طريقا صعبا وغير مهيئ، هدأ الحاج عامر من سرعته.

"ما بك يا بولى؟ أنت متعبة؟ "

"لا، أنا أتأمل، جمال الفجر فى الصحرا دى!"، سخرت منى نوال وعطيات "الفجر؟ قلبك خالٍ يا بولى!..."، لا أرد وأبتسم لذكرى رحلتى مع بابا وتانت رقية... كانت قوافل من عدة سيارات تقودنا إلى واحة صغيرة، هل اكتشفت جمال الصحراء خلال هذه الرحلة؟ إحدى أجمل قصائدى مستوحاة من الرمال، الساعات تمر والشمس تستقر فى السماء، بينما ننظر باستمرار إلى ساعاتنا، الحاج عامر يطمئننا، وصلنا قبل الثامنة! استيقظت الصغيرة نادية وراحت تبكى ثم تقيأت، نظرت إلى الجهة الأخرى بينما كانت عطيات تنظفها.

"انظرى للرمل يا حبيبتى، انظرى للصخرة الكبيرة..."،

"هذا رمل فقط، ليس جميلاً... أشعر بتوعك!"،

"هيا، وصلنا! ألم أقل لكم؟ الساعة الثامنة!"،

جدران صفراء تتخللها نوافذ صغيرة تمتد عرضا أمامنا، المبنى من طابق واحد يطل منه جنود مسلحون يحرسون المكان من وراء ثقوب.

"هل سيطلقون النار علينا؟" صاحت نوال، ورحنا أنا وعطيات نرتب شعرنا ونتزين.

خرج جندى من وراء الباب وصاح: "زيارة؟"، ألقينا التحية ونحن نبتسم "نعم زيارة هذه التصاريح..."، بدا الجندى معكر المزاج، أخذ التصاريح وعاد أدراجه ثم ظهر ثانية، وقال غاضبا: "تعالوا!"،

"ما به؟" قالت عطيات التى كانت تحمل ابنتها بين ذراعيها. "هو الذى لم ينم أم نحن؟". كبتنا ضحكاتنا ودخلنا صالة مضيئة، فى آخرها باب مفتوح على باحة تزينها الزهور.

"هنا" قرر الجندى وهو يدفع بابا على يميننا. إنه مكتب القائد! رجل طويل القامة يحمل شاربا كثيفا يكاد يكون أشقر. ابتسم لنا: صباح الخير، تفضلوا! أنتم أكيد متعبات؟...". وراح يتفحصنا الواحدة تلو الأخرى وهو يبتسم. ثم استدار نحو جندى واقف قرب الباب: "اذهب وائت بإسماعيل صبرى عبد الله، وفؤاد مرسى، وعادل سيف النصر...".

فصرخ سامح "بابا، بابا"، "أريد بابا!...".

فراحت نادية التى كانت نائمة فى حضن أمها تبكى.

"بابا سيأتى" قال القائد. "لا تبكى يا حلوة، اضحكى حتى تفرحى بابا...". يبدو أن هذا القائد طيب، ربما سمح بمرور كل ما جلبناه معنا وربما مد فى ساعة الزيارة... ربما. ها هو ينهض:

تعالين ورائى، أزواجكن قادمون...". تبعناه. اللحظة مشحونة بالتوتر وشتى الأحاسيس. وها نحن فى غرفة أخرى واسعة ومضيئة وضعت بها عدة أرائك وكراسٍ وطاولات صغيرة وفى الركن مكتب صغير جلس عليه القائد.

"ها هم!". دخل السجناء الثلاثة مبتهجين حليقى الذقن. قَبَّل كل واحد منهم زوجته وسلم بحرارة على زوجات زملائه. وامتلأت القاعة بضجيج مرح، ثم جلسنا قرب بعضنا فى ركن. وبينما نحن نتحدث حمل الجنديان أغراضنا ووضعوها قرب القائد.

"حبيبتى! أخيرا! كلمينى أولا عن نفسك، عن العائلة". كانت نظراته وكأنها تبتلعنى. رداؤك جميل! هل أنت من حاكه؟ أتكلم وأنا أنظر إلى وجهه الجميل المائل نحوى. أخذ يدى اليسرى وضمها إليه. "لا يمكنك أن تتصورى كم انتظرت هذه

اللحظة! اشتقت إليك! أقدم لك رفيقنا شبل..." انحنى نحوى رجل شاب طويل القامة ومد يده مبتسما: "أهلا بكم فى هيلتون الصحراء! شاى ولا قهوة؟". فتحتُ عينين كبيرتين فصاح شبل: "نعم! إنه دورنا الآن لنقدم لكم شيئا. سنحتفل بزيارتكم أنتم ضيوفنا! الأولاد سيشربون كوكا كولا!". همس إسماعيل لشبل: "لا تنس أن تدعوها للحفلة...". زادت حيرتى: "أى حفلة؟ عيد ميلادك؟...".

"سينظم العنبر هذا المساء حفلة بمناسبة عيد ميلادى والكريسماس. سندعو القائد وبعض الضباط... سنقدم لهم بعضا من البودينج...لا تقلقى جاءتنا زيارات عديدة هذه الأيام، واحتفظنا ببعض الحلوى لهذه المناسبة...".

وصف لى إسما حياته. يعطى دروسا فى الاقتصاد والسياسة لبعض زملائه ويتلقى هو نفسه دروسا فى الرياضيات على يد عبد العظيم أنيس. بعضهم يلقن اللغات. الإنجليزية والألمانية والروسية والتاريخ أيضا. ومن بينهم بعض الأطباء أحدهم يحمل شهادة يسهرون على المرضى. من معه الشهادة أنقذ حياة ابن القائد بينما كان طبيب السجن غائبا. ومنذ ذلك الحين أصبح القائد أكثر رفقا بهم. كنت قد لاحظت أنه بالكاد نظر إلى أغراضنا التى حملها له الجنود. كما أنه يسمح بمد ساعة الوداع. قبل أن نفترق اتفقت مع إسماعيل أن أزوره فى مارس.

"الحمد لله الزيارة مرت بسلام!".

الحمد لله". تنهد الحاج عامر "ربنا معاهم ومعاكم ويصبركم!".

بينما تأخذ زيارتنا مكانها وسط الذكريات وتسترخى أعصابنا لم يبقَ لنا سوى مطلب واحد وهو أن نستمتع بحمام ساخن ونستلقى فى السرير. لم يبق علينا سوى أن نلحق بالقطار المجرى.

"بعون الله سنصل فى الموعد!...". كان بِودّى أن أرد، إن الله له مشاكل أهم ليحلها... بدأت الصغيرة تتقيأ ثانية! أغمض عينىّ وأرى كل حركة قام بها إسماعيل

وأسترجع كل كلمة تفوه بها بصوته الحاد الدافئ. من يقابله لأول مرة لا يجذبه جمال وجهه فقط بل ذلك النور الذى ينبعث منه... ذلك الهدوء والصفاء، مما يجعل وجوده فى هذا المكان غريبا ويمحى بشاعة البدلة التى يرتديها.

أخيرا! وصلنا، ثلاث دقائق قبل قيام قطارنا. عربتنا خالية وهذه المرة النوافذ مغلقة. تبادلنا أطراف الحديث طوال الرحلة فى جو من البهجة، أما الأطفال فناموا حتى وصولنا إلى القاهرة.

"كل شىء تمام يا مامى!" قبلت أمى التى كانت تنتظرنى وهى تتصفح مجلة موضة "سأحكى لك كل شىء غدا. إسماعيل يشكرك على البودينج ... تصبحين على خير يا مامى!".

نعم كل شىء كان على ما يرام رغم البق الذى افتتحت به هذه الرحلة الأولى إلى الواحات. لو حسبنا ثلاث أو أربع رحلات سنويا كم رحلة سأقوم بها خلال ثلاث سنوات؟ فى التاكسى الذى يقلنا من السجن إلى محطة أسيوط رحت أحلم بهذه الرحلات. ثم تحدثنا فى القطار أنا ورفيقاتى عن زيارتنا المقبلة. ها قد بدأ الانتظار ثانية. كنت أعلم أننا محظوظات. كان بإمكاننا الحصول على قسط من الراحة فى فندق "البلازا" الذى نصحونا به. أما الآخرون الذين لم يكن بإمكانهم تحمل هذه النفقات فكيف كانوا يتحملون هذه الرحلات الشاقة؟ علمنا أنهم كانوا يستقلون لدى وصولهم إلى أسيوط سيارة أجرة تقلهم ليلا إلى السجن! أو الأتوبيس! وأى أتوبيس! لقد جربته.

ذات مرة كان سائقنا متوترا بسبب مشاكل ابنه ولم يتمكن من القيادة فتركنا على الطريق فى الساعة الخامسة ونصف صباحا! واضطررنا إلى ركوب الأتوبيس. أتوبيس متهالك ومكتظ. الواقف أكثر من الجالس. أغلب المسافرين كانوا فلاحين ونساء معهن أقفاص وقفف تصدر منها قوقأة الدجاج. فضلت الوقوف وراء السائق حيث زجاج

الباب مكسور لأتجنب الروائح الكريهة التى كانت تحوم فى المكان. وصلنا متأخرين ساعة واضطررنا إلى الرحيل نصف ساعة قبل نهاية الزيارة حتى نلحق بالأتوبيس.

مرة أخرى وجدت نفسى وسط رياح الخماسين واستعملت وسيلة نقل أخرى. أقلنا أحد الضباط وهو عائد إلى القاهرة فى سيارته الجيب إلى الخارجة. أتذكر ضحكاتنا ونحن نركب معه، ثم عندما جعلنا ننتظر فى مكاتب المباحث ريثما تنتهى العاصفة!

مكتب عرفان مريح. كتب وكراسى كابيتونيه تحيط بها رفوف من الكتب بعرض الجدار وطاولة عمل.

"بما أن صالحة هانم ليست معنا" راحت تقول زوجته بعد أن قدمت لنا ما نشربه، "كلمينا قليلا عن إسماعيل وإنجى". ضحكت. لقد رجوت كل أصدقائى ألا يسألوا عنهما، خاصة عن أختى، فى وجود ماما.

فوصفت لهم كيف نظم إسماعيل وزملاؤه حياتهم. كيف أن بعضهم اشتغل فى زراعة الأرض بينما انكب آخرون على بناء مدرجات مسرح على أمل الانتهاء منه فى نهاية العام[٢٢].

"يوجد بينهم مسرحى موهوب، كتب مسرحية فى الخارجة[٢٣]. وقررت مجموعة من السجناء تمثيلها. تصوروا أن تانت وديدة عادت من الخارجة فى غاية التوتر بعد أن طلب منها ابنها بعض مساحيق التجميل! ولم يشرح لها هذا المجنون الغرض من هذا الطلب العجيب...".

(٢٢) ظلت هذه المدرجات صامدة فى السجن المتهالك بعد رحيلهم منه.

(٢٣) ألفريد فرج! لم أعرف اسمه إلا بعد إطلاق سراحهم. المسرحية "حلاق بغداد" قدمت على المسرح ونالت نجاحا كبيرا. شاهدتها مع إسماعيل.

لكنى مع هذا لم أقل بدافع الحذر، كل شىء، لأصدقائى. قال لى إسماعيل إن كل عنبر كان يمتلك راديو. اثنان تمت مصادرتهما لكن زميلهم الكهربائى صنع آخرين بوسائل بدائية. كانوا يشغلونهما بالليل. وبقليل من البقشيش لأحد العساكر يمكنهم الاطلاع على الصحافة الوطنية من حين لآخر. وكلفوا أحدهم بجمع الأخبار. يقرأ الصحافة ويستمع إلى الراديو وفى المساء بعد العشاء يقدم تقريرا بصوت عال للجميع.

أحد الأطباء من السجناء كان يتكفل بالمرضى. وزميل آخر كانوا يسمونه الصيدلى كان يوزع الدواء المناسب. آخرون يوزعون الأكل والمعلبات. إسماعيل كان المتحدث باسمهم لدى إدارة السجن.

أواصل سردى لأصدقائى: "كانت الشهور الأولى صعبة، إذ إن العائلات لم تكن قد زارتهم بعد. أما مدير السجن فهو مرن نوعا ما منذ أن أنقذ أحد السجناء ابنه...".

"وإنجى؟ ألم يسمح لك بزيارتها بعد؟".

"لا! ليس من حق السجينات الحصول على إذن زيارة".

"إنهم يتمادون! يعاملون النساء أشد من الرجال! لا أفهم...".

"ماذا تريدين؟ تطبق مصلحة السجون القاعدة المعهودة. من حق من صدر ضدهم حكم أن يتلقوا الزيارات. أما المعتقلون فلا".

"هل تصلك رسائل منها؟".

"نعم، بانتظام تقريبا لكن بكثير من التأخير... واستطعت أن ألتقى بها لبضع دقائق فقط فى القصر العينى... معنوياتها مرتفعة، لكنها فقدت الكثير من وزنها وبشرتها ملتهبة... هذه الزيارة أرقتنى..."

"أنا متفائل بالنسبة لأختك. لقد دعا عبد الناصر خروتشيف، من المفروض أن يحضر نهاية الأعمال فى السد العالى... سيتم إطلاق الشيوعيين، ومن المؤكد أنهم سيبدؤون بالنساء...". أهز رأسى. "أعلم ذلك. لكن متى؟ موعد زيارة خروتشيف لن يحين قبل ثلاث سنوات! هذا وقت طويل!...".

-٧-

أشعر وأنا بمفردى فى غرفتى أننى فى حاجة لقراءة رسائل إسما القصيرة. أنا فى حاجة لأن تحتضننى كلماته. منتصف الليل تقريبا. أقرأ رسالة ٣٠ ديسمبر قبل أن أطفئ الأنوار.

أما رسائل ديدى فلا أقرؤها إلا لتدوين ما طلبته منى. رسائلها تؤلمنى كثيرا. حتى عندما تمزح أشعر بقسوة حياتها ومن معها من النساء.

كلمتنى إنجى عن ابن إحداهن وعن آخر ولد فى السجن. أفكر فى هذه الأمهات. من المؤكد أن لا أقارب لهن للاعتناء بأطفالهن. ما هذا البؤس يا ربى! وإنجى التى تعانى من متاعب صحية. لم تفلح كل التماساتى. ماذا ينتظرون لتحويلها للمستشفى! أخشى أن تتدهور حالتها... ولماذا يتحفظون على لوحاتها الحادية عشرة فى المباحث؟

-٨-

جاءت سيزا هانم هذا الصباح، إنها الجمعة الأولى من السنة الجديدة. احتسينا القهوة معا وتكلمنا عن إنجى. قرأت لها خطاب الرابع من ديسمبر. انتفخ صدر سيزا هانم العريض وصدرت منه تنهيدة عميقة. ثم أخبرتها عما أقوم به من تحركات. وأخبرتنى بدورها عن الخطابات العديدة التى أرسلتها إلى المنظمات الدولية التى تنتمى إليها إنجى، وكذلك عن تلك التى وجهتها لعبد الناصر وكبار البلد.

تحدثنا قليلا وجعلت صديقتنا تبتسم عندما أشرت إلى بعض الأخطاء فى اللغة الفرنسية التى تتخلل رسائل أختى.

"ماذا نقول يا سيزا هانم، إنجى لا تتكلم سوى بالعربية مع زميلاتها...".

شهر يناير بارد رغم الطقس المشمس. أقضى وقتا على التيراس بحثا عن الدفء. عادت ماما منذ أيام إلى القاهرة بعد أن ذهبت لزيارة تانت تاتى التى أجريت لها عملية. كلامها عن الموضوع كان شحيحا، ولم أعرف تفاصيل كثيرة سوى أنهم استأصلوا الكلية. كان لها ثلاثة! وأنها بحالة جيدة وعادت إلى بيتها.

عدا هذا لا أزال أسبح فى نفس حالة الانتظار المحفوفة رغم كل شىء بالآمال، وبسعادة الزيارات التى تتخلل مسار حياتنا كما المصابيح المضيئة. لا تمانع مصلحة السجون فى تسليمنا أذون الزيارة كل ٤٥ يوما. لكن قليلين هم الذين يتمكنون من الذهاب هناك باستمرار. إنها مغامرة متعبة ومكلفة. نلتقى مرة أو مرتين فى الشهر فى المكاتب نفسها لنسلم طرودنا مستسلمين كليا لمزاج الضابط الذى قد يقبل كل محتواها

أو جزءا منه. لا مجال للنقاش. نأخذ ما رفض ونعطيه لزوجة معتقل آخر موعد زيارتها بعدنا. حدث وأن أخذت معى أغراضاً طلبها أحد زملاء إسماعيل.

سوريا ومصر انفصلتا. تم اعتقال بعض الفرنسيين وبعض المليونيرات. العمال المصريون والروس يعملون ليل نهار تحت إشراف المهندس صدقى سليمان لبناء السد العالى. إنه سباق ضد الساعة. يجب أن تنتهى آخر مرحلة فى مايو ١٩٦٤ ألاحظ أن عائلات المعتقلين والمسجونين لا يفهمون مثلى هذا التحالف الغريب. كثير منهم ناقم على الروس لأنهم لم يتدخلوا لصالح المسجونين المتهمين بالشيوعية. لا شىء يوحى أن التاريخ المقرر لافتتاح السد العالى سيكون تاريخ فتح الزنزانات. سنتان من الانتظار الإضافى. زمن لا يقاس بنفس الطريقة خارج القضبان وورائها.

يصف لى إسماعيل ببراعة وفى كلمات قليلة الأجواء التى يعيش فيها. وكلمات الحب التى يرسلها لى تحيطنى بهالة تحمينى ضد وحدتى فى هذه الأيام والليالى الكئيبة.

وصلتنى رسائل وبطاقات ولم أعرف كيف وصلت مجلة(٢٤) **Les temps Nouveaux** إلى الواحات؟ سأتحرى من إيفات.

أجريت لتنت وديدة عملية لاستئصال الثدى. وأصرت على إخفاء الأمر عن ابنها.

كتب لى إسماعيل فى رسالة الثالث عشر من فبراير: "... سأتركك لتناول العشاء. يتكون من أرز وبازلاء وكوسة ولحم. التحلية عبارة عن نصف برتقالة (نحن فى نهاية الشهر). لكن أحد الأصدقاء هنا قرر أن يعد لنا مربى الجزر (من خيرات المزرعة) على موقد كهربائى صنعه زميل آخر".

---

(٢٤) مجلة فرنسية ذات توجه يسارى كان يرأسها جان بول سارتر.

كيف لا يندهش المرء أمام عبقرية هؤلاء الرجال المحرومين من كل شىء؟

١٦ مارس، أخبرنى إسماعيل عن وفاة أحد زملائه. مقطع قصير ومقتضب كتبه وسط كلماته العذبة.

وأخمن أنهم ما لم يفرجوا عن هذا الرفيق المريض فلن يفرجوا عن الآخرين! توجهت مع صديقاتى إلى مصلحة السجون والمباحث للاحتجاج. واتصلت بسيزا هانم. وقبلت دعوة للعشاء عند إحدى الصديقات التى فهمت منها أنها دعت أيضا صحفيين إيطاليين...

أنا محظوظة هذه الأيام. ذهبت مرتين على التوالى إلى الأوبرا لمشاهدة باليه نوفوسيبريسك. لا وجه للمقارنة مع باليه البولشوى، لكنه مع ذلك ممتاز. علىَّ الآن أن أحاول كتابة انطباعاتى لأحبائى الاثنين. هل أكلمهم عن "الملل" لمورافيا الذى انتهيت بشىء من الارتياح من قراءته للتو؟... أتذكر أننا عندما شاهدنا أنا وإسماعيل مسرحية الكاتب الفرنسى أنووى، اتفقنا على أن البورجوازية وحدها تستطيع أن تحبذ هذا النوع من الفن. لأنها تنظر فيه إلى نفسها كما لو كان مرآة.

أقرأ بإمعان تعليمات إسماعيل... ثم أتوقف. كل هذه التفاصيل معقدة. لماذا يحتاج زوجى لكل هذا المال فى السجن؟ الأمر غريب! سأتصل بنوال لتحديد موعد. ما هى الكلمة الفرنسية المرادفة لكلمة استنكار؟... يبدو أن إسماعيل على يقين أن حبسهم سيطول. أراه متشائما. ربما يعتقد أن خالداً أراد أن يرفع من معنوياتى فقط... وإذا بى أحاول أن أسترجع ما قاله لى من يسمونه فى الغرب البكباشى الأحمر، عندما التقينا فى النادى: "قولى لزوجك إننى متفائل. سيحين موعد إطلاق سراحهم أسرع مما نتوقع...".

ذات مساء عندما كنت فى النادى مع ليليان وماهى تقدم نحونا رجل أشقر. "مساء الخير يا ليليان!". ومد يده نحوها وعلى وجهه ابتسامة عريضة. "كيف حالك؟

ولطفى؟...". ثم قدمتنا ليليان وهى تخفض صوتها عند النطق باسم الرجل "خالد محيى الدين".

"أنت زوجة الدكتور إسماعيل؟ وأخت إنجى؟ هل لديك أخبار عنهما؟...". لم يتوقف كثيرا معنا، لكن بعد هذا اللقاء بأيام كلمتنى ليليان لتطلب منى الوجود فى النادى فى تمام الساعة الثالثة. "نصف سميرة[٢٥] الآخر سينتظرك قرب ملعب الجولف...". هناك قابلت خالداً الذى طرح على بضعة أسئلة حول حياة إسماعيل فى الخارجة. وطلب منى أن أخبره أن شخصيات عديدة ومنظمات دولية تدخلت لدى الرئيس للمطالبة بإطلاق سراحه.

قررت هذا الصباح، بما أنه لا حصص لى فى المدرسة، أن أقوم ببعض المشتريات لى ولأختى. وجدت نفسى أمام هيئة السياحة حيث تعمل ليليان، فصعدت لألقى التحية. وجدت نادية البندارى التى تعرف إنجى جيدا، فى مكتبها. امرأة فى غاية الظرف. شربنا القهوة ونزلنا معا. عند وصولنا إلى قصر النيل وجدنا حشدا من الناس على الأرصفة بينما ضباط الشرطة كانوا يسدون الطريق على السيارات.

"نسيت أن اليوم جنازة صلاح سالم!".

زاد أعداد الحشود ولم نتمكن من المرور فوقفنا عند مدخل إحدى العمارات. وفجأة ظهرت خيول يمتطيها عساكر وسط صمت رهيب. تلتها فرق من جنود البحرية والجو والبر. كانوا يسيرون فى نظام على وقع مارش شوبان الجنائزى. ثم ظهر الجنود حاملين الجثمان وعليه العلم الوطنى. وهناك وراءهم بدا عبد الناصر على رأس الموكب حزينا ومهموما. قامة هذا الرجل الذى يمسك بين يديه حياة زوجى وأختى، أعلى من كل رفاقه من أعضاء مجلس الثورة. لهذا تمكنت من رؤيته.

---

(٢٥) زوجة خالد محيى الدين.

وها هى صفحات حياتى الممتلئة تتوالى كما لو قلبتها نسمة الواحدة وراء الأخرى لتثقل رصيد الماضى. أنهال على السلطات ببرقيات وخطابات الاحتجاج. وأكتفى فى الآخر بالرسائل التى تصلنى من أختى بكثير من التأخير فيما عدا الرسالة الشهرية التى تكتبها بالعربى، والتى تكتفى فيها طبعا بالحديث عن أمور تافهة.

أفكر كثيرا فى معاناتها ومعاناة رفيقاتها. مهما يكن فإن رجال الخارجة فى أحسن حال منهن. على الأقل يمكنهم الترجل يوميا فى الباحة التى حولوها إلى مزرعة، ويتلقون ولو بطرق ملتوية الكتب والمجلات ... الخطر الوحيد الذى يحدق بهم هو المرض. أتجنب التفكير فى المسألة. تنصب كل قوتى فى الأمل والانتظار ... أعيد قراءة رسائل الحب التى يرسلها إسماعيل. فى خطابه الذى تلا آخر زيارة ذكرنى بحادث حصل لنا فى القطار. فضحكت.

فى رحلة الذهاب كنا ثلاثة ركاب فى العربة، نوال وأنا ومسافر آخر. كان جالسا أمامنا تفصلنا عنه ثلاثة مقاعد. وإذا به بعد ساعة من الإقلاع يفتح بنطاله ويخرج عضوه. فهمست نوال التى رأت المشهد: "انظرى لهذا المجنون يا بولى! يا ربى! ماذا نفعل؟". ذعرنا وقمنا نحن -الاثنتين- بينما الرجل يستمتع بما يفعله وصرخنا معا.

"كفاية يا منحط! ألا تخجل! خذ أغراضك وامش من هنا وإلا سنطلب البوليس!". تأهبت نوال وهى تشتمه لشد جرس الإنذار ولكن الرجل خاف ورحل.

لا أذكر التاريخ ولا اليوم الذى جاءنا فيه بواب عمارة ماما القديمة فى شبرا يطلب أن نسرع هناك. لاحظ الجيران أن الباب مفتوح. فذهبت هناك مع فاطمة. كان ينتظرنا منظر مريع. خربوا كل شىء! شعرت أنهم سرقوا حياتنا. لم يبق لنا شىء سوى الأثاث ومكتبتنا الثمينة. ولم يستطع البوليس أن يعثر على الجناة. ضربة أخرى فى الوقت الذى لم يكن يهمنى سوى مصير إسماعيل وإنجى.

قضيت بضعة أيام فى الإسكندرية، وعند عودتى وجدت خطابا من إسماعيل. أحد الرفاق مصاب بالصفراء وبداء كبدى. حالته خطيرة. "يبذل زملاؤنا الأطباء ما فى وسعهم ساعة بعد ساعة لإنقاذ حياة على شفى الموت. لن نترك هذه القضية تمر بهدوء. الكل هنا ثائر ومستعد لأى شىء. نخطط لمعركة حتى يتم نقلنا من هذا المنفى الذى يشعر فيه كل واحد منا أنه ممكن أن يلقى مصير رفيقنا المسكين نفسه...".

احتجاجات وطلبات أرسلت إلى السلطات المسؤولة مع الخوف المعتاد الذى يعصر قلوبنا. بعد ثلاثة أيام وصلنى خطاب من إسماعيل هدأ قليلا من روعنا: ... "هنا الوضع يتحسن. بعد الأزمة التى تعرض لها زميلنا إسماعيل عبد الحكم وما أحدثته من اضطرابات أعلمونا أن من حق السجناء تلقى طرود الأكل. والحدث الكبير أنهم يسمحون لنا بصفة رسمية بالاطلاع على الجرائد. من الواضح أن الضغوط التى مورست من كل جانب واحتمالات قيامنا بإضراب أقنع السلطات بالتخفيف من قبضتهم. لكن المشكلة الأساسية تظل كما هى. ما دمنا فى هذا المنفى تظل صحتنا فى خطر بسبب سوء التغذية وعدم الرعاية الصحية. الأمر الثانى هو أن الزيارة إلى هنا مكلفة ولذا لا يحصل أغلب المساجين على عدد الزيارات المقررة. ينفطر قلبى عندما تقولين إنك تودين القدوم إلى هنا كل خمسة وأربعين يوما... أعلم جيدا... لا يمكنك أن تتصورى كم سررت عندما علمت أنك ذهبت إلى الإسكندرية. أرجوك أن تستغلى كل فرصة لترفهى عن نفسك، لتستمتعى بمياه البحر التى أعلم أنها تمتعك كثيرا...". أقطب

حاجبى. بعد ما بدأ رسالته بالحديث عن الحر والمواعيد الجديدة للقطارات التى أعرفها راح إسماعيل يشرح لى ما يجب أن أقوم به من أجل إنجى!

سأحضر من الغد قائمة الطعام وستحتوى طبعا على علب كباب الضانى الجاهزة قبل أى شىء نظرا للنجاح الذى حازت عليه!

قابلت أختى مرتين فى المستشفى، حيث كشف عليها دكتور أمراض النساء الذى أعطاها علاجا جديدا. وطلب أن تبقى فى قسمه حتى يسهل علاجها. لكن الأمر صعب.

أنا أيضا استشرت دكتور أمراض نساء مشهور. وها أنا أبدأ العلاج. أملى فيه كبير.

"عند "لاباس" فى الساعة الثانية عشرة والنصف" قالت لى نوال، "انتظرينى. سأشترى بعض الأغراض لعادل ...".

وشرعت فى الحال فى الكتابة لإسماعيل على ورق رقيق سأطويه بعناية وأسلمه غدا لنوال مع المجلات وكتاب بيت لحم. سأحكى له عن مصطفى شرف الذى كرس لى ساعتين رغم التزاماته العديدة. وعن زيارة زوزو القصيرة للقاهرة مع أولادها.

ووعدته أن أقضى وقتا أكبر فى الإسكندرية. لكنى لم أقل له إننى سأدخل المستشفى بعد رجوعى من الخارجة ... لا أعلم متى سأخبره.

نجت أختى بأعجوبة! انقلبت سيارة البوليس التى كانت تقلها من مستشفى قصر العينى إلى القناطر! جرح السائق، أما إنجى فلم يصبها سوى ذعر كبير وبعض الجروح الخفيفة. حكت لى الواقعة وهى تضحك وأخبرتنى أنها شفيت ولن تعود إلى المستشفى فى الوقت الحالى.

-١٠-

وحده الجرح بطول خمسة سنتيمترات يشهد على الأوقات العصيبة التى عشتها فى المستشفى. ماما لم تفارقنى وتلقيت زيارات عديدة، هدايا وخاصة كتب. سبقنى أصدقائى إلى الإسكندرية وأظن أنى سألحق بهم فى المنتزه فى الغد. نصحنى الدكتور الذى زرته مرتين بعد العملية بالذهاب هناك وبالسباحة.

ما هذه المصادفة؟ إسماعيل وأنا كتبنا لبعضنا فى اليوم التالى لزيارة الواحد والعشرين من يوليه! ككل مرة أعيد قراءة الأسطر التى تخص شخصى للمرة الألف.

كان لا بد من هذا الفراق حتى يعبر لى عما يحس به وهو يقرأ نصوصى. طالما بدا حائرا عندما أقرأ له قصيدة من أشعارى، يسمعنى، يعيد القراءة ثم يضع الورق ويكتفى بقول: "جيد"... من أخبر إسماعيل يا ترى عن حادثة إنجى؟ وبالتفاصيل! على بعد مئات الكيلومترات!

قررت ماما ألا تسافر هذا الصيف وستقضى بعض الأيام عند زوزو التى فرحت كثيرا بالخبر. تلقيت رسالتين. استوقفتنى هذه الجملة فى رسالة إنجى: "يظل الأمل يحملنا ويحرك سرائرنا مما يجعلنا نضع نظارات وردية مشبعة بالتفاؤل". طويت الرسالة وأنا أبكى. لاحظت أنها فقدت الكثير من وزنها عندما زرتها فى المستشفى. ولا أستطيع حتى أن أبعث لها ببعض المغليات.

لكن ما يؤلمنى أكثر هو نبرة رسالتها. مهما تعنتت يبدو واضحا أنها تعبت. خاصة أن الجو حار هذه السنة.

كتب لى إسماعيل عن رؤيته النقدية لرواية ر فايون(٢٦) "لعبة غريبة"، لكن ما يستوقفنى كثيراً هو كلامه عنى.

لو رأيتنى يا حبيبى ذلك المساء عندما رقصت مع صديق لمينا! عندما استمعت لأغنية الأوراق الميتة Les feuilles mortes ! تركته فجأة وأنا أبتلع دموعى.

---

(٢٦) كاتب فرنسى من السرياليين (١٩٠٧- ١٩٦٥)

ها هم أصدقائى يعودون إلى القاهرة. قمت بزيارة مديرة المدرسة التى قالت لى إننى سأتولى هذه السنة فصول السادسة والثانية والثالثة. على أن أعود فى الأسبوع الأخير من سبتمبر لأتفق مع زملائى الفرنسيين والمصريين حول المواعيد.

٧-٨ سبتمبر

..."ملاحظاتك عن موت مارلين مونرو أثرت فى كثيرا. تصورى أن هذا الخبر كدرنا نحن أيضا. المأساة الإنسانية التى جسدتها هذه الوفاة ليست مأساة كونية كما يدعى البعض، لقد حدثت فى نظام اجتماعى بعينه، يجعل من الموهبة سلعة. وبالتالى يحكم على ممثلة كبيرة ألا تكون فى أعين الجمهور سوى رمز للجنس فى أبسط وأغبى تجلياته. أتذكر أن أحد السينمائيين السوفييت قال بمناسبة حفلة فى موسكو السنة الماضية على شرف كيم نوفاك: "تتحدث الصحافة الأمريكية عن الآنسة كيم نوفاك بوصفها رمزا جنسيا، وهذا التعبير لا معنى له بالنسبة لنا إذ نرى فيها ممثلة كبيرة...". عالمان مختلفان، وطريقتان للتفكير.

وضعت السماعة وأنا سعيدة. رتبت أخت زوجى كل شىء لزيارة ٢٨ سبتمبر. سأقضى الليلة عندها. وضعت فى كرتونة كبيرة وفقا لتعليمات زوجى الجرائد والمجلات التى اشتريتها من عند إيفات. واتصلت بصديقاتى لتسلمن لى الرسائل والأغراض لأزواجهن.

كانت الزيارة جميلة لكنهم صرفونا كما توقع إسماعيل فى تمام الساعة الثانية عشرة والنصف. تحدثنا رغم وجود أخته وكامل. أفضل طبعا الزيارات التى أقوم بها مع رفيقاتى.حتى يكون إسما لى وحدى، لكن من الطبيعى أن يرى أخته المحبوبة.

كان الدخول المدرسى طبيعيا. وتمكنت من الحصول على مواعيد تسمح لى بالمغادرة فى الساعة الحادية عشرة مرتين فى الأسبوع مما سيتيح لى، إن اقتضت الحاجة إمكانية التوجه للمكاتب اللعينة.

عانى الرسام داود عزيز من أزمة قلبية حادة. قضى فى السجن عقوبة سبع سنوات مضافا إليها سنة أخرى. من المفروض أن يطلق سراحه. قابلت خطيبته فى مكاتب مصلحة السجون لنطالب بإطلاق سراحه أو تحويله إلى المستشفى.

تنبعث من رسائل إنجى حالة من التعب المعنوى رغم ستار المزاح الذى تختبئ وراءه. بعد تنديدات ومشاحنات عديدة حصلت على بعض من لوحاتها. اضطررنا أنا وأختى، كل من جهتها أن نحارب أشباح هذه البيروقراطية حتى نحصل على أتفه الحقوق.

-١٢-

ها هو الشتاء الرابع بالنسبة للمسجونين وذويهم دون أن ننسى العشرين امرأة في سجن القناطر المحرومات من أى زيارة. تلقيت خطابا من أختى قلب أحشائى. قررت النساء القيام بإضراب عن الطعام. لم تكتب لى شيئا عن نوعية المطالب. ما أكثرها لا يهم! أوافق على هذا الإجراء رغم خوفى منه. كيف يمكن لهن تحمل الحرمان فى الوقت الذى هن فى الأصل محرومات من كل شىء، وصحتهن ليست على ما يرام؟ الرجال على علم! كيف؟ وصلنى خطاب قصير من إسماعيل.

٤ نوفمبر: " أخبار عن أختك وزميلاتها تدفعنى للكتابة إليك فورا. يبدو أنهن على وشك القيام بشىء مهم، وأن هناك إجماعًا على ذلك منهن. يمكنك أن تكتبى لى فى الحال متحدثة عن صديقاتك اللاتى قمن برحلة مبينة إن كُنَّ سيرحلن كلهن أو بعضهن وفى أى وقت... أمر آخر يبدو أن الندل الكبير زارهم ليلا كنوع من الاستفزاز. إن صح هذا الخبر أكديه بقولك إن الصديقات تلقين زيارة طبية. على كل حال فور تأكدنا من هذه المعلومات سنقوم بحركة تضامن معهن. لك أن تتصورى كيف أن قلوبنا تنبض على وقع الأحداث عند زميلاتنا العزيزات وأننا سنقوم بما فى وسعنا لمساندتهن... أظن أن هناك زيارات مقررة فى النصف الثانى من هذا الشهر. يجب أن تزودينى بأكبر قدر من الأخبار عن أختك...".

ماذا أستطيع أن أكتب لإسماعيل؟ كل ما قالته إنجى إن الإضراب سيبدأ فى الأول من سبتمبر. أكتب له أن... لكن هل سيصله هذا الخطاب؟ يبدو أن البريد السرى مذبذب بعض الشىء هذه الأيام.

بعثت تليغرافا لإسماعيل: "كل سنة وأنت طيب!". عيد زواجنا الحادى عشر. سيصله ربما يوم التاسع والعشرين. لن أدعو أحدا هذه السنة. لا مزاج لى لذلك. ثم إن انشغالاتى كثيرة فى المدرسة مع الامتحانات نصف السنوية. أخبرتنى والدة إحدى المعتقلات مع أختى أنهن بدأن الإضراب. أى يوم؟ اليوم هو الأول من ديسمبر. لا تدرى. لم تتوقف عن البكاء وهى تلوى أصابع يديها. لى رغبة أنا أيضا فى البكاء. أحاول أن أهدئ من روعها، أن أقنعها أن هذا العمل فى مصلحتهن، وأنه لا يمكن أن تعشن فى هذه الظروف بعد الآن. طبعا أخفيت الأمر على أمى. أنا سعيدة بعملى فى المدرسة الذى يمنعنى على الأقل من الغرق فى الأفكار السوداوية. أخبرت على الفور سيزا هانم، وجاكلين، ولطفى الذى يمكنه مع ليليان أن يخبر خالدًا. المهم أن أبعد عنى هذه الصور المجنونة التى تلاحقنى.

سكان الخارجة متوترون هم أيضا مثلى تماما. وصلتنى رسالة من إسماعيل كتبها الأول من أكتوبر. "ما هى أخبار الحمية التى تتبعها صديقاتك؟ لقد قرر بعض الأصدقاء هنا ممن شعروا أن وزنهم زائد أن يتبعوا هذه الحمية ابتداء من الغد. هل قلت لك أن..." كتب لى إسماعيل رأيه فى "الحصان الأبيض" لإلزا تريوليه(٢٧) ثم تطرق إلى النصائح الخاصة بزيارتى القادمة.

قدمنا احتجاجات جديدة لمدير مصلحة السجون الذى وعد بإعطاء أوامره لسلطات الخارجة. وصلنى خطاب آخر من إسماعيل. يعيش السجناء فى جو مشحون ولا يبدو أن القائد على استعداد للرضوخ لمطالبهم.

"منذ البارحة قام خمسة زملاء برحلة مثل التى قامت بها صديقاتك. من الضرورى أن تصلنى منك أنباء فى أقرب وقت. تشجعى يا صغيرتى. أفكر فى والدتك".

---

(٢٧) أديبة فرنسية من أصل روسى (١٨٩٦-١٩٧٠).

لا أعرف شيئا عن إنجى فيما عدا جملة جاءتنى من مجهول فى التليفون "أختك تسلم عليك. هى بخير لا تقلقى..".

ثم الصمت! انتهزت فرصة ارتباطى بحصة واحدة فقط فى المدرسة وقررت الذهاب إلى القناطر. دفعنى العساكر ورفضوا السماح لى بمقابلة القائد. كل ما استطعت الحصول عليه هو خبر نقل إنجى ورفيقاتها إلى مستشفى السجن.

كتب لى إسما: "كل يوم يمر يزداد فيه قلقنا. ماذا حصل لبطلاتنا العزيزات؟ هل ستصمد صحتهن؟ وإلى متى؟ نحن واثقون من إرادتهن ولا نفكر إلا فى صحتهن. إن إنجازهن هذا سيسجل فى تاريخ وطننا. سيظل محفورا فى الذاكرة. نحن فى حالة بحث دائم عن أى خبر، نترقب الرسائل لنسأل الأسطر ونحاول أن نقرأ بين ثناياها، نطرح شتى الأسئلة على أى زائر جديد. وننتظر على أحر من الجمر،...".

-١٣-

أخيرا! بعد سبعة عشر يوما وصلتني رسالة من ديدى، على قيد الحياة ومرفوعة الرأس: "إنه الانتصار أخيرا، طعمه ممتع بعد هذه المعركة المضنية. الرهان كان النجاح وعدم التوقف حتى لا يضيع كل شىء هباء ١٦ يوما أليس هذا جيدا؟ كانت الأيام الأخيرة صعبة للغاية والأعصاب مشدودة لأقصى درجة. عدد من النسوة كن فى حالة مزرية منهن واحدة على حافة الموت ورفضت أى علاج كما هو متبع. أما السلطات فمارست علينا ضغوطا شديدة محاولة تضليلنا بوعود كاذبة.

ثم جاءت زيارة رجال البوليس السياسى الذين طلبوا منا وقف الإضراب ليشرع فى دراسة مطالبنا لكننا أجبناهم: "لن نتوقف إلا بعد إطلاق سراحنا "حتى نثبت لهم أننا مصممات على الاستمرار إلى النهاية. مما جعلهم يتراجعون ويرسلون المدير للتفاوض معنا. هكذا شرعنا فى اليوم الخامس عشر فى المفاوضات مع الاشتراط بأن يحرر المحضر بحضور مسؤول، واضطر لإحضار ضابط من البوليس السياسى وتسجيل انتصارنا. أوقفنا الإضراب مقابل التزامهم بتلبية مطالبنا. بلغت الفرحة أوجها. وراح كل المسجونين هناك، الذين كانوا يتابعون إضرابنا باهتمام وتعاطف، يصرخون ويطلقون الزغاريد. كان المشهد مؤثرا. أنا متفائلة وأظن أنهم سيطلقون سراحنا قريبا. فى غضون شهر أو شهرين ربما. أما المطالب الأخرى فستنفذ خلال هذا الشهر؛ لذا قومى بإجراءات طلب الزيارة فى أقرب وقت...".

مسحت دموعى وأنا أبتسم. ما أحلى الأمل. لكن على أن أتحرك. أن أكتب لإنجى وأسلم الرسالة للسجانة الشابة التى ستمر غدا.

نعم يا ديدى لقد تحدثوا عن الموضوع فى الراديو! أخبرتنى سيزا هانم بالموضوع مرتين. وأورد مذيع البرنامج الإنجليزى فى راديو براج بعض أسماء النساء المضربات منهن اسم إنجى.

صاحت ليليان التى أخبرتها بالتليفون: "مبروك، بولى، مبروك!".

اقترحت على أن أقضى بعض الوقت عندها، وفكرت فى استغلال هذه الفرصة لكتابة طلب زيارة بالعربية.

الحظ يحالفنا هذا الصباح. استقبلنا المدير العام للسجون. رجل أشقر ومحمر البشرة مبتسم وبشوش. طلب منا الجلوس. وزراءه تلك الصورة لعبد الناصر التى يبتسم فيها إلينا دائما كما لو كان يسخر منا. استمع لطلباتنا بخصوص الممنوعات التى تفرض على نزلاء الخارجة. أصدر تنهيدة عميقة ووعدنا بالتوسط حتى يستعمل طباخ السجن ما نرسله من مأكولات إلخ. وعندما بدأت الحديث عن أختى قضب حاجبيه!

"إنجى أفلاطون أختك؟... فنانة تشكيلية أليس كذلك؟ بالنسبة للزيارات لم تصلنا أوامر بعد... اصبرى قليلا! بالنسبة لإرسال المأكولات تعالى الأسبوع القادم....". وددت لو قلت له إنه هو وعصابته قد قبلوا بشروط المعتقلات. لكننى آثرت السكوت. من الأفضل ألا يعرف أننى على علم بكل التفاصيل.

٢٤ ديسمبر. فى هذه القاعة التى أعطى لها لقب الصالون اقترب العديد من المساجين منى ليسلموا على: "مبروك! مبروك! لأختك وزميلاتها...". أجواء من الفرحة بطعم الاعتزاز الزاهى. سمح القائد للمسجونين الذين ليس لديهم زيارة بالدخول، وراح يسترق السمع لما أقوله لهم. أشعر بنظراته تسقط على. "لا تبالى. مثل كل الضباط والعساكر فى السجن لا يصدق أن إنجى وزميلاتها صمدن كل هذا الوقت. ليس أمامهم سوى أن يحترمهن وخصوصا أختك المنحدرة من عائلة كبيرة...".

لماذا يطلب منى إسماعيل عند كل زيارة إذا كان عندى أخبار بينما تصله كلها؟ يسخر منى لما أقول له إننى لا أوافق عبد الناصر سوى فى سياسته الخارجية.

"الشؤون الداخلية؟... هذا الرجل دكتاتور، متسلط أكرهه... كلما شاهدته فى التلفزيون تمنيت أن يموت...". لا وقت لنا للتوغل فى هذه النقاشات لكن إسماعيل يوافق على الإجراءات التى تم اتخاذها مؤخرا.

"سنتحدث فى الأمر لاحقا..." قال بلطف.

فيما عدا يوم جنازة صلاح سالم سنحت لى الفرصة برؤية الرجل الذى يحكم بلادنا مرتين. فى المرة الأولى أغلق الأمن مدخل شارع ٢٦ يوليه فنزلت من التاكسى لأرى ما يحدث. مرت سيارة بوليس ثم ثلاثة موتوسيكلات تحيط بسيارة الرئيس المكشوفة. كان عبد الناصر وملك أفغانستان يلقيان التحية على بعض المتجمهرين البلهاء! بالكاد لمحت الملك الذى توارى وراء قامة عبد الناصر العريضة. المرة الثانية كان عبد الناصر فى سيارة مكشوفة أيضا برفقة بن بلا.

وأتساءل دوما: كيف أن هذا الرجل الذى يساعد الشعوب المستعمرة على التخلص من الاستعمار الخارجى، الذى يقود حربا ضروسا ضد الإمبريالية، والذى يساند بقوة المناضلين الجزائريين، يخشى إلى هذه الدرجة الديموقراطية؟ كيف لا يمكن ألا يفهم أن تطور وتقدم هذا البلد الذى يكن له حبا عميقا، مستحيل ما دام مثقفوه يقبعون فى السجون؟.

أعمال السد العالى تتقدم وتؤكد الشائعات أن رجل الاتحاد السوفييتي الأول سيحضر نهايتها... ويذهب البعض إلى أن خروتشاف لن يحضر قبل إطلاق سراح المسجونين... أما أنا فلا أرى شيئا فى الأفق.

"هى بخير"، قالت لى السجانة. "لا يزلن فى المستشفى"، ثم سحبت من صدريتها رسالة صغيرة... اكتشفت وأنا أقرؤها المتع الصغيرة ولحظات السعادة التى تعيشها

إنجي وصديقاتها في هذا المستشفى، لحظات حرية لم تعشنها منذ ثلاث سنوات... أخط بسرعة بضعة أسطر بينما تشرب السجانة الشاي.

كان علي ألا أقبل الدعوة لحفل رأس السنة هذا. لكنهم ألحوا. ولم أجنِ منه سوى نصيب وافر من الاكتئاب. حل علينا عام ١٩٦٣! وعندما أطفؤوا الأنوار لم أتمالك نفسي وبكيت.

كل سنة وأنت طيبة يا بولي! كل ما يشتهيه قلبك!". ذهبت إلى الحمام مسرعة حتى أتفقد ماكياجي. انتظرت أن يهم أحدهم بالرحيل حتى يرافقني. لكن قبل ذلك كان لا بد من العشاء. رقصوا بينما جلست في ركن أنظر إليهم وأدخن وأنا أبتسم كالبلهاء. أنا على بعد أميال من هنا. حيث يقبع إسماعيل وإنجي وسط ديكور لا أعرفه ولا أرتاح له. ماذا أكلوا هذا المساء؟ على الأقل تشاركت إنجي مع زميلاتها في الديك الرومي الذي طبخه محجوب.

أغمض عينيّ وأطفئ الأنوار. متى؟

(٧)

بزوغ الفجـــر

-١-

الحياة مستمرة كما هى. ألقى دروسى، أكتب قليلا لنفسى، وكذلك لإسماعيل وإنجى. تشعل رسائلهم وخطاباتهم القصيرة فى أعماقى أفراحا صغيرة وباهتة.

صحيح أننى أستمتع كثيرا بالحنان الجارف الذى يعبر عنه إسماعيل فى رسائله، لكننى لا أستطيع أن أطفئ نار الغضب التى تشتعل بداخلى كلما قرأت رسائل أختى.

يبدو أنهم سيطلقون سراح إحداهن فى شهر فبراير. وإن قررت المباحث إبقاءها فى السجن فهذا فَألٌ غير سار. هل ينوى هؤلاء الأوغاد عدم الوفاء بوعودهم؟ لقد غامرت السجينات بحياتهن على مدى ١٦ يومًا للحصول على مكاسب فى غاية الضآلة... أنتظر سيزا هانم العائدة من موسكو. ستساعدنى فى الرد على منظمة العفو الدولية. يبدو أعضاء هذه المنظمة على دراية تامة بما يحدث داخل السجون المصرية. أرسلوا لى بطاقات وكذلك إلى نزلاء الخارجة.

وصلنى أخيرا خطاب من إسماعيل مؤرخًا بيوم ٩ فبراير. ظروف معيشتهم لم تتحسن بل العكس، دأبت السلطات على شد الخناق عليهم لدرجة تعريض حياتهم للخطر. وحتى وإن طبق سقف العشرة جنيهات فى بوفيه السجن فهم لا يستطيعون

الحصول على الدواء. ولا يزورهم الدكتور إلا يوما واحدا فى الشهر...! نصحنى إسماعيل بعدم الذهاب هناك أثناء عيد البيرم الصغير بسبب الزحام.

يوشك شهر رمضان على الانتهاء. يراودنا الأمل فى إطلاق سراح من انقضت مدة سجنهم. لم يفرجوا إلا عن اثنين. وزميلة إنجى؟ لا شىء.

-٢-

هذا الربيع حار. الزهور فى كل مكان. اشتريت لنفسى ست ورود وباقة أدونيس. أدندن وأنا أنهى زينتى. على أن أنهى تصحيح الكراريس قبل أن أكتب لإسماعيل وإنجى.

لم يطلق سراح من قضوا مدة عقوبتهم. احتجت عائلاتهم دون فائدة. كلنا محبطون للغاية. إلى متى ستستمر هذه التراجيديا العبثية؟ لكن الشائعات عن الإفراج القريب مستمرة مما يزيد الغضب الكامن فينا. ها هم يطلقون سراح أربع نساء من سجن القناطر. وها هو الأمل ينمو فينا ثانية مثل برعم زهرة وليدة. أيكون الإضراب عن الطعام قد أثمر؟ ربما سيتم الإفراج عن النساء بالقطارة. ثم الرجال. قبل قدوم خروتشيف.

أكد لى البارحة أصدقاء للطفى عندما كنت عند ليليان أنهم سيفرجون عن النساء قريبا. هل أصدق هذا الكلام؟ كلام جميل ومتعب فى الوقت نفسه.

قررت لولو فسخ خطوبتها! أفكر فى ميستو الذى اقترح عليها عدة مرات أن يعيد لها حريتها. صدمة قوية على مسجون طالما حلم بخطيبته، ورسم صورة مثالية لهذه الفتاة الصبورة والمثابرة. كيف سيتقبل الأمر؟ سيصعب عليه تفهم الوضع. لا يمكنه أن يتصور الجو الذى عاشت فيه لولو خلال كل هذه السنين الطويلة والصعبة. أربع سنوات مدة طويلة بالنسبة لفتاة تتمنى أن تتزوج وتؤسس عائلة. فتاة لا تشارك أفكار واهتمامات خطيبها الذى تعرفه بالكاد! أتفهم موقف لولو، ولا أحكم عليها، لكن ميستو؟

-٣-

انتهيت للتو من قراءة حوار إيريك رولو. كل الإجابات التى أعطاه إياها الرئيس مثالية. أكد عبد الناصر أنه لن يوجد بعد الآن معتقلون سياسيون فى سجون مصر. قريبا! أظل حذرة. ما يضيره فى القيام بمثل هذه التصريحات؟ التقيت بإريك الذى كان مبهورا بعبد الناصر مثل كل من التقوا به. لعبت كاريزما الرجل دورها مرة أخرى.

وصلنى خطاب قصير من إسما كتبه على عجل وزاد من توترى: "كنا على علم بهذا الحوار. لكنى أظل حذرا. أظن أن الأمر يتعلق، إلا إذا وصلتنا معلومات أوفر، بالمعتقلين الذى قد يوافقون على عدم مزاولة نشاط سياسى، وعلى ترك أى نشاط شيوعى ومغادرة الحزب. باختصار الأمر يتعلق بطرح شكل مخفف من الاستنكار. زد على ذلك أن هذا سيتم تدريجيا. من المؤكد أنهم سيجدون بيننا مائة تقبلوا الخضوع لهذه الشروط. مهما يكن، فإن الاختبار الحقيقى هو إطلاق سراح النساء وخاصة أختك. ومع هذا انتابت الكل حتى أكثرهم يسارية، موجة من التفاؤل! أنا سعيد بموقفك المتحفظ...".

دخل شهر يوليه واحتفالات الثورة تقترب. لن نتمكن من الاحتفال بها. ربما على الذهاب إلى الإسكندرية. تلقيت دعوة من زوزو وماهى. ماما أيضا تريد أن أغير جوا. ربما الأسبوع المقبل. أحب البحر والسباحة لكننى أفتقد الحماس. أفكر فى عبد الناصر! كل من اقتربوا منه أكدوا لى أنه ذكى. إذن؟ أعمال السد العالى تتقدم ومن المفروض أن يحضر خروتشيف ختامها.

-٤-

الاثنين ٢٩ يوليه ١٩٦٣: "زوجى العزيز إسماعيل.

من أين أبدأ؟ وددت لو رأيت بنفسك عودتها إلى البيت... كنت فى أمسية الرابع والعشرين أحتسى الشاى عند صديقة. تحدثنا عن الإشاعات المتعلقة بالإفراج عن المعتقلين. وفكرت فى الاتصال بليليان. فرد على زوجها قائلا:

"بولى؟ هل وصلت أختك؟... اذهبى إلى البيت... صدقينى تم إطلاق سراح النساء...". وضعت السماعة وأنا فى حالة من الذهول وعدت مسرعة إلى البيت. ما إن فتحت الباب حتى سمعت محجوبًا يقول ووجهه مبلل بالدموع أو العرق لست أدرى: مدام إنجى خرجت!. واتكأت ماما على الدرابزين: "يبدو أن أختك فى المباحث...!" كانت تنتظر منى تأكيدا لهذا الخبر. ثم شرح لى محجوب أن شخصا اتصل بهم طالبا أن يذهب أحدنا لانتظار إنجى فى المباحث. خرجت مثل المجنونة وأنا أبتلع دموع الفرحة. وعندما وصلت إلى ذلك المبنى الكئيب وجدت ضابطا وعسكريين تعرفت عليهما فى الحال ينتظران بجوار امرأة وبعض الأمتعة أمامها على الأرض. نادوا سائق التاكسى الذى أستقله. دفعت الأجرة وأنا أرتعش من الخوف، إذ كنت متأكدة أنهم سيمنعونى من الدخول إلى هذه المكاتب التى طالما زرتها خلال السنوات الأربع الماضية. سلم على الضابط وهو يبتسم: "مساء الخير يا مدام، مبروك! إنها هنا ادخلى لانتظارها.". وقالت لى السيدة التى كانت تتأهب لركوب التاكسى: "مبروك". مضيفة أن إنجى فوق. قلت لها مبروك وأسرعت نحو صالة الانتظار الواسعة التى أعرفها جيدا. طلب منى العساكر والضباط الجلوس. لم يحدث رغم كل المآسى أن بكيت فى هذه الصالة. لكن ذلك المساء

لم أستطع أن أتمالك نفسى. انتظرت طويلا إلى الساعة التاسعة وربع. عذاب مرير. لا يلزمهم سوى بضع دقائق لوضع الناس فى السجون ثم يستغرقون أياما طويلة لإطلاق سراحهم. سمعت أصواتا ومن بينها تعرفت على صوت إنجى وضحكتها. ثم ظهرت فجأة بصحبة زميلاتها! كانت بحالة جيدة كما لو أنها عادت من مشوار قصير.

صادق وفاطمة ومحجوب كانوا فى انتظارها أمام الباب المفتوح. أما السيدة ماما فكانت تحتسى كأس الويسكى فى الروف. أمرت أن يجهزوا لها الحمام، لكنها لم تشأ أن يرتبوا سريرها ولا سريرى خوفا من إحباط آخر.

إنجى لم تأكل كثيرا. ونحن أيضا. نمنا فى منتصف الليل بعد أن أنهكنا التعب والضغط النفسى. واستيقظنا فى الفجر. امتلأ البيت بالضحكات وصرخات السعادة. وما إن وصلت الساعة إلى الثامنة حتى بدأنا ماما وأنا فى مكالمة أصدقائنا. كان علينا أيضا أن نهتم بإنجى. بعد أربع سنوات وراء القضبان كانت بحاجة إلى ثياب جديدة. كلمنا زوزو فى الإسكندرية. صوت بولى أو صوت إنجى. فى البداية كان صعبا على الجميع فهم ما يجرى، خاصة أن أصواتنا أنا وإنجى متشابهة.

حددنا بعد هذا موعدا عند الكوافير. وذهبنا إلى أتيليه الخياطة، حيث بكت فيكتوريا المسكينة. جربت أختى الفساتين واندهشت لموضة الألوان الصارخة. سلمت جنى عليها عندما وصلنا إلى الكوافير: صباح الخير مدام إسماعيل!

سأهتم بك بعد خمس دقائق." ثم نظرت إلى وانتفضت عندما تعرفت على أختى. وتكرر المشهد نفسه بعد بضع دقائق دخلت سيدة من أعضاء نادى الأتيليه وسلمت على. ظلت أختى تحدق فيها فى المرآة، فنظرت إليها السيدة وأصدرت صرخة صغيرة من وقع المفاجأة: " إنجى! مش معقول..". بعد الكوافير اشترت إنجى لنفسها أحذية. ثم عدنا إلى البيت، حيث وجدنا ليليان. وظل جرس الباب يدق باستمرار وتوالت باقات الورد. جلسنا فى الروف والتليفون لم يتوقف.

استأجرت ماما شقة صغيرة فى الإسكندرية مكونة من حجرتين. سنقضى فيها شهر أغسطس. نسيت أن أقول لك إن ثريا وكامل جاءا لتهنئة إنجى البارحة بعد الظهر. وتنوى أختك زيارتك فى سبتمبر... انتهى نصف الكابوس... قلب ماما هدأ بعد عودة ابنتها، أما أنا فقد استرجعت أختى وصديقتى. الإحساس رائع. ولم يبق لى سوى أن أغزل ما تبقى لى من صبر فى انتظارك...". تأثرت إنجى كثيرا بالبرقية التى أرسلها لها إسماعيل. التليفون! لدى نوال خطاب صغير يخصنى.

وها أنا أدخل ثانية فى النفق المظلم: "... علمنا للتو رحيل حوالى مائة سجين من الفيوم بهدف تسريحهم. لكنهم منعونا فى الوقت نفسه من الجرائد. الموضوع مقلق. علينا أن نحتج على هذا الإجراء الغريب...".

"مزعجة مسألة الجرائد هذه، هل ستحتجين؟".

"طبعا من الغد. وبما أنك هنا ستكتبين لى خطاب احتجاج بالعربية. سأستغلك من هنا فصاعدا...".

-٥-

عدنا إلى القاهرة بعد ثلاثة أسابيع قضيناها فى الإسكندرية. وجدت فى انتظارى رسالة من إسماعيل:

"... جعلتنى رسالة ٢٩ يوليه أعيش معكم لحظات السعادة... نقلوا من هنا ٧٠ شخصا إلى الفيوم لتسريحهم. لكن الأمور تسير ببطء شديد. لنعد إلى مسائلنا، أحدث إطلاق سراح نينى هنا موجة من السعادة. لا شك أن الأصداء وصلتكم عن طريق زيارات زميلاتها. إنهن رائعات ويمثلن أكبر شرف للمرأة المصرية.

اشكرى نينى على هديتها. لكن الشورت طويل للغاية، هل لى أن أستنتج أنكما تجدان مؤخرتى كبيرة لهذه الدرجة؟

ألا تبالغان قليلا؟ من الممكن أن يكون جسمى غير متناسق نوعا ما لكن ليس من هذه الناحية...".

قرأت الرسالة لأختى واسترسلنا فى الضحك بالدموع. لكنى تركت لنفسى الإطراء الذى وجهه لى. ماذا يجرى مع البريد؟ أخبرتنى بوليت أن الشخص الذى ينقل الرسائل لن يأتى هذه الأيام. وبدت لى عصبية فى التليفون. كانت أجوبتها مبهمة. لست أدرى ما بها. أشعر أنها لا تريد مقابلتى. لست أدرى ربما يهيؤ لى.

سأكتب لإسماعيل خطابا بالعربية لأخبره عن زيارتنا أنا وثريا. أنا فخورة جدا بما يكنُّه لى من تقدير، لكنه ينسى أننى أعيش فى أجواء مرفهة عكس الكثير من أهالى السجناء. خبر نقل بعض السجناء إلى الفيوم ينعش آمالى، لكننى أتساءل: هل

سيتركون من رفضوا التوقيع على التوبة فى السجون؟ وهل صحيح أن خروتشيف قال لعبد الناصر إنه لن يزور مصر ما دام هناك شيوعيون فى السجن؟

-٦-

"هناك سيدة تطلب مقابلتك ولم تعطِ اسمها...".

وجدت فى الصالة امرأة سمراء طويلة القامة ذات شعر أكرت كثيف. توجست للتعبير المرسوم على وجهها.

"مساء الخير تفضلى..".

"الحمد لله أننى وجدتك!". تحدثت بسرعة وبعصبية. " عندى أخبار سيئة... اثنان من المساجين هربا من السجن... ولم يجدهما العساكر! أبو حرارى ورفيق آخر مكوجى. لا تذهبى إلى هناك. عليك الانتظار. السجن فى حالة غليان... إحدى صديقاتى هى التى أخبرتنى وقالت لى أن أقول لك من طرف زوجك ألا تذهبى... الوضع سيئ! إنهم يخشون انتقامهم... يا ربى!..." ثم انهمكت فى البكاء.

هذا هو إذن سبب تصرف بوليت. من المؤكد أنها كانت على علم بهذه العملية السيئة وأنها ساعدت زوجها. لكن كيف هربوا فى الصحراء؟ الأوغاد لم يفكروا فى عواقب فعلتهم هذه. صعدت فوق لأحكى الواقعة لإنجى. فتحت عينيها البنيتين وحدقت فى قليلا. ثم سحبت الدخان من سيجارتها بينما كنت أشعل سيجارتى.

"لا تقلقى. انتظرى أن نتأكد من الخبر، أن تصل تفاصيل أكثر. لكن من المؤكد أنه عمل سيئ جاء فى الوقت الذى بدأ الوضع يبشر بالأمل... على كل حال تأكدى أنهم لن يتركوهم يفرون". أشعر رغم هذا أن أختى قلقة مثلى. من المؤكد أن إدارة السجن غاضبة وأن رد فعلها سيكون عنيفا.

نهتز كلما رن جرس الباب أو التليفون. انتظرنا لمدة يومين أى خبر قادم من الخارجة. وعندما وصلنى أخيرا خطاب منه فتحته بيدين مرتعشتين:

"صغيرتى،

أكتب لك هذه الأسطر على عجالة لأعطيك أخبارا ليست سارة. وقع هنا حادث ولسنا مسؤولين عنه - لا أستطيع التبحر فيه الآن- نظن أن السلطات ستستعمله رغم هذا لتفرض علينا إجراءات حبس سيتدهور بسببها وضعنا. قد نفقد كل الامتيازات الحالية وربما ما هو أكثر. صحيح أن الوضع السياسى مختلف عما كان عليه أيام أبو زعبل. لكن علينا أن نستعد لأى شىء...". زوجى متوتر! وهذا الخطاب كُتِب فى الخفاء وبسرعة! ها هى إنجى تسخر منى: "أنت تبالغين يا بولى! إنها مخاطرة أن يكتب لك، إن اكتشف من المؤكد أنه سيعاقب. وصول هذا الخطاب إليك معجزة فى حد ذاتها...".

فى الصباح التحقت بصديقاتى فى مكاتب مصلحة السجون. طالبنا بحقنا فى الزيارة كما هو مقرر دون أن نظهر للضباط أننا على علم بما جرى.

"عودوا بعد أيام. لست المسؤول عن هذا ورئيسى فى إجازة...".

"لماذا بعد أيام؟ علينا أن نتفق لننظم السفر...".

"لا أستطيع أن أقول شيئا... لست على علم بأى شىء... صالح بيه غير موجود...".

بعدها بيوم وصلتنى رسالة أخرى هدأت قليلا من روعى "السمة الأساسية للحياة داخل السجن هى عدم الاستقرار. لا يظل شىء على حاله ولا نظام اعتقال على حاله. هناك دائما حادث تافه أو خطير مقصود أو عارض يطرأ من حين لآخر ولو للحظة فيزيد ظروف الاعتقال قساوة وخطورة. تصورى أن هذا الندل الذى لا يفكر إلا فى نفسه استغل الجميع بطلب خدمات عدة ليحضر هروبه دون أن يفكر فى عواقب فعلته على الأربعمائة معتقل دون أن ننسى الضباط والمساكين الحراس... ولماذا كل هذا؟...

لم يتبق له سوى ستة أشهر من مدة عقوبته كان يمكنه بعدها الرحيل خارج البلد مقابل التخلى عن جنسيته. الأمر الذى لن يؤلمه كثيرا ما دام أرسل إلى الخارج أهله وأمواله. هذه القضية تثير تساؤلات كثيرة. على كل حال من المؤكد أن الهاربين لا علاقة لهم بعد الآن بنا، فهم لا يمثلوننا ونطلب من كل أصدقائنا أن يعاملوهم بكل تحفظ...".

"ما رأيك؟".

"هذا غير مطمئن. والإضراب الذى ينوون القيام به لمدة ثلاثة أيام سيوضح لهم الوضع. علينا أن ننتظر منهم إشارة لنتحرك. أفكر فى هذا الحرارى. لم يبق له سوى ستة أشهر وفوق ذلك آمال التسريح كانت كبيرة. أتساءل أين هو الآن؟ فى الصحراء لكن كيف يقتات؟..." ثم توقفت إنجى قليلا: "ربما كانوا ينتظرونه فى مكان ما...".

"عندما أسترجع الشريط تتضح لى عدة أمور. كلما التقيت ببوليت كانت تحدثنى عن النقود التى ترسلها لزوجها... هل تعلمين يا إنجى أنه خريج الآثار؟ وأظن أنه يعرف المنطقة جيدا... وأفهم الآن لماذا كانت زوجته مرتبكة. إذن هكذا غادرت مصر مع ابنتها، وأنا التى كنت أراها رائعة...".

-٧-

بعث فيَّ وجود أختى إلى جانبى الراحة. نتصفح معا رسائل إسماعيل. كل النساء اللاتى ذهبن إلى الخارجة أحبطن من الزيارة. تم طردهن بعد ساعة وعدن بطرودهن كما هى. لم يقبلوا سوى بضعة معلبات. طلب منى إسماعيل أن أنتظر. كم من الوقت؟ الانتظار لم يعد يطاق. ولم تعد هناك إجازة قبل عيد الكريسماس.

كل يوم تغلق إنجى على نفسها فى مرسمها لتحضر لأول معرض لها منذ ١٩٥٨ عاودت الانخراط بسرعة فى كل أنشطتها. تذهب إلى نادى الأتيليه، هى عضوة فيه، وتلتقى بزملائها من الفنانين والرسامين والنحاتين والنقاد التشكيليين. تزور المعارض حيث تلتقى بأصدقائها. أحيانا أذهب معها لكنى مشغولة بدروسى. لا أتلقى رسائل كثيرة من إسماعيل. لا تزال الزيارات قصيرة. ولم يعد يسمح لهم بالدخول إلى قطعة الأرض التى كانوا يزرعونها. لم تتغير إدارة السجن لكن إسماعيل يبدو لى متفائلا. وصلنى خطاب اليوم التالى لعيد ميلاد زواجنا..." عندما أخذه منى الضابط قال لزميله: اقرأ وتَعَلَّم كيف تكتب لزوجتك. شعرت بالحرج والغضب. ليس لهم زوجات مثل زوجتى..."... أقرأ الفقرة التى كتبها عن القطط لأختى. علمنا بدهشة أن ضباطًا من مصلحة السجون يقومون بدوريات تفتيش أسبوعية فى الخارجة. وأنهم وعدوا السجناء بتمديد فترة الزيارة. ما العمل إذن؟ فى الوقت الحاضر أُهُمّ بتحضير زيارتنا.

فى رسالته المؤرخة بالثامن من ديسمبر قال لى إسماعيل إنه عاد لترجمة كتاب رأس المال! "أعمل ثلاث ساعات فى اليوم...".

سعدت لهذا الخبر وقلت لنفسى إن كان يستطيع الكتابة هذا يعنى أنهم لا يفتشون العنابر، على الأقل ليس باستمرار. قال إن الترجمة ستتطلب منه عشرة أشهر من العمل. هل يظن أنه سيبقى فى السجن كل هذا الوقت؟ من المفروض أن يأتى خروتشيف فى شهر مايو... والكل يتحدث عن إطلاق سراحهم قبل هذا...

عندما مددت جسمى على الكنبة انتابنى إحساس بالراحة. إسماعيل مقتنع أن عدة أشخاص ساعدوا الهاربين، وأن سيارة كانت فى انتظار حرارى وزميله. هذا الأخير قليل الكلام والخبرة السياسية، ومن المؤكد أن الأول أثر عليه وأنه يختبئ فى مكان ما فى المزارع. أما أبو حرارى فقد خرج من مصر بجواز سفر مزور. وتأكد ضباط المباحث بعد أن استجوبوا مطولا السجناء أن هؤلاء لا يد لهم فيما حصل واندهشوا من رد فعلهم المستنكر.

-٨-

عام سعيد! عام سعيد! تبادلنا الابتسامات والتمنيات بالإفراج القادم. قدمنا طلبات الزيارة متمنين أن تكون الأخيرة. خمس سنوات مرت! يقال إن خروتشيف قادم... والشيوعيون فى السجون؟ هذا مستحيل! لكن مع هؤلاء السياسيين كل شىء ممكن. من المفروض أن يصل فى شهر مايو. ومايو لا يزال بعيدا... ربما أطلقوا سراحهم قبل ذلك... إن شاء الله! الله معهم.

حشد كبير أتى إلى افتتاح المعرض هذا المساء، بعض المسؤولين من وزارة الثقافة، ونقاد، وفنانون تشكيليون كثيرون. طبعا كل أصدقائنا هنا وأصدقاء أمى كذلك. ظل الزوار يتوافدون لمدة عشرة أيام. سعدت إنجى كثيرا بالتلغراف الذى أرسله إسماعيل "مع كل تمنياتى بالنجاح والتوفيق. إسماعيل".

تتوالى الأيام والشهور. تم إطلاق سراح من نقلوا إلى الفيوم دون شروط! اثنان وثلاثون مسجونا تركوا الخارجة ليطلق سراحهم.

أبكى من السعادة. فهذه الأخبار السارة تفتح أبواب الأمل على مصراعيها. هل لى أن أتشبث به وأنا أفكر فيهم. ربما يقوم عبد الناصر بالعفو عنهم. لم أصدق كامل عندما قال لى إنهم سيحررون مع أن مصادره تبدو موثوقًا منها. لكنه ميال للرياء ولهذا أشكك فيما قاله. وعرفت بالصدفة أنه يخالط عبد الحكيم عامر وزير الحربية. لكن ما لهذا الأخير بقضية المعتقلين الشيوعيين؟

أحضر زيارتى المقبلة. الساعة الخامسة. أستمع إلى حديث أختى وأنا أحتسى الشاى. الراديو يبث مقطوعة لهايدن.

"مدام بولى هناك سيدة تطلبك...". الصوت فى التليفون خافت ومبحوح. "كنت فى الخارجة. حصل شىء فظيع. أطلقوا الرصاص على المسجونين... مات واحد منهم. الدكتور إسماعيل أصيب فى رأسه...". الدم انحسر عن عروقى ولم أشعر بالرعشة التى استولت على كل أعضائى. نهضت إنجى وسألتنى: "ماذا هناك يا بولى؟"... أومأت لها بالانتظار. "هل أنت متأكدة؟ إصابة إسماعيل خطيرة؟...".

"لا أعرف... اتصلت لأخبرك. عدد المصابين كبير". المرأة تبكى. "اهدئى! هل أستطيع مقابلتك؟". هزت إنجى رأسها موافقة. واتفقنا على اللقاء عند داتى.

"سأخبر داتى...". وراحت إنجى تتصل بها "الأمر فظيع! لماذا؟ ماذا حصل؟ سأتصل بماما ونوال...".

عندما دخلنا الصالة وجدنا تانت وديدة جالسة وهى تبكى. وبعد بضع دقائق أدخل السفرجى سيدتين. زوجة وأمًا. كن ثلاثة ذلك الصباح أمام باب السجن وفى أيديهن تصاريح الزيارة. ثم قال لهن العساكر إن الزيارة ممنوعة. وأصرت النساء على مقابلة المدير: "الزيارة ممنوعة بسبب الظروف..." قال أحد العساكر. " أية ظروف؟". ورحن يضربن بأيديهن على الباب ويصرخن. فجاء أحد الضباط وموارب الباب. شرحن له الرحلة الطويلة والمضنية وكيف أنهن لا تعلمن شيئا عن أزواجهن منذ أربعة أشهر. فسمح لهن بالدخول. الحكاية أن المسجونين قاموا باحتجاج وفى الحال أمر القائد بتدخل العساكر الذين أطلقوا النار. قتل أحدهم وجرح آخرون من بينهم إسماعيل. النساء فى حالة إرهاق شديد. اتصلن بى من المحطة. "الدكتور إسماعيل يرجوك أن تلغى الزيارة... لا يريدك أن تأتى الآن...".

عم القلق والتوتر. ما العمل؟ تشاورنا. هل نحتج لدى السلطات؟... هل نحاول مقابلة سكرتير الرئيس؟ فجأة جاءتني فكرة.

"ماذا لو ذهبنا لمقابلة حسنين هيكل على أفواج؟ رئيس تحرير الأهرام. إنه قريب من عبد الناصر والتقيته السنة الماضية على البلاج. حينها قال لى إنه سيكون دائما على استعداد لمساعدتى...". كلهن وافقن. سأفعل هذا من الغد. ربما يكون من الأفضل أن أذهب بمفردى. أعرف سكرتيرته صديقة ليليان. لا أظن أنه سيرفض مقابلتى. أما تانت وديدة والأخريات فعليهن إخبار أكبر عدد من الأهالى للذهاب إلى مختلف المكاتب للاحتجاج. الظروف مواتية لذلك لكن الوضع غريب. يطلقون سراح البعض ويطلقون الرصاص على البعض الآخر. ما هذه المزحة الكئيبة؟

ظلت صورة وجه إسماعيل الملطخ بالدم تسيطر على أفكارى، فلم أغمض عينى طول الليل. وفى الصباح عندما نادتنى إنجى كنت متأهبة. (هل كان لى دروس يومها؟) كل ما أتذكره هو مشهد وقوفى أنا وإنجى فى مكتب السكرتيرة. استمعت إلينا وقد بدا على وجهها الرعب وطلبت منى مرافقتها. أما إنجى فانتظرتنى عند لطفى.

وجدت داخل المكتب ثلاث نساء. زوجات معتقلين جئن مباشرة من المحطة. كن فى الخارجة. الرواية التى قدمنها لهيكل تبدو أكثر غموضا من الروايات الأخرى. لكنهن على علم بإطلاق الرصاص بأن هناك جرحى ومن بينهم إسماعيل.

استقبلنى هيكل بلطف وطلب منى أن أحكى له ما أعرفه. تشابكت يداه على مكتبه الكبير المليء بالملفات الذى تزينه وردة حمراء داخل زهرية ضيقة. استمع إلىّ وقد بدا على وجهه الوجوم. "هل جرح فى رأسه؟".

"نعم قلنا لك هذا" قالت إحدى النساء التى تعرفت عليها. إنها فاطمة زكى زوجة نبيل الهلالى المسجون فى الخارجة. أما هى فكانت معتقلة مع إنجى.

"الجرحى كثيرون" واصلت فاطمة. "أنت ترى أننا نروى الوقائع نفسها..." تنهد هيكل: "لا أفهم، من المفروض أن يطلق سراحهم...". قالت رفيقاتى فى نفس واحد: "كيف؟ هل هذا صحيح؟ إذن لماذا؟...". أوقفهن هيكل بإشارة باليد وهو يبتسم: "اهدأن من فضلكم.. لا داعى للعصبية...". وأمسك التليفون. رفع رأسه وراح يقول بصوت منخفض: "تم إعطاء أمر التسريح للجميع... إيه الحكاية؟ هو فيه حكومتان ولا إيه...". لم نسمع غير هذا. أشعلنا أنا وفاطمة سيجارة، إحدى النساء تمسح دموعها وأخرى تلعب بأصابعها بعصبية. ولا واحدة منا مؤمنة بإطلاق السراح هذا. والقلق يعصر قلوبنا. قتيل وجرحى! يبدو أن هيكل اتصل بأحدهم. ها هو ينتظر. ثم تكلم بصوت منخفض. تعلقنا بشفتيه. ها هو ينظر إلىّ ويرفع حاجبيه ثم يهز رأسه. بضع كلمات ثم وضع السماعة. اتكأ على المكتب وقال: "فعلا توفى شاب..." سمعت حينها بكاء. ثم أضاف: "الدكتور إسماعيل بخير الآن. بعض الغرز. لكنه مخطئ. ضرب القائد...". فوقفت فجأة "غير ممكن!". ورفعت صوتى محتجة: "إنها أكاذيب! أنت لا تعرف زوجى. إنه رجل يحافظ دائما على هدوئه..!". الغضب يتملكنى "إسماعيل له أعصاب من حديد".

"طيب، طيب" قال هيكل بتعاطف. "أنا أقول ما قيل لى. على كل حال فتح تحقيق وسينقل الدكتور إسماعيل إلى المستشفى. ارجعن لبيوتكن وأنتن مطمئنات ومتفائلات. صدقننى سيطلقون سراحهم عما قريب...".

أكد لطفى ما قاله هيكل.

"ساعد هيكل ليليان عندما كنت فى السجن. واستطاع أن يحصل لها على تصريح لزيارتى. لهذا أؤكد لك أنه صادق عندما أعرب لك عن دهشته لدى سماعه القصة المروعة. لقد أخبرنى منذ أسبوعين أن المعتقلين سيطلق سراحهم جميعا... أظنه على حق، يبدو أن هناك حكومتين... وأن قوى أخرى تقف ضد التيار... اطمئنى. سيطلق سراحهم قريبا...".

-٩-

ها أنا أبدأ من جديد حياة مزدوجة. حياة زوجة قلقة تحارب من أجل إنقاذ زوجها وحياة مُدَرِّسة تقف كل صباح أمام تلاميذها. ودون هذه الأخيرة أتساءل اليوم: كيف كان لى أن أحتمل ذلك المشوار المضنى لمدة ثلاثة أسابيع؟

لم تفلح كل تحركاتى يمينا وشمالا. والأجوبة المبهمة التى تلقيتها أشعلت قلقى أكثر فأكثر. قيل إن إسماعيل نقل إلى سجن إسنا! يبدو أن زوجى يقوم رغما عنه بجولة عبر كل سجون مصر. لماذا إسنا؟ هل بالسجن هناك مستشفى.

وصلتنى رسالة بتاريخ ١٠ أبريل. قرأتها لى إنجى:

"جروحى طفيفة، وتم علاجى على الفور كما اتخذت التدابير اللازمة لحماية أرواحنا. قامت النيابة بفتح تحقيق. سيطول شرح التفاصيل هنا. لكنى أود أن أقول لك إننا كنا فى غاية الحماس عندما تم تسريح المعتقلين لأنه حدث مهم لبلدنا ولنا. وقبل أن تمر ساعة على هذا، جاء الاعتداء الوحشى المشين للبلد، لحكومته ولرئيسه وسياسته. على كل حال فهمنا أهمية وخطورة هذه القضية وبدأنا نحصى الخسائر.. حضر ممثلو النيابة فورا وبدأوا فى التحقيق بحضور عدد من الموظفين الكبار ومدير مصلحة السجون. غيروا كل إدارة السجن. واجتمعنا جميعا لدراسة هذه القضية والبحث عن المسؤولين داخل الحكومة عن هذه المؤامرة التى نظمت فى السجن... ليس من الضرورى أن تأتى لزيارتى. أكرر لك إننى بخير، نزع لى الدكتور الغرز التى فى رأسى. لا تنسى أن زوجك صعيدى ودماغه ناشفة تستحمل كل شىء مثل الفولاذ...".

"يا الله ما هذه الكتابة! إنها رسالة جميلة... شروع النيابة فى التحقيق شىء مهم... لكن إسماعيل لم يتحدث عن إسنا. ربما أرسلوه إلى هناك بعدما كتب هذا الجواب. أتمنى أن تكونى مطمئنة الآن".

"نعم أنا أحسن حالا الآن... لكنى أريد أن أرى كيف يمكننى الذهاب لرؤيته...".

"أنت مجنونة! أين ستذهبين إلى الخارجة أم إلى إسنا؟".

علمت أن زوجى فى إسنا وأريد زيارته. لكننى أفضل أن تصلنى كلمة منه. فى انتظار ذلك تلقيت مكالمات عديدة أغلبها من زوجات وأمهات معتقلين يسألن عن أخبار إسماعيل. هذا أثر فى كثيرا. لكن البعض ممن كُنّ يهنئننى على إطلاق سراحه أثرن أعصابى. لماذا الظن أنه سيخرج قبل الجميع؟

شهر أبريل يشارف على الانتهاء وها هى رسالة تصلنى من إسنا. قصيرة ورسمية بتاريخ ١٨"... التأم الجرح فى رأسى أما باقى الضربات التى تلقيتها على جسمى مثل التى على بطنى فيقول الدكتور إنها ستختفى قريبا...".

فى البطن؟ نظرنا إلى بعضنا بتوتر. إذن تلقى إسماعيل ضربات أخرى! لم يقل شيئا عن هذا فى رسائله السابقة.

"لا تقلقى ربما إسماعيل يضخم الموضوع قليلا للبقاء فى المستشفى... على كل حال فهو لا يحبذ ذهابك هناك. هذا أفضل. أرسلى له بسرعة كما طلب الخمسة جنيهات إلى إسنا...".

ها هو الانتظار ثانية. كلما ذهبت لزيارة أخت زوجى أفرغ شحنة غضبى فى وجه كامل الذى يردد دائما أن إسماعيل سيخرج.

جاءتنى مكالمة تليفونية لتخبرنى أن فوجًا من السجناء وصل من الخارجة إلى القلعة. والشخص لا يعرف إن كان إسماعيل من بينهم.

رميت نفسي في تاكسي بعد انتهاء الدراسة مباشرة نحو السجن. انتظرت... ظهر رأسان أخيرا وفهمت من الإشارات أن إسماعيل هنا وأنه على أن أعود في الغد!

في الغد جئت وفقا للموعد الغريب وانتظرت... كان إسماعيل مبتسما وفي حالة جيدة أما رأسه فكانت مغطاة بالضمادات. طلب مني أن أرتب زيارة. سبق وأن قدمت عدة طلبات. ربما أطلق سراحه قبل ذلك... سيصل خروتشيف في مايو ونحن في منتصف أبريل. ماذا ينتظرون؟

أقوم كل يوم صباحا أو مساء برحلة التيمن إلى سجن القلعة. للمرة الألف أقدم طلبات أخرى إلى إدارة السجون.

"أود الاطمئنان على حالته الصحية...". أكثر زياراتي لأخت زوجي وألح على زوجها بخصوص زيارة زوجي.

أخيرا حصل كامل على إذن زيارة. وقال لي بكثير من الغموض: "لا تكلمي أحدا عن الموضوع. هذا أمر خاص جدا...".

بالفعل الزيارة خاصة وغريبة. اكتشفت أمورا جديدة بالنسبة لي وعجيبة أيضا. كنت أتوقع الوجود في زنزانة ضيقة ومظلمة ووجدت نفسي في قاعة مضيئة ومريحة. سرير يغطيه ملاءة جميلة، طاولة عليها صورة امرأة وراديو وأباجورة. ستائر تحيط بالنوافذ وسجادة تغطي مربعات الأرض! وقف إسماعيل وكامل والضابط.

قبلنا بعضنا بتأثر وسألنا في الوقت نفسه: "كيف حالك؟" وعندها قال لنا كامل: "سأشرب قهوتي في الخارج، سأترككما تتكلمان".

"بسبب جرحي مكثت في السرير أياما عديدة. أنا الآن بخير وحتى لا أرحل إلى الخارجة وأمكث في المستشفى أطول مدة ممكنة، أتظاهر بالتعب...". أحد طرق الباب. جاء أحد الجنود بصينية عليها فنجانان قهوة ساخنة.

"ما هذا البذخ؟ ابتسم". ساكن هذه الغرفة مليونير قام ببعض الأعمال المريبة. اتهم وسجن وبفضل المال الذى يغدقه على الضباط حصل على هذه الغرفة. أثثها بمساعدة زوجته التى تأتى لزيارته هنا وتمضى الليلة أحيانا. لطيف أن يسلفنا إياها أليس كذلك؟" وطبع قبلة على صدغى.

"افهمى إنهم يعاقبوننى لأننى ضربت قائد السجن. فى البداية احتجزونى فى السر، ثم ولسوء حالتى حزت على مكان فى المستوصف... أنا هنا بخير. وجدت نفسى مع المجرمين المرضى! تصورى عثرت هنا على ميكى راتب! نعم ابن عم أصدقاء طفولتك! أصبحنا أصدقاء... دعانا لقضاء رأس السنة فى مطعمه على طريق الأهرامات. أما المجرمون فلا يزعجوننى بل إننى حصلت على اعترافات بعضهم... الحكايات مثيرة. سأحكى لك كل شىء بالتفصيل قريبا...". إنها المرة الأولى التى أرى فيها إسماعيل متفائلا، يتكلم حتى عن المستقبل القريب. تركته وأنا سعيدة ومطمئنة. متى؟ بعد بضعة أيام؟

لأسبوعين متتاليين ظللت أزور كل يوم جدران السجن. أنتظر ظهور إسماعيل من بعيد، أحيانا أكون بمفردى وأحيانا أخرى برفقة زوجات وأمهات رفقائه. نتحدث لمدة خمس دقائق أو أكثر بالإشارات. وسرعان ما تنتهى زيارة الصم والبكم هذه عندما يستشعر السجين المكلف بمراقبة الوضع قدوم أحد الحراس.

نتأرجح بين أمل جامح ومخاوف دفينة تغذيهما أخبار متضاربة. إفراج قريب أو ترحيل على الخارجة لتكملة بقية مدة العقوبة.

أطلق سراح خمسة عشر سجينا فى أواخر شهر أبريل. أنا وصديقاتى لا نعرف أيا منهم. أفراح وخيبات أمل. لما هؤلاء وليس الآخرين؟ كلمتنى والدة أحد المفرج عنهم: "زوجك بخير. لكن عليك أن تبذلى كل جهدك ليمكث فى المستشفى... إن شاء الله

سيخرج... مبروك...". الخطر لا يزال موجودا. سطا الخوف الذى يعترينى على الفرحة بخروج هؤلاء السجناء وما يعنيه.

مصر كلها تسبح فى بحر من الفخر بقدوم رجل الاتحاد السوفييتى الأول وبتدشين السد العالى. إذن؟ ما هى هذه القوة الغامضة التى تتلذذ بهذه اللعبة القاسية؟ لعبة تسمم ببطء أيام السجناء وعائلاتهم.

شهر مايو جاء حارا. فى المدرسة نحضر الامتحانات. عملى يبعث فىّ القوة وأنا أترجح بين قطبين. تلقيت مكالمة تليفونية تخبرنى أن إسماعيل سيرحل إلى الواحات فى قطار الساعة التاسعة، وأنه ينتظر أن أذهب إلى المحطة ومعى بعض الأكل. تصورت نفسى مرة أخرى وأنا أجرى فى تلك المحطة الكبيرة برفقة محجوب الذى يحمل الأكل. وصلنا أمام القطار المتجه إلى الصعيد. بحثنا عن وجه إسماعيل عبر كل النوافذ. أكدوا لنا أن هذا القطار ليس فيه عربة للسجناء. صعدنا رغم ذلك بحثا عن جنود وفتشنا فى كل مكان. واضطررنا للنزول عندما بدأ القطار يتأهب للرحيل. ترنحت وكدت أسقط بينمّا احتبست دموعى فى حلقى. أخذنى محجوب من ذراعى وقادنى إلى المخرج.

إسماعيل لم يرحل! تأكدت من الخبر فى الصباح. لم أفهم شيئا من إشاراته. استرجعت بعض الهدوء وتوجهت إلى المدرسة ومنها إلى ثريا. استمع إلىّ كامل هذه المرة ولم يقاطعنى كالمعتاد بوعوده المعهودة. قضب حاجبيه، ووعدنى أن يقابل مدير المباحث.

بعد ثلاثة أيام، فى السابع من مايو اهتز التليفون بينما كنا نتحدث أنا وكامل وعز. "يرحل الدكتور إسماعيل إلى قنا هذا المساء، هو الذى كلفنى شخصيا بأن أخبركم. سيقوم القطار فى تمام الساعة التاسعة وربع من باب الحديد...". وضع كامل السماعة وردد علينا ما سمعه الرجل المجهول. استبد بنا القلق. هما الاثنان يعرفان أن مدير المباحث رجل مخادع كاذب وشرير. لا يثقون فيه لكنهم سيحاولون.

"حلف ألف يمين أنه لا يعلم شيئا عن موضوع إطلاق سراح السجناء. وقال لنا أيضا إن المحكوم عليهم مثل إسماعيل عليهم أن ينهوا مدة العقوبة...".

قاطعه كامل قائلا بابتهاج: "تحول عز إلى محامٍ يا بولى... كان يجب أن تريه...".

"ركزت على حالة إسماعيل الصحية وطلبت منه أن يسمح بقدوم جراح للكشف عليه قبل ترحيله، وأن يوقع هذا الأخير على شهادة تفيد أن إسماعيل لن يتحمل مثل هذا السفر الطويل، وأننى أحمله مسؤولية حياة أخى..." نفخ عز فى سيجارته بابتسامة صغيرة: "لو رأيت وجه هذا الكلب! رد على قائلا إن وجودى فى مكتبه شرف له، وإنه لا يستطيع أن يرفض طلبى، وإن علينا أن نطمئن لأن إسماعيل لن يرحل قبل أن يشفى كلية من جروحه، ما رأيك يا ست بولى؟". هززت كتفىّ: "ماذا أقول؟ كيف له أن يؤكد أنه لا يعلم شيئا عن الإفراج؟ كان هيكل على حق عندما قال إن هناك حكومتين، وإلا ما معنى هذه القضية الغريبة؟ هل هو انتقام من قائد الخارجة الذى ضربه إسماعيل ورماه أرضا أمام الجميع؟ من المؤكد أنه إجراء عقابى، لكنه ما قيمته ما دام الرئيس بنفسه هو الذى أمر بالإفراج عن كل المعتقلين الشيوعيين؟...".

عذاب لا يطاق بالنسبة لى ولكل العائلات، لا يسعنى إلا أن أصرخ فى وجه اللواتى يكلمننى لتهنئتى، وأدفن مخاوفى فور دخولى إلى الفصل الدراسى.

وفجأة يوم ٩ مايو انتشر حولى شعاع مضىء مثل الألعاب النارية. إنها الفرحة! حالما فتحت باب الشقة كلمنى كامل:

"سيخرجون غدا! نعم غدا بكرة! أقسم بأولادى... ستقابلين إسماعيل غدا. سأمر عليك بالسيارة وننتظره لما يخرج... نعم سأكلمك أول ما نتأكد من الساعة...". وضعت السماعة وناديت إنجى وأنا أصرخ من الفرحة:

"إنجى خلاص، يطلق سراحهم غدا...". فاطمة ومحجوب وصادق سارعوا بتهنئتى وهم يضحكون من السعادة.

كلمت ماما والصديقات. كثير منهم على علم بالأمر. عطيات وسعاد فى مستشفى قصر العينى، حيث أجريت لأزواجهم عملية بسبب انفصال القرنية. منذ ثلاث سنوات وهم يطلبون الكشف لدى دكتور عيون! بعض ممن كلمتهن استغرقن فى البكاء وفى الضحك الهيستيرى: "هذا صحيح؟ الله أكبر! الله!". كم من الدعوات ترفع إليك... أنا أيضا أبكى من الفرحة وأكاد لا أصدق هذه السعادة التى على الباب.

"لا تحسدونى" قلت للذين يكلموننى. أرفض تغيير ملاءات سريرى. "لو أطلق سراحه غدا لك الوقت الكافى للقيام بهذا".

أبتلع قرصا لأتمكن من النوم قليلا، لبضع ساعات. ليس لدى سوى فصل واحد غدا فى الساعة الحادية عشرة. يمكننى أن أعتذر، لم أغب سوى أسبوعين خلال سنتين بسبب الأنفلونزا.

فى تمام السابعة كنت جاهزة. وقبل أن أخبر المديرة كان كامل قد كلمنى مرتين. المرة الأولى ليحدد لى موعدا فى العاشرة، والمرة الثانية ليخبرنى أنهم سيشرعون فى مغادرة السجن فى الساعة الثالثة! وأنه سيعاود الاتصال بى بعد الغداء. فذهبت إلى المدرسة ومر الصباح بسرعة. عدت مباشرة إلى البيت وجاءت ماما لتناول الغداء معنا محملة بباقات الورد. أجبر نفسى على الأكل. أعصابى مشدودة عن آخرها. تمكنت رغم هذا من تحضير دروسى ليوم الغد فالامتحـانات بعد أسبوع.

فى تمام الساعة الثالثة توقفت السيارة أمام السجن. ككل مرة الباب الكبير مغلق. وككل مرة الحراس واقفون أمامه. لا يوجد أحد غيرنا.

"انزلوا" قال لنا كامل: "سأحاول أن أترك السيارة فى أقرب مكان ممكن...".

أما أنا فأقترب من أحد الحراس لأسأله: متى سيتم إطلاق سراحهم؟.

"مبروك يا مدام. لكنهم سيخرجون من الباب الثانى. امشى مع الرصيف إلى اليمين...". زالت كل شكوكى بقولة مبروك هذه. هرعت نحو ثريا وأرشدتها إلى الطريق. جرينا تحت شمس حارقة لم نشعر بها. دقات قلبى تتسارع. ولاحظنا على الفور شاحنات بوليس خاوية واقفة أمام باب مغلق. نحو ثلاثين شخصا واقفون فى المكان. نساء ورجال من كل الأعمار وكذلك أطفال. التحقت بنا تانت وديدة وداتى ثم نوال. قبلنا بعضنا ونحن نضحك ونبكى. ثريا استرسلت فى الدعاء. جاءت زوجة أحد السجناء تسلم على وهى تبتسم بملء فمها: "صباح الخير بولى! مبروك! أتمنى أن الدكتور إسماعيل شفى من جروحه...". ثم التفتت نحوى امرأة ممتلئة الخدين: "أنت زوجة الدكتور إسماعيل؟ المسكين! دائما هو الذى يتلقى الضرب! صحيح أنهم كانوا يريدون إرساله إلى قنا؟ الحمد لله خلاص...". جاء أناس آخرون. أصبحنا حشدا متراصا صاخبا وسعيدا يتدافع أمام الشاحنتين.

"ابتعدوا عن الشاحنات انتظروا على الرصيف الثانى..." لم ينصع أحد للأمر. على كل حال الرصيف ممتلئ عن آخره. وصل كامل، اخترق الحشد، تكلم مع بعض الرجال وسمعناهم يهتفون: "دكتور إسماعيل نسيبك؟ مبروك ربنا يحميه!". اقتربت منى بعض النسوة. "أنت زوجة الدكتور إسماعيل؟ الله يحميه! ربنا يخليهولك!...".

فى نحو الساعة الخامسة فتح الباب وظهر ضابطان ووراءهما معاونان ثم أول سجين يطلق سراحه. انطلقت أهازيج الفرحة والزغاريد. قالت لى ثريا إنها لا تعرف كيف تزغرد. حاولت دون أن تنجح فضحكت. إنه فن!

بين كل هذه النسوة لم يوجد سوى اثنتين أو ثلاث متمكنات من تقنية الزغاريد. خرج السجناء الواحد بعد الآخر رافعين أيديهم دون أصفاد ليختفوا مباشرة فى أحضان أقاربهم. اثنان منهم توقفوا، مسحوا الحشد بأعينهم بحثا عنى وطمئنونى صارخين: "دكتور إسماعيل وراءنا...". بعد الأحضان صعدوا فى الشاحنات. "أين سيأخدونهم مرة أخرى؟" تأوهت إحدى النسوة. "لماذا لا يأتون معنا؟".

فرد أحد الضباط: "سيستلمون حاجاتهم ويوقعون على تصريح الخروج فى المباحث ومصلحة السجون...". بدأ صبرنا أنا وثريا ينفد.

"أين إسماعيل؟ ماذا يفعل؟...". شدت ثريا على ذراعى وظلت تردد دعواتها بصوت خافت. وفجأة صرخ ابنها "ها هو! الدكتور إسماعيل! رأيته من فتحة الباب إنه قادم! يتكلم مع ضابط! يتكلمون مع بعض ويضحكون...".

"ما هذا! هل هذا وقت كلام؟" قالت ثريا. "أخى لا يريد أن يخرج؟...". لم أعد أطيق الانتظار والقلق ينخز أحشائى. المعانقات حولنا مستمرة مصحوبة بكلمة مبروك. تملص المساجين من أحضان أقاربهم ليصعدوا الشاحنات وليكملوا آخر محطة قبل الحرية. كادت الشاحنة الثانية تمتلئ عندما سمعنا: "ها هو! دكتور إسماعيل خارج...". يدى تعصر المنديل المبلل بالعرق والدموع، أرتكز على أطراف رجلى وأحاول أن ألفت

انتباهه نحوى بإشارات بيدى. لا أستطيع المرور عبر الحشد! ثريا تمسح دموعها: "أخويا الحبيب! خرج أخيرا! الحمد لله!". حاولت أن تطلق زغرودة وهى تضحك. لم أتمكن سوى من رؤية جبهة زوجى العريضة وشعره الأسود. تدافع الناس للاقتراب منه، ومصافحته ومعانقته. حجبوه عنى. نحاول اختراق هذا الحشد دون دفع الناس. اقترب رجل مسن من إسماعيل ثم عانقه وقبل يده والدموع تسيل على وجهه المجعد. تمكنت ثريا أخيرا من تقبيل أخيها. أما أنا فتابعت المشهد دون أن أتمكن من الاختراق. "لكن أين زوجته؟" سأل أحدهم. "مدام بولى!...".

التفتت نحوى بعض النسوة وهن يضحكن وأفسحن لى الطريق. فارتميت فى حضن زوجى وشعرت بذراعيه حولى.

"لماذا أنت آخر من خرج؟ ما الأمر يا إسما؟....". أطلق ضحكة صاخبة وقال إنه سيشرح لى فيما بعد.

"ستأتون ورائى، أليس كذلك؟...".

"ماذا تظن؟ أننا سنتركك؟ وراءك وراءك!".

امتلأت الشاحنة ووقف جنديان على السلالم. أين سيجلس إسماعيل؟ واندهشنا لجلوسه أمام السائق والضابط!

وابتعدت الشاحنة وهى تطلق فرقعة صاخبة. وراءها حشد الأقارب الذى يستعد للذهاب لمرة أخيرة إلى مبنى المباحث. النهاية! نزل الستار على التراجيديا التى عشناها والتى طالت أكثر من اللازم.

وفى هذه الليلة، فى العاشر من مايو ١٩٦٤ عاد كل السجناء اليساريين مبتهجين إلى بيوتهم. فى هذا المساء خيم نشيد السعادة على المدينة المشتعلة بآلاف الأنوار المتراقصة على سطح النيل العظيم. نشيد ارتفع نحو القمر والنجوم ليحتفى بالحرية.

الجزء الثالث

مــن مــوت لآخــر

ترجمة: ماجدة الريدى

(١)

سنوات الفرح والمرارة

-١-

فى الفجر، عندما نصبح وحدنا فى حجرتنا، عندما نستعيد، بعد أن نكون قد غيرنا ملابسنا على عجل، أجسامنا وحركاتنا. فإن سنوات الفرقة تختبئ بحياء وتنزلق فى عالم الذكريات.

كثيراً ما استبقت هذه اللقاءات. وكثيراً ما سألت نفسى إذا ما كنا سوف نستشعر نفس الحنان ونفس الحركات.

إذ لم تكن العوالم المختلفة كلية التى تطورنا خلالها لمدة سنوات خمسة قد عملت على نحر حبنا. وإذا كنت أنا نفس المرأة بالنسبة لإسماعيل وتلك التى تولد فيه نفس الرغبة.

إن ذراعيه ويديه وجسده قاما مباشرة بطرد مخاوفى. لقد تلاقينا وكأنه لم يحدث شىء منذ أول يناير ١٩٥٩ .

ولمدة أسبوع كان الأهل والأصدقاء يأتون فى المساء فيكون بذلك وقت كافٍ بعد رجوعى من الليسيه لتناول الغداء مع إنجى وإسماعيل وأخذ قسط من الراحة.

"لا يمكنك أن تتخيلى" يقول إسماعيل بعد عـودته من الرايرامون، حيث أمضى ثلاث ليالٍ "شكل الاستقبال؛ كانت تنتظرنا بعثــة من الأعيان فى محطة ملوى. وفى المنزل لم يتوقف العرض. بعض الذين لم أرهم منذ فترة طويلة قاموا برحلة طويلة لرؤيتى... لقد تحدثنا فى كل شىء.

إن الحكمة والحذر اللذين يتمتع بهما الفلاحون لافتان للنظر، خاصةً أن أغلبهم أميون ويعيشون بعيداً عن العاصمة.

تصورى أنهم سألونى إن لم يكن بوسعى أن"أتدبر" أمر الإفراج عنى قبل ذلك! أن أوقع على التخلى عن موقفى السياسى. التزمت الصمت لبضع ثوانٍ وأنا أتطلع إليهم وأجبت:

"كنت أستطيع بالطبع. ولكنى رفضت. هل كنت أكون جديراً بتقديركم؟" يا ليتك استمعت إلى احتجاجاتهم الحماسية:

لقد كنا على يقين من أنك لن توقع. أنت واحد منا أنت صعيدى حقيقى... شجاع وأهل للاحترام...".

-٢-

أمضى كل العصريات فى الليسيه بصحبة الأساتذة لتصحيح امتحان تلاميذ المستوى السادس والخامس.

كنا نشكو من الحر والمستوى المتدنى لكثير من التلاميذ فى اللغة الفرنسية، وكنا نهزر ونشرب القهوة وخاصة الكوكا كولا الأكثر أو الأقل تثليجا.

وأخيراً نحو الساعة السابعة نغادر بزفرة خلاص.

تحتضننى فرحة غامرة متجددة يوميا حينما ألمح إسماعيل ينتظرنى أسفل السلم.

كنا نقضى وقت طويلاً عند ثريا، وعند عز حيث تقيم تيزا مؤقتًا. وذات مساء وضعت حماتى ظرفًا صغيرًا فى يد إسماعيل "امسك يا إسماعيل دى حاجة بسيطة؛ مبلغ حوشته علشانك. وسيساهم فى أن تقضوا يومين فى إسكندرية...".

ثم أضافت وهى تتنهد: ربنا كبير! أنا أدعو الله أن يتاح لك الكثير من العمل! ويمكنك أن تشترى لنفسك سيارة.. أصبح السير فى المدينة بسيارة شيئًا لا غنى عنه يا عزيزى مثلها مثل الحمار بالنسبة للفلاح!". وقد استقبلتْ كلمات السيدة العجوز الحكيمة بالضحك. لم تلمس موضوع الشقة بكياسة. كانت تعرف ابنها جيدًا بحيث إنها كانت لا بد من أن تشك فى رغبته المستعرة للحصول على الاستقلال الذى كان يمثل بالنسبة له طبيعة أخرى. وهو شعور عميق اقتسمته معه دائمًا. ولكن البحث عن شقة للإيجار سوف يتضح أنه أطول وأصعب مما تصورنا. ومع ذلك فقد بدأنا التخطيط لذلك لحين عمل إسماعيل.

لقد تمتعنا ببضعة أيام لطيفة فى العجمى. وأمضينا يومًا مع زوزو وجلال وأولادهم. وقد أنبأ جلال إسماعيل بأخبار العمل فى المنشية. "يجب أن تأتى إلى المنشية. أحب أن تلقى نظرة على الكروم...".

"بالطبع إننى أحب المنشية يا جلال. أنا فلاح وأحب الريف" إننا سوف نبلغك بالموعد، ما إن نشترى السيارة.

أنا أيضا يسعدنى موضوع الريف. بالإضافة إلى أنه منذ القبض على إسماعيل تفاديت أن أعود هناك دونه.

أخاف جدا من الذكريات السعيدة.

تنتظرنا لدى عودتنا من الإسكندرية مفاجأة سارة، لقد احتفظنا بخط التليفون بناء على نصيحة والدتى. كان إسماعيل يمسك بالسماعة فى يده وكله ابتسام يحكى

ويستمع ويتعجب: "كيف ذلك؟ غير معقول! إننى. محرج، حسنًا، شكرًا . سوف أمر عليك غدًا لأراك...". واستدار نحوى ونظر إلىّ.

"تذكرين المهندس عبد الحميد حسنى أليس كذلك؟ يريد أن يعطينى شيكًا! نعم يا عزيزتى، هل تدركين! صدقى بك وعبد الحميد حسنى يريدان أن يتجاوزا عن إقالتى، ويعرضان على تعويض نهاية خدمة[1]... أليس هذا رائعًا؟" قبلنى بقوة وقررنا القيام بشراء بعض المشتريات فى المدينة. إسماعيل محتاج للكثير من الأشياء.

والتقينا بسعادة غامرة إريك رولو وزوجته روزى وكذلك أصدقاء صحفيين آخرين. فى حضورهم أستمع إلى إسماعيل يتكلم ويجيب أو إلى إنجى. السنون التى أراها الآن من الخلف عودتنى أن أكون أقل تلقائية وأن أزن كلماتى خاصة فى حضور الصحفيين.

-٣-

رفض إسماعيل أن يشارك جلال مسئولية الإدارة. "هكذا أفضل. قد نصطدم. يلزم قائد واحد للسفينة".

على أى الأحوال فقد وافق جلال عن طيب خاطر.

ولكن الحديقة التى كانت جميلة فيما مضى أصبحت مهملة. لم يهتم بها زوج أختى؛ لم يكن لديه الوقت لكى يرعاها . وقد عملنا إسماعيل وأنا على إعادتها إلى حالتها الأولى وذلك بتوجيه بعض النصائح إلى فلاح يدعو نفسه بستانيا . وفى كل إقامة لنا كنا نعبر الممرات الصغيرة لكى نتأمل منتشين النباتات التى ترفع رأسها بمرح. إن النزهات خلال ما كان يستمتع إسماعيل بتسميته أملاك

(١) ننوه إلى أن إسماعيل لم يكن من حقه مثله مثل كل المسجونين الذين أقيلوا من وظائفهم.

أفلاطـــون، وساعـات القـراءة الطويلة فى ظل أشجـار المانجـو تمنحنا أفـراحًا هادئة ومتعددة.

وكـانت إنجى المتـعطشـة للحرية وللطبيـعة تأتى أيضـا للرســـم. كـانت أخــتى تركب على ظهر حمـار يراقبه فلاح، واضـعة قبـعة من القـش ومعهـا عدة الشـــغل. وهى تمشى بنداء الصدفـة بحثًـا عن منظر أو وجـه أو مشـهد، مـثل حصـاد البرتقال والباذنجان.

إن حيـاتنا الجديدة تحت سلطة مـامـا تضطرنا لنوع مـعين من الحيـاة ولم تضع أختى ولا والدتى فى اعتبارهن وجود رجل تحت سقفهن.

حركتنا فى المكتب محدودة. كان إسماعيل يريد كتبًا موجودة فى محلات شبرا. ولكن أين سوف يضعها؟

أرفف المكتبة مليئـة بكتب ملك حمـدى. ودون أن تشك فى شعور الإحـباط الذى نستشعره ظنت إنجى أنه من اللائق أن تفرغ الأرفف! وما إن أخذ إسماعيل طريقه لدار المعارف[٢] حتى كنا نتسابق إلى منضدة العمل بشكل أو بآخر.

تلقيت رغمًا عنى سلطة أم مستثارة، كانت لا تعدم خلال اصطداماتنا المتبادلة الرمى بكلمات جارحة. تعرف إنجى كيف تحمى استقلالها. بدبلوماسية وابتسـامة داعيـة للتســليم، كـانت الابنــة المفضلة تنجح دائمـا فى قطع الطريق على خناقات والدتنا. إننى أتفاهم بشكل أفضل بكثير مع أختى؛ إن خلافاتنا القليلة تكون بسبب تفاهات سرعان ما تتناسى بالسرعة نفسها التى بدأت بها. تشتت إسماعيل وتحمل صامتًا هذا الجو المحمل بالكهرباء؛ هو يتألم خاصة من حرمانه من كتبه.

---

(٢) دار نشر كبيرة أممت حديثًا.

وللاحتفال بعيد زواجنا حجزنا تذاكر فى المسرح القومى، حيث كانت تعرض مسرحية دائرة الطباشير القوقازية. لقد أعدت قراءة مسرحية بريخت لكى أتابع النص العربى. وكان إسماعيل يرى أن الترجمة جيدة. وكانت الممثلة الكبيرة سميحة أيوب عظيمة. والتناول الذى قدمت به مسرحية الخرتيت ليونسكو راق لنا. دخلت فى عالم مجهول، لم أكن أشك فى وجود هذا النشاط الثقافى والفنى فى بلدى. كانت سيزا قد قالت لى كلاماً جميلاً عن الأوركسترا السيمفونى الجديد.

وقد قامت مرة بمغامرة فى ظهر يوم من الأيام فى الأوبرا أثناء التدريبات، ولدهشتها الكبيرة كانت القاعة مليئة بالشباب الجاد الذى يستمع باهتمام. ولدينا أيضا فرقة باليه يكونها ويديرها متخصصون سوفييت. وكذلك مسرح عرائس ممتاز يقوم على التدريب فيه التشيك. نحن ندين لوزير الثقافة العقيد ثروت عكاشة العضو السابق فى مجلس قيادة الثورة بمبادرات ثقافية مهمة. هذا الضابط السابق، العاشق للموسيقى الكلاسيك وللفن، أتاح للأجيال القادمة الوصول للفروع المختلفة من فنون الأدب.

-٤-

الساعة الثانية وخمس دقائق. يترك تلاميذى الفصل وهم يثرثرون.

إنى لا أتعجل؛ أنزل بتؤدة الدورين وأنتظر إسماعيل أسفل الدرج. هو يأتى من ناحية شارع ماسبيرو، حيث يرتفع مبنى دار المعارف. مر شهر حتى الآن منذ صدور قرار جمهورى بتعيين إسماعيل مديراً لدار النشر المؤممة. كنا فرحين.

مرَّ ستة أشهر بدون عمل. لم يكن يحدثنى أبدا فى هذا الموضوع، ولكننى كنت أعرف أنه يعانى. كان سيفضل وظيفة تتماشى أكثر مع معارفه الاقتصادية، ولكنه استسلم للواقع. لا بد أن يتحلى بالصبر؛ يشعر الآن أنه أكثر حرية، إنه يأخذ مرتبًا... نحن -الاثنين- أكثر حرية أيضا منذ قرر الحزب الشيوعى المصرى حل نفسه. إنه

قـــرار يدهشنى ولكننى أحييه. اتفاق تم مع عبد الناصر. إن كوادر الحزب أحرار اليوم فى الكفاح لحسابهم الشخصى (فى أخذ الكفاح على عاتقهم الشخصى). سوف ينخرطون فى المجتمع الجديد الذى نشأ بعد الثورة؛ سوف يشاركون فى بناء بلدهم مع النضال من أجل الاشتراكية فى الوقت نفسه. أية اشتراكية؟ اشتراكية ناصر أم اشتراكية ماركس ولينين؟.

تناولت صديقتنا الصحفية سيمون لاكوتور الغداء معنا. كانت عائدة من أسوان. وصفت لنا بإعجاب الأشغال التى يقوم بها صدقى سليمان. لا تمل سيمون من المديح المتواصل للرجل المتميز الذى يعرفه إسماعيل. لقد نقلت إلينا حماسها بحديثها عن العمل الإنشائى الذى يشيده صدقى بيه. إنه لا يكتفى بمراقبة العمال، إنه يعمل معهم، ويتفنن فى جعل حياتهم أقل قسوة. ولكى يكسب وقتًا ويرفع من معنوياتهم قام ببناء مجموعة من البنايات الصغيرة، مثل بنايات السوفييت، حتى يقيموا فيها هم وعائلتهم، تلك العائلات الآتية من القاهرة أو من أماكن أخرى كثيرة. وأقام من أجلهم سينما وناديا رياضيا.

تفاصيل صغيرة لا يعرفها سوى القليل من المصريين. هكذا كان صدقى بيه يسلم ترموسًا مليئًا بالشاى للسائقين الذين لديهم رحلات طويلة. نُسى الكسل وعدم الاكتراث والإهمال الذى كثيرًا ما يلصق بالمصريين! واعين تماما بالأهمية الحيوية لمهمتهم، من أول العمال البسطاء إلى المهندسين. ينجز الجميع أعمالهم بحماس، من الواضح أنهم على مستوى مسؤولية العمل العظيم الذى يسمى بفخر هرم مصر الجديد.

-٥-

شهر مايو حار جدا هذا العام؛ وكأنه مقدمة لأحداث خطيرة سوف تلى. علمنا بوجود حشود عسكرية إسرائيلية على الحدود مع سوريا.

ولكى ينوه عبد الناصر إلى أن هذا البلد الشقيق ليس وحده قرر إرسال قوات إلى سيناء. هذه الحركة لاقت معارضة من قبل قادة قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة المتمركزة بطول الحدود المصرية الإسرائيلية، حتى أقصى جنوب سيناء. حينئذ يصدر القائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية أوامره لقوات الأمم المتحدة بالانسحاب.

ألون فى يومياتى:

الثلاثاء ٦ يونيو ١٩٦٧ . أطلقت صباح أمس زخات من قذائف المدفعية المضادة للطائرات. لقد ظننت أنها مناورات تدريب. بعد ذلك بقليل أنبأنا الراديو أن الطائرات الإسرائيلية أغارت على سيناء وعلى مطارات القاهرة.

هكذا، لقد بدأوا!

منفعلة وخائفة قليلاً، انتظرت انتهاء الغارة ثم خرجت. كنت أريد استعجال الكوّاء لكى يسلمنى قمصان إسماعيل الذى سيسافر غداً إلى باريس؛ لا بد من أن يلحق بمجموعة من المثقفين المصريين الموجودين هناك مسبقًا. مهمتهم هى عرض القضية العربية ليبطلوا أثر تسميم الدعاية الصهيونية. لدى عودتى للمنزل انطلقت صفارات الإنذار من جديد. قبعت فى المنزل. ولشكّى فى صحة الأنباء التى تبثها الإذاعة المصرية حاولت البحث عن محطات أخرى. ومن حين لآخر نسمع صوت قذائف مدفعية؛ قذائف موجهة للطائرات الإسرائيلية.

بعد الظهر، يمر علينا جارنا مدير وكالة الأنباء الفرنسية (اف ب) ليرانا. تحطمت كل طائرات المطارات المصرية من الطيران الإسرائيلى! هل يجب أن نصدقه؟ نحن مضطربون جدا، لكننا نحتفظ بالأمل. ومع ذلك فنحن لا نعى فداحة الهزيمة العسكرية.

تتصل بى شركة طيران تى دبليو ايه لإبلاغى أن الرحلات كلها قد ألغيت. يسعدنى أن يظل إسماعيل بجانبى فى هذه الظروف الصعبة.

تمت عدة غارات أثناء النهار. أذاع الراديو أن هناك طائرة إسرائيلية وقعت فى العتبة (وسط البلد).. وكان انفعالى- وهو خوف وزهو مختلطان- قويا إلى حد أننى لم يكن بإمكانى أن أجلس ساكنة. كانت إنجى فى فرنسا وماما فى المرسم وإسماعيل فى المكتب. نزلت عند نبيلة وأنا ما زلت مضطربة. حاولت التقاط محطة لندن. وعلى مدار اليوم قذف طيران العدو كلاً من مصر والأردن وسوريا. ويقال إن قواتنا أسقطت ٨٠ طائرة وتم أسر بعض الإسرائيليين! من نصدق؟ وكالة الأنباء الفرنسية أم الراديو؟ عدوان القوات الإسرئيلية يستمر على كل الجبهة. القيادة العليا للقوات المسلحة قررت إغلاق قناة السويس أمام الملاحة.

إننى أكتب هذه السطور كالمحمومة، لم أقابل سوى مدرس واحد للغة الفرنسية فى الليسيه. ونظراً للإيقاف المؤقت للامتحانات فإن كثيراً من المدرسين الفرنسيين سافروا.

وتلاميذ السنة الثالثة والثانية والأولى يراقبون أبواب المدرسة مرتدين زى الدفاع الوطنى. أما الآخرون فإنهم يتابعون دروس الدفاع المدنى التى يعطيها المدرسون فى البدروم.

الأربعاء ٧ يونيو: أمس قرابة الظهر زارنا إريك رولو. أخبرنا بإيقاف عدد من اليهود. تجسس؟ آمل أن تكون عمليات القبض قد تمت بناء على وقائع، وألا تكون ظالمة.

إن حماية البلد تقتضى اتخاذ احتياطات قد تكون فى غاية الشدة، ولكن الإهمال غير مقبول.

تطرقنا لموضوع ضد السامية وهو جرح مثله مثل العنصرية لا يعرفه المصريون.

وإريك هو نفسه يهودى ومصرى المولد يؤكد ذلك. إن اختلاف الشعوب حدث بشكل طبيعى منذ العصور القديمة. وعددنا كل بدوره الأمثلة المتعددة التى

نلاحظها فى مصر اليوم. عائلات أبنائها سود البشرة تقريبًا وآخرون شقر تماما. إحدى وصيفات الملكة الأم كانت يهودية. ومن بين أصدقاء أمى أعضاء عائلات يهودية ينتمون للمجتمع الراقى قبل ١٩٥٢م.

ولكن إريك يشك فى الأنباء التى يذيعها الراديو المحلى.

فيما بعد أثناء النهار، احتل العدو العريش. توجهنا، ونحن منهارون إلى ثريا وكامل؛ اجتمعت كل العائلة أمام جهاز التليفزيون الجديد. وطبعا لا يتحدث أحد إلا عن الموقف العسكرى. سأل كل من كامل وصهره إسماعيل عن الأسباب التى جعلت السوفييت لا يساعدوننا. وقد حاول إسماعيل أن يشرح لهم أن هذه حربنا وإذا كان الروس يساعدوننا فى كل شىء فنحن الذين علينا أن نقاتل. العريش هى هزيمتنا الأولى. والحروب ليست بالضرورة انتصارات مستمرة. طلب مجلس الأمن الوقف الفورى للقتال؛ وقد يكون ذلك ضروريا لأسباب إستراتيجية... حتى يتاح لنا استئناف القتال بعد بضعة أيام.

الخميس ٨ يونيو

لقد تناقشنا طويلاً بعد الظهر مع إريك وبيير روندو. وانضم إلينا مدير المصنع القومى للمنتجات الدوائية. تحدثنا عن الحماس والحرارة اللذين يشملان البلد وخاصة فى الطبقة العاملة.

-٦-

الأحد ١١ يونيو

كان من المستحيل على الكتابة. الصدمة كانت عنيفة جدا.

والانفعال الذى تعرضت له خلال هذه اللحظات التاريخية كان شديداً جدا.

سأحاول اليوم إذن أن أحكى المأساة التى عايشتها وتقاسمتها مع مواطنىّ.

يوم الجمعة ٩ يونيو استيقظنا فى الفجر. لم ننم تقريباً. فى الليلة السابقة كنا قد عرفنا أن الموقف العسكرى على الجبهة كارسى.

كانت معنوياتنا نحن وأصدقاؤنا وزملاؤنا فى الحضيض. فجأة انتبهنا للجو الغريب الذى يسود الزمالك، الغارقة فى الصمت. كان هناك صمت ثقيل يجسم على المدينة. كانت الشوارع خالية والناس فى حالة صدمة صامتين.

من كان المسؤول عن هذه النكبة؟ لماذا جرعونا أكاذيب؟ كان نهاراً لا ينتهى. بلغنا أن ناصر سوف يتوجه بخطاب إلى الأمة فى المساء.

كنا ننتظر كلنا فى قلق. كان إسماعيل وزملاؤه قد أرسلوا إليه برقية. كانوا يعبرون فيها عن تأكدهم من أنه بتجميعنا لقوانا يمكننا أن نعوض الخسارة.

ماما التى لم تذهب إلى المشغل (أتيليه) أمضت وقتها فى عمل إنجازات. كانت مصرة على مصاحبتنا فى الذهاب لثريا.

أخيراً فى السابعة مساء، أخذنا إسماعيل إلى العجوزة. كان كامل وثريا ينتظراننا مع أسرتهم الصغيرة. وكنا نتحدث بصوت منخفض فى الانتظار. تعلق كل أملنا فى الشاشة الصغيرة. لم نكن وحدنا! يمكننا أن نقول إنه فى بداية السهرة كان كل المصريين تقريباً يستمعون إلى الراديو أو أمام التليفزيون.

ولما ظهر عبد الناصر، كانت الابتسامة التى تظهر أسنان فصيلة اللحميين، والتى غاظتنى لسنين عديدة.

هذه الابتسامة كانت قد اختفت. كان وجه آخر ورجل آخر هو الذى ينظر إلينا.

بدأ الوجه المدموغ بيأس عميق، يتكلم ببطء وبصعوبة. كان عبد الناصر يتحمل كل المسؤلية عن الهزيمة... وعيوننا موجهة نحو شفتيه. سمعناه يضيف أنه يتنحى عن منصبه لزكريا محيى الدين!

لا! قلناها جميعًا فى صوت واحد، لا! وسمعت إسماعيل يقول وهو شاحب: "لقد جن تماما!" كنا واقفين؛ كان كامل وجهه مبللاً بالدموع. وكانت ثريا وابنتها وزوجها وأنا نبكى أيضا؛ وكانت والدتى تمسح دموعها خفية. وخادمة أخت زوجى كانت تنتحب وهى تتمتم: "لماذا؟ لا تتركنا، يا عبد الناصر! أنت أبونا!...".

"تعالى"، قال إسماعيل بعنف: "سوف أوصلك للمنزل ..." وسمعت كامل يقول: "سوف آتى معك يا إسماعيل. يجب عمل شيء. يجب أن يتظاهر الشعب. يجب أن نسرع لنرى..." لم نستمع لبقية القرار. سوف نقرأه غداً فى الأهرام.

الشارع شبه خالٍ. لم نقابل سوى سيارات قليلة. لم يتكلم أى منا. وتساءلت مع نفسي. انقلاب أبيض؟ هل اضطره رفقاؤه للتنازل؟ تهديد أمريكى، ممكن؟ توقف بنا إسماعيل أمام المنزل. وقال لنا إنه سوف يقوم بجولة مع كامل. أين؟

استقرت والدتى فى الصالون وطلبت أن يأتوها بالويسكى؛ وكان الخدم يطيعون فى صمت وبوجوه مفككة، دون أن يجرؤوا على سؤالنا. وعلى أى الأحوال، بماذا كنا سوف نجيبهم؟ خرجت إلى السطح (الروف). لماذا؟

شعرت بالحاجة للانفراد بنفسى لحظة، تتقاذفنى أسئلة متعددة. استندت على الدرابزين، وحاولت أن أفكر فى الأمر، تاركة نظرى يسبح على أسطح البيوت والشرفات والشجر. فجأة وصل إلى سمعى صوت حفيف أوراق الشجر تدفعها الرياح. ولكن لا توجد رياح ولا حتى نسمة وأصغيت باندهاش لتحديد ماهية هذا الصوت. لا لم يكن حفيف أشجار ولكن ضوضاء صماء تزداد وتتحول إلى جلبة كبيرة. أصوات بشرية! طنين أصوات يزداد، يظهر فيه اسم ناصر... عبد الناصر! عبد الناصر! نريد عبد الناصر! شيئًا لا يعقل! استطعت من بعيد فى شارع فؤاد (٢٦يوليو) تبين جماهير تصرخ متوجهة نحو كوبرى أبو العلا.

رجال ونساء خارجون من منازل شارعنا يعدون وينضمون للكتلة التى تتقدم. سكان الزمالك! ناصر! ناصر! يتوقف الزئير. انضممت إلى ماما. التى تسمع الآن نداءات الجماهير.

رن الهاتف مرات عديدة. رفقاء يبحثون عن إسماعيل. محمود مستكاوى..... يقول إنه وحده؛ سعاد وأبناؤنا انطلقوا إلى الشارع للانضمام للجماهير، التى تحتج أمام منزل ناصر. وأبلغنى أن عادل يقوم بتنظيم مظاهرة سوف تتوجه إلى منشية البكرى(٣).

لم يعد إسما إلا فى الثانية صباحًا. وحكى لى أن أهالى طنطا لم يجدوا وسائل مواصلات للتوجه إلى القاهرة، قرروا الذهاب مشيًا على الأقدام! سائقو الأتوبيسات قرروا الاتفاق مع الركاب لتغيير مسارهم والذهاب بهم إلى بيت الريس. ورمى طالب نفسه من النافذة. ولن أنسى أبداً هذه الجلبة التى بزغت فجأة. تلقائية ومترامية منطلقة من قلب مصر، من قلب العالم العربى. هذه الـ "لا" هذه الكلمة الصرخة ظلت تردد طوال الليل. الأمر تعدى قدرات قوات الأمن. وأخيراً، حينما علمت الجماهير أن عبد الناصر سوف يتوجه إلى مجلس الأمة فى صباح الغد، وأنه سوف يوجه رسالة للأمة، سارت نحو المبنى الكبير، حيث انتظرت طوال الليل.

ولكن فى الصباح التالى كان مد الجماهير من الكثافة لدرجة أنها أجبرت عبد الناصر على العودة من الطريق. ولم نكن إسماعيل وأنا على علم بهذا. وفى نحو الثامنة والنصف أوصلنى إسماعيل عبر الجماهير لمبنى "المجمع"(٤) الضخم.

---

(٣) حى الضباط حيث كان يقيم عبد الناصر.

(٤) مبنى ضخم يضم عدة إدارات عامة.

"سوف أتركك هنا" قال لى إسماعيل وهو يبتسم: "تشجعى" هو يعلم أننى أخاف من التجمعات الجماهيرية. توجهت إلى الليسيه وكنت على ثقة من أن الزملاء سوف يتظاهرون. متسلحة بابتسامة خجولة عبرت شارع قصر النيل كيفما اتفق. أرفع يدى ببلاهة لأقلد الآخرين وهم يبتسمون لى بلطف.

ولفجيعتى الكبرى، لم يأتِ عدد كبير من المدرسين المصريين. وجدت بعض مدرسات بلهاء بقدر ما هن كسولات وبعض الموظفين وتلميذات السنوات النهائية. وكان هؤلاء ينتظرن حضور دروس إسعافات أولية فى الممر الواسع.

ثم نُقلت ثلاث فتيات غائبات عن الوعى إلى المستوصف. وتكدسنا بصحبة المديرة والوكيل فى قاعة أمام التليفزيون.

سأل بعضنا بعضاً بصوت خفيض. هل سينحنى عبد الناصر لإرادة الشعب؟ هل سيتراجع عن قراره؟ وأعترف أن فكرة أن يكون زكريا محيى الدين رئيساً كانت تقلقنى كثيراً، وكان لدى أسبابى طبعا!

كان أنور السادات هو الذى ظهر على الشاشة. وقرأ دامع العين، الرسالة التى وجهها عبد الناصر إلى الشعب؛ إنه يقبل استعادة قيادة البلاد إلى نهاية المعركة. كانت صيحات الابتهاج تتردد فى القاعة وخرجنا ونحن نصيح معا:

"ليحفظ الله عبد الناصر"! كانت جملتنا الصغيرة تضيع الصوت الجماعى الضخم الذى يغطى العاصمة كالسحابة.

وكان الناس فى الشارع يتعانقون ضاحكين وباكين فى آنٍ. كان الجميع يشعر بفرحة جنونية. وتمكنت من معاودة التوجه بهدوء إلى طريق الزمالك، ولكننى كنت منهكة. فكرت فى إنجى، وفى أصدقائنا فى الخارج. وكم ندمت على غياب أختى خلال اللحظات الحاسمة التى مررنا بها بكل هذا الزخم. لحظات لا تنسى. وفكرت فى أن العالم كله قد سخر من المصريين منذ عدة سنوات لأنهم انتخبوا عبد الناصر بنسبة

موافقة ٩٩٪. كانوا يظنوننا سلبيين، خاضعين لدكتاتور قاسٍ، طاغية. اليوم هذا العالم المندهش الذى تجاوزته الأحداث لا بد أن يصمت؛ تجد أوروبا نفسها الآن أمام الدليل الساطع على الوعى السياسى للشعب المصرى الذى يعبر عن رغبته الجماعية للاحتفاظ بعبد الناصر على رأس القيادة. رغم مهانة الهزيمة المرة ورغم الأخطاء القديمة والمحاولات وضروب الظلم.

إن ذكرى تلك الأيام القليلة المليئة بالأحداث تظل حية بداخلى إلى درجة أننى أعانى صعوبة كبيرة لترجمة انطباعاتى.

تناول رولو العشاء معنا. وحكى لنا أنه بالأمس كان مع زملاء له فى مكاتب التليفزيون فى نفس اللحظة التى أعلن فيها عبد الناصر التنحى، انقطاع التيار جعله يتوقف لثوانٍ. وفى الوقت نفسه كانت طلقات... تدوى.

المذيعون والموظفون والعمال الذين كانوا على يقين من أن الرئيس قد قتل، انخرطوا يبكون ويشدون شعرهم، وكان بعضهم يتمرغون على الأرض وأصيب أحدهم بنوبة صرع!

ونحو منتصف الليل إذا بأمى تصعد الدرج ويدها على الحاجز تلتفت إلينا قائلة: "هذا الشخص لا بد أن يقبض عليه ويحاكم ويحكم عليه بالموت" كانت أمى تتحدث عن وزير الحربية.

"إذا كان لديه بقية من عزة النفس كان يتعين عليه أن يطلق على نفسه الرصاص!"

"معك حق يا حماتى!" صوت إسماعيل.... وحزين. "ماذا حدث؟ خيانة؟ لا أحد يعرف بعد. ولكن عبد الحكيم عامر هو المسئول الأكبر...".

علمنا فى اليوم التالى باستقالة عبد الحكيم عامر (موضوعًا تحت التحفظ فى أغسطس، سوف ينتحر).

وفى الساعة الثانية ظهراً أُعْلِن بيان فى الراديو بتعيين اللواء محمد فوزى قائداً عاماً للقوات المسلحة.

وأخبرنا أحد الرفقاء أن الإدارة العسكرية قد تم تغييرها كلها.

انتهى يونيو ببطء، وكانت باقات ورد الجهنمية الكبيرة هى الشىء الوحيد الذى يبهج شوارع أحياء القاهرة الجميلة.

يجتر سكان القاهرة إهانتهم، وكأنها غمامة ثقيلة تجسم عليهم ولا يستطيعون منها فكاكًا. ويتعلقون بيأس بالضوء الباهت الذى يرتعش فى الظلمة ألا وهو: معاودة القتال.

اليوم صباحاً وأنا خارجة من البنك، بينما كنت أتجه نحو شارع حسن صبرى اضطررت للتوقف أمام محل فاسيلاكس البقال، كان الرصيف محتشداً برجال ساجدين على الحصير! صلاة الظهر! منذ متى يؤدى المصلون الصلاة على الأرصفة؟ إنهم يتوجهون دائمًا إلى المسجد حينما يستطيعون. ألا يوجد مسجد فى هذه الناحية. منذ متى أصبحوا متدينين هكذا؟

هز إسماعيل رأسه: "نعم المساجد مكتظة حتى خلال أيام الأسبوع. بعض الأصدقاء الذين حضروا صلاة الجمعة، دهشوا... الخطيب... إنهم يشجعون المصلين على الصبر والشجاعة والاستعداد للانتقام لاستعادة الأرض..".

السبت أول يوليو ١٩٦٧

تصل الأخبار من أصدقائنا فى إيطاليا وفرنسا ومن إنجى أيضا. بعيداً عن الوطن عاشوا أيامًا وليالى فى القلق والذهول؛ وهى مشاعر تبدو أكثر قسوة لأنهم وجدوا أنفسهم فى مواجهة منظمة ضد العرب. البرامج التليفزيونية التى أنتجت فى القاهرة لصالحنا، تم شطبها رقابيا فى فرنسا بينما مراحل هزيمتنا تمر أمام عيون المصريين المهلوعة. المقالات والمعلومات التى ظهرت فى جريدة الموند والتى مررها

علينا إريك قبل سفره أمدتنا بالمعلومات. تمكنت إسرائيل خلال ثلاثة أيام لا غير من الحصول على مساعدة بلغت مليار جنيه على حين أن الأمر يتطلب ستة أشهر للفيتناميين للحصول على مثل هذا المبلغ... وما أكثر اليهود الذين نسوا جنسيتهم الفرنسية وتطوعوا. وفرنسيون يهدهدون ضمائرهم المتعبة من جراء معاداتهم للسامية خلال الحرب العالمية الثانية. ومما قد يداوى جراحهم لفقد الجزائر. حلت الحرب ضد الجندى القذر محل الحرب ضد اليهودى القذر.

وأشعر مع كل المصريين بالرغبة الدفينة للانتقام. لبضعة أيام رفضنا قبول فكرة أن وقف القتال كان مفروضًا علينا. ولكن... كيسينجر اللامع أمس فى اجتماع الأمم المتحدة أجبرنا على الانتظار. وجاء بريجينف على رأس وفد مهم لمقابلة الرئيس. وهذ الأخير أمسك بزمام الأمور بيده وشكل مجلس الوزراء الجديد. وحل اللواء محمد فوزى مكان عبد الحكيم عامر، بينما بدأت حرب الاستنزاف التى سوف تستمر من ٦٧ إلى ٧٣ وهى فترة سوف يتم خلالها إعادة تنظيم قوتنا العسكرية، ويعز أى شىء للصرف على المجهود الحربى. وقبل الناس عن طيب خاطر الضرائب الإضافية. بعض الأهالى لا يشكون من عدم رؤية أبنائهم (خريجى الجامعة يخدمون العلم لمدة ٦ سنوات متصلة). ولم تكن الأساسيات تنقصنا أبداً.

-٧-

نحن فى موقف غريب. لا حرب ولا سلم. إلى متى سوف يستمر هذا الموقف؟ داخليا حدث بعض التحسن. عبد الناصر يحاول بقدر ما يمكنه أو بقدر ما يريد... أعضاء الجمعية الوطنية ما زالوا جدداً، ولكن مستواهم أعلى من سابقيهم الذين كانوا يتكلمون لكى لا يقولوا شيئًا!... الجرس سوف يرن خلال عشر دقائق. انتهى العمل بالنسبة لهذا اليوم. سوف آخذ الأتوبيس من ميدان باب اللوق. إسماعيل لم يعد يمكنه أن يمر على ليأخذنى.

معهد التخطيط موجود عند طريق الخروج من مصر الجديدة. لا يدخل المنزل إلا فى حوالى الثالثة. زوجى تحول منذ بداية عمله فى المعهد. يشعر أنه أخيراً داخل جلده. إن عمله يحمسه. يقوم إسماعيل بتوجيه كتيبة مكونة من مجموعة من الاقتصاديين الجادين والأكفاء ودكاترة جامعة شباب ويقدم لهم كذلك النصح والعون.

بدل إسماعيل مكتبه. حلت طاولة عمل بسيطة على الطراز الإنجليزى مصنوعة من الزان، محل قطعة الأثاث الثقيلة المليئة بالأعباء التى نجدها لا محالة فى مكاتب الشخصيات ذات المراكز الكبيرة بدءاً من رئيس الوزراء حتى مجرد مدير لأى شركة. وكأنما هذه القطعة من الأثاث هى التى تسمح بتأكيد أهمية مكانتهم. وعلى الجدران التى أعيد طلاؤها باللون الأبيض. توجد بعض اللوحات المميزة من أفضل مصورينا من بينهم لوحة لإنجى، وقد جاءت هذه اللوحات لتحل مكان بعض المناظر الطبيعية السيئة. وبتشجيع من زوجى، وضع بستانى المعهد كل طاقته فى زرع الزهور والنباتات. ولن تلبث مكاتب الأساتذة أن تصبح مليئة ببهجة النباتات الخضراء والزهور اليانعة. ولما كان رئيس العمل يعنى بصرامة بنظافة المعهد فإن القاعات والردهات والممرات والمكاتب سرعان ما تخلصت من أعقاب السجائر والأوراق القذرة والأتربة.

-٨-

وحسب التعبير العربى، ربنا افتكر "تيزا" فى الفجر. وأسرعنا إلى ثريا وما زال ماثلا أمامى منظر عز مغالباً دموعه وهو يسأل حائراً: ماذا ستفعل؟ يجب أن نسافر كلنا إلى الرايرامون!

يجب أن ننقلها إلى هناك! بولى هل تظنى أن صالحة هانم سوف توافق على دفن والدتنا فى مدفنكم؟ فى ركن من الحديقة؟ ماما وصلت فى هذه اللحظة. ظهور هذه السيدة صغيرة الحجم مرتدية الملابس السوداء وكأنما بتأثير سحر ما قلبت الجو

الحزين وتوقف النشيج. هادئة ومتعاطفة وبثقتها المعتادة سلمت والدتى لتقدم العزاء وبدون تردد تعرض خدماتها بصوت خفيض. عز وإسماعيل وقد اطمأنوا للهجة أمى الثابتة عرضوا عليها العرض على استيحاء.

"وكيف ذلك!" هتفت أمى. لماذا تنقلونها إلى قريتكم بينما لدينا الحديقة؟ إن هذه خدمة تقدمونها لى! حينما تذهبون للصلاة على قبرها سوف تلقون نظرة على حالة مدفن الأسرة. وعند موتى، لا أدرى من الذى سوف يهتم. مع بنات مثل بناتى!... أين التليفون؟.

وبينما عز وإسماعيل وقد انزاح عنهما همٌّ ثقيل يكتبون النعى، كانت أمى تهتم بفاعليتها المعتادة بكل الشكليات الحزينة التى يستتبعها الدفن.

وعلى ذلك فقد تم بناء قبر الحديقة حيث ترقد سيدة أحببتها كثيراً.

(٢)

خبر أسود

هذا المساء، بعد عام من موت تيزا دفعتنى رغبة قاهرة (كالحمى) للكتابة (بعصبية).

استعاد إسماعيل عافيته ببطء؛ وأتاح له عمله فى المعهد الذى يعشقه ويمتعه، أن يدفن داخل نفسه اللوعة التى يستشعرها.

تتلبسنى مشاعر مختلفة؛ مشاعر سعادة وألم. أسطر هذه الكلمات الثلاث:

٢٨ سبتمبر ١٩٧٠

من أين أبدأ؟ من السعادة التى غمرتنا لأننا أصبحنا ملاكًا لشقة! خمس حجرات تطل على النيل، فى الدور الحادى عشر لعمارة قيد الإنشاء. بعد أن بحثنا طويلاً فى الأحياء المختلفة، فضلنا شراء شقة؛ وبيع بعض الأراضى سوف يساعدنى فى تسديد الأقساط. وسرعان ما سنستعيد حريتنا.

أمس فى العصر، قمنا بمشاوير تسوق؛ منذ السرقة التى تعرضنا لها، لم نعد نملك سوى أثاثنا وكتبنا. علينا أن نعيد شراء كل شىء حتى نستطيع الإقامة فى المنزل الجديد. وعند العودة للمنزل فتحت جهاز الراديو بحثًا عن الموسيقى. الراديو يذيع آيات القرآن! ومع ذلك فليس هذا وقت الصلاة. ودق جرس التليفون.

"ما الذى جرى؟" سألنى صديق: "الراديو والتليفزيون لا يذيعان إلا القرآن!..." انشغل بالى ورأيت إسماعيل يتصل بعصبية بعدة أشخاص، أحدهم صحفى. كانوا جميعًا قد خرجوا.

وجلسنا على السرير، كنا ننتظر. القرآن! وفجاءة صوت، إنه صوت أنور السادات: "عبد الناصر مات!".

السادات يبكى وهو يتكلم.

سوف نعلم فيما بعد أن عبد الناصر كان قد ودع فى المطار، رؤساء الدول العربية الذين أتوا إلى القاهرة الواحد تلو الآخر. ورغم حالة الإنهاك التام ونصائح الأطباء، صمم على توديع أمير الكويت(٥). آخر الضيوف.

شعر ببعض التوعك وبآلام شديدة فى الصدر. وعند عودته للمنزل، رفض أن يأكل وأوى إلى فراشه. والأطباء الذين تم استدعاؤهم على عجل لم يتمكنوا من إنقاذه.

-٢-

وهكذا انتهت بشكل مباغت حياة الرجل الأشد كرهًا والأحب فى تاريخنا المعاصر. لم يكن قد عاش إلا لشعبه وإلا لبلده. كان قد وهب لهما كل دقة فى قلبه. معه وبه استعادت مصر هويتها.

---

(٥) دعا عبد الناصر إذن لقمة عربية فى القاهرة لوقف المجزرة. فارضًا بذلك على حسين أن يتناقش مع ياسر عرفات وجهًا لوجه، وذلك فى وجود كل زعماء الدول العربية. وقرر الحضور الوقف الفورى للقتال. وهو ما تم فوريا من قبل جيش الملك حسين ملك الأردن، تم قتل مئات المقاومين الفلسطينيين.

فجأة، وفى هدوء هذا الليل الأسود انطلقت صرخات. زئير نساء ورجال؛ المعدمين والمساكين والمحرومين أولئك أعطاهم عبد الناصر الكثير.

ومثلما حدث فى ليلة ٩ يونيو ١٩٦٧ التاريخية عندما خرج الشعب إلى الشارع؛ ورفض التنحى. ولكن صوته فى هذا المساء له إيقاع مختلف، إيقاع اليأس؛ فى هذا المساء كان صوت الشعب يرتفع لكى يحمل اسم عبد الناصر على قمم لوعته:

"جمال يا جمال! يا أبونا! يا أخونا! يا محررنا! إلى أين تذهب يا جمال؟... نحن نحملك فى عيوننا...!".

لم أكن أريد أن أظل وحدى. كنت متمسكة أن أصطحب إسماعيل.

دون أن نتكلم، مثل المصابين بالنوام، خرجنا. وأنا جالسة بجوار زوجى الذى يقود السيارة بوجه مضطرب، كنت أحاول أن أحلل مشاعرى. لا شعوريا، كنت أشعر بأن موت هذا الرجل الذى كنت أكن له الكراهية سنين طويلة يمثل كارثة بالنسبة لبلدنا.

تمنيت مع كل المصريين رجوعه؛ فى هذا المساء كنت أبكى لغيابه.

الساحة أمام المبنى الكبير لجريدة الأهرام اقتحمتها الجماهير. كان رجال الأمن يحمون المدخل. وعانينا حتى التقينا برفاقنا. وتحدثنا معهم طويلاً أمام المبنى الكبير. كنا نستشعر الحاجة للمعرفة. متى؟ وكيف؟ وكان كثيرون يبكون الرجل الذى مات فى المعركة. آخر انتصاراته.

عند العودة للمنزل، كان الراديو مفتوحًا بينما نستعد للدخول فى الفراش. كنا منهكين. أعلن بيان أن أنور السادات سوف يقوم مؤقتًا بمهام رئاسة الجمهورية. وخلال ستين يومًا سوف يُسمى رئيس جديد وسوف تشكل وزارة جديدة... وسوف يعلن

الحداد الرسمى لمدة ثلاثة أيام وأربعين يومًا حدادًا وطنيا[٦]. وسوف تقام الجنازة يوم الخميس.

كان نومنا قليلاً. وفى الصباح ذهب إسماعيل إلى مكتبه وأمضيت أنا هذه الفترة فى سماع الراديو... سوف تمر بنا أوقات عصيبة. هل سيكون الأشخاص الذين سوف يمسكون بمقاليد الأمور على مستوى مسؤولية العمل الضخم الذى كان يريد القيام به؟ رغم الحرب ورغم كل شىء؟.

يذيع الراديو والتليفزيون القرآن الكريم. يبدو أن الكلمات المقدسة تشكل جزءًا من الشكوى الكبرى التى تصعد من المدينة.

تبكى مصر جمال، وتصرخ جمال لمدة ليلتين ويومين. وسوف تتوقف فقط حينما يهال عليه التراب ويدفن.

وقد تأجل تشييع الجنازة إلى أول أكتوبر لإعطاء فسحة من الوقت لعدد كبير من رؤساء الدول الأجنبية[٧] للمشاركة. وهذا مما أتاح لسكان القرى الأكثر بعدًا إيجاد وسائل مواصلات تقلهم حتى العاصمة. والذين لم تمكنهم الظروف من الوصول يوم ٩ يونيو لاستحلاف جمال أن يسحب التنحي، يتدافعون الآن، لوداع أخير وللمشاركة فى الدفن.

-٣-

يوم الاثنين صباحًا، ذهبت إلى عطيات لرؤية الجنازة فى التليفزيون.

---

(٦) تقليد يتبعه المصريون مسلمون ومسيحيون منذ الآف السنين.

(٧) كانوا ٣٤ رئيس دولة أو رئيس حكومة.

ذهب إسماعيل للقاء أعضاء معهد التخطيط؛ كانوا سوف يلحقون بموكب الجنازة؛ ولكنهم اضطروا للرجوع نظراً لكثافة الجماهير.

لم يكن من الممكن السيطرة عليها. قوات الأمن التى كانت كبيرة جدا تعدتها الجماهير. أصبح جمال عبد الناصر بالنسبة لهذه الجماهير هو ميتهم هم. ولما كان عبد الناصر مصريا مثلهم فقد فرضوا ألمهم ولوعتهم. قاموا بهدم البروتوكول ومنعوا رؤساء الدول من الاشتراك فى موكب الجنازة، استولى المصريون على النعش المغطى بالعلم محاولين لمسه والتمليس عليه. وعندئذ أصبح النواح تغريدة حب ورجاء ويأس:

"يا جمال! يا حبيب الملايين! أنت عايش فينا! كلنا ناصر! أنت حى يا جمال! أنت دليلنا ومحررنا وكرامتنا! أنت فينا يا جمال! أنت مصر! هنكمل المشوار!...

استطعنا أن نرى فقط رؤساء الدول وقادة البعثات الأجنبية المضطربين ينتظرون. كانوا ينتظرون أن يسمح لهم شعب مصر أن يقدموا التحية الواجبة الأخيرة للرجل الذى أعاد وضع بلاده على المسرح الدولى.

لم يتمكن الكثيرون منهم من إخفاء انفعالهم. كان البعض يبكى مثل القذافى الذى كان عبد الناصر هو الوحيد الذى بإمكانه احتواء تطرفه؛ كان نميرى ينتحب كالطفل الصغير. وكنت أفكر وعينى مثبتة على الشاشة، كنت أفكر فى الفراغ الذى يصعب ملؤه والذى يسببه غياب هذا الرجل؛ رجل جعلنا نعانى لمدة خمس سنوات. كنت أتساءل مرة أخرى، وقلبى ثقيل، وحلقى مختنق: أى الزملاء سوف يكون على المستوى؟ أيهم سوف يمكنه الاستمرار وتكملة العمل الذى بدئ دون خيانة لمفاهيم الرجل.

يقرأ إسماعيل بصوت عالٍ ما كتبه صحفى فى جريدة الأيكونومست: "لا يوجد أحد لا غنى عنه. ولكن مصر بعد ناصر لن تكون هى نفسها".

"Nobody is indispensable. But Egypt after Nasser will not be the same"

(٣)

الـــوزارة

-١-

انتخب السادات بـ ٩٩٪ من الأصوات، وأصبح بذلك ثانى رئيس لجمهورية مصر العربية. وهو رقم أثار كثيراً من قفشات ونكات المصريين. لم يكن أمامنا أى اختيار. لماذا لا يكون أنور السادات الذى اختاره عبد الناصر كى يكون نائباً لرئيس الجمهورية سنة ١٩٦٩؟

السنوات التى عاشها فى ظل عبد الناصر سوف تتيح له تتبع خطاه. ثم إنه شخص مقبول سهل العبارة ولغته ثرية ومزدهرة. فلنعطه ثقتنا حتى نرى.

نظرت نظرة أخيرة نحو المرآة. منذ عشرة أيام، بعد عودته من المكتب مد إسماعيل يده ببطاقة دعوة وهو يقول ضاحكاً: "نحن مدعوون فى السفارة البريطانية! لم أرد أن أفلت هذا الحفل. منذ أيام المدرسة الثانوية والجامعية، كان الرصيف الملاصق للجدران العالية التى تحيط بالسفارة، محظوراً على المشاة بكوردون من الشرطة. كنا مضطرين للمشى على الرصيف المقابل؛ كنا نمر أمام هذه القلعة الملعونة رافعين قبضتنا ونحن نسب ممثلى هذا البلد...".

أحيى السائق الذى يقود السيار الشيفروليه القديمة الموضوعة تحت تصرف إسماعيل من قبل المعهد. وهو لا يستخدم هذه السيارة إلا للذهاب للعمل أو وقت اللزوم للاستقبالات الرسمية. ويقود بنفسه سيارتنا فى مشاويرنا الشخصية.

"انظرى جيداً لهذه البناية التاريخية، المحاطة بأسوار حمت طويلاً قاطنيها من غضب المصريين...".

بالنسبة للحظة الراهنة، لا أرى سوى الجدران، والرصيف المزروع بالأشجار وكوردون مسؤولى الشرطة وعساكر في زى مدنى وكتيبة الأمن التى تحيط بالباب المفتوح على مصراعيه.

هدأ السائق من سرعته؛ كان يتبع السيارات التى تسبقه. وكان سائقو السيارات يمدون أيديهم إلى الموظف ببطاقات الدعوة وهو يراجعها قبل أن يسمح بالولوج داخل المقر.

هل هذه حقا أنت يا جلبيرى، أنت من كان العساكر ينادونك جلبرى، التى تقبعين فى هذه السيارة الرسمية؟ أم أن هذا أيضا بعض تهويماتك؟ كان الأمر كوميديا لدرجة أننى ضحكت بهدوء. تناول إسماعيل يدى وضغط عليها بحنان. فرمل سائق السيارة وتفوه ببضع كلمات، وقدم البطاقة للحارس الذى يصاحبه رجل بوليس. كانوا ينحنون قليلاً حتى يروا وجوهنا، يحيوننا باحترام ويعطوننا إشارة بالمرور. تدخل السيارة فى الحديقة وتلف حول حوض واسع مزروع بالأزهار وتتوقف أمام السلم. ثم فتح أبواب السيارة سفرجى بلباس المناسبات. وتحكمنا فى الضحك الجنونى الذى انتابنا. لم يبعد بنا الزمن كثيراً عن العساكر ورجال البوليس يدفعوننى ويتكلمون معى بغلظة وأحيانا بطريقة غير لائقة. وكأنما خمن إسماعيل الأفكار التى تدور فى ذهنى فقال لى: "ياما وريتك يا بولى، هه؟ ارتفاعات وانخفاضات... هل تخيلت فى سنة ١٩٦٠ أن يتم استقبالك هكذا فى يوم من الأيام...؟".

كان المشهد الذى أعيشه جديداً بالنسبة لى؛ كان الأول فى مجموعة من المشاهد. سوف أكون جزءاً منها فيما بعد، وسوف يتكرر أكثر من اللازم بالنسبة لذوقى الشخصى. فى هذه اللحظة، كنت أنظر وألاحظ مهتمة ومستمتعة... كنا نتابع طابوراً

طويلاً من المدعوين الذين يتوقف، بعضهم وراء بعض يصافحون السفير وحرمه والمستشارين والملحقين الواقفين إلى جوارهم. كنا نتقدم خطوة خطوة من حين لآخر، توقف قصير حينما يتبادل السفير بعض الكلمات مع مدعو من المدعوين من معارفه.

"مساء الخير، شكراً لمجيئكم!" قال السفير بودّ صافٍ. لا أظن أنه سبق له مقابلة زوجي، وبانتهاء المهمة غُصنا في الجمع. وزراء ودبلوماسيون وشخصيات رسمية لم أكن أعرفها بعد، أعضاء من المجتمع الجديد وكذلك ممثلون للمجتمع القديم، وقد شاخوا قليلاً وبهتوا قليلاً سعداء بأنهم تمت دعوتهم. كانوا يتعرفون علينا ويحيوننا بحرارة. كنت أشعر أنني ضائعة وسط كل هؤلاء المجهولين بالنسبة لي؛ كنت أتسلل وراء زوجي، ولا أتركه قيد أنملة.

يتعرف بعض المصريين وبعض الأجانب على إسماعيل ويتقربون. يقدمني إسماعيل لهم؛ نتبادل بعض الكلمات. كنا نتحرك بصعوبة خلال هذا الجمع. لقد تم الهجوم على البوفيه! لا أذكر، في أي فيلم كان جاك تاتي يختلط بالمدعوين الملتحمين في البوفيه فيفرط في الأكل؟

هل سيكون لدى الذين رأيتهم هذا المساء الجَرْأة لإسقاط بعض الحلوى في جيوبهم مثل تاتي؟ بعد ساعة وقد تعبنا من هذا الوضع المتوقف، اقترح على إسماعيل أن نمضي. بكل سرور! يكفي هذه المرة؛ لن أتمكن من استساغة هذه الاستقبالات التي بقدر ما هي فخمة بقدر ما هي منهكة. حتى لو أننا صادفنا أصدقاء أو أشخاصاً مهمين، لا يكون لدينا سوى وقت قليل جدا للحديث. ذلك أنه دائما ما يوجد من يتعرف علينا ويتدخل ويقاطع حديثنا.

تركت مدرسة الليسيه؛ إنني مشغولة جدا بالأعمال التي يقوم بها العمال في شقتنا وأذهب هناك يوميا تقريبا. وسوف يبدأ النقاشون عملهم. والمشتريات كثيرة جدا؛

سوف أذهب مع ثريا لشراء طقم أوانى المطبخ الذى لا غنى عنه. وتسلم لنا الثلاجة خلال شهرين. ينشرح قلبى بالسرور عندما أتخيل عشاء مقامًا عندنا... منذ بدأ إسماعيل العمل فى معهد التخطيط وكثيراً ما نُدْعَى ولا بد أن نرد هذه العزومات. (الدعوات) وهذا مما يسعد السيدة والدتى سعادة عظيمة.

سافر إسماعيل إلى موسكو؛ إن أسبوعين مدة طويلة.

فهو مدعوٌ من أكاديمية العلوم للمشاركة فى سيمينار يستمر يومين. سوف يذهب بعد ذلك إلى سيبيريا وإلى نوفوسيبيرسك! يبدو أن مايو هو الفصل الألطف فى هذه المنطقة.... أصبت بخيبة أمل لعدم قيامهم بدعوتى. إن هذه ثانى رحلة له فى الاتحاد السوفييتى؛ كان يمكنهم أن يفكروا فى دعوتى! وقد وعدنى إسماعيل أن يكتب لى. أى مواساة! ماذا سوف أفعل بأمسياتى؟ لماذا لا أذهب إلى ثريا؟ يمكننى بذلك أن أشاهد التليفزيون. أعلنت الصحف أن الرئيس سوف يلقى خطابًا مهمًا. ناديت على سلفتى: "تعالى سوف نستمع للسادات. من يدرى ما سوف يقول".

جلسنا فى حجرة الطعام. التليفزيون على ركن من البوفيه. ينظر كامل إلى ساعته بنفاد صبر. الجهاز مفتوح؛ فى هذه اللحظة تغنى فنانة مجهولة بالنسبة لى.

"ما الذى سوف يحكيه الرئيس؟" قال كامل بعصبية.

"تبعًا للشائعات فإن شخصيات مهمة تم القبض عليها! لم يكن ينقصنا سوى ذلك!..." أتساءل عما يسميه كامل إشاعات. تجىء ابنته الكبرى الحامل مع زوجها. دفعنا الكراسى حتى نوسع مكانًا لجلوسهم. وحل مارش عسكرى محل المغنية؛ وهو يصاحب "تموجات" العلم المصرى الذى يرفرف فى هذه اللحظة على الشاشة، ثم يتوقف المارش فجأة.

ويقدم المذيع رئيس الجمهورية الجديد الذى يظهر على الشاشة.

"بسم الله!" بدأ السادات ضاغطًا على آخر مقطع. الرجل عبارته سهلة ويضغط على بعض العبارات المختارة بعناية وهو (يبربش) أحيانا. لقد قال لى إسماعيل، حينما استمعنا إليه أول مرة، إن السادات مَثَّل على خشبة المسرح فى شبابه وإنه أخذ دروس إلقاء. على أى الأحوال فإننى أستمع جيداً لكل كلمة حتى إن لم أفهم كل ما يقول. يبدو أنه قد انتهى من الديباجة وأنه دخل فى الموضوع.

"غير معقول!" صرخت ثريا وابنتها معًا، أشعل كامل سيجارة، وبرطم: "ما هذه القصة!".

أصبحت قلقة فجأة، ومتجهة بكل كيانى نحو هذا الرجل الذى يقطب جبينه، وهيئته خطيرة وأسمعه وهو يتحدث بلهجة... عن مؤامرة وخيانة ومحاولة لقلب نظام الحكم. كان قلبى يدق بشدة، حينما أسمع أسماء من ينعتهم بالخونة.

مضطربة، كنت أتساءل كيف يمكننى تفسير ما سمعته؟... الشخصيات التى ذكرها الرئيس كانت فى معظمها، شخصيات وزراء عملوا مع ناصر؛ وكانوا ما زالوا يعملون مع السادات. وطنيون وأكفاء ونزهاء وليسوا خونة بالتأكيد. أحاول التحكم فى الذعر الذى انتابنى. مم أخاف إذن؟ سلمت بأننى يجب أن أمشى قبل أن أستمع إلى بقية الخطاب؛ كانت ماما تنتظرنى. أما سائق التاكسى فقد كان فى غاية الهدوء؛ لم يكن لديه راديو فى سيارته. وصلت. خرجت من المصعد وتقدمت من باب المدخل. وفى اللحظة التى كنت على وشك أن أرن الجرس، ظهر السفرجية:

"مبروك يا هانم! ألف مبروك..." وتسمرت أمام الباب: ولماذا مبروك؟".

"من أجل الدكتور إسماعيل! الدكتور إسماعيل عُيّن وزيرًا!... وزير التخطيط!..." ومذهولة تماما كنت أنظر إليهم؛ لم أكن أفهم شيئًا. ورن جرس التليفون:

"هذا مؤكد من أجلك! التليفون لم يتوقف عن الرنين. أشخاص يودون التحدث مع الدكتور إسماعيل". إسماعيل وزيراً؟ إلا هذا! لابد أنهم فهموا خطأ.

"آلو! لا يا سيدى، إسماعيل ليس فى القاهرة. إنه فى موسكو... ولكننى لا أعرف فى أى فندق نزل... لقد سافر أمس. لا أعرف!..." السادات قبض على أناس وعين إسماعيل وزيرًا!".

تقترب أمى مبتسمة: "ألم تستمعى إلى خطاب الرئيس؟" هززت أكتافى.

"جزءًا منه فقط. الرئيس تحدث عن مؤامرة. وتركت ثريا بينما كان ما زال يتحدث. إننى أهوى من القمر!"

"اتصلت بى نيللى كى تهنئنى. قالت إن السادات قد شكل وزارة جديدة وإن زوجك سوف يكون من بين الوزراء الجدد..." قاطع رنين التليفون حديثنا. رفعت السماعة: أنت الهانم؟ مبروك يا أفندم! أنا فلان من الأهرام. يبدو أن معالى الوزير فى موسكو. أود طرح بعض الأسئلة عليك..." استعدت حضور ذهنى، وأجبت ببرود: اسمع يا أستاذ، لا يسعنى أن أقول لك إلا شيئًا واحدًا. إننى مندهشة من هذا التعيين. ولست واثقة أبدا إن كان إسماعيل سوف يقبل هذا المنصب...".

"حسن، حسن،" قال محدثى بسرعة. "شكرًا يا سيدتى!"، وأغلق الاتصال. انفجرت فى الضحك؛ وكأنما أصابه الفزع. ومع ذلك فأنا لا يمكننى أن أرد بالنيابة عن إسماعيل. ألم يكن من الأفضل أن يتعرف الرئيس على رأى زوجى؟

الجرس مرة أخرى! أتوسل إلى ماما أن ترد وتقول إن إسماعيل فى موسكو، وإننى لست هنا.

بعد العشاء، مضطربة جدا من هذا الموقف المتعارض، رغبت فى المرور على فؤاد؛ الساعة التاسعة والنصف ما زالت وليس أمامى سوى عشر دقائق من المشى للوصول إلى شقتهم. قد يتمكن فؤاد من توضيح الأمر. طلبته؛ ردت على عطيات وهنأتنى؛ وهى فى انتظارى.

فؤاد مضطرب مثلى من المسألة العبثية للمؤامرة. منذ فترة، كان قد حلل الموقف السياسى مع إسماعيل، وكانوا قد استخلصوا أن الرئيس سوف يحل الوزارة وسوف يستدعى ماركسيًا أو اثنين، وأنهم لابد أن يضطلعوا بالمهام. لا بد لإسماعيل أن يوافق، لابد أن يعود فوراً.

تنشر جرائد الصباح صورة الرئيس وخطابه... وخصَّت لفظ المتمردين، والخونة أولئك الذين حددت إقامتهم، فى انتظار مثولهم للمحاكمة! ونشروا أيضا قائمة الوزراء الذين سوف يشكلون الوزارة التى يرأسها محمود فوزى(٨). توجد صورهم أيضا! من أين أتى الصحفيون بهذه الصورة القبيحة لإسماعيل؟ كان زوجى فاغراً فَاهه وكأنه سمكة تبحث عن فريسة!

اتصل بى أساتذة من المعهد لتهنئتى. مارى سكرتيرة إسماعيل بنبرة نصف سعيدة ونصف حزينة. "مبروك مدام بولى! نحن كلنا فخورون بالدكتور إسماعيل الذى يستحق الكثير، ولكننا محزونون لأنه سوف يتركنا". ماذا يمكن أن يرد المرء، إلا أن أشكرها. وإذا كنت قد تأثرت بعلامات الأسف والتقدير، فإنه لم يصل إلى شعور الفخر الذى كان يجب على استشعاره. لفظ الاستحقاق يبدو لى بلا معنى. هذا المنصب الذى سوف يضطلع به إسماعيل يبدو فى عينى بلا معنى. إن اعتزازى بشريك حياتى وضعه فوق هذا النوع من الشرف منذ زمن. قطع جرس التليفون تأملاتى العميقة! إنه موظف فى وزارة التخطيط!

"صباح الخير، معاليك! سيارات سيادة الوزير وسيادتكم تحت أمرك. هل ترغبون سيادتك أن ترسل إحداها؟....". هل يجب أن أضحك أم أبكى؟

---

(٨) دبلوماسى ضليع كان وزيراً للخارجية تحت رئاسة عبد الناصر. واحتفظ بهذا المنصب إلى أن عين رئيساً للوزارة.

شكرته وقلت له إننى لا أحتاج لسيارات فى الوقت الراهن. إننى بالطبع لن أشرح للرجل "الجدع" أن إسماعيل لم يقبل المنصب بعد، ولا أجد مبرراً للانتفاع بهذا الترف!

وما إن وضعت السماعة حتى رن التليفون من جديد. موظف آخر:

"صباح الخير يا أفندم. مبروك كل شىء جاهز.

إذا لم أكن أعطلك، هل يمكنك أن تعطينى عنوانكم..." قاطعته منفعلة: عما تتحدث؟ ما هو الجاهز؟...".

"وحدة الحراسة ورجل الشرطة الذى يجب أن يأخذ نوبة الحراسة أمام منزل معاليكم، و....".

"إلا دا!" أوقفته بعنف "إسماعيل فى سفر. وأرجوك توا ألا ترسل أى شرطة. لا أريد إطلاقًا!".

هذا إذن! رجل بوليس فى وحدة أمام باب العمارة! هكذا نكون قد رأينا كل شىء فى الدنيا! لكى يحمونا؟ مم؟ ثريا سعيدة ومزهوة، وزوجها الذى يتيه طبعا يعترضان: "ولكن هذه هى التقاليد. لماذا رفضت؟ إنهما مندهشان من موقفى المزدرى لعلامات التقدير هذه. وقلة حماسى تجعلهم مرتبكين.

كان عز مضطرباً من الخبر، ولكنه يبدو فرحًا ويجد الموضوع مُسليا، ولكنه يوافقنى تماما. ولما سأله عما يظنه بالنسبة للأحداث الأخيرة، لم يتمكن عز من إبداء أى رأى؛ إنه ينتظر مثلى عودة أخيه.

أما والدتى فإنها أكثر تحفظًا. لقد لعنت عبد الناصر طويلاً؛ واليوم إنها لا تعرف شيئًا عن خليفته، سوى كونه عسكريا. كانت تتلقى التهانى من أصدقائها مستمتعة وفخورة أيضا وتقول لهم ضاحكة: ذلك أقل ما يجب أن يعين إسماعيل وزيرًا!... الرجال الأذكياء المتعلمون مثله لا يملؤون الشوارع...".

"كنت ما زلت فى موسكو" يحكى إسماعيل الذى عاد أخيراً". كنت قد تناولت العشاء عند سفيرنا. كنت نائمًا حينما طلبنى مراسل الأهرام فى موسكو فى التليفون. نقل لى الأخبار التى أذاعتها محطة صوت العرب. كنت مضطرباً. وفى اليوم التالى ذهبت لسفيرنا وتناقشنا طويلاً. كنت متحيراً. عدلت عن الذهاب إلى نوفوسيبرسك وظللت فى موسكو منتظراً إشارة من القاهرة. وفى هذه الأثناء وصل خالد إلى بودابيست، حيث كان يشارك فى مؤتمر السلام. كان على علم بالأحداث! واستشرته. كان من رأيه أن أقبل؛ كان يرى أنه يجب أن نقاتل داخل الحكومة. ولكننى كنت متردداً، كنت أنتظر... وبعد ذلك، عرفت أخيراً أن فؤاداً والرفاق فى القاهرة كانوا ينصحوننى بالقبول!

وهنا فقط قررت أن أعود... هذه الإقامة فى الاتحاد السوفييتى كانت كابوسًا حقيقيا....".

وكما توقعت أيَّدنى إسماعيل فى رفض السيارة والحراسة.

"هذا خير ما فعلت. ماذا تتوقعين؟ اعتاد الموظفون والسكرتارية أن يكونوا تحت تصرف الوزراء وزوجاتهم كما عودوهم. إنها عادة قديمة مما قبل الثورة... إنهم مقتنعون أن هذه الخدمات جزء من مهام وظائفهم، ويجدون من الطبيعى أن تستخدم زوجات الوزراء السيارات الرسمية لأداء مشاويرهم الخاصة. وخاصة لا تقليديهم.

-٣-

كيف أحكى هذه الفترة التى سوف تستمر ٤ سنوات؟ لقد وجدنا أنفسنا مقذوفين فى عالم غريب عن شخصياتنا وأذواقنا وأفكارنا. السجين السابق فى معتقل الوادى الجديد يصبح من حقه فجأة أصناف متنوعة من التشريف؛ لقب المعالى، "ملاك حارس"، وسيارة بسائق له ولزوجته ولا ننسى كشك الحراسة أمام العمارة! تعجل

إسماعيل فى الرفض القاطع "للشاويش" بالكشك ضارباً عرض الحائط بتقليد قديم. بالنسبة للملاك الحارس، رفض إسماعيل خدماته، ورصد له مبلغًا شهريا صغيراً.

ومقدراً أن معهد التخطيط من أهم منشآت الثورة فى مجال البحث العلمى فقد احتفظ إسماعيل بوظيفته مديراً للمعهد إلى جانب الوزارة. بالإضافة إلى أنه لم ينتقل إلى وزارة التخطيط القريبة من المعهد، حيث ظل محتفظًا بمكتبه.

وبهذا لن ينفصل عن سكرتيرته ولا عن سائقه. ماذا وذلك من دواعى الفرحة الكبيرة لكليهما. ماذا يرى رجال الوزارة فى ثورة القصر الصغيرة هذه؟

ماركسيا، وحتى الأمس القريب أحد الموجهين للحزب الشيوعى المصرى، سوف يجد إسماعيل نفسه بين زملاء من اليمين بدرجة أو بأخرى.

ومعرفتهم بالماركسية غامضة، إن لم تكن معدومة؛ وفكرتهم عن الموضوع مسبقة وبدائية. امتثلوا للجلوس إلى جوار الدخيل لأنه يستمد تعيينه من رئيس الجمهورية نفسه. وهو تعيين يدل إذن على أن الرئيس يريد أن يصبغ سياسته بصبغة حمراء. سوف يضطلع إسماعيل بمسؤليته الجديدة بصبره وشجاعته المعتادة فى سياق مملوء بالأشواك ومنسوج بالأحداث المتنوعة والتاريخية. مسترشداً بإيمانه واقتناعه العميق بأهمية وزارته، سوف يناضل بمثابرة لفرض تطبيق القوانين الأكثر مدعاة للعجلة والمتصلة بالتخطيط. طريق خطر ملىء بالمكايد التى سيحاول إسماعيل تفاديها بمهارة وسوف تعطى فى النهاية نتائج إيجابية.

حلف إسماعيل اليمين أمام رئيس الجمهورية.

استقبله رئيس الوزراء بحفاوة. محمود فوزى، وزير الخارجية السابق والبالغ من العمر ٧١ سنة أبدى صبراً بلا حدود أمام رسائل الطعن الطويلة لأعضاء الوزارة؛ لا يتدخل إلا نادراً وبكثير من الحذر. نقص وزن إسماعيل؛ يفتقد الشهية والأهم أنه يفتقد الحماس.

نُدْعَى إلى كل مكان. لقد صَفَّت والدتى أخيراً بيت الأزياء، ولحسن الحظ أنها سوف تستمر فى مسئولية أزيائنا نحن. وهو امتياز أقدره حق قدره.

حفلات الاستقبال الأولى التى حضرناها أمتعتنى، رغم التعب، ووضع الوقوف المستمر. كان من الصعب علينا أحيانا أن ننسحب؛ يوجد دائما شخص ما يتعرف على إسماعيل ويخف للتحدث معه. وحينئذ لم أكن أعرف تقريبًا أحداً. كنت أكتفى بملاحظة هذا العالم من الناس المكون من رجال فى ملابس قاتمة ونساء فى ملابس السهرة أغلبهن فى تسريحات شعر مركبة جدا أو شعور مستعارة. المجتمع الذى أتحرك فيه يختلف عن المجتمع الذى عرفته قبل الزواج. بعض الشخصيات النادرة التى تمثل العهد البائد تختلط مع كبار شخصيات الطبقة الجديدة التى أفرزتها الثورة. ولاحظت باندهاش الاتجاه الودود نحوى لشخصيات كثيرة كانت أيام السجن، لا تدير لى ظهورها فحسب وإنما كانوا يتجاهلوننى تماما.

فى الوقت الحالى أذهب تقريبًا يوميا إلى الجيزة. لابد أن أتابع سير الأعمال التى تتم؛ أتعجل العمال. نريد اليوم أكثر من أى وقت مضى أن نستقر فى منزلنا. أتسلق الأحد عشر دوراً التى تؤدى إلى شقتنا تحت نظرة حارس العمارة المذهول؛ لم تركب المصاعد بعد. يصاحبنى إسماعيل أيام الجمعة.

وبدأ انخراطى فى الاجتماعيات الرسمية منذ السهرة التى دعا لها الرئيس وزوجته للاحتفال بخطوبة إحدى بناته. وهى سهرة يدهشنا ويصدمنا ما فيها من بذخ. وأسأل نفسى هل أنا فى خطوبة أم حفل زفاف؟ كل هذه الزينة المبالغ فيها أليست سخيفة (غريبة).

أنظر إلى السيدات اللاتى تمر بين الموائد. أعجب بتسريحاتهن. تسريحات أم قبعات؟ كم أمضى المصففون من الوقت للحصول على هذه النتائج؟ بعد استعراضى لهذا الأفق، بدأت أتعصب، شاعرة بالملل من هذا الانتظار الطويل. ولكن ما إن بدأت

الأوركسترا فى عزف قطعة موسيقية يبدو أنها أسعدت كل الصالة. سمعت من يقول بورع: "أم كلثوم! أم كلثوم!".

أترك زوجي والمستمعين فى نشوة الطرب، كى أتأمل على راحتى رئيسنا وزوجته. كنت أعرف السادات لأننى رأيته فى التليفـزيون. طويل ونحيـف ومهـيب، ولكنـه ليـس جمـيلاً بالمرة. على أن جيهـان، زوجته سيدة جميلة جدا. متوسطة القامة قوامها جميل، يحيط شعر أسود بوجهها البيضاوى باهت اللون وتقاطيع متناسقة تلمـع فى وسطها عيون كبيرة سوداء، تقف منتصبة جـدا ورأسـها مرفوع فى نوع من التحدى الباسم. مللت! الأغنيات طويلة جدا! أفضل أن أذهب وأدخل للفراش... أوف! أظن أنها انتهت. التصفيق المتحمس استمر طويلاً.

"ياللى! قومى" همس إسماعيل. "سوف ننطلق".

وها نحن أصبحنا مكلفين بمصاحبة رئيس دولة أفريقيا الوسطى وإحدى زوجاته خلال إقامتهما فى القاهرة! ورئيس وزرائنا منتدب لينوب عن الرئيس. وسيقام عشاء رئاسى على شرف بوكاسا فى الساعة الثامنة والنصف. والطائرة الرئاسية سوف تهبط فى المطار فى تمام الثالثة. وفى المطار نعرف أن الطائرة لن تصل سوى فى السادسة! وكان هذا يحدث فى شهر أغسطس؛ فستانى البسيط من القطن الأصفر المشجر، سريعًا ما تجعد! ولم يكن لدى عمليا وقت كى أعود للمنزل وأبدله بفستان طويل.

وفى حـوالى السـاعة السادسـة يظهـر سفير أفريقيـا الوسطى وزوجتـيه اللتين لا يفارقـهمـا أبداً؛ ويتبعـهـم ملحقـون كثـيرون وسيدات لابسات البوبو والتربون. ويبلغوننا أخيراً أن الطائرة هبطت.

ورئيس أفريقيا الوسطى ذو الوجه المستدير المشرق يرتدى اللباس العسكرى، وفوق رأسه غطاء رأس من فرو الفهد مائل قليل على رأسه. ينزل على سلم الطائرة قابضًا على عصا الماريشال تحت إبطه. وتتبعه سيدة شابة ساحرة. وهى تلبس بوبو

أصفر مسطردة برسوم بنية؛ وتربون مزين بماسة ضخمة لامعة فوق شعرها الأسود الكثيف. بعد أن مدت لى يداً رخوة ومنداة، اندفعت مدام بوكاسا نحو مواطنيها مع زقزقات سعادة غامرة وقبلات.

لابد لرئيس المراسم لدينا أن يبذل مجهوداً كبيراً مع هؤلاء النسوة اللاتى يتصرفن مثل طيور تحررت من أقفاصها بدون أدنى اعتبار للبروتوكول. وأنا أتبع مدام بوكاسا التى تمشى وقدماها للداخل مثل البط وصديقاتها اللابسات لنفس البوبو، انتبهت إلى أن صورة بوكاسا مرسومة باللون البنى على مؤخراتهن! ومع كل خطوة كانت إليتهن تؤرجح بشكل مضحك وجنات وجه بوكاسا الجزل.

واختفى الرئيس وحرمه داخل قصر العروبة حتى يستعدوا للعشاء الرسمى؛ ونحن سوف ننتظرهم حتى الساعة التاسعة والنصف! السيدة رئيسة أفريقيا الوسطى صممت على أن يأتى إليها أحد مصففى الشعر المشهورين لكى يصفف شعرها (كو دى بنى)! وحين وصلنا إلى قصر القبة كانت الساعة العاشرة وعشرين دقيقة، جلسنا إلى المائدة وحاولنا ابتلاع لقيمات من عشاء أعيد تسخينه عدة مرات.

أسوان، فندق كاتراكت. الساعة الثانية وعشرة. سوف نأخذ طائرة الساعة الرابعة إلى القاهرة. تضج صالة المطعم بضوضاء الأصوات والضحكات. هذه ساعة الذروة. مجموعات كثيرة من الأجانب ضمن رحلات منظمة يكملون قهوتهم. هناك مصريون أيضا، البعض يتعرف على إسماعيل، ويقتربون من الطاولة، لدواعى اللياقة؛ ولكن غالبًا لدواعى الفضول. تنتشر إشاعة ملحة؛ إن الوزارة سوف تتغير.

"يتصورون أننى قلق، وأننى أسافر كى أعرف إن كنت سوف أكون من بين المحظوظين المعينين فى الوزارة الجديدة...".

استعاد إسماعيل عافيته من إقامته هذا الأسبوع فى أسوان.

ظل لديه حمى خفيفة لمدة ثلاثة أسابيع كاملة ولا ينام وفاقد الشهية. "أنت على وشك انهيار عصبى" قال الطبيب: "خذ إجازة لمدة عشرة أيام على الأقل، بعيداً عن القاهرة وانس عملك ومشاغلك...".

واخترنا أسوان؛ وهى من أجمل المواقع فى العالم. واتخمنا جمالاً. وقد تمشينا على شاطىء النيل وقمنا بنزهات فى فلوكة خلال الصخور البازلتية البديعة. وقمنا بالقصد للسد العالى. وخلال هذه الرحلة وقفت لحظة أمام اللوحة التذكارية المصنوعة من البرونز. ولاحظت وأنا مصدومة ومندهشة، أنه يوجد رسم جانبى للسادات متجاور مع الرسم الجانبى لعبد الناصر! ولما لاحظ مرشدنا الشاب استغرابى قال وقد بدا عليه الضيق إن هذا الرسم نفذ بناء على "أوامر عليا".

إسماعيل غير معنى بالإشاعة. أشعر أنه يداعب أملاً ألا يظهر فى قائمة الوزراء المختارين. تغيير الوزارة يتطلب رئيساً جديداً للوزارة.

من الذى سوف يختاره الرئيس السادات فى هذه الظروف المضطربة، وحرب الاستنزاف المضنية تأكل المصريين.

اتضح أن الإشاعة صحيحة. بعد عودتنا إلى القاهرة بيومين عين محمود نائبًا لرئيس الجمهورية وعزيز صدقى رئيساً للوزارة. وكان عزيز صدقى يشغل منصب وزير الصناعة تحت حكم عبد الناصر، وهو شاب ذكى وديناميكى ونزيه وسوف يعطى روحاً جديدة لوزارته. وقد اختار وزراءه من بين أكثر التكنوقراط كفاءة فى البلد؛ من بينهم ١٨ من الجامعة. يحتفظ إسماعيل بمنصبه ويعين الرفيق فؤاد مرسى وزيراً للتموين. وهى وزارة صعبة؛ لأن السوق السوداء اتسعت بخبث بموازاة القيود الموضوعة على مختلف المنتجات المستوردة.

حاول التجار الفاسدون استيراد بضائع متنوعة وبشكل سرى وبيعها فى بوتيكاتهم الصغيرة فى شارع الشواربى، مخالفين بذلك قانون حماية وتشجيع إنتاج

القطاع العام. ذلك الشارع العرضى الصغير الذى يربط شارع عدلى بشارع قصر النيل، حيث هيمن طويلاً بيت أزياء صالحة، تحول إلى سوق للبضائع المهربة.

ونجد فى الشارع الأدوات المنزلية وأجهزة الترانزستور وأدوات التجميل وأقمشة وملابس وكلها ذات مستوى أدنى من الإنتاج المحلى. قرر فؤاد مرسى بموافقة رئيس الوزراء إعلان الحرب عليهم!

فى أيام الربيع الأولى هذه، كنا نستقبل الصباح ونحن نبتسم للنيل الذى يجرى تحت أقدامنا تقريباً. ونقدم احترامنا لأهرامات خوفو وخفرع الذى يبدو أنها ترتكز على الأفق الأزرق، دون أن ننسى أهرام زوسر أيضا! ونتابع أيضا نمو الزهور والزروع التى تكبر فى الأحواض الموضوعة وراء الداربزين بطول البلكونة.

نحن أخيراً فى بيتنا. أحرار وفخورون بشقتنا. كان يلزمنى أسبوع تقريباً لفرز وتنظيم كتبنا الموضوعة فى صندوقى سفر كبيرين. كل يوم فى العاشرة صباحًا تحضر إحدى بنات أخواتنا لتمد يد المساعدة. وتقوم المتطوعة وهى جالسة على الأرض بفرز الكتب وترص كتب إسماعيل فى ركن وترص كتبى فى ركن آخر. وبسعادة غامرة وجدت شعراء وكُتَّابًا كانوا نائمين فى الحقائب منذ زمن. بعض الكتب كان بها كلمات إهداء.

"إلى صفية لذكرى الـ CNE والشعر والشباب.... إلزا. كان هذا إهداءها للحصان الأحمر. الشقة شارع السردبير وكانت قد اقترحت على "المرور عليها لتناول فنجان شاى ونثرثر..." قبل أن أعود لمصر بأسبوع. حجرة كبيرة تكسو جدرانها الكتب ولوحات كبار الفنانين. الساموفار(*) "هل تذوقت الشاى على الطريقة الروسية؟" وتحدثنا معًا. عما أكتبه، وعن مصر، التى سوف أراها من جديد بعد غياب خمس

(*) غلاية شاى روسية ذات مدخنة مركزية داخلية. (المترجم).

سنوات... عن الأوضاع السياسية... وتوقف حديثنا عند حضور شاب صغير جاء لكى يعطيها صوراً لتشيكوف من أجل المعرض الذى كانت تزمع إقامته. وقد حاولنا الاختيار ونحن جالسون على السجادة، من بين الصور المنثورة أمامنا. وعند مغادرتى تمنت لى الحظ السعيد. إننى معجبة أيما إعجاب بهذه المرأة النشيطة التى لا تكل، التى تجد وقتًا للكتابة، وهى تعد المعارض وتعد اللقاءات مع الكتاب. فلنعبر ذلك. لا عودة للوراء.

يستريح الرئيس مع أسرته فى المعمورة، وكثيراً ما يستدعى وزيراً أو آخر من أعضاء مجلس الوزراء.

كنا نقيم عندئذ فى فندق فلسطين الجديد فى المنتزه. تطل كل حجرات الفندق على خليج بديع، يتيح بلاجًا خاصًا. تلحق بنا زوزو وأبناؤها لكى يسبحوا معى. وكثيراً، عندما يكون إسماعيل غير مشغول كنا نتناول الغداء عند زوزو وزوجها. أختنا الصغيرة وهى طباخة ماهرة، تطهو من أجلنا أطباقًا لذيذة. ونسعد بالطبع باستقبالها عندنا وكذلك استقبال عائلتينا على التوالى؛ وهى مساحة لطيفة من الزمن تبعدنى قليلاً عن الضغوط التى أرزح تحتها.

وسوف تعمل وزارة عزيز صدقى بلا كلل وبلا انقطاع عامًا كاملاً تقريبًا. أعطى الوزراء فيه أفضل ما لديهم مدفوعين بإرادة استعادة الموقف الاقتصادى للبلاد الذى تآكل من جراء حرب الاستنزاف. ويشرق إسماعيل، فى ذلك الجو الودى المبنى على التقدير والاحترام المتبادل، رغم استطالة الجلسات التى يفرضها تعقد القضايا التى يواجهونها. يعود للمنزل للغداء متأخراً، ولكنه يبتسم، فى حالة من الرضا بالعمل المكتمل. منذ وقت طويل لم أره بهذا المرح. وكثيراً ما يصف لى مشهداً مضحكًا شارك فيه، أو مداعبة قام بها أحد زملائه. وقد ربطته صداقات بعدد من زملائه الوزراء وكان يدعوهم للعشاء عندنا مع زوجاتهم.

ولم تمنعنا الاجتماعات الرسمية من رؤية أصدقائنا، ومن بينهم الزوجان أبو العينين. وهما شغوفان بالفن الإسلامى، يهتمان خاصة بدراسة الفولكلور المصرى: الأغانى والرقصات والملابس والمجوهرات والخزف... إلخ.

وكانت معارفهما فى هذا الموضوع بالغة الثراء، السبب فى شهرتهما الكبيرة فى مصر والعالم العربى. و"أبو" كما كنا نسميه المتخرج من كلية الفنون الجميلة ذو موهبة متميزة جدا؛ فهو ديكوريست للمسرح ورسام أزياء للفرقة الاستعراضية الشعبية القومية، وفى أوقات الفراغ فنان تشكيلى. هذا الشاب الطويل النحيل الأسمر ذو الجبهة العريضة، وَهَبَهُ الله عقلاً ثاقبًا وراقيًا يوحى له دائما بقفشات تسعدنا. وزوجته رعاية طويلة وممتلئة القوام قليلاً؛ تلف ضفائرها الطويلة السوداء على شكل تاج حول رأسها فيبرز ذلك وجهها الجميل ذا الذقن المدببة قليــلاً وعينيها الواسعتين السوداوين بنظرتهما المعبرة والتى غالبًا ما تكون ماكرة.

وخلال زيارتنا الأولى لهما فى شقتهما المتواضعة ذات الأساس العربى القديم، تعرفت بالصحفى المعروف أحمد بهاء الدين وزوجته ديزى، وسيدة قبطية تنتمى لأسرة برجوازية من طنطا، وديزى الحاصلة على ليسانس الآداب فى اللغة الإنجليزية، تجاوزت عن معارضة أهلها لتتزوج من بهاء المسلم. هذان الزوجان الذكيان الظريفان مرتبطان جدا بالزوجين أبو العينين اللذين تبنونا؛ وبذلك تلاقينا كثيراً لدى كلا الزوجين. وقد عرفنى أصدقاؤنا على الموسيقى العربية القديمة وأسمعونى صوت سيد درويش. أعرف الآن الألحان العربية القديمة ذات الإيقاع الخاص وأغانى سيد درويش التى أقدر كلا من موسيقاها وكلماتها.

وكثيراً ما كنا ننضم إليهم أيام الجمعة فى الحرانية(٩)، فقد قاموا ببناء منزل بقبة على الطريق المؤدى لسقارة من دور واحد تم تنفيذه بناء على ماكيت رسمه أبو العينين.

---

(٩) بلدة فى جنوب الجيزة، قريبة من الأهرامات.

وأصدقاؤنا الذين كانوا قد قاموا ببيع قصور عربية قديمة وجميلة تم هدمها بلا رحمة، حصلوا بذلك على نوافذ بمشربيات وأبواب عربية كى يزينوا بها منزلهما الصغير. كم من الذكريات نحتفظ بها مع إنجى التى كانت من ضمن شلتنا، ذكريات الغداء على التراس فى منزلهم. ورغم الدعابات التى تنطلق فإن أحاديثنا لا تلبث أن تصبح جادة. يتناولون الموضوع الوحيد الذى يحرصون عليه. الحب! متى سوف يتمكن جيشنا من استرداد سيناء؟ الجرح الذى تسببت فيه هزيمة ٦٧ كان أبعد ما يكون عن الاندمال. ولم نكن الوحيدين الذين ترغب فى الانتقام. الشعب كله كان يحلم بذلك. وقد حدثت مظاهرات استياء. وقد مرت مظاهرة حاشدة للطلبة على كوبرى الجامعة أمام عينى. وقد عرفت من بينهم إحدى بنات أخى إسـماعيل التى أشارت لى بيدها. لم يكن لهم سوى طلب واحد لا يحدن عنه وهو الحرب. وقد تابعتهم وأنا فى غاية التأثر وهم يعبرون عن أمنية كل المصريين: "بالروح، بالدم هنحرر أراضينا!..." والطلبة الذين عبروا الكوبرى بهدوء وهم يرددون الهتافات نفسها يمرون الآن أمام كوبرى صلاح الدين الذى كنت ألمح قبته على اليسار.

أظن أن هذه هى اللحظة التى بدأت أسمع فيها صرخات ونداءات. مثيرو الشغب اختلطوا بالطلبة وثاروا **pagaille**. واضطر البوليس للتدخل.

طلب صحفيون كثيرون مقابلة إسماعيل. يستقبلهم فى مكتبه وأحيانا فى المنزل. يرغبون فى استكمال دورتهم على الشخصيات السياسية بمقابلة الوزير الماركسى. وحينما يكون التحقيق الصحفى فى المنزل فإننى أحضره. وهم يهتمون أساسًا بالظروف الحالية وإشاعات الحرب. هل سوف تهاجم مصر إسرائيل؟ هل هى مستعدة لهذه المواجهة؟ هل لديها أسلحة كافية؟ هل هذه الأسلحة متطورة؟ يريد المصريون بشدة أن يحاربوا ويدفعوا بالإسرائيليين خارج سيناء... ويجيب إسماعيل بمهارة على أسئلة مباشرة، وكثيراً ما تكون حساسة. يضحك ويحول السؤال، ويعبر بحذر.

تنتشر إشاعة، مرة أخرى؛ سوف تتغير الوزارة. سوف يتغير عزيز صدقى. بمن؟ ولماذا يقوم السادات بتغييره؟ ما هى الأسباب التى سوف تجعله يبدل رجلاً بكفاءة عزيز صدقى. تغيير فى السياسة الداخلية؟ سيكون فؤاد وإسماعيل من بين الوزراء الذين سيتم استبعادهم بلا شك. انعطاف أكثر نحو اليمين... ولمدة يومين تلقينا اتصالات تليفونية؛ أصدقاء فضوليون أو بعض الوزراء القلقون. الكل يريد معرفة رأى إسماعيل فى هذه الشائعات.

"أبداً، ولكنها سوف تكون خسارة كبيرة لأننا قمنا بعمل جيد. وليس هذا وقت التوقف. على أى الأحوال، لا أظن أننى وفؤاداً سوف نستبعد...".

فى المساء نفسه، اقترح على إسماعيل إقامة قصيرة فى الإسكندرية.

وسعداء بإمكانية البعد عن القاهرة، خلدنا إلى النوم. وفى اللحظة نفسها التى كنت أدخل فيها فى النوم دق جرس التليفون:

"آسف إننى أعطلك" يقول صوت رجل. "هل يمككنى أن أتحدث إلى معالى الوزير؟ أمسك إسماعيل بالسماعة، مندهشًا. "نعم؟ مساء الخير! نعم، حسن... شكراً". وضحك.

"ماذا حدث؟ لماذا تضحك؟ قل لى...". وضع إسماعيل قبلة على جبينى.

"إنه ممدوح سالم. يرجونى ألا أنقل أوراقى مثل الذين فعلوا ذلك فى العصر. سأحتفظ بمنصبى...".

أغمضت عيونى؛ أعرف أن زوجى لن يتمكن من النوم بسهولة. يجب أن يتساءل عن الدوافع الحقيقية للرئيس. استطالة "حرب الاستزاف"، عدم الرضا الذى امتد لكل الطبقات الاجتماعية، أيكون هذا ما دفع السادات للتغيير فى السياسة؟

صحونا مبكرًا جدا. يبتلع إسماعيل قهوته، وهو يقرأ جريدته. لاحظت فقط المانشتات العريضة فى أول صفحة.

"يرأس الرئيس الوزارة. فؤاد يرحل. وزراء جدد سوف يعملون تحت قيادته..." انهار كلانا. استبعد رجالاً يتمتعون بالكفاءة والنزاهة. لماذا؟ إسماعيل آسف وقلق. وجوده فى هذه الوزارة الجديدة لا يطمئنه. ماذا يعنى هذا التغيير فى لحظة تحتاج فيها البلد لرجال مثل أولئك الذين غيرهم السادات؟

وحلف إسماعيل اليمين لثالث مرة! وما إن وصل إلى المنزل، حتى رجانى أن أستعد. لا بد أن نقوم بزيارة مجاملة للوزاء الذين استبعدوا، والذين يعتبرهم أصدقاءه.

وفيما عدا فؤادًا وعطيات، لم أتمكن بعد من معرفة الآخرين، ولم أكن سعيدة قط بهذا الاقتراح. ولم أستطع أن أمنع نفسى من التعليق: زيارات تعازٍ!...".

والأزواج الذين نقوم بزيارتهم يخفون بصعوبة خيبة أملهم؛ ويشعرون بالإهانة للطريقة الخشنة التى أبلغوا بها. ولديهم كل الحق! إن اكتشافهم من الصحف أن أسماءهم غير موجودة بين قائمة الوزراء الجدد، لهى صدمة مهينة.

على أى الأحوال، فإن البعض يبدو محظوظًا على حين يبدو المستقبل القريب بالنسبة للبعض الآخر مظلمًا، مثل فؤاد مرسى.

من مستوى اجتماعى بسيط، يعرف هذا الأستاذ السابق للاقتصاد السياسى، والسكرتير السابق للحزب الشيوعى أنه سوف يجد بصعوبة مركزًا مناسبًا لكفاءاته. حاول أن يتجاوز مشاعره أمامنا، ويداعبنا بعض الوقت، ولكنه كان محبطًا. ثم، على أثر إيماءة من إسماعيل قمت مع عطيات. سوف يتحدث الصديقان معًا.

كم بدت عطيات ممرورة! كانت تتحدث كالمحمومة عن مزايا زوجها، وعن كل ما أنجزه... وذلك، وهى مثبتة نظرها على بتحدٍّ ولوم. ويبدو كأنها تلومنى. ولأننى تضايقت انتابتنى رغبة شديدة فى الانصراف. كنت فخورة أن رئيس الجمهورية احتفظ بإسماعيل، ولكن شعورى تجاه المنصب نفسه كان شعوراً باللامبالاة. ولن تصدقنى عطيات بالطبع إذا أكدت لها أن الضغوط تثقل على أكثر فأكثر. أحاول أن أجد الكلمات المناسبة. إننى مصدومة من الطريقة التى تم بها التغيير الوزارى. وإن المعركة الشرسة التى قادها فؤاد ضد أصحاب البوتيكات الفاسدين وتجار السوق السوداء أتت بنتائج ممتازة. وإن رحيله خسارة فادحة للبلاد... ما هى إذن نية السادات؟ أحسست أن حديثى طيب خاطرها. وقامت بتقبيلى وأنا أتركها.

أمضى إسماعيل ٤ أيام فى شيلى. وقام بمقابلة مهمة جدا مع اللندى استمرت ساعتين. وهذه الإقامة القصيرة لم تتح له فرصة مقابلة بابلو نيرودا. وأفسدت المظاهرات رحلته للمدينة. وأحضر لى شالاً ساحراً من طراز البانشو "الشيليين لطاف ومسالمون... ولكننى قلق فيما يتعلق بالمستقبل...".

وسوف يكون من حقى رحلات جميلة مع إسماعيل. ولكن، التاريخ أولاً؛ إنه يدخر لنا مفاجآت!

(٤)

٦ أكتوبر

سريعًا ما أصبحت الساعة الثانية والنصف ظهراً. ما هـذه الجلبة! إن عدد السيارات التى تعبر الكوبرى يزداد يومًا بعد يوم، خاصة فى هذه الساعة من اليوم. هل سوف يمكننى التعرف على سيارة إسماعيل، من بين الخطوط الطويلة التى تسير من الناحيتين؟ ما زال الجو حارا؛ لقد أحرقت شمس أكتوبر زروع "الزينيا"(*) الخاصة بى.

لا بد من إزالة الأعشاب الضارة من أحواض الزرع. غداً فى الصباح، سوف أقص الأوراق والأفرع الجافة من النباتات الخضراء.

"ماذا تفعلين هنا؟". انتفضت. ضحك إسماعيل. الهانم تتأمل أمام النيل، بينما يقاتل جنودنا...".

"ماذا؟" أطلقت صرخة فرح. هل بدأت الحرب؟...".

"نعم، لقد أبلغنا الرئيس بذلك توا... أمهلينى لحظة لأغسل يدى...". جلست إلى المائدة أنتظر.

(*) زرعة مكسيكية ذات زهور تزيينية. (المترجم).

"ها" قال إسماعيل وهو يجلس. "سوف يعلن ممدوح سالم حالة التأهب للحرب...".

حينما أبلغت عليا بالخبر، ابتسم سعيداً.

"أخيراً! الحمد لله!...".

-٢-

غير معقول ولكنه حقيقى! عبرت القوات المصرية خط بارليف المنيع! إنهم يتقدمون بهمة عبر الصحراء. تسود الجيش الإسرائيلى أكبر قدر من الفوضى. والمصريون، يغمرهم الفرح، يأملون بقوة فى هذه الحرب التى سوف تعيد لهم أرضهم وكرامتهم. وهم على أتم الاستعداد لكل التضحيات.

وبينما يحضر إسماعيل الاجتماعات المتعددة لمجلس الوزراء، كنت أذهب يوميا إلى مقر جمعية تحسين الصحة، التى ترأسها صديقتنا شريفة محرز. "تعالى ساعدينا. تحتاج لك. أنت تتحدثين اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية. ولما كانت سيدات السلك الدبلوماسى ممنوعات من العمل فى المستشفيات العسكرية، فقد عرضوا علينا خدماتهم...".

وبمصاحبة زوجات الدبلوماسيين كنا نعد طرود الحلويات والضمادات ذات المقاسات المختلفة وكنا نخيط ونقص؛ كنا نقوم أيضا بعمل كوفيات تريكو من الصوف، لاقتراب الشتاء. تعارفنا فيما بيننا وتنادينا بأسمائنا المجردة. كان يبلغنا أخبار زيارة زوجة السادات. كانت زوجة الرئيس تزور المستشفيات العسكرية؛ لا تكل، كانت ترعى الجرحى، بتفانٍ مبهر.

كانت الفرحة والزهو تطيران بالمصريين. نفس جديد، يساعدهم على احتمال آلاف المشاكل التى تواجههم فى الحياة اليومية. كانوا يستسلمون للوقوف فى طوابير أمام المجمعات التعاونية دون تذمر ودون كثير من التدافع. كانوا يتقبلون بالابتسام أنصبتهم الضئيلة من الشاى والسكر والدقيق والأرز الممنوح لهم. سماء القاهرة ظُللت من اللازورد؛ والطائرات التى تخطها طائرات مصرية. لم يتساءل أحد لماذا الغارات نادرة. كانت هناك غارتان فى اليوم الأول للحرب. بعد التحقق تبين أنهم يجربون جودة أداء صفارات الإنذار. قليلون هم من يشكون أن الصواريخ السوفييتية هى التى تحمى بلادنا.

تتوالى الأسواق الخيرية لصالح الجنود المصابين وأسرهم. وزوجة الرئيس السادات تعتبر من واجبها أن تكون هذه الأسوق تحت رعايتها. تركت سريعًا فكرة تبادل بعض الكلمات معها. كانت محاطة جدا. كان هناك أربع أو خمس زوجات وُزراء أو محافظين، تقريبًا هن دائما اللاتى يتقربن منها. يسلمون عليها ويهنئونها ويطرون على تسريحة شعرها وأناقتها ويداهنونها. يمكننى الآن التعرف على اللاتى لا يعوزهن الإخلاص لهذا العمل؛ أسميهن "سيدات البلاط". برجوازيات صغيرات منبهرات بعالم السلطة الذى قذفن إليه بمصادفات السياسة. أجلس أنا بعيداً بصحبة بعض زوجات الوزراء اللاتى يفضلن الاحتفاظ بالمسافات.

-٣-

بعد ذلك بعشرة أيام، أصاب قرار وقف إطلاق النار الذى اتخذته الأمم المتحدة المصريين بالذهول، ولكنهم راضون، ويستسلمون للأمل فى تحسن ظروف الحياة، وأن آلاف المشكلات اليومية سوف تتضاءل. ولكن الأكثر شعوراً بالسعادة هن أمهات وزوجات العسكريين اللذين سيصلون قريبًا من الجبهة مكللين بالمجد. إننا لا نفهم

أسباب النهاية لهذه الحرب. كانت جيوشنا تواصل معاركها بنجاح. لماذا لم يستمروا فى التقدم أبعد من ذلك؟ سلمنا بصعوبة لهذا السلم، لهذا النوع من الحل الوسط. سوف يكشف لنا التاريخ يوماً ما سر هذا القرار...

إنه غالبا فى هذه الحقبة التى يمكننى أن أحدد لقاءنا "التاريخى" بالمهدى بن بركة. لم نكن قد انتقلنا من المنزل بعد، كنا ننتظر ليليان ولطفى على العشاء على الروف مع ماما وإنجى. وما زلت أتذكر وصول أصدقائنا بصحبة رجل أسمر قصير القامة، يميل للقبح، عيونه تشع حيوية وذكاء. وأثناء التعارف، هذا ما قاله لطفى: "أتعلمين يا صالحة هانم، مهدى صديق عزيز لملك المغرب...". وضحكت ماما معجبة، وهى لا تشك أنها أمام أحد زعماء المغرب. وإذا بمهدى يضيف: "نعم عزيز إلى درجة أنه حاول قتلى مرتين...".

فتحت ماما عينيها عن آخرها معتقدة أنها مزحة. أسبوع مضى على هذا اللقاء، وتم اختطاف بن بركة فى سان جرمان دى بريه أمام قهوة ليب!

لقد تعرضنا لهذا النوع من المصائب مرة ثانية. كمال ناصر مثقف فلسطينى معروف كان قد سهر معنا ليلة الكريسماس، قتل بعدها ببضعة أيام مع رفيقين آخرين بأيدى الأجهزة السرية الإسرائيلية.

شكل أنور السادات من جديد وزارة جديدة برئاسة عبد العزيز حجازى الذى كان يشغل منصب وزير المالية آنذاك. وللمرة الرابعة يحلف إسماعيل اليمين.

كان الرجلان يكنان لبعضهما الاحترام ويتفاهمان جيداً.

وزارة ما بعد الحرب هذه تضطلع بالمهمة الضخمة لإنهاض اقتصاد البلاد، والعمل على... الحاجات العاجلة لجماهير لا تكف عن التكاثر.

اعتدنا ألا نقبل إلا دعوات معينة للعشاء. ونتمكن فى هذه المناسبات من الالتقاء بأصدقائنا، ومن بينهم سفراء فرنسا ولبنان والجزائر وتونس!

يبدو أن إسماعيل نال استلطاف رئيس الجمهورية! السادات كثيراً ما يستدعيه ويستقبله فى لقاء منفرد.

ولكن الرئيس لا يستقر تقريبا أبداً فى فيلته على شاطئ النيل التى تقع على بعد خطوات من بنايتنا.

لديه عادة التنقل المستمر. هذه اللقاءات تضطر إسماعيل للانتقال إلى القناطر الخيرية، وإلى ميت أبو الكوم، وإلى كنج ماريوت، وإلى المنتزه بالإسكندرية. وخلال إحدى هذه المحادثات، طلب السادات من إسماعيل إعداد مذكرة تتيح له إعادة تنظيم الاتحاد الاشتراكى العربى (حزب وحيد)، وذلك لإدخال التعدد السياسى. وأنه بفضل هذه المذكرة التى تبناها السادات حرفيا تم إنشاء المنابر المختلفة.

كنا نعيش فترة ما بعد الحرب هذه بطريقة ظريفة. كان إسماعيل يعود للمنزل متأخراً، ومنهكًا ولكنه ممتن بالعمل المنجز. كثيراً ما نستقبل الزوار. أحيانا ما تتمهل نظرات الضيوف على الجدران حيث لوحات رسامينا المفضلين، وكذلك لوحة لفنان يوغوسلافى. "هذه هدية من كاردلج" وضح إسماعيل بفخر. كان السفير اليوغوسلافى الذى نلتقيه كثيراً قد قدم إسماعيل إلى كاردلج أثناء إقامته فى القاهرة. إن رقم اثنين فى نظام تيتو وإسماعيل تباحثا طويلاً.

-٤-

إننى أحتفظ من هذه الفترة بصور رحلات. بعض هذه الرحلات كان خياليا تماما، وبعضها كان مهما، والبعض الآخر كان ببساطة جميلاً. أول هذه الرحلات قادتنا إلى باريس وواشنطون. وكانت البعثة الرسمية المصرية مكونة من أربعة وزراء وقريناتهم.

إننى أسترجع كل مرة بالدهشة نفسها الموتوسيكلات المصفوفة إلى جوار السيارات السيتروين التى تنتظرنا وهى تهدر. ماذا تفعل هنا؟ صريخ صفارات الإنذار المختلط بالانفجارات (petarade) تجعلنا ننتفض؛ تحرك موكب السيارات! شيء لا يصدق وفكاهى أيضا.

ننطلق بأقصى سرعة فى أعقاب الموتوسيكلات التى تطلق صفاراتها فى طريقنا آمرة قائدى السيارات أن يفسحوا الطريق! هل هو أنت يا "بولى" التى تشكلين جزءاً من هذا الموكب المصحوب بالموتوسيكلات؟ انتابنى ضحك شديد؛ ضغط إسماعيل على يدى، وهو يضحك أيضا. "أنت واخدة بالك. كل هذا التشريف.. أنت أبعد ما تكونين عن الواحات، هيه؟".

انبسطت جدا ولكن هذا لا يمنع استغرابى من هذا الموكب.

بعد أن اخترق الموكب باريس اتجه نحو ميدان الكونكورد وتوقف أمام الكرييون! كم مررت أمام هذا الفندق كى أنتظر فى موقف أوتوبيس رقم ٥٢ . كانت باقتان يانعتان فى انتظارنا فى جناحنا بالفندق. وقبل أن يتركنا سألنا الخادم إذا كنا فخامتنا نطلب شيئًا! وما إن أغلق الباب وراءه حتى وقعنا فى أحضان بعضنا! أشعر بالفرحة التى يستشعرها إسماعيل. فرحة هائلة عوضًا عن السنوات السوداء التى اقتسمناها.

ومثل الأطفال فى بلاد العجائب، استمرينا فى التفتيش. كان هناك تليفزيون وبار وزجاجة شامبانيا غارقة فى الثلج وسلة فواكه وصينية جبن فى انتظارنا. حجرة النوم أصغر، ولكن تأثيثها لا يقل أناقة. الحمام حلم من الذوق الرفيع والراحة. نوافذ جناحنا تطل على ميدان الكونكورد البديع!

خلال جلسات عمل الرؤساء أستفيد من وقتى بحرية. تاتى لها الأولوية ونزهة فى الشانزليزيه وشارع سان جيرمان، حيث أتناول كأسًا مع جابى.

أتذكر أننى لم أستخدم السيارة الموضوعة تحت تصرفى سوى مرتين فقط. فى البرنامج المعد لزوجات الوزراء اخترت عشاء على ظهر باخرة كنت أزدريها فى أيامى الباريسية وعشاء آخر فى مطعم التورايفل.

حصلت على إسماعيل لى وحدى ليلة السفر إلى الولايات المتحدة.. السيد قرر اصطحابى إلى "صالون الكريزى هورس" كى يصالحنى. إننى ذهبت مع ريمون قبل زواجنا!

"إن لدينا كل الوقت. منذ وصولنا للكريبيون، لم نستفد من كل العجائب التى تتيحها لنا المائدة الدوارة!... سوف نتناول عشاءنا هنا بهدوء. عشاءً بمصاحبة الشامبانيا!... لنرى ماذا يعرض التليفزيون...".

ظهر وجه نيكسون على الشاشة! وجه لا يمكن التعرف على صاحبه محفوراً بالألم والمذلة. ونحن مجمدون من الفزع، الكاسات فى يدينا نشاهد الرجل، الذى كان قويا حتى الأمس، والذى يقدم الليلة بتواضع مضطرب أسباب اعتزاله للشعب الأمريكى وللعالم كله. ننصت فى صمت، مبلبلين من الصراحة المؤثرة التى تنبع من هذا الاعتراف الطويل.

"إن هذا موقف شجاع من جانبه" علق إسماعيل، حين توقف بطل فضيحة ووتر جيت الحزين عن الكلام.

"مساء الخير! سوف نتمشى. يمكنكم الذهاب للنوم". وأذرعنا متشابكة مررت أمام السائقين وابتعدنا عن موقف السيارات للبحث عن تاكسى. يثير الـ"كريزى هورس" ضجرى لا تعجبنى أبدا الراقصات العاريات الجديدات لهذا الكاباريه الشهير.

لم أتمكن فى واشنطون المدينة الجميلة عديمة الشخصية أن أختار سوى العشاء التاريخى لكيسينجر فى صالونات ستيت ديبارتمانت الكبيرة! صافحنى كيسينجر ومنحنى مجاملة.

"مساء الخير مسز إسماعيل! كم أنت أنيقة! ونانسى كيسينجر التى لم تصطحب زوجها فى القاهرة إبان زيارة نيكسون لبلادنا سوف تقوم باستمالة إسماعيل خلال العشاء؛ هى سيدة طويلة، وشقراء، كالحصان قليلاً، ولكن وجهها يشع جاذبية مغلفة بنعومة. على العشاء! جلست على يسار كيسينجر، وإسماعيل يجد نفسه ما بين كيسينجر وزوجته. يحدثنا مضيفنا عن القاهرة، التى يحبها كثيراً ويسألنى إذا كنت قد رأيت مجموعة "ديور" الأخيرة! وإسماعيل ونانسى فى حديث محتدم يضحكان كثيراً. وفجأة اقترب شخص لا نعرفه من كيسينجر وهمس ببضع كلمات فى أذنه. وقام كيسينجر معتذراً:

"مكالمة تليفونية مهمة!..." بعد بضع دقائق عاد إلى مكانه؛ ووجهه القبيح يشرق. إنه أكثر قبحاً أيضا عن قرب! ما زلت أتذكره فى القاهرة بجوار المسرح ووجهه مبتهج، وهو يصفق على الإيقاع وعيونه مركزة على نجوى فؤاد(١٠) وهى ترقص. وكان هذا المشهد اللطيف قد أخرجنا من مللنا فى تلك الليلة. كنا نحضر عشاء أقامه السادات على شرف زيارة نيكسون للقاهرة. وأعتقد أنه منذ هذه الزيارة أصبح السادات يزين أحاديثه التى تتزايد بكلمة "عزيزى هنرى".

وفى صباح اليوم التالى أثناء تناول الإفطار أعلن المذيع فى الراديو احتلال الأتراك لجزيرة قبرص!

"هذا القذر كيسينجر لابد أنه أعطى الأوامر للأتراك لغزو قبرص. مساء أمس غالبا بينما كنا نتناول العشاء!".

نسافر إذن إلى بوخارست حيث يرأس إسماعيل البعثة المصرية للمؤتمر الدولى للسكان. من هذه العاصمة أحتفظ بأثر حزن كئيب.

---

(١٠) إحدى أفضل الراقصات الشرقيات فى تلك الفترة.

مع أن زيارتنا تتزامن مع العيد الوطنى، فإن تكدس الزهور واليفط التى تزين شوارع المدينة كانت زهوتها منزوعة وذلك من وجود صور شاوسسكو الضخمة والمتعددة وكل صورة أقبح من الأخرى! والخطب المذاعة فى الراديو تتضمن شعراً مطولاً تمجيداً للرئيس. وذلك يعطينا مثالاً مثيراً للتقزز والثورة فى آن لعبادة الفرد. وسوف تظل رومانيا هى البلد الوحيد فى الشرق من بين البلاد التى زرتها والتى أصابتنى بخيبة أمل. وتنفسنا الصعداء لترك هذا البلد.

يشارك إسماعيل كثيراً سواء بوصفه مديراً لمعهد التخطيط أو وزيراً، فى مؤتمرات وسيمنارات؛ ودائما ما أصاحبه.

وعلى ذلك فقد تعرفت على بلاد كثيرة من شرق أوروبا. بولندا ويوغوسلافيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وبرلين الشرقية؛ بهرتنا هذه البلاد بالأعمال اللافتة للنظر التى قاموا بها لإعادة بناء مدنهم المهدمة. مدينة فارسوفى مثلا التى بعثها المعماريون من رمادها مستوحين لوحات كانيليتو للمدينة! وكان اقترابنا من هوياتهم الثقافية المختلفة مهمًا وإيجابيا. البولنديون المضيافون Caneletto المرحون كم دللونا. السيدات متأنقات جدا. التعاونيات كلها تتضمن مؤسسات تجميل؛ وتهذيب الرجال يصل لحد تقبيل الأيدى.

وقد أقمنا مدة قصيرة فى كراكوفيا، تلك المدينة التى أعفيت من الحرب، وتمت المحافظة على تراثها المعمارى بحرص شديد. وكان من حقنا أيضا قضاء بضعة أيام من البطالة الهانئة فى قلب جبل زاكوبان(١١) Cracovie، وبعد ذلك بعامين فى الاستراحة الحكومية فى مازورى(*). نزهات طويلة على الأقدام فى الغابة وخاصة نزهة بديعة فى منتصف الليل بالسيارة الجيب فى ضوء القمر أتاحت لنا رؤية أيل بديع! كان

---

(١١) محطة تزلج على الجليد فى جبال الكاربات.

(*) منطقة فى شمال شرق بولندا كانت قديما فى بروسيا الشرقية. (المترجمة)

هناك أيضا بلجراد وساراييفو ودوبروفنيك وكل بلد منها أجمل من الأخرى. وبودابست مع بضعة أيام على شاطئ بحيرة بلاطون. وأخيراً براج البهية وكارلوفيفارى. وبالطبع لم يفتنا ملاحظة الفرق الواضح ما بين التشيك والسلوفاك. فمن ناحية التحفظ واللطافة ومن ناحية أخرى التلقائية والحرارة الإنسانية.

-٥-

مرة أخرى تستعد القاهرة لاستقبال ضيوف. وأى ضيوف! شاه إيران لا أقل ولا أكثر وكذلك زوجته! تستمرئ الصحافة إزجاء المديح لهذا الإمبراطور المرفوض من شعبه والذى تحتضنه القاهرة. ومعنى ذلك أن تكون أرصفة الشوارع مزروعة بأعمدة تحمل يفطًا عريضة تمتد فوق رؤوسنا مكتوبًا عليها باللغة العربية واللغة الفارسية، جمل ترحيب مصحوبة بصور هذين الرجلين. تساءلت دائما إلى أى فنان يرجع الفضل فى تشويه عاصمتنا؟ يجد الممثلون ورؤساء الدول أنفسهم وقد شوهوا بطريقة مزرية.

من بين الدعوات الرسمية اختار إسماعيل بدافع الفضول دعوة الإمبراطور. وهناك كنا شهود عيان على مشهد مشين. قام كل أفراد السلك الدبلوماسى الإيرانى بتقبيل يد الشاه!

"لا يعقل!" هتف الوزراء المصريون القريبون منا "فى أى قرن يعيش إذن هذا الشاه؟...".

-٦-

يظل يوم الجمعة بالنسبة لى يوم عيد. يوم مثل الزمن الماضى مع الموسيقى والكأس ونحن -الاثنين.

فى ذلك الصباح، قرابة الظهر، أشعل إسماعيل السيجار، ونظر إلى وبصوت منخفض:

"إذن يبدو أن هناك تغييراً وزاريا ...".

"تانى!".

"نعم، تانى... أعتقد أن ممدوح سالم سوف يحل مكان حجازى. فى حالة ما إذا طلب منى ممدوح الاحتفاظ بالمنصب، سوف أرفض... تعرفين أننى كنت أتفاهم جيداً مع حجازى. بلغت أقصى درجات الإنجاز معه، ولكننى كنت أشعر أن هذا لن يدوم. الأوضاع الاقتصادية والسياسية تقلقنى... أريد منك أن تفهمى أسباب قرارى الخطير. إذا لم يعين حجازى رئيسا لمجلس الوزراء سوف أترك منصبى. أردت أن أحيطك علماً..." استمعت إليه فاتحة عيونى على آخرها، مندهشة ومجروحة فى الصميم.

"لماذا تحترس هكذا لإبلاغى بهذا القرار؟ هل تعتقد أننى سوف أصاب بخيبة أمل؟ على العكس تماما، إننى ممتنة. سوف نصبح أحراراً أخيراً!".

"كنت أريد أن أجنبك مفاجأة سيئة. ماذا تريدين؟ إننى لا أعرف كيف ولا متى سوف يعلن القرار. وقد رأينا الطريقة الخشنة التى أبعد بها الرئيس أصدقاءنا...".

تعلن مانشتات جريدة الأهرام يوم السبت استقالة حجازى وتعيين ممدوح سالم، الذى سوف يبدأ مشاوراته....

"خلاص، خلاص، خلاص..." كنت أغنى وأنا أتهيأ للسهرة. كنت وإسماعيل مهتمين بالمشاركة فى العشاء الذى يقام على شرف "جانشر" وزير خارجية ألمانيا الشرقية. سوف يكون بالنسبة لنا وداعًا للاستوزار.

وفى لحظة صعودنا درجات سلم فندق شيراتون سمعنا صوتًا ينادينا:

"إسماعيل! بولى!...". كان وزير التجارة وزوجته يتبعاننا:

"مساء الخير! هل لديكم أخبار؟... كم كانت نظراتهما قلقة!

"ولا خبر" قال إسماعيل مبتسمًا. وأخذا معنا المصعد للدور الأول. وتنهدت زوجة الوزير:

"هذه حرب أعصاب! ألم يستدعوك يا إسماعيل بيه؟" هز زوجى رأسه وقال: لا. كانت القاعة الكبيرة تضج بضوضاء الأصوات. ووجدنا سفير ألمانيا وجانشر وبعض الدبلوماسيين الألمان وكثيراً من الوزراء المصريين وزوجاتهم. وكان هؤلاء يتكأكؤون علينا ويسألون إسماعيل بعصبية: "هل تم استدعاؤك؟ هل تعرف من هم الذين استقبلهم ممدوح سالم؟ كان يبتسم غير مبالٍ ويرد عليهم. كنت أضحك فى كمى (بينى وبين نفسى) وأنا أتابع إسماعيل وهو يتسلل كى يجد وزير الخارجية وزوجته؛ إنهم يثرثرون مع ضيوفهم الألمان. ولمحت فوراً هيئة زوجته المشرقة. قبلتنى وهمست: "إسماعيل بيه سوف يبقى؟ أنت لا تعرفين؟ إن شاء الله!". وقدمتنى لمدام جانشر. سيدة حلوة جدا وشابة؛ لا بد أن هناك فرقًا كبيراً فى السن بينها وبين زوجها... اقترب رجال رسميون آخرون؛ أبتعد كى أنضم لزوجات الوزراء. المسكينات، إنهن يعشن حالة معلقة.

"يبدو أن حجازى وزوجته ليسا هنا... إنهما غالبًا لم يرغبا فى المجىء... هذا طبيعى: لا بد أنهما متضايقان جدا. وزوجته، المسكينة! يا الله! لو أننى مكانها لأصبت بالمرض... أشعر أن أعصابى مشدودة للنهاية!" أستمع إليهن، وأحاول أن أهدئ من روع الزوجة العصبية، وأقول لها إنه ما زال هناك أمل فى الغد خلال الصباح. ذلك أن الوزارة لا تتشكل فى بضع ساعات... زوجة وزير البترول تبدو لى فى حالة فريدة من الاستثارة؛ زوجها موجود عند ممدوح سالم.

"إننى مجنونة من القلق. أريد أن أعرف بأى طريقة...".

"ولكن ما دام زوجك قد تم استدعاؤه فلماذا أنت قلقة لهذه الدرجة؟" هذه المرة كنت أتسلى كثيراً؛ إسماعيل وأنا كنا الوحيدين اللذين "يعرفان"! كثيرون هم الناس الذين يتمسكون بالسلطة!

ننتقل لقاعة الطعام. كنا ننتهى من كوكتيل الجمبرى عندما ظهر وزير البترول.

جلس مبرنشقًا، اعتذر عن التأخير، وبحث عن زوجته بنظراته وأشار لها برأسه.

"الحمد لله" قالت زوجته مع تنهيدة رضا. والتقت عيناى بعينَىْ السفير الأمريكى: "يبدو أن السيدة "هـ" قد اطمأنت الآن، أليس كذلك؟".

وعلى هذا فإن وزيرى الخارجية والبترول يحتفظان بمنصبهما. وحتى الآن هما الوحيدان اللذان استقبلهما رئيس الوزارة الجديد. والآخرون؟... قد نعرف الأخبار من الأهرام غداً.

لم يعلمنا الأهرام بأى جديد. ممدوح يواصل مشاوراته. طلبنى إسماعيل من المعهد فى الظهر: "قد أتأخر. لا تنتظرينى على الغداء، وخاصة لا تقلقى..." ما هذا الزفت! ممدوح سالم استدعاه، أنا متأكدة. أنا أعرف أن إسماعيل سوف يرفض، ولكننى لم أستطع أن أمنع نفسى من القلق. كيف سيمر اللقاء؟ وبداية هل استدعاه ممدوح سالم من أجل التشكيل الوزارى؟ مثل كل مجالس الوزارة التى شكلت سابقًا، الذى سوف يعين هو فقط من استدعاه رئيس الوزارة. والآخرون سوف يعرفون أنهم استبعدوا، عندما يقرؤون قائمة المختارين المحظوظين فى صحافة الغد! فى هذه المرة لن أقرأ اسم إسماعيل. فى هذه المرة لن أتلقى التهانى. سوف يكون من حقى اتصالات تليفونية تأسى على غياب إسماعيل. وكذلك زيارات تعزية! إننى لا أرغب فى ذلك. سوف أقترح على إسماعيل ترك القاهرة لبضعة أيام... يمكننى أخيراً أن أقلب الصفحة على مرحلة انتهت من حياتنا. بغصة فى قلبى أفكر فى الأشخاص النادرين الذين

سيعتقدون أن إسماعيل ترك منصبه بكامل إرادته حقيقة. إنجى، طبعا، التى قلت لها توا والتى تؤيد. وفؤاد وسيف وبعض الرفاق.

لا يهمنا الآخرين؛ يجب أن أكون فوق كل هذه التفاهات...

ها قد بلغت الثانية والنصف! علِيٌّ خرج عدة مرات إلى البلكونة. وشكله غريب! لقد نبهته فى الصباح، ولكنه يتمنى أن يغير إسماعيل رأيه. فهو فخور بالعمل لدى وزير. وقد ظل يعترض:

"ولكن البيه كان يخدم جيداً بلده... كان يؤدى جيداً مهمته.

ياه يا مدام" أضاف وهو يتنهد: "لو أن كل وزرائنا مثل إسماعيل بيه، لكانت أفضل بكثير...".

الصوت المألوف للمفتاح فى القفل وانفتح الباب على إسماعيل مشرقًا:

"تم بحمد الله! قمت بطقوس الوداع". ونظر إلى على الذى يقف باحترام فى إطار باب المطبخ، وأضاف باللغة العربية:

"لا تحزن، يا على. أنا الذى رفضت. اكتفيت، أربع سنوات، هذا يكفى... أتمنى أن يكون الغداء جاهزاً. أموت من الجوع. اهتم بالسواق يا على... إنه يبكى، المسكين... هل يوجد نبيذ؟ أرغب فى كأس صغيرة للاحتفال بهذا الحدث...".

"يا للى يا إسماعيل... احك، كيف سارت الأمور؟ ولماذا كانت الجلسة طويلة هكذا؟".

ممدوح سالم الذى كان وزيرا للداخلية حتى هذا اليوم، كانت علاقته ودية مع إسماعيل كأعضاء فى الوزارة نفسها... وإن لم يكونا من الاتجاه نفسه فإنهما يقدر أحدهما الآخر.

وطنى وذكى ونزيه، لم يسئ ممدوح سالم استعمال السلطة فى القبض غير القانونى على الأشخاص. ولم يكن هناك مجال للمعارضة اليسارية أن تشكو من اختلاسات أثناء ولايته.

لقد فوجئ وأحبط من رفض إسماعيل. وتناقش معه طويلاً محاولاً أن يجعله يتراجع عن قراره. ثم طلب منه ممدوح أن يرشح له أحد زملائه الشيوعيين يكون أهلاً لأن يحل محله. اقترح إسماعيل عليه بعض الأسماء. وممدوح سالم كان متأثرًا جدا وهو يصافح إسماعيل.

(٥)

الفرح والغضب

-١-

هذه هى المرة الأولى منذ وقت طويل التى أصحب فيها إسماعيل للشراء فى المدينة؛ حررنى من البحث المتعب عن الأقمشة الخاصة بملابسه. لم أعد أحب أن أقوم بعمليات التسوق. أكون أولاً رهينة لأمزجة سائقى التكسيات، ثم إن واجهات المحال تتنافس فى القبح وتعرض بضائع هامشية، الاختيار فيما بينها محدود.

يضطرنى المشى فى شارع قصر النيل أو سليمان باشا إلى الانتباه الشديد لموضع أقدامى وأنا أتسلل من بين المشاة الكثيرين الذين يجرون أقدامهم ببطء.

إنه لشىء جميل أن يشعر الإنسان أنه حر! كنا نبتسم مثل أطفال قفزوا من على سور المدرسة. السيارة تنطلق على كوبرى الجلاء وتتمهل بسبب عدد المركبات الكبير؛ الساعة الخامسة والنصف فقط.

"ما هذا الحشد؟!" قال إسماعيل. وعلى كوبرى قصر النيل الأمر أسوأ وميدان التحرير[١٢] يستقبلنا بضوضاء تصم الآذان. تمهل إسماعيل فى شارع قصر النيل أيضا.

---

(١٢) سابقًا ميدان الإسماعيلية أما الآن فهو ميدان التحرير.

"ما إن تلمح مكان فضاء، صف السيارة..." تجبر الطوابير الطويلة من السيارات الراكنة على ناحيتى الرصيف زوجى على الاستمرار فى البحث. بعد ذلك بربع ساعة، وجدنا بمعجزة مكانًا أُخْلى توا. وعدنا على الأقدام حتى محل عدس؛ لديهم دائما مختارات من الأقطان الجميلة الخاصة بالقمصان الرجالى يسارع البائع الذى يعرفنى إلى خدمتى، ويخرج أجمل القطع التى عنده، وهى قطع العام الماضى نفسها.

"ومع ذلك فهذه هى المجموعة الجديدة. إنها الأقمشة الخاصة بالتصدير..." ومحبطًا اختار إسماعيل مع ذلك قماش قميصين ويقترح أن نذهب إلى محل هانو.

نجد صعوبة فى المشى جنبا إلى جنب، والمشاة كثيرون.

ننظر دائما نحو الأرض حتى نتفادى البلاطات غير المنتظمة. يقدم هانو نفس مجموعة عدس.

"يبدو أن إنتاج القطاع العام انخفض، يكفى بالنسبة للقمصان. لنأخذ السيارة للذهاب إلى نور سالم...".

"إلا كده. سوف نجازف بعدم وجود مكان للركن... أنا لست متعبة، سوف تكون نزهة بالنسبة لى!...".

"تتحدثين عن نزهة مع كل هذا الحشد! نور سالم محل قماش فى آخر شارع قصر النيل. وهو مزود بأفضل الأقمشة الرجالى. رائحة النفتالين الأليفة تنتشر فى القاعة المتسعة. أسرع أحد البائعين الذى عرف إسماعيل وقال مبتسمًا: "أهلا بكم اتفضلوا من هنا، سوف أريكم الروائع التى وصلتنى توا..." وبحركة سريعة فرد البائع بيده القماش الصوف الواحد تلو الآخر، وطلب من إسماعيل أن يتحسسه:

"إلمسه... حرير! وعاين الليونة..." وافقه إسماعيل هذه المرة وقال له راضياً:

"نعم، إنه فى غاية الجمال. انظرى يا بولى "ستيا" و"ولتيكس" يصنعون أقمشة لا ينقصها شىء بالنسبة لأقمشة أوروبا..." ألمس وأتحسس وأعجب. إسماعيل يختار ويدفع ونرحل. اللفافة ثقيلة ولا بد أن نعود إلى السيارة. المسافة ليست بعيدة، ولكن العقبات التى يجب اجتيازها منهكة. (استعنا على الشقا بالله).

"أرأيت؟ العمال المصريون حينما تكون هناك إدارة جيدة فإنهم يقومون بعمل جيد..." أمشى أمامه، أحاول أن أتجاوز أسرة تمشى ببطء شديد.

ميدان التحرير الفسيح تغزوه المركبات من كل نوع. عمال معمار ينهمكون حول موقعين للبناء. المكن وآلات التنبيه تتنافس فى إصدار الضوضاء. ومن أجل معالجة مشكلة المرور أنشأت السلطات "كوبرى" للمشاة.

"فكرة عبثية سوف تجعل الميدان قبيحًا. هل تعتقد أن الكوبرى هو الحل؟". هز إسماعيل كتفيه، وتنهد:

"إننى أتساءل. كيف سيتمكن الناس من القفز إلى هذا الارتفاع؟

هل سيتمكن رجال المرور من إقناعهم بالصعود إلى هذا الكوبرى، بدلاً من عبور الشارع من بين السيارات والمجازفة بحياتهم؟"(١٢).

-٢-

كنا نستمتع بحريتنا. استعدت كتبى، آلتى الكاتبة. كان إسماعيل يقضى أيامه صباحًا فى المعهد، ويكون حر التصرف فى فترة بعد الظهر والسهرة. كان يقرأ كثيرًا، ويقوم بأبحاث، ويكتب مقالات للأهرام وطبعًا مقالته الأسبوعية "الكلمات والمعانى"

---

(١٢) ثبت أن هذا الكوبرى عبارة عن فشل ذريع، وتم هدمه بعد بضع سنوات.

لجريدة الأهالى الأسبوعية التى يصدرها "حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى" وهو حزب اليسار الجديد. وسكرتيره العام ليس سوى خالد محيى الدين، أحد القادة الاثنى عشر لحركة الضباط الأحرار. وسوف يثبت خالد أنه على قدر المسئولية الثقيلة المنوط بها. هذا "التجمع" نشأ وقدم نفسه بوصفه حزبًا لكل أشكال اليسار يدعو للتوحد حول برنامج سياسى على الرغم من التعدد الأيديولوجى.

لقد أعلن السادات خلال إحدى خطبه العديدة تحويل المنابر[١٤] اليمين والوسط واليسار، إلى أحزاب سياسية مستلزمًا بذلك حل الاتحاد الاشتراكى. وأعضاء هذه المنابر ما إن ينتخبوا حتى يمكنهم تمثيل منبرهم فى مجلس الشعب الجديد.

والمصريون الذين خاب أملهم فى مرحلة ما بعد الحرب استقبلوا هذه المبادرة بحماس، كان الأمل يبدو لهم من بين السحب، ولكن الطبقة المثقفة ظلت فى حالة من الشك. وأنا حائرة أحاول أن أفهم. الرجل الذى يتحدث إلينا الآن مختلف تماما عن ذلك الذى عرفناه صبيحة موت ناصر.

ظهرت تغيرات طفيفة فى سلوكه وفى لغته. باسم "انتصار ٦ أكتوبر المقدس"، يدير زميل ناصر القديم ظهره بإصرار لكل منجزات ثورة يوليو.

وينطق بندرة متزايدة ومن أطراف الشفاه اسم الرجل الذى ندين له بمركزه هذا.

احتفالات أعياد الثورة تقام بدرجة أقل أبهة من احتفالات ٦ أكتوبر. أما أعياد عبد الناصر، فإن السادات يتيب عنه فيها أحد الوزراء الذى يذهب إلى جامع عبد الناصر، حيث يجتمع أفراد أسرته وأعضاء مجلس قيادة الثورة القديم، وكذلك الذين لم ينسوه. وأثناء ظهوره فى التليفزيون الذى تتزايد مراته مرتديًا كل مرة ملابس ملائمة

---

(١٤) تكونت سابقًا من داخل الاتحاد الاشتراكى.

للمناسبة فى خطب طويلة بقدر ما هى غامضة، يبلغ "شعبه" بقراراته "الاشتراكية"! وعمومًا فإن من النادر أن تخدع هذه الكلمة المصريين. فهو يستخدم هذه الكلمة بتساهل لمساندة سياسته اليمينية الواضحة.

-٣-

أفرد الورقة المطوية المغطاة بكتابة رشيقة ذات حروف دقيقة التى احتفظت بها زوزو منذ إقامتها عند الراهبات: "عزيزتى بولى"

سوف أصبح أخيرًا حرة فى وقتى. أخيرًا سوف يمكننى أن أرسم على راحتى دون أن يعطلنى الأولاد. هم سعداء جدا بالسفر وحدهم إلى واشنطون، وأنا سعيدة أنه يمكننى أن أرسم. سوف نصل بعد الظهر عند طنط صالحة لكى نستريح. أتمنى أن تتمكنى من المجىء قليلاً أنتِ وإسماعيل حتى نتمكن من رؤيتكما، ما دمتما سوف تسافران خلال عشرة أيام إلى أوروبا. قولى لطنط صالحة إننا لن نبيت لديها. جلال يريد أن يسافر من المطار إلى الإسكندرية. لديه عمل فى اليوم التالى صباحًا!... كيف قمت بتمزيق هذه الكلمة؟ لماذا؟ لم أكن أشك أنها آخر مرة تكتب لى فيها!

وبعد الغد، ذهبت عند ماما لكى أنتظرهم. كانت إنجى جالسة فى فوتيه، وتضع قدميها على بوف، تشرب الشاى وهى تطالع فى الجرنال. "أتريدين الشاى؟ فى فنجان، طبعًا" تضحك: "أجلس..." كوب شاى داكن جدا على المنضدة تتصاعد منه الأبخرة. اعتادت إنجى على شرب الشاى فى كوب زجاجى منذ فترة السجن. نثرثر فى هدوء ملقين نظرة إلى ساعاتنا من حين لآخر.

غريبة! فى أى ساعة تركوا الإسكندرية؟ رن جرس الباب. ها هم! ننحنى على الدرابزين. إنه إسماعيل.

"ماذا؟ ألم يجيئوا بعد؟ الوقت اقترب من السابعة. ألم يؤكد جلال أنه سيكون عندكم ما بين الساعة الرابعة والخامسة..." انتابنا القلق، على ألا يكون قد أصابهم حادث!

حادثة مأساوية! على الطريق الصحراوى، انفجر إطار، وانقلبت السيارة قاذفة أختى وزوجها وابنتها على الأسفلت؛ لقد توفوا فى الحال، ثلاثتهم! كان حسن هو الوحيد الذى نجا!

القطار، ماما وإنجى وأنا نرتدى السواد. إسماعيل يزم شفتيه ويختبئ وراء وجه بلا انفعال منذ استيقظنا.

أختنا الصغيرة! تلوح فى خلفية الحقول التى تتابع. إننى أستمع إلى صوتها، صيحات إعجابها، مداعباتها الراقية، اللاذعة... كانت سعيدة لأنها سوف تتمكن أخيراً من الرسم بحرية... هل تعلمين يا أختى الصغيرة أن اللوحة التى منحتنى إياها بتلقائية أعجبتنى، معلقة إلى جوار لوحات أفضل رسامينا؟ هل أبلغتك بالنجاح الذى حصلتْ عليه؟.

فيلا حسين صبحى، محافظ الإسكندرية السابق، الزوج الثانى لطنط رقية. الصالون مزدحم. تسارع طنط رقية نحونا بخطوتها التى تقفز قليلاً، وكأنها لم تبكِ! وكأنها تستقبل ضيوفاً. بحركة من يدها قالت "حسن فى الحجرة الصغيرة، هناك...". وقبل أن تستدير، أضافت: "بولى، اذهبى أنت وأختك سلما على أنكل حسين... قبلاه..".

إننى أحتضن تمثالاً من الرخام بين ذراعى؛ جلس حسن من جديد، صامتًا، بعيداً، بعيداً فى اللوعة التى لم يستشعرها بعد، بعيداً عن التراجيديا التى شارك فيها بوصفه متفرجًا!

زوج طنط رقية منهار فى كرسى فوتيه؛ عيونه حمراء تماماً. يعتذر أنه لا يستطيع الوقوف بصوت خفيض ومكتوم. أنحنى نحوه كى أسمع "بولى"، يصافحنى بشدة. "حسن الآن، هو ابنك... أنت وإسماعيل ليس لديكما أولاد... هو ابنكما الآن أنتما مسئولان عنه...".

وسلم إسماعيل بدوره على هذا الرجل الطويل جدا والكثيف، الذى دهسته اللوعة. احتفظ بيد إسماعيل فى يده وهو يتحدث إليه. انحنى زوجى قليلاً نحوه ثم جلس بجانبه.

"سعاد فى لندن، تقوم ببعض الأبحاث من أجل الماجستير..." سعاد هى الابنة الوحيدة لطنط رقية وحسين صبحى؛ الأخت غير الشقيقة لزوزو... أتناول فنجان القهوة الذى يقدمه لى السفرجى. أبتلع رشفة من القهوة. كانت أختى تطلب قهوتها وتتركها تبرد..." تحدثت الآن فى الماضى!

الساعة الثانية عشرة وأربعون دقيقة. تتحرك الجنازة. يحمل الشباب باقات ورد ضخمة ؛ يسند حسن أقرباؤه. قال لنا فيما بعد إنه ترك نفسه لهم ؛ ولكنه لم يكن يعرف لماذا يسندونه.

"لم أكن فى حاجة إلى ذلك، كان يمكننى بلا شك أن أتقدم وحدى؛ لم أتبين ماذا يحدث...".

ثلاثة نعوش ملفوفة بقماش الكشمير المنقوش بالورد! فوق أكبرهم طربوش، وهو أكبر كثيراً من نعش أختنا، الذى يحمل علامة عمامة من القماش الموسلين الأبيض وأكبر أيضًا من الذى ترقد فيه أصغر واحدة من الثلاثة المتسمين باسم "إنجى" فى عائلتنا. يرتفع صوت أختى مكتومًا ومليئًا بالغضب: "متى سوف نتخلص من هذه العادة العبثية التى تستبعد النساء من التحية الواجبة الأخيرة التى يمكن أن يقدمنها لمن يحببن... هذه تفرقة أخرى أيضاً.

"من أجلك أنت، يا إنجى بعد بضع سنوات سوف تتحطم هذه العادة "العبثية"! جماهير ضخمة سوف تتزاحم تحت خيمة جامع عمر مكرم. الشخصيات المعروفة وعدد كبير من النساء! جالسة بجوارهن، ونظرتى مغشية بالدموع، سوف أحاول من قلب لوعتى أن أتعرف على بعضهن من بين المئات. صديقاتها رفيقات السجن وكثير من المجهولات اللاتى لا يعرفنها برؤيتهن المباشرة لها ولكن لشهرتها. كلهن موجودات لتقديم التحية للرسامة طبعًا، ولكن أيضًا للمناضلة التى لم تتوقف قط عن الكفاح من أجل الحرية والقضية الفلسطينية وحقوق المرأة.

صوت إنجى المكتوم:

"كانت موهوبة جدا. ما هذا الخراب! ما هذه الحياة الزفت!".

شاركنا متأثرين مع كثيرين فى نهاية هذه المأساة وبيننا حسن وحده، وحده بفظاعة!

صممنا أن نرى حسن قبل سفرنا إلى فرنسا. استقبلنا فى الأنتريه الصغير للشقة التى نعرفها جيداً. وترك نفسه كى نقبله، وقدم لنا القهوة. تكلم قليلاً جدا، ولكنه سأل إسماعيل بعض الأسئلة عن الوضع السياسى. وكان يستمع باهتمام. سوف نتعلم على مهل أن نتعرف عليه وأن نحبه. أما بالنسبة للحظة الراهنة فإننى أعرف من خلال أمه أنه كريم وطيب ومعبر. إنه جميل، له عيون سوداء وشعر أسود كثيف ووجه مستدير ذو خدود بارزة وشفاه مرسومة جيداً. وابتسامة أمه وأبوه التى كم تؤثر فىّ!

كان أثر "ميجاف" ولندن طيبًا جدا علينا. هواء الجبل الجاف النقى، وجمال المرتفعات المغطاة بالثلج وغابات الأرز، أبعدنا عن المأساة التى عشناها. ولكن أيضًا الوجود المساند لريمون، وصداقته الدائمة أبداً... كان عزاء كبيراً لنا. وقد قدمت لنا لندن التى نحبها كثيراً، حدائقها ومسارحها وحفلاتها الموسيقية ومتاحفها بالطبع.

-٤-

واستقبلتنا فى نهاية الخريف مصر مليئة بالفوران؛ الانتخابات تقترب. اندفع أعضاء "حزب التجمع" شاعرين بالقوة من حزبهم الذى فرض نفسه وجريدتهم الأسبوعية "الأهالى" اندفعوا فى الحملة الانتخابية بأمل الحصول على بعض المقاعد فى مجلس الشعب الجديد.

عدد كبير من أصدقائنا انضم للحزب. وكثيرا ما كنا نتناقش فى الأحوال الجديدة حينما نتقابل على عشاء عند أحدهم أو الآخر. بعض الأصدقاء الميَّالين لليسار وهم مثقفون ووطنيون يحتفظون بمسافة نحو الحزب، وينتظرون حتى يروا. إنهم لا ينسون تنغيص الماضى القريب ومطارداته. وهم متشككون فى نتائج الانتخابات، يتحدثون عنها مقدمين نوع النقد الذى كثيراً ما يقوم به من لا يشارك فى المعركة.

"لو كان لدى بطاقة انتخابية، لكنت ذهبت للانتخاب..." رددت على استحياء إننى سوف أقدم بطاقتى الشخصية.

"هل أنت مجنونة، يا بولى! هل سوف تنتخبين؟... إن قلبك رائق.

"هل تعتقدين، أنت، فى هذه الانتخابات؟ لابد أن تكون مزورة بالتأكيد!...".

"هذا ليس مؤكداً"، تقول إنجى، وهى تطفئ سيجارتها "أعتقد أن واجبنا هو أن ننتخب. كلنا. لا يجب أن نعطى اليمين أقل فرصة. المرشحون من اليسار لا بد أن يحصلوا على أكبر عدد من الأصوات".

"أنت تتوهمين يا إنجى. الانتخابات سوف تزور..." والشكاكون يضيفون: "هذه مضيعة للوقت. نحن نراهن أنه لا أحد من اليسار سوف يكسب... لعبة أخرى تضاف إلى باقى الألعاب. لا أعتقد فى انتخابات حقيقية...".

ولأننى غاضبة من هذه التعليقات الانهزامية، أوقفهم: "من يسمعكم، يعتقد أنكم تريدون أن يكتف اليسار يديه بينما يعمل الآخرون؟".

"لم نقل هذا. على العكس. أنت لا تريدين أن تفهمى...".

"لا، إننى لا أفهم. وعلى أى الأحوال فإننى سوف أنتخب مع إنجى. كلما كان لدينا أصوات، كلما كان لدينا فرص. ثم لا يجب أن نبالغ لأنهم لا يستطيعون أن يزوروا كل بطاقات الانتخاب..." إننى مصابة بخيبة أمل من موقفهم. ومع ذلك هم أول من يشكو وينتقد. إنهم يحترمون إسماعيل وإنجى ورفقاءهم. يصفقون حتى لبعض قرارات الحزب ولبعض المقالات المنشورة فى الأهالى التى يقرؤونها بانتظام. وهذا هو كل شىء. هذا يكفيهم ويعطيهم الحق فى الحكم على الأوضاع. إنجى تأتى من وقت لآخر لكى نتحدث بحرية، فمن الصعب أن نتحدث فى السياسة أمام والدتنا. أصبحت عجوزاً، لا تسمع جيداً وتقاطع باستمرار فى اللحظات الأكثر أهمية.

لقد انضمت أختى إلى الحزب، ولكنها رفضت المسئوليات التى كانت تتولاها قبل القبض عليها؛ تريد أن تتفرغ تماماً للرسم:

"ثم إننى زهقت من النساء، إننى أترك مكانى للشباب. إننى أقدر أننى فعلت الكثير من أجلهن. النساء شىء معقد. مشكلاتهن وحقوقهن تتطلب كثيراً من الوقت والتضحيات حتى نخلصهن من مركبات النقص التى لديهن والمحرمات التى تخنقهن. الأمية مثلاً التى يجب أن نحاربها، خاصة بين الفلاحات، واليوم لدينا مشكلة خطيرة يجب حلها وهى تنظيم الأسرة... وعلى كل الأحوال، سوف أكون دائماً موجودة للمساعدة ولإعطاء صوتى إذا لزم الأمر ودفع تصيبى طبعاً. وسوف أشارك فى

الاجتماعات إبان الأحداث الخطيرة. سوف أسافر بعد الغد إلى "المنشية". ليس فقط كى أرسم، ولكن أيضًا لكى أقابل أكبر عدد ممكن من السيدات. فلاحات أغلبهن أميات بالطبع. ولكننى سوف أحاول إقناعهن بالتوجه إلى صناديق الانتخاب وإعطاء أصواتهن لخالد... سوف يحمى الوطيس فى كفر شكر[١٥]!... هل تعتقد يا إسماعيل أن قريبه سوف يكون لديه فرصة للفوز؟ إنه لشىء مذهل أن يتقدم فى الوقت نفسه مع خالد...".

تتمتع عائلة محيى الدين كثيرة العدد باحترام كبير فى هذه المنطقة وهم ملاك عقارات أثرياء، يحظى أغلبهم بسمعة ناصعة لدى الفلاحين. ولم يحدث أى خلاف قانونى حتى يومنا هذا اضطرهم لمواجهة بعضهم البعض، كأخوة أو أقرباء. إن إعلان قريب خالد التقدم للانتخابات بوصفه ممثلاً لحزب الوسط، أشاع الفوضى فى المنطقة. يملك خالد بالطبع أوراق اللعب القوية. ماضيه الثورى وسمعته بوصفه مسلمًا ملتزمًا وكرمه وضيافته الأسطورية ونزاهة سمعته تجعل منه شخصًا تصعب منافسته. يشعر أعضاء التجمع بالقلق. هم يعرفون أنه من بين كل مرشحيهم فإن سكرتيرهم العام هو من له الفرصة الأكبر للحصول على مقعد فى البرلمان. وإذا كانت الانتخابات مزورة لصالح مرشحى الوسط، فإن انتخابات كفر شكر يمكن تجنبها. تقدم قريب محيى الدين غير المنتظر للترشيح يأتى لخلط الأوراق.

تدور الحملة الانتخابية فى جو معقد.

مضى وقت طويل على انقضاء نشوة انتصار أكتوبر. أصبح المصريون محبطين وممرورين وهم الذين اعتبروا قبولهم أصناف الحرمان التى فرضت عليهم شرفًا لهم وجدوا أنفسهم أمام المشاكل نفسها التى كانت أثناء الحرب. كما أن عودة كثير من الجنود إلى عائلتهم أتت بفرحة اللقاء دون أن تحل مشكلتهم، وإنما على العكس فإن الجنود العائدين يمثلون أفواهًا إضافية يجب إطعامها، وكثير منهم عاطلون.

---

(١٥) مدينة صغيرة من التقسيم الذى يقود خالد محيى الدين حملته لكى يمثله فى البرلمان. أراضينا فى المنشية تمثل جزءًا من هذا التقسيم.

تكلفة المعيشة التى لا تنى ترتفع، والمشكلات اليومية، تلهب ظهور أغلب المصريين. إنهم لا يفهمون ضرورة بطاقات التموين الجديدة التى تحدد لهم كميات غير كافية من الشاى والسكر والدقيق والأرز وحتى الصابون. السوق السوداء تزدهر وعدم الرضا يتسع وكثيرون هم الذين سوف يظلون فى بيوتهم يوم الانتخابات. ليس لديهم أية ثقة فى الوعود التى يسيل لها اللعاب لمرشحى أحيائهم. وبرغم الشك يحاول البعض الآخر أن يقنع نفسه بصدق المرشحين والأمل فى القلب سوف يعطونهم أصواتهم. أمضيت وقتًا طويلاً أقنع السفرجى بإعطاء صوته لمرشح الحزب فى منطقته. نحن نأكل اللحوم كل يوم، ولكن من يستطيع أن يفعل ذلك من بين الفقراء؟ فى الأعياد قد توجد من الممكن دجاجة كبيرة بالهرمون تشترى من الجمعية. إسماعيل يشارك إيجابيا فى هذه الحملة. يذهب كثيراً إلى الأحياء الشعبية. ويخطب فى التجمعات الانتخابية. الحاضرون، كلهم تقريبًا من العمال، يستمعون إليه باهتمام. أعرف قدراته بوصفه خطيبًا. ألم يكن أستاذًا متميزًا معروفًا بشروحه الواضحة؟ عرفت من خلال بعض الأصدقاء أنه دائمًا ما ينال الاستحسان والتصفيق. عادت إنجى وحكت لنا عن اجتماعاتها الطويلة واللطيفة مع الفلاحات المعتادات على تقديم كوب شاى لها والاعتماد عليها. وقالت لنا إنها أقنعتهن أن يذهبن إلى صندوق الانتخاب وفى حالة ما إذا لم يتمكن سوف يعرفن كيف يقنعن أزواجهن وأخواتهن بإعطاء أصواتهم لخالد.

أعطيت صوتى مع أختى لأحد مرشحى اليسار. لم يكن هناك كثير من الناس.

أثناء فرز الأصوات لم ينم أحد. وفى منزلنا لم يتوقف جرس التليفون. من القاهرة أو من كفر شكر يتصل الرفاق بإسماعيل لإخباره بما حدث. ويبلغونه بعدد الأصوات التى حصل عليها خالد.

أفكر فى سميرة زوجته. كم سوف تكون قلقة فى هذا الانتظار. وأخيراً فى نحو الساعة الخامسة صباحًا. رن الجرس. لم أكن فى حاجة للتنصت، سيف يصرخ بقوة من الفرحة:

"كسبنا! خالد نجح! مبروك! يمكنكم أن تناموا مطمئنين!"

كنا نبتسم. مثل كل أهل اليسار الذين عرفوا الخبر. الأهرام الذى وصل إلينا متأخراً هذا الصباح ينشر قائمة أعضاء البرلمان الجدد. حصلنا على ثلاثة مقاعد فى البرلمان! انتصار أسعد كل اليسار.

-٥-

نسافر. يسمح إسماعيل لنفسه أخيراً بالمشاركة فى بعض السيمينارات، وبعض المؤتمرات التى تهمه موضوعاتها؛ وأرافقه حينما تروقنى الرحلة.

نيويورك بفتحات المترو التى تنفس دخاناً له رائحة كريهة. ميجالوبول التى تبدو بالنسبة لى عارية وباردة بشكل غريب، بناطحات السحاب وجمهورها المشغول المتنافر. متحف الفن الحديث حيث تأملنا طويلاً "الجرنيكا"! ومكسيكو" التى تقدم لى كنوز متحفها الأنتروبولوجى، ولوحة الفرسكة المهمة "تاريخ العالم" التى رسمها سيكروس الرسام المكسيكى الكبير الذى عرفتنى به إنجى فى القاهرة.

هولندا وبحر الشمال. لكن هولندا هى أيضاً وأساساً فإن جوخ، ورومبراندت، وفان دايك، والتصوير الفلامنكى. ومارك نيرفن، صديق جديد يعجبنى كثيراً. طويل ونحيف ووسيم وذكى وملىء بالفكاهة، لا يفلت شيئاً من نظرة عيونه الرمادية الملاحظة والثاقبة.

مارك هو رئيس (المؤسسة الدولية لتنمية أخرى)[١٦] الذى يقوم بمسئولياته بهمة لافتة للنظر. فيما بعد فى "المنشية" سوف يمضى أسبوعاً، وسوف يعمل كثيراً

---

(١٦) F.I.P.A.D

"كجلفانى ملتزم" كما يسميه إسماعيل، وسوف يكون لدينا بذلك وقت لكى نتعرف على بعضنا أكثر وأن نتقارب.

السنغال! خاصة داكار حيث يقودنى سمير وإيزابيل فى كل مكان، حتى فى المركب على جزيرة جوريه ذات الذكرى الأليمة!

ثم كينيا، ونيروبى حيث تعلمت معنى كلمة السفارى. المسافات الطويلة التى كنت أقطعها فى السيارة الجيب فى طرق غير ممهدة فى الأدغال. المتعة والانبهار الذين نتقاسمهما أمام الحيوانات التى لم نرها قط سوى محبوسة أو فى الأفلام الوثائقية. الزرافات، السيدات ذوات الأعناق الطويلة، التى تنظر لنا بعدم اكتراس بعيونها المكحلة. قطعان الزبرا، والإمبالا وحيوانات أخرى كثيرة، تتمتع بطمأنينة حريتها.

ولكن عدنا دون أن نرى أسداً واحداً ولا حتى من بعيد!

وأخيراً، سيريلانكا! أول اقتراب لى من آسيا. لا تنْسَى! سبحت فى المحيط الهندى وشربت أكوابًا من لبن جوز الهند المثلج وخاصة "بيراهيرا" فى كاندى، وهو حج تتم طقوسه كل عام عندما يكتمل القمر، والذى يجب على السيريلانكيين (وهم بوذيون) القيام به ولو مرة واحدة فى حياتهم. يتحرك موكب من مئات الأفيال عند ظهور القمر. تقوم الأفيال المجللة والمزينة بالأشرطة والشرائط المقصبة، بالمشى حول البحيرة الصناعية لكاندى، تمشى بجلال وديع محاطة بالفيالين حاملين المشاعل. وسوف يكون من نصيب أجمل حيوان فيهم نيل شرف حمل الصندوق الكريستال الذى يحتوى السن المقدس لبوذا، تلك السن التى سوف تلف حول البحيرة قبل أن تعود إلى مكانها فى المعبد الكبير.

نعود إلى مصر رائقين وممتلئين بأنواع الجمال التى حفرت فى ذاكراتنا. وعلى أى الأحوال فإننا فى كل عودة تصدمنا التغيرات التى أصابت وجه عاصمتنا الجميلة؛ وكأنما حيوان شرير قرر أن يقضمها.

هذا التدهور الغريب يزداد تأثيره بالضوضاء النشاز التى تصدرها المركبات التى يقل احترامها كل يوم لقوانين المرور. قليلا ما يلتزم قائدو السيارات بالقانون الذى يمنع استخدام آلة التنبيه الذى أصدره محافظ مستنير. إن الظروف قد تضطر قائدى السيارات لاستخدام آلة التنبيه فى محاولتهم لتفادى المشاة المتهورين، الذين يعبرون الشارع من بين السيارات المتكاثرة. أما باقى وسائل المواصلات فهى احتمالية. ذلك أن الأتوبيسات ممتلئة دائمًا تكاد تنفجر، وسائقى التاكسى هم من يسن القانون ويحملون عددًا كبيرًا من الركاب فى وقت واحد، ويفرضون أسعارًا مرتفعة.

إن امتلاك سيارة خاصة لم يعد رفاهية، ولكنه ضرورة. وإذ كان عدد السيارات الخاصة يزداد فإن عدد المواليد يتضاعفت عشر مرات بشكل خطير. أطلق بعض المسؤولين حَسَنِى النية حملة لتنظيم النسل. تشرح الممثلة كريمة مختار بلا كلل وهى مبتسمة وبشوشة، منافع القرص "المجانى" أو الوسائل الحديثة لمنع الحمل لنساء تائهات ومنهكات من الحمل المتكرر. نساء البرجوازية الصغيرة والمتوسطة هن اللاتى سوف يتغلبن على تحفظهن نحو استخدام هذه الوسائل. إن أمر كسب العيش بالنسبة لهن من أجل تحسين ميزانياتهن يحفز النساء على استبعاد المحرمات المتعلقة بأقراص منع الحمل والوسائل الأخرى: الخوف من السمنة والآثار الثانوية مثل الإصابة بالسرطان والقدرية وإرادة الله.

وهناك أيضا الشباب الذى يظل مرتبطًا بالخطوبة لسنوات، باحثًا عن شقة بسعر مناسب.

ومع ذلك ففى كل مكان ترتفع العمارات ذات الخمسة عشر والعشرين طابقًا الفاخرة المؤجرة أو المشتراة شققها من قبل أعضاء الطبقة الميسورة، خاصة أعضاء الطبقة الجديدة... وبرغم القانون فإن أصحاب هذه العمارات يسارعون فى بيع الأماكن المخصصة للجراجات. والحاصلون على هذه المساحة يعدونها محلات أو بوتيكات تبيع

كل شيء، ملابس رجال ونساء، وأدوات تجميل وأجهزة منزلية. صناعة محلية، ولكن فى أغلب الأحيان صناعة تايوان أو هونج كونج أو اليابان.

وهى بضائع أُدخلت خفية إلى مصر عن طريق رجال أو سيدات "تجار شنطة" يقومون بحركة مكوكية بين القاهرة وأوروبا لحساب أصحاب بوتيكات ينتمون لزمرة خاصة. زمرة الأثرياء الجدد الذين يسميهم الشعب باحتقار "القطط السمان"؛ لأنه يشك فى أن هؤلاء القطط قد حصلوا على ثرواتهم بالتحايل أو عن طريق كسب غير مشروع. والأسماء التى سُمّيت بها هذه البوتيكات نادراً ما تكون أسماء عربية: فيرونيكيو، فور يو، ما جولى، جولى مدام، لا بوتيه؛ وتتضمن أحيانًا أخطاء إملائية فى اللغة الأجنبية المكتوبة بها! نمر أمام واجهات هذه البوتيكات التى لا تبيع سوى بضائع "من برة" مثل بوتيكات شارع الشواربى التى أسرعت تفتح أبوابها بعد رحيل فؤاد مرسى مباشرة. يقف الناس ويسرحون أمام قمصان النوم وبلوفرات ماركس أند سبنسر والفساتين والجيبات المصنوعة من القطن والفيسكوز "صناعة اليابان" والمضمون عدم تكسرها. يتأملون طويلاً الثلاجات الكهربائية والغسالات "الفول أتوماتيك" وبعد ذلك بقليل الفيديو. هذه الآلات أصبحت التطلعات الحتمية للبرجوازية الصغيرة. كيف لا يشعر المرء بالرغبة فيها وهو يراها كل يوم على شاشة التليفزيون ويستمع إلى فوائدها المعجزة!

تظهر أيضا الأسواق الممتازة أو "سوبر ماركت"، إنها تنبت فى كل مكان، وتجلب السعادة للناس الميسورين مثلى! أما بالنسبة للإنتاج المحلى المتعدد والمتنوع، فإنه يباع فى محلات القطاع العام الكبيرة التى يتعامل معها زبائن ظروفهم متواضعة.

وها هو التليفزيون الملون! لقد بدأ بثه يوم وصول الرئيس الفرنسى فاليرى جيسكار ديستان إلى القاهرة، الذى يتمتع باعتباره من بين من يقول عنهم رئيسنا أصدقائى الأعزاء. وأسرع المصريون لإضاءة التليفزيون؛ ولكن دون جدوى؛ لا توجد

ألوان! خيبة أمل كبيرة أصابت أولئك الذين شدوا الأحزمة واشتروا تليفزيونًا أبيض وأسود بالتقسيط.

"إنهم يسخرون منا" قال سائق التاكسى الذى كان يوصلنى إلى دكتور الأسنان. "لم أتمكن بعد من إتمام دفع ثمن تليفزيونى، لا يمكننى أن أشترى واحداً ملونًا" نحن فى ميدان التحرير فى انتظار إشارة المرور.

"يا الله! انظرى يا مدام، ماسورة أخرى انفجرت! السائق يبطئ ويلف بحذر حول الماء المندفع الأسود النتن الذى انبسق من منتصف الشارع وهمهم: زهقنا من الوعود! مع أن الحرب انتهت. لا شىء يتحسن، على العكس...".

الرجل المسكين! معه حق؛ لو يعلم كم أفهمه وكم أنا حزينة.

مثلما يحدث فى كل مكان فى القاهرة، تنفجر مواسير الصرف الصحى، وفى كل مكان تؤدى التصليحات للإضرار بالأرصفة التى لم تعد صالحة للاستخدام. ينزعون البلاط ويحفرون لتغيير كابلات التليفون، ويردمون كيفما اتفق إلى أن يعيدوا التكسير بعد أيام قليلة؛ لأن العمال خربوا الأسلاك الكهربائية! حلقة مفرغة! وعلى الشارع الممتد بمحاذاة النيل، ترتفع ببطء العمارات تحت الإنشاء. الأعمدة الحديد وأكوام الزلط والرمل تفيض عن الرصيف، مجبرين المشاة بذلك على المشىْ وسط الطريق بحذر شديد؛ ولابد من الانتباه للمركبات التى تسير فى كلا الاتجاهين. كما أن عدد السيارات الكبير المصفوف من ناحيتى الطريق يقلل من فراغ الشارع. أصبحت نزهاتنا على شاطئ النيل مجرد ذكريات. انتهى أيضا العشاء بين الأصدقاء فى البلكونة. النشاز الذى يصيب بالصمم الذى يأتى من الكوبرى يجبرنا على الاحتماء فى الصالون. لم يعد بإمكاننا رؤية الأهرامات؛ لقد حجبتها البناية ذات الطوابق الخمسة عشر التى قام ببنائها المالك القديم. على أغلب نوافذ هذه البناية تتشعلق ظهور أجهزة التكييف وكأنها علقات عملاقة. وكى يتفادى دفع غرامة كبيرة؛ لأن عمارته تجاور عن

قرب شديد بناية أخـــرى قديمة، فقد قام المالك بحل وسط. لقد بنى بين البنايتين مسجداً. لقد اعتدنا على قبح بناء ذلك المسجد، ولكننا لم نعتد على صوت الشيخ الذى يزأر بخطبة الجمعة فى الميكروفون! حتى وإن كانت أصوات الشيوخ جميلة فإن الميكروفونات الموجودة فى كل المساجد فى البلاد، تشوه تلك الأصوات.

وأخيراً الكبارى! قفز الواحد منهم تلو الآخر فوق النيل ومن الجيزة حتى المطار وفوق الزمالك، والمهندسين والدقى ومدينة نصر. الموئل الأخير لمشكلة المواصلات، هى هذه الكبارى المخصصة فقط للسيارات، تنفس اكتظاظها الشديد فى الشرايين الرئيسية للعاصمة. وبقدر ما هم مفيدون وعمليون فإنهم ساهموا فى جعل المدينة أكثر قبحاً. ويمكن أن يقال اليوم بالنسبة لى على الأقل، إن القاهرة تشبه ذبابة كبيرة وقعت فى شبكة عنكبوت. فيما بعد سوف يبدأ مشروع المترو.

-٦-

ألا يقال دائما إنه يجب أن نأخذ حذرنا من المياه النائمة؟ الأيام التاريخية للثامن عشر والتاسع عشر من يناير ١٩٧٧، التى عشتها مع المصريين، والتى اقتسمتُ معهم فيها الغضب والاستثارة والزهو، أيام لا يمكن أن تنسى.

أنا وحدى اليوم. إسماعيل، مدعو من أعضاء الحزب لإلقاء محاضرة فى الإسكندرية.

علىٌّ، خادمنا، أتى، ألقى علىَّ السلام وهز جريدة بطريقة غاضبة:

"هل قرأت الأهرام؟ هناك اضطربات؛ الحى الذى أسكن فيه فى حالة غليان" رفع علىٌّ صوته: هذا رسمىٌّ.

انظرى إلى الجرنال... أنبوبة البوتجاز سوف تباع بمائة قرش! ورغيف العيش بخمسة قروش! تخيلى يا مدام، رغيف عيش بخمسة قروش! وثمن الأرز ارتفع أيضا... ما هو المصير الذى نسير نحوه؟ ربنا يحفظنا!... أعتقد أن عليًّا يبالغ قليلاً. مرة أخرى سوف يستسلم الشعب ويدعو الله؛ مرة أخرى سوف يحنى رأسه... أندم على غياب إسماعيل؛ كنت أريد أن يعطينى رأيه. لقد سمعت مرات عديدة أن خالداً وبعض النواب كشفوا مشكلة ارتفاع الأسعار فى البرلمان. بدون جدوى. كان الرئيس يقاطعهم أو يرد بأنه ليس الوقت المناسب لمناقشة ذلك!!

أمسكت بالأهرام الذى لم أكن قد تصفحته بعد. لا أفهم شيئا من تعليقات المحررين الذين "يحاولون تفسير" أسباب الارتفاع. كيف يأكل علىٌّ وأسرته؟ ويقول "الرجل الشجاع": نحن أفضل من غيرنا.

يدفع له إسماعيل كل سنة المصاريف الدراسية لأولاده. وعندما أعرف أن أحد الأولاد مريض "بالصدفة" نقوم إسماعيل وأنا بإعطاء مبلغ صغير لأبيهم. ولما كان يسكن بعيدا جدا عنا فقد اشترينا له فِيسْبَا.

أيجب أن أصدق عليًّا، الذى يؤكد أن الناس ثائرة جدا؟ يجب أن ينظم الحزب مظاهرة للاحتجاج... ولكن عمره ما زال سنتين فقط، أيمكنه أن ينظم مظاهرة فى هدوء؟ وبينما يرد علىّ وصلنى صوت كالرعد. اندفعت إلى البلكونة. وشاهدت أخيرا انفجار غضب المصريين وأنا أرتجف والدموع تملأ عينى.

تغطى كوبرى الجامعة تماما جماهير كالموج ترتفع منها أصوات مهددة. عمال وطلبة ونساء يصرخون جميعا وقبضاتهم مرفوعة:

"يسقط السادات! تسقط الحكومة التى تجوعنا!"

فى هذه اللحظة يتتبعهم رجال الشرطة الذين يهددونهم بالبنادق... إنهم يتقدمون نحو مسجد صلاح الدين، يبدو أن لديهم نية للوصول إلى البرلمان. إنها خسارة كبيرة إن إسماعيل وإنجى لا يمكنهما أن يشاهدا هذا المشهد المؤثر. يا تُرَى ما هو موقف السكندريين؟ فجأة ظهر رجال الأمن المركزى(١٧) وجوههم محميه بالخوذات ويمسكون بيد درعًا وبالأخرى البندقية. ويطلقون فى الهواء بعض الصرخات.، ولكن الجماهير تواصل مسيرتها وهى تجأر. صوت طلقات أخرى. أبتعد. ليس لدى أى نية أن أتلقى رصاصة طائشة! دق جرس التليفون: إنه علىٌّ الذى لا يمكنه أن يعبر ميدان الجيزة.

لم أندهش عندما عرفت أن هذه المظاهرات الكبيرة قد تحولت إلى هَبَّة جماهيرية. لم يتوقع أحد هذا الانفجار التلقائى للغضب. مثل يوم ٢٦ يناير؟ على ذلك فإن هذا الشهر يبدو مرصودا للتعبير عن عدم الرضا الشعبى:

"ألو؟ بولى؟ قفز قلبى فى صدرى. كيف الحال؟ ماذا حدث؟ إننى فى أحسن حال. المهم ألا تقلقى. سوفِ أحضر صباح الغد فى قطار الظهر. قولى للسائق... إلى الغد!".

اليوم ١٩ يناير. أغلقت جامعة القاهرة أبوابها وكذلك جامعة عين شمس. نحو الظهر، لم يعد على كوبرى الجامعة سوى رجال الأمن المركزى وجنوده، ولوريات الشرطة تسير عليه فى الاتجاهين. ومخارج الكوبرى مغلقة. وبواسطة نظارتى المكبرة لمحت اللوريات والجنود أمام باب الجامعة. عرفت أن محلات ومركبات أحرقت وأنهم بدؤوا فى الاعتقالات. وبأن هناك جرحى. والصفارات تصفر كثيرا، آلات تنبيه سيارات البوليس

---

(١٧) شبيهة بـ C.R.S

والمطافئ والإسعاف وهى المركبات الوحيدة التى تتعدى الكوبرى. مستشفى قصر العينى قريب منى جدا.

طلبتنى إنجى عدة مرات. قالت لى "إنهم عمال حلوان الذين بدؤوا. مصانع الحديد والصلب وكيما[١٨] فى الإسكندرية؟ وإسماعيل الذى كان يجب أن يذهب أمس إلى حى شعبى"؟

يجب أن أخرج لشراء بعض المؤن، وجدت بطاطس وطماطم. وفى حالة ما إذا كان لم يتمكن على من الوصول إلينا مثل أمس. فى الخارج كل شىء هادئ. أَمُرُّ تحت الكوبرى، أتقدم ببطء نحو أكوام الرمل التى تغطى الرصيف أمام مدخل عمارة تحت الإنشاء.

محل ألفا[١٩] مفتوح. بعض الزبائن يملئون العربات اليدوية. إنهم يخزنون المؤن! هل يعتقدون أن الإضرابات سوف تستمر؟ أدفع عربتى التى ما زالت فارغة نحو الأرفف فى المؤخرة. فى العادة يعرضون أنواعًا مختلفة من الجبن واللحوم. يتعرف علىَّ البائع، يلقى السلام وبأسف ينبؤنى بأنه لم تأتِ بضاعة بعد. مخزون اللحم المجمد انتهى. وعدت بصندوق عيش توست وقطعة جبن رومى. ولا حتى لبن بودرة! وإذا حاولت الذهاب إلى بقالى القديم، أمشى سريعا، وألف حول بلوك العمارات وآخذ الشارع الصغير الموازى لسوبر ماركت. الجو بارد والهواء قائم. كثير من النساء يحملن أكياسًا مليئة ويخرجن من عند البقال. لمحت ليلى رشدى وأسرعت نحوها:

"كيف الحال؟ بولى؟ الطاهى لم يجئ؟ طباخى وصل خالى الوفاض! هذا الأبله خاف من أن يصادروا مشترياته! اشتريتُ معلبات... وتركنا بعضنا. حديث غزو فى

(١٨) مصنع أسمدة.

(١٩) سوبر ماركت.

المحل الصغير. وطابور أمام قسم اللحوم. يمكننى أن أرى من هنا شرائح جميلة من اللحم الأحمر الزاهى؛ أخذت ثلاثًا وكذلك ليمونًا وعلبة لبن بودرة.

وضعت المفتاح فى الثقب، ودخلت. المطبخ مُضَاء؛ جاء علىّ سمعنى وجاء يحيينى مبتسما:

"صباح الخير يا مدام! الحمد لله! ماذا اشتريتِ!.

الدكتور إسماعيل لم يعد بعد؟... ما هذا اللحم؟..."

فك اللفة المقززة التى تغطى الشرائح "لحم مجمد!" وضحك. "اعتقدتِ أننى لم آت؟... وصلت إلى ميدان الجيزة، رغم الجماهير التى تصرخ. أوقفنى الضباط عدة مرات. كانوا يطلبون الأوراق... كل الميدان وشوارع الجيزة كانت مليئة كالبحر! أتعلمين لماذا كانوا يصرخون؟ يسقط السادات! يسقط ممدوح سالم! تسقط الحكومة! نريد أن نأكل!... ".

كان علىٌ يبتسم بكل أسنانه ويزهو: "لقد انتصرنا! هل قرأتِ الجرنال؟ لم يستطيعوا أن يرفعوا الأسعار... هذا جنون! سوف تسامحيننى بالنسبة للغداء. لم أجد خضراوات فى طريقى. البائعون القليلون الفاتحون ليس لديهم شىء طازج..." طمأنته. إننى سعيدة أنه هنا. المهم أن يجد إسماعيل شيئا مناسبا يأكله.

"اعمل لى قهوة يا علىّ من فضلك، سأتصل بماما...".

"أين أنت؟" قالت ماما متكدرة." أنت مجنونة تماما لكى تخرجى فى هذا الوقت..." أطمئنها. أخذت أختى السماعة وأسمعها تضحك: "سلام! قولى لى كيف الحال عندكم؟ جاء علي؟ الحمد لله. إسماعيل سوف يأتى فى الظهر؟ هنا، كل شىء هادئ حكى لنا سائقنا أن هناك عددًا كبيرًا من الشباب الثائر يهاجم السيارات... كثير من السيارات المصفوفة بجوار رصيف مبانى التليفزيون والأهرام تم حرقها... يبدو أن المظاهرات عمت كل مدن البلاد. ولما كانت المظاهرات تلقائية فلم تكن هناك تعليمات

أمنية والعناصر المشبوهة قامت بالتخريب. أخيرا لدى إحساس بأن الأمور سوف تهدأ، درس جيد، هيه؟ "لم تتم أختى الجملة، ولم تنطق بالاسم... أخذنا عادة الحذر عند الحديث فى التليفون... يجب أن أهدأ الآن، وأنتظر إسماعيل، القطار يصل فى الثانية عشرة. ومن المحطة إلى منزلنا لا بد أن نعد ٢٠ دقيقة، ويمكن أقل ما دامت الشوارع فارغة. الساعة بلغت الواحدة. مرت ساعة تقريبا. نخرج إلى البلكونة بالدور علىّ وأنا. إذا كان إسماعيل لم يلحق القطار، فلا بد أن يكون قد طلبنى. من يقول لى إذا ما كانت الأمور هادئة فى الإسكندرية، وفى طنطا.

ماذا حدث يا ربى؟! التليفون! إنه إسماعيل. يكلمنى من عند ماما. لقد مشّى السائق ومشى هو على قدميه حتى الزمالك لكى يستريح. ها هو! يدق الجرس طويلا، على وأنا اندفعنا لكى نفتح له الباب. إنه مبتسم تماما:

"يا حبيبى لقد كنت قلقة...".

أخذنى بين ذراعيه، ثم استدار نحو على! "إزيك يا علىّ؟ والأسرة؟... أتمنى أن يكون هناك شىء يؤكل. أموت من الجوع... سوف أغسل يدى وأجلس على المائدة".

لم يكن هناك أحد فى انتظاره فى محطة الإسكندرية. كان يعرف أن الرفاق حجزوا له حجرة فى السويس كوتاج فى الرمل. وعانى حتى وجد تاكسى يقبل أن يغامر بالمرور فى الشوارع. المظاهرات كانت قد بدأت قبل وصوله بكثير. ولحق به فى الفندق رفاق يسكنون فى الرمل. وطبعا، الاجتماع الذى كان سوف يعقد فى الحى الشعبى تم إلغاؤه. والقطار الذى أعاد إسماعيل إلى القاهرة قام متأخرا نصف ساعة. وعلى مشارف القاهرة أبطأ كالمعتاد. وحين ذاك قامت عصابة أطفال بقذف القطار بالحجارة. وكسروا زجاج النوافذ. أما الركاب فقد جلسوا القرفصاء على الأرض.

"كان يحتل ميدان المحطة شباب بجنز ومتسولون يتلهون بقذف الطوب على السيارات. وحتى أنقذ السيارة الشيفروليه، مشيت على الأقدام متسللا بين المتظاهرين. أرهقت، قررت أن أمر على والدتى، حتى أستريح لحظة. والآن! هذا دورى. احكِ لى..." رفعت رأسى نحوه لكى أقبله ولاحظت قطع الزجاج فى شعره.

"ما هذا؟، إسما؟". لمت نفسى: "قطع زجاج! لست مجروحا على الأقل؟ إسماعيل يضحك: "إنه لا شىء. طوبة كسرت زجاج النافذة، ولكننى حميت وجهى بذراعى. لا عليك، سوف أمرر مشطًا فى شعرى. أتسمعين صوت الرصاص؟". نعم، إننى أسمعه. لقد استمعت إليه طوال اليوم.

فى المساء، بعد غروب الشمس، ظهرت أول المصفحات. الجيش نزل فى الشارع. ووجوده المهدد، أعاد الهدوء. استأنفت الحياة جريانها، مثلها مثل مياه النهر الجميل التى يغذيها تجرى بعظمة نحو البحر المتوسط.

-٧-

"هذا وقت الخيانة الكبرى" سوف أكتب بعد ذلك ببضعة أيام. الليلة، نستقبل أصدقاء على العشاء؛ الأجنبى الوحيد من بينهم هو مراسل جريدة الموند الفرنسية فى مصر، جون بيير بيرونسيل".

"هل أنت جاهزة؟ سألنى إسماعيل، مبتسما: "فستانك جميل، ولائق عليك تماما".

يسعدنى دائما مديح زوجى النادر. وعموما، عندما تكون فى أوروبا، لا أشترى شيئا، بدونه.

إسماعيل أشعل سيجارة، وألقيت نظرة حولى. "فلنستمع قليلا إلى الأخبار فى انتظار مجىء الضيوف، الساعة الثامنة والنصف ليس إلا، فلنحاول، إذاعة البى بى سى".

وها هو المذيع يعلن نبأ يخترقنا: "الرئيس السادات أعلن اليوم عصرا، فى مجلس الشعب نيته زيارة القدس..".

"هذا غير معقول، لقد أصبح مجنونًا تماما!!!"

نظر بعضنا إلى بعضٍ مندهشين، المذيع يواصل ويعلن أن وزير الخارجية المندهش إسماعيل فهمى استقال وأن الرئيس عين محمد رياض ليحل محله. ننصت مترقبين، ولكن أول المدعوين يدق الجرس. إنه بيرونسيل – هوجو الذى يدخل الصالون مبتسماً.

"إذن، لقد استمعتم؟ ماذا ترون فى هذا القرار؟.

"نرفع القبعة لتحية إسماعيل فهمى" رد إسماعيل. "كان متمسكًا جدا بمنصبه بوصفه وزيراً". وصوت المذيع يضيف أن محمد رياض رفض المنصب.

"برافو!" وصل أصدقاؤنا الواحد تلو الآخر. كلهم لديهم علم، وكلهم شكلهم مهدود.

سوف نتحدث طوال السهرة تقريبًا عن "هذه الزيارة لبلد العدو". فيما عدا بيرونسيل الذى يستمع بانتباه، كنا نقيم المعنى الثقيل بالعواقب التى تستتبعها هذه الزيارة؛ الخطيرة للبلاد والتى كم هى مهينة؛

ونحن نشعر بالموت داخل أرواحنا، حاولنا إسماعيل وأنا بلا جدوى إضفاء المرح على سهرة يخيم عليها التوهان والقلق.

انتظرنا لعدة أيام، أن يرفع أعضاء البرلمان أصواتهم لنقض قرار الرئيس. فقط، أعضاء التجمع الثلاث وبعض الآخرين تجرؤوا واعترضوا. وأجبرهم رئيس المجلس على السكوت. لا رجعة للقدر!

هل سيذهب السادات فعلا إلى القدس؟ حصلنا على إجابة هذا السؤال فى حفل استقبال فى سفارة العراق. أغلب الضيوف من العرب. وكالمعتاد كان إسماعيل محاطا.

وهو مضغوط بالأسئلة حول موضوع يأخذ بمجامع القلوب، سواء للمصريين أو العرب.

"هل تعتقد أنه سوف يسافر إلى إسرائيل؟ متى!... فى رأيك ماذا سوف يحدث خلال إقامته هناك؟ هل سوف يوقع معاهدة سلام؟ والفلسطينيون؟ والجولان؟ ولكن شخصاً ورائى نادانى بصوت خفيض: تعالى انظرى التليفزيون... وصول السادات إلى القدس...".

أول لقطة تظهر رجال يلبسون العفريتة ويحملون سلم الطائرة، ومضيفة بالملابس الرسمية تفتح الباب. عيوننا متجهة إلى الشاشة نرى ظهور أنور السادات، وجهه مشرق، ويده اليمنى مرفوعة عاليا لتحية مناحم بيجين وجولدا مائير محاطين بشخصيات إسرائيلية كبيرة. ببطء. تحت عيوننا المرعوبة، واثقا من نفسه مبتسما، ينزل الدرجات يضع قدميه على أرض إسرائيل، ويتوقف.

وحينئذ يرفع كلتا يديه عاليا، ممثل ممثل محبوب، واثقا أن آلاف العيون موجهة إلى شخصه، إلى حركاته التى تنقلها كل شاشات العالم.

"غير معقول! إنه اختار القدس! إنها ببساطة خيانة!" تعبيرات عدم الرضا والغضب تغلى حولى، نوع من الرعد المكتوم.

صامتة ومحطمة واقفة بجوار إسماعيل أرى من جديد المشهد الذى اقتسمت فزعه مع الآخرين. القرف أيضا من المعنى التاريخى للفعل نفسه. المغلف بالابتسامات المزيفة للقائمين بالأدوار فى هذا المشهد. ابتسامات الإسرائيليين الذين يرقصون، وابتسامة الخائن المصرى المليء بالادعاء. خيانة مغطاة بالسكر الملون مثل الملبس، فى هذا المساء، خلع وجه بطل "حرب أكتوبر المقدسة" قناعه فى نظر المصريين والعرب.

الولايات المتحدة وأوروبا سعداء، أصبح أنور السادات بطل السلام. على كُلٍّ فإن السادات "وصديقه العزيز بيجن" سوف يُمنحان جائزة نوبل للسلام!!!

-٨-

المباحثات فى الكنيست لم تأتِ بشىء للسادات. وبدلا من أن يرحل صافقا الباب وراءه يظل يومين آخرين. المثقفون المصريون الشاعرون بإهانة عميقة، استخرجوا هذه الجملة التى قالها بيجن:

"إذا استطعنا أن نجمع أموال العرب وذكاء اليهود فإن هذا الجزء من العالم سوف يصبح مزدهراً".

وكما هو متوقع، فقد صودرت الجريدة الأسبوعية للحزب وأدركت برضا أن المعارضة عامة. وجد أعضاؤنا الثلاثة فى البرلمان أنفسهم مستقبلين بصيحات معادية من أنصار السادات، خرفان القطيع الذين يتبعون السادات منكسى الرأس من الانتهازية والجهل وعدم الوعى. وهم أغبياء وعميان مثلهم مثل سائق والدتى؛ الذى أعلن لى اليوم الماضى وهو يوصلنى إلى المنزل:

"قام الريس بحركة جميلة... لقد سئمنا من الحرب والحرمان والموتى... سوف ترين، الأمور سوف تسير إلى الأفضل، الآن...".

مندهشة، سكت. إنه أفضل حالا من الآخرين. لم يقتل أحداً من عائلتهم، وهو يقبض مرتبا جيدا من التليفزيون ومن والدتى التى يوصلها فى مشاويرها كل صباح.

ينتظر المصريون كى يروا ما الذى يُخبِّئ لهم، كمفاجأة، الرجل الذى يمسك بمقاليد بلادهم، وحياتهم أيضا.

يعمل الراديو والتليفزيون وقتًا كاملاً. يكبت إسماعيل اكتئابه بإغراق نفسه فى العمل: المعهد، واجتماعات الحزب. ويدخل فى المساء، منهكا. أذهب كثيرا إلى ماما. تذهب أختى أكثر إلى الحزب وتمر أكثر علينا لكى تشرب كأسا معنا.

وها هو السادات الذى يظهر أكثر فأكثر على شاشة التليفزيون يقدم لنا مفاجأة جديدة! بناء على دعوة "صديقه العزيز" جيمى كارتر، سوف يلتقى بيجن فى كامب ديفيد لكى يوقع معاهدة سلام! أصبح كامب ديفيد وهو مكان الإجازات للرئيس الأمريكى، أصبح بالنسبة للمصريين مكانًا ذا شهرة حزينة.

سوف تقرع كامب ديفيد أجراس النهاية لـ"أنور السادات". منهكة، أتوقف. أقفل الآلة الكاتبة وأنظم أوراقى. أول قصيدة منذ وقت طويل. حاولت أن أترجم ثورتى، وقرفى... "بلاد فى ساعة الصفر". خرجت إلى البلكونة فى انتظار إسماعيل. أنزع بعض الأعشاب الضارة... أضع كوعى على الدرابزين. النيل تنعكس عليه الشمس... أبى وأخى وحبيبى ولوعتى.

أسرع السفير الإسرائيلى بالحضور إلى القاهرة. وهو يبحث عن مسكن وعن سفارة. كل مُلاك الفيلات الجميلة يرفضون أن يؤجروا له حتى بأعلى الأسعار. سوف يتمكن ولكن ليس بدون معاناة من شراء شقة فى شارع ابن مالك! (سوف نصبح جيرانًا إذن)!. أظن أن محل إقامتى فى المعادى.

وبدأت البلاد الواحدة تلو الأخرى بقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر: المملكة العربية السعودية والجزائر وتونس وسوريا ولبنان وكل بلاد الخليج. نتبادل دعوات العشاء لوداع أصدقائنا السفراء. وألاحظ بمرور الزمن، أن أقلية صغيرة من المصريين وكذلك أيضا فى البرلمان وبعض الوزراء هم الذين يوافقون على كامب ديفيد. مصلحةً أو جُبْنًا حتى يظلوا فى السلطة، أو استسلاما.

أنْشئت مجموعة من مثقفي الحزب، إنجي إذن، "لجنة الدفاع عن الثقافة القومية" وهدفها معارضة أى مشاركة ثقافية مع إسرائيل.

وأعلن أعضاؤها قائمة سوداء لمن يتعاونون مع الإسرائيليين والذين يقبلون دعوة لزيارة إسرائيل.

أثارت حادثة افتتاح معرض الكتاب كثيرا من السخط. أقيم جناح إسرائيلى بجوار الجناح الفلسطينى! زوار المعرض المصريون الذين لحق بهم شخصيات معروفة وطلبة تجمعوا بشكل تلقائى أمام مدخل الجناح. وأغلقوا المرور إليه محتجين على هذا التجاور المهين للفلسطينيين. وارتفعت أصوات بهتافات مضادة للإسرائيليين. تدخل البوليس وفرق المتظاهرين... واعتقل الأكثر اندفاعا. استطاعت ليليان وابنتها الفرار بمعجزة. لن تتمكن إنجى من حضور هذا التدشين الصاخب. وبناء على النصائح المرتبكة للسلطات اضطر الإسرائيليون إلى إغلاق الجناح. ذلك أن وجوده كان يمثل للمصريين استفزازا متواصلاً.

حل السادات البرلمان؛ لأن خمسة عشر عضوا صوتوا ضد كامب ديفيد. والحملة الانتخابية بدت عاصفة. وضعوا المرشحين المسنودين وحتى المدفوع لهم من الحكومة فى مواجهة المرشحين الوطنيين والنزهاء. ورغم كل المجهودات التى بذلها أعضاء الحزب فى كفر شكر، سوف تُزَوَّر البطاقات. ولن يعاد انتخاب خالد محيى الدين. تقربنا كثيرا من حسن.

يأتى من حين لآخر إلى القاهرة، يقضى الليل عندنا أو عند ماما وإنجى. الشاب المتحفظ الصموت الذى كنا نلقاه أحيانا عند والديه فى الإسكندرية خرج عن صمته، يتكلم ويسأل أسئلة حول كل شيء. له أحاديث طويلة مع أنكل إسماعيل. وسوف تتوطد أواصر علاقتهما مع مرور الزمن. ومثل كل الشباب الذى يستقبلهم اكتسب زوجى محبة هذا الصبى الذى بدأت أحبه كابنى. وإنجى أيضا مهوسة مثلى بابن أختها. وسعيدة

لأن حسن يحب الرسم، تصطحبه معها فى افتتاح المعارض. وإلى المسرح أيضا مع الأصدقاء. ورغم المأساة التى عاشها نجح حسن فى الامتحانات. إنه لا يعرف بعد ماذا يريد أن يفعل. وسافر مع أولاد عمه إلى الولايات المتحدة. وسوف نسافر أيضا قريبا إلى ميجاف ولندن.

-٩-

وبينما يستمر تفكيك بلادنا، أعلنت باختصار بعض الإجراءات فى الصحف تضاف إلى التغيرات التى قام بها رئيس الجمهورية. رحيل الخبراء السوفييت من القطاعات الأكثر أهمية فى البلاد، ترحيل الأساتذة السوفييت أو من أوروبا الشرقية الذين كانوا يدرسون فى الكونسرفتوار والمعهد القومى للباليه أو فى مسرح العرائس. وإغلاق جمعيات الصداقة المصرية السوفييتية.

ندخل إذن بجلبة كبيرة، فى "عصر الانفتاح" أو الانفتاح الاقتصادى. ضربة جديدة موجهة لمكاسب ثورة يوليو. وباسم الله يشرح السادات "المكسب" الذى سوف يجلبه "الانفتاح" على شعبه. وهو ينطق هذه الكلمة السحرية بطريقة تمثيلية، مؤكدا وفمه مفتوح على آخره على "آه". الانفتاح هى كلمة السر "افتح يا سمسم" التى سوف يجب أن تفتح أبواب مغارة على بابا للشعب المصرى. هذه الكلمة هى قبل كل شىء إعدام القطاع العام. رجال الأعمال ينفخون صدورهم وجيوبهم باستيراد كل ما تستطيع فقط الطبقة الجديدة أن تشتريه. نجد حتى بضائع استهلاكية مثل زيت لزيير الفرنسى ولبن نيدو مرصوصة بوقاحة على أرفف الجمعيات التعاونية! وتستبعد الملابس الداخلية والأزياء المصنوعة فى مصر لصالح تلك الآتية من لندن وباريس أو تايوان. وفيما عدا العطور والكولونيات، فإن الملابس عادة ما تكون إنتاج العام السابق وتكون آتية من أوكازيونات أو شارع أكسفورد، جاذبية الفاكهة المحرمة طويلا، الجهل وسوء

الذوق تدفع الزبائن حديثى الثراء، لشراء بضائع من الدرجة الثالثة. البقالون، المشهورون سابقا بأنواع الجبن الأبيض والزيتون الأسود تحولوا . أصبحت محالهم المكيفة الهواء تعرض خيارات متنوعة للأجهزة المنزلية والتليفزيونات الملونة والمراوح وأجهـــزة الفيديو... وتجارتهم رائجة لدرجة أنهم يقيمون معارض فى أكبر مراكز العاصمة.

ونوادى الديسكو تجتاح الشباب. وأخيرا الصالونات الخاصة بالفنادق الكبرى مثل شيراتون أو هيلتون تؤجر مقدما من قبل الأهل الذين يقيمون حفلات زواج أبنائهم. ويدعى لها الأهل والشركاء والأصدقاء والوزراء وحتى الرئيس وزوجته.

كم أشعر بالإحباط لأننى أخطأت فى تقييم جيهان الجميلة! الشائعات السيئة التى تخص الرئيس وزوجته اتضح أنها حقيقية وتتضاعف. عشقها للمجوهرات وللمال وللسلطة يبدو وكأنما أعمت هذه المرأة الذكية، التى لا تتحرك أبدا بدون جيش المصورين ومصورى التليفزيون.

وسبب ذلك بصفة عامة...، لقد وصل بها الأمر أن وافقت على تحقيق صحفى لصحفية فى جريدة "بلاى جيرل"، التى لم نسمع عنها من قبل، منذ سفر أصدقائنا الدبلوماسيين ضاق نطاق مجموعتنا فى السهرات السعيدة، حيث كانت الصديقات يرقصن على إيقاع الموسيقى العربية، أصبحت ذكريات. انتهت المحادثات المتقطعة التى تذكرنا قفشات أبو العينين الغريبة الذى كان يضحكنا من قلبنا "مين له نفس يضحك"، يلاحظ صديقنا، الشعب لم يعد يؤلف نكتًا .وكأنما وضع بلادهم جفف نبع الخيال لديهم. عندما أصحو فى الصباح أرى صورة السادات فى الصفحة الأولى من الجرائد، وعندما أذهب إلى الحمام تاركة الراديو مفتوحًا يصل إلىّ صوت السادات وعندما أشد السيفون، هى أيضا صورة السادات التى تبدو من الفتحة وتسخر منى!...".

الطريقة التى حكى بها صديقنا قفشته، أضحكتنا برغم كل شىء. نحن لا نتحدث إلا عن الموقف الذى نعيشه قافلين قبضتنا. انخفاض المستوى الثقافى، الدروس الخصوصية التى يضطر التلاميذ لتلقيها خوفا من الرسوب، وخيبة الأمل واليأس الذى استولى على الشباب الذين لا يجدون عملاً بعد حصولهم على شهاداتهم. وشباب مستدير نحو الغرب وأمريكا يلبس الجينز والتى شيرت، ويحلم بالفيديو، لكن أساسا بطرق لكسب المال. وذلك حتى شباب الطبقة الثرية.

وعود السادات بالحركات المصاحبة لتأكيدها كل يوم تقريبا، هذه الوعود لم تعد شعبية. يحاول المصريون الخروج بطريقة أو بأخرى من السقم الثقيل الذى يلفهم كالعباءة.

يختبئ كثيرون فى الدين، باحثين فى سور القرآن عن بلسم لآلامهم. يطلبون عون الله فى المساجد التى امتلأت عن آخرها. يستمعون بخشوع لخطبة الجمعة. بعض الشيوخ الشجعان يفضحون الموقف المهين لحكومة السادات تجاه الولايات المتحدة وإسرائيل. كثير من المتدينين أُلقِى القبض عليهم، وفى الوقت نفسه ظهرت مجموعات المتطرفين المسلمين، ظهرت مجموعات اسمها "الأخوات الصغيرات للفقراء" لابسات الحجاب والفساتين الطويلة، ظهرن فى الجامعات. إنهن فقيرات وليس لديهن الوسائل المالية للذهاب إلى الكوافير أو التزين أو لبس ملابس جميلة مثل زميلاتهن الثريات. واللاتى يذهبن إلى الجامعة بالسيارات مرتديات أزياء كأنهن ذاهبات لحفل استقبال! ولكن الحجاب لا يكفى. وبعضهن تغطين بعباءة طويلة.

المكالمات التليفونية الكثيرة التى يتبادلها إسماعيل مع أصدقائه تجرحنى. قرر أخيرا أن يفسرها لى. هو وشخصيات كثيرة تنتمى لكل الاتجاهات السياسية فى البلاد، وضعوا معا مذكرة سوف يوقع عليها الجميع. هذه المذكرة سوف تقدم لرئيس الجمهورية شخصيا. نشرت الصحف نبأ أصابنا بالذهول أدت استثارة إلى مواجهة فى شبرا بين المسلمين والأقباط فى معركة عنيفة، لم يوقفها سوى تدخل القوات

المسلحة، والاعتقالات كثيرة. أثيرت أسئلة حول حدث يجعله أكثر خطورة. إن المسلمين والأقباط عاشوا منذ الأبد جنبا إلى جنب فى انسجام تام! من يقف وراء هذه المسألة المخجلة؟ ما هى الأسباب الغامضة التى أثارتهم؟.

سوف أعرف فيما بعد، أن متطرفين مسلمين هاجموا أقباطا فى أسيوط. مرة أخرى تتدخل القوات، وفرقت أفراد الفريقين، ولكن تم ذلك بإطلاق النار... بالطبع كان هناك جرحى وموتى.

هذا المساء، دخل إسماعيل متأخرا إلى المنزل، مرهقًا، ولكنه مبتسم قبلنى فى شعرى وطلب منى أن أعد له كأسا. ودون أن ينتظر أن أسأله، قال لى مباشرة إن الاجتماع الذى عُقِد فى حلوان كان بديعا. وكأنما كل عمال مصانع حلوان موجودون هناك! كثير من الشباب والنساء. عد إسماعيل بتواضع على التصفيق الذى يلى خطابه. وتوسع فى الكلام عن لطفى. حينما قام الأخير ليأخذ الميكرفون استقبلته عاصفة من التصفيق. وكان خطابه الممتاز الذى دعمه ببعض الكلمات المليئة بالفكاهة، تلك التى يعرف وحده سرها، وهذه الكاريزما التى تشع منه كهربت المستمعين. وقد صفقوا طويلا للطفى. كنت أحب أن يطلعنى إسماعيل على أهم النقاط التى تناولها فى خطابه، لكنه يبدو لى منهكا. أكل السلطة وقشر برتقالة وأخذ حمامه، وكما يقول دائما ضاحكا.

إجابات الأسئلة التى كنت أود أن أوجهها لزوجى عن مضمون الخطاب، لن تتأخر أن تصلنى. وذلك بمكالمة تليفونية بسيطة تبلغ إسماعيل أنه نقل من معهد التخطيط إلى وزارة الإدارة المحلية! مع الاحتفاظ بمميزات المعهد نفسها! ما زلت أراه حتى الآن وهو يضع السماعة مقاطعا بذلك محدثه. وسوف يصف لى إسماعيل فى اليوم التالى كيف مر أمام الأساتذة والموظفين وعمال المعهد لكى يسلموا عليه، وكثير منهم كانت فى عيونهم الدموع.

حر الآن فى أفعاله، رفع إسماعيل قضية فى مجلس الدولة لعدم شرعية إجراءات التصرف الرئاسى. وأعطت المحكمة كل الحق لزوجى وتم إلغاء القرار الجمهورى. أنشأ إسماعيل ومهندسان صديقان مؤسسة بحثية CADSAC سوف تشق طريقها. ولكن إسماعيل سوف يكرث وقتا كثيرا لمنتدى العالم الثالث الذى يرأسه. وشهرته الدولية تستمر فى إتاحة دعوات الاشتراك فى سيمنارات وندوات فى كل مكان فى العالم تقريبا. شارك فى اجتماعات (الجمعية الدولية لتنمية أخرى) الذى يشغل فيه منصب نائب الرئيس منذ انتخابه فى كولومبو، وأخيرا وافق على أن يكون منسق الخطة الزرقاء، وسوف يذهب كثيرا إلى صوفيا وأنتيلوب (بجوار أنتيب) وسوف أرافقه أحيانا.

-١٠-

صور ومناظر هذه الإجازات تتدافع فى ذاكرتى. إسماعيل كان حنونا معى بشكل خاص خلالها. بدأت فى مالطة حيث كان يشترك فى مؤتمر. مالطة بلونها البيج الوردى ومدينتها الساحرة، ذات الشوارع الملتوية المظللة بالأشجار العتيقة وأشجار الغار الوردية. وسهرات العشاء مع مارك ميجاب، حيث لا نفارق ريمون وفرانسواز وجابى. لندن أخيرا، فى استوديو كوفن جاردن الجذاب. المسارح والمتحاف والسينمات والتسوق. وخاصة زيارتنا لاسبرى، المحل المتميز، حيث كنت أريد أن أهدى حقيبة أوراق لإسماعيل لتحل محل حقيبته التى تسلم الروح! الاختيار صعب، وحين يقرر إسماعيل أيهما يختار، يطلب أن يلفوه له لفة هدية: "سوف أفتحه يوم عيد ميلادى..." أضاف وهو يضحك. لماذا لا يستخدمه على الفور؟ فكرة غريبة.. ندمت فيما بعد على أننى لم أصر وتركنا المحل، سعداء بما اشتريناه، دون أن نشك أننا لن نرى أبدا هذه الحقيبة.

منهكين من مسيرتنا الطويلة، وجدنا أنفسنا بسعادة فى الاستوديو المتسع. وبينما يشغل إسماعيل التليفزيون ويتصفح الجرائد، أحضر عشاءنا المتواضع؛ سلطة فجل وشرائح السلامون المدخن. ولكننى فى البداية أضع الصينية لكى أقدم ما نشربه. ارتميت فى أحد كراسى الفوتيه وأنا أتنهد بسعادة. "الدور عليك الآن. قدم لنا ما نشربه.. شيئا جديدا؟". لاحظت ساعتها تعبير وجهه المهموم. ولكننى أنتظر. أعرف أنه سوف يأخذ وقته قبل أن يرد. رمى الجرائد فى الأرض، وبدأ فى سكب الويسكى فى الكاسات. هيه! قال وهو يملأ الأكواب. "لقد اعتقلوا أكثر من مائة شخص فى الإسكندرية، يوم الجمعة". البيرييه يصدر فقاعاته فى كاساتنا المليئة بالمشروب الذهبى. "ذهب المصلون بأعداد كبيرة لسماع الشيخ س وتبعا لجريدة التايمز، هاجمت القوات بالعصى المصلين الجالسين على الأرض بهدوء. وأشخاص كثيرون هددوا.

لا أفهم. ماذا تعنى هذه الاعتقالات؟ أعرف فقط بالسمع أن هذا الشيخ مشهور جدا لخطبه التى تنتقد الحكومة وأنه رجل شجاع جدا".

"ياللا يا بولا. شيرز!" رفعنا كاساتنا.

"انسى مصر. عندنا فيلم بوليسى هذا المساء مع أنجلا لانس بيرى...".

نسيان مصر ليس شيئًا هينا عندما نكون فى نهاية إجازتنا. مر أول صباح لنا فى لندن سريعا. آخر المشتريات قبل رجوعنا بعد الغداء وحزم حقائبنا. أفكر فى الغد سوف أنفصل عن إسماعيل فى مطار هيثرو حيث أطير إلى باريس. الطبيب الإنجليزى لا ينتظر أن يراجعنى سوى فى ٧ سبتمبر؛ إسماعيل الذى لديه عمل فى القاهرة سوف يسبقنى إلى هناك. سوف يكون لدى أسبوع كامل فى باريس بجوار تاتى. سوف أعاود رؤية أصدقائى... فى ظروف أخرى كانت سوف تسعدنى هذه الإقامة فى مدينة أحبها بهذا القدر، ولكننى فى هذا الصباح لا أستطيع أن أمنع هذا الانقباض فى

قلبى، والرغبة فى إرسال هذا الفحص للشيطان ومصاحبة إسماعيل إلى القاهرة... "أخبار الأمس تقلقك؟ ياللا...!" يحيط إسماعيل أكتافى ويضمنى. وبصوته العميق الملىء بالحنان يقول: "لا تفكرى فى مصر. استفيدى تماما بيومنا الأخير فى لندن... غدا سوف تزين تاتى وباريس والأصدقاء... تعالى نبحث عن بب. سوف أقدم لك دراى شيرى قبل العشاء..." استعدت ابتسامتى. إذ إن شيرى مثلجا سيكون مرحبا به دائما... تعلمى إذن أن تستمعى باللحظات الحلوة بجوار الرجل الذى تحبينه... مطار هيثرو! نقبل بعضنا "بقوة انتبهى لنفسك وخاصة انسى مصر. استمتعى بوقتك! قبلى تاتى بالنيابة عنى، وسلمى على الأصدقاء...".

لماذا أشعر بحلقى مختنقًا؟ أبتسم له قبل أن أبتعد وأستدير؛ نأخذ اتجاهين مختلفين. وسريعا ما انقضى الأسبوع؛ حجزت مكانى فى الطائرة الذاهبة إلى القاهرة يوم الثامن من سبتمبر. اليوم هو أول سبتمبر ١٩٨١.

من هذا الأسبوع فى باريس لا أتذكر سوى لحظات غامضة. غداء مع تاتى وجون ومع الأصدقاء. ولكن أى فيلم شاهدت؟ أى مسرحية؟ لا شىء! ثقوب! سوى عصر يوم ٦ سبتمبر. عصر جميل من سبتمبر.

أقلنى الأتوبيس إلى محطة الميجيسيرى. وسوف أنتقى بعض التقاوى للبلكونة والمنشية. اشتريت جريدة الموند، واحتفظت بها مطوية على حجرى. أفضل أن أشاهد تتابع الشوارع بالمشاة والفترينات والكافيهات، وفقط فى رحلة العودة قررت أن أفتح الجريدة. أبدأ دائما بالبحث عن أخبار الخارج. عنوان بالبنط الكبير، يغطى العمود الأيمن، يصيبنى بخبطة فى قلبى. "مجموعة أخرى من الاعتقالات فى مصر! مئات من الشخصيات الشهيرة تم القبض عليها هذا الصباح...".

٥ سبتمبر إذن. الجو جميل ولكننى أبتعد. أمر بسرعة على قائمة الأشخاص المقبوض عليهم. لا يعقل! مذهولة، وقلبى مقبوض. وأعاود القراءة، ببطء أكثر، الأسماء: فؤاد سراج الدين، وحسنين هيكل، وميلاد حنا، وهو عضو فى الحزب، الشيخ عمر

التلمسانى والبابا شنودة... اسم زوجى ليس مذكورا؛ لا أشك للحظة أنه أفلت من هذه العاصفة. لا بد أن يكون صحفى الموند قد نسى أن يكتبه. وفسرت الآن الضيق الغريب الذى سكننى منذ استيقاظى فى الصباح. الضيق الذى يحل الخوف مكانه. يدى المنداة تتسخ بحبر المطبعة، أطبق الجريدة أضعها فى الحقيبة وأجفف يدى بالكلينكس. وأدرك أننى أبتعد. لا بد أن أزن الأمور. والقول إننى سوف أذهب إلى المسرح مع الابنة الكبرى لمصطفى!

كنت أفضل أن أظل مع تاتى وجون نشاهد التليفزيون معا، لنسمع الأخبار... محاولة الوصول إلى ريمون... قد تتصل بى إنجى من القاهرة. لتقول لى ماذا؟ ماذا أقول لتاتى وجون إن لم يكونوا قد عرفوا؟ إنهم لا يقرؤون سوى جريدة الفيجارو التى تظهر فى الصباح... ردود أفعالهم وملاحظتهم سوف تثير أعصابى. الأفضل أن أخرج. وفى انتظار ذلك أسترد هدوئى وأكون وجها مبتسما، ثم لماذا هذا التشاؤم؟ لا نستبق الأحداث.

فى اللحظة التى أفتح فيها باب الاستوديو. كانت تاتى توارب باب شقتها. "كنت أنتظرك يا عزيزتى. اتصل إسماعيل من القاهرة... نعم بعد ما ذهبت مباشرة. يقول لك إنه فى أحسن حال وينبهك أنك مدعوة فى سفارة فرنسا على العشاء يوم ٨ سبتمبر... تضحك من منظرى المدهش؛ أضحك أنا أيضا، متخففة من الخوف الذى كان يعتصرنى. إسماعيل حر! وصمم على أن يطمئننى. فكرة هذا العشاء فى السفارة الفرنسية لا تروق لى أبدا.

سوف أكون متعبة من السفر. وسوف يكون على أن ألبس... زى بعضه. سوف أقوم بمجهود... هذا أفضل من الاعتقال.

لا أتذكر ولا اسم المسرح ولا اسم المسرحية التى شاهدتها مع صديقتى الصغيرة. فرصة استقبالى لأخبار مطمئنة من إسماعيل تبخرت. أمضيت ليلة سيئة.

صحوت فى الخامسة صباحا على الصوت الجهنمى الذى يصدره... أتناول إفطارى وأستعد. دعوت تاتى وريمون على الغداء. سوف يأتى فى الواحدة والنصف. لا بد أن يكون قلقا هو أيضا. إنه يقرأ الموند كل يوم. يوم مشمس آخر؛ كيف الجو فى القاهرة؟ لا بد أن يكون حارا جدا! أريد أن أكون قد وصلت. سوف يمر بعد الظهر سريعا مع زيارة الطبيب اللعينة. غداء أخير بصحبة تاتى وجون... أكمل تحضير حقيبتى. آخذ طقم تقليم الأظافر الذى أحضره لى إسماعيل من موسكو. وكان قد اعتذر فى تواضع الهدية المشتراة من أحد محال الفندق الذى كان ينزل فيه. برد أظافرى ودهنها من الأشياء التى تثير زهقى الشديد. ولكنها فى حالة سيئة. هذا هو الوقت الوحيد لأداء هذا العمل السخيف. دق جرس الباب.

"إنه أنا" قالت تاتى. "ريمون على التليفون، ويريد أن يكلمك..." أقبل تاتى ويداى فى الهواء لتجفيف الدهان وهى تقول وهى تتبعنى: "أتمنى ألا يعتذر لأننى اشتريت السَّمان فى الصباح" أمسكت بالسماعة وقلبى يدق. إذا كان، صديقى يتصل بى مبكرا هكذا فلأنه يعرف شيئا "ها" قال الصوت العميق، "إزى الحال؟ نمتِ جيدا؟ قولى لى هل لديك أخبار؟" بدأت أرتعش ورددت "إنه لا شىء سوى الأخبار المنشورة فى الموند أمس. لماذا؟" آه! يبدو أن إسماعيل قبض عليه... ولكن لا شىء أكيد... اتصلوا به فى الصباح والشخص عرف الخبر من ظريف عبد الله الذى وصلِ من القاهرة لا بد أن تجدى نمر تليفوناته فى أجندة تاتى. ظريف وزوجته أصدقاء أخته... حسن، إلى اللقاء. نعم سوف آتى إليكم بأسرع ما يمكن...".

أضع السماعة مكانها، ببطء، منسحقة... وكأنما ستارة من الحديد قد سقطت فوقى!

وقلة الهمة التى استولت على كانت كاملة لدرجة أنها تجردنى من رباطة الجأش والوعى، وتمنعنى من التحكم فى تدفق الدموع التى تنفجر من عيونى، رغم خجلى من

أن أبكى أمام تاتى؛ وحين تمر من الحمام إلى المطبخ تلقى نحوى نظرة قلقة كلما مرت أمامى. لا أتمكن من حبس النشيج. مللت! لا أجد لدى القوة لمعاودة القتال بكل ما تستلزمه هذه الكلمة. مساءٍ وانتظار وقلق... صور لسنوات بدونه، تلك التى نحيتها جانبا من ذاكرتى، انبثقت فجأة وكأنما لكى تسخر منى؛ تدور حولى مثل الطيور القناصة. لا، ليس لدى القوة لإعادة هذا الطريق. التف ذراع نحيف وجذبنى نحو صدره؛ وشعرت بقبلة فى شعرى.

"إسماعيل اعتقل؟ كنت أعرف منذ الأمس؛ اتصل بى أصدقاء أمس فى المساء. لم أقل لك لأننى لم أكن متأكدا... ابكى يا حبيبتى، البكاء يريح... ولكن حاولى أن تهدئى نفسك. ها هو دليل التليفونات؛ لقد كتبت فيه أختك رقم ظريف فى المكتب والمنزل...".

هذا صحيح، أشعر بالتحسن لأننى بكيت. فتحت دليل تليفونات تاتى. وبدأت الاتصال بمنظمة اليونسكو، ردت على سكرتيرته قائلة: إن مسيو ظريف لن يأتى سوى صباح الغد. طلبته فى منزله؛ ردت زوجته. نعم لقد اعتقل إسماعيل بالفعل. إنجى قالت لها وطلبت منها ألا تقول لى! لماذا؟ لا أعرف. ماذا حدث لأختى؟ هى تعرف مع ذلك أننى يجب أن أستفيد من وجودى فى باريس! وإننى يجب أن أنبه مارك وسيرج أنطوان، وأكبر عدد من الناس... وشخصيات مثل جيمس جرانت رئيس الـ S.I.D ومدير اليونسكو. تجمعنا معهم علاقة صداقة.

"ردوا عليك آل ظريف؟" تسأل تاتى التى تتجه إلى المطبخ." صحيح؟ أو لا لا... ما هذه الحياة!". حياة كلبة! مارك! نسيت مارك لدى الحمد لله رقم الـ FIPAD فى نيون. ولكن مارك ليس هناك؛ إنه فى سفر! إنها "دون" زوجته الجاميكية الساحرة التى قابلتها العام الماضى هى التى تتحدث، فهمت أهمية الخبر. "أوه! يا إلهى! يا إلهى" صاحت "دون" مذهولة ووعدتنى مباشرة أن تفعل المستحيل للوصول إلى مارك.

وسيرج أنطوان؟ نسيت أن أكتب أرقامه الجديدة فى مفكرتى. أما دليل تاتى القديم فإننى لم أجد فيه لا رقم سيرج فى المنزل ولا رقم وزارة البيئة... ليس مهمًا، سوف أعطى الاسم لريمون حالما يجىء بعد قليل. سوف أنظم الاستوديو قليلا وأضع قليلاً من البودرة فوق أنفى وأصفف شعرى. أنبه تاتى وأعود إلى بيتى. حقيبتى ممتلئة تقريبا وموضوعة على ترابيزة البريدج. سريرى مرتب، فجلست وأغلقت طقم الأظافر. ليس هناك ضرورة لأهذب أظافرى، ليس هناك عشاء فى السفارة الفرنسية! قلق العمر الذى اعتقدت أنه انتهى إلى الأبد يعاودنى أمام هيئة إسماعيل وهو يبتعد فى الممرات فى مطار هيثرو... أين حبسه هؤلاء القذرون؟ فى أحد هذه السجون التى أجمع أسماءها رغما عنى... سجن القاهرة وسجن القلعة وسجن الاستئناف وسجن أبو زعبل وسجن القناطر والسجن العسكرى؟ أو أيضا أبعد من ذلك؟ إسنا، أسيوط؟ ليس فى الواحات على أى الأحوال؛ يبدو أن ذلك المعسكر قد أغلق... أفتش كل الدواليب؛ لم أترك فيها شيئا... إن إسماعيل هو من يقوم دائما بترتيب حقيبتى. لقد اعتاد ذلك منذ بدأ يسافر كثيرا. لا ينقصنى سوى أن أفرد بالطو المطر، فى المساء. ويظل هناك بعض الأركان التى سوف أدس فيها الأدوية التى سوف يطلبها الطبيب.

دق الجرس! إنه ريمون؛ إنه ملاك لأنه أتى مبكرا. أدخلته عندى بينما أسمع تاتى تقول له من بعيد: صباح الخير، يا ريمون! اذهب إلى بولى. سوف تتمكنون من التحدث بحرية أكبر... يجلس ريمون على الكرسى الوحيد فى الغرفة، مادا ساقيه الطويلتين. "إذا؟ احكى. تحدثتِ مع ظريف؟... جلست على حافة السرير وحكيت له كل شىء. أبتلع دموعى بصعوبة. "أعطينى فى الحال رقم مارك فى FIPAD. تعارف ريمون ومارك فى الصيف الماضى فى بيجاف. كان مارك قد قضى اليوم معنا ورجوت ريمون أن يبحث عن سيرج أنطوان فى وزارة البيئة ووضعنا معا قائمة بالشخصيات الفرنسية التى يجب إبلاغها والصحفيين... إسماعيل هو حاليا رئيس الـ S.I.D... وكانكون! لا يجب أن أنساه! كانت الحكومة النمساوية قد بدأت في تنظيم اجتماعات للشخصيات

الأوربية لكى تناقش مع قادة القوى العظمى، وكانت قد اتصلت بالمنظمات غير الحكومية؛ مثل الـ FIPAD ومنتدى العالم الثالث. وكان هذا الاجتماع قد تقرر عقده أول أكتوبر. لن يتمكن إسماعيل من الاشتراك. المعطيات كئيبة... "يجب" قال ريمون "أن تحاول إنجى ترك مصر..." أطمئنه قليلا. أختى ليس لديها سوى أنشطة سياسية قليلة جدا. هى عضو فى الحزب وعضو مؤسس فى لجنة الدفاع عن الثقافة القومية.

"هذا يعتبر كثيراً، يا بولى. مع هذا السادات، كل شىء ممكن، ألا ترين؟ ما علينا إلا أن نقرأ قائمة الأسماء..." الوجود المساند لصديقنا الكبير قوى عزيمتى. وهادئة ومستكينة، لكونى بدأت أنشغل بإسماعيل ومساعدته أعاد ذلك إلى الوعى. تفاهمنا على تبادل الخطابات. سوف أكتب قدر ما أستطيع لريمون. بطريقة ملتفة... "الغداء جاهز! تعالوا يا أطفال!..." لحظة استرخاء لطيفة حول المائدة الصغيرة المعدة بطريقة جميلة لتذوق الباذنجان البديع المحشو بالسمان؛ والوجبة مصاحبة بنبيذ ميدوق الجيد.

"أيى، يا، يا! سوف أموت، صاح ريمون وهو يتذوق فطيرة الليمون الناجحة بشكل خاص اليوم. كم كان إسماعيل سوف يقدر هذا الغداء".

وأثناء تناول القهوة تتبادل تاتى وريمون وصفات الطهى. ويتذكران وهما يضحكان بعض الذكريات. وقت أن كنا شباباً وعاشقين وسعداء وأحراراً.

تتركنى تاتى لأن لديها موعداً مع صديقة. وسعدت حينما عرفت أن ريمون سوف يصحبنى إلى الطبيب.

"شكرا، تاتى. إلى اللقاء سريعا. الذى يكون لديه أخبار أولا عن إسماعيل سوف يتصل بالآخر...".

قبلت تاتى وريمون، وفرّت نحو الحمام: لكى تبكى غالبا. فى انتظار مجىء الساعة السادسة، استقبلنى ريمون عنده فى شارع لل. وبينما هو يتصل بالتليفون أتأمل بإعجاب لوحات "ماتا" والمصورين التجريديين على الأرض، وكذلك أشياءها من الفن الزنجى الذى يسحرنى. أنصت بلا تركيز إلى ريمون وهو يتحدث إلى أشخاص لا أعرفهم. أعرف فقط أن الأمر يخص إسماعيل.

يلقى من حين لآخر نظرة على ساعته. وأخيرا برغم اعتراضاتى اصطحبنى إلى طبيب أمراض النساء. فى قاعة الانتظار، سيدتان حوامل تتصفحان المجلات. كتمت ضحكة: سوف تعتقد الممرضة أنك زوجى..." نفترق أمام الصيدلية فى شارع ماكماهون. يتحدث ريمون سريعا، لكى يخبئ انفعاله: "ياللا! اهتمى بنفسك، يا بولى! اكتبى لى... تشاو!..."

أنتظر واقفة على الرصيف إلى أن تختفى سيارته، وعيونى مغيمة بالدموع. أدفع باب الصيدلية التى تعاملت معها طويلا. تتعرف صاحبتها على، تبتسم لى وتسرع لخدمتى. "إذا؟ انتهت الإجازات، سوف تتركيننا هكذا سريعا! إلى اللقاء يا مدام، إلى السنة القادمة...".

أجلس والكأس بيدى بجوار تاتى وجون أمام التليفزيون. موعد الأخبار لم يأتِ بعد. أحكى زيارتى للطبيب واصفة الهيئة المرتبكة لريمون، وضحكنا معا. أعترض حين تعلن تاتى أنها سوف تصحبنى إلى المطار. أعرف أنها تحب أن تكسل قليلا فى الصباح، فى أى ساعة سوف تستيقظ إذن؟ لا يوجد شىء أعمله. ترجونى تاتى أن أتصل بالشركة لكى أطلب تاكسى يأتى فى الساعة التاسعة والنصف صباحا. "ومع ذلك يا بولى لاحظ جون أرى أن هذا السيد زودها بأن يقبض على أحد وزرائه القدامى!..." أهز أكتافى؛ وأشرح بأكبر قدر من الوضوح حركة المقاومة التى تشكلت بعد زيارة القدس، وبعد كامب ديفيد... لمرة فى الحياة، استمع إلى جون باهتمام، ثم رفع ذراعيه الطويلتين فى الهواء كما لو كان يؤكد احتقاره. أعرف معاداته لليهود

الملحوظ. يوافق على حركة المعارضة التى يمثل إسماعيل جزءاً منها قائلا فقط: "إن لديهم حقا بالطبع!" فى هذه اللحظة رن جرس التليفون آلو؟ بولى؟ أنا مارك! أوه مارك! عرفت فى التو صوت صديقين، صوت قلق: إزيك؟... يسعدنى أننى استطعت أن أصل إليك! "دون" أفهمتنى الوضع... لقد أحسنت بأن اتصلت بى فى نيون.

هل لديك تفاصيل؟ طبعا، ما زال الوقت مبكرا. أعطينى رقم تليفون ريمون... حسن، أنا أؤيدك، عودى للقاهرة لكى تعتنى بإسماعيل... يمكنك أن تعتمدى على فى عمل اللازم. سوف أعود إلى نيون، بعد غد، ولكن من هنا إلى هناك، سوف أبلغ جيم جرانت وكل الشخصيات المدعوة فى كانكون... وداعا! اهتمى بنفسك! أقبلك..." وضعت السماعة وأنا أبتسم، أعرف الآن أن حملة الاحتجاجات فى أيدٍ أمينة. لا مارك ولا ريمون سيتوقفان. وفى صبيحة اليوم التالى قبل أن أرحل، سوف أتصل بريمون كما رجانى، سوف يطمئنه أن مارك أبلغ.

تاتى وجون سعيدان لأنهما رأيانى أبكى. قلت لهم إن صديقنا الكبير مارك سوف يتصرف... بدأت الأخبار. أنظر إلى المذيع دون أن أعير ما يقوله اهتماما. ولكن، فجأة، ها هو يتحدث عن اعتقالات القاهرة! أرى حائطًا، وأشخاصًا أتعرف من بينهم على ممثل التليفزيون الفرنسى فى مصر..." هنا، هم محبوسون يا للهول! لا يجد جون شيئا أفضل من إبداء تعليقات عبيطة!

ارتفعت الطائرة؛ تمر فى السحاب... أبيض وكالندف. أرفض الشمبانيا التى تقدمها لى المضيفة. الآن، مع الغداء سوف أقدم لنفسى كأس نبيذ فاليه. الإشارة المميزة أطفئت؛ يمكننى أن أدخن لا تغادر عيناى الدائرة البيضاء وراء.

بيضاء، لا. إنها لازورد، أزرق باهت. المخبأ مثله مثل الأسئلة التى تجتاحنى؛ حية تعتصرنى بقوة... ما الذى دعا السادات للتصرف هكذا؟ وهذا المبارك، الذى عينه

نائبا لرئيس الجمهورية. ألا يملك أى سلطة؟ أيوافق على هذه الاعتقالات التعسفية؟ هذا القائد السابق للقوات الجوية، أليس لديه كلمة يقولها؟ إننا قليلا ما نراه فى التليفزيون. يقف دائما باحترام على بعد خطوات من الرئيس. أقصر منه قامة، وله أكتاف عريضة ويعلق على وجهه دائما ابتسامة عريضة. خاف السادات من ارتفاع المعارضة... "لا تفكرى فى الغد"، قال لى إسماعيل... والغد تماما فتح أبواب السجون... أسترجع عشاءنا فى المعمورة، عندما تتقابل نظراتنا أنا والسادات واختلاج جفونه. وكأنما يتخيل أننى معجبة به!...! طبعا كان يعتقد أننى أنتمى لهذا النوع من شخصيات البلاط التى تحلق كالفراشات حوله وحول زوجته!... كل شىء بدأ فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣، عندما علم أن الجيش عبر خط بارليف المنيع. أخذنا بثأرنا من ٦٧، معه كنا نطير من الفرحة والزهو. وكلنا، نسينا أنه فى اليوم الثانى للهزيمة لم نأل جهدا لمساندة المجهود الحربى، القوات المسلحة تم إعادة تنظيمها تماما وتابعوا تدريبا مكثفا ومونوا بالأسلحة السوفييتية الأكثر تقدما ورقيا. وها هو، السادات أخذ الانتصار لحسابه، وكان يقدم نفسه وكأنه المبشر واضعا نفسه فوق قاعدة تمثال، وممتلئا بالغرور... أخذ يحكم وحده. كان يقول دائما: "جيشى، أبنائى الأبطال، شعبى. كان... منذ فترة، إنه آخر الفراعنة. لا ينقصه سوى أن يلبس الزى! كان له ذوق واضح للملابس المسرحية، لابسا تبعا للديكور، الجلباب الفلاحى وبدلة المدينة أو الرياضة ببلوفر أبيض لياقته مرتفعة أو أيضا يونى فورم لواء مستوحى من اليونى فورم النازى!

أتعرف مباشرة على موظف المعهد الذى يستمر فى القيام بكل ما يختص برحلات إسماعيل. ابتسامته مفتعلة لا يمكنها أن تمسح ذهول وجهه "حمدا لله على السلامة يا مدام، والدة حضرتك تنتظرك...".

ماما! لماذا! نقبل بعضنا؛ أبذل مجهودا فظيعا لابتلاع دموعى، فهمت ماما أننى على علم بما حدث. أقول لها إن تاتى وجون وريمون يعرفون كل شىء. والدتى

استعادت السكينة، تقول لى إن إنجى سوف تلحق بى فيما بعد كى تنام معى فى منزلى.

"فكرت أنها يجب أن تحضر عشاء... كان هذا هو! كنت مدعوة لدى المستشار الأول للسفارة الفرنسية؛ كلمنى إسماعيل فى باريس حتى يطمئننى. ولكنه اعتقل ثانى يوم... "كنت مدعوة أيضا" أردفت والدتى "سوف تقضى أختك الليلة معك نبهت عَلَى على أن يعد لها سريراً..." متأثرة جدا بمثل هذا الاهتمام، سعيدة أننى سأرى أختى فى المساء نفسه لكى نتحدث... ثم إننى لن أكون وحيدة فى الشقة، الغائب عنها إسماعيل.

ما إن وصلت إلى الدور الحادى عشر، اندفع علىٌّ الذى كان قد سمعنى أدفع باب المصعد، اندفع نحوى باكيا. إننى أمقت هذا النوع من إظهار المشاعر. أوبخه مبتسمة؛ وأطلب منه أن يكون قدوة لى... يساعدنى فى إفراغ حقائبى وتنظيم أشيائى. أريد أن تنام ديدى فى حجرة منظمة. ومنهكة، أجلس فى الفوتيه. "احكِ لى، كل ما تعرفه...".

"كنت قد وصلت فى الثامنة صباحا. وفى لحظة ما كنت آخذ المصعد، أبلغنى البوابون أن العساكر عندنا. كدت أجن!" أضاف خادمنا الوفى. "وفى اللحظة التى وصلت فيها للدور الحادى عشر، التقيت العساكر الذين كانوا يحيطون بالدكتور إسماعيل. سلم على ورجانى أن أبلغ أخاه وأن أسهر على حضرتك..." كانت شفاهه ترتعد؛ وتسيل على خدوده دموع ثقيلة.

"أرجوك يا على! أمسك نفسك! خليك راجل! أنت مش دايما تقول بفخر إنك صعيدى؟ هو ده كل اللى انت عاوز تقوله ليه؟" يهدأ على، ويتمخض. "جاءت بنات مدام ثريا فى الصباح؛ ودخلن مكتب البيه وظللن يعبثن. وظللت أحتج، ولكنهن لم يستمعن إلى. أجبتنى أنهن يردن التأكد من أنه لم يترك أوراقًا تدينه... البوليس فتح المنزل! هل تعتقدين أنهم سوف يعودوا؟". هززت رأسى.

"لا أعتقد يا عادل. وعلى كل الأحوال، فإننى واثقة تماما أن الدكتور إسماعيل ليس لديه شيء يخفيه...". أمّا صغيرات عبيطات! ما الذى يعتقدنه فى عمهن؟ هل نسين أن هناك خبرة مكتسبة خلال كل تلك السنين من الكفاح؟ وعموما فإن العساكر دعبسوا فى كل مكان؛ عندى مثلا. كوم الملفات يبدو متحركا نحو اليمين كما أن الآلة الكاتبة موضوعة بالمقلوب. على مكتبى يوجد كيسان أسودان هدية من سويس إير وروايتان بوليسيتان. علىٌّ الذى يلاحظنى قال: "نعم، يا مدام؛ دخلوا عندك. سامحينى، نسيت أن أضع الآلة مكانها... لقد أمسكوا بأوراقك، لم تكن موضوعة بهذه الطريقة... هذه الأشياء على منضدتك، الدكتور إسماعيل هو الذى وضعها قائلا لى إنها تخصك".

والحقيبة؟ ومع ذلك فقد قال لى إسماعيل فى لندن أن أحتفظ بها معى حتى ٢٤ ديسمبر؛ وكان قد وضعها فى حقيبته. سألت عليا إن لم يكن قد رأى لفافة زرقاء محاطة بشريط حرير. هز رأسه.

"لم أرها. يمكن أن تكون مع أغراض الدكتور. أنا، كنت أضع الغسيل المتسخ فى الصندوق وكنت أساعد الدكتور فى وضع ملابسه فى حجرته..." دق جرس الباب. هذه إنجى أخيرا! جميلة فى فستانها الفيروزى وأنيقة تماما.

"سلام!" نقبل بعضنا "لم أتمكن من الحضور مبكرا، ذلك أن العشاء لم يكن يريد أن ينتهى أبدا. آلان وكريستيان يقبلان..." "تبعتنى إلى حجرة المكتب. قبل كل شيء، تقول أختى وهى تشعل سيجارة "سوف أحكى لك عن عشائى... وكالمعتاد الجو ظريف عندهم. بالطبع، تحدثنا عن الاعتقالات، عن الموقف، ولكن بصوت خفيض" تضحك. "آه! ليان ومايسة كانا هناك، بدون زوجيهما. لطفى فى باريس وميستو فى لندن... ثم لحظة تقديم الحلو، قام آلان واقفا، وفى يده كأس شمبانيا... وطلب منا أن نشرب فى صحة الأصدقاء الغائبين... أصدقاء لم يتمكنوا من "الوجود بيننا". حركة جميلة من ناحيته

أليس كذلك؟ وحينما تركت كريستيان وآلان قالا لى بصوت منخفض إنهم يأملان أن يكون لدينا سريعا أخبارٌ من إسماعيل.

"وقبلى لى بولى". نضحك متأثرين، وأعلم أختى بما حدث فى أيامى الأخيرة فى باريس. هزت إنجى أكتافها حينما حدثتها عن زوجة ظريف. "ماذا تريدين! قلت لها أن تعدنى ألا تبلغى. ذكرتنى ماما إن ضغطك عالٍ، وأنه قد تتعرضين لأزمة إذا عرفت الخبر فجأة.. يالا نامى، اذهبى إلى الحمام قبلى وادخلى فى السرير".

ولأننى كنت منهكة فقد أطعتهم، ولكن ليس قبل أن أتأكد أنه لا ينقصها شىء.

نمت سريعا؛ وأخذت كورس علاج. غدا سوف أرتدى زيى القديم زى زوجة المحبوس... لا أشك أبدا أنه لن يكون هناك شىء شبيه بخبراتى القديمة.

(٦)

نهاية الفرعون

-١-

جاءوا معًا؛ كانوا يعرفون من علىٍّ تاريخ عودتى. صديق وشريك لإسماعيل فى المنتدى، وشاب يعمل سكرتيرًا ومهندسًا مشاركًا لإسماعيل فى الـ CADSAC.

قدمت لهم أختى التى يعرفونها بالاسم، ويعرضون على خدماتهم.

"نحن تحت أمرك، ومستعدون للمساعدة..."

وأعطانى السكرتير ورقة.

"تحدث معى بكل أدب ضابط من مباحث أمن الدولة أمس فى المكتب، وقال لى إن دفتر تليفونات المدام موجود وتحت أمرها. وأعطانى رقم وعنوان مكتبه وعنوانه. ها هم. يمكن أن تستعيديه اليوم فى العصر إذا أردت، وسوف أرافقك...". مندهشة، أقوم وأبحث عن دفتر التليفون، الموجود دائما. توجد بطاقات دعوة ومذكرة مواعيد، ولكن لا يوجد دفتر التليفون! أعود للجلوس إلى جوارهم، أقدم لهم القهوة. ألقى نظرة على الورقة. عنوان المكتب فى الدقى.

"إنه مكتب لم أكن أعرفه!" أنظر إلى إنجى، "مكتب جديد للإضافة إلى مجموعتك...! يهزون رؤوسهم ويبتسمون بحزن. أقول للسكرتير إننى سوف أذهب وحدى إلى المباحث، ولا داعى أن أعطلك. وجوده إلى جوارى قد يسىء إلى.

"إننى معتادة على ذلك، شكرًا! أستطيع أن أتصرف... حدثونى قليلاً عما تعرفونه...".

وبالرغم من ابتساماتهم أشعر أنهم حيارى وقلقون. أعطونى أسماء أشخاص اعتقلوا أعرفهم جيدًا؛ ذكرتهم لى إنجى أمس. فؤاد مرسى، ومحمد الزيات وأخته الدكتورة لطيفة الزيات، وأمينة رشيد وفريدة النقاش وزوجها حسين عبد الرازق، رئيس تحرير الأهالى، وطبيب الأسنان الشهير كمال الإبراشى. وبذلك نكون قد رأينا كل شىء فى الدنيا.

-٢-

أنتقل من مفاجأة لأخرى. يقع مكتب المباحث تقريبًا فى مواجهة فيلا المحامى يحيى الجمل، يمنعنى كوردون أصفر اللون من الدخول؛ ورجال البوليس يجبروننى على النزول من التاكسى. بإصرارى مع رجل البوليس سمح لى بالوصول إلى ديكور حديد. بعد أن أعطيت اسمى أدخلونى سريعًا جدا فى حجرة. اللواء (س) يقوم لكى يحيينى.

"مساء الخير يا مدام، حمدا لله على السلامة من السفر..." قال الضابط وهو يبتسم لى بمودة. "اتفضلى اجلسى" هل أحلم؟ مأخوذة من هذا الاستقبال غير المسبوق تماما من رجال المباحث، جلست. وفورًا، مد يده بالدليل:

"طلب منى الدكتور إسماعيل أن أُعيد لك الدليل بأسرع ما يمكن...". أشكره وأنتهز الفرصة كى أسأله بعض الأسئلة: هل يعرف مكان سجن زوجى؟ وهل من حقى أن أزوره؟

بدأت عيونه السوداء التى تعلوها حواجب كثيفة تتفحصنى لبضعة ثوانٍ. ورفع أكتافه العريضة، استند بها على ظهر الفوتى، وتنهد بعمق ثم أجاب أخيرًا:

"الدكتور إسماعيل فى طرة. ولم نتلق تعليمات بعد فيما يتعلق بموضوع الزيارات، ولكن يمكنك أن ترسلى له فلوساً وملابس (غيارات)...".

أشرت للطرد الموجود فى الأرض عند أقدامى، وأخرجت دفتر الشيكات من حقيبتى وشرحت له، نصحنى أن أذهب غداً منذ الصباح إلى طرة، وأن أتوجه مباشرةً إلى المدير من أجل الشيك، وأن أسلم الطرد هناك. شكرته وأنا أقول له: إننى لا أفهم أسباب الاعتقال. إسماعيل رجل ثقافة، وأعماله للمنظمات الدولية لها تقدير عالٍ جدا؛ وأعضاء هذه المنظمات مصدومون من هذا الاعتقال. إسماعيل رجل وطنى يشرف بلده... لا أعرف ماذا اعترانى: لماذا قلت كل هذا؟ استمع إلىَّ فى صمت، ثم، وهو يهز رأسه الكبير، قال: "أعرف، أعرف الدكتور إسماعيل شخصية مشهورة جدا..." قطعت فجأة تدفقى، والدموع فى عينى. نهضت والطرد فى يدى. دفع اللواء الكرسى بصوت عالٍ، وقام ومد يده عبر المكتب كى يصافحنى.

"إلى اللقاء يا مدام، ربنا معاك!..." لا يمكن أن أصدق! تركته، وتمشيت نحو الشارع الواسع الذى يتقاطع مع الشارع كثير العبور الذى توجد به المباحث. ولمرة فى العمر تركنى سائق التاكسى أركب دون أن يضع شروطاً. أفكر فى هذا الضابط، وفى سلوكه معى. مختلف تماما عمن عرفتهم فى الماضى. لدى انطباع أكيد أنه لا يوافق على اعتقال زوجى... لا تعيشى فى الأوهام يا عزيزتى... سوف نرى، غداً، كيف سوف تكون زيارتى فى طرة. غريبة أيضا، إنه لم ير اللفافة الزرقاء، هل أخذها لنفسه؟ أو لأحد من الآخرين؟ لكن ما يقوينى ويسعدنى، هو موقف عز. أولاً هو الذى اتصل بى، مساء أمس. ثم بعد أن نصحنى نصائح كثيرة، قال إنه يبحث عن محامٍ، وأصر أيضا على أنه سيتولى كل شىء! وطلب منى أن أكون صبورة وشجاعة!...

الساعة السابعة وخمسة عشر دقيقة. جالسين أمام التليفزيون المفتوح الذى خفضت إنجى صوته، تسمع بالكاد صوت المغنى.. وعشاؤنا الخفيف موضوع على المكتب الكبير.

"لقد رتبت كل شيء حتى لا نتعطل... حتى نشرب كلماته!...". وأضافت متنهدة: "ربنا يستر!...".

"هس! ما هذا! علّت إنجي الصوت. نسمع المذيع وهو يعلن بصوتٍ مسرحي مزين بالمديح دخول رئيس الجمهورية للمشهد! جالسًا أمام مكتبه. أدهشني تغير سحنته ووجهه الذى أصبح نحيفًا، وخدوده البارزة... وندرك مثل آلاف المشاهدين أن وجه الرجل الذى يتوجه لنا، نحن "شعبه" فى عملية مستمرة من التحلل مع كل ارتفاع لصوته ولهجته. زبد أبيض يتكون فى أركان شفاهه بينما هو يزعق، الرجل الذى أمامنا فى حالة غيظ شديد! نراه ونحن مذهولون، وهو يضرب بقبضته على المكتب، ويرفع صوته أعلى فأعلى، وتصبح لهجته حادة. حتى ماما التى تفهم اللغة العربية بدرجة أقل منى، لا تفتح فمها؛ هى مذهولة، ونظرتها مثبتة على هذا الشخص الذى يتحرك محمومًا أمامها.

"مخربون! خائنون!.." يجأر السادات، ويهز الأوراق لكى يرينا إياها.

"لدى أدلة دامغة على خيانتهم". بعض الكلمات تضيع منى، ثم "هؤلاء الباشوات الذين يظنون أنفسهم فى زمن لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت!" وتزييف، للمسكين فؤاد سراج الدين! أخذتنا نوبة ضحك- إنجى وأنا- وماما تتعجب: "لقد أصبح مخبولاً تمامًا. وكأنه كلبٌ مسعورٌ!".

وهذا كان للأسف صحيحًا، والآن لا بد لنا أن نتلقى قاموسًا طويلاً من "الرطيط" الموجه للأشخاص الذين اعتقلهم. إنجى وأنا منسحقتان أمام الاحتمالات المظلمة التى تبدو لنا.

والمخبول، ما زال ممسكًا بالأوراق، يعلن أنَّ لديه قائمةً طويلةً بأسماء الأشخاص الذين سينتظرون ليعرفوا من أكون. اختفى من على الشاشة ليترك مكانه لبنات حلوة مبتسمة، يغسلن أسنانهن بمعجون كولجيت ويتعطرن بلذة بعطر أنابيس. "ينذرنا إذن

بأنَّه سوف يرينا أدلة الخيانة..." تقول إنجى، وتقدم لنا الشراب فى صمت. وجالسات نحن الثلاثة وكاساتنا فى أيدينا، كنا نستعد للتحدث حينما ظهر مذيع. يعلن أن بوليس أمن الدولة تتبع "منفذى المؤامرة"، وأن أحد ضباطه تمكن من تصوير تحركاتهم والوقائع:

"هذا الفيلم أعزائى المشاهدين لهو الدليل الدامغ على جريمتهم!". لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من القلق. يا ترى ماذا ألفوا؟... فيلمًا أبيض وأسود... ثوانٍ الصورة "فلو" واستعاد المذيع شرحه "يمكنكم أن تروا هنا أيها السيدات والسادة كيف تمت الاتصالات السرية بين محمد الزيات وفؤاد مرسى والسفير السوفييتى!".

"لم يقل السفير السوفييتى! مسكين بلياكوف! وفوق البيع نحن لا نرى شيئًا!" الفيلم سيئ جدا على أرضية غامضة، رمادية، تتحرك خلاله هيئات يمكن أن تكون لأى أشخاص.

نفتح عيوننا قدر استطاعتنا، ولكن دون جدوى؛ من المستحيل أن نتعرف على أحد من أصدقائنا. نتأكد بثقة أننا نشاهد عملية تزوير حزينة... تظهر هيئة رجل يخرج من مستطيل داكن يمكن أن يكون سيارة. الهيئة، الشبح بالأحرى، يتقدم نحو ما يبدو أنه باب مفتوح، لكى يختفى داخل كتلة داكنة تكون حسب المذيع هى السيارة السوفييتية.

"نحن لا نرى شيئًا" تقول ماما "ما هذا؟".

ينبهنا المذيع أنَّنا يمكن أن نرى الآن لقاءً تم فى القهوة الشهيرة "فلفلة" ودائمًا فى الضباب يمكننا أن نميز شكل مناضد صغيرة فارغة. ناحية اليمين قليلاً شبحان يجلسان على منضدة.

تبعًا للمذيع الذى يبدو أنه يتمتع بقوة إبصار ثاقبة، هذان الشبحان هما فؤاد مرسى ودبلوماسى سوفييتى. النهاية! كوميديا تعيسة. هذا الفيلم الدليل (القرينة) لن يقنع أحداً.

-٣-

إنه فى سيارة أحمد بن عز، التي تعرفت على طرة.

ابن شقيقتنا هو الآن شاب كبير يدرس القانون. أصر على اصطحابى. فى الطريق، تحدثنا بمرح؛ وأثرت ضحكات أحمد عندما حكيت له بعض ذكريات الشباب. أدفع الخوف قدر ما أستطيع. كل شيء يبدأ من جديد، ولكنه مختلف... هذه الجملة الأخيرة تذكرنى... بماذا؟ أغنية لبريفير؟ حتى مساء أمس كان سلوك ذلك الضابط ودوداً ومهذباً... حينما أستحضره، ينتابنى شعور غير محدد... وكأن صوتاً يهمس فى أذنى: الأمر مختلف. شيء ما تغير. لو لم تكن كلمات السادات المغتاظة! لم يترك مكاناً للأمل.

توقف أحمد أمام عامود ألوانه حائلة ومكتوب عليه باللغة العربية والإنجليزية طرة. أحد عساكر الخدمة أشار لنا أن نمر، ولما قال له أحمد إننا نريد أن نرى المدى "ادخلوا، إنه طوالى حتى القرية، على يساركم...".

طريق سيئ السفلتة، ترابى. عساكر تحمى مدخلاً ما يبدو أنه القرية. سوف أعرف أن طرة تجمع "عقابى مون" من أربعة سجون وبيوت متواضعة، حيث يسكن السجانون وعائلاتهم.

"لا أعتقد أن المدير هنا. ولكن حاولى مع ذلك..." أشار الضابط بإصبعه للاتجاه الذى يجب علينا اتخاذه، "لكن طنط بولي، هؤلاء الضباط لطاف!.." وأنا أكثر اندهاشاً منه.

من كل ناحية من الشارع غير المسفلت ترتفع بيوت ذات طابقين، وأشجار متربة الأوراق ومبانٍ وجدران مرتفعة! اكتشفت أن المبانى لها مكتب بريد وجمعية تعاونية وبقالة يأخذ كل سكان طرة تموينهم منها.

فجاءة يقف بالقرب مبنى طويل وعريض لونه أصفر متسخ ونوافذه بها حديد. أوقف أحمد السيارة فى الظل الشحيح لشجرة كبيرة أوراقها كلها صفراء، هى أيضا.

"انتظرنى هنا، أفضل مقابلة المدير وحدى".

وبالرغم من اعتراض ابن أختى فإننى حاملة الطرد قدمت نفسى للجنود الواقفين، وما إن قلت لهم إن المدير ينتظرنى، حتى دخل جندى إلى الداخل وخرج ونادانى. جندى آخر دق على الباب وأدخلنى. اعترانى شعور الـ"ديجا فو". ودوداً، أشار لى المدير أن أجلس.

"ماذا يمكننى أن أقدم لك يا سيدتى؟" أنصت باهتمام لطلباتى. حقيبة إسماعيل التى اختفت، مرتبات العاملين، وفى الوقت نفسه أخرج دفتر الشيكات عازمة على إعطائه له. أبعده بهدوء:

"انتظرى! سوف نرى ما يمكن عمله..." يبتسم ابتسامة خفيفة عندما أطلب منه أن أرى زوجى وهو يمضى الشيك... يمسك بسماعة التليفون ويظل يتحدث. يرجونى أن أنتظر قليلاً وينغمس فى قراءة بعض الوثائق الموضوعة أمامه.

بعد ربع ساعة دخل جندى، وطلب منى أن أتبعه. أشكر المدير وأتركه. نخرج من السجن الذى ينزل بابه الثقيل وراءنا. العسكرى يقدم نفسه لى على أنه "كاتب"[(٢٠)] السجن ويسألنى إن كان لدى سيارة. أقول: نعم. وأتوجه نحو الفيات الحمراء التى ينتظرنى فيها أحمد وهو يفتح عيونه عن آخرها. الكاتب يحيى أحمد ويجلس بجواره. أجلس فى الخلف إذن وأنصت. الكاتب يحدد لأحمد الطريق. ونحن مندهشون من هيئة

---

(٢٠) scribe.

الواثق من نفسه التى عليها هذا الشخص. نعبر شارعًا آخر يمر من بين غيطان برسيم وخضروات، "هل أنتم أقارب؟" سأل الكاتب وهو يلتفت نحو أحمد، الذى يرد بجفاء: "ابن أختها...".

عندئذ لمحنا مبنى أصفر آخر، سجنًا آخر.

"إنه هنا، انتظرونى". نتابع بعيوننا الكاتب الذى يتحدث إلى الحرس كشخص فى غاية الأهمية، ويندس إلى الداخل ما إن يفتح له الباب. حولنا لا يوجد سوى الجدران، وشجرة كبيرة أوراقها جافة ونادرة لدرجة أننا يمكننا أن نعدها. نحن فى أرض فسيحة غامضة:

"غريب أمر هذا الكاتب"، وأشعل أحمد سيجارته وسيجارتي. "تفتكرى يا طنط بولى إنهم سيسمحون لك أن ترى آميكو (أحمد وأخته أمينة ينادون عمهم بهذا الاسم منذ نعومة أظافرهم).

"لا يوجد لدى هذا الانطباع. ولكن عمومًا يا أحمد فإننى لم أحظ بمثل هذا الاستقبال من قبل. منذ الأمس، لا أكف عن الاندهاش من أدب كل أولئك العسكر وودهم... علَّ هذا يدوم!...

ولكن ما هذا؟ انفتح الباب على ضابط يدعونى للاقتراب، نزلت من السيارة سريعًا، جئت نحوه، والطرد يخبط فى سيقانى. تصافحنا. والضابط الذى يمتلئ صدره بكمية كبيرة من النياشين يبتسم:

"زوجك صحته جيدة جداً؛ وهو يسلم عليك ويرسل إليك سلسلة المفاتيح هذه ودفترى الشيكات اللذين وقعهما... الدكتور إسماعيل استغرق فى الضحك وهو يسلم لى سلسلة المفاتيح. أما بالنسبة للحقيبة فإنه لا يعرف عنها شيئًا..." وعيونى مغيمة بالدموع، أفتح الدفاتر. أتعرف على توقيعه على كل صفحة من كل دفتر. ذلك الذى بالعملة المصرية الذى لم أكن أجده. كنت قد نسيت إنه دائما تقريبا ما يحملة معه.

ووقع شيك بألف جنيه باسمي! مبلغ كبير! رفعت رأسي، وطلبت من الضابط إن كان يمكنني أن أراه. هز رأسه، وابتسم ثانية:

"ليس في اللحظة الراهنة، نحن ننتظر التعليمات الجديدة. ولكن اطمئني، الدكتور إسماعيل صحته جيدة. أعطني الطرد سوف أسلمه له... إلى اللقاء...".

سوف أعود كثيراً إلى طرة. الطرود فُتش وقُبل. عز وأنا اتفقنا على اختيار يحيى الجمل محاميا.

مسكين يحيى! أطلبه يوميا تقريبًا، وأبرمه حتى يتحرك. ويتحمل خناقاتي معه بصبر متناهٍ. وإن كانت الأشياء التي نرسلها تصل للمحبوسين فإننا لم يصرح لنا برؤيتهم بعد.

تتابعت الأيام والليالي مع ما تحمله من أنباء وأفراح صغيرة. مثل مكالمات ريمون وجابي التليفونية. ومارك الذي يتصل بي كل خمسة أيام. لقد أخطر شخصيات العالم كله. وجمله الصديقة والمنطوقة بصوت هادئ وموزون تعيد إلى الثقة.

ووجود حسن. لقد اتصل بي ما إن عاد من المغرب، وأمضى أكثر من أسبوع عندي. وجود شعاع شمس في التتابع الأسود للأيام. حس الفكاهة الذي لا يتخلى عنه، والرعاية التي يحيطني بها تغدقني. يوصلني إلى كل مكان بسيارتي. مشتروات لأنكل إسماعيل، زيارات شبه يومية لماما ليقابل طنط إنجي ويتحدث معها. ابن أختنا المضطرب باعتقال إسماعيل يشبعنا أسئلة.

علمنا أنه سوف تكون هناك قضية كبيرة يقودها "المدعي الاشتراكي" وظيفة جديدة اخترعها السادات. هذه الشخصية الغامضة من وظيفتها الحكم على النصابين والمتطرفين والأشخاص السيئين الآخرين! يجب أن أعترف أنني لم أفهم قط هذه المهام... وسوف تستمر القضية حتى أبريل!... نحن لسنا سوى في بداية أكتوبر. أبريل يعني حتى المرحلة الثانية من المفاوضات المصرية- الإسرائيلية، تلك المفاوضات التي

سوف تعيد لمصر الجزء الثانى من سيناء... اختراع أسباب جديدة لإطالة الحبس. حسب الإشاعات العقوبات التى سوف تطبق على المتهمين الذين يريد السادات إعطاءهم "درساً" سوف تقتصر على حرمانهم من حقوق المواطنة، ومصادرة ممتلكاتهم! (ليس لدى انطباع أن المتهمين فى هذه القضية لديهم أملاك قابلة للمصادرة! على أى الأحوال ليس لدى زوجى بالتأكيد!) من بين نسخ التلغرافات التى أرسلها مارك أجد أيضا كراسات الـ FIPAD وتتضمن إحداها مقالاً طويلاً عن إسماعيل مصحوباً بصورة لإسماعيل التقطتها جريدة الأهرام سنة ١٩٦٨. بدعوة من حسنين هيكل، زار عبد الناصر المبنى الجديد للجريدة الكبيرة. بعد جولته اجتمع ناصر مع مجموعة من الصحفيين اليساريين والباحثين أغلبهم كان قد قام بحبسهم!

فى صورة من الصور المأخوذة فى هذا اليوم، يجلس إسماعيل بين ناصر والسادات. منذ عام فقط نزع إسماعيل هذه الصورة من الألبوم لكى يعطيها لمارك. وقال لى وهو يضحك: "لن نعرف أبداً ما تخبئه لنا الأيام!".

ووصلنى أيضا مظروف سميك، يتضمن وثيقة تضامن مع إسماعيل حررها مارك، طالباً الإفراج الفورى عنه. وقد وقع عليها أغلب المشاركين غير الحكوميين المجتمعين فى كنكام Cancum.

يقترب عيد النصر. والاحتفالات المزمع إقامتها بمناسبة ٦ أكتوبر سوف تكون خلال أسبوع. جلسات المحاكمة تأجلت.

وزير زراعة سابق محبوس فى طرة تعرض لأزمة قلبية. ارتعبنا. ماذا لو لم تكن ظروف الحبس مطمئنة كما يريدوننا أن نظن؟

الخامس من أكتوبر. طلبنى يحيى. يبلغنى أنه قد سمح بالزيارة ابتداء من الأربعاء ٧ أكتوبر، ويوم الوقفة وأيام عيد الأضحى التالية. أصرخ من الفرحة.

أطلب على التوالى عزاً وثريا، نتبادل متعة تحضير الطرود، عز سوف يأتى ليصطحبنا فى سيارته منذ السابعة والنصف صباحًا.

فى اليوم نفسه سلمنى ساعى البريد مظروفًا ثقيلاً مرسلاً من "نيون" وفى قمة الفرح الشديد أفتح المظروف. كان مارك قد أرسل لى نسخًا من تلغرفات جديدة تملؤنى زهواً وانفعالاً. الحملة الدولية للإفراج عن إسماعيل تستمر. وأنا متأكدة أن هذه الحملة سوف تساعد فى توضيح عبثية الموقف... ويمكن أيضا أن تسرع بالإفراج عنه. أقرأ أحد النصوص التى حررها مارك والدموع فى عينى "أحد المثقفين المتميزين الأكثر تأثيراً فى العالم العربى والعالم الثالث".

-٤-

٦ أكتوبر. الثلاثاء. هذا الصباح للمرة الأولى منذ شهر، أصحو مبتسمة؛ يوم وليلة أخرى سأقضيها.

غداً... يجب أن أملأ بأفضل ما يكون يوم الانتظار الطويل هذا. أريده أن يمر سريعًا... سوف تأتى سيزا لتناول القهوة معى.

سوف أذهب إلى الكوافير وأعود بكل عقل إلى المنزل لأحضر الطرد مع علىّ. إنه يتحرك متوتراً فى المطبخ؛ رؤية وجهه المبتسم تفرح.

اليوم يمر سريعاً بفضل الوجود الدافئ لسيزا. تحدثنا عن أشياء مختلفة، ولكن كما يحدث مع كل من أقابلهم منذ الاعتقال، لم نستطع أن نمنع أنفسنا من مناقشة الموقف. يبدو أن... فلان قال لى إن... سيزا أستاذة أدب فى الجامعة الأمريكية؛ كثير من زملائها فى السجن. وهى ثائرة على هذه الإجراءات التعسفية، ثائرة ضد هذا الجنون الذى استولى على الرئيس. لم تعترف لى، ولكننى أشعر بها قلقة، ذلك لأن

الاعتقالات مستمرة. ولا أحد يستطيع أن يفسر ماذا يحدث، ولا ماذا يخبئ لنا المستقبل.

تحيط بالبلاد عباءة ثقيلة وغير منظورة من القلق. نحصى ١٥٣٦ شخصاً تم اعتقالهم منذ الأيام الأولى من سبتمبر، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. سيدات وقادة دينيون مسلمون ومسيحيون، مثل عمر التلمسانى والبابا شنودة، اثنا عشر وزيراً سابقًا، وأساتذة جامعة وأطباء وصحفيون وطلبة. أعمارهم تتراوح ما بين ١٦ و٨٠ عاماً.

كانوا يعارضون علنًا السياسة الداخلية والخارجية!

منذ أعلن السادات عن الاعتقالات فى مجلس الشعب وفى التليفزيون، عاد المصريون للاستماع إليه من جديد، بما فيهم أولئك الأشخاص مثلى ومثل سيزا الذين كنا فى السابق نطفئ أجهزتنا حينما يتحدث. كنا قد سئمنا جميعًا سماع خطبه الطويلة جدا، غير المترابطة والمتكررة وعديمة الأهمية. معجباً بذاته، ومستعداً للتصوير يدعو المصورين أن يأخذوا له أفلامًا. دعوت سيزا لملاحظة أن شخصه قد شغل الشاشة الصغيرة لمدة أسبوع منذ اليوم التالى لعودتى.

وواقفًا موقفًا دفاعيا، حاول أن يفسر متعثرا فى جمل غامضة تتردد فيها كثيراً كلمة ديمقراطية. وهى كلمة لم يعرف معناها قط. وصفت لصديقتى التى كانت ما زالت فى سويسرا المشهد المؤلم وكم كان مقلقًا رؤية هذا الرجل الموتور يتخبط مطلقًا أنواعًا من السباب موجهة لشخصيات تحظى بتقدير واحترام كبيرين فى مصر وكذلك فى الخارج.

يفخر بنفسه أنه رماهم فى السجن "مثل الكلاب".

"ما هذا؟" قالت سيزا وهى تقوم. "يجب أن أعود للمنزل، الساعة أصبحت الواحدة الآن! أتمنى أن تكون الزيارة طيبة.... قبلى إسماعيل بالنيابة عنى. سوف أتصل بك بعد غد لأعرف أخبارك...".

انتهيت من الغداء، وأستعد للخروج حينما يدق جرس التليفون.

"آلو بولى؟ هل تعرفين الخبر؟ كم يبدو صوت ماما سعيداً ومليئًا بالحماس!" يبدو أنه حدث اغتيال... الرئيس ووزير الحربية، يبدو أنهم مصابون إصابات خطيرة..." منذ أن قبض على صهرها وماما تكره السادات.

ليس لديها أية تفاصيل. عرفت الخبر من إحدى صديقاتها الثلاث اللاتى كن سوف تأتين عندها للعب الكانستا. لقد اعتذرن، وفضلن المكوث فى منازلهن، كن خائفات. مم يا رب؟

"ألم تشاهدى التليفزيون؟ أفهمت ماما أننى ذاهبة إلى الكوافير، وأننى سوف أتصل بها فى المساء.

وضعت السماعة. كنت فى حاجة إلى بضع ثوانٍ لكى أتحقق من ضخامة الذى عرفته الآن... متى وكيف حدث ذلك؟... ولحظتها فقط تذكرت!

إننا اليوم ٦ أكتوبر! لقد تجرؤوا وأطلقوا عليه الرصاص!... وأثناء العرض العسكرى! اعترانى حماس، مختلف عن الذى سكننى عند الاستيقاظ. أنادى على علىٍّ وأنا أصرخ تقريبًا؛ أبلغه بموضوع الاغتيال؛ فتح عينه عن آخرها، وابتسامة كبيرة تضىء وجهه.

"غير معقول! الحمد لله! ثم أضاف آسفًا: ألم يمت؟.

دون أن ينتظر ردى، أسرع يفتح التليفزيون والراديو القديم الخاص به. هكذا يمكنه أن يبلغنى بالأنباء عند عودتى. أما الآن، فإن المارشات العسكرية تهز الشقة. أتركه وآخذ المصعد.

أندم الآن على أننى لم أفتح التليفزيون. أنا لا أفتحه أبدا فى الصباح؛ لدىَّ أشياء كثيرة يمكننى أن أقوم بها أفضل من مشاهدة عرض عسكرى. خاصة إذا كان للاحتفال بانتصار ٧٣. منذ زمن بعيد وَهَنَ زهونا المشروع من كثرة سماعنا لعظات الرئيس ومديحه الطنان وتذكيره المفرط؛ لأنه كثير جدا لأمجاد القوات المسلحة؛ ولتمجيد أولئك الذين سقطوا لكى ينتزعوا هذا النصر من العدو الإسرائيلى والذين تمت خيانتهم بالسفر إلى إسرائيل وباتفاقيات كامب ديفيد.

وهكذا لقد جرؤوا على أن يغتالوه. أخيراً! من؟ غالبًا أحد العسكريين أو أكثر من واحد، ما دام قد حدث أثناء العرض العسكرى الذى كان يشاهده بصحبة أعضاء الحكومة ورجال النظام، ورجال السلك الدبلوماسى الأجنبى.

والقول بأننى ضيعت هذا المشهد! كيف طاشت محاولتهم؟ كم كان عددهم؟ ماذا سوف يحدث لو نجا؟

إن غيظه لن يكون له حدود؛ سوف يكون لديه سبب إضافى لتطبيق تدابير قهر جديدة. ألم يصرح مؤخراً أنه سوف يقوم بشنق من تسول له نفسه معارضته فى ميدان عام؟ أهو انقلاب؟ أمن الحكمة الخروج؟

يشمر البوابون جلاليبهم فوق الركبة وينظفون السلم بمياه غزيرة. يحيوننى مبتسمين؛ يبدو أنهم ليسوا على علم بشىء. استقبلنى شارع ابن مالك الصغير بهدوء. وعلى كوبرى الجامعة المرور كثيف كالمعتاد، والضوضاء أيضا كالمعتاد.

أتقدم نحو شارع الجيزة الكبير، وأقف فى ظل شجرة يوكاليبتوس بديعة وأنتظر تاكسى. أيتوجب علىَّ أن أتمنى موته؟ هل هو انقلاب دبره المتطرفون المسلمون؟ الشارع الكبير ما زال مستمراً فى الحركة. لا يوجد شىء غير معتاد على وجوه المشاة ورجال البوليس... لا أشعر بأى خجل من تمنى موته. أوه نعم! يكفى! لا نريد هذا الرجل الذى أوصل البلاد إلى الخراب. لقد سئمنا من سبابه الغاضب، من قلة الكرامة لديه، من حفلاته التنكرية... لا يجب أن نستبق الأحداث... يجب أن ننتظر البقية، ونفكر فى الغد فقط... على ألا تلغى الزيارات!

يتوقف تاكسى أخيراً ويوافق على الذهاب إلى شارع فينى. نحن نسكن على بعد ثلاثمائة متر من فيلا الرئيس.

ولكى أذهب إلى كوافيرى لا بد أن أمر أمامها. ولكن اليوم توجد متاريس من الحديد وضباط ورجال بوليس كثيرون يجبروننا على الالتفاف. إنه حقيقى إذن! ترتفع عصبيتى، ويدق قلبى بشدة. يعترينى شعور بضيق وخوف... ألاحظ باهتمام ما حولى، أتفحص الوجوه التى مررت بينها لحظة، وركاب الأتوبيس، المتلاصقين ببعضهم سواء أكانوا جالسين أو واقفين. لا شىء! إنهم لا يعرفون شيئا بعد، كل شىء كالمعتاد. ماذا يخبئ لنا المستقبل؟ زوجى، وبلدى أيضا... كيف سيتصرف المصريون حينما يعرفون؟

همهم السائق مستاء لاضطراره للقيام بهذا الالتفاف:

"ماذا أيضا؟ لماذا كل هؤلاء العساكر؟ العرض العسكرى انتهى منذ زمن. وعلى أى الأحوال، فإن الرئيس لا ينتقل إلا بالطائرة!..."

ألاحظ أنه ليس لديه راديو:

"أنت لست على علم إذن؟ أحكى له ما أعرف. يتنهد بعمق واكتفى بأن قال: "ربنا كبير!".

وكالمعتاد، فى ليلة العيد، تزدحم حجرتًا محل الكوافير. ولكن اليوم تظهر السيدات سحنًا خطيرة. ومصطفى وكأنما وقعت عليه مصيبة؛ ولا يدهشنى ذلك لأن مصطفى من النادرين الذين أعرفهم الذى يكن للسادات إعجابًا شديدًا! الكثير من زبوناته متزوجات من شخصيات مهمة من رجال النظام. ألاحظ إحداهن، يقوم كوافيرى بعمل "كو دى بانى" لها؛ عيونها وأنفها أحمران.

أتون قد بكت؟ أتشعر بشعور ما نحو السادات أم أنها تخشى أن يفقد زوجها منصبه بوصفه وزيرًا. سوف تكون المرة الوحيدة بعد الاغتيال التى سأجد نفسى فى جو من المأساة والحزن. لا بد أن أكون الوحيدة هنا التى أريد أن أضحك وأنا أرى سحن هؤلاء السيدات، رغم تخوفى على المصير المنتظر للمعتقلين السياسيين. أحتفظ بجديتى وأنتظر دورى وأسترق السمع للحوارات المتبادلة حولى. تمسك سيدة رأسها تحت السيشوار براديو ترانزيستور تلصقه بأذنها. من حواجبها المعقودة وهيئتها المتقززة، نتوقع أنها تتابع تقريرًا إخباريا.

عيوننا موجهة نحو السيدة، ننتظر بنفاذ صبر أن تعيد علينا ما سمعته. بعد أن تتنهد بعمق يرتفع صدرها الضخم، تقول لنا إن الرئيس نقل بطائرة هليكوبتر إلى المستشفى العسكرى بالمعادى، وإنه فى العناية المركزة، وإن زوجته معه... هذا كل شىء. تنهدات مستسلمة، وآسفة بمصاحبة "ربنا معاها... ربنا كبير... ربنا يحفظنا..." أصوات مجففات الشعر استؤنفت، ولكن يمكننى أن أسمع حديث سيدتين جالستين بجوارى. كانا قد فتحا التليفزيون منذ الساعة العاشرة، ورأيا بداية العرض العسكرى، وصول الرئيس والضيوف..." ولكننى لم أكن ساكنة، كنت أتابع عمل الشغالة. شىء فظيع لو تعلمين، لا تستطيع أن تقوم بشىء. ولا تنظيف ولا مطبخ! أمضيت الوقت ما بين المطبخ وحجرة المعيشة حتى ألقى نظرة على التليفزيون...".

"نعم" قالت الأخرى بلهجة أسف. "ذلك أفضل من ألا يكون لدينا شغالة بالمرة. إذن لم ترى شيئًا مثلى". لم تشاهد أيهما محاولة الاغتيال. "يبدو أنهم أطلقوا النار على

المنصة فى لحظة مرور الطائرات نفسها! أتدركين! لو أننى علمت!" لقد سمعوا فقط أزيز الطائرات وفرقعات الموتوسيكلات!

"وحينما عدت لحجرة المعيشة، كانت الشاشة فارغة. أغلقت التليفزيون...".

ولكن العرض يستمر طويلاً! أنا، عندما رأيت الشاشة فارغة، ظننت أنه عطل ميكانيكى فى التليفزيون...".

وصلت زبونة جديدة وحيت بصوت المناسبات الحزينة، وترتمى فى الفوتي وتقول بشكل منهك إنها رأت كل شىء. وفى التو توقفت المجففات والأحاديث. يتعلق كل من الكوافيرات وعاملات تقليم الأظافر والصبيان بأطراف شفاهها "كان الرئيس وكل ضيوفه يرفعون رؤوسهم لكى يروا الطائرات. فجأة صوت الموتوسيكلات والدخان وتوقف الإرسال... كنت مزعورة" قالت الزبونة التى رأت كل شىء. "تساءلت ماذا حدث، وهل أطلقوا النار على الرئيس. كان هناك سيارة مصفحة متوقفة فى المقدمة... معطلة، أعتقد. انتظرت تقريبا ربع ساعة أمام الشاشة الفارغة. ثم ظهر المذيع. وأعلن أن هناك محاولة اغتيال وأن الرئيس وأشخاصاً آخرين قد أصيبوا...".

لم أعد أنصت؛ إنه دائما الشىء نفسه، وهاجمتنى طائفة من الأسئلة. لم تقل السيدة إذا ما كان مصاباً بجرح خطير.

هل سيموت؟ متى سنعرف؟ ليس قبل أن تضبط السلطات الموقف... لا يبدو أن هناك اضطرابات.

الراديو والتليفزيون مستمران فى البث. لو أنه كان قلباً لنظام الحكم فإن القائمين عليه كانوا سيستولون على مبنى الإذاعة والتليفزيون. أضيع فى الترابطات. وعلى أى الأحوال فإن رضاى كبير وكذلك خوفى من الغد.

أشعر باحتياج جنونى للتحدث مع أحد... لدى باقى العصرية، ومساء طويل أمامى... ولو أننى مررت على ليليان؟ إنها تسكن على بعد خطوتين من هنا. أرجو أن

تكون فى منزلها! ليليان مهمومة بالحدث مثلى تماما؛ لطفى فى باريس؛ ويتفادى العودة...

"حسنًا فعلت بالمجيء. تعرفين الأخبار طبعا، اجلسى سوف تتناولين فنجان شاى معنا...".

أقبل دينا التى وقفت، وصديقتنا إنجى رشدى، جارة آل خولى فى الدور نفسه. نتحدث ملقين نظرة من حين لآخر نحو التليفزيون. وعلى المنضدة المنخفضة يوجد جهازان ترانزستور مفتوحان. تحاول دينا أن تلتقط البى بى سى من أحد الجهازين ومونت كارلو من الآخر. الساعة الرابعة والنصف. ما زال لا شىء جديد. أصيب أشخاص كثيرون مع رئيس الجمهورية ووزير الحربية... نحو الساعة الخامسة، يعلن المذيع أن زوجة الرئيس عادت إلى منزلها. نشعر بالدهشة. هل من الممكن أن تترك زوجها لو كان حيا؟ البيانات الأخيرة تؤكد أنه كان فى حالة حرجة. ومع ذلك فإن القناة الأولى مستمرة فى المارشات العسكرية والأناشيد الوطنية. على القناة الثانية يتقاتل رعاة البقر. فيلم ويسترن (من الغرب الأمريكى) ! الوقت تأخر. يجب أن أعود للمنزل. وليليان خدومة كعادتها قررت أن توصلنى حتى أتفادى انتظار تاكسى.

"أريد ان أعرف موقف الناس فى الشارع...".

تقود ليليان ببطء؛ وتنظر كل منا حولها خلال السير. الشوارع وميدان الجامعة الكبير مزدحمان بالسيارات والمشاة كالمعتاد فى هذه الساعة.

لا يوجد شىء غير عادى. لا يوجد تجمهر... المعتاد... عدم الاكتراث.

إنه فقط فى حوالى الساعة السادسة والنصف الذى قطع كل من الراديو والتليفزيون إرسالهما. علىٌّ انتهى من كل شىء؛ إنه يرتب المطبخ، وكله آذان. والراديو موضوع إلى جواره.

أجلس أمام تليفزيوننا الكبير، شاشته ما زالت سوداء. قلبى يدق بشدة ويداى مثلجتان. أخيراً ظهر شيخ على الشاشة وبدأ يقرأ سورة من القرآن!

"هل تسمعين، يا مدام؟ السادات مات! إنها صلاة الجنازة!" كنت قد تعرفت بالطبع على بعض الجمل... استند على إطار الباب ووجهه ملفوت نحو الشاشة.

ننتظر نهاية هذه الصلاة الحزينة. أخيراً، تبعه مذيع وجهه خطير، وأعلن وفاة رئيس الجمهورية وإعلان حالة الطوارئ! لماذا حالة الطوارئ؟ إنها لم تُلْغَ قط؛ كم من المرات اعترض أعضاء مجلس الشعب لطلب إلغائها.

كنت أتوقع هذا الخبر، ومع ذلك فإننى مندهشة. صلاة الموتى ترن فى أذنى ما زالت. مات الرئيس، اختفى؟

لن تستمع بعد ذلك إلى اسمه الذى كان يقرنه بصفة "المؤمن".

لن نتحدث عنه سوى فى الماضى! ومع ذلك فإن هذا حقيقى. هذا الشخص الذى لا نشعر نحوه سوى بالاحتقار لأنه خان مصر، وأذل شعبها، وسود وجهها وخرب اقتصادها، هذا الشخص مات! انتهت الخطب التى ليس لها آخر، والنتريات، والوعود التى لا يلتزم بها أبدا، والأكاذيب. هذا الشخص المدعى، الفاسد، الأراجوز الذى احتفظ بالنجومية لمدة ١١ عاماً، هذا الشخص تم إسقاطه كما فى لعبة البولنج، فى وسط استعراض كبير للقوى العسكرية؛ كان قد مات فى زى الماريشال الجديد. زى آخر من أزياء الأبهة التى كان مولعًا بها.

أنا متأكدة الآن أننى لن أرى إسماعيل غداً. لا بد أنهم سوف يمنعون الزيارة... مين عارف؟ سوف أجرب حظى. ينصحنى علىٌّ بالذهاب إلى طرة. أشار إلى الطرد الكبير؛ سوف أتمكن من حمله بسهولة. وسوف يأتى إلى مبكرا غداً فى السابعة صباحاً.

"موضوع الخروج غير وارد" قال عز الذى اتصلت به." لقد قلت لثريا... هذه مجازفة كبيرة. يمكن أن يكون هناك مظاهر حزن مثل ما حدث لناصر. لن نتمكن من السير بالسيارة...".

مثل ١٩٧٠؟ سوف يدهشنى ذلك جدا. لا توجد أى وحدة قياس بين عبد الناصر وذلك الذى تجندل توا.... أشك بقوة أن يبكى الشعب اختفاء رجل خيب آماله وصدمه بعمق بمسلكه.

اتصلت إذن بسامية خلف الله(٢١). كنت قد قابلتها فى مكتب مدير سجن طرة... ولما عرفت أننا جيران اقترحت أن نقوم بهذا المشوار الطويل معًا. شعرها مغطى دائما بمنديل وهى معتزة بمهام وظيفتها بوصفها وكيل وزارة بوزارة التربية والتعليم، وسامية دائما ودودة وهادئة وتعتبر مخالطتها فى هذه الفترة العصيبة شيئًا لطيفًا.

ألن تذهبى مع عائلة زوجك؟ غير معقول! تضحك سامية "مثل بعد موت عبد الناصر؟ بالطبع لا. ما يبدو لى أقل تأكيداً، هو التصريح برؤيتهم... ربنا يستر!" تتنهد وتستطرد: "على أى الأحوال لا بد أن نحاول. غداً فى الثامنة...".

ليلة سيئة. استيقظت مبكرًا، أخذت إفطارى وأنا أستمع إلى البى بى سى. جاء على، مبتسمًا يؤكد أن كل شىء هادئ. ويحكى أنه فى الحى لديهم، الناس تستمع إلى الراديو على أمل معرفة أسماء أولئك الذين "كان لديهم الشجاعة" لقتل السادات!

---

(٢١) أستاذة لامعة للأدب العربى فى الجامعة.

في هذا الصباح، كل شيء طبيعي في الشارع وعلى كوبري الجامعة؛ قليل من الناس كالمعتاد في اليوم الأول للعيد. ولكي نصل إلى الطريق الذي يؤدي من المعادي إلى طرة، سرنا في حي شعبي. يدهشنا الهدوء غير المبالي الذي يحيط بنا. لا يمكن أن يتكهن أحد في هذا الجو أن رئيس الجمهورية قد قتل أمس. عدم مبالاة الناس تامة.

توقف سامية سيارتها أمام فرشة جرائد. ينظر أربعة أشخاص بهدوء إلى المانشتات السوداء التي تحيط بصور المتوفى. أنزل من السيارة وأقترب من البائع الجالس على الأرض... أمام الفرشة. أطلب منه نسختين من كل جرائد الصباح ومجلات الأسبوع. وضع الرجل الجرائد فوق بعضها، وقال لي إنه لا توجد لديه ولا نسخة من الأهرام. أصر. وبهيئة يائسة أنحني نحوه، وأسر له بصوت منخفض إن زوج صديقتي وزوجي مسجونان سياسيان، وإن لدينا تصريحاً بزيارتهما بمناسبة الأعياد وكذلك بأن نعطيهم الجرائد. البائع الذي استمع إلي باهتمام، ينحني وبدون كلمة، قام ممسكاً في يده نسخة من الأهرام يزحلقها بين الجرائد الأخرى. وكان قد رد توا على أحد الزبائن أنه لم يعد لديه!

وجالسة على يمين سامية التي تقود، ألقي نظرة على الصفحات الأولى من الجرائد. الصور في الصحف، كم هي عنيفة، هي الدليل الوحيد لهذه الوفاة. صور السادات، رافعاً وجهه للسماء حيث تتحرك "طائراته". كل الشخصيات الرسمية التي تحيط به ينظرون إلى السماء. صورة أخرى للمنصة تظهر الكراسي المقلوبة. وأرى من

خلال غيمة من الدخان، هيئة موجِهة السلاح نحو المنصة، نحو الذى كان قد سبق سقوطه. وعلى الأرض ملقى جزء من جسد فى لباس عسكرى...

هذا الصباح، بجوار العامود المكتوب عليه اسم طرة زود عدد الضباط والعساكر بضابطين من المباحث بملابس مدنية وخمسة جنود. يحيطون بنا، الأقرب لنا يردون بأدب على تحيتنا ويضيفون أن الزيارات ممنوعة.

نناقشهم ونصِر لدرجة أنهم يدعونا نمر مبتسمين هازين أكتافهم. وقلبى يدق بالأمل نصل إلى الحاجز الثانى. يأمرنا بالتوقف رجال كثيرون بملابس البوليس واثنان من المباحث. فى اللحظة نفسها تتراجع نحو الخلف سيارة شفروليه رمادية ركابها كثيرون يتوجهون بنظراتهم نحونا.

علامة سيئة، ولكننا ندافع عن قضيتنا مرة أخرى.

"ممنوع الدخول" قال أحد العساكر، وهو ينحنى نحو سامية.

"ألغيت الزيارات" قال الآخر. حتى إن الجرائد أعلنت ذلك. ونصر كمسألة شكلية. نقدم لهم التصريحات الموقعة من المدعى الاشتراكى بنفسه. هزوا رؤوسهم، وقالوا: لا، مبتسمين. وفى نهاية اليأس طلبنا مقابلة المدير العام.

"هل هو غائب هذا الصباح؟ نسأل مدعين البراءة.

بسبب الأحداث عقب أحد العساكر وهو يبتسم.

"الأحداث؟" قالت سامية. "آه! ما حدث أمس؟ لا أرى فيما يخصنا هذا. ما هو دخل ذلك فى حقنا فى رؤية أزواجنا.." مستسلمين نعود أدراجنا. نقاشنا مع العسكر تم فى لهجة محادثة اجتماعية. كانوا مهذبين ولطافًا. لم يبدُ على أحدهم أنه متأثر أو مصدوم من إصرارنا.

وفى حالة من اليأس العميق، نكرر المحاولة مع المدعى الاشتراكى. المدعى قريب بعيد لإسماعيل، وتعرفه سامية جيداً. منظر كوردون البوليس المؤثر هو الدليل الملموس لتطبيق حالة الطوارئ. طبعا فخامته لم يأتِ هذا الصباح. رجال البوليس أمام الباب المفتوح، يشربون أكواب الشاى وهم يثرثرون بمرح. نتناقش مرة أخرى، حينما ظهر موظف المدعى. يتعرف علينا ويتقدم منا، مبتسماً، ومسترخيًا. ليس لديه أى فكرة عن موعد وصول رئيسه ولا متى سوف يسمح بالزيارة.

لا بد أن نعيد كل شىء من جديد! الوساطات والطلبات وننتظر من جديد! إلى متى؟ غالبًا ليس قبل الجنازة... بعد الأعياد التى تستمر أربعة أيام!

من هم أولئك الذين حملوا أنفسهم تحقيق أمانى شعب بالكامل؟

إنه فى اليوم التالى فقط فى التاسعة مساء الذى تمكن المصريون من رؤية المشهد الأخير الذى قام به الرئيس.

السادات جالس وسط الشخصيات المهمة فى النظام. صوت أزيز الطائرات يجعلهم يرفعون رأسهم.

المشهد الثانى: يتم بسرعة مذهلة. العرض مستمر. على بعد ٢٠ متراً من المنصة، تتوقف عربة مصفحة. فرقعات ودخان، يظهر من خلالها ثلاث هيئات، السلاح فى أيديهم، ينزلون من السيارة ويقفزون على الأرض ويتوجهون وهم يجرون نحو المتفرجين، نحو المشهد الثالث: المنصة. المتفرجون اختفوا.

لا نرى سوى أرجل كراسٍ مقلوبة. على الأرض مصابون ودماء. تتمهل العدسة لمدة ثانية على جسم طويل فى ملابس رسمية زرقاء، ممدد على بطنه، مثل عرائس بدون مفاصل...

الباقى من الرجل الذى تحكم فى مصيرنا لمدة أحد عشر عاماً!.

المشهد الأخير؛ هيئات تجرى، سيارتا إسعاف، وسيارة البوليس العسكرى التى بدأت أخيراً فى التحرك. يُثبت جنديان المعتدين ويدفعان بهم إلى سيارة البوليس. هيئة جنود يجرون، شكل يبدو جسماً بلا حراك وفى خلفية الصورة نلمح جزءاً من طائرة هليكوبتر.

أسدل الستار على موت الفرعون.

أعيد قراءة ما كتبته بعد رؤيتى للفيلم الإنجليزى "مصر بعد موت السادات"

"Egypt after the death of Sadate"

كل ما أثاره فىَّ من ذكريات وانطباعات. تلك السابقة لموته وتلك التى استشعرتها وأنا أقرأ فى الصحف عرض محاكمة المتهمين.

.... لقد لعب دوره فى مشهده الأخير على المسرح مرتدياً زيا مستوحى من اليونيفورم النازى. متصدراً المنصة بين مئات من الضيوف الذين كانوا يشاهدون معه العرض الكبير للقوات المسلحة. النجم المثير للسخرية الذى كانت الكاميرات تصور آخر أداءاته. هل يوجد ديكور أفضل من هذا لأداء النهاية (الفينالة) المأسوية التى تنتمى إلى مسرح التهريج؟ وأى تاريخ كان سوف يختاره أفضل من ٦ أكتوبر؟

من الصحف والتليفزيون التى كنت أتابعها يوميا، عرفت أن القائمين بالاغتيال أربعة فقط! أربعة مصريون تتراوح أعمارهم ما بين العشرين والخامسة والعشرين عامًا، أبناء حقيقيون للوطن ولم توجههم أى يد أجنبية. ملازم احتياط وملازم ومدنيان متنكران فى الملابس العسكرية.

السيارة المصفحة لم تتعطل؛ أنذر أحد المهاجمين الأربع السائق وهدده بالسلاح حتى يتوقف.

وفوراً، قام قناص ماهر آخر بإطلاق الرصاص على الرئيس من عين السيارة المصفحة. ثم قفز على الأرض مع زملائه الذين كانوا يلقون فى الوقت نفسه قنابل الدخان.

وفى حماية الدخان، جروا نحو المنصة التى كان يسودها أكبر قدر من الفوضى. ويرغم إصابته من الطلقة الأولى التى أصابته فى العنق؛ فإن السادات كان يقف منتصبًا. خالد الإسلامبولى المتهم الأول صرخ فى وزير الحربية، الجالس على يسار الرئيس: "ابتعد! إن هذا الكلب هو من أريد قتله!... وسرعان ما أفرغ سلاحه فى الجسد الكبير، الذى كان يتذبذب قبل أن ينهار. كان قد صوب سلاحه من أول الرأس حتى القدمين ليكون متأكدًا أنه لن يخطؤه.

لم يفكر أىّ من الشباب الانتحارى الأربع فى الفرار. لقد اختاروا بكامل إرادتهم طريق الشهادة.

مثل خالد الإسلامبولى ورفاقه أمام قضاء عسكرى؛ وسوف يواجهون عقوبة الإعدام. وأمام قاعة مكتظة فرض السلوك الأبى للمتهمين الأربع وشجاعتهم الهادئة احترام، بل وإعجاب، كل الحضور.

لقد ردوا المحكمة العسكرية وأعلنوا أن الله هو الحكم الوحيد لفعلهم. وعلى سؤال "مذنب أم غير مذنب"، رد خالد الإسلامبولى: "قتلت السادات ولكننى غير مذنب...".

-٦-

فى الأيام الأولى من شهر ديسمبر، فُتحت أبواب السجون للمسجونين السياسيين. والتقى إسماعيل صبرى عبد الله وجلبيرى أفلاطون من جديد. وهم يتابعون طريقهم، يدًا فى يد، فى السراء والضراء.

وكثيرًا، وهما متكئان على درابزين البلكونة ينظران إلى مياه النيل وهى تجرى لكى تغرق فى البحر.

هذا النهر العظيم الذى يحتفظ فى قاعه بالتاريخ المهيب لماضيه الألفى.

المؤلفة فى سطور:

جلبيرى أفلاطون - عبد الله

- كاتبة مصرية تكتب بالفرنسية.
- تفاعلت بقوة مع الأحداث التاريخية التى عاشتها مصر فى القرن العشرين جنباً إلى جنب مع زوجها المفكر والسياسى المعروف إسماعيل صبرى عبد الله.
- نشر لها ديوان شعر باللغة الفرنسية تحت عنوان "أحجار على الطريق"، وصدرت عن دار نشر سيجرس الفرنسية.
- كتبت قصصاً ومقالات متنوعة فى الصحافة الفرنسية والفرانكفونية.

المترجمات فى سطور:

١ - سهير فهمى

كاتبة صحفية وناقدة. لها كتابات كثيرة باللغة الفرنسية واللغة العربية وترجمات متعددة منها: قصص للأطفال؛ و"مورفولجيا الحكاية" لفلاديمير بروب من الفرنسية، "ولا أحد ينام فى الإسكندرية" و"الخرز الملون" لمحمد سلماوى (قيد الطبع)، و"الحب فى المنفى" لبهاء طاهر، و"سفينة نوح" لخالد الخميسى.

٢ - نجاة بلحاتم

صحفية بجريدة الأهرام إبدو ورئيس الدسك المركزى ومترجمة من الفرنسية إلى العربية ومن العربية إلى الفرنسية.

مما ترجمت كتاب، "المرايا" لنجيب محفوظ إلى الفرنسية الذى صدر فى ٢٠٠٢ لدار نشر ديكلى دى براور

Naguib Mahfouz, Miroirs, Declée de Brouwer 2002

٣ - ماجدة الريدى

- أخصائية نفسية إكلينيكية ومترجمة.

- تترجم من اللغة الفرنسية ومن اللغة الإنجليزية إلى العربية والعكس.

- من ترجماتها: ترجمات قانونية لأفرع القانون المختلفة من سنة ١٩٧٨-١٩٨٠ من الفرنسية إلى العربية، ترجمة جغرافية وجيولوجية وقانونية مع دار المستقبل سنة ١٩٨٤ من الفرنسية والإنجليزية إلى العربية، ترجمة موضوعات سياسية من العربية إلى الفرنسية للسفارة الفرنسية من ١٩٨٦-١٩٩٠، دائرة معارف: جامعة كل المعارف المنشورة ضمن مشروع بين المجلس الأعلى للثقافة والسفارة الفرنسية ٢٠٠٥، ترجمة رواية "لعبة خطيرة" لمؤسسة دار إلياس سنة ٢٠٠٧.

التصحيح اللغوى: رجب عبد الوهاب
الإشـــراف الفنـــى: حـــســـن كـــامـــل

من هى جلبيرى أفلاطون مؤلفة هذه السيرة الذاتية الجميلة والموجعة؟

بالنسبة لمن لم يكن قد عرفها جيدا، فهى مجرد أخت الفنانة التشكيلية الكبيرة إنجى أفلاطون وزوج المناضل والاقتصادى المعروف إسماعيل صبرى عبد الله. ولم يعرف إلا أصدقاؤها الحميمون أنها كانت تكتب بالفرنسية، وقد نشر لها نصان فى فرنسا: قصة قصيرة بعنوان "21 فبراير" فى مجلة الآداب الفرنسية، وديوان شعر - "حجر على الطريق" فى 1955.

تروى هذه السيرة الذاتية جميع التفاصيل الشخصية، لكنها فى الأساس كتابة فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة، وتؤكد مقولة شائعة فى النقد الأدبى المعاصر: أن النص الأدبى يقول ما لايقوله التاريخ؛ إذ يروى قصة من صنعوا التاريخ، ومن عانوا منه، ومن تحدثوا عنه فى الشارع أو فى المنازل والملتقيات.

الشكر للمترجمات الثلاث الماهرات؛ سهير فهمى وماجدة الريدى ونجاة بلحاتم اللائى فهمن أن هذا الكتاب المكتوب فى الأصل بالفرنسية، إنما يتحدث بالعربية عن حب مصر.

تصميم الغلاف: عصام عبد الرحمن